عبد القادر الجزائري



ترجمة: ميشيل خوري

تأليف:

برونو إتيين

الأمير عبد القادر الجزائري

* الأمير عبد القادر الجزائري
* برونو إتيين
* ترجمة: المهندس ميشيل خوري
* الطبعة الأولى ١٩٩٧

* الناشر: **دار عطيـــة للنشـــر**
لبنان ـ بيروت ـ اوتستراد سليم سلام ـ بناية أسواق الروشة الشعبية ـ ط٣
هاتف: ٠١٦٥٩١٤٨ ـ فاكس: ٠١٦٥٩١٥٠ ـ ص.ب: ١١٣ ـ ٥٧ ـ ٥٢
سورية ـ دمشق ـ هاتف: ٤٤٥٧٥٣٢ ـ ص.ب: ٢١٤٩

برونو إتيين

الأمير عبد القادر الجزائري

ترجمة: المهندس ميشيل خوري

دار عطية للنشر

العنوان بالفرنسية ABDEL KADER

BRUNO ETIENNE

نشر: HACHETTE

طبعة: شباط ١٩٩٥

ثبت المواد

II ـ الجهاد: إعلان الحرب المقدسة

نيسان ١٨٣٢: سنة الجراد

٣ و ٤ أيار ١٨٣٢

٢١ تشرين ثاني: المبايعة

الجهاد

III ـ بناء الدولة والعاصمة (١٨٣٢ ــ ١٨٣٨)

في الحركية

الاستراتيجية

تَكْدُمت

IV ـ المهادنات (١٨٣٤ ــ ١٨٣٩)

٢٦ شباط ـ فبراير ١٨٣٤: معاهدة دي ميشيل. وظهرت الكوليرا فلم تستثن أحداً.

الاختبار

تلمسان

بوجو

١٨٣٧: معاهدة تفنا

العام ١٢٥٣ هـ/٣١ أيار ـ مايو ١٨٣٧

السنة الرهيبة: ١٢٥٤ هـ/١٨٣٩

١٨٣٩ القبائل، وأشجار كرز، إيشردين

V ـ النقض الغادر في العام ١٨٣٩: من العاصمة الثابتة إلى زمالة، عبر حرب العصابات.

رمضان ١٢٥٥ هـ/١٨٤٠

حرب العصابات

الزمالة: زاوية بدوية

مولى الساعة

واجب الهجرة

كانت تمطر بغزارة يوم ٢١ كانون أوّل - ديسمبر ١٨٤٧

القسم الثالث: الهجرة أو المنافي

آخر بني المور

محطة الوقوف الخامسة. المنفى الثاني: العودة إلى الشرق

I - **المنفى الأوّل: التجوّل في فرنسة المور: من النفي في فرنسة إلى الكتمان**

محطة الوقوف الأولى: طولون، كانون الثاني - يناير ١٨٤٨ القنوط التجوّل في فرنسة المور

محطة الوقوف الثانية: بو ١٨٤٨: التجربة.

التجوّل في فرنسة المور: تابع.

محطة الوقوف الثالثة: آمبواز من ٨ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٤٩ إلى ١١ كانون أول - ديسمبر ١٨٥٢: ابراهيم الصديق الحميم.

ابن أخ المصري.

محطة الوقوف الرابعة: باريس، تشرين أوّل - اوكتوبر ١٨٥٢

الانتصار الدنيوي

نهاية التجوّل في فرنسة المور

II - **العودة إلى دار الإسلام**

محطة الوقوف الخامسة: بروسة ١٨٥٣ - ١٨٥٥

III - **بلاد الشام:**

وثيقة ١٠: رأي عبد القادر في موضوع الزواج والطلاق

وثيقة ١٢: ملحق محضر جلسة ٣١ تموز ١٨٨٤ في مجلس أعيان فرنسة لمنح أسرة الأمير عبد القادر معاشاً تقاعدياً.

وثيقة ١٣: رسالة عبد القادر إلى دوماس بتاريخ ٨ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٥١ وهي تتضمن رأيه في الخيول العربية.

تأريخ

تأريخ متسلسل لأهم الأحداث في فرنسة وأوروبة ثم المغرب والسلطنة العثمانية من ولادة عبد القادر في ١٨٠٧ حتى وفاته ٢٦ أيار - مايو ١٨٨٣

ثبت المواد

مقدمة المؤلف للطبعة العربية

أرسلت إلى دار عطية للنشر بتاريخ ١٩٩٧/٧/١٥

تدعونا حياة الأمير عبد القادر وأعماله، أكثر من أي شيء آخر، إلى كتابة تأويلية عنها أكثر منها إلى كتابة سيرة حياة، أي أن الأمر يقتضي فهم الكاتب أكثر من فهمه لنفسه؛ وهذا يتطلّب صياغة مجدّدة لمراحل تكوّن أعماله. وتعود الصعوبة الخاصة لتتبّع حياة الأمير عبد القادر إلى احتجاب شخصيته الحقيقية وراء الأسطورة الوطنية الجزائرية؛ بينما كانت حياته الفعليّة كلّها نوعاً من السرّ الروحي حتى وهو يمارس دوره في تسيير الشؤون العامة؛ فهو في صميمه كأنه غائب عن العالم، وهذا ما كان ماكس نيبير يدعوه النموذج ـ المثالي للبراعة الدينية: أن تكون في صميم الحياة الاجتماعية وأنت خارج عنها.

هو عبد القادر بن محيي الدين الحَسَني الجزائري المشهور بلقبه المنطوق بالفرنسية «الأمير عبد القادر». تُوفيَ في دمشق بتاريخ ٢٦ أيار ـ مارس ١٨٨٣، وكانت ولادته العام ١٨٠٧ أو ١٨٠٨ في سهل مَسكرَا من المنطقة الوهرانية؛ من الأعراف الإسلامية أن الله في تسامحه اللامتناهي، يرسل في كل قرن من الزمان، رجلاً قديساً وعالماً ـ وهما في الإسلام صنوان ـ ليقوّم ميول الناس وأهواءهم التي تبعدهم عن السنّة المحمدية، وتجعلهم يغرقون في متاهة الجاهلية، صفة العالم الذي لا روح فيه. ولا أشكّ في أنّ هذا الرجل المرسل للقرن التاسع عشر هو الأمير عبد القادر. وتتّضح المفارقة في حياة هذا الرجل العظيم، الذي كان في آن واحد، قديساً، وعالماً، وشاعراً وبطلاً، فضلاً عن صفاته المشهورة عسكرياً، ورجل دولة، في أن كلاً من هذه الميزات البارزة في مراحل حياته، كانت من الغنى بما يكفي أولئك الذين يرغبون بتقدير هذا المظهر من حياته والإشادة به دون المظاهر الأخرى. والوطنيون الجزائريون، مثلاً، يكتفون بنشاطه السياسي؛ بينما يهتم المتصوّفون أو المسلمون الورعون بدراسة مؤلفاته الباطنية وتعاليمه الصوفية وسلوكه كمؤمن وأمير في آن معاً... وكأن كلاً من هذه الفعاليات يمكن أن تكون غريبة عن الأخرى. وأكثر من ذلك فقد اعتبر الفرنسيون عبد القادر بطلاً شعبياً تظهر صوره في مجموعات إبينال المخلّدة للأبطال الذين تعتز بهم فرنسه التي فخرت به وبنبله، خاصة بعد أن قهرته عسكرياً، وجرّبت دون جدوى، أن أن

تدفع به للانسياق في مشاريع إمبريالية رفضها دون أن يحنث بيمين الإخلاص الذي أقسمه لها.

يظهر هذا الالتباس بسهولة في المؤلفات التي كُتبت عنه سواء باللغة الفرنسية أو اللغة العربية أو بغيرهما، ممّا يمكن من القيام بدراسة مضاعفة عن عبد القادر: دراسته كأمير وقائد ثورة معروف نسبياً ثم دراسته كإنسان له حياته الخاصة التي يجب أن تفهم وفق مقولات المبدأ الذي وطّده الإسلام الصوفي، وساهم عبد القادر نفسه في تطويره وهو مبدأ الباطنية. ويمكن الكشف عن وجود هذين المظهرين في شخصية عبد القادر عبر النتاج الشعري والنتاج الديني للأمير.

لايتطرق الشك أبداً في نشاط الأمير الثقافي، فقد اكتشف أعداءه ومناهضوه في مرحلة المقاومة في الجزائر (١٨٣٢ - ١٨٤٧) أهمية ثقافة عبد القادر الفلسفية والدينية من حرصه المستمر على أن يحمل معه، أيّاً كانت الظروف مكتبةً؛ نهبها وبعثر محتوياتها المعسكر الاستعماري؛ وقد صمّم عاصمته المتنقّلة «زَمَالة» وفق مخطّط معماري مثمّن الشكل، استمدّه من القاعدة المثمّنة التي يقوم عليها مسجد الصخرة في القُدس، وكانت هذه العاصمة، رغم كونها مؤلفة من خيام متنقلة بدوية، مجهّزة بمكتبته يزيدها الأمير غنى باكتشافاته ومشترياته من الكتب بحيث تضمّنت كل المؤلّفات الكلاسيكية الدينية والفقهية والفلسفية، وحتى توراة محفوظة اليوم في متحف بورج غير أن نتاجه الديني أقل شهرة وانتشاراً بالرغم من أن مؤلفه «كتاب المواقف» قد نشر عدة مرات باللغة العربية (وهو في ١٢٠٠ صفحة وسطياً)، كما قام ميشيل شودكويتز (M. Chodkiewicz) بإصدار ترجمة مميزة له إلى الفرنسية، إنّما هي مع الأسف جزئية جداً، في رأيي.

يرى شودوكويتز في دراسة له، وأنا أشاطره الرأي تماماً، أن الأمير عبد القادر هو الوريث الشرعي للمتصوف الكبير ابن العربي، وقد ساهم في نهضة أكثر أهميّة - لكنها أقل ضجيجاً - لكنها لاتقارن بالنهضة الإسلامية الحديثة التي تجلّ عن الوصف.

لاتحتوي ترجمة شودكوتيز إلا على جزء بسيط من أعمال الأمير المعروفة، وهي أعمال انتقائية إلى حد بعيد، حيث نجد فيها بحثاً عن الخيول العربيّة، وسلسلة من الدروس الأخلاقية، بعضها موجّه إلى الغربيين، وعلى سبيل المثال «رسالة إلى

الفرنسيين»، أعدّ الأمير، خلال فترة أسره في مدينة أمبواز في فرنسة بمساعدة ابن حميّة بن التُهامي، نوعاً من السيرة الذاتية، يوجد فيها بداية حوار بين المسيحية والإسلام.

كل هذا لايعدّ شيئاً بالمقارنة مع تجربته الغنيّة في التعليم، إلا أننا مع الأسف لانملك إلا آثاراً مبعثرة منها في مؤلَف لأحد أولاده، ومؤلّفات أكثر أهمية لبعض تلاميذه (العايش، والطنطاوي، والطرابلسي، والقمشقناوي) وهم من ساهموا في الحركة الفكرية في سورية ومصر، ويعتبرهم بعض المؤرخين من مؤسّسي حركة النهضة العربية.

كان الأمير عبد القادر عضواً في مجلس مدينة دمشق ويخالط فيها كلّ نخبة المنطقة المثقفية الذين يستقبلهم في صالوناته، وكان على صلة مع العائلة الكبرى، كعائلة العظم، وقد ساهم مع هذه العائلات في آن واحد، في التطوير التكنولوجي للمنطقة (تمويل طريق دمشق ـ بيروت) وكذلك في المناقشات الكبرى التي كانت تهز السلطنة العثمانية السائرة إلى الانهيار بدءاً من «خطي الهمايون الصادر عام ١٨٥٦ وحتى الثورة العربية».

درّس الأمير عبد القادر التصوّف، والتاريخ وعلوم الدين، على مدى أكثر من عشرين عاماً، وفي كل يوم من أيام إقامته في دمشق، وذلك إمّا في بيته، صباحاً باكراً جداً، لحلقة صغيرة من المبتدئين والمقرّبين الذين كان يشرح لهم «الفتوحات المكية» التي عمل على نسخها عن مخطوطة منقولة عن الأصل في قونيةخ وإمّا بعد الظهر، في إحدى تكيّات دمشق أو زواياها، حيث يشرح القرآن والحديث للتلاميذ المتقدّمين في العلم. أخيراً كان يعطي دروساً يوميّة بين صلاتي العصر والمغرب، وأحياناً بين المغرب والعشاء لمن يريد سماعه. ويدفعنا هذا إلى القول بأن ما ينقصنا لفهم شخصية الأمير يزيد على آلاف الساعات من الدروس التي كان يسخو بها في الفترة الأكثر خصباً من حياته أي بين عام ١٨٥٥ وعام ١٨٨٣، رغم أننا نجد بعض الدروس في مؤلّفه: «كتاب المواقف» وهو كتاب مواقف وأحوال وحالات ووقوفات.

كان يُشهد للأمير منذ مطلع شبابه، بالعلم والقداسة، فقد ولد في بيئة متديّنة إلى حدّ بعيد، وتلقّى العلم من أبيه ـ فكانت تربيته له مصادفة رائعة جنّبته دون شك، علاقات معقّدة جداً على المستوى النفسي مع هذا الوالد الموجّه المقدّر له بحق أن يحمل اسم محيي الدين ـ ولم تقتصر علومه على أن تجعل من ولده مسلماً ورعاً،

ورجل فقد ودين؛ بل أهله رائداً في الطريقة القادريّة التي تلقّاها عنه خلال رحلاتهما المشتركة إلى الشرق؛ وهي طريقة تجاوزها الأمير فيما بعد عند تحقيق مسيرته الصوفيّة الخاصّة.

راح الأمير يحقّق أثناء نفيه في شخصه صورة الإنسان الكامل، في زهده ووجده، ورفضه الدنيويات دون رفض الدنيا والعالم؛ إنّما احتجبت قداسته خلف قدره الساطع كأكير وقائد ثورة، لكن أولئك الذين يعرفون كيف يقرؤون أعماله الرائدة فقد جعلهم الأمير عبد القادر يرون فيه، دون شكّ، عبر «السيّاف النبيل» أحد اكبر متصوفة الإسلام بعد معلمه ابن عربي. وإذا كان عبر منفاه قد اختار دمشق في العام ١٨٥٥، فليكون أكثر قرباً من أكبر شيوخ التصوّف، والبيت الذي سكنه هو البيت نفسه الذي توفي فيه الشيخ الأندلسي قبل ستمئة سنة، ومات فيه عبد القادر عن عمر ٧٦ عاماً في ليلة ١٩/١٨ من شهر رجب عام ١٣٠٠ هـ؛ ودفن بجوار قبر ابن عربي إلى أن رأت السلطات الجزائرية ضرورة نقل رفاته إلى الجزائر العاصمة، العام ١٩٦٦ فالجمهورية الجزائرية الفتيّة كانت دون شك بحاجة إلى هذا الرمز الوطني.

ما من دلالة تتيح تأريخاً دقيقاً لارتباط عبد القادر بسلسلة ابن عربي وخطّه المساري، لكن شودوكوتير يؤكّد عن صواب، أن عبد القادر غدا منذ رحلته الأولى إلى الشرق من أتباع أكبر علماء الدين في ذلك العصر وهو الشيخ خالد النقشبندي، وكرّر الأمير حجّته، وتتوافق كل الشهادات على ممارسته، دون انقطاع، المنهج التقشفي النسكي، والانعزال والخلوة، والجهاد الروحي الأكبر، وفي غار حراء حيث تلقى رسول الله ﷺ أولى سور التنزيل، وصل عبد القادر إلى الدرجة القوصى من الإشراق، أثناء إقامته في الأماكن المقدسة العام ١٨٦٣.

يتميز المسار الروحاني الذي اتبعه الأمير بتفقهه في ثلاثة طرائق على الأقلّ:

القادريّة في الجزائر بالطبع، إنّما أيضاً فيما بعد النقشبندية والشاذلية، وهكذا فقد اكتسب خلال حياته معرفة عميقة بمختلف تيارات التصوّف الإسلامي، وبنى تجربته الخاصة على تمكّن عميق في فهم الباطنية؛ وهذه التجربة التي عرفت عبر تاريخ التقاليد الإسلامية، كانت مع ذلك قليلة الشيوع، وخاصة في القرن التاسع عشر، فضلاً عن أن الإرشاد الروحي للأمير كان يتمّ جزئياً من قبل روّاد طرائق أحياء، كأبيه ثم شيخ النقشبندية. وقد سبقه شيخه الحقيقية ابن عربي في هذا المنهج بعدة قرون، وكان الأمير

عبد القادر يسير على خطاه في نزعته الفلسفية الدينية الهادفة إلى إدراك كنه الأسرار الربّانية.

تبدو لي بعض مقولات الأمير غير مقبولة من قبل الإسلام التقليدي، فهو يؤكّد على أن المخلوقات هي تجليّات الله، وهذا يعني بشكل أو بآخر أن الله بحاجة إلى خلقه ليظهر صفاته؛ ومن ناحية أخرى فإن المسلمين التقليديين، وكذلك الوطنيين الجزائريين يشكّكون في هذه الحياة الصوفيّة السريّة التي تنتشر

في الإسرم، ويفضلون اهتمامهم في تصاعد تيار «أهل الفكر والثقافة» العرب المعاصرين الأكثر انحيازاً إلى الغرب مما يتوقعون. أما جيل الإحياء الديني العاجز فيغرق في إيديولوجية إسلامية، ليس من المتيسّر دائماً معرفة مضامين النهضة التي تعبّر عنها.

إن ما يذهلني في حياة هذا الرجل المتميزة أنه كان برزخ البرازخ فهو في دعوته إلى شقّ قناة السويس يُعَدُّ جسراً بين الشرق والحداثة، وهو في تعاليمه وشخصيته القدوة يبيّن أن الشرق هو خطّ الشاقول المتجذر بين الأرض والسماء مايذهلني إذاً في حياة هذا الرجل الجسر هو أنه لم يكن ذلك الصوفي الغريب المنقطع عن العالم، بل بالعكس كان مقبلاً عليه ومع تطبيقه أحكام القرآن الكريم بشكل دقيق لأن الله «يَعلمُ ما يلجُ في الأرض ومايُخرجُ منها، ومايتزل من السماء وما يعرجُ فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعلمون بصير» (سورة الحديد ٥٧، ٤)

الإنسان الكامل لايهرب من واقعه، ويمكن للخلوة والانعزال أن يتما في الساحات العامة ووسط الجماهير. الإنسان الكامل يوحّد الحقائق الدنيا والحقائق العليا في قداسة يحجبها في شخصه القدر الساطع، وقد أدرك الأمير عبد القادر في خضم آلامه في المنفى أن السياسة تضيق المدى الكوني أما القداسة فهي بالعكس تزيده سعةً وبراحاً.

نحن نعرف الخلافات التي وُجدت في كلّ الأزمنة بين الفقهاء المسلمين والصوفيين والنظرية التي طوّرها هؤلاء المتعلّقة بالتمييز الواجب إجراؤه بين الشريعة والحقيقة. وأحد مواضيع الخلاف يتعلّق بشكل خاص بموقف الإسلام من الديانتين اليهودية والمسيحية؛ ومن الضروري التعرض لموقف الأمير عبد القادر من هاتين الديانتين السماويتين، بل ومن عبادة الأصنام والوثنية؛ وهو المعبّر عن ذلك الموقف شعراً:

أقول أنا وهل هنا غير من أنا — فما زلت في أنا ولوهاً وحيرانا
ففي أنا كلُّ مايؤمله الورى — فمن شاء قرآناً ومن شاء فرقانا

ومن شاء توراة ومن شاء إنجيلا ومن شاء مزماراً زبوراً وتبيانا
ومن شاء مسجداً يناجي فيه ربّه ومن شاء بيعةً ناقوساً وصلبانا
ومن شاء كعبة يقبل ركنها ومن شاء أصناماً، ومن شاء أوثانا
ومن شاء خلوة يكنُّ بها خالياً ومن شاء حانة يغازل غزلانا
ففي أنا ما قد كان أو هو كائن لقد صحّ عندنا دليلاً وبرهانا

وكتب عبد القادر هذه الكلمات التي يخص بها المسيحية بالتحديد: «آه لو كانوا قد استمعوا، آه لو وجدوا لي ذلك الراغب في معرفة الطريق... لو استمع إليّ المسلمون والمسيحيون لكنت قد قضيت على تناحرهم، ولجعلت منهم أخوة في الخارج والداخل».

تجدر الإشارة إلى أن هذا الحب للمسيحية الذي دعا إليه الأمير بشكل خاص ينسجم انسجاماً تاماً مع عاطفة المحبة القويّة التي ينّميها المتصوف لكل ما في الوجود: الكون، والإنسان، والحيوانات، والنباتات. وكان الأمير يعتقد أنَّ تسمية الناس للكائن لايمكن أن تغير أبداً من جوهره؛ وبهذا المفهوم انصرف بعد أن خاض جهاده الأصغر ضد الغزاة ناكثي العهود إلى أن يتكرس بكليته إلى الجهاد الأكبر، الذي يجعل من الإنسان الكامل بدءاً من معرفته لنفسه، شجرة جذورها راسخة في الأرض، وفروعها تطال السماء؛ لأنه وفقاً للتفويض الإلهي يوحّد في شخصه الحقائق العليا والدنيا.

برونو أتيين

عبد القادر
(برزخ البرازخ)

على الغلاف:

آ ـ صورة لعبد القادر هي نسخة عن لوحة رُسِمَتْ له في حصن لامالغ LAMALGUE في طولون.

ب ـ رسالة شكر بالعربية وبخط عبد القادر على السيف الذي تلقاه من نابوليون الثالث في العام ١٨٥٣ ورد فيها:

«الحمد لله وحده.

بتاريخ هذا اليوم تلقيت سيف تكريم أرسله لنا تفكرة محبة سعادة السلطان نابوليون الثالث أدام الله نصره. وهذا السيف لامثيل له في الدنيا وغمده من ذهب ومطعم بالأحجار الكريمة.

رسالة مخطوطة في ٢٥ شباط ١٨٥٣»

الربانيون وحدهم يؤمنون بما هو رباني

فردريك هولدرلن[1]

1 ـ شاعر ألماني (١٧٧٠ ـ ١٨٤٣): كان له تأثير كبير على الشعر الحديث.

مَدخل

أيار ـ مايو ١٨٨٣، دمشق.

الغروب يسكب ألواناً زاهية على باحة المسجد الأموي الواسعة. ووحده الحفيف المتطفل للعديد من الحمائم المعششة في النواتئ يعكر صفو السكون في هذا المكان الوقور وانسجامه.

بساطة هندسية، وتوجّه.

وعبد القادر يجلس في زاويته المفضلة على السجّاد الذي يفرش أرض المسجد، مستنداً إلى الحوض الصغير الجميل، ذي الحجر الوردي، وقد أنهى للتوّ درسه؛ ولم يلاحظ التلاميذ، حتى من كان منهم في الصفّ الأوّل إلّا زفرات التنفس الصادرة عن الجسم المترنح. فالمعروف أن الأمير تعوّد أن يرجّح جذعه قليلاً وهو يشرح فكرته، بينما يسجل المستمعون الجالسون حوله في هذا السكون الملائم أملياته دون أن يرفعوا رؤوسهم. لكن في هذه المرّة، أحسّ العايش، صديقه الأثير، أن شيئاً ما قد حدث؛ فمعلمه الجليل يسعل منذ بدء هذا الشتاء القاسي الذي اضطر فيه الأمير أن يعود من المزرعة والثلج يتساقط؛ رغم أنه الآن قد تجاوز السبعين من العمر.

تفرّق التلاميذ، وأذان صلاة المغرب يعلو، وتجمع العديد من المؤمنين بخطوات صامتة، مولين وجوههم نحو القبلة ـ اتجاه مكة المكرّمة.

ساعد العايش معلمه في النهوض وأسنده من تحت إبطه ليصحبه إلى منزله عبر الشوارع الفاترة، وأصحاب الحوانيت يحيّون بإجلال الموكب المألوف للرجل الوقور ذي القدر الكبير.

سكن عبد القادر عند بدء إقامته في دمشق في المسكن الذي توفي فيه، العام ٦٣٨ هـ /١٢٤٠ م، معلمه ابن العربي، الشيخ الأكبر، بعد أن وضعه تحت تصرفه والي دمشق عزت باشا؛ لكنه ارتضى بعد ذلك بسبب كثرة أفراد عائلته وتعدّد ضيوفه أن ينتقل إلى مقر رائع أكثر سعة، يقع في نهاية رَدب على بعد بعض خطوات من الجامع.

انهمكت النساء، وتصايح الخدم، وذعر كل من في المنزل، وأرسل في طلب الأبناء والأصهار، وتجمّع عشرات الأشخاص في البهوين الداخليين، وتزاحموا على السلالم.

قال عبد القادر: «أريد أن أبقى وحدي فترة».

قاده العايش إلى مكتبته، مكانه الأثير حيث يعمل وفق وصية النبي ﷺ: اطلبوا العلم ولو في الصين...

قال لتلميذه: كالرسول ﷺ نفسه ـ ولتحل عليَّ بركته هذه الساعة، أخشى، يا بنيّ، ألا تبرد قدماي حتى يتنازعوا على ميراثي فإليك إذاً أريد أن أعهد بوصيتي الروحية، أما تلك الدنيوية فإنني أخشى أن تغدو موضوع منازعات تستمر طويلاً[1]... تذكّر مشهد النبي ﷺ ـ والله قد شرّفه وقوّاه على نشر رسالته ـ عندما طلب كاتبين، وهو على فراش الموت، ثم عاف الدنيا، وأدار وجهه إلى الحائط قبل أن تنطلق روحه إلى باريها وهو مستند إلى كتف عائشة. أتعتقد أنني أجهل ماذا سيحدث ما أن ألمح رئيس الملائكة جبريل؟... ثم توجّه بالدعاء: أنت أيّها الإله الحي القيوم، أتضرّع إليك أن تلطّف ليلي، وتغمض عيني... إنا لله وإنّا إليه راجعون... اغفر يا الله للأحياء والأموات، وللحاضرين والغائبين، وللصغار والكبار، وللرجال والنساء، أنت العليم بحلّنا وترحالنا. كان عبد القادر يجلس على ديوانه، في الركن الأثير من مكتبته، وفي وضعه المفضّل، ساقه اليسرى مطويّة تحته، والأخرى تترجّح على طول الوسائد. ينظر للمرّة الأخيرة إلى الفناء الصغير ورذاذ الماء يعلو من النافورة، ثم تتساقط قطراته في الحوض الرخامي.

اكتب!

﴿اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من عَلَق﴾ كما قال لي نفسه في غار حراء حيث ارتفعت بقراءة هذه السورة الأولى التي نزلت على النبي ﷺ الذي كان مايزال متشككاً في رسالته.

---

١ ـ في ملفات وزارة الشؤون الخارجية في باريس عدة وثائق حول هذا الميراث. وقد استمرت المنازعات بين الأبناء ثم الأحفاد نحو خمسين عاماً. وقد يدرس هذا الموضوع يوماً أحد تلاميذي. لكن من المؤسف جدّاً أن أتوقف عند موت المعلم مكتفياً بهذه الملاحظة النهائية المرّة: لقد فاته تثقيف أولاده بالأمور الدنيوية، وإذا صحّ الحكم وفق بعض الوثائق والرسائل الموجودة في الملفات، فإنهم قد تصرفوا في هذه القضية كما الوَرَثة المذكورين في الروايات البلزاكية، واستخدموا جميع الوسائل بما فيها الغدر للحصول على بعض المكاسب من الدولة الفرنسية... التي دفعت مرتبات لبعض منهم حتى... سرّ من أسرار الدولة.

أنا عبد القادر، بن محيي الدين، بن المصطفى، بن محمد، بن المختار، بن عبد القاضي، بن أحمد، بن محمد، بن عبد القوي، بن علي، بن أحمد، بن عبد القوي، بن خالد، بن يوسف، بن بشار، بن محمد، بن مسعود، بن طاوس، بن يعقوب، بن عبد القوي، بن أحمد، بن محمد، بن ادريس، بن إدريس أحد أبناء عبد الله الكامل، بن الحسن المثنى، بن الحسن حفيد النبي ﷺ وابن علي وفاطمة، وحفيد أبي طالب، بن هاشم. أنا عبد القادر بن محيي الدين منشط الدين، وسليل النبي محمد ﷺ المرسل والمبعوث من الله، وهو نفسه بن عبد الله بن عبد المطلب، بن هاشم. إن أسلافي من الجانبين، من الأشراف ساكني المدينة تفضيلاً؛ المدينة المنوّرة التي فُتحت بالإيمان لا بالسلاح. فأسلافي الأمجاد كانوا رفقاء مباشرين للنبي ﷺ، ولتحل بركته على ذريتي! وكان أوّل من هاجر لنشر الإسلام حتى طرف العالم هو إدريس الكبير، سلطان المغرب، مؤسّس مراكش وفاس، وقبره واقع في مولاي إدريس في زرهوم، وفي حياة جدي الحاج المصطفى، انتقلت عائلتي للاستقرار في سهل ايغريس قرب «المعسكر» المسماة اليوم «مسكرة» ليوجّهوا هناك روح الاتحاد الكبير لقبائل آل هاشم. ولكن ما أهمية سلسلة نسبي في فترة تعتبر فيها عبئاً ثقيلاً: لايكفي السؤال عن أصل الرجل، بل بالعكس يجب تقصّي حياته، وتصرفاته وشجاعته، ومزاياه، لمعرفة من هو، وما محتده. إذا كان الماء المغترف من النهر صحياً، ومستساغاً، وعذباً فهذا يعني أنّه آت من نبع نقي. إن العدم جدي، والطبيعة أمي، وفي اللحظة التي يعلن فيها نفير رئيس الملائكة لي أن قد حانت الساعة، أؤكّد وحدانية الوحدة في وحدانية الكائن.

أنا حَقٌّ، أنا خَلقٌ ... أنا ربٌّ، أنا عَبدُ
أنا عرش، أنا فَرشٌ ... وجحيم، أنا خُلدُ
أنا ماء، أنا نار، ... وهواء، أنا صَلدُ
أنا كمٌّ، أنا كيفٌ ... أنا وَجد، أنا فَقدُ
أنا ذات، أنا وصف ... أنا قرب، أنا بُعدُ
كل كون، ذاك كوني ... أنا وحدي، أنا فَردُ[1]

لا إله إلا هو، وحده لاشريك له، ولاحول ولاقوّة إلا بالله.

---

١ ـ المصدر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري: شرح وتحقيق ممدوح حقي. بيروت نشر دار اليقظة العربية ـ ١٩٦٤.

هذه القصيدة تشير إلى البلوغ الصوفي لعبد القادر، وقد سجّلت هنا بترجمتي الخاصة[1] مع إضافة **الشهادة في النهاية**، وهي الجهر بالعقيدة الدينية لذا أنطقت بها بطلي حين موته[2]. غير أن النص صحيح: وهو موجود بالعربية في كتاب ابنه، **التحفة**.. وفي مجموعة القصائد المطبوعة في بيروت، من قبل دار اليقظة العربية في العام ١٩٦٤ بدءاً من **الديوان** الذي نُشر مرات عديدة في دمشق والقاهرة. كما أننا نجد هذه القصيدة أيضاً بترجمة مختلفة قليلاً في مؤلّف ميشيل شودكوتيز M. Chodkiewicz وفي مؤلّف شارل آندره جيليس CH.A. GILIS المعتمدين كموجه لأطروحتي العامة عن الأمير.

كنت مستغرقاً في تأمّلاتي داخل جامع الصالحية الذي يحوي قبر ابن العربي، وقبر عبد القادر (الفارغ الآن)، عندما ظهر لي من الباب الآخر غير المرئي، الباب الذي يدخل منه الأولياء، الأمير عبد القادر وقال لي:

أيا ستيفانوس ابن الأوّل، اجتزت طريقاً طويلاً منذ أن رأيتك تشهد مأتمي الدنيوي، عند نقل رفاتي في العام ١٩٦٦ إلى الجزائر العاصمة، لكنك في تلك الفترة لم تكن قد أدركت شيئاً أما الآن فأنا أسمح لك أن تكتب سيرة حياتي بشرط ألا تقول كل شيء، لأن الوقت لم يَحن بعد ليسلّم الجميع بمرونة المكان والزمان. وفي مجمل الأحوال، لن يثقوا بك.

اذهب! واقرأ! واكتب!

من نافلة القول، أن أذكر، وأنا المنصرف لدراسة المغرب منذ العام ١٩٥٨، انني لا أجهل ما كتب عن تاريخ الجزائر، وسيجد القارئ في **نهاية الكتاب** ثبتاً موجزاً عن المراجع، غير أنني اعتقدت أن ليس من الضروري أن أركّز على القسم المتعلق «بغزو الجزائر» من وجهة النظر الفرنسية، إذ أن هذا الموضوع بصورة خاصة قد عولج جيّداً، من قبل شهود معاصرين له، ومن قبل زملائي المؤرّخين. وفضلت طيلة تلك «السيرة الذاتية» أن أركز على النقاط المجهولة من حياة الأمير، بما فيها حياته في الشرق، انطلاقاً

١ ـ أي ترجمة برونو ايتين مؤلّف الكتاب وفيها بعض التصرف وخاصة في قسمها الأوّل عدا عن إضافة الشهادة في النهاية.

٢ ـ حدثت الوفاة ليل ٢٥ ـ ٢٦ أيار ـ مايو ١٨٨٣ في قصر الأمير في دمّر، على ضفة بردى حيث اعتاد أن يقضي الصيف، ولم ينقل الجثمان إلا صبيحة اليوم التالي إلى قصره في حي العمّارة في دمشق.

من قراءة داخلية أقلُّ سرداً للوقائع، حيث كل شيء مدعم بالمراجع كما تبين الملفّات والوثائق التي أشير إليها أيضاً في نهاية هذا المؤلّف.

شغلت طيلة حياتي كبَحاثه ـ باحث، ومدرّس ـ طالب في الحيرة بين المعنى العلمي والمعنى الشعبي، بين مفهوم المستشرقين الفقهي اللغوي والأنتروبولوجيين عدا عن المعاني المستترة، ولم أستطع أبداً أن أتوصل إلى الجزم عبر تألّق المفاهيم الشخصية والموضوعية في آن معاً لعمل مترجم، التبس بهذه الكلمات من اللغة العربية التي يشكل جذرها المرن على التناوب الصفات، والأسماء، وأسماء الأفعال. لذلك كنت أختار دائماً تفسيري حتى وإن خالف من هم أكثر علماً مني.

أؤمن أكثر من أي وقت مضى، أنّ ما يهيء مستقبل الإنسان لايمكن أن يكون تاريخياً، وأن التاريخ شيء آخر غير «الحقيقة» بالقول انه أطول؛ ووضع الفكر المطلق خارج التاريخ، كما فعل هيغل، لايعني رفض كل فعالية للبعد التاريخي بل بالعكس إتاحة حصوله على مستقبل. وقد أتاح لي عبد القادر أن أدرك أن التاريخ غير موجّه إلا إذا رجع إلى قطب فائق الحساسية: بتعبير آخر إلى شرق روحي؛ فهذا خالد وعمودي، ومعلمي البطل هو أحد برازخه، أحد المسالك الممكنة. وهذا الكتاب إذاً هو معبّر موجّه لأولئك الذين يريدون متابعة منعطفاته، ولكن ما من حظر يفرض على قراءات أخرى ممكنة، وقد نبهنا انجلز بقوله: إن الديالكتيك ينتهي دائماً إلى أن يشق طريقاً عبر جموع لامتناهية من الصدف... يجب الإنطلاق إذاً من الوقائع دائماً، ولكن بالاعتماد على تفسيرها خاصة من قبل ممثليها أو الباحثين فيها.

جرت محاولات لاختراق المغرب في القرن التاسع عشر بالتحديث الطارئ اصطدمت بالعقبات وانتكاسات نهضة محمد علي باشا في مصر، وابنه ابراهيم باشا في سورية، والمشروع السياسي لعبد القادر هو أحد المحاولات المتنكسة في المغرب ـ لكن نجاحه كان في مكان آخر! وقد امتدّ رضحه[1] ثلاثة عقود: سنوات ١٨٣٠، و ١٨٤٠ و ١٨٦٠... ولست متأكداً من أن هذا الرضح قد انتهى أو أنه قد شفي. وميشيل سُور M.SEURAT يبين في كتابه: **الدولة البربرية**، مدى الصعوبة في تكوين «المتحد السياسي»، المجتمع، والدولة ـ الأمّة. هنا سبب الاخفاق الذي أصاب الأمير على الأرجح، بل هنا سبب الصعوبات التي عانى منها النبي ﷺ بالذات:

---

١ ـ الرَضْح Traumatisme: ارتكاس الجسم نتيجة جرح أو صدمة نفسية (المترجم).

كيف يمكن الانتقال من العشيرة العائلية إلى نظام الشمول؟ وقد لاحظ ابن خلدون أن الفيلسوف العربي الأندلسي ابن رشد في محاولته استقراء الفكر السياسي الإغريقي لم يتنبه إلى حقيقة **العصبية** وعلاقتها **بالسرّ**، القوة الخفية في الكائن الإنساني، وافترض أن **الحَسَب** يأتي من قِدَم إنشاء المدنية.

هذه الأحداث تعود إلى التاريخ العام: وحرب الاستعمار واحتلال الجزائر تندرج في سياق عام معروف جيّداً: وهو التوسع الاستعماري الناتج عن التطوّر المنطقي للرأسمالية؛ ولم أجد من الضروري إعادة صياغة هذا التاريخ، وبالمقابل لم تقدّر قيمة المقاومة الجزائرية وأسيئت معاملتها والنظر إليها؛ باعتبار أن التاريخ كتبه المنتصرون خاصة؛ غير أن جميع العناصر هنا، وهي تحت تصرفنا، وهي أحق بالنظر من أسطورة الأب بوجو[1] BUGEAUD وقبعته، والواقع أن شهوداً عديدين قصّوا جيّداً تفاصيل الحرب التي قام بها عبد القادر، دون أن يحلّلوا دائماً بشكل جدّي توريطاتها.

ضمن هذا النطاق، فإن مذكرات القادة العسكريين، الشهود المباشرين للوقائع كدوماس DAUMAS، أو المحلّلين اللاحقين الدقيقين مثل آزان AZAN، يقون نماذج للنوع مع شهادة ف. دستيور - شانترين Ph. Destaiaeur - Chanterainc وشهادة المترجم بلمار BELLE MARE، أما المؤلّف السيري الذاتي ليون روش L. Roches فأكثر ابهاماً، مع أنه غارق في تفاصيل حياة الأمير الذي أحبّ دون شكّ هذا الاهتداء الطريف. وجميع كاتبي سيرة الأمير تقريباً نهبوا دون حياء هذه المؤلفات الخمسة، بما فيها بعض الترجمات العربية كلمة كلمة.

فضلت من جهتي السيرة الذاتية، لأن الأمير عبد القادر عبر بشكل مطوّل عن تلك الحقبة، سواء بالتصريحات كتلك التي باح بها لليون روش، أو للهاربين من الجندية، وحتى للأسرى الذين كانوا عنده، وإلى الكولونيل سكوت، وفيما بعد إلى شرشيل في بيروت أو إلى المطران دوبوش Mgr Dupuch، أو بكتابات رسميّة كمراسلاته مع Desmichels والجنرال دوماس Daumas المذكور آنفاً - وهكذا فكل مايتعلق بالخيل مستخلص، باستثناء مايعود إلى خبرتي الخاصة، من تبادل

١ - بوجو BUGEAUD، (توماس) (١٧٨٤ - ١٨٤٩) مركيز بوكونري، ودوق إيسلي مارشال فرنسي نظم كحاكم (١٨٤٠ - ١٨٤٧) الاحتلال الكامل للجزائر، وانتصر على المراكشيين في إيسلي. (المترجم).

الرسائل بين الأمير عبد القادر ودوماس؛ أو من كتاباته الخاصة التي يعرض فيها بوضوح مفاهيمه الدينية وغيرها، أو من مئات الرسائل التي وجدت أثرها، أو تلك التي نشرها باحثون آخرون كالأستاذ تميمي، أو الأب جوزيف حجّار ـ لأن الأمير كتب إلى جميع من حوتهم أوروبة آنذاك من رجال سياسة، وعلماء. مراسلات كثيرة كما تؤكد صحف ذلك العصر، والأكاديميات المحلية (في بو، وآمبواز)، وشهادات فردیناند دي لسبس، وكتابات شارل رو، والعديدين ممن قدّموا لي محفوظاتهم الثمينة منها، لأن الأمير وهو منفي في فرنسة عرض في محاولات عديدة لجمهور أقل اطلاعاً وجهة نظره في القضايا الكبرى التي تهمه؛ والمصدر الأخير في النهاية فيما قصّه على تلاميذه وأبنائه ونشروه بعد موته، بالرغم من أننا نجد في **التحفة**... مقاطع كاملة مترجمة عن المؤلّفين الذين سبق ذكرهم.

قمت بالترجمات بنفسي عند عدم رضاي عنها تلك الجاهزة، وعندما تكون المعتمدة هي الأصلية التي وجدتها بنفسي، ولكن بالنسبة للنقاط الدقيقة اعتمدت بشكل كبير على ترجمات جيليس Gilis وشودكوتيز Chodkiewicz اللذين أدين لهما بالكثير. غير أن رسائل الأمير في أرشيف وزارة الشؤون الخارجية مرفقة غالباً بترجمة لها من ذلك العصر، مما يسهل بشكل كبير المهمة بشرط القيام ببعض التدقيقات، كما بدت لي ترجمة ميشيل هابار M. Habart لمؤلّف شرشيل أكثر دقة مما لو قمت بذلك بنفسي عن النصّ الأصلي، فاعتمدت عليها بشكل كبير. لكنني فضلت دائماً وجهة نظر الأمير عبد القادر نفسه، وليس وجهة نظر المؤرخين الجزائريين أو الفرنسيين. وبالطبع فإن كل هذا يتطابق بدقة مع مانعرفه من الحقيقة التاريخية، ويمكن للقارئ أن يتحقق بنفسه من المراجع التي أعطيتها في نهاية المؤلّف. صغت الأقسام الأربعة من الكتاب وكأنها مقامات/ وهي سرديات الشاعر البطولي في أمسيات السهر خلال الاستراحة في الرباط/ المكان الذي يَشكل العرب فيه خيولهم. والقسم الأوّل يتضمن أربعة فصول كزوايا الكعبة مع ثلاثة أعمدة ظاهرة تشير إلى القوة والجمال والحكمة إلا إن كانت تشير إلى الربات ـ الأمهات الثلاث للآيات المنقوضة ـ ودعامة غير منظورة في الناحية التي رُكّب فيها الحجر الأسود: أردت الدلالة هكذا على أنّ من المعقول أن يجري القارئ مطالعتين لهذه السيرة، لأن روايتها الحقيقية ليست متسلسلة تاريخياً.

عدد المواقف أحد عشر، والمحطات ثلاث وثلاثون كما في الحالات/ المراحل التي يصفها عبد القادر في كتابه الأساسي، وبالتالي ففي المجموع تتم المسيرة عبر تسعة وتسعين اسماً لله تعالى بفضل حبات المسبحة. لكن السياق ليس دائماً في تسلسل تاريخي، وتنزلق الحبّات أحياناً بين أوراق القارئ غير المنتبه: لذلك عالجت في **تصحيح ارتجاعي** Feed back حج العام ١٨٦٣، ورحلته الأولى إلى الشرق مع والده في العام ١٨٢٨؛ وقد تمّت سفرتاه إلى المنفى خلال الشتاء: إذاً فعلى المركب الذي سار به إلى اسطنبول في كانون ثاني - يناير ١٨٥٢، تراءى له المركب الذي قاده إلى طولون في كانون أوّل - ديسمبر ١٨٤٧. لكن سبباً آخر دفعني إلى إهمال التفصيل في الترتيب الزمني: ففي المغامرة الحربية، ومقاومة الفرنسيين، لم يدرك عبد القادر سريعاً ما حصل. وبعد وعيه التدريجي للوقائع فقط، راح يتخذ قرارات أكثر فأكثر استراتيجية في المرحلة الأولى، ثم أكثر فأكثر قنوطاً حتى الانسحاب النهائي الذي لم يتصوّره أبداً كاستسلام، وإنما كخدمة أخيرة يؤدّيها لبلاده المتمردة، وذلك بعد مناقشات طويلة وعسيرة مع العلماء المسلمين في عصره. وهكذا فالمخطّط الخفي للقسم المتعلّق **بالجهاد**، الذي يتبع الحبكة الأكثر فأكثر استتاراً من **المقامات**، ليست في التلاحق المنطقي للأحداث، لكنه يدور حول النطقة التي تشكل الجدل الأساسي العميق لكل المغرب، وللعالم العربي المقبل: **الجهاد**، أو **الهجرة** أو **الكتمان**.

وفي النهاية، فإن القسم الأخير هو في مجمل الكلام حشوي، فالأمير في انخطاف التصوف انصرف إلى «الذات الإلهية» الفناء، وذلك خلال إقامته الأخيرة خلال العام ١٨٦٣ في الديار المقدسة، ويتوقف تاريخه الحقيقي هنا: سيعيش أيضاً عشرين سنة تتغلّب فيها شخصيته على رغبته الحقيقية، وسينصرف بكل بساطة إلى البرّ؛ دون أي احتجاج، ولكن دون قبول الدنيوي. ففي أسلوب السير المعظمة التقليدية، لاتعتبر الأحداث المحسوسة، والحقيقية والمؤرخة، المتميزة لحياة الشخصية، كتاريخ فردي، وإنّما هي «قصص قدوة» تشكل الحبكة الحقيقية للسرد، وتتجمع الأماكن التي تحدث فيها لتشكّل المنطقة. وتحق قراءة كل من هذه «القصص» دون الاهتمام بأي رابط منطقي ظاهر؛ إذ أن المعنى يستند إلى العنصر وليس إلى النمط، إذاً فمكان التجلية على الأغلب، هو الذي يشير إلى سرد الحدث الخاص، حتى ولو لم يحتج هذا الحدث إلى التحديد والتأريخ... غير أنني حدّدت جميع مواقف المنفى في الزمان والمكان (١٨٤٨ طولون، بو، ١٨٤٩، آمبواز، الخ..) بينما كان عبد القادر يخطئ غالباً في التواريخ

التي يعطيها ـ وقد يكون ذلك عائداً إلى أنه لم يأتلف مع التقويم الذي جوبه به، والمتبع من قبل الفرنسيين.

كتب كلود لفي ـ ستراوس في **الأنتروبولوجية البنيوية** أن السرد ينفتح دائماً على علاقة فصم تربط الدراما. وهذا ما جرّبت فعله، ومرّة أخرى ما من حظر يحول دون قراءات أخرى ممكنة لحياة الأمير الغنية إلى حدّ يمكن أن تكون فيه موضوعاً لتفسيرات عديدة. فمفسّر يهتّم بمقاومته للفرنسيين، وآخر يجعل منه مبتكراً للدولة الحديثة؛ تشرّف أعداءه عظمتُه، ويعتزّ أصدقاؤه بانسانيته. شخص يتذوق الغبطة في تصوّفه بينما يتفاجأ آخر بعصريته؛ وحتى الرأسمالي البارد سيجد نصيبه في قضية شقّ قناة السويس. وإذا كان شعره ذا نهج قديم إلى حدّ ما، فإنني متأكّد أنّه سيعجب كل الفرسان. والخالق سيعرف فيه أحد عباده...

لكن بالانتظار، أوجّه امتناني إلى ماريزا ألميرا Marisa Almira خاتمة بني سراج، التي التقت بعبد القادر قبل لقائي به، في مزرعة سيدي قضا، ثم صحبتني في كل المسيرة، وخاصة في اللحظات الأكثر خطورة.

أشكر جميع من ساعدوني وشجعوني في هذا المشروع وخاصة:

ابنتي فلورنس وفيرونيك، والسيدة عياشي، ومنير عربش الذين ساعدوني مادياً، سواء في نسخ المخطوطة على الآلة الكاتبة، أو في تفحُص الملّفات.

وأوجه شكري إلى جان فرنسوا كِلمَن J.F. CLEMENT، وجان ميشيل هيرت J M. HIRT اللذين أتاحا لي التعمّق في التصوّف الإسلامي وتصوّف الأمير خاصّة، بأفكارهما، ودراساتهما وخاصة بصداقتهما الأخوّية. وإلى لويس فدي L. FEDI رجل **الصقل** فلولاه لهجرت هذا الأمر على الدرب الشاق.

وإلى خلّي الوفي مصطفى خيّاطي M. KHAYATI وهو تجسد جديد للأحنف الكبير، وإلى صديقي توفيق موناستيري T. Mounastiri اللذين تكرّما بقراءة المخطوطة.

شو دان ستيفانوس ابن الأوّل ٣٣، برونو إتيين
تشرين ثاني ـ نوفمبر ١٩٩٣

القسم الأول

الإعداد

الدعامة الأولى
مقدمّو الدين

المقامة الأولى

المقدّم الأوّل

محيي الدين بن مصطفى الحسني والد عبد القادر

الله رحيمٌ، مَلكٌ، قدوس

٢٢ رجب ١٢٢٢ هـ/ ١٨٠٧م، إلا أن يكن ١٥ من رجب ١٢٢٣ هـ الموافق للثلاثاء ٦ أيلول - سبتمبر ١٨٠٨. إذ أن القصاصين، وكذلك المؤرخين غير متفقين على التاريخ.

الدوار يعج بالحركة مع الفجر الندّي، والضباب يعانق جبل المَغنيا البعيد؛ لكن بلدة القيطنة في وادي الحمام تتمتع بعذوبة ساحرة لأن النهر يتلقى المياه الدافئة. وقدّم للخيل علفها، لكنها كانت مهتاجة كأنّ الثعالب ترود حول الرباط، المكان المسوّر الذي تُشكل فيه مساءً عند التوقّف. والواقع أن ما من إنسان أوى إلى فراشه تلك الليلة. فالرجال ساهرون حول المقدّم محيي الدين وهم يدخنون الغلايين الصغيرة الطويلة، ويستمعون إلى **مقامات** الملحمة. هذه الحكايات التي تجعلهم يحيون المآثر العربية الضرورية لهم في هذا الزمن الذي ينبئ كل شيء فيه بالسوء غير أنهم في هذه الليلة بانتظار حدث سعيد: فزوجة المقدّم الأثيرة، امرأته النبيلة زهرة بنت سيدي عمر الدُّخا في المخاض وستلد أحد الشرفاء، أحد أحفاد النبي ﷺ نفسه، أحد ورثة إدريس الكبير مؤسس المغرب. النساء المهيبات هنا، ومع الضجّة الكبرى يبعدن الخدم السود، والأطفال الذين يحاولون الإندساس تحت الستائر.

الماء يغلي.

العجائز ينغمن برتابة وهن يترنحن، يستدعين الجن وهن يلقين حولهن ذروراً متخيّلاً بحركات واسعة من أذرعهن، ويشبكن الأصابع في كلّ الاتجاهات، يتضرّعن إلى كل

الكائنات في كل الأنحاء وأعينهن تستدير مذعورة والرؤوس تترجّح على نَغَم الرقيات. لكن عبدة شابّة كان يعلو تضرّعها فوق ابتهالات الجميع، ترجو أن يكون المولود صبياً، فمهرة بنت الحسين قد اختيرت لتكون مرضعة الوليد، كيف يمكنها أن تتصور وهي العبدة الغناويّة الصغيرة أنها ستتبع فيما بعد سيدها إلى بلاط امبراطور الفرنسيين، ثم إلى الباب العالي، أتكون الأقدار ممهورة؟

﴿الله يعلم وأنتم لاتعلمون!﴾ يؤكّد القرآن الكريم غالباً. كانت مبخرة تنشر روائح التبخيرات: حبات مسك مختلطة بمسحوق الشبّة، وفي زاوية أخرى بخور ولبان جاوة؛ وفي مجمرة أخرى صمغ الحلتيت. وعجوز تضع قدراً من ملح في متناول يدها، وتنثر منه بين وقت وآخر في أركان القاعة الأربعة. وتحتجّ لالا زهرة قائلة:

حورية، أنت تعلمين أنني لا أحب نزواتك، وكذلك سيّدنا لايحبها... لكن آلام المخاض تقطع عليها فزّتها الرشيدة، وتستغل العجوز الفرصة لترمي بقبضة من الحنّة ضد جنّ أكثر خبثاً من الآخرين وقد انزلق من بين الستائر المنفرجة بحركة من إحدى الخادمات. ومثل لالا فاطمة الزهراء ابنة النبي ﷺ كانت لالا زهرة قد حلّت شعرها، ونزعت حليها، وفكّت زنارها وعرّت قدميها.

يا لالا! يا لالا! أطلقت النسوة: أعيني ولدك! يا سيدتي أعينيه. وقدمت لها إحدى العجائز منقوعاً ساخناً من القرنفل والنعنع والسعتر والقرفة لتسريع تقلّصات الرحم.

يا لالا! يا لالا! أعيني ولدك يا سيدتي، تضرعت العبدات.

كانت أخت محيي الدين ونساؤه الأخريات ينغمن بالدعاء إلى الولي الصالح وهن يترجحن:

«يا ربي!، يا ربي! يا سيدي عبد القادر الجلالي! يا رجال البلاد. كان هذا وليد لالا زهرة الأوّل، ولذلك علا صراخها، ظنت أنها قد نسيت، وتشاتمت النساء، وانتشرت السخريات، وعلت الضحكات، وجرى الأولاد من جميع الأنحاء، وتجمّع ما لايقلّ عن ثلاثين شخصاً حول الماخض:

- يا لالا! يا لالا! أعيني ولدك يا سيدتي!

وضَعت القابلة المشرفة على الولادة آنذاك قدراً مليئاً بالماء الذي يغلي وفيه بعض

كبوش القرنفل بين ساقي الماخض وراحت تنشد:

يا مولاي عبد القادر

يا وليّ الله

رفرف بجناحيك، يا ملاك الله

يا رسول الله

خلّص المرأة التي تلد

يا ملاك الله

ابسط جناحيك

وساعد الماخض

وتردّد النسوة اللواتي تجمعن في جوقة إنشاد

يا مولاي عبد القادر

ابسط جناحيك

يا ملاك الله

خلّص هذه المرأة في ولادتها

وتبلغ الضوضاء قمّتها، وتفجّر المؤلدة بأصابعها الخبيرة الجيب المائي فيظهر رأس الوليد، فتتمتم المولّدة في أذنه.

«أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وتعاود النساء في الجوقة كرُقية ذات إيقاع، مع ترنّح الأجسام وتصفيق الأيدي:

يا محمد رسول الله

وتنطلق ثلاث زغردات مدويّة، فالمولود صبي، وتقطع المولّدة بثلاثة أصابع فقط حبل السرّة بعد أن فَتَلت خيطاً من الصوف. وتقول لسيّدتها الشابة وهي تزيل برفق المشيمة: «إنّه مُغلَّف وهذه إشارة طيّبة»

ـ الله أكبر! باسم الله! الحمد لله! الله أكبر.

هتافات تتردّد، وهزّات رؤوس، واستحسانات ضاجّة، وتهانئ مدويّة، ومشاعر ارتياح، وكلٌّ يصلي على طريقته، وصرخة تشق سكون الفجر مع أوائل خيوط النور

البيضاء المبدّدة للعتمة: امرأة في خلاص، وطفل يستنشق بنهم أوّل نفحة حياة: إنّها النّسمة الخلّاقة:

الروح، روح ح ح... انبعاث طويل لخَلَق/ كُن! فيكون!/

الشكر لله! باسم الله! الحمد لله!

وتنطلق الصيحات من جميع الجهات، وترتفع أصوات العجائز بالدعاء أكثر قوة لأن جميع الشياطين هنا، تحت الخيمة الغارقة بالدخان، وهم مستعدون للانقضاض على خليقة الله هذا. لذلك تتوارى إحدى القابلات خلسة لتذهب وتدفن دون أن يراها أحد، المشيمة في طرف قرية القيطنة ضمن نطاق لايعرفه أحد غيرها.

وتصل الزغردات الثاقبة إلى أذن سيد المكان ـ فليرحم الله أسلافنا ـ وهو جالس جلسته التقليدية، وإحدى ساقيه مطوية تحته فيهتف: الشكر لك يا إلهي! أيّها الإله الكلي القدرة: سأسميه عبد القادر، لأن والدتي ـ ولتنعم روحها برحمتك ـ رأت في السابق مناماً يبشرّني بالحظوة التي تريد منحها لحبيبك: سيتلقى الهداية في صراطك. يا قادر وعبد القادر سيتميّز باسمك عن اسمي، يا سيّدي!

شربت لالا زهرة طاساً كبيراً من العسل الساخن يقيها من المغص، وحُزمت برباط يشدُّ بطنها وأكلت حمامة مطبوخة بصلصة مبّهرة ومعصفرة، ومغمورة بالسمن لتستعيد قواها، واستلقت لحظة على بطنها بينما انصرفت النساء للاهتمام بالطفل الوليد.

هتف الخادم اللاهث المرسل من قبل النسوة يبشّر السيّد: «إنّه صبي»

أجاب محيي الدين، وقد حال اعتزاز النبالة دون إظهار فرحته العميقة المختلطة بالخشية من الآلام والمحن التي يستشفها: «أعرف ذلك».

لم يعجّل بالذهاب إلى خيمة النساء، فضياء الفجر يشرق، وهذا وقت الصلاة، ويتوّجه إلى المشرق، وينحني، ثم يجثو إلى أن يلامس جبينه الأرض الأم، ويشكر الباري تعالى.

وبدون عجلة ظاهرة، ينادي رجل ثقته الذي كان يصلي خلفه، وهو يرقب خفية كل شيء حول المعلم. وترتفع يد محيي الدين بتلك الحركة الجليلة التي تميّز الأشراف قائلاً:

قره محمد. اختر أفضل كبش في قطعاننا لأجدّد أضحية ابراهيم؛ هيا، قره، وسيكون ولدك الذي ولد البارحة رفيق ابني، وسينطلقان بعيداً معاً، والله أكبر!

ثم يتوّجه إلى الابن الذي لم يَرَهُ بعد، لأنه لم يَزَل تحت عناية النساء، ويبدأ بمناجاته برقّة، وهو يتقدم نحو المكان الذي ترقد فيه النفساء:

«أترى، يا عبد القادر، يا بنيّ، قال لي الصقر الأسمر، وكذلك الجواد وهو شعار نبلك: نحن لسنا فقط حيوانات وإنما حياة وروح للإنطلاق بك بعيداً مع الرياح دائماً، ودائماً إلى العلا نحو النور... لأن الرجل الكامل منتصب في محور العالم، برزخ بين السماء والأرض، وجسده كجسد آدم، أبينا، ينبسط من الغرب إلى الشرق... فهيّا يا ولدي، إن قدراً كبيراً ينتظرك! وسأرافقك حتى طرف درب الغابة، وبعد ذلك ستتابع، إن شاء الله، طريقك الخاص، هيّا، يا ولدي، هيّا.

جَمعٌ لجب من الأقارب، والأبناء الآخرين، والزبائن، والجيران والأصدقاء أحاطوا بمحيي الدين مقدّم جماعة القادرية، وموجه الشعائر وأمين الرشاد المستحق لشهادة الطريقة، وهو يتقدّم نحو عبد القادر الوافد الجديد إلى الدنيا. وكانت القابلة العجوز قد أعدت سبع قطع من قماش وضعتها على ركبتيها، وأضجعت عليها الصبي، وعملت على غسله وفق الطقوس المتّبعة ومسحه بالزيت والحنّة، ثم قمطته، وبعد أن شبكت هذا النوع من القماط، رفعته من قدميه، ورأسه إلى الأسفل لتتخلص معدته من كلّ ما يربطه بأمّه، ولكي ينمو سريعاً، وكان الهَرَج والمرج في قمته، فبعض النساء تزغرد، وأخريات يصلينّ بصوت عال. شكر الشريف محيي الدين زوجته، وبهذه الابتسامة العذبة المتميزة لسلالته مسح برفق جبينها الشاحب بيده. كانت لالا زهرة مطمئنة لولادتها السعيدة وأيضاً لأنها حققت مهمة عقدها. كانت قلقة فقد بدا لها أنها ترى سقف بيت في الشرق، وابنها يحدثها في مواجهة الصحراء، لكن الرؤيا تلاشت... وأخذت المولّدة العجوز الطفل ودهنت حنكه بطبقة خفيفة من الحنّة، تربة الجنّة، وقرصت أنفه بأصابعها القوية، ليأخذ المظهر الأقني، ثم غسلت رأسه مرّة أخرى، وبينما كان يفحُّ بالبكاء مستقبلاً الحياة، لفّته بعناية بقماشة من صوف إشارة إلى قدره المستقبلي كلابس المسوح. وكانت المولّدات يترقبن اللحظة التي يجب فيها على الأم أن تعطي الطفل ثديها ليدفعن الرجال والولدان إلى الخارج بين ضحكات الجَمع الفرح، بينما بقي عبدان صغيران متربّعان عند فرجة الخيمة يتأمّلان المشهد بعينين واسعتين.

قدر لأحدهما فيما بعد أن يمسك ركاب الأمير: الله أعلم من الجميع، لكن الطفل لم يكن يعلم في حينه أن طريقه قد خطّ.

كان محيي الدين قد التحق بمنزله وتصدّر قاعة مضافته التي حفلت مفارشها بالجالسين من عمداء العائلات وممثلي القبائل الذين وفدوا لتحيته. وقدّمت الحلويات، وعمّت التهاني غير أن الوجوه كانت مكفهرة؛ فالأمر لايتقصر فقط على المجاملة، وإنّما انتهزت الفرصة لاستشارة المعلّم: فالشيوخ والقواد قلقون مما يحدث في المغرب. فالقوى المسيحية تتحرك والأتراك لايعرفون جيّداً نواياهم؛ والمسلمون قليلو الثقة بحماسة العثمانيين. ويقال إن امبراطور الفرنسيين الكبير وصل إلى مصر وحتى إلى روسية؛ وإنّه أرسل الجواسيس إلى جميع سواحل المغرب؛ وإن اليهود في تونس يتهيّؤون للتحالف مع المسيحيين، وخاصة تلك الزاوية التيجانية التي لاتتوقف عن المجيء من لاغوات حتى منطقة وهران تنهب وتسمّم العلاقات الصعبة في الأصل مع الأتراك. والداي والبايات لامصلحة لهم في تردي العلاقات بين الدولة والزاويّات، فتجارة التمور والحبوب بيد بدو الجنوب، وهؤلاء يأتون للاصطياف في التلّ، وأحياناً حتى الشمال إلى شاطئ البحر. وحكومة الباي تريد السلم ولاتمنح تراخيص الرعي إلا إذا تعهّد الشيوخ ومسؤولو الجماعات الدينية بإيقاف عنف القبائل؛ ولذلك لم تكن الطريقة منبع الرشاد فقط: والرواق هو أيضاً مقر بيت المصالحة، والفقراء والمستبعدون يجدون فيه دائماً المأوى والحماية.

والقبائل والدرقاوية الذين يتحركون! إن الأحاديث تدور خاصة حول هذه القضية الغريبة التي شوّشت منطقة ولد أمكران وهذا الشبه مهدي المصحّح الذي أثار سكان الشرق؛ ويهمس باسمه الآن بعد أن مُهر: بلا هرش وهو من جماعة الدرقاوية الذين يغيظون دائماً الأشخاص الشرفاء بتحدياتهم.

يا للشقاء!

ولكن في أي عالم نعيش؟

لقد سلخ بو قابوس باي وهران حيّاً، والمنطقة بكاملها حتى الصحراء تعارض بديله الباي حسن. وسُمّم باي تونس حمودة، ودايات الجزائر يتذابحون فيما بينهم إن لم يموتوا بالطاعون، وفي المغرب أعلن أحد المغتصبين عن نفسه سلطاناً...

كل واحد يستشير معلم الزاوية القلق بدوره أيضاً. ويُنقّب في الأخبار التي يحملها

الحُجّاج من المشرق ويُعلّق عليها ويُدقّق بها؛ فأي مستقبل يقدّره الله لنا.

كان محيي الدين يستمع لكل واحد من الحضور، وهو يهز رأسه، ويحرّك حبّات سبحته. ويؤكّد أحياناً على مايوجهه محادثه من نقد بعبارة استحسان أو بصيغة دينية وكلٌ يرى:

إنه أحسن الكلام

لكن الوقت هو للمناسبة السارّة، أما للأمور الأخرى فلتكن مشيئة الله فالله أدرى، وهو يعلم وأنتم لاتعلمون.

المقامة الثانية

الله كريم ورحيم، ولئن كان مغيثاً فهو أيضاً متعال

اجتمع وجهاء آل هاشم في القيطنة بوادي الحمّام في عيد العائلة، وكان عبد القادر قد بلغ الثانية من العمر وهو لم يعد يُلَفُّ بالقماطات، بل يرتدي البرنس ويجب أن يُقصُّ شعره.

ذبح الكبش ولفظ المُضحي الشهادة التي نطق بها ابراهيم الخليل أوّل مسلم قبل مجيء الإسلام، وجّهزت النساء المغربية، وجميع الأطباق الشهيّة، وحُدّدت أماكن المدعوين، وأحضرت المرضعة الطفل إلى وسط أهله والأصدقاء المتوافدين؛ وتزينت النساء بحليهن، ورسمن بالحنّة على أيديهن وأرجلهن صوراً غامضة.

تركت الغندورة ذراعي الولد المنذهل وقدميه، ورأسه بشعره الأجعد عار. وقام رجل عجوز بقص خصلات شعر الطفل بينما عمدت امرأة أحنت أحمال الحطب ظهرها بجمع هذه الأشعار في طاس مليء بالرماد. وأطلقت النساء الزغاريد الحادّة، بينما نثرت العجوز خليط الشعر والرماد في الهواء وهي تتضرّع بصوت عال طالبة حلول البركات الإلهية على الطفل، بينما كانت النساء الأخريات يهمهمن بصوت مبهم بالرقيات التي تستهجنها لالا زهرة. لكن العجائز يعرفن جيّداً أن الجنّ ترود المكان... وهرع الصغير صاحب احتفال اليوم سريعاً يلتجئ إلى حضن أمه بعد أن أُلبس ثوبه الجديد: فهو شبه رجل من الآن فصاعداً. ودعا محيي الدين ضيوفه إلى المائدة وقام هو بنفسه على خدمتهم مبتدئاً بنصيب الفقراء الذي وضعه جانباً.

في المساء، وبعد صلاة العشاء، أخذ سيّد المكان يقرأ في كتاب قيّم إلى أن رنّق بالنعاس، فظهر له في الحلم الملاك جبريل قائلاً:

«اكسر الختم وسترى صورتك، من يستطع الفهم فليفهم، عليك أن تعدّ إلى المسارّة هذا الطفل وهو أغلى الجميع لنا: هيّئ له منذ الآن عباءة ووشاح المتوحّد الجوّال، لأننا لم نحل عليك البركة من أجل آل هاشم فقط، وإنّما من أجل البشرية كلّها. علّمه بأسرع مايمكن، فالأوقات آتية بأسرع مما تعتقد.

استلقى محيي الدين على فراشه مفكّراً والعرق يتصبب منه، فمنذ بعض الوقت كان يرى غالباً والده في الحلم؟ وعاهد نفسه على أن يذهب لزيارة قبره في طرابلس الغرب. لماذا هذا الإلحاح على الصبي دائماً في أحلامه؟ وغفا إلى جانب لالا زهرة التي ضمّته بحنان إلى صدرها. حلم أنه يمتطي فرس النبي ﷺ فوق الجامع الأكثر بُعداً عندما هبّت العاصفة. سيكون الموسم جيّداً هذه السنة. باسم الله. فالمطر هو إشارة من عند الله.

المقامة الثالثة

الله الخالق، البارئ، المصوّر؛ وهو الذي لايتوقّف عن الصفح فهو الغفور الغفّار

بلغ عبد القادر السابعة من العمر. وعلّمته أمّه القراءة، وهو يقضي وقته مع الخيل. لكن الأم لاتهمل أبداً التربية الصارمة المحافظة على اللياقة العالية: لكل مقامه، ويجب أن يُحيّا باسمه وصفته، ونسبه إذا أمكن. ومن المهم إذاً معرفة هذه الأشياء غير المكتوبة في أي مكان. والتقوى، وخوف الله يتطلبان الخضوع إلى سلطة الكائنات المتدرّجة بدقّة في مراتبها، بدءاً من الملائكة وحتى العبيد مروراً بالحاجّين والسلاطين؛ ولكن دائماً بالرجوع إلى الأب. والصمت هو القاعدة أمام تدرّج مراتب الفترة الحاضرة.

وعبد القادر لايعاند، بالمعنى الحصري للكلمة، لكنه ينهال على أمّه، وعمّاته وزوجات أبيه، وجدّتيه، ومرضعته بالأسئلة. وغالباً ما تشكو لالا زهرة باعتزاز فضوله إلى أبيه. فالأخلاق تفرض توطيد التربية، والإزدراء بالأسئلة الدنيوية، خاصة وأن هذا لايتمّ دون قَلَق، فالأم لاتعاكس ميل عبد القادر شبه المفرط للتدرّب على الفروسية التي تضني جسم الفتى الغضّ لكنها تؤهّله لحسن التوازن.. ولاتتميّز الأم بثقافتها فقط وإنّما بورعها أيضاً ومعرفتها لواجباتها: لذلك علمت ابنها الصلاة وقبل كل شيء الوضوء:

يجب أن تصب ثلاث مرات الماء باليد اليمنى على اليد اليسرى ثم بالعكس قبل غسلهما. وها هي تهمس له لما بعد:

وعندما ستتحلى بخاتم فلن تنسى تحريكه وتنظيف ما يتركه من أثر.

ثم يجب الغرغرة ثلاث مرات، واستنشاق الماء ثلاث مرات بالمنخرين، وغسل الوجه من الجبين إلى الذقن مروراً بالعينين، وبكل أذن بعد الأخرى. وكان الابن والأم يضحكان من هذه المشاركة العذبة والحميمة في الحركية التي تقتضيها إقامة الشعائر، ولالا زهرة تفكر بأبابة بأنه سيتركها عندما يتعلم كما ينبغي له، لكنها تعلم أيضاً كم يمكن للأبناء الاستغناء عن الزوجات بينما الأمهات باقيات...

فرك عبد القادر يديه حتى المرفقين مبتدئاً بالذراع اليمنى، ثم غمر كفيه بالماء وهو يضم أطراف أصابعه بعضها على بعضها الآخر ومرّرها في شعره حتى قذاله. وداعبت لالا زهرة بحنان الجبين الوّضاء العالي لابنها الغالي وسرحت مع حلم يقودها في كل مرّة إلى الشرق، إلى مدينة كبيرة ترى نفسها فيها، عجوزاً، على سطح منزل كبير بين ذراعي ابنها الحبيب... وتمّحي الرؤيا كأنها نذير بنكبات قادمة، وتتلو بسرعة الفاتحة بينما تتمتم العبدة التي تمسك بالدست بأشياء غير مفهومة، لتتجنّب القدر مهما حدَث. ويرفع عبد القادر شعره حتى جبينه لينظّف أذنيه والقسم الأسفل من عنقه. وأخيراً ينتقل إلى قدميه، اليمين أولاً، حتى الكاحلين، ثم الأصابع.

لم تكن لالا زهرة تحب الذهاب إلى الحمّام العام مع جميع الخادمات وأخوات زوجها اللواتي يتحدثن دائماً بفكاهات تغيظها. غير أنها تغسل عبد القادر لأن «الطهارة الطقسية نصف الإيمان» وكذلك لتشرح له الوضوء الكبير الذي سيحتاج إليه فيما بعد لأن الإنسان آثم... ثلاث دفقات من الماء على الرأس، وثلاث على الكتف الأيمن، ثم ثلاث على الكتف الأيسر. سأل: لماذا دائماً ثلاثة، يا أمي، ولماذا البدء دائماً من اليمين؟

ـ سيشرح لك والدك لاحقاً يا ولدي، ولكن كل شيء منصوص عنه في ديننا، وهكذا يتم كل شيء لدينا وفق السُنَّة.

ولكن أي فرق، يا أمي، بين السّنة والدين؟

ـ هناك أشياء لاتُفعل لأنها محرّمة قطعاً يا بنيّ؛ وأشياء مكروهة يلام على فعلها، وأشياء حسنة يُحَثُّ على القيام بها. والقرآن يرشدنا إلى ماهو مباح، وماهو محظور،

ماهو مسموح به بديهي، وماهو محرّم بديهي أيضاً: لكن بين الاثنين أشياء ملتبسة لايتمكن الأشخاص من تمييزها. غير أن الطاهر والنجس بديهيان أيضاً على مثل ماميّز القرآن الكريم بين البحرين. ﴿مَرَجُ البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لايبغيان﴾.

فهذان البحران لايتشابهان أبداً، أحدهما ذو ماء عذب، بارد، مستساغ والآخر مِلحٌ، مرّ.

ـ ستتعلم فيما بعد التمييز بينهما بنفسك، ولكن بالانتظار، اعلم أن شيئاً واحداً هو فعلاً محرّم يا عبد القادر، ويجب عليك معرفته، إنه إشراك أحد مع الله الواحد الفرد.

ـ وهل يمكن يا أمي، أن يرتكب كثيرون هذه الجريمة؟

ـ نعم، يا بني، للأسف! فهناك جهلة، ومشركون، وآخرون أيضاً ممن لايعترفون بالأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتنا وإخراجنا من البربرية. وهكذا يا بني يوجد مثل هؤلاء الأشخاص، وعلى المؤمن أن يكون حذرا من مخالطتهم. قل، وردّد بعدي الابتهال: «يا إلهي، أطلب حمايتك من إشراك شيء أعرفه بك» ولاتنسَ أن تضيف كلّما أمكن: «والتمس مغفرتك من أجل مالا علم لي به». ويكفيك في الوقت الحاضر أن تفكر بأن مخافة الله هي رأس الحكمة، ولاتكن كتابع أبيك: فهو كالديك يعرف أوقات الصلاة لكنه لايصلي أبداً. لكن الهنا يعرف الوقت المناسب، والوقت الحقيقي الذي سيدعوك فيه للمثول أمامه ليحاكمك ويكافئك على أعمالك، وهو يعلم الساعة لا أنت، لذلك استمع إلى أمّك، يا بني: وكن جاهزاً دائماً.

كانت لالا زهرة تحذر بصورة خاصة من الخادمات، ومن أخوات زوجها اللواتي يقضين أوقاتهن في ضحكات مبهمة، وأحاديث ماجنة وماكرة، وخاصة في طقوس سحريّة، وكانت تريد بأي ثمن منع عبد القادر من الاعتقاد بكل الهذر الذي تقصّه عليه مرضعته دادا مهرة عن عائشة قنديشة والسعلايات مع أن من الواجب أن يعتقد بعض الاعتقاد بوجود الشياطين، وجهنم، ويوم الدينونة. وكاشفت زوجها بالأمر، إذ من غير الممكن تجنب الأهل والحياة اليومية حيث يشعر عبد القادر بالسعادة.

ـ في الواقع، حان الوقت ليترك مخالطة الحريم لذلك يجب تهيئته لهذه النقلة. قرّر محيي الدين تحديد تاريخ ختان الولد يوم عاشوراء الربيع لأنه أيضاً عيد الإحسان وعيد الأولاد.

المقامة الرابعة

الله جليلٌ

بدأ اليوم بالصلوات التي أَمّ فيها محيي الدين الأخوة المجتمعين. ثم قام بخطبة ذكّر فيها من خلال حياة القديسينَ والأنبياء الذين سبقوا خاتمة الأنبياء ﷺ بمداخل ومخارج الختان: فالناس الذين جدّدوا عهد ابراهيم مع الله وحدهم يمكنهم الطموح إلى الصراط الإلهي.

توجه ابراهيم الخليل إلى الله بهذه الصلاة: «رب» اجعل هذا البلد آمناً، واجنَبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام».

هتف المستمعون عند ذكر هذه الآية من القرآن الكريم «آمين».

أنهى محيي الدين خطبته بشرح طويل حول مثاليّة حياة النبي محمد ﷺ أمام انشراح جميع الحاضرين الذين كانوا يعبّرون عن استحسانهم بالعديد من الهتاف «الله» وبهزّات الرأس التي تتيح للأجسام أن تخلص من التشنج الذي تسببه الأوضاع الشعائريه والله أعلم ويقرأ مباشرة نوايا القلوب.

قدّم الطعام للمدعوين الذين أحضروا معهم الهدايا، بينما كانت النساء يهيئن الولد، ولعلع البارود خارجاً، وعمت رائحته ودخانه الأبيض الحليبي الدار بينما كان كلّ من الآكلين يدير بيده اليمنى لقمة الطعام بشكل كرّية، ويشرب بين كل لقمتين جرعة من اللبن الرائب. وعزف الموسيقيون الذين أكلوا قبل جميع الناس أوّل معزوفة تحيّة لربّ العائلة: وكان محيي الدين يحيي المدعوين ويوجه الشكر بيده وهو يلتفت في كلّ مرة نحو رئيس الفريق الذي يقدم كل واحد باسمه وبترتيب البكورية المذكّرة. ثم قدّم خال الصبي أوّل هديّة نقديّة مفتتحاً موكبَ الأقارب ثم الزبائن. وأخذ سيدي أبو طالب الولد على ركبتيه، بينما كانت النساء المنزويات جانباً يزغردن بأصوات عالية غطت عليها سريعاً الموسيقى. وترنّحت لالا زهرة وجلة بين أذرع خادماتها ونسيباتها، بينما أنشدت المربيّة المرضعة أهزوجة للحلاق المطَهّر الذي كان يقترب من الصبي وبيده الموسى وحويض لتلقي الدم النازف

يا أيُّها المتمرس المعتمر الشاشيّة

خَفف يَدِك

«الولد صغير

وترفّق بحيث لاتروّعه

وتنطلق النسوة، والعمّات، والخادمات، والشابّات بالمقطع الغنائي في تصعيد حاد موقّع بالمزاهر والمزمار:

أيّها السيد الحلاق

زهرة الرمّان

النصل حاد

والولد صغير

فعجّل أيّها المتمرّس خشية أن يفزع

أيّها الحلاق الجرّاح

زهرة المنثور

وأنا أمتطي بغلاً

والولد صغير

ويعّجل الجرّاح، ويبتهل إلى الله بقوة: «باسم الله» ويشدّ بمهارة غلاف القلفة، ويقطع الجلد، ويتوتّر الولد، ويقبله خاله في عنقه، ويسيل الدم، وتضاعف النساء ضجيجهن، وترتعش الأم، ويشحب وجه محيي الدين؛ لكن الحلاق ينضح بسرعة الجرح بجرعة من زيت وعسل تلمظ بها في فمه. وأعطى الخال أبو طالب الولد للعبدة التي توجّهت به نحو النسوة وقامت القابلة التي سبق لها أن ولّدت الأم بمسح الجرح بلعابها ثم غسلته سبع مرّات بالسمن ورشّته بالحنّة المسحوقة بينما أعدت النساء تبخيرة من أوراق الغار مع لبان جاوه.

أُضجع عبد القادر على مجموعة من الوسائد، وتقاطر المدعوون يهنئونه بينما كانت لالا زهرة؛ وهي في غاية الانفعال، تحبس دموعها، وهي مستندة إلى المربية الضخمة التي تسندها محيطة إياها بذراعيها. وخلال هذا الوقت ذهبت الخادمات يدفنّ قطعة جلد ابن محيي الدين في طرف بلدة القيطنة وهن يتمتمن بصلوات حارة لإبعاد الجنّ. وجاء محيي الدين عندئذ يجلس إلى جانب رجله الصغير، ويأخذ يده، ويعلن له أنه سيحضر من الآن فصاعداً كل اجتماعات الرجال الدنيوية منها والدينية؛ وتحدّث

الشريف بحنان ورفق عن واجبات الولد نحو النساء. واجبه كابن وفقاً لما جاء في القرآن والحديث وذكّر بشهر رمضان المقبل حيث يجب علي الصبي أن يصوم؛ لكن عبد القادر كان قد نام وهو يحلم بالصقر الكبير الذي يحلّق فوق مسكرة بينما هو يمتطي فرس النبي ﷺ بالذات.

بعد عاشوراء لاحظ عبد القادر أن الحياة كلّها موقّعة وفق أعياد دينية؛ وبدا له أن حياة النساء ليست مماثلة لحياة الرجال ضمن هذا المستوى. وباستثناء الساعات التي كان يقضيها في الركض مع رفقائه وخيوله، لم يكن يرى عملياً إلا النساء وأكثر ما أدهشه يعود إلى الفرق بين ما يتحدثن به وبين ماتتحدّث به أمه. ولم يعرف كيف يكلّم أباه بذلك، لأن اخوته لايهتمون بهذه الأشياء، مكتفين بانتهاز الفرص مع نساء العائلة. وتهيّأت له المناسبة عندما نصبت الأم سلّماً ذات مساء من أيام شهر رمضان عندما صام لأوّل مرّة يومين كاملين: أسندت الأم سلماً صغيراً في صحن الدار باتجاه مكّة المكرّمة، وعندما ارتفع صوت المؤذن معلناً الغروب وموعد الإفطار، أمره والده أن يرتقي السلّم وناوله كأساً من عصير الليمون المحلّى شربه بتلذّذ بعد أن عانى قسوة العطش طيلة النهار، وعبّرت النساء عن هذا الاحتفال الصغير بزغردات حادّة، واحتضنت لالا زهرة الفتى الصغير بعد أن ألقى بنفسه بين ذراعيها وقالت له:

«لقد وضع خالك في أسفل هذا الكأس قطعة نقد فاحتفظ بها! ووالدك، يا سيدي، سيشرح لك».

أمسك محيي الدين بكتف ولده وأجلسه إلى جانبه، وبدأ الإفطار علانية بأن قسّم الأطعمة المعدة من قبل النساء والموضوعة في صينية واسعة: قسم لأولئك الذين بقوا في المطبخ، وآخر لمن يحرس الدواب في السهل أو في المخيّم وللفقير وعابر السبيل وقال:

في العام القادم، ستصوم يا عبد القادر بانتظام، فالسنة التي يصوم بها المسلم دون أن يضعف طيلة الشهر تسجّل عهداً جديداً في حياته.

وافق الحضور بجلبة؛ لكن المقدم استمرّ ليسمع الآخرون ويعوا إذ أنه رأى بعضهم يقبل بنهم على الطعام بينما يجب أن تكون الحركات بطيئة ومتأنيّة:

«نقل البخاري هذا الحديث عن النبي سيّدنا محمد ﷺ وردّد جميع الحضور هذه العبارة «صلى الله عليه وسلّم» الواجب النطق بها. وتابع محيي الدين: «على الصائم

ألا تبدر منه تصرّفات مخلّة بالحياء، وألّا يكون فظّاً؛ فإن هاجمه أحد، ووجّه إليه كلاماً جارحاً، فليردّد مرّتين: اللهم، إني صائم!».

ـ هتف كل واحد وهو يزدرد برشاقة اللقمة المعدّة بشكل كريّة بيده: «آمين» بينما راح محيي الدين، وجسمه منحن قليلاً إلى الأمام يذكر الشروط التي حدّدها القرآن الكريم على الناس:

﴿يا أيّها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون...﴾ (٢ ـ سورة البقرة، ١٨٣).

وانسحب كل واحد بعد العشاء، قبل بداية السهرة، ومشى محيي الدين، وهو يمسك بكتف ولده، ويشرح له بصوته العذب الرزين تقاليد الصيام الطويلة لدى الشعوب السابقة للإسلام، لكن عبد القادر كان متلهفاً، فسأل وهو يخشى أن يكون مكثراً من الكلام: «ولكن إن قام مانع دون الصيام، أو كان الإنسان في سفر؟».

وابتسم محيي الدين وأجاب:

«الله يعرف النوايا، يا بنيّ، وصرّح لنا بكلّ شيء لنتمكن من اتباع الصراط المستقيم. اسمع ماورد في القرآن الكريم:

﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدّة من أيام أخر، وعلى الذين لا يُطيقونه فدية طعام مسكين﴾ (٢ سورة البقرة ١٨٤).

أجاب محيي الدين مطوّلاً على ما يجول في نفس ولده وما يقلقه بالقول ـ إن الله يريد لنا اليسر لا العسر، ويجب عليك أن تصلي وتتضرّع إلى الله دون انقطاع لأن الله قال: ﴿ادعوني استجب لكم﴾ (٤٠ ـ سورة غافر، ٦٠).

أطلق عبد القادر سؤالاً كتحد: «هل يجيب فعلاً يا أبي؟ أما أنا فإنّه لم يجبني أبداً.

ـ ذلك لأنك كالنساء اللواتي يطلبن منه حماقة!

حافظ محيي الدين دائماً على هذه الابتسامة الفائقة الوصف وهو يمسّد لحيته، وكانت عيناه تبرقان فرحاً وهو ينظر إلى ماتتكشف عنه أسئلة ابنه من ذكاء. كان يشعر بالثقة في مسارّة هذا الابن، وفي الوقت ذاته، وكأنّه يخشى من رخاصة عوده، يفرض على نفسه، أن يهتم به بجدٍّ، فاستأنف:

ـ آه يا عبد القادر، نعم، إنه يجيب، لكنك أنت وحدك ستعرف في قلبك عندما يقرّر ذلك؛ إن المسافة طويلة والطريق وعر، لكن إن تثابر فستتلقى النور.

وتساءل محيي الدين لماذا يختار الله بعضاً دون بعض الآخر.

أخيراً... إنه العليم وتلا محيي الدين بشكل شبه آلي الآية الكريمة:

﴿ولله غيب السموات والأرض، وإليه يرجع الأمر كلّه﴾ (١١، سورة هود ١٢٣).

المقامة الخامسة

هو الحيّ!

«دراسة العلوم بمثابة الصيام، وتدريس العلوم بمثابة الصلاة»

بدءاً من ذلك اليوم، وفي كل صباح، أخذ محيي الدين يعلم ولده قبل أن يدعه يذهب للإسطبلات أو يجري مع رفقائه. علّمه الأربعين حديثاً، وراح يشرح له كلاً منها بكثير من الدقّة مركّزاً على الحكمة منها، والمناسبة التي اقتضت هذا القول المأثور عن النبي ﷺ؛ وهو يزيد من شرحه دائماً بالكلام، أو بالإشارة، أو بالمثل، مفصّلاً في المعنى الذي لايفوته التأكيد عليه. فهم عبد القادر عندئذ جميع الدروس التي أعطته إياها أمّه، وأحسّ باعتزاز كبير لاكتشافه أنها بكلمات بسيطة كانت بمثل الدقة والعلم الذي وسعتهما ثقافة أبيه ومراجعه. كان الوقت يمرّ دراسياً مع أن الله وحده يعلم أن الساعة تقترب. وارتاب محيي الدين قليلاً بذلك، إذ أن إشاعات كثيرة كانت تصله من فرنسة وإسبانية، وخاصة من السلطنة العثمانية. كان المسافرون غير قلائل؛ والأخبار الذاهبة من تونس إلى فاس تعبر المنطقة.

قلق محيي الدين من الأحلام العديدة التي كانت تنعره: ووجب أن يذهب إلى الشرق ليستشير كبار العلماء، ويزور قبور الأنبياء، وقبر الصقر الأسمر! ورغب كثيراً أن يصحب عبد القادر معه، لكن هذا لم يكن جاهزاً تماماً للحجّ، يمكنه أن يبدأ بالعمرة، وبعد عودته من بغداد قد يقوم بالحجة الرسميّة. وحلم محيي الدين برحلة كبرى لعدة سنوات مع ابنه، ونام على هذه الرؤيا السعيدة. وأيقظه البرد مع الفجر، إنّه كابوس الحرب والشقاء، ويجب أن يقرّر عاجلاً.

الله هو الحفيظ، وهو الخلّاق دون مثال

علمته لالا زهرة الوالدة القراءة، والحياكة لأن على الإنسان أن يعرف كيف يكسو نفسه؛ وحفظ القرآن، كما حفظ الحديث: ويجب عليه إذاً أن يذهب للدراسة عند العلماء. يجب أن يخرج من حلقة النساء العديدات حوله، وأن يخفف من ولعه بالخيول التي تأخذ كثيراً من وقته. يجب أن يدرس لأن إدارة الطريقة ستعود إليه، وربّما شيء آخر لايعلمه إلا الله. يجب إذاً أن يرحل للعلم، لكن ليس إلى وهران المدينة الملحدة التي تسود فيها قلة الأمانة. ومازال محيي الدين متردداً في إرسال ابنه الشاب إلى القرويين (جامعة فاس المعتبرة) لأنه حَذِرٌ من السلطان مولاي عبد الرحمن، وبدت له تونس بعيدة جداً رغم شهرة جامعةَ الزيتونة، وليس لآل هاشم فيها أقارب أو صلات كما في مراكش، والحال أن عبد القادر لن يتمكن من الذهاب إلى الأزهر، كما يتمنى في سره سيد القيطنة، إلا بعد أن تتوطد علومه. وفكّر المقدّم عندئذ بقاضي أرزو الشيخ السي أحمد بن طاهر، فهو القادر على القيام بهذا الواجب، والمدينة صغيرة، وأكثر ضمانة، وأقل بعداً، ويمكن لمحيي الدين، إن احتاج الأمر، أن يصل إليها على صهوة جواده، خلال أقل من يومين إن رغب في رؤية ابنه.

وكما يجب، فقد علم محيي الدين ابنه **الأدب**/ أي حسن تصرّف المسلم: متى وكيف يجب أن يسلّم وعلى من، وفق الترتيب المرغوب، كيف يجب أن يحبس التثاؤب المحرّض من الشيطان، وكيف يرافق العطاس بالصيغة الشعائرية؛ ولكن وبصورة خاصة القيام بزيارة المرضى، والفقراء، والأقارب، وفق ترتيب مقرّر، وأن يقدّم الهدايا الواجبة ولمن تجب دون إثارة حساسية أحد، وأن يحضر المآتم، علّمه جميع هذه المواقف التي تضفي كل أهميتها على العلاقات الاجتماعية التي تؤسّس الأمّة/ مجتمع المؤمنين. لكن كان على عبد القادر أن يتعلم أشياء أخرى أيضاً.

المقامة السادسة

المقامة المضادة الدنيوية

في السنة ١٨١٦، تلك التي نرى فيها ثورة تيجان، وثورةُ ولد سيدي الشيخ تتقدم حتى وهران، بل وتتوجّه نحو مملكة المغرب[1]. بينما بني عامر لايدفعون الأتاوات.

١ - كيف أجرؤ على وصف هذه المرحلة، وقد ذكرت كاملة لدى جاك برك J. BERQUE في مؤلفه: «داخل المغرب».

وفتنة البربر المسلحة يوجهها بو دريا لدى آل زُداما، والحاج محمد في تلمسان، وعبد الله بن هيوا، الخ..

في السنة ١٨١٦ تلك، تقاسمت القوى الجديدة المتحالفة العالم مرّة أخرى وبدأت المغامرة الاستعمارية الكبرى، بالرغم من أن أصحاب العلاقة الرئيسين ـ المُستعمَرين مستقبلاً ـ لم يعلموا بَعدُ بالأمر.

المقامة السابعة

أحبب الخيل، والسلاح، والصيد.

فبالخيل تستطيع أن تؤمّن الخير والرفاهية، ورفعة المقام.

وبالسلاح تبعد الشرّ، وتتقي أذى الناس.

وبالصيد تتعلّم الحرب، وتقوّي صحتك، وتطرد الهموم.

كان سهل ايغريس يمتد على مجموعة من التموّجات الخفيفة تخترقها بعض مجاري السيول التي تنتشر على جانبيها جنيبات الدفلى، وهي جافة في معظم الأوقات، لكن العواصف المطريّة المفاجئة تملؤها فجأة بحيث تفاجئ الخيّالة أنفسهم. وقد أشار السائس العجوز لعبد القادر ورفقائه الشباب إلى سرب طيور يحلّق مسرعاً متّجهاً نحو الغرب، فالعاصفة قد بدأت هناك، نحو جبال تلمسان، وهبط الليل، بعد أن لعبت الكوكبة الصغيرة من الفرسان على ظهور الخيل طيلة النهار بإشراف مدرّب الفروسية: وتبارى الفتيان في لعبة الكرة والعصا، وتمكّن عبد القادر، مرّة أخرى من أن يتغلّب على جميع منافسيه، ويعرّض للسخرية بعضهم باقتلاع العصي منهم. جروا لاهثين يقفزون، ويقومون بألعاب بهلوانية، إلى الأمام وإلى الخلف، ويدورون من تحت بطن الحصان. يردف أحدهم الآخر خلفه، ليلحق بحصانه بعد أن يقفز على رجل واحدة، ليسقط عنه مرة أخرى. وأنهكهم التعب في حركاتهم هذه، والعجوز ذو العمة السوداء، واللثام الأزرق يبين لهم كيف يجب أن يجروا مع الريح، ملتصقين بعنق الفرس، وقد ردوا طرفي البرنس حول رأسهم. ساد الصمت في الصفّ، وغذّت زمرة الفرسان الخطا بينّما الخدم يجرون خلفهم بالأمتعة، وهم يسحبون بغالهم المشرئبة الأعناق نتيجة الجهد. وتعود الكوكبة والخواصر قد تقعرت تعباً، وربلات الساق تكززت نصباً، والظنابيب مرضوضة بالركاب، وقد تشكل الثفن تحت علقة من دم.

بدا الضمور على الفتيان وعلى الدواب، فكانوا كذئاب جائعة، هزيلة، رؤوسها تتدلى نحو الأرض؛ والليل يعم الكون، والنساء ينتظرن أبناءهن قلقات، وعندما وصلت الزمرة الصغيرة إلى حمى القيطنة انطلقت صيحات الفرح، وتظاهر محيي الدين بالغضب، فجلجل صوته:

«إيه يا مدرّب الفروسية، ثلاثة أيام! ولكن إلى أين وصلت بهم؟ على الأقل حتى منطقة أولاد سيدي الشيخ؟».

ـ أشرفوا على حدود الصحراء، علمتهم أنواع النباتات والزواحف، يا سيدي! شربوا منقوع **الشيح**/ النبتة العطرة البيضاء التي تخفّف الحمى، وتجنب الفارس النزول عن سرج جواده؛ وصادفوا قطعان الأروية، والحيرم، والأرانب البريّة، لكن لم نر النعام هذه المرّة.. يمكنهم أن يتعرفوا الآن على نبتة القطاف التي تسبّب الإسهال للخيل والدرين والحَلَفا نبتتين بمقام الشعير.. أريتهم أيضاً الجمال الوحشي، والخضرة، والخَير الذي تتضمنه الشطوط والغلتات والدعيّات والغدران والآبار والحاسي وجميع أنواع الآبار المحفورة في الرمل، وتلك المتجمّعة في تجاويف الصخر. افهمتهم معنى صرير العظايا على الرمال، وكذلك قول الأسلاف: «لاتهدر الماء قبل أن تجد ماءً آخر». إنّهم يعرفون الآن اقتفاء الأثر ودلالاته. وهم يعرفون جميع القبائل، كل منها باسمها، وبعلامات خيمها حتى الجزء منها، كما يعلمون من منها تصيد بطيور القنص، ويمكنهم الآن أن يتعرفوا ويسمّوا هذه الطيور وفق سلالتها ونسبها: النبالا، والبحّارا، والبّرانا، والتراكل، صقور وعقبان سوداء وصفراء. أخيراً يا سيّد الحمّام والقيطنة، يا مقدّم آل هاشم، صدّقني إن أردافهم يمكن أن تشهد على أن سروج خيولهم كانت عروشهم.

والله إنّ ما أقوله صحيح؛ بل إنني حفظتهم قصيدة لعبد العزيز بن قبرموح الباجوزي كانوا يهزجون بها وهم يسيرون:

أيُّها الملك الذي يحتل ذووه أعلى المراتب العالية

أنت يا من زيّن عنقي بقلادة من نعمه

الثمينة كاللآلئ

وهي مثلها تشكل أجمل الحليّ

جمّل يديّ بصقر
ولتكن أجنحته شفافة
وريشاته تتلاعب مع ريح الشمال
وعندها سننطلق باعتزاز مع الفجر
ويدي تلاعب الأنسام
لتحبس الحرّ مع المقيّد

قال المقدم: «هذا حَسَنٌ، نضّر الله وجهك، وزادك خيراً».

ورفع يده مباكراً مدرّب الفروسية، الذي تغطرس وهو يشدّ شكيمة حصانه غير الخصي، الذي توجّه بمنخريه المتسعين نحو أفراسه. وبينما كان كل فتى يافع يعجّل للحاق بأمّه، أشار محيي الدين بحركة قاسية، شبه غضبى إلى الإسطبلات قائلاً:

ـ «الخيل أولاً، يا عبد القادر، أنسيت ما قال نبينا الجليل ﷺ عن هذه الهبة الثمينة التي منحنا إياها، هذه الهبة الفائقة؟ قبل أن تذهب إلى النساء، عليك أن ترفع السرج، وتفكّ عدّة الرحل، وتتحقق من مكانة الأحزمة بالنسبة إلى ركوب مقبل قد يكون مفاجئاً سريعاً. ثم عليك أن تُمسّ حصانك، وتفرجنه وتعتني به، وتنظف قوائمه، وتقدّم له عَلفة المساء، وتتحقق من وجود الماء الصالح لسقايته، وتكشف على روثه. اذكر لي ما أثر عن النبي ﷺ في ذلك.

ـ اغفر لي عجلتي يا أبي، لكنني لاحظت مدى القلق البادي على وجه أمي الجميل.

لم يستطع محيي الدين أن يكبح ابتسامة خفية ارتسمت على محياه وقال: بكل تأكيد! ولكنّ قل! إنني مصغ إليك.

ـ «الخيل معقود بنواصيها الخير حتى يوم القيامة».

ـ حسن يا بني. ولكن عمن روي هذا الحديث، وهل هو موثوق؟ رد عبد القادر وهو مطأطئ الرأس، وهو يتنهّد خفية «لا أعلم».

ـ حسن يا بني، قبل أن تلتحق بأمّك، وبعد أن تتوضّأ، تعال لنصلي العشاء سويّة، وسأعطيك درساً في إسناد أحاديث نبينا الجليل ﷺ. اذهب الآن، ولاتنسَ أن السوّاس ليسوا في خدمتك وإنما هم في خدمة خيولنا.

قام الفتيان المنهكون بالفرجنة وهم يحتجون؛ تحت الأنظار الساخرة للرجال، والخيول، والسائسين، والخدم، الذين لايمكنهم أن يكونوا إلا في خدمة المحاربين النبلاء وليس في خدمة الضعاف الخائري العزيمة.

المقامة الثامنة

قال ابن عمر، رضي الله عنهما: أمسك بي رسول الله من كتفي وقال لي: «كن في هذا العالم كغريب أو عابر سبيل».

دخل عبد القادر خفية من باب المصلّى، وحيّا القبلة بانحناءة خفيفة من رأسه، فمنذ أن بلغ الأربعة عشر عاماً، وقام بالصيام خلال شهر رمضان قدّر أن والده سيعهد إليه قريباً بهذه الاحتفالات التي كان يستمع إليها مع رفقائه من السطح، والتي لم يكن يعي تماماً أهميتها.

كان محيي الدين في وضع شعائري في الزاوية الواقعة على يسار مشكاة التوجّه المشيرة إلى اتجاه مكة المكرّمة، وضجيج الخارج يتلاشى شيئاً فشيئاً تخمده السجاجيد والنوافذ الثلاث المحجوبة؛ بينما يضيء غبش المساء قنديل زيت واحد وضع في النجفة الكبيرة من الزجاج المزخرف التي أحضرها جدّه من بغداد. وأشار محيي الدين إلى ابنه، فجاء يجلس إلى جانبه وقد ثنى عقبيه ووضع يديه على ركبتيه وأحنى رأسه قليلاً، وهو ينظر إلى والده:

كان عبد القادر يفكر: «إن اسم والده محيي الدين، وهو يحبني أكثر مما يحب أخوتي، ويفضّل أمي على نسائه الأخريات. فلماذا؟ لماذا أنا بالذات؟

تأمّل محيي الدين بدوره ولده، وقرأ في العينين الجميلتين لهذا الفتى الذي سيغدو معلمه مايدور في رأسه من أفكار: إنّه يعلم المهمة التي تنتظر هذا الابن النحيل، ذا الوجه الشاحب، والعينين الزرقاوين، والجبين العريض بالوشم الصغير بين الحاجبين.

لاشك أن إحدى السوداوات المتطيرات اللواتي يملأن منازلنا ويخلصن لنا قامت بإجراء هذا الوشم له خفية». وابتسم محيي الدين رغم أنه يأنف من هذه الشعائر التي يرى أنها بعيدة عن الإسلام ـ ولكن بعد كل حساب، الله هو العليم، وكلّ يعبده على طريقته..

هو يعلم أن لامثيل لابنه في إيجاد المرعى المناسب لمواشيه، واختيار البذار، ومساومة

التجار اليهود على أسعار الحبوب، واصطياد الطرائد، والقفز عن جواده بسرعة لذبح الطريدة المصادة مباشرة، وتقدير الحمل المناسب لطاقة البغال، ومعرفة أصناف الجمال الثمانية عشر، واكتشاف المسالك الأكثر أمناً، وحتى، وهو واقف على سرج حصانه، اطلاق النار من بندقيته، وحصانه مسرع في عدوه، وهو بسحره الخفي موضع إعجاب نساء العائلة، وحتى نساء آل هاشم جميعاً.. ومحيي الدين يعرف أن المقاتلين، وسادة الحرب والمتغطرسين لايحبّون هذا الصنف من الرجال؛ لكن عليهم أن يفعلوا ذلك قريباً. والعلم والنفوذ سيحققان النجاح لولده. والقَلَم منذ أن بُرِيَ كان في خدمته السيف منذ أن شحذ...

يجب إذاً البدء بتثقيف عبد القادر بالعلوم الأخرى. وكان محيي الدين يفكر بالحديث التالي المرويّ عن أبي هريرة: «عرفت قرب رسول الله ﷺ مايملأ مؤلّفين، وقد نشرت محتوى أحدهما، ولو تجرأت على نشر محتوى الآخر لقطعت حنجرتي».

خاطب محيي الدين ابنه قائلاً: آن الأوان يا عبد القادر، لأشرح لك بعض الأمور! في حديث للرسول ﷺ يؤكّد أن الله كشف لنا كتابين في كتاب واحد. وبتعبير آخر، يوجد منبعان في الكتاب الواحد. إذاً هناك طريقان للوصول إليه، ومن المؤكد أن كلا منهما يمر باحترام شريعته ولذلك فأنا قبل كل شيء مسلم ورع. سليم المعتقد. ولكن هنا في هذا المكان وهو كما ترى، مختلف قليلاً عن المسجد المجاور له، ومع ذلك فأنا أقيم فيه الصلاة، وألقي خطبة الجمعة، في هذا المكان الخاص ظاهراً، حيث يختلف كل شيء رغم تماثله، هنا ستتعلّم ماهو خفي نسبة إلى ماهو ظاهر. كان صوت المقدّم هادئاً، يتنغّم بطريقة فيها من التناسق مايجعل عبد القادر لايسمع إلا أنشودة متموّجة، وهدوء الكائن ووجوده في المكان يهدهدانه ورأى نفسه يعتلي متن فرس ذات جناحين من نسيم، ويخَبُّ فوق السحب وها هو فجأة في بغداد، على ضريح سيدي عبد القادر الجيلاني وليّ هذه الفرقة القادرية التي يُعتَبَرُ والده ممثّلها السامي. ويربط فرسه إلى جذع شجرة العنّاب التي تظلّل ضريح الولي، ويلج إلى الداخل، فيراه جالساً على حافة الضريح، ويستقبله بابتسامة عريضة قائلاً:

تعال، يا عبد القادر، تعال لأضمك بين ذراعي، أنت من سيكرمني فيما بعد، وسيتجاوزني يوماً، بمشيئة الله. تعال إلى هنا، واجلس قربي. فأسلافك كانوا دائماً من تلاميذي، واتبعوا النهج الذي حدّدته منذ زمن طويل، ولكن ما أهمية الزمن، والله قادر

على كل شيء. تعلم شرعيتي بالسلسلة التي تربطها بالأصل، وطريقتي وتعزيماتي، واتل وِردِي، ومارس ذكري، ومابقي سيأتيك علاوة، لأن الله قال في كتابه العزيز لنا ﴿اذكروني اذكركم﴾ (٢، سورة البقرة/١٥٢).

حمل محيي الدين الفتى بين ذراعيه، وسار به إلى غرفته حيث وضعه برفق في فراشه قرب مربيته، بينما قال في نفسه إن عليه أن يفكر أيضاً في تزويج الشاب عندما يعود مجدداً من دروسه المدنيّة.

وتمتم عبد القادر: ماهو وِردُك يا أبي؟ وماهو الذِكرُ؟ قال محيي الدين برصانة: في البدء، هذه تذكرة الله لك، دون أن تعلم؛ يجب إذاً أن تعود إليها بإحيائها بدءاًمن طرائق الأسلاف، والمعلمين والأجلاء التي أورثوها لنا. إن تحقيق الرسالة يتم بالجهر أو بالنسخ، وكلا الطريقين مشروع وهما يتقاطعان أحياناً. يجب إذاً التقرّب باستمرار من المختلف كليّاً، والكبير كليّاً، للحصول على شيء آخر غير نسخة اللوح الكبير، انعكاس الكتاب الكبير. لقد أنهيت دراسة **لوحتك**، هذه التي تعتبر بمثابة المدرسة الابتدائية لك، يا ولدي، وعلى هذه اللوحة المتواضعة، تعلّمت نصّ القرآن؛ وأنت تعرف تعذر مضاهاته، وعليك الآن أن تجوّد فيه كليّاً، لتلتقط الطاقة التي تنظّم الفوضى، لأنّ كل شيء هو حركة تموّج، ولولا القوى المعماريّة المنّظمة بالشعائر التي تمارسها لترجرج العالم.

ابتسم محيي الدين، بسعادة، وهو يداعب جبين ابنه، وهمس له برفق: «غداً، غداً، إن شاء الله، ستعرف يا بنيّ، مايريده الله، وأعتقد جيّداً أن هذا مايريده. آمين، آمين، فكّر بحزم.

إن أبي السي مصطفى ـ وقد وضعته، يا ربّ، بين ورثاء جنة النعيم ـ تلقى السلسلة من المعلّم الشهير السيّد مرتضى الزبيدي في العام ١٧٩١، ونقلها لي، لأنقلها إليك بدوري؛ وستعرف قريباً يا عبد القادر وستكون خليفتي في هذه الذريّة التي تربطنا بالمؤسّس، وبالنبي ﷺ بالذات! نَم، يا ولدي، غداً، إن شاء الله.

في يوم الثلاثاء التالي، وصل مغترب جوّال يرتدي معطفاً كثير الرقع إلى قيطنة، واختلى طويلاً بمحيي الدين. وفي المساء، عند صلاة العشاء، بلّغ المقدّم في عظة قصيرة المؤمنين المجتمعين أنه يريد رؤية جميع أفراد القبائل إضافة إلى آل هاشم، لأن أشياء خطيرة تجري في أوروبة والمشرق. كان الجميع يعرفون أن باي وهران الجديد لايحب

آل هاشم؛ وهكذا غادر كلّ واحد المكان ورأسه مثقل بالأفكار والمخاوف. من المؤكّد أن الله هو الأعلم لكن القلق يحل أحياناً محل الإطمئنان.

بَدَرت إشارة من محيي الدين، ولاحظ عبد القادر الذي كان أكثر فأكثر انتباهاً لوالده وتعاليمه أن بعض الحضور لم يخرجوا مباشرة. وبينما كانت هذه الزمرة الصغيرة تنتقل إلى الغرفة الصغيرة المجاورة؛ أشار محيي الدين لابنه ليلحق به. ووجد عبد القادر نفسه عندئذ في المصلّى جالساً إلى قرب أبيه. والرجال في صفّ واحد، وقد بدؤوا، وهم يترجحون في تعزيم بطيء، ينطلق من عمق حناجرهم، عرف فيه عبد القادر الصيغة الدينية الفائقة، الجهر بالشهادة والتصريح بوحدانية الله. لكن الأجسام غدت أكثر فأكثر ترجّحاً والصوت غدا أكثر فأكثر قوة بحيث لايُسمع إلا كصوت واحد.

أخذ قزم عجوز، كان يراه عبد القادر دائماً في المسجد، منشغلاً أو متسكعاً، كتابع اعتاد الصبيان على ممازحته دون انقطاع، أخذ عند ذاك دفّاً ذارقٍ، وراح يسرّع بالنقر عليه نغم التعزيم؛ بينما كان محيي الدين، وعيناه مغلقتان يترجّح وهو جالس على سجادته ووسادته. وانتاب عبد القادر الجزع فانشدَّ إلى أبيه الغارق في وجده، ووضع الأب عندئذ يده على كتفي ولده كأنه يريد أن يحتضنه. وشعر عبد القادر عندئذ أن جسمه محمول كلياً في دوامة بطيئة. ورأى نفسه يرتّل الشهادة دون وعي منه تقريباً وتوحّدت الضجّة في صوت واحد يتضرع بوحدانية الواحد «هُوَ، هُوَ، هُوَ، هُوَ...» كعقدتين متشابكتين للواحد الصمد، النسمة المكوّنة، الطاقة الحيوية المتفجرة في الكائن.. كُن البدائية/ فيكون. الروح، النفس.

شهد عبد القادر لساعته خلق العالم، وفي أوّل جلسة مسارّة له عاش مجدّداً ولادته قبل أن يعيش ميتته الصغرى. اكتشف قوة الشعائر، وإبداع العقل... لكنه لم يتمكن بَعدُ من أن يدرك أن والده، شيخ العقل الحالي، لم يكن زعيماً سياسياً، كما أنه ليس زعيماً للجماعة.

﴿وإذا القبور بُعثِرت، علمت نفس ماقدّمت وأخّرت، يا أيُها الإنسان ماغرك بربك الكريم﴾ (٨٢، سورة الانفطار ٤ ـ ٦).

كان الوقت متأخّراً ليلاً، عندما أعطى المقدّم فجأة الأمر بإيقاف التعزيم فاسترد كل واحد أنفاسه، وجلس في وضع شعائري، ونظر إلى محيي الدين المتأمّل بابتسام إلى عبد القادر.

عرف عبد القادر بين الجمع عدا أنسبائه، أشخاصاً من آل هاشم لا يشك بأنّهم من أصدقاء والده الأعزاء. لكنّ الرجل ذا المعطف المتعدّد الألوان كان إلى جانب المقدّم، ولم يحرّك ساكناً طيلة الاحتفال، وأذن له آنذاك محيي الدين بالكلام، وراح الرجل يتحدّث طيلة الليل. وسمع عبد القادر أشياء مذهلة: توجد عوالم عديدة ما بعد سهل إيغريس، عوالم بعيدة، منها ماهو أنيس، ومنها ماهو عدواني. ولن تتاح معرفة العالم إلا بالرحلة عبر الزمان والمكان.. فالتجوال وحده يتيح الحدّ من الإبعاد الغربي، والإرتقاء وحده يتيح استنفاد الضلال الدنيوي... ثم نهض مساهم آخر وبدأ في ترتيب نصّ طويل لم يكن عبد القادر يعرفه، لكنه يمتدح مثالية النبي ﷺ، وكان صوته يتكيّف مع الترتيلة، ووقفات الأحرف الحلقية تنغّم تقطيع النصّ. والأخوة يُثنّون أحياناً بطريقة مرحّبة مطلقين هتاف «الله» أو عبارات الشكر لله الواحد، الأحد، الصمد ذي الأسماء الحسنى.

ثم بدأ المرتّل من جديد إعادة التعزيم، ووقف المشاركون في وضع شعائري وهم يرددون هذه المرّة، الصفة الأساسية: الرحمن، الرحيم، مرّات توقف عن عدّها عندما اندفع بدوره في هذا الترداد.

قبل الفجر بقليل قام أحد المشاركين، وبعد أن انحنى أمام المقدّم والزائر ومشكاة التوجّه، وضع يديه على صدغيه وراح يرتّل ابتهالات لم يسبق لعبد القادر سماعها، والحضور يؤيدون بكلمة أو باسم، أو «باسم الله» وبعد أن شكر محيي الدين المرتل توجه بالتضرّع إلى النبيّ ﷺ. نهض بعد ذلك شاب، لايعرفه عبد القادر، واستأذن من محيي الدين في الرقص، كما يفعل عادة، ولم يكن محيي الدين يحب كثيراً هذا الرقص الدوّار لكنه أذن له مجاملة؛ وبدأ الشاب ـ الذي قيل عنه لعبد القادر إنه تركي أو خولو غلي ـ بالدوران حول نفسه، وإحدى يديه ترتفع نحو السماء، والأخرى تتجه نحو الأرض وهو يقرعها بكعبيه، ورأسه منحن قليلاً نحو القلب. ومال عبد القادر مرتعباً نحو أبيه، لكن هذا، وقبل أن تصدر عن ابنه أي كلمة، همس له:

ـ نعم، يجب أن تختلط بهم عندما تذهب إلى وهران! فإن بينهم من هو ذو أهمية.

لم يقتنع عبد القادر، وعلى كل حال لايريد الذهاب إلى وهران: وهو يعتمد على والدته لمعارضة هذا المشروع. لكن عليه، قبل ذلك، أن يفهم بعض الأشياء الغامضة التي يصوغها على طريقته اليافعة؛ فسأل أباه إن لم يكن في الإسلام، في الواقع،

عبادتان، وفقاً لما رآه. وابتسم محيي الدين، ومسّد لحيته، وجذب ولده إلى حجره، وراح يتحدّث إليه مطولاً:

ـ «لاتتسرّع يا بني! فالطريقة/ المسلك، والدرب، والقاعدة أمامك، وستحمل قريباً وردة سيدي عبد القادر، لكنك لاحظت أن جَدَلاً أكثر عمقاً يثير الخاضعين لإرادة الله التي لاتتجلى دائماً بوضوح أو بداهة؛ وعليك أن تفتش وستجد. ومايتعلق بما شاهدته فإن الحقيقة بالنسبة لك في هذه المرحلة من حياتك هي التالية: إن ترتيل القرآن هو دلالة الإيمان اللفظي لمجتمع المؤمنين الذين يحركون كل القوى الاهتزازية فيهم. وإنشاد الوِرد الذي سمعته هذا المساء فيه شيء من هذا، إنّما هو اختيار بينما الآخر هو فريضة؛ أتفهم يا بنيّ؟

فكّر عبد القادر أن الأمور ستنجلي من ذاتها، لكن هذا لم يخفف من انتباهه وهو المنجذب بالتوتر المتجلّي على وجه والده، مع أن هذا كان يتسم بتلك الطيبة الفائقة التي ترافق دائماً حسّه التربوي، وهو يهز كتفيه، وخفف فجأة من مستوى اندفاعه وهو يؤكد:

«ثمّ، وكما كانت تقول جدتك، المرأة الصالحة، بعد كل حساب، أليست الزبدة بالنسبة للحليب كما الباطن بالنسبة للظاهر. والسرُّ والمعنى الخفي ليسا إلا الوجه الآخر غير المنفصل عن الجهر والجلّي.. يا بنيّ، إننا ننتمي إلى سلسلة طويلة، وخاصة بفضل أسلافك، سيدي مصطفى الذي تلقّى التولية من السيّد مرتضى الزبيدي في مصر. وكان شعاره يحمل «سبحته.وسيفه» وهو شعار بيتنا منذ أن جاء جدّك القروي من الريف ليقود جماعتنا هنا بمشيئة الله! هذه السلالة المساريّة التي تلحقنا بأكبر المعلمين، التي ستبدأ دراستها الآن، توازي المسلك الذي بيّنته لك الآن. كل هذا لايخلو من التعقيد، وستكتشفه شيئاً فشيئاً. والمسلكان يتلاقيان أحياناً، وستتوجّه نحو النور ـ إن شاء الله.

أبت، مالا أدركه: أيّ فرق بين مبدأ هذه الرابطة الأخوية التي تديرها، وذلك المسلك الذي تتحدث عنه.

بدا الإعجاب على محيي الدين، فهذا الفتى اليافع فائق الموهبة قطعاً، وأجاب: سؤال جيّد يا بني. فلنقل، وهذا يكفيك حالياً، ان درب التدرُّب ضروري لبعض الناس الذين لايذهبون بعيداً جداً، والواقع أنني قد وضعت أنا بالذات مؤلّفاتي لإرشاد

المتدربين والمتعلمين، وأنت تعرفه، لأنك وجدته كما قلتَ لي غير كاف! ومن حسن حظ آخرين أنهم يتلقّون ميراث نعمة تقودهم إلى أبعد مما يتصوّرون أو يجرؤون على الأمل به... مع أن كلّ الدروب دائرية... وفيما بعد سنذهب لزيارة مؤسس طريقتنا، عبد القادر الجيلاني: وقد عاش في القرن السادس الهجري[1]، وضريحه قائم في بغداد.

- آه! هوّذا سبب كلامك عن الصقر الأسمر، يا أبي!

ابتسم محيي الدين وتابع:

«ثم سنذهب لزيارة معلمنا الأكبر، معلمنا الحقيقي، الشيخ الأكبر ابن العربي في دمشق». ثم أوضح باعتزاز:

«كان يحمل اسمي نفسه، محيي الدين، وقد وُلِد في مرقية وكانت الأندلس إحدى ممالك المسلمين، وعرف أكبر علماء تلك البلاد التي ضاعت ومنهم ابن رشد الذي تناظر معه. ثم رحل، كما قدر له، وعلّم في كل المغرب حتى المشرق حيث توفي في العام ٦٣٨ هـ[2]. ونحمد الله على أنه ترك لنا كتابات عديدة، يمكنك من الآن فصاعداً أن تتذوق بهجتها العميقة. وكما ترى فقوّة الإسلام في أنه تنفسي»: فالقرآن ليس فقط كتاباً للأعين؛ إنّما هو أيضاً مقرأ استظهار، إثبات إيمائي للكلام المبدع يملأ كامل الحيّز الصوتي؛ فالاستظهار عندئذ هو تبصّر جسماني في انكفاء الدال على المدلول في خمس محطات يوميّة: هي الصلوات التقليدية التي تنسج اتصال ما انقطع من الاستمرارية، من كليّة الزمن في المكان المتجانس الذي سيقودك من الشريعة إلى المدنية، الحاضرة المنفتحة بالمحبة... وستهتف كهتافنا هـ.. هُوَ... الله، كالنفثة التي بعثت الحياة في جميع المخلوقات.

كان الفتى اليافع قد نام على الركبتين الأبويتين؛ لم يحن الوقت بَعدُ ليعرف أن الجلّي ليس إلا الوجه الآخر من مرأة الخفي، لكن هذا الوقت سيأتي سريعاً بل سريعاً جداً، فكر محيي الدين الذي أخذ يداعب برفق خصلات شعر ولده الأثير دون أن يوقظه؛ ثم رقد بدوره بلطف على سجادة صلاته. في وضع شعائري؛ وكان يصلي

---

١ - توفي العام ٥٦١ هـ المقابل ١١٦٦م.

٢ - مما يقابل تشرين ثاني ١٢٤٠. انظر ك. أراس C.ARDAS: «ابن العربي، أو التماس الكبريت الأحمر. باريس غاليمار، ١٩٨٩».

طيلة الليل لهذا الابن الذي انتظره طويلاً، والذي فاق بحدة ذهنه كل الآمال المنعقدة عليه.

أمّا عبد القادر فكان يحلّق على فرس النبي ﷺ المجنّحة نحو الخفيّ، وماهو أبعد، رأى السبعين ألف حارس، ورأى يوسف، وفكّر، خجلاً بأنه ما يزال في نزاع مع أخوته، على الأغلب، لكنه كان يؤمن أيضاً بما كانت تقوله دائماً مربيته بشكل أمثال سائرة معبّرة عن أشياء حصيفة: «الأقارب عقارب، والأب تسلّط، والعمُّ ضيق، والأخ شَرَك، وأبناء العم أعداء، لكنهم أعداء أعدائنا..» رأى أيضاً موسى، وسيّدنا عيسى نفسه، ثم آدم وجبريل رئيس الملائكة الذي كان يكلّم سيّدنا محمد ﷺ كما كان آدم يكلّمه. لكنّه رأى في الوقت ذاته وجه أمّه التي كانت تؤنّبه قائلة:

ـ «اعرف أن أكبر القوانين هي أن يعرف الإنسان نفسه».

واستيقظ والعرق يتصبّب منه، ورأى والده مستغرقاً في صلواته فسأله:

«هل رأيت حقاً النبي ﷺ في حلمي؟».

ذكّره محيي الدين عندئذ بقول النبي ﷺ المُسند عن أبي هريرة:

ـ «من يراني في الحُلم، يرى الحقيقة، لأن الشيطان لايتمكن أبداً من أن يأخذ ملامحي».

وسأل عبد القادر مجدّداً: «ابي، هل الجحيم، جهنم موجودة فعلاً بجميع هذه الشياطين والسعلايات التي تهدّدني بها دون انقطاع مرضعتي ومربيتي ونسيباتي؟ وتسارع دفقٌ من الكلمات في خاطره:

«أبي، لماذا لاتقول لي أمي الأشياء ذاتها التي تقولها خادماتنا ونسيباتي؟ أبي لماذا؟...؟

رفع محيي الدين يده وقال برزانة:

اترك جميع هذه التساؤلات يا بنيّ! وتعال لتصلي معي فشعاع الفجر يبزغ في الأفق؛ والله لايميّز الناس إلا في ورعهم؛ فهو يحب أولئك الذين يخشونه بتقوى.

مرّر عبد القادر يديه على رَقَبته، وشعره، ووجهه، وذراعيه، بحركة شبه آليّة وابتسم محيي الدين، وتوجّه لإقامة الشعائر. وعند انتهاء الصلاة قال لولده: «بعد درس منتصف النهار، ذكّرني لأطلعك على كتاب رائع عن إسراء نبيّنا الحبيب ﷺ.

دُهش عبد القادر، وتساءل إن كان والده يعرف أيضاً حتى ما يحصل له في أحلامه. وعند الظهر بدأ قراءة ذلك الكتاب الذي لن يتركه إلا بعد أن ينهيه وفقاً لعادته. ومما جاء فيه:

«على جميع البشر في أربعة أنحاء المعمورة: الشرق والغرب، والشمال والجنوب ممن سيرون هذا الكتاب الثمين أو يسمعون قراءته أن يعرفوا هذا...»[1] عندما طوى عبد القادر المخطوطة الثمينة تلا الآية القرآنية:

﴿سبحان من أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ ووعد نفسه، إن شاء الله، أن يقوم يوماً بنفسه بهذه الرحلة. هو يوم رجا أن يكون قريباً بكل قواه، لأنه لم يكن يعلم أن القادر على كل شيء قد أعدّ له محطات أخرى.

المقامة التاسعة

المقدّم الثاني

سي احمد بن طاهر الريفي

﴿الله هو الوّهاب، قل اللهم مالك الملك، تُؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعزّ من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ (٣ آل عمران، ٢٦). أرزو ١٨٢٢، لكن الله وحده يعلم التواريخ الهامة.

قال المعلم: «توقّف يا عبد القادر عن القراءة، فالوقت متأخّر، وقد أجهدت نفسك اليوم، ستعاتبني لالا زهرة مرّة أخرى: يبدو أنك نحيف جداً، وأنني أرهقك بالعمل. آه! ماذا تريد، إن أمهاتنا متشابهات إنّهن لايقدرن مشقّة العلم!

رفع عبد القادر رأسه، وردّ محتجاً على ملاحظات معلمه الشيخ:

- سي أحمد بن طاهر معلم بطيوه، ما تقوله، مع كل الاحترام الواجب عليّ لعلومك، لاينطبق على أمّي: فهي التي علّمتني قراءة القرآن...

تملّص العالم الشيخ من وقع ملاحظته بإشارة من ظاهر يده، وهو ينهض بجمسه المتداعي عن سجادة قراءته قائلاً:

«تعال، أيّها الشاب المعتدّ بنفسه، تعال لأريك شيئاً».

---

١ - انظر ج. ا. بن الشيخ: إسراء محمد ﷺ: باريس. طبعة المطبعة الوطنية ١٩٨٨.

رغب عبد القادر أن يتابع المناقشة حول موضوع النساء، لكن بدا له بجلاء أن الوقت غير مناسب، مع أن مساواة النساء في التقوى كانت تكدّ ذهنه، بعد أن قرأ آيات السورة الثالثة والثلاثين (سورة الأحزاب)، حيث ترجّح تعابيرها عشر مرات المؤنّث والمذكّر، والمؤمنين والمؤمنات، والخاشعين والخاشعات؛ وقد أراد بجدٍّ أن يشرح له ابن طاهر هذه القضية، لكن هاوي الوثائق كان منصرفاً إلى الاستمتاع بإحدى مخطوطاته وهو يقول:

«انظر هذا يا ابن محيي الدين».

كان يمسك بيديه ملفاً سحبه من آخر رفّ جداري تراكمت فيه الكتب التي لاحظ عبد القادر وجودها لكنه لم يجرؤ بعد على استكشاف مافيها.

ارتجفت يدا الحكيم الشيخ وهو يبسط المخطوطة أمام عبد القادر ويتابع كلامه:

«هذه قطعة من مؤلّف **المنطقيات** لأرسطو، وقد ترجمها معلمونا الأجلاء عن الإغريقية، وبدونهم ماكنت لتعلم كيفية بناء الكون، أيّها البدوي الجاهل! انظر هنا، هوّذا السماء والنجوم.

كان عبد القادر يحب معلمه إلى حدّ لايعرف فيه إزعاجه؛ لكنه قال له بلهجة وقار مصطنع: «يا معلم، هل تعبد الآن المخطوطات؟»

دفعت هذه الملاحظة ابن طاهر إلى الابتسام قائلاً: «إنّك تتعلّم سريعاً، يا بنيّ، إنّك تتعلم سريعاً، لكن انتبه فالمعرفة يمكن أن تؤدّي بك إلى التعاسة.

أجاب عبد القادر مباشرة: «لايهم لأن نبيّنا ﷺ أمرنا بأن نطلب العلم ولو في الصين».

ـ كم أنت فتيّ! إليك تماماً ما علمنّا الإغريق: يوجد فرق مابين العلم والمعرفة، يا عبد القادر، وسيكون هذا موضوع وظيفتك القادمة، إنّما عليك من أجل إعدادها أن تقرأ ابن باجه ومتوحّده، ثم ابن الطفيل، وستبيّن لي رأيك في قصة **حيّ بن يقظان** ربيب الغزال أو الفيلسوف بدون معلم، وذلك من خلال قراءتك لأرسطو، سأسلمك هذه المخطوطة، وستعيدها إلي، لنقل.. غداً مساءً. اذهب الآن لإقامة الصلاة.

ـ ولكن غداً، يا معلم هو يوم تدرّبي على الفروسية، ويمرّنني مدربي في هذه الفترة على قفزة الجواد السابحة، وقفزته المنقلبة؛ كما أن علي أن أذهب مع السي

محمود لأجرّب حصاناً يجثو على ركبتيه! ثم يجب علي أيضاً أن أمرّ على السوق لأقابل يهودياً وعدني بحفنة من البذور المنتقاة لتجريب زراعتها في القيطنة خلال هذا الربيع.

ـ آه! آه! إنك تتعبني يا عبد القادر، فأنت تهتمّ بأمور كثيرة. هيّا أرجو لك التوفيق.

كان عبد القادر يدرس طيلة بعد ظهر أيام تلك السنة بشتائها البارد وصيفها الحار: القواعد، وفقه اللغة لفائدتهما الجلّي في فهم النصوص المقدّسة، وكذلك أيضاً الفلسفة، ومشّائي قرطبة بدءاً من ابن حزم الكبير، ثم ابن باجه حكيم سرقسطة الواسع العلم، وابن الطفيل فيلسوف قادس، وابن السيد البلطيوسي. كما درس أيضاً المعتزلة، ويجب الاعتراف أيضاً أنه تعرّض مع معلمه حتى إلى هؤلاء الزناديق الملحدين تقريباً الذين يفضّلون القاضي القديم، إنّما ولاء منه للمقدّم ولآل هاشم الذين عهدوا إليه بولدهم النابغة الذي شعر نحوه بالحب، فقد قام بتدريسه أيضاً ابن رشد، وابن سينا، ثم الغزالي والموردي وابن تيميّة.

استهوته بصورة خاصة الجغرافية، ثم الفَلَك، وكذلك تاريخ الشعوب المسيحية، وعلوم أخرى غير دينية مثل الأقراباذين (علم الأدوية)، وبينما كان مقتنعاً بالفكرة الإغريقية ـ العربية المتعلّقة بمادة أساسيّة مدركة بالعقل فإن دراسة ابن خلدون ومفهومه للتاريخ أثّرت كثيراً على هذا الشاب المتديّن الورع: هل يصنع الإنسان التاريخ بينما الله هو الكليّ العلم وسيّد الكون؟ هل يهتم الله وهو السبب الكلّي، بالأسباب الثانوية؟ كانت هذه القضيّة تربكه، خاصة وأنه قد لاحظ سريعاً أن السي أحمد كثير الإطلاع على الأشياء الدنيوية والعلمانية، وهو يتلّقى كمية من المعلومات والكتب من قبل يهود مستغانم. وبيّن لعبد القادر أن الأوروبيين، رغم ابتكار العرب للجغرافية وممارستهم لها، هم في طريقهم لابتكار علم جديد، ينبغي الحذر منه كثيراً وهو يسميه «الاستراتيجية» المستمدة من كلمة وجدها لدى مؤلّف إغريقي واستخدمها في روايته عن رحلة «ابن بطوطة الطنجي، الرحّالة المغربي الكبير.. وهو يقول عن هذه الاستراتيجية انّها أشدّ قوّة من خُدَع القانون الإسلامي. وكان يبدو رصيناً عندما يلحُّ على عبد القادر ليترك قليلاً الأحكام الدينية وينصرف إلى الأوضاع الحالية، ثم يوشوش له وهو خجل: لاتقل هذا لأبيك! كان عبد القادر يبتسم بمظهر المتفّهم للأمور لكن هذا كان يطرح عليه مشكلة:

أيٌّ على حقّ: الله، أم والده، أم معلمه؟

المقامة العاشرة

قال الرسول ﷺ: «إذا لم يتمكن أحدكم من ملء فروضه الدينية، فليعنَ بحصان ابتغاء مرضاة الله، وستغفر له خطاياه».

في نهاية تلك السنة، وعندما عاد عبد القادر إلى القيطنة، أقام والده احتفالاً كبيراً بمناسبة زيارة جميع القبائل والأشخاص الأتقياء للمركز الرئيس لحركته الأخويّة. وكان التابعون يحملون هدية الزيارة: تقدمات من البهائم، أو الشعير، أو الملح، أو العسل، وأحياناً الدراهم. وتتتابع مواكب الفرنسان، وتلعلع الطلقات المعتادة برائحة بارودها الثاقبة، وتسير العراضات بأعلامها المنشورة، وبالمزامير والطبول ضمن جوقة كبيرة يتصاعد خلفها الغبار، وتتم فيها الابتهالات والخطب والاستقبالات. وبعد الألعاب الدارجة للخيل والفروسية، يعلن عن مباراة كبرى للجريد، أَمِل محيي الدين أن يرى فيها ابنه متفوّقاً رغم سنته الدراسية بعيداً عن خيوله المفضلة.

كان شباب الفريقين المتباريين ينطلقون ويقذفون واحداً واحداً، ثم اثنين اثنين، ثم ثلاثة ثلاثة، ساقاً من غصن النخيل جُرّد من وريقاته. وكان على الخيّال الموجّه إليه الجريد أن يتجنبه وهو في أقصى سرعته في الميدان، ثم يرتد إلى خصمه، ويطلق عليه بدوره جريدة قبل أن يلتحق بفريقه وقبل أن ينقض عليه أفراد الفريق المعادي إن تأخّر. وشيئاً فشيئاً جُرّد الفرسان من سعف نخلهم أو غدوا خارج اللعب لإصابتهم بمقذوفات منافسيهم، كما أن بعضهم وقعوا عن ظهور خيولهم وهم يلتفون بدورة قصيرة عنيفة. وعلا العجاج بما يفوق الوصف، بحيث ما من أحد يرى شيئاً، لكنه يستمرّ في متابعة مرور الفرسان المتمسكين بأعراف خيولهم من خلال سماع وقع الحوافر في أنحاء ميدان اللعب. وصياح الجمهور يتعالى وهو يسمّي الفرسان، وكلّهم أبناء كبار القوم؛ والنساء تطلق الدعابات وهن يقهقهن، وعبد القادر يلعب مع أحد أخوّته غير الأشقاء، ومع ابن عمّ له. كان واقفاً فوق صهوة حصانه ورجلاه في الركاب، يتحدّى المنافسين، وكان قد أطلق جريدة على أحد خصومه، بينما قام خصم آخر بتوجيه جريدة عليه، وبدلاً من أن يتجنبه بالإنكفاء على ناصية جواده أمسكه بجمع يده وهو في انطلاقته نحوه، وهمز حصانه الأشقر وانطلق في إثر الخصم المنهزم ماوسعه الجرّي، وتلقى

المسكين، والخجل يسربله جريده الخاص في ظهره، فانقلب أرضاً تحت وقع الصدمة وانتصر فريق القيطنة، وهتفت الجماهير ورقصت، وعبد القادر، متبوعاً بأبناء عمّه، يرّقص حصانه رَهوَنة بتصالب قائمتيه الأماميتين وتوازي قائمتيه الخلفيتين، والمزامير تعزف عزفاً حاداً والحصان يرقص ويرقص تحت نظرات نساء القبيلة المندهشة.

أفراسنا النبيلة تتنافس في الطراد
والنساء تجفف بغلالاتهن العرق المتصبب على جباهها
وهي تهز رؤوسها كأنها تريد التخلص من هذه الأعنة المقيّدة لها
وآذانها تصيخ السمع لأقل الأصوات
وعلى ظهورها أسود كواسر

هوى الخيل هذا لن يترك عبد القادر أبداً، وسينشد طيلة حياته أن ما من معادل لهذا المسابق للريح.

أذناه تنافسان أذني الغزال
وعيناه أجمل من عيني امرأة متحديّة
جبهته أشبه بجبهة ثور
ومنخراه عرين أسد
طويل العنق والكتفين والكفل
عريض المتن والأطراف والكشح
له ذنب أفعى وعرقوب نعامة
واعقابه الخاطفة تنهب الأرض
هو اعتمادي مع القلب النابض في الصدر
فما من سلطان يمتطي مثيله[1]

١ ـ وجدت بعض هذه القصائد غير المنشورة في مجموعة للجنرال ا.دوماس عندما كان إلى جانب عبد القادر، الحبيس في طولون، وإذا وجد بعض شبه بينها وبين قصائد أخرى فذلك لأن عبد القادر قد نظم أو أملى عشرات من القصائد حول هذا الموضوع.

المقامة الحادية عشرة

فانظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها. ﴿إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ (سورة ٣٠، سورة الروم، الآية ٥٠).

غدا عبد القادر مفسراً معتمداً للقرآن والحديث: ووجب عليه لذلك أن يكون **حافظاً**، أي أنه هذا النموذج المثالي من المتعلمين الذين يعرفون غيباً القرآن والحديث. وكان محيي الدين يعرف أن جميع أشراف المنطقة المحاربين النبلاء بالسيف والقوة فقط يعتبرون أشراف السبحة جديرين بالاحتقار، ويحسدون القادرية ورئيسها محيي الدين خاصة على مايتمتعون به من سلطة معنوية ونفوذ وخاصة مابعد بلدة القيطنة المتواضعة ووادي الحمّام. لذلك وجب أن يمنح مزيداً من الحظّ والقوّة لهذا الابن المختار الذي يتجلى قدره الآن كلّ ليلة في أحلام المقدّم.

ومع أنّه أدّى واجب تعاقده في هذه المقايضة أب ـ ابن بنقشه مذكّرة الكلام الشرعي في ذهن ولده وفق التعليمات القرآنية.

﴿كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتب، وبما كنتم تدرسون﴾ (السورة ٢٣ سورة آل عمران، الآية ٧٩).

وجب عليه الآن أن يمدّ يدَ العون ليتمكن ابنه من الانطلاق بعيداً.

﴿من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾[1] (٤، سورة النساء، ٩٩).

---

١ ـ يشرح عبد القادر هذه الآية في الموقف ١٨٥: فيذكر أن المهاجر لمعرفة الله والقرب منه عداد العارفين وهو يبحث في عداد الحفاظ والعلماء.

الدعامة الثانية
التدرّب

المقدّم الثالث

السي أحمد بن خوجه

الله العليم، الكلي العلم، القابض، الباسط. الخافض، الرافع، المعزّ، المذل.

بدأ عبد القادر، المتعطش دائماً إلى المعرفة، يختلط بعلماء منطقته الصغيرة، لأنه كان يرجو أن يرقى إلى مراتب أكبر فيما بعد. وكان الرعاة يرونه يخبّ بانتظام حتى ديرة السيغ أو حتى مسجد أهل محمد لدى الغراباس، حيث يذهب ليستمع إلى تعاليم بعض المعلمين العابرين. ثم يذهب حتى الراما حيث يتلقى تعليم شيخ أكثر شهرة، هو عبد القادر بن أولى المنصوري. لكن هذا لم يكن يكفيه مطلقاً، وذهب يشكو بمرارة إلى أبيه.

قرّر محيي الدين عندئذ، خلافاً لرأي النسوة، وجوب ذهاب عبد القادر إلى وهران ليمتّن ثقافته الأدبية والدينية في مدرسة السي أحمد بن خوجة الذي يعتبر أحد كبار مثقفي الغرب. كما أن محيي الدين يتمنى أن يلتقي عبد القادر برفقاء آخرين غير لاعبي الخيول الذين يغالون في رأيه: ففي وهران، سيرى نبلاء، ومقاتلين وعلماء وكذلك أيضاً تجاراً وغرباء. لأن الزمن غدا أكثر فأكثر موضع ريبة: فالاضطراب يعم الإمبراطورية العثمانية، وباي تونس يعاني من الصعوبات، وأشراف المغرب يتذابحون، فالأبناء يخونون آباءهم إن لم يكونوا في حرب مع القبائل الصحراوية. وقد تلقى محيي احتجاجات في آن واحد ضد آل التيجاني، ومن طرف أولاد ابيوض سيدي الشيخ؛ طبعاً كان حذراً في دعمه لأي طرف، لكن عليه أن يسلّح عبد القادر على جميع الجبهات، بما فيها إدراكه لقسوة باي وهران الذي تكرهه كل المقاطعة بسبب طرائقه في الحكم. ويشرح محيي الدين وظيفته الاجتماعية من خلال المفهوم الديني:

يمارس البدو تجارة الحبوب؛ ويجب أن يتمكن هؤلاء من قضاء الصيف في المناطق

العالية جداً من التل، وحتى البحر تقريباً. والبيليك[1] لايعطون أذون السماح بالرعي، إلا إذا تعهّدنا نحن ـ معلمو الزوايا بأن تقوم الأخوّات، بكبح عنف القبائل، لذلك فمركز الطريقة ليس فقط منبع الهداية، وإنما هو أيضاً دار الصلح حيث يجد الفقراء والمبعدون المأوى والحماية. وليس من مصلحة الداي والبايات وإنكشاريتهم القيام بقطع التوازن بين الدولة والأخويات.

المقامة الأولى

وصلت الزمرة الصغيرة التي ترافق عبد القادر إلى وهران عبر سهل مصرغين ثم خلال وديان وعرة محرّجة تنفتح على البحر. وانتهز محيي الدين الفرصة ليمر على قبيلتين لاتأتيان غالباً إلى القيطنة، وأمكنه أن يلاحظ تأثير إدارة الباي المدمّرة إذ يقتطع ممثلوه الضرائب الباهظة عيناً من المواشي والحبوب بحيث أن هؤلاء الأشخاص المساكين لايعرفون إلى أي القديسين يتضرعون. كان عبد القادر قد ذهب غالباً نحو الجنوب، بل وحتى تلمسان التي أثارته بروعة صروحها الدينية والعلماء الذين يعظون فيها. لكنه دهش هنا سريعاً من سعة المدينة، وخاصة من مرساها المليء بالمراكب من كل الأحجام، المحمي جيّداً بالجبل الإسباني ناحية مرسى الكبير، وبقلاع ضخمة لم يسبق له أن شاهد مثلها. إنّها شيء آخر غير ضيعة أرزو، وحتى غير مستغانم بأسوارها. ومن أروع القلاع التي شاهدها، القلعة القائمة على قمة العيدور، والتي تجعله يفكر بسفينة نوح التي جنحت على جبل أرارات، وجؤجؤها ذو المهماز مترسخ في الصخر. لكن محيي الدين بيّن لابنه أن هذه القلعة عرضة لنيران الريف الصخري «الميزيتا» الواقع أعلى منها بقليل. وبيّن له بالمقابل أهمية القلعة الأخرى على جبهة البحر التي سمّاها الاسبان القرن «منى» لأنهم اكتشفوا هذه القرود التي تملأ الغابات هنا وحتى جبال ترمسان.

شرح له والده، أثناء الطريق، التاريخ المعقد للمدينة، منذ أن انتزعها الأتراك من الإسبانيين، والمآثر الملحمية للأخوين بربروسا: بابا أروج، وخير الدين: الوافدين من جزيرتهم البعيدة، لسبوس، ليخدما السلطان، وقد حرّرا بجايّا، ومدينة الجزائر البيضاء، المبنية على سدّ من جزر بينون، وأخيراً وهران. لكن الأتراك بقوا، وأرسلوا جنوداً وموظفين وأمراء..

١ ـ البيليك **Bylik**: حكومة الباي.

من المؤكد أنهم بنوا جامعاً جميلاً، ولم يفرضوا المذهب الحنفي، لكن محيي الدين ألح بالأحرى على العلاقات العريقة جدّاً القائمة بين المغرب واسبانية، بما فيها خسارة الأندلس، وتدفّق اللاجئين اليهود والمسلمين إلى جميع المغرب حتّى تونس، رغم أن هؤلاء أدخلوا حيث استقروا بعض تقانات صناعة الجلد، والمعادن، كما أدخلوا الموسيقى وكل أنواع ثقافاتهم. والواقع أن اليهود غنّوا تحسّر أهل الأندلس من أجل جميع مدنهم البيضاء التي فقدت إلى الأبد؟

توقفت المجموعة في فندق الينبوع. وكانت تتألّف من ثمانية أشخاص على ظهور الخيل، وعدد مماثل من البغال، وأربعة خدام مشاة سيبقى أحدهم مع عبد القادر. فمحيي الدين لم يأت وحده، ولابغرض رفقة ابنه فقط: وإنما أراد أن يستغل فرصة السفر ليستشير بعض العلماء والتجار ويلتقي معهم ويجري بعض المقايضات والمشتروات. كما يصحب ابنه إلى السي أحمد بن خوجه المستغنمي الذي يعلم في تلك الزاوية من خنق النطاح التي أسسها الباي محمد الكبير بعد إعادة الاستيلاء على وهران في العام ١٧٩٢.

بينما ذهب عبد القادر ليستلم غرفته الصغيرة في تلك المدرسة الوقفية الراقدة في حضن جامع شهير يعود لألف سنة، تحدّث السي أحمد برصانة إلى المقدم: إن الأمور تسير من سيء إلى أسوأ، فالباي حسن لايحب أبداً أن يأتي أشخاص من الداخل ليدرسواها هنا. فعلى عبد القادر أن يكون صبوراً، ومتواضعاً، وحذراً، وخاصة مع أبناء كبار الموظفين، والخولوغلي الذين سيرافقونه، وشرح السي أحمد عجرفتهم، ونبّه محيي الدين ولده عند سفره. يجب ألا يكون له إلا هدف واحد: التعلّم، والتعلّم، والتعلّم أيضاً ولكن يجب من أجل ذلك أن يتحدى الآخرين لأن الطبراني ينقل عن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام قوله: البشرية تضم زمرتين من الناس: عالم وطالب علم وماعدا هاتين الزمرتين لاجدوى منه.

كانت دروس عروض الشعر والبيان والبلاغة وفن القريض أكثر مايسترعي اهتمام عبد القادر، واكتشف بفضل السي أحمد العبقرية العربية عبر كبار شعراء الأندلس مثل ابن زيدون أو ابن هاني. أو عبر المشارقة الأكثر تعقيداً وبراعة مثل أبي تمام أو المتنبي. ومن حينها لم يكن يمرّ عليه يوم دون أن يكتب بعض أبيات من الشعر. وكان يفضل **القصيدة** وهي النموذج المتميّز للشعر العربي. وطبيعي أن

تكون قصائده الأولى في مدح الحياة البدوية وتمجيد الخيل.

قال الألى قد مضوا قولاً يصدّقه: نقل وعقل وما للحق من غيرِ
الحسن يظهر في بيتين رونقه بيت من الشِعر أو بيت من الشَعر
سفائن البر بل أنجى لراكبها سفائن البحر كم فيها من الخَطر
لنا المهارى وما للريم سرعتها بها وبالخيل نلنا كل مفتخر
فخيلنا دائماً للحرب مسرجة من استغاث بنا بشّره بالظفر
نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً وأي عيش لمن قد بات في خَفر؟
لا نحمل الضيم ممن جار نتركه وأرضه وجميع العزّ في السَّفر
فإن أساء علينا الجارُ عشرته نبين عنه بلا ضرّ ولا ضرر
نبيت نار القرى تبدو لطارقنا فيها المداواة من جوع ومن خَصر
عدونا ما له ملجأ ولا وَزَرٌ وعندنا عاديات السبق والظفر
ونحن فوق جياد الخيل نركضها سليلها زينة الأكفال والخصر
أموال أعدائنا في كل آونة نقضي بقسمتها بالعدل والقدر
مافي البداوة من عيب تذمُّ به إلا المروءة والإحسان بالبدر
وصحة الجسم فيها غير خافية والعيب والداء مقصور على الحضر
من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى فنحن أطول خلق الله في العمر[1]

أدرك عبد القادر أن متعة الروح لاتتعب بينما الغذاء يشبع ولايمتع. ورغم المسرّات الحقيقية التي أحسّ بها في معتزل السي أحمد، كان يلزمه أن يخرج بين وقت وآخر من هذا المرفأ الأمين. وذلك من أجل تأمين حاجاته وأيضاً لأن والده أوصاه بأن يفتح عينيه ويختلط بالآخرين. كما أنه كان يحبُّ أن يذهب للصلاة في جامع الهواري القديم الذي يفضل أشكاله الأندلسية على جامع الأتراك الكبير الفارغ والرطب.

١ ـ عرف عن الأمير تعدّد القصائد في الموضوع الواحد أحياناً، والقصيدة المذكورة في النص الفرنسي غير متوفرة في المراجع لدينا. لذلك أثبت هذه القصيدة من تحفة الزائر (ص٥٣١) وهي في موضوع الفخر والتغني بالحياة البدوية مكانها (المترجم).

كان أصدقاؤه الوهرانيون يدعونه إلى منازلهم حيث ينعم بين الأفناء المظلّلة بالعرائش القديمة بلذة طعم الرمان وحلاوة الفطائر المعسّلة والمعجنات الطازجة ذات الروائح الخيالية وهي أكثر جذباً بفوحها من عطور كل النساء المتبرّجات اللواتي يصادفن بكثرة.. وفي المساء يحمل النسيم العليل نفحات بحرية تنسكب على الهضاب التي تتأرجح على سفوحها أشجار مجهولة في قيطنة. وبمناسبة احتفال لدى أحد أصدقاء الدراسة، وهو ابن موظف عربي كبير في خدمة الأتراك، تأثّر للمرة الأولى على الأقل بالموسيقى التي استمع إليها في هذا النوع من الحفلات، هذا الضرب من الموسيقى طرح عليه مشكلة، بالرغم من أنه مترسخ كالشعر في القديم من التراث العربي الأصيل. بدا له سريعاً أنه مضيعة للوقت، وتحويل للطاقة. لكنه دهش من نفسه في أكثر من أمسية لاستمتاعه وهو يجلس مترفهاً على الأرائك الناعمة ببهجة عزف فرقة يهودية يتضمّن كلّ غنى موسيقي الأندلس، الفردوس المفقود. ووعد نفسه بأن يشاور والده محيي الدين في الموضوع؛ إذ إن مشهد بعض النساء اللواتي يغنين بعض أغنيات فاضحة كان يصدمه ويجرح إحساسه، فتزديد آهات ناي رعاة الهضاب العليا ومناطق الجنوب خلال الليالي المقمرة يبدو له متناسقاً ممتعاً.

لكن مشهد الشارع لم يكن أقل تعبيراً، فتعجرّفات أمراء الأتراك وكبار موظفيهم تبدو له طبيعية لأنهم سادة البلاد الفاتحين أما تعجرف الخولوغلي فيصدمه خاصة أن الشقاء والأقذار تسود أقسام المدينة الدنيا: إنّه يكره هذه الروائح المتراكمة، هذا الصف الكريه من المتسوّلين الوسخين والجائعين الذين يعترضون كل واحد من المارّة؛ وهؤلاء النسوة السافرات والحائرات اللواتي يظهرن سيقانهن، وأثداءهن للتجارة المخدّرين ولجميع هؤلاء الحمّالين المثقلين أكثر من الحيوانات، وهذه الحيوانات المعذّبة من قبل أناس مهانين.

إنّه يعلم أنَّ المدينة تضرّرت كثيراً من جرّاء زلزال رهيب حدث قبل نحو عشر سنوات من ولادته[1] لكن هذا لايفسّر كل شيء: فهو يلمح في بعض الأزقة بيوتاً وسخة تتجمع فيها أكداس أولاد إنسانية يستشف أن ليس لديها لا الوقت ولا القوة لتمجيد خالقها: «هل هناك حياة لمن يعيش في العار؟» كم الحياة البدوية أكثر نقاءً،

١ ـ في ليل ٨ إلى ٩ تشرين أوّل ـ أوكتوبر ١٧٩٠ حدث هذا الزلزال الرهيب في مدينة وهران، وسبّب ما لايقلّ عن ثلاثة آلاف ضحيّة.

وصحة، وملائمة للروح. وقد كتب في مدح هذه الحياة:

يا عاذراً لامرئٍ، قد هام في الحضر وعاذلاً لمحبّ البدو والقفر
لاتذممنّ بيوتاً خفّ محملها وتمدحنّ بيوت الطين والحَجَر
لو كنت تعلم مافي البدو تعذرني لكن جهلت. وكم في الجهل من ضرر

وتزمجر الثورة في نفسه، لكنه لايفصح عنها لأنه يحذر من زملائه. لكن وضعه لايخفى على السي أحمد النافذ البصر، وفي ذات يوم يطلب من السي عبد القادر بعد الدرس أن يبقى معه لحظة. كان الفناء شبه صامت، وقد غطّى على ضجة الخارج سجع التراغل التي تعيش هنا في سلام. وككتاب ابن حزم الذي درسوه هذا الصباح، كانت أوراق الخريف تشعر بشذى طيّب إذ أنها أمطرت بهذا الرذاذ البحري الخفيف الذي يفاجئ دائماً ابن محيي الدين.

كان ابن خوجه ينظر إلى الغيوم السوداء الكبيرة المارّة عبر الشّرم نصف المفتوح، وكأنه غائب في حُلم بعيد. وسأل تلميذه عن أخبار أبيه، وأعمامه، وأمه، وأخوته. وأجاب عبد القادر كما هو واجب عليه مع مزيد من الشكر، والابتهال لحماية وحفظ صحة كل واحد مما ذكر عند ورود اسمه.

ـ أراك حزيناً يا عبد القادر، افتح لي قلبك، إنّك تلميذي، ووالدك صديقي.

وعندئذ شرح السي أحمد نظرته إلى الترك، والابتزاز، والتجاوزات، والفساد، والإلحاد، والثورة أيضاً، هنا وهناك، في مقاطعة قسطنطينة، وفي بلاد الشام البعيدة، لكنه كان يحاول إفهام عبد القادر أن العالم قد كوّن هكذا. لكن هذا كان يقطب حاجبيه ويعترض في كل مرّة باستشهاد من الحديث بل ومن القرآن الكريم.

﴿إن رأيت اعوجاجاً فقوّمه﴾[1] (.....)

ويتلقى المعلم الكهل هذا الحماس بهدوء ويعتبره من نزق الشباب.

سيأتي الوقت المناسب يا عبد القادر، لكنك ماتزال غير مستعد، والشرّ قويّ، ومطاردته تتطلب أكثر من حماسك الجميل اللاهب.

تأمّل عبد القادر في كلمات معلمه، ومع ذلك صمّم على الذهاب إلى أبعد مما

١ ـ ورد في الصحيح: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان (المترجم).

صرّح به، لأن وقائع أخرى كانت تصدمه أيضاً، مثل الانتشار الواسع والعلني للمقامرة في مدينة وهران هذه، وماهو أخطر من ذلك شيوع العرافة والتنجيم، وكل النشاطات التي حرّمها الله تعالى.

﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر﴾ (سورة المائدة ٩٠ - ٩١).

﴿الأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ (سورة المائدة ٩٠).

يمكن التغاضي على مضض، عن قيام بعض المساكين بألعاب الورق وهذه الألعاب الاسبانية غير المفهومة مثل «الروندا». لكنه ينفر من وجود رجال وهبوا العقل يسحبون الورق مع هذه التماثيل الصغيرة نفسها ويدفعون لنساء رهبيات من أجل الاعتقاد بمستقبل حقير بينما كل شيء في يد الله.. من المؤكّد أنّه يهتم بالشطرنج، وحتى بالنردية التي تساهم في التدريب الفكري، وأيضاً بالدومينو الذي يتيح على الأقل للفقراء ممارسة الحساب الذهني. ثم يقول في نفسه مبتسماً بأنه هو بالذات قد لعب بالمربع العربي، وإشارات الضامة مع إخوته وأبناء عمومته وابتسم لفكرة هذه المباريات الصغيرة المحتدمة في ثنايا الكثبان الرملية حيث كان يرسم مع رفقائه المربع أو الخطوط على الرمل الدقيق، ويلعبون بالحصى أو النوى، وتنتهي المباراة غالباً بمعارك مواجهة مخططة يخرج فيها واحد أو أكثر مخدوشاً أو نصف أعور.

المقامة الثانية

«ويل لعبيد الدينار ومتاع الدنيا»

بينما هو منساق مع أفكاره وصل إلى ركن في المدينة الدنيا، لايعرفه إلا قليلاً ووطّد العزم على أن يكتشف مايجري فيه. ودخل إلى مقهى يعجّ دخاناً وضجيجاً متغلباً على خوفه واشمئزازه. هنا رجال يلعبون بالنرد والورق، ويبدو عياناً أنه لَعِبٌ مقابل المال. وجلس القرفصاء قرب حلقة لاعبين تبدو محتدمة احتداماً حاداً، وراح ينظر إلى اللعب ورؤوس اللاعبين؛ لايبدو على هؤلاء المقامرين الفقر. ولفت رجل بصورة خاصة انتباهه. كان يقامر بمبالغ كبيرة. ومع تقدّم الليل كان الرجل قد قامر على مرزعة له خارج وهران. ثم على مستودعاته في المرفأ. وها هو الآن يقامر على امرأته، يا للأمر المقّزز؛ وكاد الشاب يقع مغمياً عليه. وعندها التفت إليه اللاعب، وقال له بهدوء:

يا عبد القادر! هل ستقبل على البحث عن الحقيقة، والكائن الحقيقي بمثل الحماس الذي يقبل فيه أولئك الذين تزدريهم على ممارسة رذائلهم؟ واختفى في أحد الأزقة.

استيقظ عبد القادر من تأثّره وظنّ أنه رأى الملاك جبريل. وقال في نفسه إن عليه أن يحدث أمّه عن هذه المغامرة، وهي ستعرف تفسير حلمه؛ إنه يتوقع أن يكون لهذا الرمز معنى حكيماً؛ ويجب عليه أن يعود إلى بيته. وتذكّر نصّاً لابن خلدون عن فساد المدينة. كان الليل مضطرباً بحركة رياح البحر ورياح الجبل، وعلى جزيرة صغيرة في مواجهته، رأى شفيع مدينة وهران يتقدّم وهو يسير على المياه نحوه قائلاً:

- يا عبد القادر بن محيي الدين الحسني، الشريف، يجب أن تعلم أن في الحياة الدنيا الإعداد، وفي المقام السامي المسارّة... وجرى على الأمواج ضاحكاً حتى القهقهة. واستيقظ عبد القادر مع قرصة برد الفجر: وهزّه حارس ليلي وقاده إلى رئيس رقيق الحي حيث اتهم بالتشرّد، ولم تجدِ احتجاجاته نفعاً إلى أن مرّ أحد الموظفين الأتراك وعرفه، وقاده إلى المعتزل في متاهة من الشوارع ودون تعليق.

المقامة الثالثة

الله السميع، البصير، الحكم، الحكيم، الحقّ، العدل.

تجمعت القبائل من كل المناطق المجاورة للقيطنة لتحتفل بزواج ابن مرابطهم. وكانت النيران تتوقّد في السهل. وفتح الحواة الوافدون من المغرب سلالهم، وبدأ البهلوانيون والأقزام ألعاب خفتهم. وفي مكان أبعد كانت النسوة يرقصن على أنغام الطبول الآتية من بعيد لكن قصّاصاً لفت إليه انتباه الجميع وهو يهتف:

- اسمعوا، اسمعوا، أيّها الشجعان الطيبون مقابل دورو[١] واحد، تستمعون إلى قصة معلمنا الشاب وعروسه الحسناء، الحكاية الحقيقية[٢]، مقابل فلس واحد كان المنادي المنشد رجلاً أعمى، وقرد صغير مربوط بسلسلة، ويحمل طاساً من خشب متسلّق فوق كتفيه، وهو يمدّ طاسه ويوزّع تكشيراته على المارّة. والأعمى يدبّ بعصاه، ويشير إلى ثلاث أكوام من النقود الصغيرة المتراكمة أمامه؛ وهو يتابع الهتاف:

---

١ - دورو: عملة فضية إسبانية قديمة.

٢ - قصة غدت من سير التعظيم، وهي في صيغتها الأولى من وضع ف. استايور Estailleur.Ph (انظر قائمة المراجع).

- هيّا، أيّها الشجعان الطيّبون، فلس للحكاية، وفلس لمتابعة طريقي وفلس لصوتي. وستعرفون كلّ شيء، ستعرفون الحكاية الحقيقية عن معلمنا الشاب، وخطيبته ابنة عمه لالا خيرا بنت أبي طالب.

ويتوافد الناس، ويجلس بعض منهم على الأرض، ويتراكض الأولاد من كل مكان؛ والقرد الصغير يراقب أكوام النقود، ثم يقوم بجمعها دفعة واحدة في طاسه. ويحرّك المدّاح شعر ذنب الحصان المثبت في عود على وتر قيثارته ويطلق بصوت كالرعد:

- الله أكبر.

- ويرد عليه الجمهور: الله أكبر.

- ومحمد رسول الله.

- ويستعيد الجمهور: ومحمد رسول الله.

ويتمتم الأعمى الكهل بعض صلوات غير مفهومة تتخللها كلمات «الله (جل جلاله) » و «محمد ﷺ». وتبدأ أخيراً الحكاية:

أرسل محيي الدين ابنه إلى أخيه مرابط الغَرَبة، ليبحث معه أمراً يهم الهاشميين والقبائل. وعندما وَصَلَ إلى مسافة قريبة من خيام عمّه، وحاذى على وقع حوافر جواده نهراً صغيراً تظلّله أشجار الخروب، وجد نفسه فجأة في مواجهة امرأتين اطلقتا لمرآه صرخة رعب، وأسرعت كل منهما لرفع حيكها[1] على وجهها. لكن ملامحهما لم تغب عن عبد القادر: كانت إحداهن شابّة ذات جمال متميّز، ويبدو أن الأخرى والدتها. واضطرب ابن زهرة لرؤية الأولى، وخاصة لوقع بصره على عينيها السوداوين الواسعتين.

تنهّد جمع المستمعين المفتتن وصاح: «غزالة» كما عبد القادر كتب في إحدى قصائده:

أودُّ بأن أرى ظبي الصحاري ... وأرقب طيفه والليل سار

وأطلب قربه فيزيد بُعداً ... قديماً من وصال في نفار

وهذا الظبي لايرعى ذماماً ... ولايرضى مؤانسة الجار

---

١ - الحَيْك Haik: ثوب أبيض طويل ترتديه نساء المغرب كالبرنس فوق أثوابهن.

يتيه بدلّه ويصوّل عمداً غني بالجمال فلا يداري
أمازحه فلا يرضى مزاحاً وأسأله المراء فلا يماري
ويعتبني فيكسو القلب بسطاً لأن العتب يطفي حرّ ناري
فإن هو لم يجد بالوصل أصلاً ويدني الطيف من سكني وداري
أقل للنفس: ويك ألا فذوبي وموتي فالقضاء عليك جارا
ويسلبني الحياة إذا تبدّى بوجه في الإضاءة كالنهار

«الله!» تنهّد الجمع متأثّرين حتى سالت دموع بعض منهم.

استرد المنشد أنفاسه، وغيّر من وضع ساقه تحت جلسته، بينما كان قرده الصغير اللامبالي بالحكاية يطارد بنشاط بعض البراغيث في لمه صاحبه.

استقبل عبد القادر في خيام عمّه بكثير من المودّة؛ وأعدت على شرفه وليمة من اللحوم، والمغربية، والزيتون، والتين واللوز. شارك فيها مضيفه تكريماً لابن أخيه. وعرض عبد القادر موضوع زيارته فنوقش واتفق عليه برضى الطرفين.

لكن فكر عبد القادر كان في مكان آخر. فبانسحابه إلى خيمته، سمع صوتاً ناعماً حزيناً يغني.

ولعب المنشد نغماً على ربابته وانطلق يغني والجمهور يردّد معه.

أنا ابنة زعيم قوي.
وأنا جميلة غير أنني أبكي
فقد رؤي وجهي، فهل يمكنني أن أتزوّج؟
ففي اليوم الذي يُزاح فيه برقعي
أمام عريسي سأرتعش
لأن قلبي منصرف إلى الغريب الوسيم
الذي لمح لأوّل مرّة قسماتي

واعتزل الشاب عندئذ مفكّراً مضطرباً. وبرزت إليه من عتمة الليل إمرأة عجوز، واصبعها على شفتيها، وبَدَت كأنها تصون سرّ غرام خفي.

هِهْ هِهْ صاح الجمع المصغي بانتباه، لأن المنشد خفض صوته، وتلفّت بذعر حوله

كأنه يرى بعينيه الخاليتين من النور، بينما القرد الصغير يفلّي بعناية لمتّه الثخينة المخضّبة بالحنّة منذ بضعة أسابيع...

قالت العجوز: هوّ ذا ثلاث زهرات قطفتها سيدتي لالا خيرة من أجلك عن حافة النهر حيث صادفتك البارحة. إحدى هذه الزهرات بيضاء ناصعة كبياض جسم سيّدتي، والثانية ورديّة بلون المتعة، والثالثة قاتمة كعتمة الليل رمز السرّ. وستنتظرك غداً قرب الينبوع.

«الله!» هتف الجمهور وهو يرصّ صفوفه حول القصّاص.

ما أن بزغ الفجر حتى كان عبد القادر في مكان الموعد. ولم تتأخر خيرة في الوصول إليه. وكانت تصحبها العجوز الرسول التي تنحّت جانباً. ما أن رأت الصبيّة الشابّة الفتى الوسيم، حتى بدا عليها التردّد لحظة، ثم تقدّمت وهي ترفع بعناية، كأنما بغريزة الخفَر، طيّات حيْكها على وجهها. وعندما وصلت إلى تحت الأشجار، أمسك الشاب بتلهف إحدى يديها وارتضت بادرته دون مقاومة ثم تهالكت جالسة إلى قربه مرتعشة.

هتف عبد القادر وهو يضمّها بين ذراعيه:

ـ قسماً بربي، لأنت يا خيرة أجمل فتيات الأرض. أوه! دعيني انتشي بمرآك.

وانطلق الراوي المتحمس في وصف حُلُميّ استمتع به كل مستمع منصت ومشدود إلى الحكاية:

كانت فاتنة بعينيها الواسعتين السوداوين. وحمرة جذّابة تخضّب وجهها، وجسمها المضني يبدو متهالكاً في غمرة السعادة. وأبرق أحد ثدييها عارياً تحت شفافية النسيج الشافّ؛ وطيّات جلبابها المتجمّعة تكشف عن قوام رهيف. وبقيت متعلّقة بعنق عاشقها وهو يتأملها بنشوة في وجد صامت.

فجأة، سمعت نأمة في الحرَجة؛ وأزاحت خيرة بسرعة أحد الأغصان المورقة فرأت على مسافة ما طرف برنس أبيض.

ولهث الجمع وانتابته فجأة قشعريرة باردة.

هتفت خيرة وقد شحب لونها: كشف أمرنا، هلكنا.

قال لها عبد القادر مع ابتسامة لم تدرك مغزاها: عودي إلى وصيفتك واطمئني.

وابتعدت سريعاً ووثب عبد القادر والخنجر في يده وانطلق في الحرج.. وكان حفيف الأوراق وتكسّر الأغصان يصرّ بشكل خفيف. وأبصر ابن محيي الدين رجلاً يهرب، وعرف من ثوبه أنه أحد أفراد قبيلة الغربة ووثب عليه.

التفت الآخر مرتعباً وسمع وقع خطوات عدوه السريعة، وأحسّ فجأة بأنفاسه المتلاحقة، ورفع عبد القادر ذراعه لضربه، وفي الحال ارتد ابن الغربة وقذف في وجهه برنسه الذي تمكن من نزعه، ولم يعد ابن محيي الدين يرى شيئاً فترنّح وسقط أرضاً.

بدا الجمهور لاهثاً، وأدار القصّاص عينين بيضاوين رهيبتين حوله، وكانت يداه تقتلعان بعض أشعار الرأس والقرد الصغير يقفز خلفه ويرتعش.. وبدأ المدّاح عندئذ يضرب بكفيه على طبل كبير خرج من أعماق الصحراء، من المكان الذي تصنع فيه النساء جروعات سحريّة من مخ الأموات. وغدا الإيقاع أكثر فأكثر شدة، وأنصت الجمع كشخص واحد لحكاية المدّاح.

تابع الآبق عدوه، ونهض المقاتل الشاب في إثره، وأحس الغَرَبة بأنّه مُدرَك فبدّل اتجاهه وركض نحو النهر وارتمى به؛ وألقى عبد القادر بنفسه في إثره وقبل أن تنضم الفجوة التي انفتحت على صفحة الماء من ارتطام جسم الغربة، ضمّت فوقه جسم سيّد الحَشَم الذي غطس تحت ذراعي غريمه الذي اختفى بعد أن أمسك به من الخلف. وغاص خلفه.. واضطرب الماء بعد لحظة ثم خفّت حركته وهدأت، وبدا السطح الرائق مصطبغاً بحمرة الدم القانية...

ظهر عبد القادر على السطح وحده... وتاهت أنظاره لحظة على سطح الماء؛ لم يظهر عدوّه على السطح أبداً. لكنه أبصر بعد لحظة جثته والموج يسحبها. وارتسمت بسمة الظفر على شفتي المنتصر الذي وصل بعد مشقة إلى حافة السلام.

هتف الجمع المستمع: مرحى! وصفّق، وصرخ، وضحك

- آه! إن معلمنا الشاب رجل، لقد حافظ على الشرف...

وترجّحت الرؤوس برفق مؤيّدة، وصفّقت الأكّف، لكن الأعمى لم ينه حكايته بل توقّف يستعيد أنفاسه بعد هذه المرحلة العنيفة.

عاد عبد القادر إلى خيمته وأنهى تحضيرات عودته، واستأذن عمه، وأخذ الطريق الراجع، وصادف فيه وصيفة خيرة فقال لها:

ـ أغلقت العينين اللتين كشفتانا، وغابتا إلى الأبد. وخرس اللسان الذي كان بإمكانه أن يكشف سرّنا.

وبإنهاء هذه الكلمات لكز حصانه فانطلق يسابق الريح. وبعودته إلى آل هاشم، وبعد أن قدّم نتيجة المهمة التي كلف بها، قصّ على أخته غرامه بخيرة ورجاها أن تحدِّث أمّه طلباً لموافقتها على هذا الزواج.

بدا الإنشراح على جمهور المتسكّعين، وسمعت بعض القهقهات، وظهرت على الأجسام بعض ترنّحات، فالحب قد انتصر أخيراً. وفيه يكتب عبد القادر:

أقاسي الحبّ من قاسي الفؤاد ... وأرعـــاه ولايـرعـى ودادي
أريـد حياتـهـا وتـريـد قتـلي ... بـهـجـر أو بـصـدّ أو بُـعـاد
وأبكيها فتضحك ملء فيها ... وأسهر وهي في طيب الرقاد
وتعمى مقلتي إمّا تناءت ... وعيناها تعمى عن مرادي
وتـهـجـرنـي بلا ذنـب تـراه ... فظلمى قد رأت دون العباد
وأشكوها البعاد وليس تصغي ... إلى الشكوى وتمكث في ازدياد
وأبذل مهجتي في لثم فيها ... فتمنعني وأرجع منّه صاد
واغتفر العظيم لها وتحصي ... عليّ الذنب في وقت العداد
وأخضع ذلة فتزيد تيهاً ... وفي هجري أراها في اشتداد
فما تنفك عني ذات عزّ ... وما انفكّ في ذلّي أنادي
فما في الذلّ للمحبوب عار ... سـبـيـل الحبّ ذل لـلـمـراد
رضا المحبوب ليس له عديل ... بغير الذلّ ليس بمستفاد
ألا من منصفي من ظبي قفر ... لقد أضحت مراتعه فؤادي؟!
ومن عجب تهاب الأسدُ بطشي ... ويمنعني غزال عن مرادي
وماذا؟ غير أنّ له جمالاً ... تملّك مهجتي ملك السواد
وسلطان الجمال له اعتزاز ... على ذي الخيل والرجل الجواد
وهذا الفعل مغتفر وزين ... إذا ـ يوماً ـ أبيت على معاد

فإن رضيت علي أرت محيا   بشوشاً بالملاحة، ظلّ باد
خليلي!! إن أتيت إلي يوماً   بشيراً بالوصال وبالوداد
فنفسي بالبشارة إن ترمها   فخذها بالطريف وبالتلاد
إذا ما الناس ترغب في كنوز   فبنت العمّ مكتنزي وزادي

لكن المدّاح يذكر بوقار:

كانت لالا زهرة مهتمة منذ مدّة بالسعي لابنها إلى زوجة جديرة به وأيدّ الجمهور برصانة:

- لايمكن لمعلمنا المقبل أن يرتضي الزواج كيفما اتفق، خاصة وأخوته الكبار يرمقونه.. والنظرات حانقة.

- صه، اصمتوا.. التتمة!!! هيّا أيّها المدّاح، من فضلك، لاتستمع إلى زارعي الفتنة، التتمة.

وبدرت عن القرد تكشيرتان، عندما قرع القصاص الكهل بعصاه على الأرض مرتين: يجب رمي بعض النقود، فهذه الحكاية تستنفد جيوب الجمع.. واتخذت القصة مجراها مجدّداً:

كانت سيدتنا زهرة قد لاحظت هذه النسيبة ابنة أبي طالب التي بدأت تلتفت إلى نفسها في المرآة. ولم تكن حالة الاضطراب التي تعصف بمقاطعة وهران تسمح لعبد القادر بالزواج إلا من داخل العائلة.

أليس على الأم إن تعذّر عليها إيجاد أميرة بعيدة خطيبة لابنها، أن تفضل نسيباتها. وهكذا فإنها تلقّت نبأ رغبة ابنها بالزواج بابنة عمه بفرح وأعلمت سيّدها به. وأحضر محيي الدين ابنه وسأله عن مدى صحّة تأويلات النساء. وقصّ عبد القادر، وهو في الوقت ذاته نادم ومعتزّ، على والده، القصة الواقعية لأحداث مغامرته، دون أن يفكر بتحريف أيّ منها.

سأل الأب: عبد القادر، يا بنيّ، ماذا يقول القرآن الكريم، في قتل رجل أي كان؟

خفض عبد القادر رأسه وتمتم ببعض كلمات غير مفهومة وغير مسموعة.

- تكلّم بقوّة ووضوح وانظر إليّ عندما تكلّمني.

ـ أبي، أعلم أن من يقتل نفساً كأنّما قتل الناس جميعاً. لكن الأمر يتعلّق بشرف العائلة إضافة إلى شرف أمّي.

ـ هل نطقت على الأقل بكلمات الإستغفار في اللحظة المقدّرة.

ـ كلا، يا أبي، لكنني فميا بعد، وأنا أرتعش على الحصان نطقت آليّاً بصلاة الغائب. ولا أعلم من سيدفع ديّة القتيل.

ـ سيهتم عمّك بهذا.

وتلطّف صوت محيي الدين وهو يسأل: وهذه الشابّة الجريئة التي تعطي المواعيد على ضفة النهر، كيف هي؟

سقط عبد القادر في الشَرَك، واحمر ارتباكاً وهو متكدّر، لأنّه لم يتوقع سخرية أبيه عبر لهجته الجادة. واستدرك الوالد.

ـ اطمئن، فنسبها أصيل، وكل شيء يسير إلى الأحسن، اذهب وصلْ الآن، سأحدّث النساء. وغني عن البيان القول لك إن والدتك مفتتنة بهذا الاختيار، ولك أن تتوقع هذا! إنّها ابنة أخي سيدي علي أبي طالب. ربّما تعتقد بالحظّ كهؤلاء الإغريق الذين تغذي ذهنك بمطالعة كتبهم.

كان محيي الدين يضحك، وعبد القادر لايعرف أي موقف يتخذ. لكن الوالد أعلن القرار المشترك للابن. فقّبل عندئذ كتف والده وراح يحلم بتلك التي ستغدو من الآن فصاعداً خطيبته.

اختار الشريف من قطيعه كبشاً مسمّناً وذهب في موكب إلى أخيه ومعه عبد القادر وحاشيته. وحمل ماهو ضروري لإقامة وليمة. وقامت مفاوضات بدقّة لامتناهية، وبدت أكثر وضوحاً عندما تمّ التعرّض للمهر الواجب دفعه للزوجة المقبلة. وقد دارت في غياب النسوة اللواتي كن يرقبن عن بُعد سيرها واقتربن في نهاية المداولة التي بدا نجاحها جليّاً، وانصرفن إلى إعداد المغربية بعد أن ذبح الخروف، وأعدّت المشاوي. وبعد هذه الوليمة العائلية، تضرع محيي الدين إلى الله وصرّح باعتبار قران الشابين منّجزاً.

في اليوم التالي، تمّ التوجّه إلى مسكرة لشراء الجهاز اللازم للخطيبة من متاجر اليهود. وبعد عدة أيام توجه محيي الدين ونساؤه والأولاد على البغال إلى مقرّ أبي

طالب حيث سيتمّ الاحتفال بغسل العروس وزينتها زينة تعتمد على **الملحفة** غير المفصّلة. وفي اليوم التالي جيء بها وهي محجبة إلى القيطنة.

بينما كان المدّاح ينهي حكايته، كان آل الحشم يعبرون عن نزواتهم بإطلاق نيران بنادقهم التي تصمّ أصواتها الآذان وتملأ رائحة بارودها الأنوف. وكان غبار جري الخيول يثير غباراً لايقل غبشه عن دخان البنادق الطويلة.

أحضرت خيرية إلى أمام خيمة عبد القادر فَطَلت ركائزها بالسمن الذي قدّم لها ووجدت عند المدخل المغلق خيكا رفعه زوجها بعد أن منحها قطعة النقد الذهبية المتوجّبة عند أوّل مقابلة. وعند اليقظة جاءت الأم تشهد بيكارة العروس، وترافقت الفرحة العامة بالتنبوءات التقليدية بالسعادة، والرخاء، والرفعة للعروسين، وذريتهما.

المقامة الرابعة

﴿والفَجْرِ!

وليالٍ عَشرِ!

والشَّفعِ والوترِ، والليل إذا يَسْرِ﴾ (٨٩ سورة الفجر ١ - ٤)

مرّت أيام هادئة على القيطنة، راح فيها عبد القادر يألف امرأته، وهي بدورها تعمل على إرضائه. يلقي عليها الأشعار، لكنه لايهمل الدراسة لأي سبب. وسرّه أن يلاحظ ثقافتها الجيّدة؛ مما سهّل دخولها إلى الخدر العائلي الذي تسود فيه لالا زهرة رغم النساء الثلاث الأخريات لمحيي الدين ورغم أن الأولى منهن، وهي أوريدة أنجبت له ولدين هما محمد سعيد ومصطفى، كما أنجبت كل من الأخريين صبيّاً. لكن والدة عبد القادر تعرف مكانها الحقيقي بسبب هذا الولد الموهوب؛ الذي لم يكن على صلات طيّبة جدّاً مع أخوته الأكبر منه لما يظهرونه من عجرفة؛ ويفضل أخته خديجة التي رآها برضى تتزوّج ابن عمه مصطفى بن تامي... وكان الانسجام بين بنات العم والكنّات خير ضمانة للسلام العائلي. والحال أن أخته هي أول من عرف بحبّه لخيرة، وكانت المرأتان الجميلتان تتعايشان في ألفة ومسرّة. ومن ثمّ، ألم تكن مرضعته تقول له غالباً.

- يمكن أن يكون لك عدة زوجات، لكن لن يكون لك إلا أم واحدة لذلك اعتمد في رجائك على القول: «آه! يا أختي! آه! يا أمي!».

المقامة الخامسة

﴿إن الذين يَخشَون ربّهم بالغيب لهم مغفرة وأَجرٌ كبير﴾ (٦٧، سورة الملك ١٢).

كان أفضل الأعياد الشعبيّة عند عبد القادر عيد وَسْم المواشي؛ ففي هذه المناسبة يأخذ سهل إغريس مظهراً توراتياً، كأن كل شعب الله قد سعى إليه، فالمواشي التي ستذهب إلى المراعي تتلاقى مع تلك العائدة من الصحراء. وتجمع الماعز والأغنام بالآلاف في زمر من ثمان بهائم بينما تختلط مئات الجمال والبغال المحمّلة بالحلفاء، والحبوب، والتمور، وتخيّم الجموع في السهل إلى مدّ البصر، يعجّ من حولها الغبار، وتتصاعد روائح الروث ودخان نيران التخييم.

يناقش ملّاكو المواشي بحزم عقود الحراسة، ويعرض معلمو الحرف منتجاتهم، ويستأجر الرعاة، والحراس المتنقلون، وجامعو الغلال ويتفق معهم على الأشهر الثلاثة السابقة لوجود الكلأ، ثم الأشهر الثلاثة الأخرى التي تلتحق المواشي فيها بمواطن الراعي والأعشاب. كان وجود الحدادين والبياطرة والقصاصين في هذا التجمّع الواسع يجتذب عبد القادر، بل ويفتنه. وهو يقضي ساعات يناقش الأوّلين، ويستمع إلى الثانين. وخلال هذه الجلسات تعلّم أن يتعرَف بشكل أفضل على أيّ تشوّه في باطن حافر حصانه، والحصيّات الصغيرة تحت العراقيب والعَرَج، والحَرَن، والأسنان التي تفسد وتجعل التحكّم بشدق الحصان واستخدام اللجام متعذراً، والديدان من جميع الأنصاف، ومدلول رائحة الروث. كما تعلّم التمييز بين الخيول اللاهثة والفحول الصبور، وبين البغال الكثيرة التبوُّل وتلك الجلود على الأحمال الثقيلة. وأدرك مزايا الأعراف، وألوان الجلد، وتحجيل القوائم، ووجود الأنجم على قصبة الخطم، والثُنّات[1] فوق الحافر والحواشب[2]. كما عرف جميع الحكم والأمثال والعادات والتقاليد، وكل مفاهيم العرب حول الخيول، وخاصة وفوق كل شيء تعلّم بيطرة الخيل وإنعالها.

كثيراً ما سمع: أترى يا ابن مقدّمنا، الحصان هو عنقي. وكم من مرّة تكون حياتك رهينة حافر جوادك فانتبه له، نظّفه، ولاتجر عليه بالمسامير؛ وبالعناية به تكون قد ضمنت العناية لنفسك.

١ ـ الثنّة Fanon: شعرات خلفية فوق حافر الحصان.

٢ ـ الحوشب Boulet: مفصل في الحصان يقع بين الجزء الأسفل من الوظيف والجزء الأعلى من الرسغ (المترجم).

لم يكن عبد القادر ينسى أبداً أن يكافئ أصحاب هذه الدروس بجزّة صوف، أو كيل سمن، أو صاع حنطة أو شعير تؤدّيه نساء القيطنة لصاحب النصيحة. وبالمقابل كان البياطرة يرفضون تلقي أي أجر منه لقاء حدوة خيوله.

ـ فليمدّك الله بالقوة، وليرحم أجدادك، يا ابن القيطنة! هيّا! فأنت تشرّفنا عندما لاتسقط حدوة من حافر حصانك في جولة حيوية... ورد في حديث غير موثوق عن النبي ﷺ: «من امتلك حصاناً عربياً وازدراه، فالله سيزدريه.. ومن امتلك حصاناً عربياً وأكرمه فالله سيكرمه». كما يقال إن النبي أضاف: «إذا أردت أن تذهب إلى الحرب، فاشتر حصاناً ذا غرّة متميزة في جبهته، وتحجيل في قوائمه الثلاث عدا اليمنى الأمامية».

وكان عبد القادر يجري في ميدان المعرض وهو يستعرض الخمسة آلاف حصان المتجمعة هناك مع أفراد القبائل، وكلّها مختلفة أحدها عن الآخر إنّما متشابهة في نظر اللامبالي، أو الغبي، أو الإنسان العادي غير العارف. ذكر له أحد التجار القدامى الوافد من الصحراء أن يجب ألا يدفع أجر نزو الفحل للأفراس الولود؛ لأن الملائكة لاتشهد إلا ثلاث متع للرجال، تدريبات القتال، ومتعة الزوجة مع زوجها، وسباقات الخيول. وعلى كل حال فكلّ يعلم أن الأرواح الشريرة لاتدخل خيمة فيها حصان أصيل. وكان عبد القادر يذكر كل هذا دائماً حتى عندما تنتابه أهواء أخرى، لكنه في تلك الفترة، وعلى نسق النبي ﷺ نفسه، كان منصرفاً إلى مُتَع ثلاث: خيوله، وزوجته، دون نسيان الدراسة[1].

لكن في هذه الفيافي والسهول، والهضاب العالية، فإن الأساطير والحكايات والذاكرة الإجمالية، وكذلك أيضاً القصص التي يتغنّى بها المنشدون والمدّاح مقلّدين بذلك الملائكة والأنبياء، تشكّل كلّها لحمة الحياة البدوية بكاملها؛ أليس جبريل (عليه السلام) المبشّر الأكبر هو الذي قصّ علينا.

خلق الله الحصان مع الريح. قال لريح الجنوب:
«سأخرج منك مخلوقاً، فتكاثفي!»
سأسميك فَرَساً

١ ـ كتب الأمير مثل كل نبيل عربي دراسة مفصلة عن الخيول، كما أنه تراسل مطوّلاً مع الجنرال دوماس الذي علّق على الدراسة.

سأخلقك عربية

سأعطيك لون الكميت[1]

ستطيرين بدون أجنحة

ومن تواصيك يأتي الخير

وجميع البُداة يعلمون أن الإنسان الحرّ يمكن أن يعمل بيديه من أجل والده، وضيفه، وحصانه.

سأل عبد القادر والده: أبي: لماذا يشكّل الحدادون والبياطرة فئات متميّزة؟

ويبتسم محيي الدين ويجيب:

- إنّهم لايدفعون ضرائب لأنهم يعملون على نار جهنم، ويحملون الحديد من أجل المسامير والحدوات من تميمون وحتّى من توغورت، وهم ينتمون إلى أخويات خاصة، وبعض معلميهم يتجولون في كل المغرب. كما أن بيطاراً قد تباد قبيلته في قتال، لكن المنتصر يمنحه بالذات بعد التحقق من حرفته حريته: ويعاد إليه كيره، ومنفاخه، وأدواته، كما يخلى سبيل عماله حتى وإن قاتلوا مع القبيلة التي كانت تأويهم. هوّ ذا يا بني سبب تميّز هذه الفئة.

نعم اعتن بحوافر خيولك

وتدرّب أنت بالذات ودرّبها على كل مايفيدك.

ففي هذا العالم، يجب في يوم أو آخر،

أن يجابه الإنسان ذلك الذي يطلب منه حياته.

في المساء، حول نيران المخيم التي تضيء سهل إغريس حتى جبال مسكره، بل وربّما حتى تلمسان، من يدري، يجلس القصاصون، ويضجّ عالم الليل بكل أساطير العرب، ومفاخرهم... وعندها أيضاً، وكما تكيّف الريح شعور الفرسان وأعراف الخيول يكيف صوت قيثارة الصحراء ومزامير القصب الأنفاس المتضوّعة من أرواح الجموع.

كان عبد القادر يحبّ هذه الليالي المليئة بالضجيج والروائح، والحيوات. ولفتت انتباهه بشكل خاص شخصية غريبة كانت ترتاد بانتظام القيطنة يطلق الناس على

---

١ - الكميت: Baie - brule: اللون الأسمر المحمّر الذي تتميّز به أغلب الخيول.

صاحبها لقب المرابط ذي السبحات السبع أو معلم الأحدى وعشرين قبّة. كان يعتمر عمامة ضخمة خضراء، ويحمل عصا كبيرة، وسبحة فيها سبع حبّات خضراء، وسبع حبّات حمراء، وسبع حبات سوداء. وكانت جميع قصصه من الأكثر سحراً[1]. ولم يستطع عبد القادر طيلة سنوات يفاعه أن يستفيض في الحديث معه: بل كان يلزم الصمت قبل وبعد سماع قصصه. في إحدى أمسيات تلك السنة الجميلة، وكما تعلن رعشة الخريف وورود موجة الصقيع، وبينما كانت الجماهير أكثر انتباهاً لقذّافي النار الوافدين من آسية على الأرجح، نجح ابن محيي الدين في طرح السؤال التالي عليه:

ـ إيه! أنت، أيّها المسافر دون رحلة محدّدة، ليس لك أنف يهود الأندلس المعقوف، فمن أنت؟ ولماذا تنتقل هكذا من معرض إلى آخر؟

قصّ آنذاك الرجل ذو العمامة الخضراء صراعه ضد الوحش، من أجل إسعاد سليل النبي ﷺ من ذريّة حفيده الحسن رضي الله عنه وعن ذريّته حتى آخر الدهر.

ـ السلام عليك يا عبد القادر بن محيي الدين. أنت قلت: إن التجوال حملي الثقيل. لكن لكل حمله وميزان الله هو العدل.

رأيت الوحش ذا السبعة رؤوس، بأجنحة من دخان، وبأربع عشرة حدقة من نار، وأشداق من رعد، وقرون من بروق، وأعراف من فولاذ، وحوافر من جلاميد، وأذناب من رياح السموم. كان الوحش من الضخامة بحيث ملأ السماء والأرض...

وقال لي الوحش:

ـ سأرميك في أتون أهوائك، وسأفترسك كما تفترس الحشرة ذات الفكين المسماة الراهبة ذكرها الصغير بعد أن أمتعها.

وبدأ الرجل ذو العمّة الخضراء الذي يعتقد نفسه لايتزعزع في إقدامه، يرتعش بكل أعضائه كما يرتعش السيّد الحصان أمام السيّد الأسد. وفي هذا الجزع المميت، لجأ إلى الهرب. لكن الوحش دون أن يتحرّك كان يتبعه دائماً، وهو يحرّك حراشف جسده بضجة رهيبة، ويقول له بأشداقه السبعة: سأسحق جسمك بجسمي المتأجّج بالرغبات السبع.

---

١ ـ جمعت أنا بالذات عدداً من هذه القصص أثناء أبحاثي في الجزائر والمغرب (المؤلّف: برونو إتيين).

آنذاك طلب الرجل ذو العمة الخضراء من الله أن يمنحه سرعة البراق وثبات حوافر فرس الرسول ﷺ.

وقال الرجل ذو العمة للصخر: افتح لي لأختبئ في حناياك.

ـ لكن الباب بقي مغلقاً، والعينان مغلقتان. ورأى الرجل الوحش باستمرار...

ـ سأبقى أنا ذاتي، فالرغبة هي قسمة العبيد.

لكن دخان التبوغ لفّ قلاداته حول عنقي؛ والكسل هو غلالة الحريم. وهو يغلُّ يدي ورجلي من يريد الحركة.

قطعت السماء آنذاك بسيفها الأزرق الرأس الذي تلوّن بلونها، وانتصب الوحش بغطرسة وقال:

ـ انظر ما من شيء فوقك إلا علم أخضر حيث يعلّق البدر هلاله. وجميع الأغوات والمشايخ الذين يأمرونهما هم كالنمل تحت قدميك.

وأجال الرجل المنشدّ بكلّ قامته نظره المنبهر على العالم.

ـ آه! أن أكون معلم المعلمين، فأسحق تحت كعبيّ أعناق الملوك! لكن يوجد معلم فوق جميع معلمي البشر، ويجب أن أبقى خادم الله. باسم الله تمكنت أشجار النخيل من أن تخنق رأس الوحش الأخضر لكن نظرته الصفراء ازدادت قوّة وقال:

ـ أترى، سأسحب مابقي من زرقة وستغدو السماء صفراء على الأرض كالذهب...

عندها مال الرجل على السكّينات[1] وملأ يديه من القطع التي جعل بعضاً منها تتساقط على أذنيه.

ما من موسيقى أعذب من هذه الموسيقى. ولكن كلا. سأرمي الذهب إلى الفقراء، فالذهب ليس إلا غبار شمس الله.

تدحرج رأس الوحش الأصفر تحت الذهب المرمي. وألقى الرجل في تحديه قبضته على الرأس الأحمر الذي تفجّر كرمانة ناضجة جدّاً. وغدا الوحش أسود من الغضب، وانتفخ كغيمة في مهبّ الريح. فغدت عيناه قمرين داميين؛ ومن خطمه سال حبر

١ ـ سكينات Sequins: نقد ذهبي إيطالي قديم.

الخشخاش، بينما كان لسانه يحرّك أفعى مشدودة بين قرنين مرفوعين وراح يلعن أجداد الرجل وذريته... وهبّ الرجل كفحل خيل ضرب بالسياط، لم يعد خائفاً من الوحش.

- إنني سيّد نفسي، إذاً فأنا سيّد عليك. الغضب يمسك بالجنون من يده، وسأبعد هذا الجنون إلى الأبد.

لكن الوحشّ المتربصّ في زاوية من الأفق راح يزمجّر:

- سأتبعك إلى كل مكان لأن رؤوسي ستنمو كفسائل النخيل، وستعود كقوس قزح. وأطلق آنذاك سبعة حجارة سقطت كشرر عند قدمي الرجل ذي العمامة الخضراء وعلى قبة القديس التي كان قد بقي قربها للصلاة من أجل سفره، وفي الأثر الوحيد الباقي لظل شمس المغيب، خيل إليه إنه يسمع صدى الصوت المتهيّج مايزال يهدده تحت تموّج سعف النخل، وقال الصوت:

- اليوم لك، وغداً لي.

عدّل الرجل بيد ثابتة عمامته مركّزاً أفكاره. إنّه لم يعد يخشى الوحش، وانطلق بخطوة واثقة نحو الأفق حيث تطرّز آخر إشعاعات الشمس بأحرف ورديّة اسم تلك الموعودة بعد المغيب.

عندما استفاق عبد القادر من تأمّلاته؛ كان الرجل ذو العمامة الخضراء قد اختفى في الليل. ولم يره بعدها أبداً لأن الأزمنة المضطربة اقتربت فملأت سهل إغريس بنوع آخر من الرعب... إلا إن كان هو ذاته ولكن تحت لون آخر.

والله هو العليم.

المقامة السادسة

﴿والعصرِ إن الإنسان لفي خُسَرٍ﴾ (١٠٣ سورة العصر ١ - ٢).

لم يكن عبد القادر يستحسن كليّاً، كما بعض أخوته وأبناء عمومته، تقاليد نبلاء السيف في مواضيع اللعب، والغنيمة، والفكاهة، والمجادلة، والصيد. وكان يتجنّب تباهي نبلاء السيف الصخاب الذين ينطلقون في رحلات بموكب طويل من الرفاق، والخدم، والأغذية، والصراخ، وجري الخيول، يستخدمون صقورهم وكلابهم السلوقية كزخرف لغرورهم.

كان عبد القادر يحبّ أن يجلس مساءً عند المغيب، لحظة، وسط الحديقة الصغيرة، بين أشجار البرتقال والتين، والدفلى، تحيط به وتحميه صفوف متراصة من جذوع الصبّار.

ومن هناك وفي شهر حزيران ـ يونيو خاصة، كان يمكنه أن يرى مدّاً من السنابل الثقيلة المفعمة بالشمس، ترسم فيها الريح طرقاتها المتحركة والمتموّجة، بينما جميع الطيور المعشّشة في أحضانها ترسم أثلاماً في الهواء المتصاعد والقوي لمتابعة آلاف الحشرات التي خلقها الله لتغذيتها...

«إن الإنسان الذي ينصرف إلى الصيد يحقق في كل يوم نجاحات متميزة بالجرأة ويتعلّم ازدراء المخاطر» هكذا يكتب عبد القادر فيما بعد إلى دوماس. وهو يحب فوق كل شيء الصيد على الحصان للغزال (بكر الأوحاش) ولتيس الجبل، وحتى للخنزير البري. وهو لايذهب إلى الصيد إلا مع اثنين أو ثلاثة من ألفائه. وهو وفقاً لقول المثل: «في مطاردة ثعلب صباحاً، وفي اللحاق بخنزير بريّ مساءً».

بعد أن يمتطي حصاناً جلوداً أكثر منه متبختراً متعالياً، ينطلق في مطاردة حيوان الصيد بالرمح ولايتردّد في القفز عن الحصان وهو في كامل جريه ليذبح بنفسه الحيوان المقتنص الذي يدرس في كل مرّة تشريحه كما يدرس ابن سينا أو ابن جبرول تشريح الجثث. وقد رأى أن علماء الطبّ في الأندلس كانوا على حقّ: فالدم يجري فعلاً في الجسم، وهو يفد فعلاً من القلب. لكن هذا لن يمرّ دون أن يطرح عليه موضوعاً للدراسة... ودائماً بعد عودته من رحلات صيده التي تروّح عن جسمه وتزيد من طاقته، وبعد أن يحيي والدته ويقبّل زوجته الشابة يعود بمزيد من النشاط إلى دراساته العزيزة.

الله الجبّار، المهيمن، القريب، الحميد، الحكيم، الوهّاب، المجيد، المتين، الرؤوف.

انتهى عبد القادر من درسه في القواعد: وعلّق على كلمة رئيسة في القرآن الكريم: مفهوم الإنصاف؛ ثم طوى أغراضه. وقال له أبوه:

ـ بما أن حبر العلماء أغلى من دم الشهداء، وأن نبينا ﷺ أوصانا بطلب العلم ولو في الصين إن لزم الأمر، فقد حان الوقت لأصحبك إلى الشرق، لبدء رحلة كبرى، إذ أن هناك أشياء للاكتشاف لايمكن أن تتعلمها هنا.

كان عبد القادر كأغلب الأحيان بعد دروس والده، قد جلس بين يديه وهو يستمع إليه بانتباه: وتابع والده:

ـ يجب أولاً تحضير النساء لقبول الرحلة، إذ قد نتغيب سنوات، وهذا يقتضي اقناع أمك التي ستقول لي إنك ماتزال حَدَثاً، وإن في هذه الرحلة خطراً، وإن... وإن...

ومسح محيي الدين بدهاء بيده البيضاء على لحيته.

ـ ثم يجب أن أختار الأشخاص الذين سيأتون معنا. وعليّ بعدها أن أحصل على إذن باي وهران، وهو متوحش فظّ وملحد. وهو متهيج ضد هذه الحركات القبليّة والأخويّة التي لايتمكن من التحكّم بها، وأسياده في الجزائر متبرمون منه وفقاً لما حدثني به أحد العلماء المتجوّلين. لكنك تعلم أيضاً أنّه حاقد على عائلتنا منذ أن انضمّ أخي سيدي أبو طالب إلى حزب التيجان الذي هاجم وهران بالذات، يجب إذاً أن نجعله ينسانا للمباشرة بهذه الرحلة التي ستكتسب فيها، إلى جانب المكاسب الأخرى، لقب الحاج. سندخل في محادثات مع أحد أخوة مملكة المغرب لنلتحق بقافلة فاس عندما تمرّ من هنا... إنني أعرف أمير الركب، وهو رئيس حج مدينة فاس البيضاء. وأحب أن تتعرف على العلماء المراكشيين خلال الرحلة، ففيهم أولياء كبار في هذه الفترة رغم الفوضى الظاهرة. أترى يا بني، إن الحياة بسيطة جدّاً هنا، لكنّ أمراً تافهاً قد يعقدها أمامنا.

أُعدَّ كل شيء مع البكاء وصرير الإنسان، وقامت النساء من غارّ بطنها، ومن استدار بخياطة أحزمة السراويل على الليرات الذهبية. وجهّز كلّ شيء للسفر لكن الله قرّر شيئاً آخر.

المقامة السابعة

الله الرقيب، الصمد، المانع.

من مُعسكَر توجهوا نحو الشرق، باتجاه بلاد المشرق، في جوقة كبيرة من الصلوات، والزغاريد، والبارود، والطبول، والصنوج. نساء حزانى، وأولاد مسروورون لهذا الحظ، وطرحت فكرة عدد من المرافقين، ثم سحبت، واختصر العدد إلى زمرة محدودة من المؤمنين والخدم يحملون متاع السفر على قافلة صغيرة من البغال والحمير. لكن الدهشة كانت كبيرة في اليوم التالي عند رؤية العشرات يهبطون من الجبال ويفدون من السهول، وفي الأيام التالية تزايد العدد إلى مئات الراغبين بالإلتحاق برحلة الورع.

هتف هؤلاء الرجال موكلين أمرهم إلى رجلهم الورع: إلى مكة! إلى مكة مع مرشدينا الروحيين.

أبدى محيي الدين العتاب الرقيق لثنيهم ثم أبدى الرفض الجازم؛ إنّما دون نتيجة؛ بل إنهم وصلوا في اليوم السادس إلى ضفة وادي جيدوه ونهره الصغير إلى الآلاف الراغبين في تقبيل الحجر الأسود وزيارة القبر المقدس في بيت الله تحت ظل هذه الرعاية.

لكن الله قرّر شيئاً آخر.

في الليلة التالية حضر فارس تركي حتى خيمة محيي الدين، وأبلغ أمراً صارماً: على المقدّم وابنه أن يمثلا في حضرة الباي حسن في أقصر فرصة ممكنة، أمام وجوم جميع أولئك الذين أملوا القيام بهذه الرحلة. وأدرك محيي الدين أن عليه أن يطيع لأن التركي هو السيد الشرعي، وكذلك لأن ليس من مصلحته أن يعرّض مستقبله للخطر.

كان رجال مسلحون ينتظرونهما على مخاضة وادي شليف، وقادوهما إلى وهران. بناء على أمر الباي حسن أو دعا في بيت العريش لدى تاجر مراكشي. شعر عبد القادر، وهو الكاره لوهران، أن ظلَماً إلهيّاً قد ضربهما. فما فائدة كل هذه الدراسات، وهذه الصلوات، إن أمكن لأي مستبد أن يوقف إرادة الله؟؛ وخارت قواه؛ لكن محيي الدين كان يضحك في سرّه، وأوفد رسلاً لإنذار أصدقائه، وحتى اليهودي المغربي ذهب لرؤية زوجة الباي وهو محمل بالهدايا.

غير أن الباي استقبلهما شبه مرحب مخفياً ارتيابه:

ـ أنت تعلم، يا تابعي العزيز، مدى مراعاتي وتقديري لك. لذلك تكدّرت كثيراً لسماعي الشائعات المغرضة التي نشرت حولك. فأعداؤكم كُثر وخشيت أن أراكم تقعون بين يدي داي الجزائر الذي دخلتم في أراضيه، بطريقة أعلم أنّها تثير الشكوك؛ فأرسلت في طلبكم لأنقذكم من خطر أكيد. كنت شديد القلق بشأنكم.

كان محيي الدين يعد النفس بأن يشرح لابنه منذ ذلك المساء بالذات لماذا ورد في القرآن الكريم توبيخ المنافقين عشرات المرات؛ فأجاب بصوت يكاد لايفصح عما يشوبه من سخرية.

ـ من أجل أن نجلو عنكم هذا القلق، أيّها الممثل القدير للباب العالي، وخليفتنا المحبوب ـ حفظه الله ورعاه ـ استجبت سريعاً لدعوتكم السابقة.

روفق محيي الدين وولده إلى منزل المراكشي بحرس قوي لم يفارقهما أبداً خلال تلك السنتين؛ فأينما توجّها، وأينما دخلا، سواء عند الأصدقاء، أو في المساجد، أو في زيارات أو أعمال، كان الحراس إلى جانبهما؛ ولم يبدر من محيي الدين أي اعتراض على هذا الوضع المثير. وأتاحت له المداولات الطويلة أن يهدّئ ابنه، ويبيّن له في الوقت ذاته، قوة العلماء في مواجهة السياسيين وكذلك سياسة الأتراك والعرب. وتمكّن بدعم كبير من الأحاديث النبوية الشريفة والأمثال العربية التي كان يردّدها ضاحكاً لعبد القادر أن يبين له ظواهر الأمور وبواطنها إلى أن عرفها جيّداً.. ألم يُخطِرنا القرآن الكريم نفسه:

﴿وماظلمناهم، ولكن ظلموا أنفسهم﴾ (سورة هود ١١/١٠٢).

ثم يا عبد القادر إن الاختبار يأتي من الله ليقويك، وبدلاً من أن تشيح عنه، وتجرؤ على إدانته، يجب أن تدرك أن سيّد القضيّة الرئيسة، يترك لخليقته الغوص في القضايا الثانوية.

تذكّر عبد القادر مجدّداً المناقشات الطويلة مع معلمه في أرزو بخصوص المعتزلة والعشاريت: الله هو القضية الرئيسة، كما يؤكد بعضهم؛ وهو لايتدخل في القضايا الثانوية، لكن يعترض بعضهم الآخر بالقول: وهل هذه القضايا على هذا القدر من الاستقلالية.

كان للرجلين دعم قوي في وهران، وبعض كبار قادة المخزن، ومنهم مصطفى بن اسماعيل ـ الذي سيجده عبد القادر فيما بعد قائماً في طريقه حتى موته ـ والمصرلي وغيرهما آخرون بدؤوا يهتمون بمصير أسيري الدولة وحسد الباي، وأم وزوجة هذا. كان محيي الدين قد علم ابنه إن أفضل الجهاد يتجلى في كلمة عدل توجّه لسلطان ظالم ـ على ما نقل أبو داوود والترمذي عن النبي ﷺ. وبدأ محيي الدين يطالب بحرية أكبر لعبد القادر ليتمكن من رؤية معلميه القدامى ورفقائه ويتوفّر له متسع من الوقت للدراسة في مختلف المكتبات وجوامع المدينة ومعاهدها.

ـ «على الأقل يجب أن يتمكن ابني من زيارة عمه» أعلن محيي الدين بصوت مغتاظ رغم حذره المستكين للباي الذي ملّ هذا الصراع وأظهر بادرة حلم. استغلّ محيي الدين الفرصة ليعطي دروساً نهائية لابنه.

«إنّ من يخشى الله ويضع حدّاً لسيطرة الهوى على النفس فإن الجنة مثواه»

هذا هو برنامجك.

بدءاً من ذلك اليوم، أخذ عبد القادر يقضي ساعات طويلة مع الشيخ أحمد بن التهامي ابن مفتي وهران الأكبر، زوج عمته الذي علمه كل علومه، وهو العالم الكبير والرجل الواسع الثقافة بين كبار مثقفي ذلك العصر: وهو يحبّ بصورة خاصة المنطق، ويكتب مقطوعات شعرية وغيرها. وخلال تلك الأيام الكئيبة، إنّما الخصبة، التقى عبد القادر، ثم ارتبط بصداقة مع ابن عمته الذي سيغدو فيما بعد قائد معسكره، وسكرتيره ونسيبه بالمصاهرة: وهو مصطفى بن التهامي. لكن الشابين اللذين كانا يدرسان سويّة لم يكونا يعلمان إلى أي حدٍّ ربطت قدريهما يد الله[1].

إلى الجانب الآخر من فريق علماء المسلمين المشرقيين الذين كانوا ينظرون بازدراء إلى العلماء الغربيين الوافدين من المغرب العربي، اكتشف عبد القادر هذا المغربي الصغير[2]، الضائع في تلك المدينة الكريهة التي تحتفظ به أسيراً من شبه جزيرة المغرب، أن الأندلس، وكذلك المغرب عامّة قد أنتج بدوره جماعة من العلماء والأولياء الصالحين: وخاصة أبو مدين الذي كان يعلّم في تلمسان، وكذلك الشذُهلي، وابن محشيش العلمي، وناشر الحلاج الشهيد الكبير، عبد العزيز الدبّاغ الفاسي، وغيرهم أيضاً ممن لايرتوي منهم، أحمد بن مبارك السيجيلماسي، أو ابن عريف السنهجي. وكان الشاب شديد الاعتزاز بالانتماء إلى هذه الجماعة من المثقفين.

ويمرّ الزمن فيزيده غنى بالعلم، ويستطيع أن يتمّم الفلسفة المثبتة بمعلميه السابقين بقراءته للفارابي الكبير، وكذلك أيضاً للرازي، وفلاسفة الإغريق واهتمامه أيضاً بعلوم الحيوانات، والطيور، وعلم الخيل، وذلك عبر دراساته لعلماء الأندلس، وتعمّق شيئاً فشيئاً في فكرة المادّة الشاملة الشريكة في الأزلية لله، المصدر الإلهي للروح المتحدة مع الجسد المادي. وتعلّم خاصّة الصبر والمناقضة وما فتئ محيي الدين يشجعه، ويقوّيه، غير أنه رأى كمعلمه الأندلسي ابن العربي أن عليه أن يتوجّه إلى الشرق.

١ ـ سنصادف ابن التهامي بعد ذلك في آمبواز يمارس نشاطات دينية ولاهوتية

٢ ـ وفقاً لصيغة استخدمها عبد القادر بالذات في مجادلة مع ابن تيميّة في كتابه «المواقف»

المقامة الثامنة

الله هو العدل، الكافي، القابض، القهّار

ورد في الحديث: رجلان يستثيران الغيرة: رجل منحه الله الغنى فأحسن استخدامه، ورجل قضى بالحكمة التي وهبها الله له.

وأدرك الأب والابن أن الباي لاينتمي لأيّ من الزمرتين: ووجبت أيضاً مساومات طويلة وكثير من الهدايا ليقرّر الأتراك تركهما يرحلان في نهاية العام ١٨٢٦[(١)]. وتركا وهران خفية، دون المرور في القيطنة خوفاً من إثارة تظاهرات جديدة كتلك التي سببت احتجازهما، غير أن النبأ انتشر سريعاً، ووفد متطوعون جُدد للالتحاق بموكبهما الصغير.

صحبتهم مجموعة من الرفقاء، علماء ووجهاء، إنّما أيضاً نسّاك وورعون، فالتحقوا بتونس عن طريق الهضاب العليا. وكان عبد القادر يلتهم المناظر بعينيه، يستعيد دروسه في الجغرافية، يقلّب في رأسه أخبار رحلة ابن بطوطة الكبير، ويستذكر تاريخ البربر لابن خلدون. وكانت القافلة تبسط موكبها المتباين من الهضاب إلى الوديان؛ وفي كل مساء تشير أكوام من الحجارة إلى الأماكن التي حلّ الحجّاج فيها للمأوى والطعام ولقاء الأخوان.

كانت الأمسيات طويلة إذ يجب القَصُّ فيها والصلاة ثم القصّ مجدّداً. غير أن التعب لم يكن ينال من القافلة النشيطة المنتعشة بأناشيد قادة الرعاة وحراس الحيوانات. وكان محيي الدين يصلي، ويتبارى مع ولده في ذكر الأحاديث النبويّة. لأن الرسول نفسه ﷺ كان قد ذكر أن إرثين يحفظان من الغواية: كتاب الله، وسيرة الرسول.

---

١ ـ هذا هو المثال النموذجي الذي يبرّر اختياري لتأريخ يدور الجدل حوله، فبين الوثائق التي عدت إليها وجدت ثلاثة أزمنة لهذا الرحيل: فتشرشل يحدده بتشرين ثاني ١٨٢٥ بالاستناد إلى إملاء من الأمير عبد القادر نفسه، لكن يلاحظ أن الأمير قلّما كان يعنى بتحديد التأريخ الزمني الدقيق... وآخرون أعطوا تاريخ ١٨٢٨ الذي يتحمل أخطاء مقارنة مع التواريخ الهجرية حتى عند شوديكوتيز وذلك نتيجة أخطاء طباعية عن حج العام ١٨٦٣. ويبدو لي التأريخ الذي اعتمده أكثر قناعة، لأننا نعلم تاريخ العودة (بداية ١٨٢٩) مما يفسح مجال سنتين للرحلة الكاملة، التي لاتخلو من تعقيد كما سنرى.

لكن محيي الدين كان يشرح له في كل مرحلة الفرق بين الأخويّات، وتاريخها، وسلاسل شرعيتها، وأولياءها الأبرار، وفق الأماكن التي يحلّون فيها. ودائماً بذلك الاهتمام الكبير بالطرق المختلفة المتميّزة لتواضعه في البحث، وتسامحه مع دراسات الآخرين. وكان عبد القادر يزداد إعجاباً بهذا الأب الذي كان يتدرّج ببطء معه في هذه المسيرة التي تقودهم إلى المشرق. وفي يوم عند محطة يوم الجمعة التي تتيح لهم أن يبقوا ليلة إضافية في المكان هتف عبد القادر:

ـ أبي، أرجو أن تسمح لي، دون أن أكدرّك، أن أقوم هذا المساء بإلقاء خطبة الجمعة أمام أخوّتنا والحجاج المجتمعين.

ابتسم محيي الدين وهو يمسّد لحيته، ثم فتح أذنه اليسرى التي تسَرب إليها البرد فأحسّ بالضيق فيها، وحرّكها بإصبعه الصغير ثم قال:

ـ وأي موضوع اخترت، يا بنيّ، إذ أنني أعتقد أن هذه الفكرة خطرت لك منذ مدة؟

احمرّ عبد القادر، كما في كلّ مرّة، أي كلّما أحسّ أن والده يقرأ في أفكاره. لكن هذا استمرّ ليزيد من تشجيعه له.

ـ أنت تعلم أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد حذّرتنا من البدع الموجبة للوم. فتنبه؟

ـ بعد أن زرنا طيلة الأيام الماضية هذه الصوامع والبيع المختلفة، وبعد أن استمعت إلى مدى تسامحك أردت أن أشرح الآية الكريمة، التي تبيّن لنا أن لا إكراه في الدين، فقد تبيّن الرشد من الغيّ (سورة البقرة ٢٥٦)

ـ هذا اختيار طيّب يا عبد القادر، ولكن تذكّر أنّه لئن كان النبي ذاته ﷺ واعظاً ممتازاً، فيجب ألا تنساق مع غلوائك، وبلاغتك. أقم الحجة بالعقل والاستعانة بالنصوص. هذا جيّد يا بني، إنه موضوع مناسب، ستعظ فيه هذا المساء! وهذا لايعني أن ليس عليك في يوم ما من أن تحذر من المعلمين المزيفين، وجميع أتباع الرحمانية والقوى المحليّة، وعندما نعود إن شاء الله عن طريق طرابلس، وبزيارة قبر جدك، سأعمل على أن أجمعك بأحدث هذه الأخويات وأقواها لدى السنوسيين... إن شاء الله.

في كل مرحلة، كان الملتحقون بموكب الحج أكثر عدداً، وفي كلّ مرة يتسنّى لعبد القادر أن يتناقش مع اصحاب جُدد، وبعضهم من المتقدمين في العمر الذين سبق لهم زيارة الشرق عدّة مرات، فكان يطرح عليهم العديد من الأسئلة، يريد معرفة كل شيء، عن بيت الله، وعن بئر زمزم، وعن المزدلفة، وطقوس التضحية، ورمي الجمار على الأعمدة الشيطانية؛ وعن البحر، والمدن والناس.

غدا البرد قارساً، وقطعت الثلوج المعابر قبل أن تصل القافلة إلى وسط تونس متجنبة المدن الكبرى، لأن محيي الدين كان يخشى أن تبدر من باي قسنطينية مغامرة سّيئة كتلك التي وقع ضحيتها في وهران. وكانوا يسيرون غالباً وهم يتدرّؤون بأجساد الخيل، وانتاب السعال أكثرهم سقاماً. وفي مسيكانا قضى بينهم أوّل شهيد. وداروا دورة واسعة باتجاه الجنوب، وبعد برد منطقة القبائل عرفوا وطأة الريح والرمل. ثم صعدوا إلى الشمال في وديان أكثر ظرفاً حيث تكثر الآثار الرومانية. واستخلص محيي الدين درساً من فلسفة التاريخ، قدّره عبد القادر حق قدره: كلّما كانت الحضارات أكثر غطرسة في بنيانها، كلّما كان دمارها دلالة على قدرة الله.

غدا جسم عبد القادر مصطبغاً بالسمرة والنحول للحرمان من الأغذية الدسمة، ودون مبالغة مفرطة نظم القصائد الخفيّة في تمجيد الحياة البدوية والتغني بعصبية ابن خلدون... فالعصب الخفي للإنسان الحرّ هو الصحراء، والمدينة مفسدة.

لكن عبد القادر كان متأثّراً بتونس أكثر منه بوهران، وقد عمرت حنايا قلبه مكتبة جامع الزيتونة الكبير، وأتعبت عينيه. ولمّا كانوا ينتظرون مركباً ليقّلهم إلى الاسكندرية، فقد اغتنم الفرصة ليستمع إلى كبار العلماء تحت أشجار الزيتون. كان يغرق في التأمل تحت تلك الشجرة الألفيّة، ويتجوّل في الشوارع الضيّقة النديّة، يقلّب بعينيه النهمتين محتويات الحوانيت الصغيرة والأبهاء العميقة، يحيي معلمي الحرف. فهم هنا قمة الكياسة، وقَدَر التخصّر، وشجرة ابن خلدون. فدار العلم قد سرّته بالرصانة الهادئة المنبعثة منها. وكان يقضي الساعات الطويلة يستمع إلى مواعظ ودروس مختلف العلماء في تلك الديار.

بدت له الحياة التعاونية وتنظيم الوصاية أكثر سموّاً من كل ما عرفه، وراح يمعن الفكر في كيفية القضاء على الخلل والاضطراب، تلك الفوضى المعنيّة التي يلمح تناقضاتها المغلّفة بحرية ونشوة الرياح وإنما أيضاً بعنادها.

المقامة التاسعة

الله هو الحفيظ وهو المغيث

كان عبد القادر قد التقى باسبانيين في وهران، لكن القبطان جوف JOUVE كان أول فرنسي صادفه، وهو يتكلم لغة غريبة نصفها عربية، وقليل من المالطية، أو من الكورسيكية ولغة جزر البليار؛ وقال له ملاح يوناني ان هذه اللغة تسمى فرانكا، وهي معروفة في كل مرافئ البحر المتوسط. ولم يحدّثه أي معلم في فقه اللغة عن هذه التجربة الغريبة: هل للمعرفة حدود؟ وأساساً كيف يمكن للشعوب أن تتواصل فيما بينها دون أن تعرف العربية أو اليونانية؟ ابتسم عبد القادر لفكرة مكان يسود فيه انسجام اللغات. وقال له محيي الدين عندئذ ـ وقفز الشاب مرة أخرى، لأن والده يقرأ في افكاره كما في كتاب مفتوح... ـ في كتب المسيحيين واليهود، انحرفت هذه القضيّة يا بني. فالله عاقب البشر ببابل، لأنهم أرادوا أن يجمعوا مافرّقه الله. فتذكّر أنه لو أراد لجعل الناس أمّة واحدة، ولكن البشر سينقسمون إلى ثلاث وسبعين شيعة قبل أن يقرّر الله أمراً آخر، فهو قد جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف. ستزور قريباً أماكن سترى فيها كثيراً من المسيحيين واليهود، فلا تنس أنهم قد تلقوا قسماً هاماً من الوحي قبلنا، وأن ابراهيم الخليل، الحنيف، كان مسلماً.

ـ كيف يمكن هذا يا أبي، مسلم قبل الإسلام؟

ـ آه! يا بني، كم أنت متعجرف! أولاً إن الله قادر على كل شيء؛ ثم إن كنت تعتقد أن الماضي والحاضر والمستقبل هي وفق هذا الترتيب، لأنّك تراها اليوم هكذا، فليس من المؤكّد أنها كانت دائماً كذلك. ستفهم فيما بعد، إن شاء الله.. انظر إلى البحر يتجدّد، انظر إلى انعكاس أمواجه...

كان المركب يقلع نحو الاسكندرية، ومنارتها، ومكتبتها، وماضيها الأسطوري.

الله هو الهادي والحافظ. إنّه النور.

بعد عدة أيام في البحر، تعرّضوا فيها لعاصفة، اضطروا إلى العودة إلى تونس، ولم يستطيعوا السفر مجدّداً إلا بعد خمسة عشر يوماً لأن الراغبين في الحجّ، كانوا أكثر من ألفين والمراكب الجاهزة قليلة، وكان عبد القادر يستشيط غيظاً،

ويتعلم الأناة والصبر، رأى سواحل طرابلس ثم برقة. وخلال ليال مقمرة، أمكن لمحيي الدين أن يكشف لابنه جميع الحقائق الفلكية.

بقيا بضعة أيام في الإسكندرية، ودهش عبد القادر من تنوّع السكان وثرواتهم. وغمر علماء المدينة الذين استقبلوه بالأسئلة التي قصّرت من جلسات المجاملة والملاطفة، فنفاد صبره وانفتاح شهيته على المعارف كانت تثير ابتسام أكثر من شيخ عجوز تحت نظرة والده المتواطئة: التقى بروم أرثوذوكس، وكاثوليك شرقيين، وأرمن، ومالطيين، ويهود مختلفين عن يهود المغرب لكنهم مشابهون لهم، ومسلمين من مدارس أخرى، وبأقباط خاصة، وعرب مسيحيين، وهذا ما أدهشه كثيراً: وفي المساء وجب على والده، وقد أضنته كثرة أسئلته، أن يدقّق له أيضاً في بعض الفروق بين المسيحيين واليهود والمسلمين في بدء الرسالة المحمدّية، ودائماً وبدعم كبير من الروايات ومراجع السير المعظمة ظن عبد القادر أن بإمكانه أن يؤثر عمر بن الخطاب الخليفة الثاني بعد الرسول ﷺ، وفكر عند نومه ووعد نفسه بأن يكشف مواطن الضعف في أبيه المحبوب الذي بدأ يستشف فيه بعض الهوس. وابتسم مودّة أكثر منه احتراماً وطار على جواد أسود عملاق قاده إلى منطقة تصالب البحرين، حيث التقى سيّدنا موسى بالخضر الباعث الأوّل؛ لكنه لم يعرف ما تم له بعد ذلك في تلك الليلة.

إن الله أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

في يوم السفر إلى القاهرة فرض محيي الدين الصيام الشفهي على ولده؛ فبهاء المناظر، وغناها وتنوّعها تغلّبت على طاقة حاج المستقبل.

دهش عبد القادر من غنى الزراعات، وخاصة من كثرة المياه مقارنة مع المنطقة الوهرانية، القاسية شتاءً، الجافة صيفاً. وأدرك وهو يشاهد هذه الفلوكات المفعمة، وهذه الأشرعة المخضّرة على مستوى الأراضي حيث ما من قطعة مهما صغرت إلا مستغلّة، وهذه الجواميس التي تتمرغ في مرابضها الموحلة، وهذا التنوّع في الحيوانات المختلفة، والطيور الناعمة، والفلاحين الدهريين، وهذه الهضيبات من الأرض المتموجة دون انقطاع مدى خصب البلاد، وكون مصر هي هبة الله، وبعد أن تجاوز المنصورة أدرك لماذا يطلق المصريون على النيل اسم البحر.

المقامة العاشرة

الله هو العدل، الحليم، اللطيف، ولكنه المالك.

الله هو مالك الملك، وذو الجلال والإكرام.

نصبوا خيامهم عند قاعدة الأسوار الضخمة، وقفز عبد القادر مع مطلع الفجر وانطلق بهمة عالية يتجوّل في المدينة: القاهرة، المنتصرة، ولم يعد إلا عند منتصف النهار، مُنهَكاً ومرهقاً بكل ما رأى وقد تجاوز كل ما تخيّله عن كِبَر المساجد وارتفاع مآذنها، وعن عظمة القلعة المسيطرة على المدينة القديمة، وخاصة عن اتساع النيل: البحر، كما يقول له الأشخاص الذين صادفهم على ضفتيه، بينما راح يتأمل من بعيد أهرامات فرعون؛ وفكّر طويلاً في عقوبته، وتساءل عمّا إذا كان الله أراد حقاً إدانة هذا الأمير. وعند عودته بخطا متمهلة وهو على جواده، أعاد التفكير بكل واقعة يوسف ـ عليه السلام! ـ وزوجة الطاغية ومفسّراً الأحلام، وأعاد تذكر القصة كما وردت عند ابن العربي. واقتنع... إن الأشخاص ينامون، وعندما يموتون يستيقظون.. لكن أتكون العقوبة الجهنمية خالدة، نهائية؟ علّل النفس بأن يطرح السؤال على محيي الدين. إنه لايعلم فيماإذا كان في يوم ما سيتعرّض لخيانة أعدائه في الداخل، بمن فيهم أخوته، كما بالنسبة ليوسف الذي عرف ورأى، أما تذكّر سورة يوسف.

﴿وجاء أخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ (١٢، ٥٨).

﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون﴾ (١٢، ٧٩)

﴿قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً؛ فصبرٌ جميلٌ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنّه هو العليم الحكيم﴾ (١٢، سورة يوسف ٨٣).

كان محيي الدين متكدّراً يبحث عن ابنه لأن عليه إجراء عدّة زيارات دينية ودنيوية، فهناك عدا أخويات مختلف المذاهب الدينية، العديد من علماء الأندلس المهاجرون الذين حافظوا على روابط مع العائلات القديمة، وعديدة هي شبكات الاتصال التي تتيح نسج خيوط ارتباط لقنوات جديدة.

صحب محيي الدين ابنه إلى الأزهر عبر باب المغاربة: وأشبعت المكتبة نفس عبد القادر المتعطشة لتصفح الكتب، لكن والده بيّن له أن عليه التزامات أخرى هذه المرّة. فالأسواق المغطاة مدهشة بغناها وتنوّع معروضاتها وأقل الزوايا تبدو له مترفة، والمساجد

ضخمة. لكنه لم يجد الراحة من التجوال المزدحم في متاهات خان الخليلي الأكثر إرهاقاً من صحراء الحجارة إلا في باب الزوّار حيث أمكنه أن ينصرف قليلاً للتأمّل: فهناك تتلبّد ضجّة الخارج بتأثير أشجار الحديقة الصغيرة، وسجع اليمام يذكّره بالأبهاء الوهرانية. جرّب أن يفهم كل مارآه وهو مستند إلى درابزين خشبي، وبدأ المساء يهبط بهدوء على المدينة الواسعة وارتفع صوت الأذان المتكرّر مئة مرة بالأصداء يذكّره بواجباته...

«العلم صندوق مفتاحه السؤال..».

المقامة الحادية عشرة

عصرك سلطانك: فإن أردت أن تجعله جيّداً فاختر له السلطان الجيّد. تردّدت الشائعات في المدينة بأن جمهوراً كبيراً من المغاربة في زيارتها. فطلب محمد علي باشا اليقظ دائماً لما يحدث في البحر المتوسط أن يرى محيي الدين. ومحمد علي نائب السلطان في مصر من أصل ألباني، وقد طرد الانكليز وأبعد شيعة الوهابيين عن مكة، وفتح طريق السودان، وقام بمحاربة اليونانيين بدعوة من السلطان، وبالرغم من اندحار أسطوله في نفارين أمام التحالف الفرنسي ـ الانكليزي ـ الروسي، اعتبر شخصية معجزة في نظر الحجاج الغربيين، سحر عبد القادر بسعة القصر ومنحه الاستقبال فجأة وضعاً دهش منه بالذات. ووقف بتواضع خلف والده وكان مندهشاً من سماع نائب السلطان يطرح عدداً من الأسئلة المحدّدة على محيي الدين عن سلطان مراكش، والمقاطعات التي عبرها. والوضع النفسي للمسلمين بالنسبة للباب العالي والخليفة، والفكرة السائدة لديهم أخيراً عن القوى الأوروبية.

قال: يريد الانكليز والفرنسيون اقتسام العالم العربي، يا محيي الدين! وقد بدؤوا من هنا وتمتد أبصارهم عبر طنجة، فأنت إذاً في الوسط.

أدرك عبد القادر كم كان معلمه الشيخ في أرزو على حق عندما كان ينظر إلى الأحداث بمنظار استراتيجيته، وبدأت تتوضح أمامه الأشياء رويداً رويداً؛ فالعالم يشكل كلاً، وبعض القرارات تتخذ في أمكنة أخرى. والاختبارات السياسية ليست إلا امتحانات إلهية لتحمّل البشر. لكنه كان مايزال يفكر في آية من سورة النمل تقول فيها ملكة سبأ لسليمان.

﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك كانوا يفعلون﴾ (٢٧، سورة النمل، الآية ٣٤).

لكنه لايرى هنا إلا ملوكاً كباراً ومدناً مزدهرة. وحيرته قضية هذه المملكة. لم يتوفّر له الوقت ليتأمّل في كل شيء يراه ويسمعه. فهذه التعدّدية تسحره، وفي الوقت ذاته تشوّشه. فالحل الوحيد يقوم على العودة بدون انقطاع إلى الاستظهار وإلى النصوص التي درّسها له أبوه ومعلموه، وإلى قراءاته، وإلى مأثور حياة النبي ﷺ، وإلى الحديث. وعند ذاك كان يجد دائماً الجواب أو الحل: «عبدت الله في مئة صومعة، ثم في ست أخرى، لكنني لم أنجح إلا عندما فتحت لوحي».

الدعامة الثالثة
الحجّ ونهاية الإعداد

المقامة الأولى

العمرة

﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ (٢، سورة البقرة ١٤٩)

﴿يا أيّها الذين آمنوا، إنّما المشركون نجس، فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ (٩ سورة التوبة ٢٨)

شرح محيي الدين لابنه، وهما أمام جبل طور سيناء، أن موسى خلع نعليه بسبب قدسية المكان.

نعم يا بنيّ، كلّم الله موسى حقيقة وأكّد القرآن، ﴿كلّم الله موسى تكليماً وأنا أوّل المؤمنين﴾ (النساء ٤ ـ ١٦٥). وأنت يا بنيّ، ستذهب قريباً من سيناء إلى سيناء حتى نجمة اليمن، إن شاء الله.

كان جبل سيدنا موسى أسود بينما مجموعة الحجّاج الصغيرة تبتعد عن أسوار الدير حيث وجدت مأوى متواضعاً، ومازال تحت أنظار عبد القادر تلك النقوش الملوّنة التي أمسكها بيديه بفضل أخوّة الأب رئيس الدير. أناس غريبون، هؤلاء المسيحيون؛ إنّهم يناقشون في وحدانية الله، وهذا الراهب الأرثوذكسي يجد طبيعياً التجسد الإلهي في جسم بشري. وناقش محيي الدين الفكرة بحزم، لكن عبد القادر شعر أن فيها شيئاً هاماً يتجاوز علاقة مريم بالروح بواسطة الملاك.

﴿أرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سوياً﴾ (١٩ سورة مريم ٤٧).

يجب أن يفكر بنفحة الروح البدائية[1].

هل يمكن للعدد أن يولّد الكثرة في الذات الإلهية؟

إن القرآن ينبهنا: ﴿ألهاكم التكاثر﴾.

١ ـ ملحق: مناظرته مع المطران دوبوش Hg.r DUPUCH

ومع ذلك:

﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (٣ سورة آل عمران ٤٧).

ماذا يفكّر المسيحيون عندما يقولون إن أقانيم الثالوث تشكّل إلهاً واحداً؟ هل هم مشركون؟ إن القرآن يؤكّد على الوحدة، وعلى الوحدانية بحيث لاشيء غيرها.

﴿لم يَلِد ولم يُولَد﴾ (١١٢ سورة الإخلاص ٣)

يا إلهي احفظنا من الأوثان.. ولكن، هل يعبد المسيحيون فعلاً الصُوَر؟ كان يبحث في ذاكرته، وهو يسير، عن قراءة له أجراها مع والده في ابن عربي. ماذا يقول المعلم الأكبر عن هذه النقطة في تقريظ الأنبياء؟ إلا إن كان في تفسير التوق المضطرم؟ ووعد نفسه بالتحقق من ذلك.

محبوبي ينقسم إلى ثلاثة
هو الواحد
كالأقانيم التي تغدو واحدة
في جوهرها

أجاب محيي الدين بحزم ابنه من نصّ الشيخ الأكبر بالذات: «إن وحدة الله التي تتكشَف تحت أسماء إلهية تلتمس وجودنا هي وحدة التعدّد، ووحدة الله المستقل بها عنا، وعن الأسماء، هي الوحدة الرئيسة، والواحدة والأخرى متضمنتان في اسم الواحد» غير أن عبد القادر، رغم تقديره، لم يكن مقتنعاً كل الاقتناع.. وبدا له أنه قرأ شيئاً لدى ابن العربي يتعلّق بالايقونات البيزنطية ليسوع كدعامة ورمز متميّز للتركيز على الوحدة الإلهية...

كان الفجر قد بزغ عندما وصلا إلى القمة، وتلقى عبد القادر مايشبه طعنة ملء صدره، بينما كان والده في سجدة صلاة الفجر. كان أمامهما المدى الفسيح واحداً ومتنوّعاً في الألوان، والرمال والصخور تموّج بدايات العالم، القريب واللامتناهي، كامرأة ممدّدة على طبقات وثيرة، تبدي استدارات وثنيات قاتمة عميقة وواعدة. لم يكن النظر محصوراً بأفق محدود عدا ضباب الصباح الخفيف كغلالات شفافة وظلال راقدة. هنا أيضاً ترتسم تحت عينيه المحدّقتين أنهار بدائية كأفاع طويلة مرئية بآثارها، بدايات عملاقة لفوضى مدهشة أمر الله بتنظيمها، وسحب منها جسم آدم، الذي كما

يعرف الجميع، كان من الكبر بحيث يتمتد من الغرب إلى الشرق.. قبل أن يحكم على شعبه بالتيهان في الانتظار غير المحتمل لغيابه. حضور ـ غياب الله يتجلّى في هذا المكان حيث الشريعة وضعت على لوح للتائهين، ونزل المنّ من السماء لتغذيتهم... هذه **السكينة/** وجود الله اخترقت كيان الشاب، فرأى موسى تناثر أشلاء وصعق ثم كسر الألواح وهو يكتشف العجل الذي أقامه بنو إسرائيل معبوداً لهم.

كان البرد يقرص وجنتيه وثيابه الواسعة تصطفق مع الريح الجافة، ولم يستطع أن يحرّر عينيه من تدوير نظره، لم يسبق له أبداً أن أحسّ بمثل هذا الشعور، وفجأة، وبمثل الإنصعاق أدرك أن السجود وفق الانحناء التقليدي لايكفيه من أجل الصلاة، وكالبرق لمح وحدة هذا العالم المطلقة في تظاهراتها، وباضطراب خرّ على ركبتيه بينما كان الآخرون قد انتهوا تقريباً من أدعيتهم. وبارتعاش كلي من البرد والذعر، والجسم كالصقيع، والجبين ينضح عرقاً انحنى حتى الأرض وهو يصدم فجأة جبينه الجريح بالصخر الموازييكي، وفي داخله زمجرة تضجّ بكل الطاقة المتركزة في هذا المكان فتكاد تصعقه.

لم يستوعب محيي الدين ماحدث، وهكذا ترك ولده ساجداً ونهض ليحرّك كشحه المتصلب. ونهض عبد القادر فجأة وقال بصوت حازم:

ـ أريد أن أدرس معك هذا المساء يا أبي بعض نصوص ابن عربي؛ هل تظن أننا سنجدها في مكتبة الراهب.

ابتسم محيي الدين وقال: إن الوقت للممارسات الشرعية، وأنت في جرأتك متسرّع دوماً، عليك أولاً القيام بفريضة الحج وسنرى فيما بعد.

﴿ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ (٥٠ سورة ق، ١٦).

بعد أربعين يوماً من السير، كانت كلّها مناقشات، وصلوات، وإعادات، ثم مجدداً وباستمرار مناقشات. وكان محيي الدين، بصبر لامتناه، يجيب دائماً مستظهراً أبياتاً من الشعر، مذكّراً بأحاديث الرسول ﷺ، شارحاً تفسيرات المدارس المختلفة، مضمناً حديثه بعض النوادر، ومطلقاً أحياناً بعض الرموز. لكن ولده لايرتوي، وهو يبدي دون انقطاع معارضة حول أقل الأشياء، حول كلّ شيء، وحول لاشيء.

وفي كلّ مرةٍ يطلب منه الأب أن يكرّر المحفوظات التي علمتها الأم: «قل!، واقرأ! وردّد!».

وشرح محيي الدين سير جميع الأنبياء، والملوك، والمعارك، والشعوب، منذ بدء الأزمان. سلك مجدّداً طريق العبرانيين، وابراهيم المسلم قبل الرسالة ـ «هنا الإشارات بديهية»، ومشى من سيناء إلى سيناء وهو يتبع كوكب اليمن، ورافق حورية البحر الأحمر، في الغبار والحصى الذي يدمي الأرجل، وغدا جسماهما جافّين نشيطين. وكانت روحاهما متوّجهتين إلى الواحد الأحد كما أنهما أبحرا يوماً والنسيم يصبغ بغباره لحيتاهما بالشقرة، ووصلا أخيراً ـ بحمد الله ـ إلى الأرض التي وطئتها قدما النبي ﷺ، ولتحل بركته على ذريتنا.

أخيراً في **بلاد آمنة** كما يذكر القرآن الكريم.

غدت الطريق من الآن وصاعداً عريضة وقصيرة حتى الأماكن المقدّسة التي وقف عليها ابراهيم، وحيث دخل النبي ظافراً في العشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

﴿وأتمّوا الحجّ والعمرة لله﴾ (٢ البقرة، ١٩٦).

﴿اعملوا فسيرى الله عملكم﴾ (٩ سورة التوبة ١٠٦).

وتوضؤوا وحلقوا رؤوسهم وأقاموا الصلاة وفق الشعائر وهتفوا «لبّيك اللهم لبّيك، لبيك اللهم لبيك» وارتدوا قطعتي الإحرام وشرح محيي الدين لولده جميع المعاني ودخلوا في قدسية تلك الحالة مع جميع مقتضيات الإحرام المتعلقة بها، ودفع محيي الدين ولده لترديد الآية القرآنية:

﴿يا أيّها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ (٥ سورة المائدة، ١).

وأمام أمّ المدائن أقاموا الصلاة وهم يفكرون بلالا زهرة الباقية في الوطن البعيد: جئتك من بلاد بعيدة، مثقلاً بالخطايا، مسؤولاً عن كثير من الآثام..

﴿يا أيّها الذين آمنوا لاتحلّوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهَدى، ولا القلائد، ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضوانا﴾ (٥ سورة المائدة، ٢).

ومالفت نظر عبد القادر خاصة كان التركيب الخليط، الكثير التنوّع للحجاج: فرغم الثوب الأبيض الموحّد، فهناك السود، والصفر، والسمر، وأبناء الشمال الوافدون من الشام، ورجال ونساء آتون من كلّ الأمكنة، وأدرك سبب اصرار القرآن على المساواة، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

﴿قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون﴾ (٢٦ سورة الشعراء، ٢٨).

كانت صحراء سيناء قد صعقته. أما الحرم المقدّس فقد فتنه كليّاً. تحقّق أنه يتألّف من مربّع، والكعبة في مركزه، وعندما دار سبع مرات متباطئاً شيئاً فشيئاً، أدرك فجأة ماشرح له معلمه في أرزو عن النظام المنبثق من الفوضى بالهندسة، فبدورانه رأى أن مجموع الحجاج يشكلون لولباً مركزه مركز الحرم لكن لامحيط له[1]. لكن أزعجه أن الإغريق فهموا الشكل الفارغ والمليء قبل المسلمين: ووعد نفسه بأن يبحث الموضوع مع أبيه مساءً. وكان هذا في طوافه، وقد انحنى أمام الحجر الأسود قبل تقبيله، وكان يمرّ بيديه باستمرار حول وجهه، ودهش عبد القادر لغياب هذا الأب مع أنه كان موجوداً دائماً، ويبدو بوضوح تنبهه لأمر آخر.

قضيا ليل الثامن إلى التاسع من رمضان في منى، وكرّر محيي الدين طويلاً قصة اسماعيل وأمّه المصرية والوعد المقطوع لابراهيم والعهد. وتعذّر الوجود في العالم مادام العهد صارماً، ومع ذلك ضرورة الكون في العالم.

كاد عبد القادر يختنق مما لقيه في آن معاً

فهو يخزّن

وهو يحفظ

وهو يراكم

إلى مابعد

وهو يقنّي مخاوفه بالشعائر، ويعجز عن أن يحتوي الآخر الذي يفيض من كل الجهات. فقلبه يحتوي الكعبة التي تحتوي الله، لكنها لاتستطيع احتواءه. حضور وغياب.

جمعا تسعاً وأربعين حصاة لرجم الشياطين في الأيام التالية وفق الطقوس: سبعاً على العمود الأوّل، وإحدى وعشرين على الثاني، والباقي لليوم الثالث. وشرح محيي الدين لابنه علم الأعداد، وعجرفة الشيطان المدّعي أنه خلق من نار، لذلك لايريد أن ينحني أمام آدم المخلوق من طين.

---

١ ـ كان التفسير الباطني للكعبة موضوع قراءات عديدة، الأسهل منالاً بالفرنسية هي ماكتبه ك. ا. جيليس وهـ. كوربن C.A GILIS, H.CORBIN.

عبد القادر حدّد النقطة، وليس السطر... اشرح لي الآية الثالثة من السورة السابعة والخمسين.

﴿هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم﴾ (٥٧، سورة الحديد ٣). لماذا هذان المظهران المتناقضان.

بقي عبد القادر منذهلاً أمام هذه الأوضاع النهائية لهذه الصفات المتعارضة. واختار محيي الدين موضوعاً آخر أكثر واقعية بالنسبة للظرف الراهن.

- قل يا عبد القادر ماذا تعني كلمة مهندس؟

- .....

- إذا أخذت القيم العددية لأحرف مهندس أحصل على ٤٠ + ٥ + ٥٠ + ٤ + ٦٠ = ١٥٩. وهذا العدد يتمثل بالنقطة: ن ق ط بالقيم ١٠٠ (ق) + ٥٠ (ن) + ٩ (ط) = ١٥٩. كيف تكتبها؟ كنقطة مركزية. ماذا يأتي بعد تأمّل (كن)؟ المعرفة الداخلية (حرف ط). هل تريد أن تقول لي؟ لدي الثلثان ن و ق. ثم لدي الحرف الثالث ط الذي يعني «مخفي».

- إذاً لايوجد علم إلا وهو خفي؟

- نعم ولكن انطلاقاً من كلمة «قلب» وهي بقيم اسم النبي محمد ذاتها.

م: ٤٠ + ح: ٨ + مّ= ٤٠ + ٤٠ + د: ٤ = ١٣٢ التي يمكن أن تقرأها ٣٢ + ١ = ٣٣. وفي سبحتك ثلاثة أقسام تتألّف كل منها من إحدى عشرة حبة أي ثلاث إحدى عشريات وهي تعطي الأسماء التسعة والتسعين لله بينما المائة غير ملفوظ. والحال أن الكعبة مبنيّة من أحد وثلاثين مدماكاً من حجر وخشب، وتضيف الأرض والسماء ليصل العدد إلى ثلاثة وثلاثين.

.... وأنهيا الوقوف والتوقف في سهل عرفات، من الظهر حتى منتصف الليل، عند قاعدة جبل الرحمة، حيث صليا من أجل جميع الذين بقوا هناك في القيطنة، فكانت هذه التأمّلات الطويلة والصلات، وريح الصحراء والحرارة، والسير المتواصل والمنهك نقاء لروحيهما في هذا المكان بالذات الذي توجّه فيه النبي إلى المسلمين والمؤمنين المباشرين لآخر مرة.

مرّا على المزدلفة، وقاما بذبح الضحية في منى، وقسّم محيي الدين الكبش الكامل

الذي اختاره لمظهر قرنيه ووزعه بالكامل. وبعد تقديم الأضحية عادا مرة أخرى للطواف حول الكعبة، وعجل محيي الدين بكلّ مايود قوله لابنه، وكأنه يشعر أن الوقت قد أدركه، إذ أنه يودّ السفر إلى بغداد، وعلى معلم القديرية أن يُريَ ابنه الأثير وتلميذه أشياء أخرى هناك.

والله محيط بكل شيء.

واقترب عبد القادر وهو يدخل في الدوائر حول الكعبة: معبد الرجل، وعرش الآخر: فتهلّل، فهو على مدار القلب. وفجأة لاحظ أن الكعبة ليست مكعبة لكنها مثلثة، وأن الزاوية الرابعة الموجّهة نحو الشرق تمثل الفكر الشيطاني: وتلا الآيات حول تسمية الربّات الأم: اللات، ومناة، والعزى تلك الأوثان التي حطمها النبي ﷺ في هذا المكان بعد ذمّ قاس، شهير، لم يدرك.

﴿أفرأيتم اللات، والعُزّى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكُمُ الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضِيزَى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان...﴾ (٥٣، سورة النجم، ٢٣).

وتردّد عند الكلمة؟ سلطان؟

هذه الفتنة الكبرى، والانقسام، والمؤامرة، والعصيان؛ هذه الزاوية قد ألغيت. إنّه لايراها أبداً؛ إنها تشير للخبيث، لكن الدائرة التي تسوّر السياج تحصره، وتمنعه من الخروج إلى الأبد، إلا بالنسبة لأولئك الذين يرونه لأنهم لايرون النور...

ترنّح عبد القادر ثملاً بالمعرفة: إنّه يرى كنز الداخل، لأن المكعب الكبير قد رفع الحجب السوداء والمذهبة التي تخفي الجوانب. لكنه في الوقت ذاته يرفض الكنز، كما الخليفة عمر الذي أراد نقبه... كان الطقس حاراً جداً، والشمس تجعل الأبيض غير محتمل. لكن الأبيض سيغدو من الآن فصاعداً لونه. ودار عبد القادر أيضاً، يتساءل إن كان سينصهر في الواحد.. وقد شوّشته صورته الحقيقية:

لبيك اللهم، لبيك، ها أنا أمامك.

ورآه، كما رآه النبي ﷺ.

وقالت له الكعبة: در من حولي، وكما روى نبع زمزم هاجر واسماعيل: كن أنت مرتوياً.

تذكر عند ذلك حلماً، ظهر له فيه ابن العربي بشكل أَسَد أمره أن يضع يده في شدقه. وبالرغم مما انتابه من رعب أطاع، وبدا له المعلم الأكبر عند ذاك بقسماته الذاتية. هل يجب عليه أن يتبع أباه أيضاً في هذه الرحلة الطويلة المبرمجة التي تغرقه في معلومات سطحية أو أن عليه أن يسلك أخيراً طريقه الخاص؟ كيف يمكنه أن ينبئ هذا الأب اليقظ بأنه فهم كلّ شيء، وأن عليه أن ينتقل إلى مواضيع أخرى؟ بالاستناد إلى القرآن الكريم بالذات؟

﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (٥، سورة المائدة، الآية ٣).

أو على مثال الرسول نفسه؟

«اللهم هل بلّغت؟» سأل الرسول ﷺ

ويجيب الجمهور: نعم والله.

اللهم فاشهد...

وداعاً.

أو أخيراً وفق الحكمة الإسلامية.

«من دعا إلى طريق الله، دون أن تؤكّد أفعاله أقواله كان كمن يعزف بقوس دون وتر».

كانا يجلسان في وضع غير مريح في قاعة استقبال أحد كبار علماء مكة، وعبد القادر منزوياً في ظل أبيه يستمع إلى جميع هؤلاء الرجال الوقورين يفصّلون في مشاكل تفسير الكتب المنزلة. ومرّة أخرى تحقق من سعة علم أبيه ووضوح رأيه لأن تفاخر محدثي الكلمة المكتوبة لم يضيفوا شيئاً إلى حجج محيي الدين الدقيقة. وفي ذات الوقت كان سعيداً لرؤية الاحترام الذي أظهره أولئك الذين يسكنون هذا المكان المقدّس لهذا الشيخ الوافد من الغرب المسلم. وكان طرح المواضيع والمداولة فيها يستهويانه لكنه لم يستطع أن يتخذ قراراً بالمشاركة، بالرغم من أن أحد هؤلاء المشرّعين المستشارين عرض تفسيراً غريباً يتعلق بوضع النساء: فبالعودة إلى علم أمه ورّقتها، ونعومة ابنة عمه وزوجته، ومتانة موقفهما الملائم لتقدير رأي المرأة؛ دهش عبد القادر من صرامة وضيق أفق العلماء المكيين؛ بل إنّه استغرب تفسيرهم، غير الموافق في رأيه لأحكام القرآن، في موضوع الزنا.

بعد الجلسة أقبل على محيي الدين الذي شرح له من جهة نظرية نقض بعض النصوص، ومن جهة أخرى مذهب طائفة قويّة في المنطقة هم الموحّدون، الذين يشبهون قليلاً موحدي المغاربة في ذلك العصر، ومؤسّس الطائفة ابن عبد الوهاب، وذريته، وحلفاؤه من القبائل البدوية في الداخل، وخاصة بني سعود الذين يريدون انتزاع الأماكن المقدّسة من الهاشميين، واسترجاعها من محمد علي باشا لكن محيي الدين يعتقد أن لهذا النزاع صبغة سياسية.

وبدوره دفعه عبد القادر إلى تأمّل القول

يا قوّاد القوافل، ما أنتم إلا لصوص.

كيف يمكن الوثوق بالبدو؟ فماذا حملوا للمدنية باستثناء إحساسهم الفطري بالشعر؟... بالتأكيد هذا الشعور بالأنفة، وهذه العصبية التي يتحدث عنها ابن خلدون.

قضيا عدة أيام في زيارة العائلات الكبرى والعلماء، لكن محيي الدين كان متعجلاً للتوجّه إلى الشمال. وهكذا فقد نظّم هذه المجموعة الصغيرة من الجزائريين، وانضم إلى قافلة متوجّهة نحو سورية. ودهش عبد القادر مرّة أخرى بأهميّة هؤلاء الأشخاص وتنوّعهم، وملابسهم، وتقاليدهم، وكان طيلة الطريق يختلط تارة ببعض منهم يسألهم عن عاداتهم، وتارة ببعضهم الآخر يطلب منهم أن يحدثوه عن هذه الأماكن الغريبة التي يتوجّهون إليها حتى عمق القوقاز، ومشارف آسية، لكن القافلة كانت تشمل أيضاً تجاراً يعتبرون زيارة الأماكن المقدسة مصدراً للربح: فجمالهم تنقل أحمالاً ثقيلة من الخيرات الثمينة المنقولة من شبه الجزيرة العربية أو الواردة من اليمن، العطور والذهب، ومعهم العبيد المقيّدون بالأغلال يلقون الصعوبات غالباً في السير على المعدّلات اليومية للقافلة، ولاحظ عبد القادر المتاجرة بكل شيء، فحتى ماء زمزم يباع لأغنياء السلطنة وهذا ما أغاظه....

في إحدى أمسيات التوقّف كاد يتخاصم مع محيي الدين لاعتباره أن التبريرات القرآنية ذاتها حول هذه النقطة تبدو له وقد أسيء تفسيرها. ليس من المحظور قطعاً القيام بالأعمال التجارية خلال الحجّ، لكن ذهاب كل هؤلاء الأولاد السود إلى قصور الحريم التركية تطرح في نفسه مشكلة: ألم يكن مؤذن الرسول الأوّل نفسه عبداً أسود.

قضيا بضعة ايام في المدينة، المدينة الفائقة التي فتحت بالإيمان والمحبة، وليس بالسلاح، وفي الأمكنة بالذات. واستأنف محيي الدين تعاليمه بدءاً من شروح مستفيضة عن حياة الرسول ﷺ من قبل الطبري وآخرين. كان محيي الدين يناقش شروط كتابة سير الأولياء الصالحين، وفاجأه عبد القادر مغتاظاً عندما كان يؤكّد أن ابن اسحق وابن هشام أعطيا روايات مختلفة قليلاً عن المرحلة ما قبل الإسلامية... لكنه كان يؤكّد دائماً على أن السير على نهج تلك الحياة هو مرشد أمين، ولم يكن يفوته أبداً التحدث عن صعود الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ورحلاته الليلية، وكانت هي موضوعه المفضل، ربّما لأنه هو بالذات كان يعلّق أهمية كبرى على أحلامه الخاصة.

على كلّ حال، كان يفكّر عند العودة، بالمرور في القدس، وأن يلمس بأصابعه، ويطأ بقدميه هذا المحور من العالم المنطلق من الصخرة المشرفة إلى مكان التضحية، لأن الرجل الكامل لايمكن أن يقف مشدوداً إلى الشرق العمودي إلّا إن كان في وضع شعائري في مركز هذا المحور الأفقي. كان عبد القادر يتابع دراسات القواعد وفقه اللغة، والعلوم الدينية، وبين جميع هذه المفاهيم كان يعود الواحد معتّداً: البرزخ. لم يعرف حتى الآن كيفية تحققه عبر البداوة التائهة بين الإثنين، وحتى مابعد ذلك بمدة وجد محيي الدين نفسه بعض صعوبات في الإجابة على سيل أسئلة الشاب لأنه لم يكن مسيطراً على بعض مظاهر هذا البحث غير المألوفة. فالقديرية كانت في الواقع متمسكة بالتقاليد في هذا الاتجاه.

المقامة الثانية

اول جولة في بلاد الشام

﴿قُل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيّا ما تدعُوا فله الأسماء الحسنى﴾ (١٧، سورة الإسراء ١١٠).

تعرفا في دمشق حيث أقاما بضعة اشهر على علماء رئيسين (علماء وفقهاء) وقضيا معظم أوقاتهما في الاستماع إلى محاضرات في المسجد الكبير أو في المحافل، واكتشف عبد القادر كم هي عديدة الطرق ومتشابهة.

بين وقت وآخر كان يسأل أحدهم محيي الدين عن رأيه في قضية ما،

ويستمع الجميع إليه باحترام مع بعض اندهاش من علوم هذا المغربي. فلم يكن أهل دمشق يتصوّرون أن الإسلام قد بلغ هذا الشأو في سهل من المغرب البعيد؛ فبالنسبة لهم، وهم المدنيون المثقفون، لايمكن للمرشدين الروحيين في القبائل البدويّة إلا أن يكونوا أفظاظاً، قد شوشتهم تقاليد جميع تلك الذئاب القابعة في المناطق المحيطية، كما وصف ذلك جيّداً عالمهم الوحيد المشهور ابن خلدون، من الأندلس المفقود.

كان عبد القادر يضطرم غيظاً أحياناً، لكنه كان يبقى دائماً في ظلّ أبيه، ينظر إليه بإعجاب، عندما يجيب وهو يمسّد لحيته وعلى شفتيه ابتسامة عذبة. ولم يكن يجد الراحة إلا في التأمل ضمن مكان يسحره، عند سفح الهضبة، في حيّ منزو، يتميّز بشعبيته، يوجد في ركن من جامع متواضع قبر الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي الأندلسي. وهناك كان عبد القادر يتأمّل الزليج الأزرق والأخضر، ويبقى ساعات يرنح بخفة جسمه على إيقاع نبضات قلبه ينظر إلى الفراغ مع الآخر الكلي، مع المليء، ومع الفراغ ينتشي حبّاً، محبّاً لم يُحبَب بعد.

كان يفكر: وإذا رفضني الله؟ لم يكن يستطيع أن يطرد هذه الفكرة من رأسه: فلماذا يختاره؟ هو بالذات؟

وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين!

وهناك قرب المقام، فهم **الذِكْر/** تضرّع النفس المطمئنة، فالإصغاء إلى التناسق الكلّي يبدأ من هنا، بالرغم من أنه يعرف أن عليه مراحل وحالات يجب اجتيازها.

﴿ولله الأسماءُ الحسنى فادعوه بها وذَرُوا الذين يلحدون في أسمائه﴾ (٧، سورة الأعراف ١٨٠).

لخص ذهنياً جميع تعليمات الطرائق المختلفة والأخويات التي علّمه إياها والده وتحقق أن من الممكن أن يختصرها في سلسلة منطقية: فإن انطلق من مختلف أشكال الذكر/ على اعتبار أنه دعاء أو رموز روحية، فإنه سيعود دائماً إلى ذات النقطة، مع ضرورة أن يتّمم كل المسار: الذكر الصوتي، والقلبي، والشامل لكل الأعضاء، والدعائي، والتأمّلي، والمشترك، بالنسبة للنفس التي تأمر، وتلوم، وتوحي، وترضي، وتعتمد، وتتقن. غير أنه لم يرِ بعد بوضوح كل المراحل والمواقف الضرورية، والمحطات... وأمّل النفس أن يفكر بهذا الموضوع بدءاً من النصّ.

﴿وما منّا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصافّون، وإنا لنحن المسبّحون﴾ (٣٧، سورة الصافّات، الآيات ١٦٣ - ١٦٦).

لكن بلاد الشام كانت مسرحاً لأحداث عديدة مدهشة، وكان عبد القادر يفكر مليّاً بالآية:

﴿إنّ الله لايغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ (١٣، سورة الرعد ١١).

مرة أخرى تحقق عبد القادر كم كان معلمه في أرزو على حق لتنبّهه للأحداث الحالية، وكم كان على خطأ في إهمال هذا المظهر من تعليمه: فقد كانت دمشق تلغط بكل أحداث السلطنة، وذكر الثورة ضد الأتراك على كل شفة، فعنجهيتهم تثير عواطف جديدة، والمجالس العديدة تترقب العودة إلى دولة عربيّة ماتزال غير متّضحة المعالم والحدود. وكان عبد القادر أكثر اهتماماً بهذه المداولات منه بالمجادلات الفقهية القضائية التي يراها أحياناً عقيمة.

تبيّن له أن دمشق منقسمة في الواقع إلى عدة طبقات متعارضة، وأتاحت له دروس ابن خلدون أن يميّز: الطبقة النخبويّة التي تضمّ الإشراف والعلماء، وذرية النبي ﷺ والمثقفين، وكذلك أيضاً، ملاك الأراضي؛ وكان كبارهم يعبرون عن مزايا طبقتهم... مثل آل الكيلاني، أو آل حمزة، وآل البكري، وآل العمري، وجميعهم أعضاء في المجلس البلدي، ومعظمهم أعضاء في القديرية، وأيضاً في طريقة أخرى لايعرف عنها الكثير: النقشبندية. لم يكن كبار الموظفين الأتراك يتدخلون إلا نادراً في شؤون هذه النخبة مع أن أفرادها يتجمعون غالباً علناً، وكثيراً ما تساءل عبد القادر عن مدى إيمانهم، ومدى اندماجهم في المجتمع، وعن تعاونهم مع السلطة العثمانية كما أن كل شيء كان يبدو له أكثر تعقيداً مما هو في منطقته الوهرانية الأصلية، وخاصة بسبب الأهمية الكمية والكيفية للعرب غير المسلمين، والأقليات من جميع الأنواع، وو. ب عليه أن بعي تماماً الفرق بين كاثوليكي رومي وأرثوذكسي بيزنطي، وماروني، والفروق بين هؤلاء والمسيحي الكلداني، كما أنه تساءل عن وضع الدروز ضمن الطوائف الإسلامية، وعن معنى بعض الآيات القرآنية التي تؤكد أن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، لكنه بالعكس أعلن أن العالم سينقسم قبل نهايته إلى أمم وشعوب بعدد محدّد ومستغرب.

﴿قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض﴾ (٢٥، سورة الفرقان، ٦).

﴿يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ماتكسبون﴾ (٦، سورة الأنعام، ٣).

لم يكن عبد القادر يعلم أنه سينهي حياته الأرضية في تلك المدينة، وتحقّق منها كليّاً بممارسته تعليمه بعد المحنّ التي مرت عليه فيما بعد... أما في الوقت الحاضر، فهنا سيتلقى إعداده الثاني. وقدّر والده أنّ عليه أن يعرف مناهج المسيرة المعقدة، والحال أن معلماً كبيراً كان موجوداً عندئذ في دمشق، ولم يتوان محيي الدين عن أن يلحق ابنه الأثير به.

أدرك الشيخ خالد النقشبندي سريعاً أن هذا المغربي الشاب لايحتاج إلى أن يسلك كل طريق التعلّم التقليدي: إذ يمكنه أن ينطلق بسرعة أكبر، وبدا له أن من الممكن، دون خشية الخطأ أن يمنحه **البركة** مقترنة ببعض النصائح، وستأتي المرتكزات فيما بعد في مرحلته الثانية في دمشق، تماماً كما هو مكتوب في اللوح المحفوظ.

علّمه الشيخ كل التسلسلات والشهود: أبو الضهار الغفري، الأوّل والحسن البصري، ورابعة شاعرة المحبين، وذا النون، وابن كرم والمحاسبي، والبسطامي الأكبر، وأيضاً لجنيد الحلاج، وكل أولئك الذين يحبون «الواحد» حتى السهروردي، والعطّار، وابن الفارض في الهيام بالله. وأيضاً مولانا المحبوب الرومي الذي كتب عند احتضاره.

لماذا لاتريد أن يلتحق القسم بالكلّ
والشعاع بالنور؟
إنني أحتوي الكون في قلبي
ومن حولي العالم يحتويني.

علمه الشيخ أيضاً تعقد الوحدة وكذلك الطريق والتقانات، ومختلف طرائق القراءة والاستقامة... وعلّمه أن التردّد هو باب العوز، وأخيراً جعله يكتشف أن الرشاد مُنح في زمن التدشين الثوري من أجل الوعي الإسلامي وبه كاختتام للنبوة. ولهذا كان محمد ﷺ فريداً، والتشبّه به ضروري ومفيد، ولكن ليس بشكل كلي. لذلك كانت فرادة التلاوة القرآنية ضرورية ومفيدة، ولكن ليس بشكل كلّي، فالكائن الحق يمكن أن يتوصل إليه فجأة.

أخيراً وصل الشيخ خالد إلى ابن «مرقية»... لكن عبد القادر كان قد تعرف على

أكبر المعلمين بواسطة أبيه... وارتباطه بابن العربي ثابت، وبذلك يكون النقشبندي قد أنهى مهمته.

«يبقى شيء آخر يجب قوله، لكن الروح الطاهرة ستدفعك إلى تلاوته بدوني، أو بالأحرى فإنك أنت بالذات ستهمس به لأذنك نفسها...».

كتب الرومي. فالمعلم ليس من يستمع الطالب إلى ارشاده بل من يحوّل تلميذه بوجوده.

المقامة الثالثة

برزخ مابين النهرين الصغير

عمّا قريب سيتركان مناهل الأولياء ذات الأبهاء النشوى بالأزاهير، وبضفاف بردى المظللة، لأن هدف محيي الدين كان بغداد: إذ يجب أن يتلقى ابنه رُتّبه على قبر الصقر الأسمر، مؤسس الأخوية، وسلفهما الواهب الطريقة. ومحيي الدين الذي أدرك جيّداً أن ابنه يحرق المراحل، فكّر مع ذلك أن الارتباط الأخوي يمكن أن يكون ذا فائدة اجتماعية على الأقل. ولما كان يتوقّع أزمنة مقبلة صعبة، ويعرف أن ابنه يعد بإنجازات كبرى، فقد حرص على أن يحيطه بكل الضمانات. ورأى نفسه يضحك في سرّه، أليس هذا ماكان يلوم عليه نسوة بطانته، هناك في القيطنة.

لزمه إلى بغداد مسيرة ثلاثين يوماً عن طريق تدمر، وهي رحلة سنحت فيها الفرصة لإعطاء درس جيّد في التاريخ لابن محيي الدين القلق دائماً عندما يكتشف شيئاً ما سابقاً للإسلام. وكان عبد القادر يتساءل إن كان تدبير الله ظاهراً في كل هذا التنوّع من الأشكال التي ظهرت له منذ سفره من تونس.

لكن في نهاية الصحراء، وبينما تضوّعت روائح عطور الحدائق والنهر، رأى المسافران طير قنص يحوم في السماء. هذه الإشارة لايمكن أن تخدع، إنّهما يقتربان من مكانهما المأمول. لقد وصلا سالمين معافين.

ـ أنزلنا يا الله مكاناً مباركاً فأنت خير من يوجّه إلى المرفأ الأمين...

كان الصقر الأسمر، واسمه الحقيقي محيي الدين عبد القادر الجيلي الجيلاني قد ولد في جيلان من بلاد فارس سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م لكنه درس الحنبلية في بغداد منذ سن السابعة عشرة، وتوفي في العام ٥٦١ هـ/١١٤٩م بعد حياة قضاها في

العبادة، والإرشاد، والدراسة، والتعليم، وصنع المعجزات، وإنشاء البيع، وتأهيل المرشدين بحيث غدا منذ ذلك العصر اسم القديري شائعاً للإشارة إلى أولئك الذين تلقوا تعليمهم في مؤلّفه التدريسي الأكثر شهرة: **غنيتي لطالبي طريق الحق**...

كانت المدينة تمتد على طول النهر كجسم آدم من الشرق إلى الغرب. وبعد هذه الأيام من الرمال والرياح، فإن خضرة الزراعات والأشجار المثمرة، وتنوّع القباب الخضراء والزرقاء، واستقامة الهندسات كانت مصدر راحة ومكافأة لعين الخيّال المضنى، ومابين النهرين، كما ما بين البحرين، وكما التقى موسى بالباعث الأخضر، الخُضْر، عند تلاقي النهرين، يوجد دائماً معدّون انتقاليون، ومحيي الدين يعلم أنه سينقل هنا الأمانة من يده.

بينما كان الخدم يحلون الأمتعة، ويقودون الحيوانات إلى الاسطبلات، وتأخذ المجموعة الصغيرة مكانها في فندق المغاربة؛ كان ابن محيي الدين قد غدا خارجاً، في مكان آخر.

كان عبد القادر يحلم بعظمة المدينة، وبماضيها منذ الأزمنة السحيقة: ألم يبتكر الإنسان هنا الزراعة، والتحكّم بالبذور والحيوانات، وعرف جميع الأرباب والربّات قبل أن يأتي الرسول ويضع النقطة النهائية لعهد الوحي؟ وبعد خاتمة الأنبياء، ألم يؤسّس في هذه المدينة «بيت الحكمة» من قبل الخليفة المأمون، كما أن في هذه المدينة خاصة عرف الشعر، الأثير إلى قلب الشاب، أجمل انطلاقة له... كان جميع الأسماء المهابة للخلفاء وكبار العلماء والشعراء تتأرجح في رأسه: أبو جعفر المنصور، وهرون الرشيد، وأبو نواس، وأخوان الصفا، والبتّاني والصوفي الفلكيان، والمكتبات الشهيرة حيث جرت القراءات العامة وما تلاها من شروح ومناقشات كان حلمه أن ينشئ مكتبة كبيرة تجمع كل المعارف..

وبما أنهما ينتميان إلى عائلة شهيرة، فقد استقبلا من قبل قاضي المدينة بالذات محمد الزكريا. وقدّم محيي الدين كيساً من ذهب لصندوق الولي. وأكدت هذه الأريحية الذكرى التي تركتها مرورات والده، وتوجهّت جميع أنظار علماء المدينة نحو ضيوف البيت القديري الأصيل. لكن سيد القديرية الجزائرية أحسّ ببعض الغمّ، عندما رأى ابنه يملّ بتهذيب من كلّ هذه الزيارات التي يجريانها في بغداد. وراح عبد القادر من الآن فصاعداً يبادر بالكلام أمام العلماء الأجلاء، أو معلمي المحافل الهامة،

ولايقتصر على مجادلتهم فقط، لكنه يصمد أمامهم بعلم ومعرفة ومهارة تبدي جرأة مدهشة. وانتشر سريعاً في المدينة خبر إعطاء المغربي الشاب للدروس بما فيها تلك التي تتمّ في قبة الصقر الأسمر. كان محيي الدين يفكر عن قناعة وثقة أن عبد القادر الجيلاني هو جدّ العائلة بقدر ما مولاي ادريس هو مؤسّس مدينة فاس. وكم كانت دهشته كبيرة عندما سمع ابنه يجيب أحد السائلين المستفهم عما إذا كانت جرأته مستمدة من نسبه.

ـ لاتسأل عن أصل الرجل، واسأل عن حياته، وأفعاله، وجرأته، ومزاياه وعندها تعرف من هو. وإذا كان الماء المنزوح من نهر نقياً، مستساغاً وعذباً فهذا يعني أنه وارد من نبع صاف.

ارتبك محيي الدين وأرسل ولده ليتحقق في خارج المدينة عِدَدهما، واستعادة وتهيئة الخيول من أجل رحيل توقّع أن يغدو قريباً.

وبيما كان جالساً في وضع شعائري في مقام الولي، برز عبد طويل القامة يحمل قفّة من تمر، ولبن وعسل، في المصلى مرقظاً محيي الدين من تأمّلاته التي ألغت، لحظة، الزمان والمكان. ونادى العبد بصوت قوي قطع سكون المكان:

ـ أين سلطان المغرب؟

ـ عن أي سلطان تريد الكلام أيّها الشخص الفظّ؟ ليس بيننا هنا إلا مسافرون فقراء يخشون الله.

لكن العبد الذلق اللسان ألحّ، وقدّم الثمار إلى المصلّي، وهو يؤكّد بكل ثقة:

ـ السلطان هو من أرسلت يقود الخيول إلى المراعي، وكأن هذه العناية مفروضة على الرجل الذي سيقود كل الغرب. إذ أقول لك حقيقة: إن سيادة الأتراك هناك ستنتهي.

واختفى كما جاء وهو يدمدم بكلمات مفككة وغير مفهومة.

سأل محيي الدين بنظره مقام المؤسّس متحيّراً. وكما فعل والده السي مصطفى ـ طيّب الله ثراه ـ الذي قام بثلاث دورات وزيارات في بغداد، وفي كلّ مرّة كان يظهر له الصقر الأسمر في أحلام محذّرة. كما أنعم عليه بانتظام بظهورات خاصة. لايمكنه أن يشكّ بمنشأ الرسالة. لكنه في الليلة التالية رأى حلماً أكثر إقلاقاً أيضاً: بدا له

مخلوق ملائكي ووضع في يده مفتاحاً ووجّه إليه الأمر بالعودة سريعاً إلى وهران. ولم يعرف ماذا سيفعل بهذا المفتاح، فسأل الملاك عن الغرض منه لكن الرؤيا لم تكن واضحة، وقال له الوسيط ببساطة: إن الله سيرشدك!».

لم يستطع محيي الدين في شدة ذهوله إلا أن يكشف الأمر لولده. إنّه يشعر من الآن فصاعداً أن بعض الأمور تفوته، وهو في الوقت ذاته يخشى سخرية ابنه الحاذقة. وعندما عاد عبد القادر أجلسه بين يديه وقصّ عليه ـ للمرة المئة ـ الحادثة الغريبة التي حدثت للمرحوم والده السي مصطفى.

ـ وما أن سار في طريق العودة، وبينما كان على بُعد ثمانية أيام من دمشق، تخلّف قليلاً عن القافلة لبعض حاجة له، وضلّ طريقه، وفاجأه الليل وهو وحده وسط الصحراء، فذعر، وهو غير قادر على اقتفاء الآثار الملائمة على الطريق المشوّش بعلامات عديدة. وفجأة برز له عبد عملاق، وعرض عليه أن يقوده إلى القرية الأكثر قرباً، ومشيا طيلة الليل، وعند بزوغ الفجر سمع من بعيد صوت المؤذّن في واحة.. واختفى العبد مودّعاً بقهقهة عالية. حزم محيي الدين أمره، فهو يعلم بما يفكر ابنه، وروى له مارآه في الحلم صباح ذات اليوم، مؤكّداً له أن العبد ليس إلا المظهر الذي اتخذه عبد القادر الجيلاني، سلفهم وشفيعهم. لكن كل هذه الاحتراسات بدت دون جدوى: فعبد القادر يظهر بعض الغيظ من أحلام أبيه، وتلك المنسوبة باستمرار إلى جدّه، وتلك التي تراها أمّه، ومرضعته، غدا وكأنه ألعوبة في يد العائلة التي تردّد له أحلامها كما يحلو لها. وهكذا قال لمحيي الدين وهو يبتسم بإشفاق:

ـ ثقتي منحصرة بالله وحده، ألم تعلمني أنت بالذات، أيّها المقدّم، أن الله لايحبّ الكشف عن المستقبل، ولا الكهانة، ولاتفسير الأحلام، ولا هذه الومضات التنجيمية، وهذه الممارسات التي تقوم بها العجائز وترهقني بها مربيتي وخادمات نسائك.

كان محيي الدين يفكر فعلاً بكل هؤلاء النساء اللواتي بقين هناك، وهن يعلمن أن من الواجب اتخاذ بعض الاحتياطات؛ إذ أن الأمور لاتسير وفق ماقدّر لها. لكنه أجاب بعد تنهد:

ـ مرة أخرى أتحقق أكثر فأكثر أنّك على حقّ يا بني. فلنتوجّه بالاتكال على الله ولنهيء عودتنا، ولنصل: «اللهم، إنا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى، ومن العمل ماترضى، اللهم هوّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بُعدَه، اللهم أنت الصاحب في السفر،

والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بكَ من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل».

استمر عبد القادر إلى ساعة متأخرة من الليل في الابتهال من أجل هذه الرحلة كما ابتهل النبي ﷺ نفسه وكما تذكر سير الأولياء، وحياة الرسول والصالحين الذين يكلؤون برعايتهم البشر، وفي لحظة رقاده أتمّ الدعاء بعد تنهدة حارّة:

إلهي، بيّن لنا بين الأنس والجنّ أولئك الذين يضلّوننا لنضعهم تحت أقدامنا أذلّاء مهانين... آمين.

العمود غير المنظور

بداية المنفى الغربي
واول عودة إلى الذات
واول امحاء الأنا

فصل غير مفهرس، فليس مكانه هنا، إلا بالنسبة لمن يقبلون بمرونة المكان والزمان.

فلينتقل ـ الشكاكون، وأنتم أيّها المنافقون ـ مباشرة إلى القسم الثالث في الترتيب الزمني، إذ في العام ١٨٦٣ من العصر المألوف نظم عبد القادر قصيدة طويلة، بالشكل المألوف في **القصيد** إلى معلمه الوحيد الباقي على قيد الحياة محمد بن مسعود الفاسي الشاذلي؛ إنّما على كل حال ليس لترتيب القراءة كلّ هذه الأهمية.

﴿ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير﴾ (٤٢، سورة الشورى، ١١).

وعاد إلى مكة، وهذه المرّة في زمن الحجّ الكبير، فالزيارة الأولى عمرة وهي غير كافية لمنح عبد القادر لقب **الحاج**، ومحيي الدين حريص على هذا اللقب. وهكذا فإنّهما في هذه المرّة أعادا جميع الشعائر إنما داخل الجماعة المنضّمة كوحدة؛ كأمّة. وقد تمّ هذا الحجّ رغم دقة التقليد والانتظام فيه بطريقة مغايرة كلياً. فعبد القادر يعرف الآن مايجب فعله وكيف يجب القيام به كمسلم ورع متقيّد بالأصول، لكنه لم يكن يعلم ماذا سيحصل له، وأن الترحّل سيكون قدره كما هو عدم استقرار الكائن.

وهو سيكتب فيما بعد في مؤلّفه «المواقف»:

بعد إحكام مقام التوبة بشرائطه؛ اطلبوا الوسيلة، وهو الشيخ الكامل بالنسبة، العارف بالطريق، وبالعلل العائقة، والأمراض المانعة، في الوصول إلى العلم بالله ـ تعالى ـ الحاذق ـ الخبير بالمعالجة والأمزجة، والأدوية، ومايوافق منها، وقد انعقد إجماع أهل الله تعالى: أنه لابدّ من الوسيلة، وهو الشيخ في طريق العلم بالله ـ تعالى: ولاتُغني عنه الكتب، وذلك عند ورود الواردات، وبوارق التجليات والواقعات، ليبيّن للمريد المقبول

١ ـ الموقف ١٩٧ كتاب المواقف (الطبعة الثانية ١٩٦٦ ـ ص٤٣٠).

من المردود، والصحيح من السقيم، وأمّا بداية السلوك فيكتفي بالكتب المصنّفة في المعاملة والمجاهدة المطلقة[1].

أشخاص الغار

مكة أفضل المدائن: فلا الشمس ولا النجم جرّبا يوماً منافستها. ويوجد فيها كعبتان: تلك التي تطوف حولها جموع الحجاج، وهي مايعتبر نجاحاً. والأخرى هي كعبة التوّاقين إلى الله العلي القدير: وهي لاتشمل أساساً، ولاحجراً أسود، والطريق وعر فيها لمن يريد أن يقيم كعبته الخاصة.

استقبل محيي الدين بابتسامة هادئة ابنه الغارق في العَرَق بعد الأحلام التي انتابته.

ـ تكلّم يا بني، حدّثني! تابعت رقادك وأنا أعلم أن هذه الرحلة أقلقتك، فإذا كان بإمكاني أن أساعدك، وأن أرافقك، وأقودك، مادمت بحاجة لي في هذا الوقت، أما فيما بعد فسيغنيك الله عني؛ فقل يا ولدي المحبوب، قل لي!

ـ أي اضطراب ينتابني في الواقع يا أبي، رأيت نفسي متأمّلاً في الغار الذي صحبتني إليه البارحة بعد جولاتنا، الغار الذي تلقى فيه الرسول ﷺ أوّل الوحي. لكنني كنت بمثل عمرك، وكنت أحيا هناك في ذلك الغار منذ أشهر، وضجيج الخارج لايصل إليّ إلا مختنقاً، بعيداً، ونسج عنكبوتٍ منشور في الشمس يمنع الولوج لأي كان إلى هذا المكان، بينما بنى اليمام له عشاً في زاوية على المدخل. وغالباً مامرّت ظلال غليظة تزعجني لكن الغبش كان يلي النور، وفي كل ليلة أنزل إلى البئر مجرّداً عارياً انتظر الطير الشعائري ليأتي من يميني وينبئني بحلول ساعة الصعود. كنت أتعرّض لرؤى مريعة عن حروب، ورؤوس مقطوعة، وبرد، وخيانة، وخيول صريعة عند قدمي، وأمي ونسائي ممزقات ذليلات يُجَرجرن كالإماء من قبل جنود بيزّات مجهولة، آه! يا أبي كم من المصائب ستحدث.

قصّ محيي الدين عل ولده قصة النبي (ﷺ) الذي لوحق بالذات من قبل أعدائه والتجأ إلى هذا الغار، لكنه فكّر بأن الوقت مايزال مبكراً ليشرح له بأن الابتعاد والتراجع هما نقيض الصراع، لأنه كان يتوّقع حلول الفوضى قبل ذلك، وبالتالي ضرورة الكفاح فيما بعد.

ـ من المؤكّد يا بني أنّ الأسوأ لم يجر بعد لكن الإختبار ضروري، ولايمكنك تجنّبه،

إذ أن أقداراً كبيرة تنتظرك. فتابع حلمك.

ـ ثم اكتشفت في قاع الغار وجود شخص لم أره في البدء، كان رجلاً كهلاً على مايبدو لكنه ليس عجوزاً، يرتدي ثياب إحرام بدون خياطة، وقد جثا في وضع شعائري، لاتصدر عنه أي نأمة نفس، ولايُسمَع له صوت، غير أنني شعرت بخفقات قلبه، تسارع نبض محيي الدين، فالتوصيل قد تمّ لكن شيئاً من الفضول جعله يبتسم، وهو يريد معرفة المزيد، وتابع عبد القادر رواية حلمه

ـ طلب مني الكهل أن أكنس الغار؛ فدهشت لهذا الأمر، إذ لايوجد أي غصن نخيل في هذا المكان. وأضاف: «الصيد، المباح في مكان آخر، ممنوع في هذا المكان، ومن يقم به ـ بعيداً عنا ـ يرتكب خطيئة». وقال أيضاً: «منذ سنوات عديدة أنتظر لقاءك، يا بدر التمام، فأنت ابني منذ زمن طويل. وهذه اللحظة، في الحقيقة، مكتوبة في الألواح».

قصّ محيي الدين وهو يضحك، من أجل التعليق على الرمز، قصة «القطب» العربي بن أحمد الدرقاوي، لابنه. فمعلم هذا المؤسّس كان يلقّب «بالجمل» وكان يقضي وقته في كنس محفله.

كان يسمى أبو الحسن علي بن عبد الله الحسني. طلبت من الله أن يثبّت نيّتي بأن أغدو تلميذ المعلّم «الجَمَل» وقضيت طيلة الليل أتمثّل المعلم، وأتساءل كيف يكون، وكيف سيكون لقائي به، دون أن أتمكن من النوم، وفي الصباح ذهبت للقائه في مقرّه في حيّ الرميلة الواقع مابين حاضرتي فاس، قرب النهر. قرعت الباب، وهاهو الآن أمامي يكنس حجرته وفق عادته؛ إذ أنّه لم يتوقّف عن كنسها بيده المباركة، كل يوم رغم سنه المتقدّم، ومقامه الروحي السامي، سألني: «ماذا تريد؟». أجبت: «آه يا سيدي، أريد أن تأخذ بيدي إلى الله، وأن تمنحني المسارّة، وتصحبني في الطريق». انتابه الغضب وأنّبني بعنف وهو يهز مكنسته، وأدركت فيما بعد أنه يخفي حقيقته، وطردني قائلاً: «من أخبرك أنني أعين أيّ كان؟ فلماذا أعينك أنت؟» وهبط الليل وأنا أسائل نفسي وأسأل الواحد الأحد بتلاوة القرآن. وبعد أن أتممت صلاة الفجر عدت إلى **الزاوية**، وقرعت الباب ففُتح لي، ورأيت الرجل العجوز كما في المرّة الأولى يكنس زاويته. وقلت له عندئذ: «يا معلم، خذ بيدي في طريق الله!» عندئذ أمسك بيدي وقال لي، «مضت مدة طويلة وأنا أبحث عن تلميذ مخلص. إنّك ابن لعائلة العربي

الدرقاوي، وعليك أن تذهب في كل صباح لتتجول في شوارع فاس ومعك سلة من الخوخ المجفّف، وسترى الأقنعة تتساقط. وعندها سأعطيك صيغ التسبيح وابتهالاتي.

ـ هيّا! افهم هذا الدرس يا عبد القادر: يجب أن تتحول نفسك المستهامة إلى روح، سنعود إلى ذلك بعد أن تنهي رحلتك.

قال عبد القادر وقد بدت على محياه ابتسامة خفيفة وهو يتخيّل وجه معلمه قاضي أرزو المغيظ خلال مجادلات بينهما حول هذا الموضوع:

«أبي، أعتقد أنّ أستاذي في الفلسفة الإغريقية سيّد أحمد بن طاهر قد فسّر لي هذا الموضوع بخصوص أرسطو».

كان محيي الدين مفتتناً دائماً برد فعل ابنه السريع: ولم يظهر له شيئاً بل قال: «والآن مادامت لديك عناصر أخرى، فتابع.

تابع عبد القادر رواية حلمه:

ـ أعتقد أنه قال لي إنه آت من فاس، لكن إقامته هنا في مكة أكثر أهمية (فهي أفضل مدينة يمكن أن أضحي بنفسي من أجلها)، وهنا يمكنني أن ألاقيه بمشيئة الله، ولكنّه أكّد لي أيضاً أن معلمه يعرف والدك في طرابلس؟

فكّر محيي الدين أنها إذاً رحلة غريبةإذ أن السلسلة التي يفكّر بها تنطلق من الدرقاوية لتصل إلى الشاذلية... وكيف لاتكون كذلك بعد كل حساب؟

فالله يمنح نعمته لمن يشاء. لكنه تردّد في أن يشرح لابنه وجود نوعين من الحج: الحج المشترك، وحج المسارّة. ولم يكن يدري أن ابنه قد تجاوزه في الزمان والمكان، وأنه الآن في فَلَك آخر.

وضحّ عبد القادر ببساطة فيما بعد في مؤلّفه النظري، أن يكفي إذا لم تتم شعائر الحج ضمن ترتيبها، (أو إن سبقت العمرة الحج الجماعي)، التعويض بأضحية استعطاف أو كفارة... للتأخير في التعرف على الهدف السامي. وبخروجه من هذه الخلوة الكونية سيكتب عبد القادر النشيد التالي:

إلى أستاذي الصوفي محمد الفاسي:

أمسعود! جاء السعد والخير واليسر ... وولّت جيوش النحس ليس لها ذكر

ليالي صدود وانقطاع وجفوة ... وهجران سادات... فلا ذكر الهجر

ليالي أنادي والفؤاد متيّم ونار الجوى، تشوي. لما قد حوى الصدر
أمولاي! طال الهجر وانقطع الصبر أمولاي! هذا الليل، هل بعده فجر
إلى أن دعتني همّة الشيخ من مدى بعيد. ألا فادنُ. فعندي لك الذخر
وجدّك قد أعطاك من قدم لنا ذخيرتكم فينا ويا حبذا الذخر
فقّبلت من أقدامه وبساطه وقال لك البشرى بذا قُضي الأمر[1]

وقد بيّن فيما بعد ضرورة وجود الوسيلة وهو الشيخ في طريق العلم بالله كما شرح ذلك في الموقف ١٩٧، أما الآن:

فالرحلة قد بلغت غايتها، وغيره الموجود قد توقّف عن الوجود والواقع أن عبد القادر التقى في كانون الثاني - يناير ١٨٦٣ بآخر معلم له على قيد الحياة محمد الفاسي الشاذلي الذي جعله يجوب بسرعة المحطات، النهائية وفي الواقع، وعند غار حراء، في قمة جبل النور، وصل عبد القادر إلى الدرجة العليا من الاشراق، «وانبثقت ينابيع الحكمة على لسانه» كما يذكر ابنه في **التحفة**.

سنجده إذاً هناك في حجّته الأخيرة، ثم في العام ١٨٦٩ عند تدشين قناة السويس، البرزخ ـ المرآة النفسية للبرزخ الآخر... لكن هذه قصة أخرى تقريباً.

إذاً فلينتظر أولئك غير المتعجلين، وليخرج الآخرون من القصّ الرتيب الموجز.

العودة إلى المنفى الغربي

«إن لون الماء هو لون الوعاء الذي يحويه» جُنيد.

خلال إقامة عبد القادر في الشرق، تمّت أحداث كبيرة. فسلطان استنبول قد هُزم في نفارين، ودعا دون أن يلقى نجاحاً كبيراً إلى حرب مقدّسة، وفرنسة والداي وصلا إلى عشية أزمة مستعصية، بينما تقاربت انكلترا مع الأتراك. ويجب عليه العودة. فقد علم من بعض الحجاج الجزائريين أن فتنة آل التيجاني قد نسيت، وأكد له أحد ثقاة وهران أن السي علي أبي طالب ابن عمه، وأخ زوجته قد عاد إلى قريته دون أن يزعجه أحد فالجو أكثر هدوءاً، وحياة المسافرين غير مهدّدة بأي خطر، لذلك بدأا على مراحل

١ ـ القصيدة طويلة ١١٢ بيتاً (في الديوان ص ١٣٥ ـ ١٥٠) لم يذكر المؤلّف إلا الأبيات الخمسة الأولى وأضفنا السادس والسابع من أجل اكتمال المعنى (المترجم)

صغيرة طريق العودة، وكانت مواردهما قد نفدت، وجسداهما قد أنهكهما التعب، لكن روحيهما عامرتان بالإيمان: وانطلقا سيراً على الأقدام متّبعين طريق القوافل المألوف، فقيرين بين الفقراء، وتوقفا فترة في طرابلس عند قبر المصطفى والد محي الدين، ووصلا أخيراً إلى القيطنة في وادي الحمّام في العام ١٨٢٩، بعد سنتي غياب.

خلال هذه المسافة الطويلة، التي استغرقت ثلاثة أشهر من السير البطيء في صحارى، ومواقف ورع وتجدّد، عقد عبد القادر صداقة متينة مع شخص سيغدو مستقبلاً رئيس سعاته وهو الحاج محيي الدين.

كان يفكر كثيراً أثناء سيره، وكانت الأسئلة أحياناً تربكه: فباقترابه من قريته الأصلية لاحظ أنه كان قد غادرها بقليل من الثقة، والأسف، والانتظار، وتساءل عن أوضاع أخوته، وأبناء عمومته، وأخواته، وعن العائلة بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الذين عرفهم خلال هذه الرحلة وهذه الأخوة الكبيرة لأبناء الأمة الذين شهدهم يطوفون حول الكعبة... لم يشعر بالشوق إلا إلى حكمة أمّه وحنوّها، ورقة زوجته ـ ابنة عمه وعذوبتها.

استقبلت عودتهما بإقامة أفراح كبيرة، لكن عبد القادر انزوى سريعاً في عزلة ورعة: اعتزل عن الناس؛ وراح يسعى لإغناء مكتبته بالمخطوطات الثمينة، وكلّ من عرف بعودته من الجوار حتى جبال تلمسان، وصحراء أولاد سيدي الشيخ، جاء يزوره في مقره المتواضع، ولاحظ أن ما من شاغل له إلا الدراسة والتعمق في البحث.

عندها أبرقت لأمير المستقبل أيام سعيدة «معطرة نضرة كما الأزهار يجللها الندى قبل أن تذبلها أشعة الشمس الحارقة، وفق تعبيره الشخصي في مؤلّفه «**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**».

وستغدو هذه الأيام هي الأخيرة السعيدة، والخليّة من الهمّ التي سبقت الصراع الحاسم الذي انصرف إليه بكلّيته قبل أن يؤدّي به إلى طريق المنفى ثم الترحّل والعودة إلى أماكن معلمه الحقيقي الشيخ الأكبر ابن العربي.

القسم الثاني

الجهاد - حرب الجزائر العادلة

فصّلت هذا القسم إلى فصول، لاتتبع في تفاصيلها التأريخ المتسلسل تماماً، إنّما مع خطّ موجّه: لم يدرك عبد القادر مباشرة مايحصل، ومن ثمّ بدأ وفقاً لوعيه للأحداث يتخذ القرارات، و كانت أكثر فأكثر استراتيجية في البدء، ثم أكثر فأكثر قنوطاً حتى انسحابه النهائي، الذي لم يتصورّه أبداً استسلاماً، وإنّما خدمة كبرى يؤدّيها لبلاده الثائرة، وذلك بعد مناقشات طويلة وشاقّة مع علماء المسلمين في عصره.

المخطّط المستتر الذي يتبع بدوره لُحمَة المقامات الخفية من الآن فصاعداً في النقطة الخامسة التي تشكّل بداهة المناقشة الأساسية الحقيقية بالنسبة للمغرب وللعالم العربي مستقبلاً: **جهاد أو هجرة؟**

الفصل الأول

من الغزو الفرنسي إلى السلطنة

المقدّمة

السي حمدان بن عثمان الخوجة سكرتير آخر حكومة في الجزائر، المثقف عربياً وتركيّاً، والعارف للغّتين الفرنسية والانكليزية، ملّاك الأراضي وحمو الباي أحمد سيّد قسنطينة، والمرتبط بروابط عائلية مع رجال الإدارة العليا.

السي حمدان هذا كتب في العام ١٨٣٣ يصف وضع الوصاية في كتاب **المرآة**، الذي أثار الهيجان في فرنسة، وكان منفياً في استنبول، فدافع عن قضية الأمير لدى السلطات العثمانية حتى موته في العام ١٨٤٢:

«كل ما حدث في مدينة الجزائر منذ ثلاث سنوات يفرض عليّ واجباً مقدساً هو الإعلام عن الوضع الحقيقي لتلك البلاد قبل وبعد الغزو لتوجيه انتباه رجال الدولة إلى هذا القسم من العالم (...).»

أريد أيضاً بذكر المصائب التي يعاني منها مواطنيّ أن أرفع من معنويات بعض البائسين (....).

أتساءل لماذا وجب أن تتعرض بلادي لزعزعة جميع أساساتها وتحرم من جميع قواها الحيوية؟ بينما ألاحظ من تفحص أوضاع الدول الأخرى المجاورة لذا أنّ ما من واحدة منها تعرّضت لعواقب مماثلة لتلك التي حلّت بنا.

أرى اليونان تساعد وتُكوّن على أسس متينة بعد أن اقتطعت من السلطنة العثمانية، وأرى الشعب البلجيكي وقد فصل عن هولندة.

أرى حميع الشعوب الحرّة تهتم بالبولونيين وإنهاض أمتهم (....)؛ وعندما ارتد بنظري إلى بلاد الجزائر أرى سكانها التعساء وقد وضعوا تحت نير الاستبداد، والإبادة وجميع ويلات الحرب وهذه الأهوال المرتكبة باسم فرنسة الحرّة.

لست في راحة بال، بل بالعكس فإن مايحلّ ببلادي من ويلات يقلقني باستمرار.

أتحدّى أيّاً كان في إمكان علاج الوضع في الجزائر دون أن يستخدم إحدى الوسيلتين المذكورتين أعلاه: إبادة الجزائريين أو إجلاؤهم كلية إلى مراكش أو تونس أو طرابلس، أو مغادرة الغازي للبلاد، والتخلّي عن كلّ فكرة في الاستيلاء عليها، وإقامة حكومة محلية حرة ومستقلة، ووضع معاهدات ملائمة للشعبين، وستجد فرنسة قطعاً مصالحها أكثر تأميناً مما لو استعمرت الجزائر، كما انها لهذا العمل الشهم ستحظى بإعجاب العالم كلّه (...).

هوّ ذا رأيي، فإذا كانت فرنسة، كما أتوقع، لاتسعى إلا إلى إدخال الحضارة على التراب الجزائري، فلتقضِ على الطغيان، ولتتخلّ عن كل فكرة انتقام وحقد (...).

الجهاد الأكبر

مارس عبد القادر الجهاد الأكبر منذ عودته من الحجّ. ونادى بمجاهدة النفس، والصراع ضدها، والجهد الشخصي، كان يدرس ليتعرّف على ذاته، ويصارع الأهواء، غير أنه كان زوجاً حنوناً ودوداً، وأباً يقظاً. لم يكن متزّمتاً في الدين، يمارس التشقّف والتأويل، ويصوم غالباً، ويدرس دائماً ويستشير، ويشرح، لكن لم يكن له مظهر النسّاك المنقطعين عن الدنيا، بل إنه منفتح للحياة مقبل عليها بحيوية ويقظة.

بقيت الخيل مع ذلك تسليته المنتظمة، يقوم عليها بجولات واسعة وحيداً، ليتمتع بصنع الخالق في كل حنيّة من حنايا الطبيعة، منطلقاً مع كل نشاط جسمه المتوثب، يحدّث كل ما على الأرض من أصغر نبتات الحلفا، حتى الحيوانات التي يلقاها، وخاصة فرسه المفضلة، بينما كان يتلزم بامتطاء حصان أسود كليّة خلال الأعياد والاحتفالات.

«أفاجئها صباحاً والطير مايزال في عشه وقطرات الندى تتسرب نحو الجداول وأنادي فرسي: «أيتها الحرّة، أيتّها الأصيلة، يا ابنتي! استحلفك بسعادتك، لتصغي إليّ، ربيتك من سلالة إلى سلالة، وسقيتك في أواخر الليالي حليب النوق، وشملتك أمي بعنايتها، وتوّجهت إليك جميع العيون. فبيّني لأبناء الخطيئة هؤلاء ماتتمكنين من فعله، انقذي نفسك، وانقذي معلّمك».

ألم ينزل الله في التلاوة، وفي القرآن، من أجل البشر، والملائكة، وحتى الجنّ....؟ فكلّ ما في السموات وعلى الأرض يعود إليه:

أنا مطلق لاتطلبوا الدهر لي قيداً   وما لي من حد فلا تبغوا لي حدّا
فلا كائن إلا أنا به ظاهر   ولاكائن يكون لي أبداً قيداً
فقل عالم، وقل إله، وقل أنا   وقل أنت وهو لست تخشى به ردّا
تعدّدت الأسما وإنّي لواحد   ألا فاعبدوني مطلقاً نزهاً فرداً.

إن الأخلاق تتطلب تمتين الروح وازدراء المسائل العارضة. لذلك كان في معظم الوقت منصرفاً للقراءة وكل من يتحرّك في المنطقة ومابعدها في جبال تلمسان يعرف أن المرابط الشاب في وادي الحمّام يدفع بسخاء لقاء الحصول على المخطوطات التي يجمعها الساعون من سوق إلى آخر ومن البيع والزوايا. وشيئاً فشيئاً غدا منزله المتواضع مقرّاً سامياً للفكر في الغرب، مدعّماً بمكتبة وحيدة في المنطقة. وكما يقول صديقي نجيب بودربلة كانت المعركة في ذلك العصر قائمة على التفقّه في علوم الدين بفضل الزوايا بينما البرابرة الأوروبيون يقتربون بخطا واسعة. وكان صدى الجهاد العادي الأصغر يتردّد في المشرق.

أما ابن محيي الدين فكان غارقاً في أبعد من الزمان والمكان، في كليّة **دار الإسلام** التي لاحدود لها إلا المسلمون أنفسهم، وفي وحدة المؤمنين الذين تجمعهم كلمة **أمّة الإسلام**. لكن الزمن الدنيوي راح يحصره في الحيّز المكانيّ لبلاده ضحيّة العدوان الخارجي ويضطره ليمارس صراعاً آخر للدفاع عن هذه البقاع من دار الإسلام المهدّدة.

ستقول لالا زهرة للنقيب شميتز أحد أسرى معركة سيدي ابراهيم: «ماذا جئتم تفعلون في بلادنا؟ كانت تستقر بهدوء وازدهار فرميتم بها أعاصير الحرب ودمارها! إنّها إرادة الله تتمّ، وهو القادر على كل شيء، وتدابيره عصيّة على فهم البشر، ولعله سيغفر لكم يوماً، ولبلادكم ولعائلاتكم».

وهران ١٨٣٠ ـ ١٨٣٢

بينما كان القادة الفرنسيون يتتابعون على الجزائر دون أن يتسنى لعرب الداخل الوقت ليحفظوا أسماءهم. قلق محيي من سلسلة من الأخبار التي كدّرته؛ فلئن كان جميع الناس في الفترة الأولى، راضين عن رؤية الأتراك يُذلّون، فقد بدا لهم فيما بعد أن الأمر يتخذ منحى آخر: فقد صرّح الجنرال دي بورمون أن فرنسة ستضع يدها على

كامل الولاية، وراح الفرنسيون يضعون الحاميات في المرافئ، ورحل داي الجزائر إلى المنفى، وارتضى داي الطيطري السيطرة الفرنسية قبل أن يتراجع ويعلن الجهاد، وكان باي وهران حسن مستعداً للتوقيع مع الفرنسيين لكن سكان المنطقة وقبائلها التابعة لها عارضته، وحاصرته في المدينة مع جنوده الثمانمئة، فاضطر إلى الإذعان لهم وطلب النصيحة والمساعدة من عدوّه القديم محيي الدين بالذات.

عاد محيي الدين إلى القيطنة وجمع مجلس آل هاشم، ومجلس العائلة، فأشاروا جميعاً رغم العدوانية التي بدرت من الباي تجاه عائلة الحسني، أن الشهامة تقتضي الاستجابة إلى طلبه.

كان عبد القادر الجالس برصانة إلى جانب أبيه يستمع إلى آراء هؤلاء وأولئك من المجتمعين، وهو يزلق حبّات سبحته بين أصابعه. ولم يفكر أحد باستشارة هذا الابن المتواضع، هذا الحاج الورع الذي يعيش كالقديس في مزرعة والده. وطلب الكلام أمام دهشة الجميع، وتضايق محيي الدين لأن متقدمي آل الحشم قد أبدوا رأيهم.

كانت التربية التي تلقاها عبد القادر وآداب السلوك السامي في احترام المراتب تحول بينه وبين أي ردود فعل معارضة أو مجادلة مع أن كل كيانه يدعو إلى المقاومة؛ لكن ورعه، وبالتالي خشيته من الله تدفعه إلى الامتثال للسلطة لأنّها نتيجة عهد مبايعة، لكن هذه إن تخاذلت فيجب بأي ثمن اتقاء الفتنة ورأى عبد القادر أنّ جاهزية سند واسع كالحديث المأثور عن النبي ﷺ تبرّر صمت الفقهاء الرسميين بل وتعرضهم للشبهة، كما تفسّر جُبنَ الأتراك. وغموض موقف سلطان مراكش والباب العالي البعيد والمتعجرف.

نهض عبد القادر واستأذن أباه وأهله وحلفاءهم في مخالفتهم الرأي، وبدأ بالتذكير بالحديث الموثوق.

- عن أبي سعيد الخضري أنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وهو أضعف الإيمان».

وبيّن بعد ذلك الصعوبات القائمة في حالة الفوضى السائدة في المقاطعة، والتي تحول دون ضمان الأمن للباي.

وتابع: إضافة إلى أن منح الملجأ من قبل عائلتنا لهذا الممثل الكريه للاستبداد التركي سيعتبر من قبل العرب كصفح مضمر عن جميع سلوكه السابق، وبالتالي فسنخلق لنا أعداء في كل قبائل المقاطعة. والحال أننا سنكون بحاجة إلى الجميع قريباً، بمن فيهم سلطان مراكش الذي يجب أن نرسل إليه وفداً.

والواقع أن عدة مدن من تلمسان إلى مديا، وكل بلاد الجريد حتى السورا أرسلوا البيعة إلى مولاي عبد الرحمن. فالجهاد لايمكن أن يتمّ في الفوضى، بل هو مهمة أهل الرباط، والأشراف، والمتطوعين الأتقياء المحاربين الذين ينقصوننا هنا، لذلك يجب التعاون مع الجيش النظامي للسلطان.

- يجب بالأحرى، بدلاً من بعثرة المبادرات المختلفة، انتظار تعليمات الإمام. تأثر جمهور المستمعين ودُهش محيي الدين، لكن الوقت لم يتسع لزيادة في التفكير، فالباي الذي أبلغ برفض الحماية استسلم للفرنسيين في ٤ كانون الثاني ١٨٣١، وعندما دخل الجنرال دامرمون إلى مرفأ وهران؛ أقام حَسَن فترة من الوقت في مدينة الجزائر ثم نفي إلى الاسكندرية.

أمام الفوضى المتفاقمة شكل محيي الدين فرقة صغيرة عهد بقيادتها إلى أبنائه، وكان يجوب السهول والجبال لحماية الهاربين الذين تركوا وهران، ولفض الخلافات بين القبائل التي هجرها موظفوها الأتراك، أو خضعت لانتقام رؤساء معارضين. وعمّت الفوضى مابين فرسان السلاح، فبرز رجال الدين ليحلّوا محلّهم: وقام المرابطون في المنطقة باجتماعات عديدة وقرّروا أن يعهدوا لمحيي الدين بإدارة أمورهم.

- كان استبداد الأتراك قد سلّ وسحق قوانا. وكانت هذه ستفنى كليّاً لو تركنا الأمور تتطور على ماكانت عليه؛ فالفوضى والانشقاقات والفتنة قامت في كل مكان بين المسلمين... والبنيان الاجتماعي قد انهار؛ وكل واحد يرفع يده على جاره، وانصرف شعبنا إلى أهوائه الحقيرة، يخالف في كل يوم شرائع الله وشرائع البشر وفي الوقت ذاته كانت الأخطار التي تهددنا من الخارج ليست أقلّ شأناً من تلك التي تخربنا من الداخل.

هل نستدعي الفرنسيين؟ مستحيل. هل نستسلم لهم؟، لايمكن. ففي استدعائهم خيانة لواجباتنا تجاه الله، وبلادنا وإيماننا. غير أنهم يشكّلون أمّة مقاتلة، غنية بالرجال، حافلة بالموارد، وتملؤها روح الغزو.

وماذا لدينا لمقاومتهم؟

قبائل يصارع بعضُها بعضَها الآخر، ورؤساء متآمرون جشعون يتقاتلون لتوسيع مناطق نفوذهم، ومدنيون تمرّدوا على كل نظام، بعضهم راح يغتني بالنهب، وبعضهم الآخر يحاول قانطاً المحافظة على ملكيته.

كان المعسكران غير متعادلين، وفي مثل هذه الحال فإن تصور معركة ظافرة ضد غير المؤمنين يعتبر حماقة، ومحاولة القيام بها من الجنون. كلا لايمكن مجابهة ملك الفرنسيين القوي في وضعه إلا بملك آخر مثله على رأس دولة منتظمة الإدارة تمتلك موارد أساسية وتحت إمرتها جيش نظامي.

وليس علينا أن نذهب بعيداً لنجد ذلك. فسلطان مراكش متعاطف مع هذه القضية. وسيدرك سريعاً أن الخطر الخارجي الجاثم فوق رؤوسنا سيهدّده بدوره. ووجوده بيننا سيشجعنا، ويجرّئ المخلّصين ويخيف الفاسدين. ويستتب النظام؛ فالقتال تحت إمرته يسير بنا إلى نصر مبين لأن أعلامه هي أعلام الله وأعلام نبيّنا(١).

وهكذا فبعد عدة أيام استقبل السلطان عبد الرحمن في قصره في فاس وفداً من نحو عشر شخصيات من مرابطي المنطقة الوهرانية يرافقه نحو خمسين فارساً وقافلة من البغال محمّلة بالهدايا. وانقضت نحو ستة أشهر قبل أن يقرّر السلطان إرسال أحد أبنائه على رأس خمسة آلاف فارس وبطاريتي مدفعية وأقام مركز قيادة عامة له في تلمسان وهي مدينة حصينة نسبياً وحافلة بمعاقل قوية ورفع الدعاء في المساجد للسلطان ولرؤساء آل هاشم ولبني عامر بني مهاجر. وجاء محيي الدين وابنه عبد القادر إلى تلمسان يقدمون واجب الاحترام لابن سلطان المغرب.

لكن هذا الذي وجب عليه أن يجابه الاضطرابات الداخلية، خضع للقوى المتناحرة، وأعطى الأمر أخيراً لقواته أن تنكفئ إلى داخل الأراضي المراكشية؛ وأصمّ

١ ـ ليست لدي الوسائل لأؤكّد أنّ هذا الوضوح في التحليل الاجتماعي والسياسي عن الحالة التي وجدت بها المنطقة يعود لمحيي الدين أو لعبد القادر نفسه الذي صرّح أنه صادر عن أبيه عندما قصّ هذا الأمر على تشرشل، ولم أغير إلا بعض كلمات في نصّ الترجمة التي ذكرها ميشيل هابار Michel Habare وخاصة بسبب صعوبة ترجمة التعبير المستخدم غالباً للفظة «بلادنا» التي ترجمت وطننا بالمعنى الحديث الهيغلي للتعبير. كلمة أخرى استخدمت في ذلك العصر هي الوطن، ونعتقد أنها كانت تعني في القرن التاسع عشر موطن القبيلة. وصعوبة تحليل المعاني لممثلي ذلك العصر هي أحد الأسباب التي دفعتني إلى اختيار شكل هذا المؤلّف. (المؤلف ـ برونو إتيين).

أذنيه دون سماع مطالب الوفود الجزائرية[1] التي تتالت عليه. كما أن العلماء كانوا متحفّظين تجاه فكرة إلحاق المنطقة الوهرانية بالمملكة الشريفية المراكشية بينما حصل التونسيون من جهتهم على وعود من الفرنسيين لإدارة شؤون بلادهم... والتفت آنذاك رؤساء القبائل قانطين نحو محيي الدين الذي كان أبناؤه يقومون بحرب العصابات على أبواب وهران. وارتضى المقدّم أن ينظم المقاومة لكنه خشي ألا تتوفر فيه الشروط الملائمة لملء مسؤوليات أهم شأناً.

١ ـ لم تكن كلمة «جزائري» قد استخدمت في تلك الحقبة وقد أسماها أبناء تلك الفترة «الوسيطة» أو بلاد «وسط المغرب». وكانت جزائر عبد القادر تصل حتى شرق قسطينة دون مدينتها لكنها كانت تشمل قسماً من مراكش في الغرب.

الفصل الثاني
الجهاد إعلان الحرب المقدسة

﴿والعاديات ضَبْحاً * فالمُوريات قَدْحاً * فالمُغيرات صُبحاً * فأثرن به نقعاً * فَوَسَطْن به جَمْعاً﴾

(١٠٠، سورة العاديات، ١ - ٥).

كان عبد القادر كالنبي ﷺ نفسه يفضل الفرسان على المشاة.

الصادقون الصابرون لدى الوغى	الحاملون لكلّ مالم يُحمَل
كم نافسوا، كم سارعوا، كم سابقوا	من سابق لفضائل وتفضل
كم حاربوا، كم ضاربوا، كم غالبوا	أقوى العداة بكثرة وتموّل
كم جاهدوا، كم طاردوا، وتجلّدوا	للنائبــات بصارم وبمقول
كم أدلجوا، كم أزعجو، كم أسرجوا	بتســارع للموت لا بتمهّل
كم شرّدوا، كم بددوا، وتعوّدوا	تشتيت كل كتيبة بالصيقل
يوم الوغى، يوم المسرّة عندهم	عند الصياح له مشوا بتهلل
لايحزنون لهالك بل عندهم	موت الشهادة غبطة المتحوّل.
ياربّ انّك في الجهاد أقمتهم	فبكل خير عنهم فتفضل
يا ربّ! يا ربّ البرايا زدهم	صبراً ونصراً دائماً بتكمّل
يا رب واشملهم بعفو دائم	كن راضياً عنهم رضا المتفضل
متوسّلاً مولاي في ذا كلّه	متشفعاً بشفيع كل مكمّل
وجّهت وجهي في الأمور جميعها	لمحمد غيث الندا المسترسل
صلى عليه الله، ماسحّ الحيا	والآل، ما سيف سطا، في الجحفل[1]

١ - لم نحظ بين المراجع المتوفرة لدينا على القصيدة المثبتة في الكتاب. فاخترنا هذه الأبيات من قصيدة مماثلة في الموضوع من الديوان وهي بعنوان «الباذلون نفوسهم» (المترجم).

نيسان ١٨٣٢ سنة الجراد

اجتمع رؤساء القبائل في مَسكَرَه، وأعلنوا الجهاد، وأنّب سيدي الأعرج محيي الدين بالقول:

ـ يجب أن يكون ابنك عبد القادر سلطاناً، فإن أنت ارتضيت هذا اللقب سيموت، وإن هو ارتضاه ستموت أنت.

يؤكّد مرابط سهل إغريس أن السي عبد القادر الجيلاني شفيع القدريّة قد ظهر له في الحلم وكشف له في وسط الصحراء عن عرش كبير من الذهب...

فالتكهنّات مستمرة إذاً[1].

ورأى محيي الدين مجدداً العبد الأسود الذي صادفه في بغداد العام ١٨٢٨

ـ أين سلطان الغرب؟ نعم إن السلطان بينكم احفظ وتذكر كلماتي: سيادة الترك إلى زوال، والسلطان هو من أرسلته ليقود الخيل إلى المراعي، وكأنّ هذه العناية تقع على عاتق الرجل الذي سيقود الغرب؟ إن سيادة الترك زائلة.

انصرف محيي الدين إلى التفكير، فابنه يجاهد في مكانٍ ما ضد الفرنسيين، وقد جُرحت بعض الخيول من تحته، ولكن قبل أن يتخذ قراراً يجب أن ينتهي من قضية: تنفيذ حكم الإعدام بأحمد بن طاهر قاضي أرزو الذي انضمّ إلى الكفار، قد باعهم مواشي وعلفاً وحتى خيولاً، فالمحضّر ولْد بن كالل قد أقلقه بشكاويه وطعناته.

﴿إن الله غفورٌ حليم﴾ (٢ سورة البقرة، ٢٣٥).

لماذا هذه القسوة يا أبي؟

جاء يعدو لاهثاً على حصانه، ولهجة صوته تتناقض مع مظهر الاحترام الذي يبديه لأبيه، وشحوبه يجعل وقع سؤاله أكثر تأثيراً.

ـ إنّه معلمي، وقد علّمني الفقه.

وبيّن لي كثيراً من اعوجاجات الطريق المستقيمة، فلماذا؟ لماذا هو؟ لماذا هذا الدم؟ إنني كنت مزمعاً على التفاوض مع أهل أرزو على مئة بندقية وثلاثة آلاف طلقة، فلماذا استُغلّ غيابي؟ لماذا يا أبي الموقر؟

---

١ ـ كانت قصص الأولياء وأهمية الأحلام ذات أهمية في ثقافة ذلك العصر، لذلك فضلت الاعتماد عليها في هذا السرد (المؤلّف).

أجاب محيي الدين برصانة وهو ينحني أمام ولده: يا سلطاني! ويا أميري! إنّك من الآن فصاعداً مرشدنا في الحرب كما كنت في الفكر، ولايمكنني أن أسمح للخيانة أن تتسرب إلى خيمتك. لقد وجّهتك في رحلة الشرق، لكنني الآن خادمك، ولو أن أخاك البكر قد تخاذل لوضعت بنفسي سكيني على عنقه. هذا الدرس قاس، يا بنيّ، يا معلمنا. ستأتي دروس أخرى أكثر قسوة. ما من وحشية في هذا، إنّما محكّ تجارب. سيأتي الشيوخ لتحيتك، والحكم على معاييرك. ليست القبائل إلا أصابع يدك وإحكام قبضتك أو قطع أصابعك يعود إليك أنت القادر على الربط والبسط، لكن هذه القدرة الدينية يجب أن تتحول إلى قدرة سياسية.

كان وجه المقدّم الشيخ يشعّ بحنان كبير وهو يسند رأسه على كتف ابنه في حركة محبة واتحاد كلي.

تذكّر دروس مؤرّخنا الكبير ابن خلدون: أنت لست رئيس قبيلة، وآلة الحرب البدوية هي التوفيق بين العشائر وشدّ الأواصر بينها بشعور عضويّ موحّد يسمى **العصبية**: لكن التحالفات تبقى هشّة وحرّة، فلا تنس الدرس يا بنيّ. وستكون مهمتك صعبة في ضبط رؤساء القبائل.

كان يعرف أن الأشهر التالية ستكون قاسية.

ـ تذكّر عند استقبال خديوي مصر لنا، هل رأيت كم كان متنبّهاً لقدرك، لأن ماسيدور الآن في المغرب هو دليل على تجدّد الإسلام في مواجهة القوى المسيحية أو بالعكس، كما أخشى وأحلم كل ليلة وأنا أشاهدك تنام، مرحلة جديدة من النفي، والموت والفوضى...

رغم استغراقهما في الحديث، لاحظ الرجلان ضجّات كبرى في الخارج. وانحنى محيي الدين أمام ابنه وخرج من خيمته مستنداً إلى كتفه:

صاح وهو يرفع ذراعيه إلى السماء كما فعل موسى وهو يشقّ المياه:

ـ اللهم، احم السلطان!

كانت الأعلام ترفرق في الهواء الوافد من الصحراء، والموسيقى المدويّة تتموّج عبر السهل، ومئات من الأشخاص يتوافدون صفوفاً وزمراً تحيط بهم الخيول التي تتلاعب ضمن غبار عاصف يختلط بأصوات التهليل والزغردات، والأولاد يركضون في كل الاتجاهات، وجدايا الماعز المذعورة تجري تائهة بين الجموع، والسهل يرتدّ إلى مالانهاية

كهواء حار في سراب، والشيوخ يضعون أيديهم على عيونهم، وكل الناس يترجّحون ويهتفون: ـ الله أكبر! اللهم انصر السلطان.

كانت الطبول تردّد نغم الزمور، فالجهاد يدبّ الحماس والنشوة، والفرنسيون سيرمون في البحر سريعاً.

وعى عبد القادر سريعاً رسالته وأحسّ بمسؤوليتها، فتقدّم نحو الجمهور الذي بدأ يصمت تدريجياً وخاطبه قائلاً:

ـ أنا الحاج عبد القادر بن الشريف محيي الدين الحسني، من المهمّ أن تعرفوا اسمي! فليذع في جميع الدوار، وفي الساحات والأسواق، وفي زوايا الدراسة وليناد به أنصاري. أنا لا أسعى لأي هيمنة، ولا أريد أي نفوذ قد تفكرون به، إنّما علينا أن ندخل مدينة الجزائر ونطرد الكافر من أرضنا.

اختلطت الجلبة الصاعدة من بين الغبار برائحة البارود، وغطت الزغردات على عزف المزامير وقرع الطبول، وحمحمت الخيول وهي تهزّ رؤوسها، وصلّت السيوف تهتز في أغمادها وارتفعت البنادق فوق الأحزمة الجلدية المزخرفة، وكلٌّ يراوح في مكانه بين الأغبرة وقطرات العرق، وغدا سهل إغريس كائناً حيّاً يتموّج على صوت القائد الشاب:

ـ سنعبر البحر على المراكب، وسنغزو بلاد الفكرة ونملؤها بالمساجد، وسنغني أحلام الأندلس المفقودة، سنعود إلى قرطبة ومرقية، وستنحسر هجمة الصليب. تكلّم الشاب، وهتف لساعات. كان وجهه شاحباً، ويده تمسك بسبحة ذات حبّات سوداء وهو يشير إلى السماء بسبابته، وإبهامه يتحرك فوق السلاميات يعدّد أسماء الله الواحد الأحد التسعة والتسعين.

وهبط الليل فأقام صلاة العشاء، وعاد كلّ إلى خيمته بعد أن قبل يد السلطان وهو يعلن استعداده لمعركة الغد الكبرى. ورافق محيي الدين ابنه وهو يقول له باحترام:

إنني أقرأ على الوجوه منذ الآن الانزعاج من تزايد قوتك، أيّها السلطان، يا ابني المحبوب، لن تفوتك المحن، فاحذر رؤساء القبائل، يجب عليك أن تكسر عنجهيتهم، وهم يفكّرون منذ الآن كما فكّر أسلافهم في الجاهلية:

«أقبل اليد التي لا أستطيع قطعها وأدعو عليها بالكسر».

مايزال سهري عليك واجباً، وقرا محمد أيضاً، إذ لايمكنك الاعتماد حتى على

أعمامك وأخوتك الذين للأسف لايتمتعون بمثل قوّتك...!

انسحب محيي الدين تاركاً عبد القادر منصرفاً إلى تأملاته وهو يداعب خطم حصانه الأسود وهو يقول: اذهب أنت أيضاً ياقرا محمد، اذهب، فعليّ الانصراف إلى العمل وجلس في وضع شعائري، وعاد يسائل نفسه: اللهم كيف سأجابه هذه المهمة التي كلّفتني بها، ولِمَ وقع الاختيار عليَ؟

وكان الليل قد تقدّم عندما انتهى من القراءة والكتابة.

«أنت يا من غدوت عبد أفكارك توقّف

أراك غير واع على حافة جُرفٍ منهار

تسير على هدي عقلك وحده.

تتوجّه بنوره فقط.

إنّه سيضلّك، فكُنْ واثقاً من هلاكك».

وأدرك أن الوقت في هذه الفترة، ليس للبحث وإنّما للفعل، وقد كتب فيما بعد:

«لايمكن أن نضمن المعركة الروحية إن جَرَت في غياب معلم، إلا في أحوال استثنائية جداً، إذ لاتوجد حرب مقدسة واحدة تقاد بطريقة واحدة: فأوضاع الأشخاص تتغير، وطبائعهم كثيرة الاختلاف، بعضها عن بعضها الآخر، وهذا الشيء الذي يبدو مفيداً لأحدهم يمكن أن يكون ضارّاً للآخر».

مايزال محيي الدين في الوقت الحاضر يسهر عليه، لكن لا الأب الموجّه، ولا الابن الطالب كانا يعلمان أن ساعة الاستدعاء قد أزفت: ففي نيسان ـ ابريل ١٨٣٣، وجد عبد القادر نفسه وحيداً منشغلاً كلياً بالمعركة دون أن يتمكن من تقديم فروض الإجلال لمن هيّأ له الطريق المتوجّه بالروح إلى خالقه بكل احتشام وتواضع بعد أن أنهى مهمته، بينما ابنه يقاتل في مكان بعيد.

٣ و ٤ أيار ـ مايو ١٨٣٢

بعد معركتي خنق النطاح (كارغنتا) وبرج رأس العين اللتين جرتا تحت إدارة أبيه حول وهران، كتب عبد القادر قصيدة ملحمية طويلة (لايمكن للترجمة أن تظهر للأسف جمال النصّ العربي. لذلك قمت بالنقل كلمة كلمة). هذا النصّ يرسم في ملامحه الكبرى ساهو جليّ، ما من نرجسيّة، إنّما وضوح للمستقبل الذي يجب

تنظيمه. أما فيما يتعلق بتفصيل المعركتين فإن ب آزان P.AZAN أكثر دقّة، إنّما مقارنة النصّين تعطي فكرة عن الفرق الثقافي القائم بين ممثلي المشهد الرئيسين... وقد سبق لي أن شرحت طريقة اختياري للرؤية القادرية وهكذا فإننا نرى عبر القصيدة بالذات السلطان ينهض معلناً سلطانه: «كموسى على صخرة جبل حريب وهو يتلقى وحي الدعوة، تلقيت السلطنة خطيبة لي...»

ما من نصّ أوضح من هذا إلا في السورة القرآنية المنبئة عن نبوّة سيدنا موسى: ﴿إن الساعة آتية﴾ كما وردت في «سورة طه»: لكنني أريد الآن أن أبقيها طي الكتمان[1].

﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهلِهِ امكثوا اني آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقبس، أو أجد على النار هُدى فلما أتاها، نودي يا موسى، إني أنا ربُّك، فاخلع نعليك، إنّك بالواد المقدّس طُوىً وأنا اخترتُك فاستمع لما يُوحى إني أنا الله، لا إله إلا أنا، فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أُخفيها، لتُجزى كل نفس بما تسعى فلا يَصُدَّنك عنها من لايؤمن بها، واتبع هواه فَتَرْدى﴾ (٢٠ سورة طه، ٩ ـ ١٦).

أما القصيدة فها هي بالكامل.

شدّت عليه شدّة هاشميّة

كان قائد المعركة؛ والد الأمير عبد القادر. وقد دارت رحاها عند وهران في مكان يدعى «خنق النطاح» وكان الأمير عبد القادر على فرس أشقر يحض الناس على القتال ويصبرهم على المكروه ويعدهم الجنة؛ إذ طعنه أحد فرسان العدو برمح مرَّ بخلو أبط الأمير ولم يؤذه. فشدَّ عليه بعضده وهوى بسيفه على الفارس فقده نصفين. وقد طعن فرسه ثمان طعنات ولكن لم يقع حتى أصيب في رأسه برصاصة. حدثت هذه المعركة الهائلة عام ١٨٣٢ م ١٢٤٧ هـ وقد وصفها الأمير بهذه القصيدة:

توسّدْ بمهد الأمنِ قد مرّت النوى[2] ... وزال لغوبُ[3] السير، من مشهد الثوى[4]

وعزّ جياداً، جاد بالنفس كرُّها ... وقد أشرفت ـ ممّا عراها ـ على التوى[5].

---

١ ـ الآيات (٩ ـ ١٦) من السورة ٢٠، سورة طه، كما يرد ذكر هذه النبوة في سور أخرى.

٢ ـ النوى: البعد ٣ ـ اللغوب: أشدُ الاعياء والتعب.

٤ ـ الثوى: الاقامة

٥ ـ التوى: الهلاك. وروى عجز هذا البيت في (تحفة الزائر) ص٩٢: وقد أشرقت مما دعاها إلى القوى.

ألا!! كم جرت، طلقاً بنا، تحت غيهبٍ ... رخاضت بحار الآل، من شدة الجوى[1]؟!
وكم مِن مفازات[2]، يضلُّ بها القطا ... قطعت بها. والذئب، من هولها، عوى
وقد أصبحت؛ مثل القسيّ ضوامراً ... وتلك سهام للعدى، وقْعُها شوى[3]
إلى أن بدت نيران أعلامنا[4] لها ... وفي ضوء نيران الكرام، لها صوى[5]
ولاسيّما أهل السيادة مثلنا ... بنو الشرف المحض المصان عن الهوى
فقالت: أيا ابن الراشديّ[6]، لك الهنا ... كفى؛ فاترك التسيار، وأحمد وحى[7] النوى
ألا!! بابن خلّادٍ[8]، تطاولت للعلى ... وباينْت[9] مأواكَ الكريمَ، وماحوى
فمن أجل ذا؛ قد شُدَّ في ربعنا لها ... عقالٌ[10]. ونادينا: لك العزُّ قد ثوى[11]
وحلّ بكهف، لايرام[12] جنابه[13] ... فمن حلَّ فيه؛ مثل من حلّ في طوى[14]
فإنّا أكاليل الهداية والعلى ... ومن نشر علياهم؛ ذوي المجد قد طوى
فنحن لنا دين، ودنيا؛ تجمّعا ... ولا فخر؛ إلا ما لنا يرفع اللُّوا[15]
مناقب مختارية[16]، قادرية[17] ... تسامت[18]. وعباسية[19]، مجدها احتوى[20]

---

١ ـ الغيهب: الظلمة. والخيل الدهم شديدة السواد. الآل: السراب. الجوى: الحزن الشديد... والظمأ القامح.
٢ ـ المفازة: الصحراء القاحلة.
٣ ـ الشوى: ماكان غير مقتل للإنسان. شوى يشوي شيّاً: أنضج اللحم بتعريضه للنار.
٤ ـ العلم: الراية. سيد القوم. الجبل البارز يهتدي به ويلجأ إليه.
٥ ـ الصوى: ج صُوَّة: حجر ينصب في الطريق دليلاً للسابلة.
٦ ـ ابن الراشدي: يقصد نفسه ٧ ـ الوجي: الحفا من طول المشي والتسيار
٨ ـ خلّاد: مبالغة من خالد. ٩ ـ باين: زايل. هجر. ترك.
١٠ ـ شد العقال: كناية عن الإقامة. ١١ ـ ثوى: أقام.
١٢ ـ يرام: ينال. ١٣ ـ جنابه: مقامه، مكانه.
١٤ ـ طوى: الجبل المقدس الذي حلَّ به موسى فقال له الله تعالى: اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى.
١٥ ـ اللواء: العلم. والجملة كناية عن تمام الخضوع.
١٦ ـ مختارية: منسوبة إلى النبي المختار
١٧ ـ قادرية: منسوبة إلى الطريقة القادرية
١٨ ـ تسامت: تعالت ١٩ ـ عباسية: منسوبة إلى بني العباس أعمام النبي
٢٠ ـ احتوى: جمع

فإن شئت علماً؛ تلقّني خير عالمٍ — وفي الروع؛ أخباري - غدت - توهن[1] القوى
لنا سفن، بحر الحديث بها جرى — وخاضت؛ فطاب الورد، ممن بها ارتوى
وإن رمت فقه الأصبحيّ؛ فعج[2] على — مجالسنا، تشهد لداء العنا دوا
وإن شئت نحواً؛ فانحنا[3]، تلق ما له؛ — غدا يذعن البصريّ[4]، زهداً بما روى
ونحن سقينا البيضَ[5] في كل معركٍ — دماء العدا. والسمر[6]؛ أسعرت الجوى
ألم ترَ في «خنق النطاح» نطاحنا — غداة التقينا؛ كم شجاعٍ لهم لوى؟!!
وكم هامةٍ[7]، ذاك النهار، قددتها — بحدِّ حسامي. والقنا؛ طعنه شوى[8]
وأشقر تحتي، كلّمته[9] رماحهم — ثمانٍ. ولم يشكُ الجوى. بل وما التوى
بيوم؛ قضى نحباً أخي[10] فارتقى إلى — جنانٍ له، فيها نبيّ الرضا أوى
فما ارتدّ مِن وقع السهام عنانُه — إلى أن أتاه الفوز[11]، راغم من عوى
ومن بينهم، حملته، حين قد قضى — وكم من رميةٍ كالنجم، من أفقه هوى[12]
ويومَ قضى تحتي جوادٌ برميةٍ — وبي أحدقوا، لولا أولو البأس والقوى[13]

١ ـ توهن: تضعف وتخيف ٢ ـ عج: التفت واهتمّ وأقبل علينا ٣ ـ انحنا: اقبل علينا واقتدِ بنا

٤ ـ البصري: الحسن البصري ٥ ـ البيض: السيوف. ٦ ـ السمر: الرماح

٧ ـ هامة: رأس. ٨ ـ شوى: متلاحق حاد

٩ ـ كلمته: جرحته. طعن الحصان في موقعة خنق النطاح سنة ١٢٤٧ هـ ثمان طعنات وتجلّد كفارسه ثم أصابته رصاصة في رأسه فوقع.

١٠ ـ الشهيد: ابن أخيه السيد أحمد بن محمد سعيد وكان ذلك في وقعة خنق النطاح الثانية.

١١ ـ اتاه الفوز: كناية عن الشهادة في سبيل الله.

١٢ ـ هوى: سقط. يشبه الرمية، وهي سقاطة، يهوي النجم حين يخرّ في الفضاء بسرعة فائقة.

١٣ ـ في هذا البيت إشارة إلى حادث غريب جداً من نوعه... كان الأمير قد أطلق جماعة أسرى الفرنسيين بعد أن عاملهم معاملة حسنة جداً. ولما عادوا إلى قطعهم والتحقوا بجيشهم سيّرتهم فرنسا راغمين إلى قتال الأمير على اعتبار أنهم أعرف به من سواهم وباستطاعتهم أن يكشفوه في المعركة ويباغتوه بالقتل أو الأسر. ولكنهم حينما رأوا الأمير قد سقط عن فرسه وهو يحاول الدفاع عن جثة ابن أخيه الشهيد ريثما يحمله المجاهدون إلى الخطوط الخلفية، وحينما رأوا أن رفاقهم من الجنود الفرنسيين الآخرين يهاجمونه بشدة، أحدق به هؤلاء الأسرى الطلقاء كالحلقة ودافعوا عنه وحموه ريثما أتي له بفرس فركبه وأتم القتال وربح المعركة!!!.

وأسيافنا؛ قد جرِّدت من جفونها ... وردّت إليها، بعد ورد، وقد روى[1]
ولما بدا قِرني، بيمناه حربةٌ ... وكفّي بها نارٌ، بها الكبش[2] قد شوى
فأيقن أني قابض الروح، فانكفا ... يولّي، فوافاه حسامي، مُذْ هوى
شددتُ عليه شدةً هاشمية ... وقد وردوا ورد المنايا، على الغوى[3]
نزلت «ببرج العين»[4] نزلة ضيغم[5] ... فزادوا بها حزناً، وعمّهم الجوى
ومازلت أرميهم بكل مهنّد ... وكلُّ جواد، همُّه الكَرّ، لا الشوى[6]
وذا دأبنا. فيه حياة لديننا ... وروح جهادٍ[7]، بعد ما غصنه ذوى[8]
جزى الله عنا كلَّ شهم؛ غدت به ... غريس[9] لها فضل، أتانا وما انزوى
فكم أضرموا نار الوغى بالظبا معي ... وصالوا وجالوا. والقلوب لها اشتوا
وإنّا بنو الحرب العوان لنا؛ بها ... سرور، إذا قامت، وشانئنا[10] عوى
لذاك؛ عروس الملك، كانت خطيبتي ... كفجأة موسى، بالنبوّة، في طوى[11]
وقد علمتني خيرَ كفءٍ لوصلها ... وكم رَدَّ عنها خاطب، بالهوى هوى[12]
فواصلتها بكراً، لديَّ تبرّجتْ ... ولي أذعنت. والمعتدي بالنوى[13] ثوى

---

١ ـ وقد روى: الواو حالية. والفاعل الورود، من باب إيجاز الحذف. والمعنى: أن الورود إلى الحرب روى السيوف دماءً. فحينما استلّت كانت عطشى وحينما ردّت كانت ريّانة من دم الأعادي.

٢ ـ الكبش: زعيم القوم وبطلهم. ٣ ـ الغوى: الضلال.

٤ ـ برج رأس العين: مكان إلى الغرب من وهران.

٥ ـ الضيغم: الأسد. ٦ ـ الشوى: التراجع والفر.

٧ ـ يلاحظ في هذا البيت شدة تعصب الشاعر للدين، وهو يرى أن الجهاد، جهاد الكفار، من صلب الدين. وأنه فرض عين على المكلف خصوصاً في هذا الوقت.

٨ ـ ذوى: يبس. أي ذوى غصن الدين بسبب ترك الجهاد.

٩ ـ غريس: اسم قبيلة كانت مؤيدة للأمير الشاعر في جهاده.

١٠ ـ الشانئ: الكاره الحاقد.

١١ ـ كما فوجئ موسى بكلمة من ربّه في الوادي المقدس طوى؛ كذلك فوجئ الأمير بتاج الإمارة. يشبه الإمارة بالعروس ويقول في البيت الثاني: إنها بكر. وكثيراً ما يشبه الشاعر بالبنت البكر وبوصالها ويطيل التشبيه. فعلى ماذا يدل هذا؟!!

١٢ ـ الهوى: الحب والغرام. هوى: سقط وخر. ١٣ ـ النوى: البعاد

وقد سرت فيهم، سيرةً عمريّة وأسقيت ظاميها الهداية، فارتوى
وإني لأرجو أن أكون، أنا الذي يثير الدياجي بالسنا[1]، بعدما لوى[2]
بجاه ختام المرسلين مُحمدٍ أجلّ نبيٍّ، كلَّ مكرمةٍ حوى[3]
عليه صلاة الله، ثم سلامه[4] وآل، وصحب، ماسرى الركب للّوى
وما قال بعد السير؛ والجدّ منشدٌ: «توسّدْ بمهدِ الأمن، قد مرّت النوى»

لكن عبد القادر لم يستطع أن يتصور كم كان ذهن بوجو منغلقاً عن فهم هذه القصيدة[5].

٢١ تشرين الثاني

المبايعة

دخل عبد القادر إلى معسكر «مسكرة» وأملى على كاتبه صك البيعة[6] الذي سيقرأ بعد ذلك في جميع القبائل وساحات المدن والقرى.

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيّدنا محمد، الذي لانبي بعده.

إلى الشيوخ والعلماء، وإليكم يا رجال القبائل وخاصة فرسان السيف، والأعيان، والتجار، وأهل العلم؛ السلام عليكم ورحمة الله.

وفقكم الله وسدّد خطاكم وجمع شملكم وحقق لكم النجاح ويسّر لكم الخير في جميع أفعالكم وبعد.

---

١ ـ السنا: الضياء

٢ ـ لوى: انطفأ. وفاعل لوى مستتر يعود على السنا.

٣ ـ يكثر الشاعر من تأخير الفعل عن فاعله ومفعوله لا لنكتةٍ بلاغية. بل لأن القافية والوزن هي التي تقسره على ذلك في أغلب الأحيان.

٤ ـ جرت العادة في القرون المتوسطة أن يبتدئ الشاعر قصيدته بحمد الله ويختمها بالصلاة على رسول الله. وتلاحظ هذه الظاهرة في شعراء المغرب بشكل واضح جداً.

٥ ـ هذه القصيدة موجودة في الديوان تحت عنوان «شددت عليه شدة هاشمية» كما أنها موجودة في تحفة الزائر، وفي العدد الخاص من «الوعود Rzomesses، وبعض متقطفات أخرى.

٦ ـ ورد أكثر من نص لهذا الصك في «التحفة» ويبدو تكراراً للبيعة، وبالتالي للكتب الصادرة بعدها (المترجم)

فإن أهل مناطق «معسكر» و«غريس» الشرقي والغربي، ومن جاورهم، واتحد بهم وبني شقران؛ وعبّاس، والبرجيّة، واليعقوبيّة، وبني عامر، وبني مهاجر وغيرهم ممن لم ترد أسماؤهم قد أجمعوا على مبايعتي أميراً عليهم، وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم، وأولادهم، وأموالهم، في إعلاء كلمة الله. وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما قبلت هذا المنصب، مع عدم ميلي إليه، مؤمّلا أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، وإزالة النزاع والخصام من بينهم، وتأمين السُبُل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المُطهرة وحماية البلاد من العدو الذي غزا أرضنا وهو يهدف للسيطرة علينا.

وكشرط لقبولي فرضت على أولئك الذين عهدوا إليّ بالسلطة العليّا واجب الامتثال دائماً في جميع أعمالهم إلى تعاليم الشريعة المقدّسة وكتاب الله وأن يقيموا العدل على هدي سيرة رسوله بأمانة وتجرّد على القوي والضعيف والشريف والمشروف، وقد ارتضوا بهذا الشرط.

ادعوكم إذاً لتحضروا إلينا لتقوموا ببيعتكم وتظهروا طاعتكم، وفقكم الله وأرشدكم في الدنيا والآخرة.

إن هدفي الأسمى أن أحقق مافيه الصلاح والخير واتكالي على الله. فمنه وحده انتظر الثواب والفلاح.

حرّر بأمر ناصر الدين، سلطاننا وأمير المؤمنين عبد القادر بن محيي الدين أدام الله عزّه وحقق نصره

آمين

الثالث من رجب ١٢٤٨/السابع والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٣٢.

الجهاد

﴿يا أيّها الذين آمنوا قاتلوا الذين يُلونكم من الكفّار، وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المُتّقين﴾ (٩، سورة التوبة، ١٢٣).

﴿كُتبَ عليكم القتال وهو كره لكُم﴾ (٢، سورة البقرة ٢١٦).

كان عبد القادر يشرح الآيات المتعلقة بالجهاد، وكل واحد يستمع إليه بإعجاب، كانوا هنا جميعاً يجلسون متحلّقين في الخيمة التي يستخدمها مقراً للاجتماع: أعمامه

وأخوته، آل أبي طالب، وبنو التهامي، الذين جلسوا في المقدمة لأنّهم ما زالوا يؤمنون بالتسلسل العائلي، ولم يدركوا بعد ما تحوّل إليه ابن محيي الدين، لذلك أوجد من أجل الإحاطة به مجلساً استشارياً من أحد عشر عضواً. وهذا ما يتوافق مع تقليد النبي ﷺ في الاستشارة.

كان القواد الذين اختارهم وحازوا على ثقته، أكثر احتشاماً ورصانة وهم يجلسون في الصف الثاني بينما كانوا في اعتباره الطليعة! فقد وزع عليهم العمل والأمكنة: البركاني محمد بن عيسى الذي سمّاه على طيطري المقاطعة الرئيسة للمرور على ميليانا حيث سيذهب بنلال محمد ولد سيدي مبارك، الأعور. وعهد بمسكره إلى مصطفى بن التهامي، بينما بقي بوحميدي الأكثر اخلاصاً له في تلمسان. ذلك أن عبد القادر كان يشعر أن المناطق الخلفية ستسبّب له مشاكل كبيرة بسبب رئيس قبائل مخزن الدوير وسمالا في الغرب الرجل القوي مصطفى بن اسماعيل الذي رفض وهو ذو اللحية البيضاء، أن ينحني أمام هذا الفتى الشاب رغم المناداة به سلطاناً، وكان هناك الآخرون الذين سيذهبون فيما بعد إلى الشرق حتى القبائل والصحراء: بن سالم، وبن عبد السلام، وبن عزوز، وعبد الباقي قاضي القضاة الذي يرأس المجلس، وعيّن لنظارة الشؤون الخارجية ميلود بن عرّاش، ولنظارة الأوقاف الحاج الطاهر أبو زيد يساعده الحاج الجيلاني مأموراً على الأعشار والزكاة بأنواعها، إذ وجب أن يموّل البعثات والحملات، خاصة وأن القبائل متحفظة في دفع ضرائب الحرب؛ ويجب إقناعهم بالدفع بالأموال، والأرزاق، والخيول. وبدأ عبد القادر يصوغ بشكل منتظم فكرة تكوين جيش حول دولة لايمكن إلا أن تكون عائلية مادامت التحفّظات العشائرية تشكل خطراً عليه.

لكنه فضل في الفترة الأولى أن يشرح الجهاد لذلك رمى بثقل كل معارفه المتعمقة في النصوص والتعليقات المباحة وأيضاً الهبة الإلهية التي مُنحها وجعلت منه مفسّراً مشهوراً في المنطقة، مسموع الكلمة في المساجد والأخويات. وكان بالطبع يبدأ دائماً بآيات من القرآن الكريم.

﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، ومارميت ولكن الله رمى وليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم﴾ (٨، سورة الأنفال، ١٧).

ـ سلطان! أليس لنا حق في الغنيمة.

وابتسم عبد القادر وهو يفكر: الكلاب، إنّهم يفكّرون بحصتهم قبل أن يحاربوا. لكنه أجاب بصوت هادئ ذلك المتغطرس: الم يؤكّد قرآننا الكريم:

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيّباً، واتقوا الله، إن الله غفور رحيم﴾ (٨، سورة الأنفال ٦٩). وأضاف بلهجة حاسمة قاطعة: أتظن أنني أخالف شريعة الله؟ لكن توقع العكس فسأطبقها بحذافيرها: سيكون لك كما للآخرين حصتك من الغنيمة وفقاً للشرع وسأقرّر أولاً ما سيعود إلى بيت المال لتسير الأمور وفقاً لما يأمرني به الله.

ـ ولكن يا عبد القادر، ألا تظنّ...

وبحزم أشار السلطان بيده إشارة عرف نظّاره فيما بعد كيف يستخدمونها لإقامة النظام وقطع اعتراض المعترضين.

ـ لقد انتخبتموني سلطاناً وقائداً لجيشكم إذاً دعوني أذكركم بالقاعدة: «ما من طاعة لمخلوق في معصية الخالق»؛ من المؤكد انني سأمارس السلطة بعد مشاورتكم ولكن ليس اعتراضاتكم الشخصية. المعركة عادلة. والله عليم وأنتم لاتعلمون!

إن الغنيمة تعود إلى المهاجرين الفقراء، والخمس يعود لله وللنبي، إذا للصندوق العام، ولليتامى والمساكين، هوّذا كيف أفسّر الآيات ذات العلاقة. أما أنا فإنني لن آخذ شيئاً من الصندوق العام، وأنا أحيك ثيابي بنفسي، وبواسطة نسائي وأتباعي. وسأضع ضوابط تتيح لكل واحد أن يعرف أين هو. كانت قد مضت بضع دقائق على بعض السامعين وهم مستمرون في أمكنتهم، بينما راح آخرون يحركون سيقانهم المتعبة... والكل يفكر: ربّما تسرّعنا في اختيار معلم لايتهاون.

كان القادة وحدهم يضحكون وهم يمسّدون لحاهم، فهم يعرفون جيّداً عبد القادر بحيث يدركون ماذا ينتظرهم. ومال محيي الدين نحو ابنه وقال له بهدوء:

ـ إنك تستعجل الأمور يا بنيّ.

ردّ عبد القادر بعنف تقريباً.

ـ كيف يا أبي! الفرنسيون على أبوابنا، ينهبون، ويغزون، ويقتلون، وتحدثونني عن التعقّل: سأقطع رؤوس زعماء القبائل الذين سيعارضونني!

خوجه! اكتب، وليقرأ بلاغي علناً وليقف يهود مستغانم مستعدين أمام مماحهم لاستقبال رؤوس الخونة التي سأعرضها في القبائل. وليعلم كل واحد أنني إن كنت

سأحكم دون مشاركة فبالعدل وبعد أن استمع إلى أهل الشورى كما فعل النبي ﷺ نفسه.

بعد أن قال هذا بصوت عال فكر في نفسه:

«اللهم، إنني مثل لوط، فخلصني من هذا الشعب المفسِد».

ثم استأنف بحماس أكبر بحيث يعلم جميع المنافقين:

«خوجة! اكتب! وليعلن هذا في جميع الأسواق، كل في يومه».

أنتم، يا أيها المحرومون، والمهملون من الجميع، والتعساء! إن كان يشكو أحدكم من قائد لي أو من رئيس مجموعته، أو من قاض، فليأت لمقابلة السلطان عبد القادر نفسه، وسترد عنه ظلامته، فإن لم يفعل فالله لايحاسب السلطان عن هذه الظلامة يوم الدينونة، والله على ما أقول شهيد.

ووضع الأمير أوّل ختم له على هذا البلاغ بينما أسرع النظار لإعداد نسخ منه. نهض الشاب شاحباً وضمّ برنسه الأبيض على جسمه المشدود وعقد طرفي الحايك الذي يغطي رأسه، ومرّ من أمام محيي الدين دون مجاملة قائلاً:

ـ اغفر لي يا أبي، لكن هذه الأوامر تطبّق عليك أيضاً، فاذهب إلى نسائك! أما أنتم يا أخوتي، ويا أعمامي، فاطلب منكم أن ترتدوا برانس أقل بذخاً، وأكثر ملائمة للمعركة التي سنقدم عليها.

وعند اقترابه من أخيه السي مصطفى قطع بحركة غاضبة الشرّابات الذهبية التي تزيّن ثوبه، ورماها أرضاً دون أن يتفوّه بكلمة. ثم توجّه إلى الجميع.

ـ قال النبي ﷺ: الجنة تحت ظلال السيوف، واعلموا، لأنكم أردتم مني هذا، أنني سأكون ظل الله على الأرض.

انحنى محيي الدين أمام ابنه. وقبل يده وتضرع إلى الله أن يكلأه بعنايته، وبدأ الجميع يخرجون متراجعين بدءاً من أكبرهم سناً.

الفصل الثالث
انشاء الدولة والعاصمة

(١٨٣٢ ـ ١٨٣٨)

في الحركية

ـ أيّها الأسود! يا فرسي!

كان عبد القادر يكاد يفقد صوابه وقد تملكه الغيظ:

ـ كيف يمكن إفهامهم أن الفرنسيين هم الأكثر قوّة؟

وبينما كانت الفرس تجري، كان يفكر بابن خلدون الذي وصف مأساة تلك البلاد: إن القبائل متمرّدة؛ ويجب تطويعها. لذلك يجب إنشاء عاصمة للدولة في نقطة استراتيجية، ولكن أين؟ ربما في مكان رمزي مثل تاهرت عاصمة مملكة الرُسْتُميين القديمة. نعم، هكذا، مدينة بين التلّ والسهوب تتيح مراقبة القبائل وتجبر الفرنسيين على التقدّم بعيداً عن مرافئهم. كان عبد القادر منصرفاً إلى التفكير، وهو يخبّ على فرسه بالصيغة الأساسية للمؤرخ المغربي:

الحضارة هي التساكن والتواصل في الأمصار أو في أماكن منعزلة.

ـ حلّات ـ بغرض الأنس والاندماج لإرضاء الحاجات التي تتطلّب بطبيعتها التعاون من أجل المعاش.

ولكن ما يسبّب ضعف القبائل قد يعود عليها بالقوّة، ويجب التفكير بكل شيء وأخذه بالاعتبار فابن خلدون يبين أن واجب الرئيس المسؤول عن شرف القبيلة، المحافظة على **العصبية**، الرابطة السرّية التي تولّد القوّة، وأن هذه تفسد في المدينة. إذاً يجب خلق مدينة فاضلة، لا مدينة مترفة... مدينة مشتركة، مدينة مسلمة بالأحرى. فهذا التوتر المستمر بين المدنية والبداوة لم يبد له كحالة قدريّة حتمية، وإنّما هو نتيجة طبيعية يصعب كبحها، خاصة وأنه رأى في المشرق الأمور مشابهة تقريباً أو هي مختلفة قليلاً، خاصة وأن الازدراء المتبادل بين المدنيين والبدو، ثم بينهما كليهما وبين

الفلاحين ما فتئ يميزه. كما أذهله إهمال أهل السيف لواجباتهم والنزاع بين العائلات المرابطية والقبائل. فما من أحد في هذه الأزمنة المضطربة يرتبط إلا بصلة نسبه، أو فريقه، أو جماعته، وليس بشمولية الإسلام(1).

ـ اللهم! أعني، سيعتبرونني كذّاباً، اللهم لاتضعني بين القوم الظالمين. كان منهكاً ينضح عرقاً، وقد غمره الطين، عندما عاد بهدوء واستدعى نظّاره وصاغ في ليلة واحدة. نظام أول جيش مغربي: **وشاح الكتائب**. وقام خضور بن محمد بن رويكة بنسخ هذا النظام وترتيبه.

كان متأثّراً بأعمال التحديث التي أتمّها محمد علي. ويجب البدء من هنا، لأن المساهمات «الطوعية» للقبائل بالرجال والخيول والسلاح لاتكفي. يجب تكوين جيش مستقل عن القبائل، والاحتمالات المناخية، وأمزجة البعض، وكرامات الآخرين؛ جيش نظامي، ولذلك يجب إيجاد ميزانية مستقلّة، هل سيشكل هذا بدعة توجب اللوم؟ وعد النفس بطرح الموضوع على العلماء.

قسم الجيش إلى ثلاثة أقسام: المشاة، والفرسان، والمدفعيين، ولكل قسم ثيابه الرسمية وشاراته الخاصة. وتجهيزات الثياب والركوب بما فيها الحصان ستجهز وتجدّد بانتظام من قبل خزينة السلطان المكوّنة وفق الصيغة التقليدية **لبيت المال**، وجعل التسلسل والفرق منضبطة تماماً فالعسكر ينقسم إلى مئات، على رأس كل مئة قائد وله معاونان، والخيالة تتألف من كوكبات، كل كوكبة من خمسين فارساً. وعين لكل مدفع اثني عشر جندياً. وبهذا التوزيع ساد الانضباط، وألغيت حركة الفرسان الذين يروحون ويجيئون في القبائل ومن أجل أعمالهم الخاصة على هواهم. وكان النظام شديداً: حضور منتظم، تلاوة القانون العسكري مرتين في الشهر، استعراض الرجال والمعدات، تمارين ومناورات ثلاث مرات في الأسبوع، تسجيل الجميع في السجلات. منع الخمر والمقامرة والتدخين. لكن للجنود وجبتا لحم في الأسبوع. وللجميع رواتب. وتحفظ المؤن في مستودعات جماعية تحت مسؤولية القبائل، كما أن الخيول ترسل إلى المراعي بحراستهم؛ وهذا ما أتاح للأمير موارد في كل مكان بدلاً من غير المتوقع والارتجالي، وعن هذا حدّث شرشل:

---

١ ـ لامجال للإجابة هنا عن السؤال الذي طرحه جاك برك j. BERCQUE منذ زمن: ماهي القبيلة الأفريقية الشمالية؟ وقد قمت بأبحاث مع صديقي بول باسكون Paul Pascon يمكن أن تشكّل عناصر إجابة حول الكلمات المتداولة: قبيلة ـ عرش ـ صف ـ فرقة ـ نبي ـ آية ـ وُلد الخ... (المؤلف).

بالخيل أجدّد سلاح فرساني، وبالجمال والبغال أحصل على وسائل النقل، وبالمؤن أغذي جيشي وأملأ مخازني. كما أن الغزوات في أراضي الأعداء ترفدني بموارد جديدة وألجأ إليها عندما تستخدم القبائل المتجاهلة لسلطاني وقوتي، السلاح لفضّ خلافاتها.

أردت أن أكون حكَماً ولذلك وضعت مبدأً: ما من طلقة بندقية تطلق إلا بإذن مني.

كان عدد الخيول الواجب استبدالها في سلاح فرساني كبيراً، فما من فارس إلا ويحتاج إلى سبعة أو ثمانية أحصنة إضافية، وليس من النادر أن نجد فارساً استنفد في معاركه نحو اثني عشر منها. وقد كان عدد الخيول التي قُتِلَت تحت ابن يحيى رفيقي المقدام الذي ضحّى بنفسه كي لايشهد أيام بؤسي في آخر معركة خضتها مع المراكشيين في كانون أول ـ ديسمبر ١٨٤٧ ثمانية عشر حصاناً.

كنت أعطي بديلاً عن الخيول التي يخسرها القوم في المعارك، قدر ما أستطيع من تلك التي ترد إلى قواتي من القبائل، وقد أعطيت أكثر من ستة آلاف، لكن في الفترات الأخيرة أعطيت بدلاً عن لحصان النافق جملين، أو بغلاً قوياً أو ثلاثين خروفاً، وكان الخيّال يذهب ليبيع هذه الحيوانات ويعود عندما يستبدل حصاناً جديداً بها.

في إحدى السنوات أعطيت خمسمئة حصان لغَرَبا وهران، وعدداً مماثلاً لحاجوت مدينة الجزائر، وهما القبيلتان اللتان قدمتا لي المساعدات وامتدت دائرة نشاطهما إلى بعد مئة كيلو متر عن ديارهما (...) لكن مع هذا لم أستبدل كل ماخسروه إمّا لأن رؤساءهم كانوا من أصحاب الثروة والمروءة وإما لأن الوسائل قد نقصتني:

إضافة إلى ذلك كان عبد القادر أميناً لتقاليد الطب الأندلسي، وقد شكل فرقاً طبيّة ومستوصفات تطبّق في كل مكان القاعدة: «ورد في الكتب المقدسة أنّ كل سلطان لاينشر فن الإستشفاء في سلطنته يعتبر عاصياً للخالق».

يجب أن نضيف ـ وهذا لم يصرح به عبد القادر نفسه ولكن ليون روش قصّه في مشهد سام ـ إن من تقاليد ابن عربي الخالصة أن يكون الدليل من صنّاع المعجزات: فخلال حصار عين مهدي، عاد عمر بن روش (ليون روش) منهكاً بعد تجربة رهيبة وجد نفسه فيها مدفوناً مع الجثث التي كشفتها العاصفة... وقد قص مايلي:

قلت له اشفني (...).

هدّأني وقدّم لي شراباً من منقوع الشيح، وأسند رأسي الذي لم أكن أستطيع تحمله إلى إحدى ركبتيه (...) ثم وضع يديه فوقه بعد أن أزاح عنه الغطاء، ونمت بتأثير لمساته الناعمة (....). كان واقفاً، ويداه مرفوعتان إلى أعلى رأسه وهما تمسكان بطرفي برنسه وبغطاء أبيض حليبي ينثني بطيّات رائعة، وعيناه الزرقاوان الجميلتان المحاطتان بأهداب سوداء موجّهتان إلى الأعلى، وشفتاه المنفرجتان قليلاً تبدوان رغم سكونهما وكأنهما تتمتمان بصلاة. كان تساميه نحو السماء يبدو وكأنه لايلامس الأرض... عدت إلى النوم أيضاً.. ومنذ تلك الليلة زالت عني الحمّى وشفيت من زحاري بعد أن أكلت رمّانة مع قشرتها التي جففت على نار حامية.

كان يضع علامات وإشارات محدّدة تتيح تمييز الجنود وفق رتبهم وأسلحتهم، فشارة رجال المدفعية «دع ثقتك بالله والرسول»، ثم عبارة: وما رميت لكن الله رمى. وقد شرح عبد القادر لدوماس:

«لم تكن تحوي قوات مشاتي إلّا مجنّدين متطوّعين. ولو تسنّى لي الوقت فيما بعد لاستخدمت وسائل مماثلة لوسائل الفرنسيين... فديني لايمنعني إذ أن على السلطان أن يلجأ إلى التجنيد لإنقاذ بلاده التي غزاها المسيحيون ولنصر رايته...

كان مدربو مشاتي من الجنود العثمانيين النظاميين الآتين من تونس أو طرابلس، أو من الهاربين من جيشكم بالذات، من أصل محلي أو غرباء.

صحيح أن ملاحظات الضباط كانت مليئة بالاتهامات المتعلقة بمساعدات ترد إلى الأمير، وبالتأكيد من انكلترة كهذا الملازم سكوت الذي قصّ هذه المغامرة، وإنّما أيضاً من الهاربين من الفرقة حتى أن الكتيبة الخامسة (المؤلّفة من الكارليين[1] الإسبان المهزومين والمتطوّعين) قد أرسلت إلى بون[2] لأنها قدمت وحدها نحو مئة من الرجال لعبد القادر وقد كتب دوماس إلى رابتيل Rapetel في ٢٣ أيار - مايو ١٨٣٨

سيدي الجنرال

حضر اسباني اسمه اسبينوز إلى القنصلية يطلب الحماية وقد كلفت يهودياً من مسكرة ليقوده إليكم. أخبرني أن كثيرين من الاسبان الذين كانوا في خدمة مولاي

١ - الكارليون: حزب دون كارلوس المطالب بعرش إسبانية في القرن التاسع عشر (المترجم).

٢ - بون: هي مدينة عنابة المرفأ الجزائري القريب من الحدود التونسية (المترجم).

عبد الرحمن سيأتون ليطلبوا حمايتكم ليتمكنوا من دخول وهران... ولما كانت المعاملة التي يجب مقابلة هؤلاء الأشخاص بها تحيّرني، أرجو إعلامي إذا كان من واجبي حمايتهم صراحة أو في السر.

كذلك كتب في ٢٧ أيار - مايو ١٨٣٨.

سيدي الجنرال.

أرسل لكم طي هذه الرسالة شهادة فارّ موجود لدى الأمير منذ خمسة عشر شهراً...

وهو يشغل وظيفة جرّاح.. وهو يدّعي أنه ينتمي إلى عائلة محترمة ومعروفة في الألزاس سيصيبها القنوط إن علمت بوضعه.

(يلي وصف لحالة الجيش في تاكَدمت)[1].

يملك الأمير ثلاثة آلاف بندقية فرنسية في مخزن في مديا، مع حرابها. في كل يوم يصل إليه فارّون...

إن منجم الكبريت يستغل من قبل أحد الفارين المسمى رُبر Ruber. ذهب والد ليون روش لرؤية ابنه في مديا واستقبل استقبالاً حسناً من قبل الأمير، ويبدو أن روش على علاقة طيّبة مع عبد القادر وهو يعمل سكرتيراً له، يوجد فار آخر اسمه روله Rollet وقد حضر لمقابلتي.

أدركت فرنسة بمناسبة حصار عين مهدي ودور ليون روش أهمية الحدث.

وأكّد الأمير هذا التحليل لشرشل.

«إن جيشي النظامي مسلّح ببنادق فرنسية أو انكليزية، وقد حصلت عليها من الهاربين من صفوفكم، أو عقب المعارك أو السرقات أو بالشراء من مراكش. وألزمتُ كل عربي يمتلك بندقية فرنسية بالتخلّي عنها مقابل ١٢ دورو[2]، وكان هذا يحصل عليها بوسائل مختلفة، من الأسواق أو من قبائل الصحراء الذين يصلون إلى التلّ ويغرقون البلاد بأسلحة واردة من تونس أو تُغرت، أو المزاب، أو فاس عن طريق فيقويق ووِلْد سيدي الشيخ».

كنت أُصنّع البارود اللازم لي في تلمسان، ومسكرة، وميليانا، ومديا، وتكّدمت،

---

١ - تاكَدَمت: قرية من تاهرت: قرية اتخذها الأمير مركزاً له (المترجم عن تحفة الزائر).

٢ - الدورو Douro: عملة إسبانية قديمة كانت مستخدمة في المغرب وكانت قيمة الدورو في العام ١٨٤٠ نحو خمس فرنكات ذهبية.

واشتريت كميات من المغرب ومنها كنت أتموّن بحجر القدح للبنادق وهو غير موجود في البلاد، أما الكبريت فيأتينا منكم وملح البارود من جميع الأنحاء.

خلال السلم، باعتني مدنكم الساحلية كثيراً من الرصاص، كذلك أمنت كميات من مراكش، كما عملت على استخراجه من جبال وارسنيس، وكان هذا يكلفني غالياً، لذلك لم أكن أعطي إلا نادراً ذخيرة للعرب الذين تعوّدوا أن يبذروا في إطلاق البارود في احتفالاتهم، ولم استثن إلا أولئك الذين يحاصرون مدنكم أو في أيام المعارك عندما أرى الذخيرة تنقص فأوزعها في المكان.

أقمت في تلمسان مصنعاً للمدافع أداره أحد الإسبان الفارين من مراكش، ولم ينتج إلا بعد جهود كبيرة وصعوبات، وتمكّنت من تحسينه فيما بعد. كما أنني أنشأت معملاً للسلاح في مليانا وكان يستثمر الحديد من منجم في الجوار، وقام بالعمل فيه عمال أوروبيون أحضرهم ميلود بن الأعرش من فرنسة عندما زارها بعد معاهدة تفنا وقدّم الهدايا للملك. وكنا نصنع أسلحة كاملة في هذا المعمل.

أخيراً عينت في مركز الحكومة لكل من قوادي خيّاطين، وسرّاجين ومعلّمي سلاح لصنع الثياب اللازمة لجنودي وإصلاح الأسلحة والأعتدة اللازمة.

كنت أمتلك نحو عشرين مدفعاً وكمية كبيرة من البرونز والحديد ومعظمها غير صالحة وقد وردت من الأتراك وكان بإمكاني أن أضع تحت إمرة كل قائد من قوادي ألف جندي من المشاة ومئتين وخمسين فارساً ومدفعين أو ثلاثة مدافع وثلاثين مدفعياً.

لكن إعداد هذا الجيش لم يكن ممكناً إلا بعد جهود طويلة شاقة ضد القبائل، وضد أقاربه أحياناً، ويشير تطوّر أرقام الخيالة والمشاة بين ١٨٣٣ و ١٨٤٠ إلى الصعوبات التي وجب على عبد القادر أن يتغلب عليها ليصل باستمرار إلى أربعة عشر ألف خيال وعشرين ألف جندي وأحياناً إلى ستين ألفاً من حوله[١].

وحدهم الذين يعرفون الخيل يمكنهم أن يكونوا فكرة الآن عما يقتضيه كل هذا من السوقيّات والمعتمديات العسكرية[٢]، حنطة وحبوب مختلفة، أعلاف، إذاً ذهب

١ ـ وفقاً لتقارير عديدة من دميشيل وآزان وليون روش، ووفقاً لنصوص عربية نشرت بمناسبة مرور مئة سنة على وفاة الأمير من قبل محمود بويض ومحفوظ قداش، وماشرحه الأمير لدوماس وشرشل.

٢ ـ السوقيات والمعتمديات: السوقيات: المصلحة المسؤولة عن تموين الجيوش ونقلها وإيوائها، والمعتمدية المصلحة المسؤولة عن إدارة هذه الجيوش.

وأموال للمشتريات وكذلك حدوات للخيل، وبارود ورصاص، وبغال، وحدادون، وبرادعيون، الخ... إن خمسة آلاف حصان تتطلّب نحو ٣٠٠٠٠ حدوة سنوياً و ٦٠٠٠٠ ل. شعير للعلف اليومي. وكانت مخصّصات الخليفة صاعاً (١٦٠ ل) من الشعير يومياً للقائد من أجل معاونيه وزوّاره. وكانت الجزائر عنبراً من الحنطة... إنّها ذريعة خدّاعة من اعتمادات بكري BACRI في حملة ١٨٣٠ فالحبوب تنتج بكميات كبيرة، لكنها غير منتظمة نظراً للشروط المناخية والمردود المنخفض؛ وقد تخلف القبائل وعود التموين مع الأمير في سنوات العسر بسبب القحط أو الجراد. وقد دامت الحرب نحو عشرين سنة وبقي الجزائريون وحدهم بدون معونة خارجية، بعد أن أدرك الانكليز الفرق بين استراتجية الفرنسيين في مراكش والجزائر، وبعد أن تعرضوا للخيانة من قبل إقطاعييهم بالذات وذبحوا خاصة بالآلاف. هذه المقاومة الطويلة أمام أحد أقوى جيوش العالم في ذلك العصر، الجيش المتمرس عقب الحروب النابوليونية، القوي بمئة ألف جندي، لايمكن أن تفسّر بعبقرية الأمير وحدها: ربّما كانت الجزائر أكثر غنى بكثير، وأكبر كثافة سكانية، وكان الدمار والمذابح أسوأ مما ذكرته السِيَر الاستعمارية من أجل توطيد إقامتها شرعاً على أراض زعمت أنها بورّ وخالية من السكان[1].

ولكن من يؤمن جاداً بنظرية **الأرض القفراء** فيما يتعلّق بالجزائر؟ إن المبدأ الاستعماري الرسمي بالذات يفضل التذرّع بالاستمرار مع خط روما وواجب التحضير السالف لحقّ التدخل... لكن هذه قضية أخرى.

قامت عبقرية عبد القادر ـ وهو يقلّد في هذا النبي ﷺ بالذات، على أن يقاوم نزعات ذويه إلى جانب مكافحة الأوضاع القديمة ـ ووضع مبادئ عامة للتخلّص من النظام القبلي والعائلي: فالقادة ورؤساء القبائل، والولاة تدفع لهم أعطياتهم من قبله وهم مسؤولون أمامه، والاختصاصات محدّدة هرمياً، وكل يتلقى وفق مسؤوليته، وعن هذا حدث عبد القادر فيما بعد دوماس وشرشل:

كان هدفي أن أطرد الكفّار من الأرض العائدة لآبائنا، ورفضت الاستعانة بالأجواد/ النبلاء العسكريين، واعتمدت في السلطة على المرابطين والأشراف... استبعدت أيضاً جميع موظفي الحكومة التركية القدماء...

١ ـ حول هاتين النقطيتين تتفق آراء المؤلّفين الفرنسيين والجزائريين (من الأشرف حتى آجرون) وكذلك شهادات ذلك العصر حول الدمار والابتزاز اللذين مارسهما الجيش الفرنسي.

أردت أن يقيم كل واحد بسرعة مقارنة بين من يسعى إلى أباطيل وثروات هذا العالم وبيني، وغايتي الوحيدة هي انتصار المسلمين.

أدركت أنني لن أتمكن من منع الرؤساء المعينين من قبلي من ارتكاب الابتزازات ولن أتمكن من إنزال العقوبات بهم في حال مخالفاتهم إلا إن أمنت لهم رواتب تكفيهم للعيش.

من أجل أن أحمي، قدر استطاعتي، خدّام الله من تجاوزات رؤسائهم، جعلت القادة والولاة يقسمون على كتاب البخاري المقدّس بعدم ارتكاب التعديات أو الإساءة إلى تابعيهم ووضعت نفسي رقيباً على تصرفاتهم.

رغم كل هذه الجهود لم أستطع الحيلولة دون بعض المساوئ، لأنني شكّلت أولاً حكومتي وسط مصاعب لاحصر لها، ولم أستطع أن أؤمن جميع النفقات اللازمة لموظفي، كما أن إصلاحاتي كانت جذرية بحيث لايمكن تحقيقها دفعة واحدة.

نظم الأمير ـ وقد شرح بنفسه هذا لدوماس[1] في طولون ـ شؤون الدولة بطريقة منطقية تماماً، مع اقتطاع الضرائب، وإقامة مراكز قوية، وحصون، ومسابك، ومطاحن وعاصمة ثابتة، وتنظيم الجيش، وتثقيف الشعب، ومن أجل هذا أجرى اقتباساً جذرياً للشريعة الإسلامية وطدّ بموجبه سلطانه.

«عهدتُ بالقطعان الواردة من الزكاة (إحدى الفرائض الخمس على المسلمين) إلى عناية القبائل تحت إشراف قواد يعينون الرعاة ويديرون أمورها، واستخدمت هذه القطعان في تحمل نفقات المسافرين، والفقراء، وطلاب العلم، وكذلك في تأمين الغذاء الجيشي.

لكن عندما بدأت الحرب استغل الجميع ـ باستثناء دائرة بوحمدي وبن ألّال ـ انشغالي، لسرقة الدولة، بينما كنت بدأت باستخدام هذه الوسائل لتثبيت النظام الإداري والموارد العامة...

كانت حبوب العُشر قد خزّنت في أهراء لاتصل إليها أيدي العدو. هذه الأهراء

١ ـ ربطت بين الأمير وبين دوماس DAUMAS صداقة متينة، وكان هذا الأخير قنصلاً في مسكرة، وكانت مراسلاته خلال سنتي ١٨٣٧ ـ ١٨٣٩ وحدهما قد بلغت نحو ٦٥٠ صفحة. وقد قام دوماس بكتابة مؤلّف عن الخيول صحّحه له الأمير عبد القادر بنفسه (انظر الوثيقة رقم ١٣).

هي التي أخرّت سقوطي، وتدميرها من قبل طوابيركم هو الذي حدّد هذا السقوط فالقبائل المستغلّة من قبلكم، بعد أن وَجّهت من قبلي، لم تبد حماساً للحرب المقدسة: فنداء البطن قد صرفها، البطن الذي يضيّع الرجال.

... قمت عندئذ باستثمار الأراضي العائدة للدولة بأعمال السخرة الجماعية.

قدمت هكذا للأعراب المرتابين دوماً البرهان بأنني لا أقتطع شيئاً لحاجاتي الشخصية من الضرائب التي ألزمتهم بدفعها من أجل الصالح العام.

أما أنا فلم أكن بحاجة للجوء إلى الخزينة العامة من أجل نفقاتي، فحتى اللحظة التي تمكن فيها الفرنسيون من وضع اليد على أملاكي، لم أقبض فلساً مما أعطاني إياه الأعراب للنفقات العامة... فثيابي تعدّ من قبل نسائي، وغذائي يرد من أراضي عائلتي التي كانت تدرّ علي مايكفيني ويكفي لمساعدة الفقراء والمسافرين ورفقائي المصابين في الحرب.

بهذا التصرف أردت أن أفرض على العرب تضحيات كبرى مبيّناً لهم أن الزكاة والعُشر، ضرائب كانت تذهب كلّها إلى الخزينة العامة للانفاق على جيشي، وتسيير دفة الحكم وشراء الأسلحة.

وفي العام ١٨٣٩ عندما نقض الفرنسيون معاهدة تفنا ـ طلبت من القبائل مساهمة استثنائية كبيرة للحرب (معونة)، وعندما تمّ التباطؤ بها بعت في ساحة مسكرة العامة حُلي عائلتي لأقدّم ثمنها إلى بيت المال: وعند ذلك آمن الناس بوجوب تسديد أنصبتهم للخزينة العامة...

كان عبد القادر يتمثّل دائماً في خاطره قول ابن خلدون ونصائح أبيه ـ الغائب عنه الآن ـ وكانت أمّه تتمّمها بمجموعة أمثال من الحكم العربية تكررها في كل مناسبة أي دائماً وخاصة هاتين الحكمتين المفضلتين لديها: «ثوب العيارة لايدفئ» و«مودّة الأهل لاتدوم إلا بمدّ يد العون، أما مودّة الصديق الحقّ فأمتن من القرابة» وتهزّ لالا زهرة يدها من الأعلى إلى الأسفل وقد ثقل رأسها بالآلام الماضية أو المتوقع حدوثها. كان عبد القادر أكثر وثوقاً بنصائح قادته منه بآراء اخوته أو أصهاره أو أفعالهم التي لاترضيه دائماً. وكان يعلم أن جنوده تسخر بشكل علني من تصرفات ابن عمه وأخ زوجته الأثير الذي يخشاه لعجزه وميله إلى الترف أكثر مما يخشى ابن غانا أو عدوه القديم مصطفى بن اسماعيل.

لحسن الحظّ كان هناك بعض اليهود: جودا بن دوران، وبوسناخ ابن شريك آل

البكري، ومردوخي عمّار، من أجل معالجة بعض القضايا الهامّة مع الفرنسيين أو الانكليز.. وكذلك الأخوان مانوكسي Manuecci ناتال ونيكولا، ولدا أحد المندوبين القنصليين البريطانيين في بيزرت. وكانوا ينظمون تجارة الأسلحة والذخائر من جبل طارق وعبر مراكش مع الحاج طالب بن جلون الفاسي الذي كان يوجهها إلى وَجْدة بفضل الأصدقاء الإنكليز ويلشير وعائلة دروموند. وكانت تقاليد «يهود البلاط» و«المماليك» تتيح تجنب ابتزاز الأقارب الأقربين ممن لايكنّ لهم عبد القادر ثقة مطلقة... وهكذا فما من صفقة كانت تتمّ بين الأتراك الخولوغلي وبين العرب إلا عن طريق اليهود، ولما كان يهود المغرب يعتبرون من أهل **«الذمة»**، فإنهم كانوا يحملون عدة «جنسيات»، وبالتالي فهم محميون من الناحيتين، ولما كانَ بعضهم من الماسونيين وبشكل عام من الملتزمين بشكل مطلق أي وفق المبادئ الانكليزية، فقد سهّل هذا إلى حدّ كبير تنقلاتهم في حوض البحر المتوسط، واستغلّ الأمير هذه المرونة التي يتمتعون بها عندما نفي إلى السلطنة العثمانية.

لكن فكرته كانت في إنشاء دولة مسلمة حقيقية وفق النموذج الموروث عن الأقدمين[١]:

«واجبي كقائد، وكمسلم أن أنهض بالدين والعلم. ولكي تتقد جذوة الدين، التي يمكن بها وحدها مجابهتكم، في كلّ مكان، في المدن كما بين القبائل، فقد أقمت المدارس التي يعلّم فيها الأولاد إقامة الصلاة وأهم إرشادات القرآن الكريم إلى جانب القراءة والكتابة».

كل ما فعله الأمير كان متوافقاً مع التربية التي وجّهه بها محيي الدين تطبيقاً لحديث النبي ﷺ وسيرته: فقد نقل علي ـ كرم الله وجهه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «عالم يستفيد الناس من علمه أصلح من ألف متعبّد لله».

ويشير الجنرال فالازه VALAZE في تقرير لجنة أفريقية: «كان العرب كلّهم تقريباً يعرفون القراءة والكتابة، وكان في كل قرية مدرستان» وأكّدت ايفون تورن Y.Turin فيما بعد أن الغزو دمّر تطوّر الثقافة القائم عبر شبكة كثيفة من المدارس القرآنية، والمدارس العادية، والزوايا، ولم تجدّد أبداً بعد ذلك[٢].

١ ـ وثيقة ذكرها بوعايد (انظر المراجع) كما وردت أيضاً في أوراق دوماس.

٢ ـ المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: باريس ـ ماسبرو ١٩٨٣.

«كان كل من أراد الاستزادة من العلم يجد الوسائل، سواء في المساجد أو في نظام الأخوة (الطرق والزوايا)، حيث يوجد معلمون حدّدت لهم مكافآت مالية أو عينيّة وفقاً لمعرفتهم واستحقاقهم: شعرت بالأهمية الكبيرة للحفاظ على العلم بحيث عفوت أكثر من مرّة عن طلاب استحقوا الموت. إذ يلزم وقت طويل في بلادنا لتكوين عالِم حقيقي بحيث لم أجرؤ في يوم على أن أهدر ثمرة هذا العمل الشاق. إن ساكن إحدى القرى يمكنه اجتثاث النخلة التي تضايقه، لكن كم يجب عليه الانتظار ليحصل على ثمرة الشجيرة التي قامت مكانها...

من أجل تسهيل مهمة المعلمين، حرصت على أن أحفظ تراث الماضي من التلف، وعملت من أجل ذلك بمزيد من الوعي لندرة الكتب التي تتطلّب عدة أشهر من العمل لإعداد نسخة بسيطة منها».

لم يفارق هذا التعطش للكتاب عبد القادر أبداً، فقد أرسل حتى أقصى الأناضول إلى قونية تلاميذه لينسخوا مؤلّفات ابن العربي... فكان أول ناشر حديث له.. وكان يقول غالباً وفق صيغة مألوفة كثيراً: «أنا مسؤول عن الكتب».

«أصدرت التعليمات للمحافظة على المخطوطات في المدن، كما بين القبائل، وكان كل عربي يُدان بتمزيق كتاب أو تدنيسه يعاقب بشدّة. واعتاد جنودي لمعرفتهم بحرصي على الكتب أن يحملوا لي المخطوطات التي يصادفونها في غزواتهم، وكنت أمنحهم المكافآت تشجيعاً لهم. وقد أودعتُ هذه الكتب فيما بعد في المساجد والمحافل، بين يدي علماء أهل ثقة، وكنت أنوي أن أنشئ في تاكدمت مكتبة واسعة: وكانت معظم الكتب التي خصصتها لبدء تكوينها في «زمالة». عندما استولى عليها ابن الملك (دوق أومال)، وهكذا كان من المؤلم لي إضافة لآلامي الأخرى أن ألاحق كتائبكم على طريق مديا لأستعيد الأوراق المنتزعة من كتب عانيت المشقّات في جمعها»(1).

لكن الفضيلة القرآنية الرئيسة في عيني عبد القادر المسلم هي إقامة العدل، وعلى

١ ـ كان عدد المثقفين في جيش افريقية الفرنسي أقلّ منهم بين جند الأمير، وقد وجدت أحد هذه الكتب المفقودة في مكتبة آربو في إكس، وكان قد أتى بها أحد ملازمي الزواقه. وهي مخطوطة عربية في الفلسفة! وفي العام ١٩٦٢ اعتقد بعض الفرنسيين ومنهم جامعي من إكس أنهم يقومون بعمل حضاري عندما أضرموا النار في مكتبة الجزائر: إن سخريات التاريخ أحياناً لاترحم.

الأمير الشاب المنتخب توطيد العدالة في الدولة على أنقاض ممارسات الأتراك والعادات القبلية المحلية، وذلك جرياً على ماقام به النبي في بداية الإسلام، إنما ليس بدون صعوبة كان عبد القادر لايفتأ يردّد على أتباعه: «اريد أن أصلح» وتوجيهات معلمه القديم في أرزو ورحلاته نبّهته لما يحدث في السلطنة العثمانية، كما أنه كان يعرف جميع مصاعب تطبيق الشريعة الإسلامية، والمدارس، والمنازعات والمجادلات التي تحرك الحياة العربية والإسلامية من سمرقند إلى فاس، وهكذا اجتهد في توجيه أتباعه نحو عدالة صريحة:

«إن السلطان هو ظلّ الله على الأرض، لذلك لايمكن للملكية أن تدوم مع الخيانة، كما لايمكنها الاستمرار مع الظلم».

«كالتعليم، نظمت في كل مكان العدالة، وكان القضاة يتقاضون راتباً مقداره ١٠ دورو في الشهر، كما يحصلون على بعض المكافآت عند البتّ في بعض القضايا: إنّها العدالة[١]. أردت أن يكون ممثلو العدالة في كلّ مكان، حتى في السير مع جيشي. وكان الأتراك يحكمون بالموت حسب نزواتهم وبقسوة ودون محاكمة، أما أنا فلم أرد أن تنفذ أي عقوبة رئيسة إلا بعد محاكمة وفق شريعة الله التي اعتبر نفسي قيّماً عليها.

هكذا في كل مرة تخرج فيها الكتائب يرافقها قاض، ومعاونان، ورئيس للشرطة يشرف على تنفيذ الأحكام، ولم يكن ينظر إليه كباغ فهو ليس إلا منفذاً لأحكام الشرع. تمّ إعدام عدد من الأشخاص بدون شك، إنّما ليس بدون محاكمة، فهم جميعاً قد ارتكبوا جرائم أو خالفوا دينهم، والحال فإن من يساعد العدو بأرزاقه، تؤخذ هذه الأرزاق منه وفقاً لشرعنا، ومن يساعده بذراعه يدفع رأسه ثمناً لذلك».

كان عبد القادر يتذكّر دائماً تصرف أبيه القاسي في إعدام السي أحمد بن طاهر. لذلك كان يجلس للقضاء بنفسه في صدر الخيمة الكبرى، وفي وضع شعائري، السبحة في يده، والقرآن الكريم مفتوح أمامه على مقرأ صغير؛ وهو يصلي وسير المحاكمة بالقياس تدور في رأسه بكل رؤية:

---

١ ـ كان قواد الأمير (الخلفاء) يتقاضى كل منهم ١١٠ دورو إضافة إلى ١٦٠ ل من الشعير، لكنهم لم يتجاوزوا الثمانية بشكل دائم، ونشير إلى أن الدورو في العام ١٨٤٠ كان مساوياً لخمسة فرنكات ذهبية.

ـ ماذا فعل النبي ﷺ نفسه، في حال مماثل؟ وماذا قال الخليفة عمر في هذه الحالة الأخرى؟ وبماذا يحكم الشرع المالكي في هذه الحالة الثالثة؟

وفجأة يعطي إشارة حاسمة من يده، يعرف شوّاشه تفسيرها، وينفذ الحكم في الحال. كانت قراراته في الأحكام الجرمية، لا رجعة فيها: الجلْد، أو السجن، أو الإعدام. أما القضايا المدنية فتحال إلى العلماء، والفقهاء، والقضاة، والعدول وفق القانون المحلي أو المذهب المالكي، مع الأخذ بالاعتبار عادات الفرقاء المتخاصمين. وكانت شرطة الأسواق تضبط حركات القبائل، كما تحافظ على الأمن في الطرقات.

«تم إيقاف التعدّيات الجارية على الخيل ليلاً، وأمكن للمرأة أن تخرج من بيتها دون أن يتعرّض أحد لها بمهانة... واعتبرت رؤساء القبائل مسؤولين عن الجرائم والسرقات التي تتمّ في ديارهم».

هنا أيضاً، ترد اثباتات هذه الإجراءات المدهشة بالنسبة لذلك العصر، من قبل المحتلين أنفسهم، فمراسلات دوماس التي لاتنفد، وشهادات آزان مليئة بالشواهد المذهلة: والأعداء وهم في صميم المعركة يرسلون الشكاوي كلّ إلى الآخر، والأسرى يزارون من قبل رجال الدين ويتمّ تبادلهم، ويبدو أن الجميع يتقيدون دون ضرر ببعض القواعد.

وطّد عبد القادر صداقة مع المطران دوبوش Mgr Dupuch، وكان دوماس يكتب ويكتب إلى قادة آخرين.

سيدي الجنرال

أبادر سريعاً لإنبائك أن المسمى بن عيشوش قد وصل هذا اليوم ـ ٢١ تشرين أوّل ـ أوكتوبر ١٨٣٨ ـ إلى مسكرة.. وأنني قمت بمساع لدى الخليفة لأجل إعادة زوجته إليه، لكن هذه صرّحت أنها لاتريد المجيء للعيش بين المسيحيين.

وفي عشية ذلك اليوم بالذات كان قد كتب إلى القائد نفسه. «استدعاني الخليفة مصطفى بن التهامي: ليقول لي إنّ الحاج الحبيب يطلب العودة، لأن حصانه قد سرق، وخادمه قد جرح، وعندما ذهب إليكم للشكوى أبلغتموه أن لاعلاقة لكم بهذا الأمر»..

وأيضاً:

«كلّفني ابن التهامي إعلامكم أن عرباً من قبيلة آل الحَشْم حضروا إلى وهران فنُهبوا، وعوملوا معاملة سيّئة من قبل أهل الدوير، وعُرف من بين المسيئين إليهم الأشخاص التالية أسماؤهم...

يرجو الخليفة أن تقتصوا من هؤلاء وتعيدوا لأولئك حقهم».

ويتابع عبد القادر:

«كان الحرص على الأخلاق العامة من دوافع إصلاحاتي، فتحسنت أنماط السلوك؛ وتمّ القضاء على البغاء، وسأنتهي ـ بمشيئة الله إلى إعادة الأمة العربية إلى طريق القرآن الكريم الذي ابتعدت عنه... وبالنسبة للرجال، حرّمت عليهم كليّاً استخدام الذهب أو الفضة في تزيين ثيابهم إذ أنني لا أريد رؤية ترف يغيظني، وسمحت به فقط في السلاح وفي عدّة الخيل، ألا يجب إظهار الحبّ لما يساهم في انقاذنا؟! ألم تقل أمي: «إن من يشرب في كأس من فضة يفرقع في بطنه نار جهنم!...»

أما النساء فلم يشملهن هذا الحرمان؛ إذ أن هذا الجنس الضعيف بحاجة للتعويض لقاء ما خُصّ به الرجال وحدهم من متع وأُلهيات: الحرب، والصيد، والأعمال الفكرية، والحكم، والدين، والعلم.

كنت أوّل من أعطى المثل بارتداء ملابس مماثلة لما يرتديه الأكثر تواضعاً من رجالي. ولم يكن تصرفي هذا بالتأكيد ناتجاً عن خوف من أن انكشف أمام رصاصكم وقذائفكم، بل لأنني أردت أن أكون في ذلك قدوة للعرب، ولأبرهن لهم أن الأصلح لدى الله استخدام جميع مواردهم لشراء السلاح، والذخائر، والخيول، من أجل الحرب، بدلاً من الإنفاق على زينات فارغة.

حرّمت الخمر والميسر كليّاً، وكذلك التبغ، دون وجود نصّ يحرم التبغ في ديننا، لكن جنودي فقراء، وقد أردت بذلك تخليصهم من عادة تصل أحياناً إلى درجة من القوة بحيث ترى أشخاصاً يعرضون عائلاتهم للبؤس ويبيعون حتى ثيابهم لإرضاء هذا الهوى في نفوسهم. مايزال يوجد بعض من يدخنون، لكنهم قلائل وفي الخفاء؛ وهذا كثير، أما المرابطون وطلاب العلم، وكل من يأخذ رواتب من الحكومة فقد امتنعوا عن التدخين كلياً، وهذا يبرهن لكم عن مدى التقيد بأوامري.

هوّ ذا ما تمكنت من تنظيمه، ونظراً للوقت القصير الذي تمّت فيه هذه الإصلاحات، فإنها تعتبر هامّة، وقد بيّنت لي المدى الذي يمكن أن أصل إليه مستقبلاً،

لولا أن ابن الملك جاء من قسنطينة واخترق دون إعلامي المناطق التي خصتني بها معاهدة تفنا، وقاتل ابن سالم، وكان سبباً في العودة إلى النزاع».

وهكذا ففي عصر كان يحاول فيه هيغل أن يضع الخطوط الأولى لنظريته عن الدولة، وكانت الأمتان الألمانية والإيطالية تفتشان عن هويتهما عبر سير الأبطال والأوبرات تمكن سلطان صغير في سهل إغريس من أن ينشئ دولة حديثة، وهو لم يتجاوز الثلاثين من العمر.

الإستراتيجية

كان اكتساب أمكنة قوية، وبصورة خاصة إيجاد عاصمة، أكثر تأثيراً وفعالية إلى أن أدرك الفرنسيون أهمية هذا الرهان: فقد قامت استراتيجية عبد القادر بمجملها على إنهاك القوات الفرنسية الثقيلة والبطيئة، وبالتالي منعها من التموّن بالأعلاف والحيوانات.

وهكذا فقد صمّم من أجل إقامة خط من التحصينات والاحتياطات يسير من التلّ في خط متوسط يمرّ بتلمسان، ومسكرّة، ومليانة، ومديا حتى القبائل وأخيراً إلى قسنطينة، وهكذا يخلق الأمير الفراغ أمام الفرنسيين. كان خط الأماكن الحصينة موجوداً على الحد الجنوبي للتلّ لأن عمق الصحراء والريبة فيها تمنعان عبد القادر من الانطلاق بعيداً، وهو في الواقع يحتاج إلى خيول الصحراء: وكان يفضل ألا يستنفر كثيراً القبائل البعيدة، ويحتفظ بذلك بمساحة تسمح له بحماية قسنطينة عن طريق بسكرة وليس عن طريق الأماكن العالية الصعبة الاجتياز في ذلك العصر. كان العرب يرون المغرب أفقياً بينما راح الفرنسيون ينظرون إليه عمودياً وهذا ما أدى إلى نتائج مأساوية بالنسبة للأمير.

بنيت قلعة سيدو: طغراوة جنوب تلمسان، وسعيدة جنوب مسكرة، وطازة جنوب مليانة، وبوغار جنوب مديا. لكن هذه النقاط القوية كانت معزّزة حول تكدمت في الجنوب الشرقي بتحصينات أصغر (بني سنوس، وبلال، الخ) ومعسكرات أهمها معسكر بوخرشفة بين مليانة وجسر الشليف، وبالخروب وهو زاوية تعود لأحمد بن سالم في جنوب شرق الجزائر. كان لكل حصن مستودعاته (من الكبريت، والصودا، والرصاص)، ومسبكه، ومعمل بارود، ومدبغة، ومشفى، وقناة لجرّ المياه.

وقد كتب دوماس إلى رابتل Rapetel ثم إلى غيهنّك Guehennec في تشرين الثاني - توفمبر ١٨٣٩.

شيفال CHEVAL معارض لدولته، انتمى إلى الإسلام، ويعمل تحت إمرته نحو ثلاثين عاملاً.. ويتابع أحد الأوروبيين تجاربه على المدافع...

ويوجد إيطالي يعمل في مسابك البحرية في مدينة الجزائر.

لم يتبين عبد القادر خطة أكثر حركية في سمالا إلا بعد ارتداد مراكش وخسارة تَكْدُمت في العام ١٨٤٣. وكان في هذه الفترة يبني عاصمة الدولة الجديدة، إذ أيقن أن عليه أن يذهب، في حال استيلاء الفرنسيين على مسكرة أو تلمسان (وهذا ماحصل)، حتى تدمير بعض المدن (مديا، وميليانا، الخ..) أي درجات السلّم التي تتمكّنون بفضلها من الصعود شيئاً فشيئاً إلى الأماكن العالية.

تكْدُمت

وضع الحجر الأوّل فيها في أيار - مايو ١٨٣٦ وفق مخططات الأمير الذي كان يشرف على الأعمال بنفسه، وكان المكان يحوي آثاراً رومانية استخدمت مستودعات وعنابر مؤن وحبوب، لكن عبد القادر أراد أن يحيي العاصمة القديمة السياسية والثقافية والدينية للجزائر المركزية، التي ساد فيها أسلافه «من تونس حتى مراكش» كما قال للأسير نابوليون موريس من فرنسة، المغرم بالكتابات اللاتينية والذي قصّ مغامرته في العام ١٨٣٧. وقد صكّ عبد القادر النقود باسمه وأكد فيما بعد لشرشل: «وجب أن تغدو تكّدمت وفقاً لمخططاتي المدينة الكبرى بين التلّ والصحراء، والمركز المفضل للتجارة، حيث يمكن أن يؤمّها التجار مختارين لما تتمتع به من مزايا. لكنها كانت في الوقت ذاته شوكة زرعتها في عين القبائل المستقلّة في الصحراء: إذ لايتمكنون من الإفلات مني أو من مضايقتي فإنا نمسك بزمامهم عن طريق حاجاتهم الماديّة.

إن الصحراء لاتنتج الحبوب، لذلك فهم مضطرون للجوء إليّ من أجل تموينهم، لذلك فقد أسرعوا يعلنون طاعتهم لي. والواقع، كان يمكنني منذ تلك اللحظة أن أدّاهمهم بخيالتي وأسوق قطعان ماشيتهم والإستيلاء على خيامهم إن لزم الأمر... وهذا هو التدبير القاسي الذي اضطررت إلى اللجوء إليه بالنسبة لبعض القبائل البعيدة، مما ألزم الجميع بالامتثال لسلطتي ودفع الضرائب الشرعية المطلوبة منهم.

أربع نقاط في الصحراء أفلتت من سلطتي: المزاب، أوارغلا، وتوغورت، والسوف لكن كل بني ولد سيدي الشيخ اعترفت بسيادتي، وكخطّ مرابطين خففت بدوري الضرائب عنهم. وكانت قرى الصحراء المحصنة لاتدفع إلا القليل نظراً لفقرها، ولكن فيما بعد أوجبت عليها الخضوع لإجراءاتي والإمتثال الكامل لي».

استمرت الأعمال خلال سنتي ١٨٣٨ و ١٨٣٩ بسرعة مذهلة، وكانت جميع الورش والمصانع تشتغل بكامل طاقتها، وبتجدد الحرب بسبب نقض الفرنسيين للمعاهدات لم يتمكن عبد القادر من تحقيق حلمه في إقامة جامعة مغربية، فالمعركة سارت به إلى أماكن أكثر بُعداً.

كانت شفقة عبد القادر على الضعفاء توازي تقواه وصلابته، وحتى برّه غير المحدود بأهله لم يحرفه عن تشدده. يصوم يوماً في الأسبوع وينهض مع الفجر للصلاة بينما يسهر يومياً للدراسة.

في يوم وصلت فيه الأعمال في تَكَدمت إلى نهايتها تقريباً، لكن استكمالها يتطلب وجوده على الدوام جاءه رسول ينبئه بمرض لالا زهرة والدته. وبدون تردّد أعلن عن سفره دون أن يلزم أحداً بمرافقته: وامتطى في الساعة الثالثة بعد الظهر صهوة **الأدهم** الأسود الذي راح يسابق الريح في الثلج والبرد، ولحق به بعد صعوبة فرسان حراسته.

وكعادته كان الأمير يصلي وهو فوق جواده، لأن التضرّع هو رئة العبادة وفق صيغة النبي ﷺ نفسه.

ـ اللهم! يسّر لي الوصول لتلقي بركة أَمَتك! هذه المرأة علمّتني القرآن والوَرَع. اللهم! إنّها تشهد أن لا إله إلا أنت، فامنحها رحمتك وغفرانك.

كانت كوكبة الفرسان تخبُّ في الجوّ البارد عندما صادفها في عطفة طريق ثلاثة مساكين يرتعدون وهم يطلبون الإحسان لمّا رؤوا هذه الفرقة من الفرسان، وحلّ عبد القادر، دون أن ينزل عن جواده، برنسه الصوفي ورماه لهم، واستأنف السير عدواً كي لايضيع أي لحظة.

عند الوصول إلى ثنية الحدّ أوعز الأمير بالتوقف لمدة ساعتين لإراحة الجياد وإقامة الصلاة، والتحق الفرسان بعدها بعبد القادر الذي قفز إلى جواده دون أن يضع رجلاً في الركاب. وفي الساعة الثامنة صباحاً وصل مع أحد عشر خيالاً من الستين الذين

رافقوه، لأمام سمالا التي كانت تستيقظ مع برد الصباح. وكانوا قد قطعوا ١٥٠ كم خلال خمس عشرة ساعة[١].

كتب عبد القادر فيما بعد لدوماس: «إن خيولكم ضخمة وحدواتها ثقيلة» قفز عبد القادر أمام خيمة أمّه فوجدها في حالة صحية أفضل، فتعانقا وشكرا الله وامتطى عبد القادر صهوة حصانه مجدّداً متوجهاً إلى خيمة زوجته، وكانت هذه قد أنبئت بوصول زوجها، فارتدت قفطاناً فاخراً، ولمحها عبد القادر وهو يهمّ بالترجّل، كما لمح عبر رفل مدخل الخيمة المنزاح سجاجيد من سميرن[٢]، وطنافس مكسوّة بالبروكار والحرير، فأدار عنان حصانه وصاح:

- هذه المرأة ليست امرأتي، وهذه الخيمة ليست خيمتي، فزوجتي لاتلبس إلا الأثواب التي حاكتها من أصواف نعاجي، وأنا وأبي لم نجلس يوماً على المخامل، وإنما على حصير مسكرة ووسائد من جلد الغزال.

كان الأدهم يدور حول نفسه تحت غضبة ابن محيي الذي استمر في الصياح بحيث يسمعه الجميع: «كانت كل ثروتي قطعة من أرض يفلحها زوجان من البقر في مطلع الفصل وقد خرّبها الفرنسيون هناك في سهل إغريس.

خلال ذلك الوقت، قامت النساء المذعورات بتغيير فَرْش خيمة لالا خيرة، وتقدّمت هذه إلى زوجها تفتح ذراعيها مرحبة مهّللة بناظريها.

- اغفر لي يا حبيبي، فقد طال انتظاري، وما أردت إلا أن أكون في مظهر جدير بمقامك. تصبب عبد القادر عرقاً رغم برد الهضاب العالية، واقترب من خيرة وضمّها برفق إليه، وذكر لها كالمعتذر أن الحرب هي قدره اليومي، ثم توارى العاشقان بين أغطية الصوف الثخينة بينما كان السائسون يجفّفون عرق الجياد التي ستعود للانطلاق قريباً في العاصفة؛ فالحرب لاتنتظر.

- خيرة، بيعي جميع حليّك وقدّمي ثمنها لصندوق الخزينة العامة، فالحرب تتضوّر جوعاً، والشعب يقرّ برداً، والمحاصيل سيئة، ويجب أن أؤمن الأعلاف لخيولي، فهي

١ - هذه رواية ليون روش لهذه الحادثة، التي يصعب التحقق تاريخياً منها، لكن آزان وهو غالباً أكثر دقّة من روش يحدّد هذه الواقعة بعد العودة من الاستيلاء على عين مهدي ومعسكر بوخرشفة وهو أمر أكثر منطقية.

٢ - سميرن SMYRNE: هي مدينة إزمير التركية حالياً.

ضرورية للحركات التي تتيح لي مقاومة الفرنسيين. هل تدركين أهمية هذا، يا حبيبتي؟ ألا تؤمنين بأنني أفضل العيش بطمأنينة إلى قربك؟ إنني أتألم حبّاً وأنا غارق في أحلامي يا ابنة عمي، وأنت تعلمين أنك كنزي الوحيد.

ودون أن تبدر منه أي بادرة نحو ذويه، انطلق بحصانه نحو قدره، ولحق به أمناؤه بعد أن حيّا كل منهم باسمه وهو يفكر بالحديث:

اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنّك ستموت غداً.

آمين والله خير العالمين.

وانطلق الأدهم يسابق الريح وهمزات الركاب تضرب جنبيه، ورأس عبد القادر غائص في قلنسوة برنسه، وقد شدّ رباطها على عنقه الغائر بين كتفيه من شدة البرد الذي يرعش أوصاله. إنّه يعرف الآن كم هي طويلة وشاقة هذه الدرب التي اختارها... كان ابن محيي الدين يردّد أسماء الله الحسنى وهو يهمز حصانه الأسود، وفي عمق حنايا صدره تتردد: هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن...

﴿ربّنا قِنا هذا العذاب، وأفرغ علينا صبراً، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾

كان يفكر بشاول أمام جُليات.

واليد مبسوطة.

والحسام ممتشق.

وكلمة الله تتردّد بين شفتيه.

الفصل الرابع
المهادنات ١٨٣٤ - ١٨٣٩

ها هي لجنة برلمانية فرنسية تجوب الجزائر بعد أن كثرت الدسائس والخلافات بين أنصار الاستعمار ومعارضيه طلاب الجلاء، وبينما كان الإنكليز يتآمرون في مراكش والباب العالي يأسف على دعم فرنسة لمحمد علي في مصر.

٢٦ شباط - فبراير ١٨٣٤

معاهدة «دي ميشيل»

جنرال جديد في وهران؟ ولكن ماذا يفعلون في تقلّبهم؟ وما اسمه، وكيف يلفظ؟ دسمتشلس؟ آه! هذه الأسماء غير المعقولة! هو ابن من؟ ومن أين؟ هل يأتي الفرنسيون من مكان ما؟

كان عبد القادر يدور في خيمته وحوله كتبته وخلفاؤه. فقد جعل نظام الحصار الذي فرضه على الفرنسيين شروط حياتهم صعبة، وهو يعرف أن كثيرين في فرنسة يعارضون احتلال الجزائر لأنها عملية مكلفة، كما أنه لم يحرم نفسه من مناوشة جماعة اللجنة البرلمانية المتجوّلة في البلاد.

كان عبد القادر يعرف أيضاً أن الغُماري شيخ الأنكاد يسعى مع أولاد سيدي الشيخ والصحراويين لتسمية سلطان آخر معتمداً على قدور بن المخفي والبُرجية وقبائل الشليف.. وهو يعلم أيضاً أن الشيخ مصطفى بن اسماعيل سيخونه في المواقع الخلفية من تلمسان، وكان دي ميشيل قد استعاد أرزيو، كما فشل عبد القادر أمام مستغانم.

لكنه كان قد نجح في فرض نظام من المراقبة على الحاميات الفرنسية التي تعتمد كليّاً في تموينها على قبائل الداخل. وكانت تردُّدات الحكومات الفرنسية المتعاقبة في باريس لاتتيح تموينا ثابتاً عن طريق المرافئ.. وهكذا سعى دي ميشيل للتفاوض مع الأمير، والأمير يعلم ميول الجنرال بواسطة اليهود، فهو يعرف أنه من محبي الشرق، ومن المعجبين بمحمد علي... وبينما كان يتابع الأمير تحركاته حتى أبواب وهران، سعى إلى تحرير قواته في الساحل، ليهتم بقبائل الداخل. واغتنم دي ميشيل ذريعة تافهة

(كوكبة من الحامية هوجمت في نهاية شهر تشرين أوّل - أوكتوبر ١٨٣٣) فكتب إلى عبد القادر.

«لم أتردّد في اتخاذ المبادرة الأولى، وأخاطبكم مباشرة في أمر لايسمح به مركزي، ولكن تحثني عليه بواعث إنسانية، وهو إطلاق سراح الفرنسيين الذين وقعوا في كمين، وهم يحرسون رجلاً عربياً، ولا أفترض أنكم ستضعون شروطاً لإطلاق سراحهم»[1].

أراد عبد القادر أن يحصر الجنرال في مرفأه فكتب إليه مجتذباً في ٦ جمادى الثاني ١٢٤٩ (٣٠ تشرين أول - أوكتوبر ١٨٣٣) **رسالة إلى الجنرال دي ميشيل حاكم وهران من الحاج عبد القادر بن محيي الدين أمير المؤمنين وحاميهم - نصر الله جنده.**

بعد التحية

تلقيت الرسالة التي تعبر فيها عن الأمل بإطلاق سراح الأسرى الأربعة الذين بين يدي. وفهمت مضمونها وإليكم ردّي:

لم أفكر بأن أقترح عليكم دفع فدية عن جنودكم، إنّما بعد أن أكّد لي هؤلاء استعدادكم للتضحية في سبيل فك أسرهم قرَرت أن أقدم لكم اقتراحاً بهذا الشأن. (وطلب ألف بندقية فدية عن كل واحد منهم).

تقول إنك رغم مركزك قررت القيام بهذه المبادرة؛ هذا هو واجبك وفق قواعد الحرب؛ ولكل يومه بين المتخاصمين، يوم لك ويوم عليك، ورحى الحرب تدور وتسبّب ضحايا جديدة من الطرفين، غير أن على كل منا واجباً دينياً يجب القيام به. ومن المعلوم عندكم أنني لم أتعرض لكم ولا لمن كان قبلكم من أجل إطلاق سراح أي من الأسرى الذين وقعوا في أيديكم في ميادين الحرب، وإن كنت أتألم لحظهم التعس كإنسان، فإنني كمسلم أرى في موتهم حياة جديدة لهم، وبالعكس أرى فداءهم موتاً مخجلاً، لذلك لم أطلب العفو عنهم.

تقول إن على أمراء الأرض أن يتميّزوا بشهامتهم وعلو نفوسهم، وتستخلص أن عليّ إطلاق سراح الأسرى الموجودين بين يدي بدون فدية. هذا المبدأ صحيح بصورة

---

١ - يختلف نص هاتين الرسالتين لدى شرشل (ص٨٣)، و في «وهران تحت سيطرة الجنرال دي ميشيل» (المؤلف) كذلك يختلف نصهما في تحفة الزائر، تأليف محمد بن عبد القادر. الطبعة الثانية ١٩٦٤ - دار اليقظة ص ١٧٦ - ١٧٩ (المترجم).

عامة لكن ديني يعارض هذا الإجراء فتبادل الأسرى يتم بين المسلمين فقط. وقد ذكرت لي أن هؤلاء الفرنسيين كانوا يحمون عرباً ضد عرب آخرين. وأنا لا أعتبر هذا سبباً لإطلاقهم فالمحميون وحماتهم هم أعداء لي، وكل من يلجأ إليكم من المقاطعات عديمو الإيمان يجهلون واجباتهم. أما أولئك الذين ارتكبوا ماسميتموه كميناً، فهم ليسوا ممن تحت إمرتي ومن مستوى أدنى من أن أهتم بأمرهم.

أغتنم هذه الفرصة لأعبر عن دهشتي لما لمسته من خفّة في اعتقادكم بإخلاص وأمانة الناس، الذين في ما أعرف عنهم من وَجَل، لايجرؤون على المجيء إليكم إلا في الخفاء، أما أنا فإنّي أتتبع حتى ظلالهم، ومن يقع بين يديّ منهم سيقطع رأسه أو يودع في السجن. إنّكم تضعون ثقتكم بأناس ليسوا جديرين بها.

تأكّدوا أنّ ما طلبته بشأن هؤلاء الأشخاص لايعود لكوني راغباً في الحصول على المال وإنما من أجل معرفة استعداداتكم للعمل من أجلهم.

تفخرون بأنكم أطلقتم سراح أسرى من «الغرابة والزمالة» من غير شروط. هذا صحيح ولكن هؤلاء قوم يعيشون تحت حمايتكم ويموّنون يومياً أسواقكم، ورغم ذلك سلبهم عسكركم كل مايملكون، ولو أنكم خرجتم من دياركم لمهاجمة أشخاص يتوقّعون ذلك منكم كالحشم وبني عامر لحق لكم أن تفخروا وتستحقوا المديح الذي تطالبون به لمفاجئتكم الغرابة والزمالة. وعندما تبتعدون مسافة يومين أو ثلاثة أيام عن وهران آمل أن نتواجه، وسيُعرف أخيراً من منا سيكون سيد البلاد.

آن الأوان لرحيلكم، إذ إن بقيتم لدينا فإن سوء حال سكان المقاطعة التعساء وما عرّضتموه لهم سيطول إلى مالا نهاية».

ولما بدأ دي ميشيل مجدّداً يضايق الدوائر والزمالة انقضّ عليه عبد القادر من منطقة بني عامر في خمسة آلاف فارس قطعوا المسافة في أقلّ من ثلاث ساعات ومرة أخرى اضطر الجنرال فجأة إلى الانسحاب حتى أبواب وهران.

أفرغ عبد القادر عندئذ محيط المدينة بإرسال القبائل إلى سهل تلمسان؛ وانحصر دي ميشيل وكتب عند ذاك إلى الأمير بالحاح ثلاث مرات في الشهر التالي، وتركه عبد القادر الذي وصلت إليه رسائله عن طريق بن عمار، منحصراً ضمن محيط مدينة وهران الرطبة.

لم يعرف دي ميشيل خلال شهر إن كانت رسائله قد وصلت إلى عبد القادر وهو

يرفض الردّ عليها، فكتب إليه رسالة جديدة أكّدت للأمير أن الفرنسيين يطلبون التفاوض فأرسل إليه أمينه ميلود بن عرّاش يرافقه وُلد محمود أحد كبار ضباطه وبدأا التفاوض مع مردوخي عمّار على أبواب وهران حول شروط الهدنة.

عاد بن عرّاش في ٤ شباط ١٨٣٤ مع اقتراحات دي ميشيل المعاكسة التي أقرّها الأمير ووقع عليها بختمه في ٢٥ شباط ـ فبراير كما وقّع دي ميشيل وختم الوثيقة الخاصة بالأمير وهنا بدأ سوء تفاهم طويل حول هذا الاتفاق[١].

كان مترجمُ الجنرال عبد الله دلبون أحد مماليك السوريين السابقين، ولم يكن مطّلعاً على التقاليد الجزائرية ولا اللهجة الوهرانية، ولمّا عرض دي ميشيل في ٢٦ شباط على رسول الأمير توقيع معاهدة قبل هذا، لأن عبد القادر كان قد وافق على النصّ والحال، وكما الأمر في معاهدة تفنا بعد ذلك، يمكن للنصين الفرنسي والعربي أن يفسّرا بطريقة مختلفة.

ما من أحد يمكنه أن ينكر أن فرنسة اعترفت بسيادة عبد القادر على الأرض التي يتحكّم بها، بينما لم تحدّد بالضبط حدود هذه المناطق. وقد فرض عبد القادر شروطه، فبإمكانه أن يتاجر ويشتري السلاح، والبارود والكبريت... واعتبرت أرزيو مرفأً سلطانياً أما وهران فلا يمكن أن تنتقل إلا البضائع اللازمة لسكانها. وتمّ إعطاء الحرية الكاملة للتجارة والتجّول في البلاد بموجب تذاكر عليها مصادقة وكلاء الأمير، والتزم الفرنسيون بردّ جميع من هرب من مناطق الأمير إلى مدنهم كما تمّ تعيين ممثلين للطرفين في وهران ومسكرة.

أرسل عبد القادر إلى دي ميشيل هديّة تتألف من أربعة خيول عربية أصيلة... وبينما كان دي ميشيل يقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة توقيع المعاهدة، حقّق الأمير ما كان قد رآه في مصر: فقد حصل على حصر التجارة الوطنية والدولية للقمح والحبوب به، وعيّن عبد القادر مردخاي بن درّان الموسوي وهو يهودي درس في باريس ومرسيليا وعمل مترجماً للداي وكيلاً له في الجزائر، وجاءت أوّل صعوبة من استخدام كلمة وكيل، هل تعني «قنصلاً» وهو مايحدّ من حرية التجار الفرنسيين وبالتالي لايمكنهم الاعتراف بهذا الوكيل كقنصل عربي وجارتهم في ذلك السلطات العسكرية ثم المدنية الفرنسية.

هذا الجدل بين الفرنسيين منح عبد القادر فرصة ثلاث سنوات لتنظيم إدارته..

١ ـ نشرت عدة نصوص لهذا الاتفاق. هو منشور في الملحق رقم (١) من الوثائق.

ومكافحة أعداء الداخل. يجب الآن وضع حدّ للاقطاعيين والتحكّم جيّداً بتلمسان
كان عبد القادر يفكّر غالباً بسورة يوسف: وهو يعلم أن يوسف كان ضحية أخوته أنفسهم وضحية أعداء الداخل.

﴿لاجَرَمَ أنّ الله يعلم مايُسرُّون، ومايُعلنون، إنه لايحب المستكبرين﴾ (١٦ سورة النحل، ٢٣).

﴿الله يعلمُ ما تُسرُّون، وماتعلنون﴾ (١٦، سورة النحل، ١٩).

لم يقتنع مصطفى بن اسماعيل، وهو سليل عائلة من نبلاء السيف، بالإذعان إلى أوامر هذا المرابط الصغير، وأشاع، وهو الذي يتاجر مع الفرنسيين، أن «معاهدة دي ميشيل» مخالفة للجهاد.

كانت قبائل منطقة تلمسان لاتدفع العشر ولا الزكاة. وهكذا ففي يوم، عند خطبة الجمعة في مسجد مسكرة ندّد أمير المؤمنين أمام بني عامر بهذا التهاون:

ـ ألستم أول من دعاني إلى المهمة التي أشغلها؟ أتكونون أول من يدعم المؤامرات ضد هذه الحكومة النظامية التي طالبتم بها لقمع الفساد؟ كيف يمكن لحكومة أن تستمر بدون ضرائب؟ كيف يمكن أن تصمد دون تفاهم مخلص، ودعم من الجميع؟ هل تعتقدون أن أي جزء مهما صغر من الضريبة التي أطالب بها مخصّص لنفقاتي الشخصية أو لنفقات عائلتي؟ إن ما أطالب به يمثّل ما يلزمكم به شرع النبي ﷺ وما يجب عليكم تقديمه كمسلمين صالحين، وهو بين يديّ أمانة مقدسة لنصرة الإيمان، أقسم علانية على ذلك.

قبل الشيوخ يد السلطان ووعدوا بدفع الضريبة. يجب الآن إيقاف ابن اسماعيل المدعوم من قبل القبائل المتمردة لكن هذا الشيخ المتمّرد رفض الإنصياع بل وتمكن من أن يهزم رجال عبد القادر وعاد الأمير وبرنسه مثقب بالرصاص وحصانه مخضب بالدم وهو وحيد تقريباً إلى مسكرة.

عند ذلك هبّت رياح الردّة في السهول واستنسر الخونة والوجلون، والتحق آل سيدي الغمري، والعربي، وبني أنكاد النافرين دوماً بسيدي حمادي حاكم تلمسان. كان عبد القادر قد ضمّ إليه بني عامر واعتمد على حَشَمْ غَرَباس المخلصين له، وعلى المهاجر، وانقضّ على تلمسان بخمسة عشر ألف فارس بينما كان ابن اسماعيل مشغولاً في وهران ليحصل على اعتراف من الفرنسيين بسيادته في المنطقة لكن دي ميشيل رفض هذا الاعتراف.

تمكّن الأمير من أن يأسر سيدي العربي، وسحق القبائل، وفرض الضريبة، والتفت لمجابهة مصطفى بن اسماعيل.

قامت المعركة ضارية في سهل مهراز بتاريخ ١٣ تموز - يوليو: وساعدت الحرارة على سحق الخصوم، وتمكّن عبد القادر من أن يتابع سيره نحو تلمسان لكن عدوه القديم لم يحن هامته البيضاء أمام من يسميه «الفتى صاحب السبحة!».

تمنّى عبد القادر لو تقوم **مبارزة**، يتمّ بموجبها القضاء على أحد الزعيمين المتخاصمين ويمكن التغني بها في قصيدة ملحمية. لكن الأمير بدأ يمتثل لمتطلبات مايبدو ضعفاً لدى الإنسان والانتقال إلى مايتطلّبه السلطان المطلق من عنف مشروع.

إن المقهورين يجب أن يُقضى عليهم.

وقد حدّد السياسة، هذه السياسة المكروهة من المؤلّفين التقليديين، في تعابير حديثة في مؤلفه **ذكرى العاقل**.

والسياسة بالنسبة له هي إحدى دعامات الحياة الاجتماعية على هذه الأرض، وهي قبل كلّ شيء روح تركيب وترابط، تهدف إلى تضامن أعضاء المجتمع من أجل تأمين حاجات العالم، والواقع لايوجد تناقض بين الدين والسياسة، ولا بين المعرفة العقلية والمعطيات الدينية لأن هذه الأخيرة لاتصدم الحسّ السليم: فالفطنة أسمى من الحساسية إنّما هي أدنى من العقل، وعلى الإنسان للوصول إلى كامل وسائله التحلّي بسلوك اجتماعي ينزع به إلى الكمال؛ والأخلاق تقوم عندئذ على فضائل أربع: الحكمة والعدل والشجاعة والقناعة. والإنسان يقع نتيجة الإفراط أو نتيجة النقص وعلى الحكماء أن يساعدوه لتجاوز هذا الخلل، ومن واجب الدولة أن تملأ مهمة الموجّه والحكم العَدْل.

وقد ارتجل عند دخوله تلمسان قصيدة عهد بإتمامها إلى كاتبه بن محمد بن رويلة:

إلى الصون مُدّت تلمسان، يداها	ولبّت فهذا حسن صوت نداها
وقد رفعت عنها الإزار فلُج بها	وبرّد فؤاداً من زلال نداها
وذا روض خدّيها تفتّق نوره	فلا ترض من زاهي الرياض عداها[1]

١ - أبيات عبد القادر ثمانية وأبيات قدور بن رويلة أربعة عشر. لم يذكر المؤلّف إلا البيتين الأولين من قصيدة الأمير والأبيات الثلاثة الأخيرة من قصيدة بن رويلة. أضفنا بعض الأبيات لاستقامة المعنى (المترجم).

وكم رائم رام الجمال الذي ترى فأرداه منها لحظها ومناها.

وشُغل الأمير عن إتمام القصيدة فكّلف كاتبه أن يجيزها ويكمل معناها فقال قدور بن محمد بن رويلة:

ولما علمت الصدق منها بأنّها أنا لتني الكرسي وحزت علاها
ونادت أعبد القادر المنقذ الذي أعنت أناساً من بحور هواها
لأنك أعطيت المفاتيح عنوة فزدني أيا عزّ الجزائر جاها
ووهران والمرساة كلّا بما حوت غدت حائزات من حماك مناها

ـ أولى عبد القادر ثقته إلى بن نونة الذي عاد من مراكش ومعه رسائل من السلطان وقُسمت مقاطعة وهران إلى خلافتين وسبع مناطق: خلافة الشرق ومركزها مسكرة وقد وضعت تحت إمرة مصطفى بن التهامي ابن عم عبد القادر وصهره، وخلافة الغرب وعهد بها إلى بوحميدي.

سارت الأمور وفقاً للأفكار التي جهد الأمير في تطبيقها بكل دقّة: مسؤولية القبائل عن حفظ النظام العام؛ وإحصاء دقيق أسبوعي للثروة الحيوانية: الأغنام والأبقار وحيوانات الذبح وخيول المطايا في كل قطاع؛ وقاض يسميه عبد القادر لفض الخلافات وتطبيق أحكام الشريعة في كل قبيلة.

وظهرت الكوليرا فلم تستثن احداً

رؤي ظهور مجدّد لصغار متعهدين مستقلين لإدارة أملاك الإنقاذ العام، كما ظهرت الكوليرا... وبينما كانت الحكومات تتتابع في باريس والجنرالات يتتابعون على مدينة الجزائر... استقر بنو الأصفر المسمون فرنسيون أكثر فأكثر حول مدينة الجزائر بينما كانوا يغيرون ملكهم مما لم يفاجئ النفوس الواعية. ولئن تركّزت الدولة، فإن الأمور لم تتحسّن: فالفرنسيون من جهة راحوا يثبّتون أقدامهم، بينما من جهة أخرى قامت في البلاد الظاهرة المألوفة في المغرب: تعدّد المهديين، هؤلاء الذين يلتقطون التوجيهات الإلهية. وتركهم عبد القادر ينشرون دعواتهم، ثم استغلّهم لأنه كان يعتقد أنهم يغذون المقاومة الشعبية، وأن الجميع سيعودون حتماً للانصياع إلى سلطانه حتى أولئك الذين ينتقدونه أو يحاربونه مثل الحاج موسى الدرقاوي الملقب بأبي حمار:

وعبد القادر يعرف أن النزاع مع الأخويات لايقتصر فقط على الأمور الدينية، وإنما عليه أيضاً أن يصارع النفوذ الدنيوي للتيجانية بينما أخوه بالذات الحاج مصطفى انضم إلى الدرقاوي ضده[1].

كانت الأكثر بعداً قد أرسلت مندوبين: فمِدْيا ومليانة تريد أن يحقق الأمير لديهم ما أجراه في المنطقة الوهرانية.

دخل عبد القادر مديا وتغنّى الشعراء بانتصاره: شريف يخرج من الصحراء يريد الاستيلاء على مقاطعة! وبعد أن اجتاز عبد القادر مرّة أخرى مسافات غير معقولة استولى على طيطري دون مقاومة وسمّى خلفاءه في مليانة ومديا. كان عندما يتقدّم مع فرسانه، يحرص على أن يتبختر بحصانه ثم بحركة حاسمة يأمر بعقوبات صارمة، وأعطيات سخية وفق مقتضى الحال وموقف كل شيء حسب مرتبته: وكانت القبائل تعلن ولاءها، فهي تريد لأبنائها أن يلتحقوا بالسلطان وخاصة بعد أن قطع رؤوس آبائهم.

وأتى حاكم فرنسي جديد يحمل اسماً أكثر إبهاماً من أسماء الآخرين، وتعليمات أقل دقّة من تعليمات سابقيه، ولم يدرك لماذا يتقدّم عبد القادر بينما يرحل دي ميشيل... وكتب إلى الأمير يبين له رغبته في ألا يتجاوز منطقة الشليف شرقاً. هذا الحاكم المسمى ترزل TREZEL لقبه العرب بالأعمى، وحل محلّ دي ميشيل الودود واستخدم عبد القادر كل مافي جعبته من حيل ليتفاوض معه، فتخلى في البدء عن بعض المزايا التي منحته إياها معاهدة دي ميشيل، واستقبل هؤلاء الضباط الصغار الذين أرسلهم إليه الفرنسيون بمزيد من الحفاوة بالرغم من عدم أهمية ما حملوه إليه من اقتراحات...

كان يبدأ جميع رسائله بالعبارة التالية: «تلقيت خطابكم وفهمت مضمونه...» وكان يضحك في سرّه عندما ينقل إليه جواسيسه ذعر الفرنسيين عندما يجرب تراجمتهم أن يخففوا من وقع زهوه الأدبي. والواقع أن ابن دوران كان يطلعه على جميع تناقضات السياسات الفرنسية وعملائها العديدين المكافأين أو المهتمين

١ ـ الأشرف يتحدث عن المرابطين الأميين، بينما ج. برك يسميهم «ملتقطي التوجيه الإلهي». لكن الصراع بين الأخويات لم يقتصر على التعاون مع السلطات الاستعمارية: من الواجب تنقية التاريخ من الاستعمار.

بالعمليات التجارية التي تسمح بها أوضاعهم، ومافتئوا في أسفارهم يزدهون باستحقاقات عبد القادر أمام الفرنسيين.

لذلك لم يدهش الأمير عندما وجدهم يقبلون في أبّهة كبيرة إلى مِديا، ويتبعون الأمير في دورة تفتيشه: وقد لاحظ الضباط الفرنسيون عند دخولهم مسكرة أن للأمير جيشاً حقيقاً. وعند ذلك طرح عليهم عبد القادر معاهدته الخاصة التي يقترح فيها على فرنسة أن يلزم المحتلّون المرافئ تحت حماية أمير المؤمنين الذي يؤمّن حرية التجارة إنما بالاعتراف بسيادته على المناطق الممتدّة من وهران إلى قسنطينة[1].

لم يكن ترزل في مثل ضعف الكونت دروه درلون Drouet d'Erlon، وعندما جاء هذا إلى وهران في حزيران ـ يونيو ١٨٣٥، أقنعه بأن عبد القادر يريد أن يجعل من الحكومة الفرنسية أداة لسيطرته الخاصة ويجب رفض كل علاقة معه إلا الحرب. واستغلّ التماساً من الزمالة والدوائر المرهقين لبعدهم عن مناطق زراعاتهم ورعيهم، وخسارة مواسمهم، والكوليرا، ليصدر أمراً باعتبارهم «رعايا فرنسيين!». كتب إليه عبد القادر ليذكّره بشروط معاهدة دي ميشيل حول هذا النقطة[2].

«وفقاً لهذه الشروط عليكم أن تعيدوا لي كل عربي يلجأ لحمايتكم، وبالتالي فأناأكثر إصراراً على المطالبة بقبائل كاملة انتقلوا إلىٰ جهتكم! إنّ الدوائر والزمالة هم من رعاياي.. وإذا أصررتم على نقض تعهداتكم فيجب أن تستدعوا قنصلكم الموجود في مسكره... فإن يدي ستطاله عندئذ... إن ديني يحرّم عليَّ السماح ببقاء مسلم تحت الهيمنة المسيحية. فانظروا مايجب عليكم فعله وإلا فإن الله والمعركة سيقرّران بيننا».

ردّ ترزل مسبقاً وفق الطريق التي عمّمها فيما بعد بوجو Bugeaud: فأحرق محاصيل حشم الغرابا، القبيلة الأكثر إخلاصاً لعبد القادر، فهبّ الأمير في ألفي فارس إلى ضفتي وادي السبك ووفقاً لعادته ضرب المشاه الفرنسيين في غابة مولاي

---

١ ـ حول هذه النقطة يغالي الأمير في جرأته، إذ ما من أمر سويّ في المنطقة الشرقية، «إضافة إلى أن الدراسات التاريخية الجزائرية والاستعمارية متفقة في نظرتها لسوء تصرف الباي أحمد رغم تحسين صورته من قبل تميمي».

٢ ـ هذه المرحلة مذكورة بالتفصيل لدى المؤلفين الفرنسيين وخاصة آزان كما أن أرشيف وزارة الحرب يمتلك جميع رسائل الأمير مع ترجمتها والإجابة عليها مصنفة ومبوّبة.

اسماعيل، ثم أردف على كل حصان فارسه ورجلاً من المشاة. وعزل مؤخرة القوات الفرنسية نحو أرزيو بحيث اضطرت عربات المدفعية أن تدور حول جبل هميان وأن تنفذ عبر ممر هبرا إلى المكتا. وهرع ترزل بقواته وغاصت مدفعيته في المستنقعات، وسادت الفوضى وكانت مذبحة هائلة بين قوات الطرفين، قال عنها عبد القادر فيما بعد: «جعلني الأعمى أخسر بالانتصار عدداً أكبر من الرجال منه في الانكسار».

كان لهذا الانتصار وقع مدوٍّ في المغرب: فلأول مرّة يصمد العرب وينتصرون على القوة الأوروبية في معركة تتعدّى المناوشات. لكن سرعان ما بدأ سلطان مراكش يتخاذل واستيقظت باريس من ذهولها فاتّبعت سياسة أكثر رهبة وفعالية أما عبد القادر فتابع (سواء بالنسبة لترزل أو كلوزل) انطلاقته، فهبط خليفته في ميليانة على ميتيدجة في خمسة آلاف فارس وضم إليه قبيلة الهدجوت الشهيرة، وأجلى القوات الفرنسية عن السهل وحاصر مدينة الجزائر.

الإختبار

﴿والله يحبُّ الصابرين﴾ (٣، سورة آل عمران، ١٤٦).

وانتفض الفرنسيون واحتلوا جُزيِّرة رشكون مقابل وادي تفنا وهذا مايضايق الأمير في تجارة السلاح مع إسبانية وانكلترة. وجاء مارشال جديد ولحق به ابن ملك الفرنسيين واستقرا في وهران، لكنهما لم يبقيا فيها، وانطلقا لمهاجمة مسكرة (المعسكر)؛ وتردّد عبد القادر وهو يشاهدهما يعبران السيك في ٢٧ تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٣٥ بينما بدأ البرد، وكان يتابع تحركات الجيش من أعلى القمم، وفكّر أن عليه تجنّب المعركة، فقد لاحظ أن أسلحتهما مختلفة، وأن جنودهما أكثر تجهيزاً، وقد استبدلا بعرباتهما الثقيلة الجمال، كما رأى بعض الأتراك والزواف مع الفرنسيين.

كان حصانه يدور في أعلى القمة على إيقاع غضبته.

إنّه يدرك عدم إمكانه مجابهة هذا الجيش مع جميع من التحق به من مرتزقة غير نظاميين ممن لايفكرون إلا في اختراق المنطقة ونهبها والعودة من حيث أتوا، ومرة أخرى؛ وبعد مصادمة عنيفة، فإن الدوائر والزمالة، وخاصة خيالتهم - انضموا إلى الفرنسيين. وبكى عبد القادر حرقة وهو يُفكر بَقَدر هذه القبائل وفق تعليل ابن خلدون ونصائح أبيه.

دخل كلوزيل ودوق أورليان مسكره (المعسكر) في ٦ كانون أوّل - ديسمبر ١٨٣٥، ولم يجدوا فيها إلا بعض شيوخ اليهود، والنار تشتعل في المدينة. ودمّر فيها كلوزيل كل شيء، الطواحين ومصانع السلاح، والتحصينات. لكن الدوق كان مريضاً، ورحل الجيش الفرنسي في البرد، ورياح الصقيع التي تهبّ من الأطلس، وحبّات البَرَد بالذات.

عندما ترتج الأرض بهزّة.

وعندما تُلقي مجدّداً أثقالها.

وعندما يتساءل الإنسان ماذا حل به؟

في ذلك اليوم تتحدّث الأرض عن تاريخها الحقيقي.

كان عبد القادر يفكر بالانتصار المرّ الذي يسبق دائماً غمّ الهزيمة التالية عندما جاءه الحشم يعيدون إليه الشمسيّة علامة السلطنة: كان جالساً في منزله يتساءل لماذا تخلّى عنه الله؟ لكن ألم يتعرّض الرسول ﷺ لهذا الإختبار القاسي، وللهزيمة والخيانة من بني قومه؟

﴿وما أدراك ما ليلة القدر؟﴾ (٩٧، سورة القدر، ٢)

وكعادته لجأ إلى الصلاة والتضرّع:

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر جيّد بالنسبة لي، ولورعي، ولحياتي اليومية، ولمستقبلي فحققه لي.

اللهم أحبب لي الإيمان وثبته في قلبي، وانصرني على القوم المفسدين.

اللهم اجعلني من القوم الصالحين.

وكعادته دائماً راح يكتب قصائد ملحمية شجيّة يكظم فيها غيظه العاجز

«أين رجال قبيلتي؟ أين أخوتي؟

أين من ينشدون من أجلي قصائد الحب؟

أين الشجعان الذين يزدرون بالموت.

الذين يصيحون يوم المعركة: «أنا لها، أنا ابن جلا».

يا أبناء ولد يعقوب: هل تتركون هؤلاء الكلاب المتعطشين للدم يقهرونني».

وجاء الحَشَم يتلّقون أوامره، فردّ عليهم وهو مضنى:

إن مرادي أن تريحوني من هذا الحمل الذي وضعتموه على عاتقي، وقدرتني الصوالح الدينية وحدها على القيام به، ولينتخب القوم خلفاً لي، واعلموا عنه معتمدي الحاج الجيلالي، فأنا راحل إلى مراكش مع عائلتي.

وذعر القوم وصرخوا:

ـ إن تخليت عنا كما تخلّى عنك بعض ضباطك وأقاربك، فلن يبقى لنا إلا أن نستسلم للكفّار!

كانت هذه هي الحجّة الوحيدة التي يمكن أن تثني عبد القادر، فهو ما فتئ منذ بعض الوقت يفكّر باستمرار بهذه الإمكانية التي أثارت كثيراً من الجدل بعد ضياع الأندلس: الهجرة أو الكفاح حتى النهاية؟

هجرة أو جهاد؟

كفاح أو نفي؟

عاهد النفس على أن يستفتي بعض كبار العلماء في هذا الشأن

وبالانتظار يجب أن ينهض لهذا الأمر مرة أخرى.

ـ فلتكن مشيئة الله! لكن تذكّروا أنني لن أدخل المدن التي سمحتم بتدنيسها إلا للصلاة في المسجد. أما الخونة... فأنتم تعلمون جيّداً أنه قد كتب على ابن زهرة أن يسقط ثمانمئة رأس.

والواقع أنه احترس أن يعاقب من عادوا إليه مستغفرين إلا حالة مفضوحة من الخيانة والتبجح نفّذ حكم الشنق بصاحبها. وعلم أن مسكرة قد أخليت ولم يبق فيها إلا الكلاب الصفر والغربان. هؤلاء الفرنسيون قوم غريبون، يستولون على مدينة ثم يرحلون عنها.

يجب التصرّف بسرعة: أهمل شمسيّة الملك التي ردّها إليه «أوّاري» آغا الحشم، ورَتّق خيمته الملكية بأطراف من أنسجة ممزّقة فغدت أشبه بمعطف مهرّج مما يلبسه هؤلاء الرحّالة الشاردون.

لكن في تلك الليلة لم تكن الأوامر التي صدرت أقل عدداً، بل هي أكثر صرامة ودقّة وكان أحد الحشم قد استعاد له حصانه الأسود، وشَكله خلف الخيمة العتيقة.

كان عبد القادر يريد أن يعرف من هو هذا اليوسف[1] الذي كاد يلحق به في هربه المضطرب على مطيّته بمثل أصالة حصانه.

وكتب فيما بعد.

غدا حصاني حروناً أمام خيمتي.

فقد رأى سيّدة الخواتم تستعد للرحيل. إنّه اليوم الذي يجب فيه على الشباب أن يبذلوا أرواحهم دفاعاً عن نساء القبيلة...

في صباح اليوم التالي كان المطر الكثيف البارد يتساقط على السهل، عندما وثب الأمير على صهوة جواده، وخلال يومين تبعه مئة فارس، ثم ألف، ثم ألفان وفدوا من القبائل، فراح يناوش كتائب كلوزيل الذي كان ينقل مرضاه إلى مستغانم.

تلمسان

١٨٣٦: بدأت سنة الفرنسيين تتحول، دون سنة العرب، لكن البرد في هذا القسم الشمالي من أفريقية، حيث الشمس وحدها هي الدافئة، كان واحداً على الجميع.

كانت تلمسان تشغل بال عبد القادر، دائماً تلمسان وهذا المصطفى بن اسماعيل الملعون الذي يريد مساعدة هؤلاء الفرنسيين الأشرار الذين يزحفون على المدينة، وينهبون، ويفرضون الغرامات حتى على حلفائهم. واليهود، والخولوغلي وحتى بني أنكاد، هؤلاء الكلاب الذين جاؤوا يشتكون إلى الأمير من سوء معاملة كلوزيل. وكان عبد القادر يناوشه عندما تقدّم نحو مصب **تفنا** وهو يسلك، بعد أن وعى الدرس، طريق الهضاب، والوديان، والصخور... وردّ كافينياك باتجاه تلمسان، وجعل كلوزيل يعاني صعوبات كبرى في اللحاق بوهران. انطلق عبد القادر منذ بداية تلك السنة من موقعه المركزي في ندرومة، يتجوّل ويجري في كل مكان وبأسرع مايمكن، يعاقب بصرامة القبائل التي راحت تذعن له، ويعمل على منع إقامة مرفأ على مصب تفنا، ويراقب الشعراء والقصاصين في جميع الأسواق (وكان يدفع لهم أحياناً من الخزينة العامة، مما دفع بعضهم إلى لومه)، لكنه كان يقضي الليل والنهار على حصانه، وليس

---

١ - هو يوسف فانتيني J. Vantini الذي خطف من جزيرة إلبا موطنه من قبل القرصان وتربّى في تونس، وكبر في حماية الباي، وغدا ضابطاً في الحرس التركي، ثم دخل في خدمة الفرنسيين الذين منحوه رتبة عقيد، وسنجده فيما بعد مع دوق أومال عند الاستيلاء على زمالا.

معه من الزاد إلا بعض الحنطة المجروشة والمنقوعة في ماء مملّح، وهو يصعد الجبال ويهبط الوديان ليحضر الاجتماعات، ويقوم بالاستشارات، ويلقي الخطب والمواعظ لأنه يعلم جيّداً أن بلاغته ضرورية كانتصاراته ليعوّض عن العقوبات القاسية جداً أحياناً التي يفرضها على القبائل التي أثّر عليها الشتاء القاسي، وفقدان الغذاء، وابتزاز هؤلاء وأولئك، عدا عن هموم النساء والأمهات اللواتي خدّدت وجوههن مخالب الألم والشقاء.

«إن الإنسان مكوّن من حرير وحديد

فإذا تعوّد على الترف والرخاء، والغذاء الجيّد، سيطر فيه الحرير ولم يعد يستطيع فعل شيء، وبالعكس إن حمل النفس المشاق وأبعد دون شفقة متع الحياة، سادت فيه إرادة الحديد وبقي قابلاً لتنفيذ المهام الكبرى».

ومع ذلك، فعبد القادر فوق صهوة الجواد باستمرار يرهق كتبته، وخلفاءه، ومعتمديه، وخدمه، يتبعه دائماً حامل مظلّة، وسائس مع ثلاثة خيول، لايبالي بالتعب رغم معاناته، لكنه يفكر بابنه محمد الذي كاد ينسى وجهه، وبخيرة التي مضت عليه ليال لم يرها فيها:

أُفكّر بك يا حبيبتي عندما اندفع مع الأقدار
والسيوف العارية تبرق من حولي
والأيادي المبتورة تتطاير في الفضاء
والرؤوس البشرية المقطوعة تسقط دامية تحت قوائم خيولنا.
عند ذاك تملأ ذكرى هواك روحي
وأشعر بصدري يكاد يتفجّر
فيغدو عاجزاً عن أن يحبس خفقات قلبي المتسارعة.
وأصيح يا إلهي أعد لي بسرعة حبيبي
لا تلحق ضرّا بمن عاهدناهم على الوفاء
ألم تجعل هواهم في قلبي
فكان كما الحركة التي وضعتها في أصابعي؟

مابقي حبيبي بعيداً سأبقى في حداد
لن تعرف الحنّة يداي.
ولن تعرف الكحل أجفاني
ولن يرى أحد شفتيَّ تبرقان عن ابتسامة.

وكما الأمر دائماً، ورغم الحرب، يفد الربيع بعد الشتاء لامبالياً بآلام البشر، ثم يصفّر السهل والهضاب بلون الصيف الساطع.

ويُرسَل جنرال جديد بمركبه بتاريخ ٦ حزيران - يونيو ١٨٣٦ على مصب تفنا؛ فالتاريخ لايتوقّف، ويتجابه العدوان هناك للمرّة الأولى دون أن يرى أحدهما الآخر فعلاً. ويتعرّض عبد القادر لهزيمة كبيرة على ضفتي السكاك.

بوجو

توماس روبير بوجو T.R.BUGEAUD من بيكونري، ونائب بريغو، النقيب في أوستريليتر، المولود من أم ايرلندية، والذي وصل فيما بعد إلى رتبة مارشال، وحظي بلقب دوق إسلي، هو رجل غير مستقيم ومفتر، وسبق أن قتل نائباً في مبارزة، كما عمل على اغتيال الأصدقاء الباريسيين لتجار حرير ليون، لكنه مزارع ناجح في منطقة بريغور مسقط رأسه، وهو مشجّع لتطوير المقاطعات الفرنسية ولاستقرار فرنسة في الجزائر.

مرّة أخرى هربت خيّالة القبائل نحو خيمهم ونسائهم، ومرّة أخرى لحق بهم عبد القادر على مرآى عيون الشيوخ والأطفال المذعورة وأشرع فيهم السيف وقطع أعناق رؤسائهم؛ ومرّة أخرى ينصرف إلى ابتهالات مستهامة دون أن يدرك الاختبارات التي خصّه الله بها.

ثم يتجدّد كل شيء: حصار الفرنسيين المحتّلين لقنسطنطينة، والسيطرة على القبائل المتمرّدة، وتضييق الخناق على وهران بحيث لجأت إلى أكل قططها ثم جرذانها، بينما كانت قبائل الطيطرى تنقض مرة أخرى على ميتيدجة وتصل حتى مشارف مدينة الجزائر. وتجول في رأس الأمير فكرة: إن الفرنسيين بحاجة للحوم والحبوب، وهو بحاجة للحديد والرصاص والكبريت، فلماذا لايستخدم بن دوران لعقد صفقات تبادل وتجارة.

تحرّى عبد القادر في المعاهدات الشرعية شروط الهدنة والمصالحة. هل في دار الإسلام المحتلة وقد غدت بذلك دارَ حربٍ، مكان للصلح، ولمفاوضات موّقتة على الأقل لتجديد القوى؟ عليه أن يعود إلى اجتهادات ابن تيميّة، والموَزدي، والغزالي، وآراء العلماء، لكن الضرورة والإلزام لاتتيحان الوقت.

أرسل عبد القادر بن دوران إلى الجنرال قائد وهران (دائماً قائد آخر، باسم آخر). مزوّداً بتعليمات محدّدة:

«... ليبعْ كل طرف للطرف الآخرماينقصه، وبذلك تتحقّق رغبات الجميع... بل يذهب السلطان إلى حدّ السماح لكم بتموين تلمسان. ولما كان مثل هذا التنازل سيغيظ العرب الذين يعتبرون احتلال الفرنسيين لتلك المدينة عاراً قد لحق بهم، فإنّه لايتمكن من أن يأخذ على عاتقه مسؤولية مثل هذا الاتفاق المكروه شعبياً إلا بشرط إطلاق سراح أسرى معركة السكاك وإعادتهم إليه».

ارتضى الجنرال بروسار المتشارك مع أحد تجار الحبوب الإسبان باقتراحات الأمير واستؤنفت التجارة بين الطرفين، وحرّر الأسرى، واستعاد عبد القادر مكانته وانصرف إلى الاهتمام بتكدُمت.

عاد بوجو إلى وهران بتعليمات واضحة: التغلّب على الأمير أو التفاوض معه، كما أن عبد القادر من جهته شرع في التفاوض مع الحاكم العام الجديد (دامرمون الذي حلّ محل كلوزيل) بواسطة قنصله في طنجة، وهكذا فقد تلقّى ببعض الرضا اقتراحات بوجو المتعجرفة: إنّه يتفاوض مع سلطتين مختلفتين، وهذا مايلائم أهدافه.

كانت هذه الأهداف بسيطة: اعتراف فرنسة بسلطته، وحصر الفرنسيين في مرافئهم لتنشيط التجارة مع الخارج، ومنع الاستعمار الاستيطاني، الذي رآه يرتسم في متيدجه، بأي ثمن: كانت إحدى أفكاره أن يرفض دخول الفرنسيين إلى بليدة، وأن يترك لهم شريطاً صغيراً من الأرض حول مدينة الجزائر، وكذلك حول وهران بحيث تتمكن القبائل أن تخيم تحت أسوارهم.

١٨٣٧ معاهدة تفنا

دامت المفاوضات طيلة ربيع العام ١٨٣٧، وعبد القادر يفاوض دامرمون في

مديا بينما بن دوران ينبئه أن وزارة الحرب قد أعطت سلطات مطلقة... لبوجو. جمع عبد القادر عدة مرّات المجلس الاستشاري، والقادة العسكريين، وخلفاءه وكذلك زعماء القبائل، والقضاة، والشرفاء، إذ أن الأمر يتعلّق بالتخلّي للمسيحيين عن قطعة من **دار الإسلام**،، ونحو نهاية شهر أيار ـ مايو أرسل عبد القادر إلى وهران السي حمادي الصقال لصياغة نص الاتفاق المستقبلي. تمكن ابن دوران أن يحقّق نجاحاً متميّزاً بما فيه إقراض بوجو ١٨٦٠٠٠ فرنك لإصلاح الطرقات القروية في مقاطعة بريغور، منطقته... وعرّضت هذه الأريحية من الأمير مارشال المستقبل للشبهات، ولم يعترف بها إلاّ بعد ذلك بعدة سنوات في قضية كان لها صدى بعيد.

خلال ذلك الوقت كان عبد القادر قد حسَّن وضع دولته، وأخضع طيطري، وثّبت خلفاءه بمن فيهم أخوه السي مصطفى الذي ولّاه على مديا، كما عُيّن له ممثل في شرشل. وهذا ما اعترف به بوجو دون العودة إلى حكومته، لكن الغموض لم يتوقّف عند هذا الحدّ: فمرّة أخرى لم يكن للتعابير العربية والفرنسية في توطئات الاتفاق ثم في المعاهدة بالذات ـ التي وقعها عبد القادر بتاريخ ٣٠ أيار ـ مايو المدلولات ذاتها بالنسبة للطرفين. وقد تعثّرت بصورة خاصّة نقطتان: تعيين الحدود، ومدى ولاء كل طرف تجاه الطرف الآخر.

اعترف عبد القادر بأن ملك فرنسة (لويس فيليب) كبير؛ وورد النص كما يلي: «إن أمير المؤمنين يعلم أن السلطان كبير...».

وهذا ما تحوّل في الصيغة الفرنسية: إن الأمير عبد القادر يعترف بسيادة ملك الفرنسيين... إضافة إلى أن ما من كلمة من الكلمات الأساسية كان لها ذات المدلول في اللغتين. «فالأمة، والتابع، والقسم من الأرض، والسيطرة» وردت في النص العربي: «وطن، ورعية، وبلاد، وحكم، وسلطنة...» بل حتى كلمة «قمح» التي تعني الحنطة القاسية وردت بالفرنسية Froment «حنطة الطحن» بالمقابل لم يكن متوقعاً الالتباس في معنى الفعل: «يَعرِف»: وكذلك في نصّ المادة الثالثة من النصّ العربي: لايمكن الدخول إلى أيّ قسم من السلطنة، فنقل بالفرنسية: «لايمكن حكم أي قسمٍ!..»

أما تعيين الحدود فمهم: «حتى الوادي المسمى «القدرة» ومابعده» أذلك في أعلى

الوادي، أم في أسفله، وإلى أين تصل مسافة «مابعده؟» ما من أحد يمكنه أن يفسّر هذه الصيغة[1]، بينما النص العربي يعطي كلمة واضحة في المغربية الدارجة «فوقه».

وكما جرى الأمر دائماً فإن النصّ الفرنسي ترجم إلى العربية من قبل تراجمة الفرنسيين ولم يُنقَل النصّ العربي إلى الفرنسية[2]. وأخذ بوجو الأصل، وأعلن الترجمة، وعند موته قامت زوجته بإتلاف أوراقه لتتجنب مشاكل أخرى لما عُرف عن نشاط المارشال من شبهات، فقد وجب انتظار دراسات إيفر وإمريت Yver and Emerit لمعرفة الحقيقة: فبوجو قد كذب، والمعاهدة تعترف صراحة بسيادة الأمير عبد القادر ما فوق وادي القدرة، أي دون حدود نحو الشرق. مافتئ عبد القادر في مراسلاته[3] مع الفرنسيين يؤكّد على هذا الوضع الجلي الواضح، بينما راح الفرنسيون بمختلف الوسائل يختلقون الذرائع لنقض المعاهدة، مؤكّدين خلال أكثر من قرن أن الأمير هو من فعل ذلك: هذا على كل حال ما علّمته الجمهورية من التاريخ لصغار التلاميذ.

العام ١٢٥٣ هجري ٣١ ايار - مايو ١٨٣٧

كان بوجو على رأس ست فرق، ومدفعيته، وخيالته، يغلي غيظاً منذ الساعة التاسعة صباحاً على ضفاف تافنا. ولم يظهر الأمير إلا عند الساعة الثامنة عشرة. تقدّم عبد القادر على حصانه الأسود الذي يخطف الريح بقوائمه الأربع، ثم يترجح على قائمتيه الخلفيتين قبل أن يثب من جديد، وكان يسبقه حارسه الأسود، ويتبعه قادة كتائبه بأبهى الحلل، ثم حملة البيارق، أمّا هو عبد القادر فكان مرتدياً برنساً قديماً ظهر عتقه، وخلفه مئتان من رؤساء القبائل يليهم عشرة آلاف فارس ولعلع البارود واختلطت رائحته بالأغبرة المتصاعدة خلف آلاف الحوافر؛ وتوقف الجنود الجزائريون عند مرأى

١ - عرض المؤرخان امريت وإيفر النصوص بالعربية والفرنسية، ولاشك أن الحكومة الفرنسية أسفت على هذا الاتفاق الملائم للأمير فنقضته في العام ١٨٣٩.

٢ - هذا التناقض الذي سبق الإشارة إليه يظهر أيضاً في كتاب التحفة (ص٢٧٧ - ٢٧٨ الطبعة الثانية ١٩٦٤) حيث ترجم النص الفرنسي الرسمي إلى العربية.

٣ - معظم هذه الرسائل مدونة في مؤلّفات شرشل/هابار، وكذلك لدى آزان وآجرون، وبالطبع هي موجودة في ملّفات الجيش وبالتأكيد في أرشيف وزارة الخارجية.

المعسكر الفرنسي، ومن القمم انطلقت من آلاف الحناجر صيحة واحدة:

- يحيا سلطاننا عبد القادر بن محيي الدين الحسيني سليل الرسول ﷺ.

- نصره الله!

- سبحان الله! سبحان الله.

تقدّم بوجو جرياً مع الريح، وحصانه يشب، ومدّ يده لعبد القادر الذي قفز على الأرض، والعرب والسود يمسكون الركاب والبرنس بينما أحد القوّاد المتنفذين يحمل المظلّة. وجلس الرجلان على الأرض وراحا يتحدّثان نحو ساعة. وصف بوجو فيما بعد هذا المشهد في مقال نُشر في «المرشد الشامل Moniteur Universel» فذكر أن عبد القادر يشبه السيد المسيح؛ فهو وسيم، مزهو بالنصر، مخشوشن بالحرب، نحيف، لفحته الشمس والريح، فبدا كالمدبوغ أمام أتباع الجنرال، ولحيته السوداء المسرّحة بعناية تطيل وجهه الناعم؛ ويداه الطويلتان الصلبتان على مقبض السيف تفردان حبّات سبحة سوداء لا تفارقه أبداً: وجميع حواسّه تتفجر بسنوات شبابه الثلاثين. وتوجّهت جميع الأنظار نحو هذا الثنائي المدهش، وأمكن لكل واحد أن يلاحظ أن الفرنسي ليس مرتاحاً، بل هو متضايق وهو على مستوى الأرض، وهي ليست موطنه، رغم ما عرف عن حبّه للأراضي.

كان عبد القادر منحنياً قليلاً، ورأسه يميل جانباً، وكأنه جالس في محفل أبيه، وعيناه نصف مغمضتين وقد بدا عليه ارهاف السمع لكل ما يقال، إنّه لايفهم الفرنسية وبالتالي فالترجمة تتيح له التفكير قبل أن يجيب وجسمه يترنح بهدوء بينما أصابعه تحرّك حبّات سبحته وهو ينطق بكلماته بكل هدوء. بينما كان بوجو ذلق اللسان متبجحاً وهو يؤكّد أنّ ما من أحد من أقرانه كان يجرؤ على توقيع مثل هذه المعاهدة وقال:

- بذلك جعلت نفسي كفيلاً لك عند ملك الفرنسيين.

أجاب الأمير: إنّك غير مجازف بذلك. فإن ديننا يلزمنا بأن نتقيد بكلامنا، وأنا ما تراجعت يوماً عن وعد، وبمشيئة الله سأحقق للعرب السعادة، وإن نُقِض الصلح فلست أنا من يفعل ذلك[1].

---

١ ـ نقل هذا الحديث من قبل عدة شهود ومؤلفين. وكانت رواية شرشل له دقيقة ومجملة، وقد اعتمدت عليها (المؤلف).

كان عبد القادر منشغلاً باكتشاف له أهميته، فبوجو مؤهّل للتوقيع لكن المعاهدة تتطلب موافقة الملك و«تصديقه عليها». إنّها حكومة غريبة هذه التي تفوّض مندوباً وتقيّد سلطته. إنّهم غريبون هؤلاء الفرنسيون. لكن الوقت وحده يهمّه حالياً، فسأل عن المدة اللازمة للتصديق.

أجاب بوجو: ثلاثة أسابيع.

فكّر الأمير أن هذه المدة ستضايقه فألحّ على تطبيق المعاهدة.

ـ إن لم تعيدوا لي تلمسان فلا أرى ضرورة لتحقيق هذا الصلح: وهو لن يكون إلا هدنة... حتى ولو خرّبتم بعض المحاصيل إذ سيبقى للعرب مايكفيهم من الحبوب.

سأل بوجو: هل أعطيت الأمر بإعادة العلاقات التجارية مع مدينة الجزائر وحول المدن؟ إذ لايمكن للفرنسيين أن يبقوا محاصرين في مواقعهم.

ـ ليس بعد. وسأفعل هذا عندما تعيدون لي تلمسان.

كان عبد القادر يفكّر بالمستقبل وليس في الحاضر، وهو يترك التغنّي بالنصر لعدم ثبات الحدث وعرضيته. وموضوع جمع المحاصيل يقلقه إذ يجب تخزينها في أهراء متعدّدة ضمن أراضي القبائل، فهذا ما يضمن له الحركة، والواقع أنه كان يفكر أكثر فأكثر بالمناطق الشرقية، وكذلك الفرنسيون...

بقي عبد القادر جالساً، بينما نهض «بوجو الذي يحتاج توقيعه إلى تصديق» فهذا المقاتل الكهل ثعلب، وقد أدرك أن عبد القادر يعامله كغريم أدنى مرتبة؛ وعندها تناول فجأة يد الأمير وتحت نظرات المترجمين المنذهلة الذين بقوا واقفين رفعها عالياً، وابتسم الرجلان، وتبادلا النظر طويلاً، فالأمير يعرف أن الثعالب في السهل وأن بوجو رجل خطير.

كان على مارشال المستقبل أن يشرح لحكومته الموقف الذي دفعه لمعاملة عبد القادر كندّ «للفرنسيين، وأكثر من ذلك فهؤلاء لايستطيعون الالتحاق بقسنطينة عن طريق البرّ وهم محاصرون في مرافئهم».

تجرّأ الفرنسيون بعد ذلك بسنتين على نقض العهد، واختراق أبواب الحديد، بينما كان الأمير على مفترق الطرق، هل سينسحب ويعتبر مهمته قد انتهت، ويسلّم المناطق

التي يديرها لسلطان مراكش؟ أم يمدّ مملكته إلى الشرق؟ وبذلك تصوّر لجزائر محدّدة ستولد في تلك اللحظة؟

كان عبد القادر يستقبل في كل مكان كمنتصر، وهو يفكّر بمنحى التاريخ بعد أن فرغ من عظته في جامع مديا، وهو ينتظر زيارة الشيوخ، والمرابطين، والقضاة، والقواد من جميع المقاطعات، وخلفاؤه هنا يجلسون على السجاجيد من حوله وهو منصرف إلى تأملاته، يجب أن يصوم، وراح يصلي وهو يفكر كم كانت نصائح أبيه قيّمة له. كان الهيجان في الخارج قد وصل إلى أوجه، وكلّ الناس يؤمنون بوضع جديد. لكن العقبات ماتزال عديدة، وواحدة منها تبدو له حاسمة: عين ماضي وبنو عرّاش، وخاصة الحاج محمد بن سالم التيجني، وهو ابن أحد كبار أهل الصلاح، فما العمل؟

من المؤكّد أن السيد الحالي للمكان ليس له شهرة أبيه ولا أخيه البكر، وتذكّر عبد القادر ملاحظات والده بالذّات ومساندة أعمامه، بينما كان مايزال هو حَدَثا، وتذكّر ما قيل عن أن السي حَسَن أخ السيد محمد تقدّم حتى وهّران وأنّ الصراع لم يكن دينياً فقط بين الأخويّات الثلاث والطرائق[1]. فعلى المستوى المذهبي، لم يكن عبد القادر في تلك اللحظات القاسية كبير الاهتمام. لكن الزاوية تعتبر رتاجاً بين الهضاب العالية المجلّدة والمنحدرات السابقة للصحراء الكبرى كما أنّها مركز منافس على المستوى الرمزي.

مرّ الشتاء في مساومات مع أبناء الجنوب، وفرض القرار نفسه. يجب القضاء على التيجني، فتأثيره كبير على أفريقية، وله مساندون في مراكش، والقصبة والمدينة على عتبة الأغواط تشكلان رتاجاً يتحكّم بكل الجنوب.

منظر جليل على قدر الأوهام المتبجحّة لنبالة متحصّنة بسفاهة محاربة!.

كانت الطريق المتوجهة من الأغواط إلى حصن التيجان مكسّوة ببساط من الشيح تتناثر عليه هنا وهناك بعض أشجار الفستق البري المزهرة في ذلك الربيع من العام ١٨٣٨، وكان عبد القادر المحاط بضباطه وبعض الحرّاقين الغرباء يتقدّم نحو أوّل خطأ فادح له، فالحصار سيكون قاسياً، وسيكابر الأمير فيه بطريقة مبهمة متيحاً بذلك

١ - بين ج. برك الأهمية الفائقة للشيخ أبي العباس أحمد التيجني (١٧٣٧ - ١٨١٥) وفي كل مرة أقرأ هذه الصفحات السامية من مؤلّفه «داخل المغرب» أشعر بكبر المسافة التي تفصلنا عن أستاذنا.

للفرنسيين الذين يساعدونه مالياً ويقدّمون له الأسلحة إثارة الشبهات في أعين بعض أعدائه.

كان هناك ليون روش[1] وهو هنغاري من الفرقة الأجنبية، وماريوس غارسن M.GARCIN مستشاره في التسلّح، ونيكولا ونوبل مانوسي MANUCCI ومدفعان، وثلاثة آلاف جندي من المشاة، وألفا فارس، مع خيمهم، ونسائهم وأولادهم في سلال ومعهم جدايا ماعز السنة؛ وقد أخضعوا الأغواط، بعد أن فتن جري الخيول النساء. والآن فإن التخييم الطويل يجذب كل شيء حول حدائق عين ماضي عند حواف الأسوار والأبراج.

لم تكن المدينة تضمّ أكثر من ثلاثمئة مسكن، لكن جدار السور كان ثخيناً جداً، وكانت الآبار تكفي حاجات هذه الدولة الدينية الصغيرة ذات الموارد الكبيرة كمناطق نفوذها. وطال الحصار وكان مكلّفاً ومؤثّراً على الأملاك والسمعة صعباً على المحاصرين والمحاصرين، مبهماً في التحالفات التي أحدثها وخسر بها الجميع شيئاً ما.

كان عبد القادر واعياً لهذا الفشل ومرافعته الطويلة عن الموقف الذي اتخذه تبين قلقه: وقد كتب إلى ممثله في وهران الحاج الحبيب الطيّب ليعلن له هذا النصر بعايير تدعم فرضية خيانة التيجان... واستمر في هذا التحليل المغلوط مؤكّداً فيما بعد لشرشل أن الحاج كان دجّالاً. والحال أن الابن الثاني للشيخ الكبير التيجني كان شيئاً آخر: منافساً محتملاً يجعل من المستحبل إنشاء دولة موحّدة.. وحول هذه النقطة لايمكن للأمير أن يتراجع. وقد كانت رسالته بياناً حقيقياً حول الشرعيّة وهي تحوي جميع حججه، إنّما أيضاً عمق إنسانيته وورعه، حتى وإن غالى في بعض تفاصيل القضية.

«إن الله كلّفنا بمهمة السهر على راحة المسلمين، وقيادة كل من يتبع في هذه البلاد شريعة سيدنا محمد ﷺ، وقد تغلغلنا في الصحراء لا من أجل الإساءة إلى المؤمنين الحقيقيين، ولا من أجل إذلالهم أو إفنائهم وإنّما لإيقاظ إيمانهم والتأكيد على الروابط

١ ـ لا أجد كبير فائدة في أن أقصّ مغامرة ليون روش التي ذكرت عدة مرات، مع أنه ترك شهادة ملائمة عن الأمير، وأنا أقل قسوة من كثيرين في الحكم على هذا الشاب الضعيف المصاب بانفصام الشخصية، وقد جنّبه الأمير العقاب المتوجّب على الخونة لأنه أحبه كما هو في غموضه. والواقع أن الأمير كان يحب أحياناً بسهولة، وهذه قضية أخرى سأعالجها لاحقاً. (المؤلف).

التي توحدّهم، وإقامة النظام وقد استجاب الجميع لندائنا وأطاعونا ضمن ماسمحت لهم به ظروفهم، لكن التيجني وحده رفض الامتثال.

وُجدنا وجهاً لوجه أمام أولئك الذين ضلّلهم، وبينما كانوا يستعدون للقتال توسلنا إليهم كرمى لله ورسوله أن ينضموا إلينا، وذكّرناهم ببعض الآيات القرآنية، ولكن عبثاً، إلى أن قنطنا من اهتدائهم.

في الوقت ذاته خشينا إن تسامحنا أن يفوتنا الهدف الوحيد الذي نسعى إليه: وهو جمع كل العرب حول مركز واحد، وتنوير من يجهل شريعة النبي ﷺ ومنع انتشار فساد العناصر السيّئة بينهم، ووقايتهم من تأثيرات الانحلال الخلقي في بعض المدن، وإتاحة الفرص لهم، ولنسائهم، وأولاهم، أن يعيشوا بسلام وأمان.

لذلك وضمن ممارسة حقّنا المطلق بعد محاولة النيل منه أعطينا الأوامر لجنودنا البواسل لقتالهم، فالدين يأمر بذلك. وعمدوا إلى الهرب أمام قوّاتنا، ومرّة أخرى رفضوا الانصياع لنا، وصرح التيجني بأنه يعتمد على قوة تحصيناته وشجاعة أتباعه. فلجأنا إلى إجراء حصار شديد عليهم، ولما وصل نقّابونا إلى قواعد الأسوار طلب السكان المذعورون الصفح والأمان، وبالرغم من أنهم خدعونا هم ورئيسهم عدة مرّات، منحناهم الصفح الجميل، لقوله تعالى: ﴿اعفوا واصفحوا﴾ ونأمل أن يتذكروا فعلنا بهذه المناسبة واستجابتنا لاسترحامهم صوناً لدمائهم، وحفظاً لأعراضهم».

والواقع أن الصعوبات بلغت حداً دفع الأمير لإرسال ليون روش ثم صهر الأمير مصطفى بن التهامي وأخيراً أخيه سيدي محمد سعيد (الذي خلف أباه على رأس الزاوية العائلية) للتفاوض مع أصحاب الحصن لأن الألغام لم تؤثر في ثخانة الأسوار كما أن الأمطار خسفت النقوب وضعضعت النفوس، وبرد الشتاء وهَجَمات القبائل الموالية للتيجني هدّدت مؤن المهاجمين وأرزاقهم بالنفاد، وكان الفرنسيون والإقطاعيون وزعماء القبائل يتوقّعون نقاط الضعف هذه.

«منح العفو للسكان شريطة أن يتركوا المدينة ويذهبوا للإقامة حيث شاؤوا في أمكنة أخرى، فخرجوا كلّهم، وذهب التيجني وحريمه وأولاده إلى الأغواط الغرابة، وبقي ابنه البكر رهينة بين أيدينا.

الحمد لله الذي أيّدنا بنصره على من ناوأه ووقانا الشرّ والضرر»

يغيّر عبد القادر النغم، وكأنّه يريد توقّي الخطأ، ويهتف في تعزيم مأساوي شاكياً عزلته وشكوكه.

«أيها المسلمون صلّوا من أجل سلطانكم.

إنّه لايعمل إلا من أجل سلامتكم. فافرحوا وتهللوا واطلبوا من الله أن يقويه ويوطّد سلطانه. وثقوا برحمة الله، واتلوا سورة آل عمران وخاصة الآيات:

﴿قُل اللهم مَالكُ المُلك﴾

﴿تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾

﴿وتعزّ من تشاء وتذلُّ من تشاء﴾

﴿بيدك الخير، إنّك على كل شيء قدير﴾

﴿تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل﴾

﴿وتخرج الحيّ من الميت، وتخرج الميت من الحيّ وترزق من تشاء بغير حساب﴾

﴿لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾

(٣، سورة آل عمران، ٢٦ ـ ٢٨).

السنة الرهيبة ـ ١٢٥٤ هـ/١٨٣٩م

في ٢٤ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٣٨، وهو يوم العيد الصغير أمّ عبد القادر الصلاة في سفح جبل عامر، وقرّر أن يدمّر عين ماضي بتاريخ ١٢ كانون الثاني ـ يناير ١٨٣٩، وأن يخضع قبائل المنطقة. واحتفظ الأمير بابن التيجني رهينة بينما لحق التيجني بالأغواط الغرابة حيث تمكنَ أن يؤمّن على عائلته وأمواله.

وتمكّن أن ينتقم بقسوة فيما بعد، وغدت التيجانية أخوية قويّة حتى خارج حدودها الجزائرية.

قام عبد القادر بمعاقبة بني عرّاش بشدّة فهدم معسكرهم في جنوب شرق مسكرة بعد أن سار إليهم خلال أربع ليال على رأس خمسة آلاف فارس، وحصّل منهم عُشر وزكاة خمس سنوات فائتة: أربعة آلاف جَمَل، وثلاثين ألف خروف ونعجة. ساد السلام أخيراً، وقبل أن ينقض الفرنسيون معاهدة تفنا، اعتبر الأمير مهمته قد انتهت، وكتب عند ذاك إلى سلطان مراكش رسالة غريبة:

يتمنّى فيها مرّة أخرى أن يعود إلى كتبه، وورعه، ودراساته، وسلوك الحكمة على طريق الله.

ليس ثّمة ما يدهش. ألم يُعلن دون انقطاع رفضه لمُلك دنيوي؟ كما أنه سيرفض فيما بعد وبالطريقة بذاتها سلطنة عربية يقدّمها له الفرنسيون سواء في الجزائر نفسها أو في بلاد الشام... وقد كتب:

«إن الشعب الجزائري قد نوحّد الآن، وطويت راية الحرب المقدّسة، وغدت الطرقات آمنة وسالكة، وهُجرت العادات البربرية واستهجنت. ويمكن للفتاة الشابّة الآن أن تجتاز وحدها البلاد من الشرق إلى الغرب، في الليل أو النهار دون أن تتعرّض لمكروه. وغدا الرجل لايفكّر بالانتقام من قاتل أخيه حتى لو صادفه منفرداً بل يطلب من السلطات أن تجري العدالة في مجاريها.

إن كتاب الله تعالى وشريعة نبيّه ﷺ هما السائدان. ومخزون مؤن الجيش وافر، كما الرجال الذين يشكّلون كتائبه. وكل هذا بفضل النعمة الإلهية التي حظينا بها بفضل صلواتنا؛ وبفضل مساعداتكم. ولولا ذلك لكنا عاجزين عن تحقيق مثل هذه النتائج.

لم يخطر ببالنا يوماً أن ننزع إلى الحكم طمعاً، أو زهواً، أو حبّاً بالسلطان، أو أباطيل هذا العالم؛ ولكن والله يعلم ما في خفايا الصدور، لإعلاء كلمة الله، وحقن دماء المسلمين، وحماية أرزاقهم، وإحلال السلام في البلاد وفقاً لشرعة الإيمان بالله والوطن.

كنا على الدوام في نشاط لاينقطع، ليلاً ونهاراً، ننتقل عبر كل أرجاء البلاد طولاً وعرضاً، في الجبال كما في الوديان نقود المعارك مرة، وندير شؤون الحكم أخرى.

أرجو الآن من سيادتكم أن ترسلوا أحد أبنائكم، أو أحفادكم، أو من تثقون به من رجالكم، ليأخذ بيديه هذا الأمر بعد أن استتب الأمن في الوقت الحاضر وارتفع الجور وانتفى من أي مصدر كان، وسأكون أول من يمتثل لحكمه، وأضع قدراتي المتواضعة لإعلامه وتقديم النصح له.

إنني أطلب أن ترى في هذه الرسالة، بروح التسامح المميّزة لكم، رجاء لإعفائي من الأعباء التي تثقل كاهلي.

أرسل لسيادتكم بعض الهدايا التي قدّمت لي من ملك الفرنسيين ـ ولم أحتفظ منها

إلا بطبنجتين ـ كما أرسل بعض الخيول من الأصائل الجزائرية، والتقدمات الأخرى المفصل بيانها في القائمة المرافقة.

أرجو أن تقبلوا اعتذاري وآمل أن أتلقى مايشعرني برضاكم وموافقتكم. يحمل هداياي أخي الذي أنبته عني ليتشرف بمقابلتكم وتقديم فروض الطاعة ودلائل الإخلاص من ولدكم وخادمكم.

عبد القادر بن محيي الدين.
غرّة شهر محرم ١٢٥٤

من المؤكد أن تكون هذه الرسالة قد أعيدت كتابتها بالصيغة التي ذكرت أعلاه وقدمت لشرشل فيما بعد. لكن لايمكن أن نشكّ بصراحة الأمير وصدق نيّته، فهو يتوقّع من السلطان أن يخونه، وهو يعرف أنه راغب في أن يحظى بهذه السلطة لنفسه إن نشأت صعوبات جديدة. لكن مايلاحظ عبر هذا التحليل الشاعري الساذج قليلاً للأوضاع في الجزائر أن عبد القادر يقلّل من أهمية الاستعمار الغربي ولايعرف تماماً قدره... وعلى كل حال فإن الله قد قدّر شيئاً آخر بالنسبة له.

أما سلطان مراكش فلم يعرف كيف ينظر إلى هذا الالتماس فأجاب عليه متغافلاً كليّاً مضمونه بإحدى هذه الرسائل الغامضة التي يعرف أسرارها السياسيون وحدهم، ويستنتج منها أن كفاءة الأمير تتطلب أن يستمرّ ـ مع إدراكه لحدوده ـ وأنّ مثاليته يجب أن تعلن للجميع... أو بالعكس، لعل السلطان أدرك المضمون الخفي العميق الكامن في السطور. إنّ عِلْمَ الله فوق عِلمِ كلِّ عليم!

١٨٣٩ منطقة القبائل وأشجار كرز ايشردين

كان عبد القادر يخبّ بفرسه عند السفوح مع رقة النسيم التي تجعل الإخضرار الربيعي أكثر طراوة، فأزهار أشجار الكرز البيضاء ونوّار وزال تيزي أوزو الأصفر تسكب في الجو عطورها الفوّاحة، وهو يرى في كل مكان على القمم القرى الصغيرة والنساء في ثياب حمر وذهبيّة، وأشجار التين تنتثر بالعشرات في البساتين الصغيرة المعلّقة على المنحدرات، وغابات السنديان على مدّ البصر، وبين وقت وآخر فرجة تظهر منها في الأسفل زرقة البحر، أمّا إن توجّه النظر إلى الأعلى، فالثلج الأبيض يكسو قمم جُرجُرة. كان عبد القادر يتسلّق، وينزل ويصعد، يحاذي الجداول، ويمتطي السفوح والخيل تتصبب عرقاً. ويتوقّف ويتحدّث ويستمع، والرجال يتداولون فيما بينهم

حسب عادات منطقة القبائل. والسهرات تمتدُّ إلى ساعة متأخرة بحماس، فكل يعطي رأيه، والجميع يعرفون خطورة الوضع.

قال عبد القادر: لم يترك الفرنسيون بلادهم إلا ليغزوا وليستعبدوا بلادنا، ولكنني الشوكة التي غرزها الله في أعينهم، فإن تساعدوني سأرميهم في البحر غير أن استمالة منطقة القبائل وتأييدها لسلطة الأمير يصطدمان بأعراف سياسية للسكان والقضية ليست سهلة كما كان يؤمّل.

قال لخليفته السي أحمد بن سالم الذي تركه في المنطقة: إذا مدّ الله القوي القادر في عمري فتأكّد أنني سأعرف كيف أقوّم يوماً السير الملتوي لهؤلاء القوم الجبليين.

هنا أيضاً عطفة في الزمان والمكان: فهو لايعلم إن كانت منطقة القبائل ستدعمه وستقاوم حتى نهاية الاستعمار، وحتى بعد رحيله، وسيكونون أوّل من يجدّد المعركة بعد ذلك بنحو قرن.

لم يستطع الأمير في العام ١٨٣٧ الدخول إلى القبائل إلّا بموافقة السكّان من أجل معاقبة الزواتنة وهم مجموعة عسكرية وزراعية من أصل تركي انضمّت إلى الفرنسيين، ثم جاء زعماء القبائل في العام ١٨٣٨ إلى معسكر بوخشرفة قرب مليانة ليعقدوا اتفاقاً مع عبد القادر ليس كقبائل تلتمس العون أو تعلن خضوعها إنّما من أجل الدفاع عن حرياتها كما ردّد ابن سالم بنفسه، ثم كانت هذه المنطقة وقبائلها إلى جانبه في الصراع، العام ١٨٤١، والعام ١٨٤٦، دون خور أو ضعف، في الأوراس، وسُوف، وبسكره، وهُدنا، وبيبان.

كان عبد القادر يتجول في المنطقة مصحوباً بهؤلاء الجبليين الأباة الذين يحمونه دون أن ينضموا كليّاً لشكل الدولة التي يقترحها عليهم، ويجتاز قمم جُرجرة الثلجية، ويصل إلى بجّاية ثم إلى شبه الجزيرة ويصعد وادي الصمّام ليصل إلى جيجل. يجب عليه الآن أن يذهب إلى الجنوب ليخضع بسكرة، ويهزم أحمد باي[1] الذي سيضطر إلى اللجوء إلى الصحراء، وهناك أيضاً يجب معاقبة الخونة، وإزاحة الاقطاعيين الذين تعاونوا مع الفرنسيين.

اضطَرب عبد القادر لأن المعارضة التي يصادفها، وإن أدّت إلى النتائج ذاتها، فإنها

١ ـ ليس هذا رأيي فباي قسنطينة ومعاونه أبو عيسى كانا من المقاومين الحقيقيين للاحتلال الفرنسي.

ليست من الطبيعة ذاتها التي عرفها لدى قبائل الغرب. ومرّة أخرى استرجع في ذاكرته رأي ابن خلدون الكبير وتاريخه عن البربر، لكن الوقت تداركه بمناوشات الفرنسيين له.

غريب أمر شعب هذه القبائل الفوضوي والمخلص.

كان ابن سالم طيلة مسيرته الرهيبة وإخلاصه المطلق للأمير يبرهن عن وعي نادر للواقع السياسي قلما يصادف في رجل بمثل شبابه. والواقع أنه من عائلة مرابطين محترمة، وهو نفسه عالم مقدّر حكيم، ويستشير دائماً أتباعه، وخاصة ابن زقون قائد المنطقة القوي.

ويذهب الأمير ليقاتل في أماكن أخرى، ويؤكّد السي أحمد بن سالم في كل مكان من منطقة ولايته[1].

«لاتستسلموا للانخداع، ففرنسة أمّة قوية، ويجب أن تعرفوا أنها لم ترسل جيوشها إلى هذه البلاد إلّا لتستولي عليها كلّها. فهي لاتنفق كل هذا الذهب وتضّحي بكل هذه الدماء إلا لتستعبدكم الواحد بعد الآخر. أما بالنسبة لي فهي تكاد لاتشعر بوجودي. وليس من وسيلة لإيقاف الغزاة إلا بأن تهاجموهم موحّدين ودون تهاون، وتعاقبوا الخونة الذين ارتضوا النير دون مقاومة.

لكن عبد القادر لم يتسن له الوقت لحلّ مشكلة الشرق الجزائري، فقدره ينتظره في الغرب. كما لم يكن للأمير أبداً الوقت ليهتم بالنساء ومواكبهن، مع أن العديدات حاولن جذب انتباهه إليهن بل إن بعضهن حاولن إغراءه صراحة، وهن يوجهن إليه نظرات من أعين سوداء كمقلة غزال مطارد وقد تُحصر فجأة خلف ثنية كثيب. فخيّرة وحدها تشغل فكره، غير أن يدي ابنة ابن سالم عائشة الشاقيّة وهما تتموّجان كجسمها الراقص طوّقتا خصره، فجذبها إليه، وتبعته دون أن تغض من طرفها، بل راحت تخشخش بخلاخيلها وبعد فالنبي بالذات ﷺ قد انجذب إلى عائشة ابنة صاحبه أبي بكر الصديق.

١ ـ هذه الرسالة موجودة في وثائق شرشل وآزان وسهلي.

الفصل الخامس
النقض الغادر في العام ١٨٣٩
من العاصمة الثابتة إلى زمالة عبر حرب العصابات

في مطلع شهر تموز - يوليو ١٨٣٩ اجتمع كافة ممثلي القبائل مع خلفاء الأمير في طازه: كان عبد القادر مكتسياً قفطان الولاية الذي أرسله إليه مولاي عبد الرحمن سلطان المغرب إشعاراً باعترافه به نائباً عنه. وبعد انعقاد المجلس الاستشاري، أعلن الجهاد: ومنذ الإشارة الأولى غزيت متيجه وهدمت المنشآت الفرنسية فيها. استشار عبد القادر العلماء المراكشيين لأن التناقضات حول دولته المعيارية الإسلامية تتزايد في منطق رجال القبائل.

كلف السلطان عبد الرحمن مشرعيه بالعمل وأصدر هؤلاء دراسة مفصّلة حقيقية للسياسية القبلية في منظور الشرع[1].

أجاب القاضيان علي التسولي، وعبد الهادي العلوي مطوّلا عن أسئلة الأمير حول سلوك الحرب، وفي العقوبات الواجب تطبيقها على العصاة، والواجبات المترتبة على مختلف الطبقات. لكن المشاكل لا نهاية لها، وهي دائماً متشابهة: المزاب يعلن العصيان على الأمير، وجماعة بن غانا على رأس إقطاعيي الجنوب ترسل خمسمئة زوج من الآذان المقطوعة كبادرة ولاء للجنرالات الفرنسيين، والفلاحون لايدفعون بسهولة الضرائب، والشرق بعيد عن الرقابة، وقد عمّ الجوع والمرض في كلّ مكان.

استشار عبد القادر الأخوة، وحتى العالم الصوفي المراكشي الكبير الحرّاق قبل أن يلتفت نحو القاهرة، لأنه لايعلم إلى أي وليّ يتشفّع بعد أن تناوبت الانتصارات العرضية وعوامل القنوط مع موكب لاينقطع من المصائب والنكبات وقبسات أمل كشعاع شمس.

---

١ - ليس الغرض هنا معالجة هذا الموضوع الذي عرض بشكل كامل لدى لاروبي وبرك. وبالمقابل من المفيد أن نذكر القراء الفرنسيين أن هذا النقاش يبرهن دون أي شك، وبعكس الدعاية الاستعمارية، والتاريخ المكتوب من قبل المنتصرين أن القضية السياسية قد عولجت من قبل ممثلي المغاربة في ذلك العصر، وأن عبد القادر يعتبر فعلاً مؤسساً لدولة حديثة.

أرسل مولود بن عراش وبن دوران إلى باريس مع ستة أحصنة هدية لملك الفرنسيين وخاصة من أجل توضيح تفسير معاهدة تفنا: لكن هذين الرسولين لم يحظيا بشيء موثوق، إضافة إلى أن بن عرّاش وقّع على وثيقة أعدّها المارشال فاله Valee مما أغضب عبد القادر فصرّح غاضباً:

ـ لن أوافق أبداً على اتفاق يعطي الفرنسيين طريقاً برّياً بين قسنطينة ومدينة الجزائر، فأخسر بذلك المزايا التي كسبتها بإهمالهم، ووضع مدينة الجزائر في دائرة مغلقة تتشكّل من البحر والشفا وقمم الأطلس المشرفة على وادي القدرة.

شُغل مطلع السنة بكامله في مساومات حول هذا الموضوع، وكتب الأمير عدة مرّات إلى الملك، حتى إلى الملكة، ثم إلى تيير، وإلى ڤاله؛ واستقبل عدة مبعوثين لكنه بقي ثابتاً في موقفه: رفض التخلي عن أراضيه حتى الحدود التونسية ورفض القبول بالانتهاكات المتكررة للمعاهدة من قبل الفرنسيين. وهكذا فإنه منع قنصله الإيطالي غارافيني (وهو في الوقت ذاته قنصل الولايات المتحدة الأمريكية!) من الاهتمام بشؤونه. وكتب الأمير مرة أخرى ليحتج، ولكن الأمر الأسوأ كان قد تهيّأ: فقد عبر ڤاله ومعه الدوق دورلنان أبواب الحديد في قلب المنطقة المتنازع عليها: البيبان.

رمضان ١٢٥٥ هـ/ ١٨٤٠ م

لم يُقرّر عبد القادر إعلان الحرب إلّا بعد أن أعلم سلطان مراكش، ودعا جميع رؤساء القبائل، والعلماء، وأنذر العدو نفسه في رسالة حملها بن دوران إلى المارشال ڤاله في تشرين الثاني ـ نوفمبر.

«السلام على من اتبع طريق الحق.

وصلتنا رسالتاكم الأولى والأخيرة، وفهمنا مضمونهما.

سبق أن كتبت لكم أن جميع العرب من الأدنى حتى الكفّ متفقون لخوض الحرب المقدسة. وعملت ما بوسعي لثنيهم عن تصميمهم لكنهم أصروا عليه. ما من أحد يريد السلم، وكل واحد يتهيّأ للحرب، لذلك يجب أن انضمّ إلى الرأي العام تقيّداً بشريعتنا المقدّسة. إنني أتصرّف باستقامة معكم وأنذركم بما حدث.

أعيدوا لي قنصلي في وهران ليلتحق بأهله.

كونوا مستعدين. فجميع المسلمين يعلنون الحرب المقدسة.

لن تستطيعوا مهما حدث اتهامي بالخيانة، فقلبي نقي ولا أقوم بأي عمل مخالف للعدالة».

اطّلع عبد القادر أيضاً على التناقضات الفرنسية لأن روش خاصة ترجم له مقالات الصحف وعلّق له عليها وكذلك الخُطب الملقاة على منبر المجلس النيابي: وقد بدَّلت فرنسة في تلك الفترة حكومتها ثلاث مرات، مما أطلق أيدي العسكريين حرّة في الجزائر... فأزان AZAN نفسه يتذرّع بأنّ «غير الأكفاء في الداخل كانوا المساعدين الحقيقيين للأعداء في الخارج...» دون أن يفكّر بأنه ينحاز إلى نظرية عطفة الزمان - المكان الأثيرة لدى الأمير: لنكاد نسمع تصاريح الضباط الانقلابيين في ١٩٥٨ - ١٩٦٠[1]..

في هذا الشهر من رمضان ١٢٥٥ هـ، كان جميع الخلفاء على رأس فرق فرسانهم النظاميّة ينضمون إلى القبائل لينقضوا على ميتيجه؛ وكانت أعمدة دخان الحرائق تلوّن السماء والأرض تشرب الدم إلى أن تتقزّز.

عسكرت قوات الأمير حول مدينة الجزائر وأراد الفرسان أن يرووا عطش خيولهم من ينابيع باب الواد. لكن كرات المدافع من حصن بوداوو حصدت المهاجمين القبليين؛ عندئذ أخذ عبد القادر طريق الجبال المشرفة على بوفاريك وبليدا، حصل الفرنسيون على إمدادات كبيرة، وأراد عبد القادر أن يجرّ ڤاله إلى خوانق الشفا نحو مُزيعة لأنّه مسيطر على جميع القمم وفرسانه الثلاثون ألفاً عدا الجند غير النظاميين ينتظرون الجيش الفرنسي المجدّد القوى... ودخل ڤاله فعلاً الخوانق (وكان ذلك في شهر نيسان - ابريل ١٨٤٠، والوادي لم تزد مياهه من ذوبان الثلوج، ولكن أمام دهشة الجميع أطلق فرقه تتسلق السفوح الوعرة بدلاً من سلوك الوادي، ووصلت القمم مع بعض الخسائر، ودارت معارك رهيبة في تلاحم الفريقين، وفي ١٢ أيار - مايو ١٨٤٠ كانت هزيمة جند عبد القادر جلية، فقد استولى الفرنسيون على مديا ودمروها. وجلا العرب عن ميليانا.

استخلص عبد القادر نتائج جليّة، لايمكن للجيش الجزائري أن يقارن بالجيش الفرنسي في تقاناته، وعلى الجزائريين أن يناوشوا، ويخلوا الأرض، ويعودوا إليها

١ - هم الضباط الذين أعلنوا التمرّد في الجزائر على الحكومة الفرنسية عقب مفاوضات الجزائريين على الاستقلال (المترجم).

فجأة، ويمنعوا الاتصال بين الحاميات، ويقطعوا تموينها، ويهاجموا القوافل ويحرفوها عن مسارها، وينهكوها في هجمات مفاجئة، ويرموا الرعب بين الجنود الفرنسيين دون أن يتركوا لهم فرصة استراحة بهجمات مفاجئة وغير منتظرة في كل مكان وكل وقت.

حرب العصابات

قال عبد القادر لخلفائه: يا أصحابي فليترجل الجميع، سأصل غداً مع الفجر، وسنجرّب تكتيكاً حربياً جديداً.

ونقل الأمر، واهتزّت الطوابير، وراح عبد القادر يجري بفرسه وسط الرجال.

ـ المس ذنب حصانك، ودعه يقفز على قائمتيه، هيّا، وبسرعة! انطلق، أسرعوا الجري.

وفي هرج ومرج مغبّر وروائح الجلد والشعر تختلط بروث الجياد وأعشاب الأرض. تهبّ الكتائب وتصلُّ السيوف وتهتز حمّالاتها، ويردُّ الرجال أحمالهم على أكتافهم وهم يتصايحون، بينما تتصادم الخيول قبل أن تنتظم في صف واحد، وتضرب الأرض بحوافرها، وتدور في أمكنتها، وتتبلل بعرق أبيض بين سيور الركاب، وتروث، وتحمحم. ويقف عبد القادر على ركابيه ويشير بإصبعه إلى السماء ويصيح:

ـ الله أكبر.

وتردّد ثلاثة آلاف حنجرة: الله أكبر.

ويجري عبد القادر إلى طرف الطابور ويبتعد حتى ٣٠٠ م ويرتد هاتفاً:

ـ ومحمد رسول الله.

ويرد الرجال وقد غطّت أصواتهم على جلبة الخيل.

ـ ومحمد رسول الله.

ويجري الرجال خلف الخيل وقد تعلّقوا بأذنابها، يجرون وقد أغمضوا عيونهم، ويثبتون البنادق التي تترجّح، يجرون وهم يلعنون السلطان، وهم يفكّرون بحليب النوق، يجرون، يجرون إلى أقدارهم.

قفزات صغيرة، دعسات صغيرة، تدريب ساعة، يوم.

الله وحده يعرف الساعة متى تأتي.

سبحان الله!

ويسير عبد القادر على رأس الطابور الممتد إلى كيلو متر، ويصلي الأمير

ـ هيا يا صاحبي. اجعلهم يقفزون فوق الخيل وهي جارية.

مضت أكثر من ساعة والركب يسير، والغبار يخترق الوادي بين أشجار السنديان والعرعر بضجة صماء، والقمر يظهر ويختفي بين غيوم كبيرة تشبه الجنّ المنتفخة الوجوه. ويصل الموكب إلى أعلى القمة، ويلتفت عبد القادر نحو رجاله:

ـ على استقامة واحدة! هيا أيها الفرسان إلى سروج خيولكم، وكلٌّ يرقد فوق حصانه. هيا يا صاحبي، ضع حارساً على كل كوكبة ليلتقط الفرسان الذين سيسقطون، وسيجرون من الخلف للحاق بنا.

ويردّد الموكب: يا الله، يا الله.

ـ هيّا، هيّا، استقم.

ويعود عبد القادر يتمتم وهو يفرد سبحته.

ـ يا معلم يجب أن تبدّل حصانك.

ـ إنك تزعجني يا صاحبي، ألا ترى أنني أصلي.

ساعة أخرى.

ساعتان، وتخفّ الحركة، فحتى الخيل تنام وهي سائرة، ورأسها يكاد يلامس الأرض، والمقاود حول عنقها. وقبل ساعة من بزوغ الفجر يعطي عبد القادر الأمر بالتوقّف. يلزم عشر دقائق لجمع الرجال والخيل.

ـ فليحضّر الرجال إفطارهم، أو فليناموا، ولكن بدون نار، وليُغطوا الخيل جيّداً. ويجلس عبد القادر، وسبحته في يده، ويرسم باليد الأخرى بطرف قضيب على الرمل، قبل أن ينجلي في ذهنه مخطط المعركة القادمة. ويلتفت إلى الرجال وقد أقعوا من حوله بينما الخدم والتابعون يفكون الأحمال ويرفعون السروج: فلنشكر الله لأنه جعل منا قوة صحراوية وليست تليّة. في ذات صباح، صادف أحد أصحاب الرسول ﷺ، النبي وهو يمسح بعباءته على رأس جواده. فسأله: «لماذا بعباءتك يا رسول الله؟» أجاب النبي ﷺ: ماذا تعلم؟ قد يلومني الملاك جبريل بسبب هذا الحصان، هذه الليلة،

أتريد أن يكون كل الثواب لك، لأن الملاك جبريل أخبرني أن كل حبة شعير تطعمها لحصانك تعد لك حسنة».

والآن، استمعوا إليّ يا خلفائي، يا ابن سالم، خذ خيولاً مستريحة مع ساعيين وانطلق أمامنا، وبلّغ سكان المزارع وجوب قتل جميع كلابهم. فلا أريد أن يدري الفرنسيون بانقضاضنا عليهم... وتذكّر: «إن القطيع الذي يترك آثاراً يكون فريسة للذئاب...» والآن، هيا انطلق.

انهمك الفرسان والجنود الذين وصلوا زرافات زرافات في شؤونهم، وأخرج كل واحد قليلاً من القمح المجروش ومزجه بالماء، وتناول بعض منهم التمر المرتص وقام آخرون بتنظيف حوافر خيولهم، بينما راح السوّاس يوزّعون بعض علفات صغيرة من الشعير واللبن الممزوج بنبات عطر، وقام البياطرة بفحص للخيل للتأكد من سلامة حدواتها وعدم تخلخل مساميرها، وضبط رواحلها وأعنتها.

قام بعض الخدم بمدّ بعض الأبسطة ونصب خيمة صغيرة قرب شجيرة. ورفض عبد القادر بإشارة هادئة من يده الطعام الذي أعدّه له أحدهم.

- يا معلم.

- أنت تزعجني يا صاحبي، فهل لدي وقت للنوم؟

- لكننا سبقنا معتمدينا بأربع ساعات، أيّ علف نعطي للخيل؟

- سنرى ما تبقى.... فالحصان يسير بعلف المساء لا بعلف النهار. وكان معلمي في الفروسية يقول لي في كل مرّة يراني أعطي بعض العلف لفرسي الموجزة تلك التي يشبه صهيلها القصائد المنغمة: «إن علف الصباح يذهب إلى المزابل أما علف المساء فإلى تنشيط القوائم. عبد القادر، يا معلمي الشاب، متى ستنتهي من إفساد خيولك؟! في يوم ما سترى أنها بحاجة لتبذل جهوداً كبيرة، وستجرّ بطونها على رمل الصحراء المتموج حيث يسهر الشيطان» وبالمقابل يا صاحبي فعلينا خلال ساعة أن نقطع ثلاثة فراسخ. أترى، إن الميزة الوحيدة التي نتفوق فيها على الفرنسيين حالياً هي سرعة مطايانا؛ إن خيولهم بدينة، وعرباتهم تترجّح على دروب لايعرفونها، وطالما استعصى على الخونة - لعن الله هؤلاء الكلاب - ارشادهم إلى الدروب، فسأفاجئهم كالصقر. إن أكبر أعداء الحصان الراحة والسمنة.

بدأت أشعة الفجر تلوح في الأفق.

اتخذ عبد القادر الوضع الشعائري على سجادة صلاته. وفي غمغمة كبيرة عمّمت القمم والوديان سجد الرجال متوجهين نحو الشرق وأيديهم مرفوعة نحو السماء ينتظرون إمامهم. وبدأ الأمير التضرّع بصوت عال وآلاف الحناجر تردّد بعده.

ـ لا إله إلا الله.

ويسجد كل منهم وفق فريضة الصلاة: ركعتين حتى يلامس جبينه الأرض، وترتفع التمتمات بالشعائر وتمتد الأيدي وتنشدُّ الأجساد، ويتضرع الأمير بعض دقائق إضافية بينما ينهض فرسانه، يرخون عضلاتهم، ويتحققون من عدّتهم ورواحلهم قبل أن يمتطوا السرج.

ـ اللهم هذه المعركة عادلة وأنت خير العالمين، ولن يتحقق نصري فيها إن لم تحطه بعلمك الكلي. آمين، هيا يا رفيقي، يا حصاني، هيّا. ويضع عبد القادر يده على صدر حصانه الأشقر قائلاً:

أوه أيها الأسكُوب، أنت السريع كالماء الجاري، يا من تحمل اسم الحصان الأثير لدى سيدنا محمد ﷺ، صُنّي ممن هم أمامي، وسأصونك ممن هم خلفك. ويقفز إلى السرج بحركة واحدة حتى دون أن يمسك بقربوسه. كان وسيماً، نحيلاً لكنه قوي، ودثاره قد ارتفع في وثبته، وسبحته في يده، ويلمز حصانه فينهض على قائمتيه الخلفيتين قبل أن يثب بالأماميتين ويجري مسابقاً الريح، ويرفع عبد القادر زراعه إلى السماء هاتفاً:

«الله أكبر!».

كان الفرنسيون مايزالون نياماً في الوادي، والجنود الأوائل الذين استيقظوا يوقدون نار المخيّمات، لكن الخيول بدأت تحمحم، فقد شعرت بمجيء العدو ومايزال غير منظور خلف القمم المتعرّجة.

بعد المعركة، وهذا القتال مجابهة، بالطبنجات، والسيوف، والحراب؛ كان الفرنسيون في حالة من الضنى لم يتمكنوا فيها من اللحاق بخصومهم. وانطلق عبد القادر وحصانه يسابق الريح، نحو قمة أخرى، بعد أن اجتاز وادياً جديداً، ويعود منهوك القوى إلى معسكره الأساسي، لكنه مايزال يتمتع بالقوة، وهو يلتحق بالقبائل ليحرّض الفرسان على هذه الألاعيب على متون الخيل التي سيسميها الفرنسيون: «الإرماح Fantasia».

ويصعد بوجو إلى منصة المجلس ويهتف:

«هل تعلمون أين تكمن قوته؟

إنّها في تعذّر اللحاق به، في المدى، في حرارة شمس أفريقية، في فقدان المياه، في بداوة العرب، إن جاز لي التعبير هكذا هو ذا أين تكمن قوته...».

أمكن للمارشال أن يحصل على صلاحيات مطلقة وجدّد مكافحة حرب العصابات دون شفقة. وفي ٢٢ شباط ـ فبراير ١٨٤١ سمي حاكماً عاماً للجزائر: وبدأت الحرب النهائية.

إن العرب لايحملون مؤناً معهم، فلماذا يفعل الفرنسيون ذلك في هذه القوافل الطويلة والثقيلة والبطيئة التي تهاجم وتنهب باستمرار؟

وفهم بوجو مايجب فعله وغيّر من تكتيكه: أولاً عليه أن يكتشف الأهراء المخبوءة في كل مكان والمستخدمة كاحتياط لدى العرب؛ ثم الإغارة على هذه الأهراء، وإتلافها أخيراً، إتلاف كل شيء، مسحها وحرقها وقد كتب فيما بعد:

«دامت الحرب نحو ست سنوات، ويمكن أن نتساءل: من يجب أن يحظى بالمزيد من إعجابنا: جنودنا البواسل الجلودون؟ أم الرجل الذي صمد أمام جيش من مئة وستة آلاف مقاتل؟ وانزلق بين طوابيرنا وضرب القبائل خلفنا وعن جنبينا، وأفلت منا في اللحظة التي خلنا فيها أن ما علينا إلا أن نمدّ اليد للقبض عليه، فأتعب فرقنا في مناوشات مستمرة، وكان مواظباً على تكتيك لايقهر من أجل سحقها الواحدة بعد الأخرى سواء بإنهاكها أو بالنار».

يجب إذاً ابتكار وسائل جديدة لحربه؛ وجّه إليها النقد العنيف عبثاً النائبان لويس بلان وتوكفيل، ولكن فخر بها كلّ جامعي الآذان المقطوعة والرؤوس في دَفْق مراسلات تترك القارئ منذهلاً.

وإلى مونتانياك الضابط الشاب على رأس «جوّالي الموت» يكتب المارشال: «إليك يا صديقي الشجاع، كيف يجب القيام بالحرب ضد العرب! يجب قتل جميع الرجال حتى من هم في الخامسة عشرة من العمر، وجمع النساء والأطفال وحشدهم في مراكب ترحل بهم إلى جزر مركيز[1] أو غيرها، وبكلمة واحدة إفناء جميع من لاينبطح أمام أقدامنا في خضوع الكلاب».

---

١ ـ أرخبيل جزر صغيرة ـ أكبرها تاهيتي ـ في المحيط الهادئ كانت مستعمرة فرنسية.

لكن قبل الوصول إلى هذه المرحلة ـ وكانت فرنسة منقسمة في هذا الشأن حتى أنها غيّرت حكومتها ثلاث مرّات خلال تلك الفترة ـ وجب على الجيش أن يتعامل مع الأمير الذي يتحكّم بثلثي البلاد بعقد اتفاقات معه من قبل جنرالات قليلي الخبرة، لصوص وكذّابين، ثم دفعه بنقضها إلى العودة للمناوشات والحرب. فالأرملة بوجو قد أحرقت أوراق زوجها المتوفى وهو عضو مجلس الأعيان عن منطقة بريغور، لكن هذا لم يحل دون إثارة فضيحة تلقيه ١٨٦٠٠٠ فرنك ذهبي ابتزها المارشال ـ الأب الصغير ذو العمرة ـ من عبد القادر، إنّما دون أن تؤثر على سمعته، وصورته المميّزة. رسا بوجو بعد تسميته حاكماً عاماً للجزائر في العاصمة الجزائر مع وَلَدي الملك وعلى رأس جيش من مئة ألف جندي؛ إنّه سيغيّر وجه العالم العربي المغربي ففرقه الجهنمية ستجوب البلاد لتدمّر وتحرق وفق خطة مرسومة المحاصيل وتشتّت قطعان المواشي، وتمنع العرب من الزراعة، وتقطع الأشجار بالآلاف وتعزل الناس، وتجوّعهم.

ويهاجم بوجو مع لاموريسيير، وبيدو، وشانغارنيه، عواصم الأمير، وتحيط به مجموعة ضباط تمرّست بالحرب وهي تعرف العربية، ويتلحق ليون رشو بيني عامر، ويهاجم الجيش تَكَدمت فيتركها الأمير بعد إحراقها، ومن أعلى الهضاب المحيطة بعاصمته التي بناها وعني بها بكل صبر، راح ينظر إلى الخراب وهو يفكر بتكتيكه الجديد، وبعاصمته المتحركة؛ يجب عليه أن يردّ على بوجو في ميدانه بالذات؛ إذ أن جميع المدن تسقط الواحدة بعد الأخرى: بغار، مسكرة، طازة التي دمرت ومثلها سعيدة؛ قريباً ستؤخذ تلمسان، وحتى سيدو على الحدود المراكشية. ولن يبقى لعبد القادر إلا مرفأ تِنِس بينما بوجو يلهو كحرّاث في سهل إغريس ويوسف يهدم القيطنة بلدة محيي الدين.

ويتغلغل عبد القادر بعيداً في المنطقة الوهرانية، ويفلت من الفرنسيين، ولئن كان بعيداً عن متناول أيديهم، فقد راحت القبائل تتخلى عنه أمام كل هذه المصائب، وبعد أن جاعت، وضاعت، وسحقت، وطوردت، وعذبت، وأحرقت ديارها... ويقترب الشتاء، والأهراء فارغة، والحيوانات ضامرة، والنساء جائعة معزولة، والشيوخ مهجورون من الجميع. والله يعلم أن ذلك الشتاء من العام ١٨٤٣ كان شديد القسوة: ويسير عبد القادر في قلب العاصفة، متلفحاً بيرنسه الذي أثقلته الأمطار والثلوج والأوحال؛ والخيل

لاتستطيع التقدّم إلا بصعوبة، إذ يجب تنظيف حوافرها باستمرار ولفّها باللباد، وإحاطة قوائمها بخرق تتجلّد عليها، والرجال منهكون جائعون والقواد يتمرّدون ويهربون لإنقاذ أهلهم وأرزاقهم.

الوسيطة مركز المغرب في طريقها لتجهض كجزائر حديثة، وماهي الآن إلا تضرّع لمن جلّت تسميته:

لاحَوْلَ ولا قُوّة إلا بالله العلي القدير.

اللهم أنت سيدي ومولاي، لا إله ألا أنت.

أنت خلقتني وأنا عبدك.

ويكتب الشيوخ المرتعبون إلى بوجو:

ـ أي تفكير يمكن أن يدفع فرنسة لتأتي وتثير الحرب في بلادنا؟

تقول إنك تمثّل أمّة قويّة قادرة، ألا تكفيها أراضيها؟

إن الأذى الذي تعتقد أنك تلحقه بنا ليس إلا كأس ماء نزح من بحرا!

ويقول الحَشْم لبوجو:

ـ سنقاتل عندما نرى الأمر واجباً، وأنت تعلم أننا لسنا جبناء. وحتى لو بقيتم في بلادنا قروناً كما بقي الأتراك فيجب أن تعودوا يوماً ما من حيث أتيتم.

«احفظ الميم، والميم تحفظك» يقول أحد أمثالنا؛ هل يتأثّر موج البحر إن رفّ عليه طائر بجناحيه؟ هوّذا صورة مرورك في أفريقية... احفظ الميم، والميم ستحفظك: هذا هو أول حرف في الرفض... وفي تلك اللحظات المأساوية التي تترنّح فيها فرنسة في الهمجيّة، يبدو عبد القادر أكثر كمداً وشهامة: فيحرّر جميع الأسرى (المبادلة التاريخية مع سيدي خليفة في أيار ـ مايو ١٨٤١) ويبدأ صداقة طويلة مع مطران مدينة الجزائر دوبوش Dupuch بل ويطالب بقواعد إنسانية لمعاملة الأسرى، وخاصة بعد أن نفذ صهره أحكام إعدام في بعض الجنود، وهي قضية وُجّه إليه اللوم فيها مدة طويلة؛ وقد أصدر بعدها أمراً:

«على كل عربي يحتفظ بفرنسي أو مسيحي في حوزته المسؤولية في الطريقة التي عامله بها. والمطلوب تحت طائلة العقاب الشديد، وبدون أي تأخير اقتياد أي أسير إلى الخليفة الأقرب أو إلى السلطان نفسه... وإن شكا الأسير من أي سوء

معاملة تعرّض لها يفقد العربي الذي أسره كل حق في المكافأة المستحقة له عن ذلك».

ونحن نعلم خاصة بشهادة أولئك الأسرى الذين التحقوا بالأمير في بو وامبواز، مثل اسكوفيه نافخ البوق، أن والدة عبد القادر كانت تهتم بهم شخصياً في تكدمت وحتى في زمالا، بينما كان الجنود الفرنسيون قد استمروا طويلاً في تقطيع آذان أسراهم وجمعها.

اعتقد العسكريون الفرنسيون دائماً بإمكان اللحاق بالسلطان والقبض عليه. وقد حاصره موريسيير في مسكره، وكان في إثره بعد أن قضى على إحدى القبائل المتعاونة مع الفرنسيين، استؤنفت المطاردة بعد أن عبر الشليف، فكان بين بوجو والبحر، وقام بغزوة على ميليانة عبر القبائل التي تخلّت عنه. ثم توجّه نحو الصحراء ليظهر بكامل قوّته بينما عاد الفرنسيون إلى معسكراتهم منهكين، مرضى. ولكن ها هو الأمير في جبال طرارة على حدود مراكش حيث أجبر بيدو بعض القبائل على الخضوع له. ويستعيد عبد القادر ندروقه، ويعفو عن سكانها لأن الخيانة لم تكن في الغالب إلا بحكم الضرورة. ثم ها هو من جديد في ميتيجه حيث دامت معركة وادي فضة يومين، إنّما يجب أن ينطلق في المنطقة الوهرانية إلى مابعد طيطرى... والشتاء يقترب فيجب أن يزيح هؤلاء الزمالا إلى مناطق أبعد جنوباً ليفلت من هؤلاء الفرنسيين الأشرار. ويجعل النساء، والأطفال، والجرحى، والعجزة، في مكان آمن بعيداً عن متناول هذه الكتائب الجهنمية:

تساءلني أمّ البنين وإنّها	لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربّة الخدر أنني	أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لامتهيباً	وأحمي نساء الحيّ في يوم تهوال
يثقن النساء بي حيثما كنت حاضراً	ولا تثقن في زوجها ذات خلخال
أمير إذا ما كان جيشي مقبلاً	وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأوّل	وإن جال أصحابي؛ فإنّي لها تال
أدافع عنهم، مايخافون من روى	فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة	وأصدرها بالرمي تمثال غربال

ومن عادة السادات بالجيش تحتمي — وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي
وبي تتقّى يوم الطعان فوارس — تخالينهم في الحرب، أمثال أشبال
إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحماً — أقول لها صبراً، كصبري وإجمالي
وأبذل يوم الروع نفساً كريمة — على أنها في السلم أغلى من الغالي
وعني سلّي جيش الفرنسيس تعلمي — بأنّ مناياهم بسيفي وعسّالي
سلّي الليل عني كم شققت أديمه — على ضامر الجنبين، معتدل عال
سلي البيد عني والمفاوز والربى — وسهلاً وحَزْناً، كم طويت بترحالي
فما همتي إلا مقارعة العدا — وهزمي أبطالاً شداداً بأبطالي
فلا تهزئي بي، واعلمي أنني الذي — أُهاب، ولو أصبحت تحت الثرى بالي

الزمالة

زاوية بدويّة

دفع سقوط تَكُدمت وتدميرها عبد القادر إلى التفكير طويلاً في عدم ثبات الدولة. وتذكّر المناقشات بين والده ورؤساء القبائل الذين يفدون إلى الزاوية، وخاصة جميع المناقشات التي تمت بخصوص داي وهران. هل يجب الاستمرار في تركيز المدن.

أيّ طريق تقود كل مدينة مسلمة على نهج مدينة رسول الله ﷺ أو مكة؟ أخذت مكة حرباً، بينما دخل الرسول المدينة بعد إيمان أهلها. كيف يمكن تركيز القوى واستنفارها، دون أن تتفكك القبائل وتعود إلى مصالحها الخاصّة؟ لأن ليس للمدينة في نظر البدو معنى التوحُّد. فكل واحد يبقى جانباً يرقب الآخر بنظرة ارتياب. وأدرك الأمير، كالنبي ﷺ بالذات أن عليه بأي ثمنٍ أن يحطّم التقاليد العشائرية لأنها تتمسّك بهذا الارتكاس من الارتحال الذي يشكل عماد مبادئ البدوي الغبي الذي ينزع إلى أخلاق الجاهلية، بينما يجب منذ عهد النبوة أن تكون رابطة الإنسان الوحيدة هي تلك التي تربطه بالله دون أي وسيط.

تصوّر عبد القادر عندئذ عاصمة جديدة متنقّلة، مع هدفين محدّدين هذه المرّة: إظهار قوّته بوجود قوي للقبائل في أرضه الخاصة، وتعويدهم على الهجرة، بالارتباط

هكذا مجدّداً مع تقاليدهم القديمة. بينما يسود نظام شديد في التنظيم المكاني للمدينة التي تمثّل مجموعة دوائر مندمجة وفق ترتيب كوني المنشأ ومجزّأ في آن معاً. وهي تتيح تهيئة ملجأ آمن، محميّ من قبل الجماعة، لجميع الشيوخ، والمرضى، والجرحى، والنساء، والأولاد، وقطعان الماشية، بينما ينطلق الفرسان بعيداً في محاربة الفرنسيين، وحركية هذه المدينة تتيح لها متابعة أماكن الرعي أو التراجع نحو الصحراء، وفق تحرّكات القوات الفرنسية.

تقوم وحدة من القوات النظامية بالحراسة، وتتناوب أربع قبائل على التنقلات الواسعة للزمالة.

كان عبد القادر يفكّر خاصة بالهجرة: وبما إذا كان يجب عليه أن يقود يوماً شعبه نحو الشرق؛ وسيكون آنذاك هذا الشعب مجتمعاً ومستعدّاً وفي الوقت ذاته يجعل من هذا التجمع الكبير وسيلة لمكافحة تنافر القبائل التي سيؤمن لها حماية أرزاقها، ومواشيها، ونسائها، وأطفالها.

وقد يفهمها بعضهم تهديداً لهم ووسيلة للضغط، لذلك يجب أن يحتفظ بقسم من قواته وقادته في منطقة القبائل، ولكن حتى المناطق الجنوبية الواسعة يجب أن تمتثل لهذا الترتيب بما فيها المزاب.

رسم عبد القادر على الرمل المخطط المثالي للمدينة وللجامع. وبدا له مسجد القدس الأكثر موافقة. فشكله المثمن يتيح له أن يزلق سبعة أقسام حوله، ثم أربعة عشر كمعسكر فرسان حماة للهيكل. فقد قرأ هذا في مكان ما خلال رحلته إلى الشرق دون أن يتذكر تماماً أين.

إن الكعبة في مكة أم المدائن مكعبة والقبة تمثّل المكعب الأرضي الحامل للقبة السماوية المحمول هو بنفسه على أربع عضادات. فهذا المخطط إذاً كامل. فمن سرّة الأرض تنطلق أربعة خطوط إلى الزوايا الأربع. هذه الاتجاهات الخفيّة على محور النقاط الأربع الرئيسة، فالوحدة تتيح أن تكون في ذات الوقت مرّبعة ومستديرة، ورباعية الأجزاء، والعدد المرّبع هو الأكثر كمالاً بين الأعداد. إنّه عدد الذكاء وعدد الأحرف في الكلمة الربّانية جلّ وصفها: الله!

غداً غالباً ينهي رسائله - لمن يمكنه فهمه، بهذه الكلمات: «أنهي كلامي بتجديد التعبير عن امتناني نحوكم جميعاً، في كل زمان، وكل مكان وبالتأكيد على اعتباري

الفائق لكل المجتمع، في النقاط الأربع الرئيسة[1] يتيح المربع المضاعف أن أمتن معسكر البداوة المستدير، إن شاء الله! وأن أقاوم سحر المربع الذي يستغلّه العرّافون.

ـ فلتكن ملعونة هذه الطقوس التي يجب عليَّ مكافحتها! اللهم كيف يمكنني أن أقود هذا الشعب.

ومع ذلك فهذا المربع يرتسم جيّداً ضمن دائرة، قمة هضبة مستديرة، كالمعسكرات والهياكل في عمق دائرة الهضاب؛ ومن هذا الداخل الجغرافي كان يعود في كل مرّة بطاقات جديدة[2].

النقطة المركزية التي لاوجود لمحيط دائرتها، تشكل عالم الإنسان السامي، وبإقامة مساحة مقدسة حول نقطة ثابتة، نوع من سورة الأرض تضفي على المجموع (المقرّ ومعسكر المدينة) بنية كونية شاقولية، شرق عمودي يجب أن يجوبه الرجل الكامل بالسمو الذي يربطه بالعالم، وهي أفقية بالانفتاح الذي تشكّله حركة النظرة الدائرية واللامتناهية... كان ينطلق من الشكل الذي رسمه ابن العربي لترتيب الكون المستخلص من التشوّش البدائي عبر الدوائر الثلاث من الأكثر ظهوراً حتى الأكثر خفاءً. وكان يفكر في الليل والنهار وهو يرسم دوائر ومربعات على الرمل.

هناك الصمت، وهناك الكلام

وهناك السماء والأرض، والغرب والشرق.

وهناك ممكن الممكن، والحكمة، والرحمة، والقلب

وهناك المنظور وغير المنظور، الكتاب الموحى والرسول

وهناك النور، والعيان، والفجر، والبركة

وهناك هذه الأرباب الملعونة والشيطانية حول الكعبة القديمة:

مناة، واللات، والعزّى، وكذلك الإله.

هناك الحقيقة العارية.

والدعوة، والشريعة، والسرّ

---

١ ـ رسالة موجّهة بتاريخ ١٠ آب ـ اغسطس ١٨٦٤ إلى محفل هنري الرابع.

٢ ـ جاك برك: «المغرب، تاريخ ومجتمع».

والقرآن والأمر

والباطن والظاهر، والفكر والأزلي، والغائب والمطلق وهناك بعض أشياء أيضاً لايحدّها، لكنه يعلم أن عليه أن ينظم غير المعقول في هندسة قسريّة ليكتمل الإنسان عبر البقاء، والفناء، والنور بالحج إلى مركز المراكز.

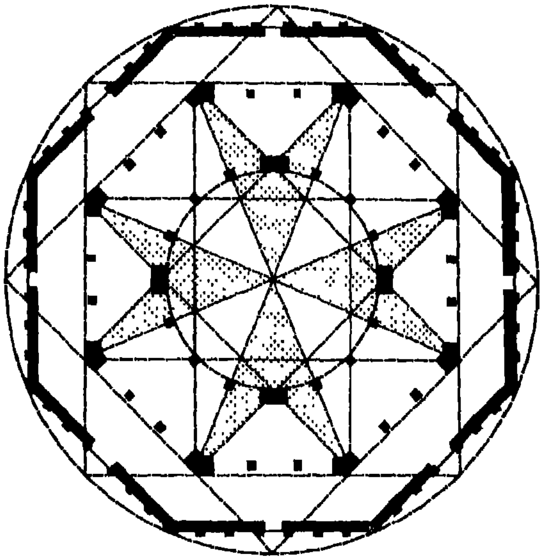
كان عبد القادر ينظر إلى مشهد هذه المئات من الخيم التي تملأ الوادي حتى سفوح الجبال: وكانت النيران تتوهج في الليل البارد. وهو يفكر بقلق: هل الشعب العربي بدوي أم حضري؟ إنّه يحبّ هذا الجوّ من الضجيج والروائح القوّية كالحياة. وكان تطريق البياطرة يتجاوب مع النغم الذي يخالج الروح بالاعتزاز بمثل هذا المعسكر الديني المتسع لأكثر من عشرين ألف مؤمن بالمهمة التي كلّف الله بها سلطانهم. فهو بالتفاتة واحدة يمكنه أن يرى إن كانت كل قبيلة في مكانها، أو إن كان هذا القائد الذي انطلق بعيداً قد ترك نساءه ومواشيه.

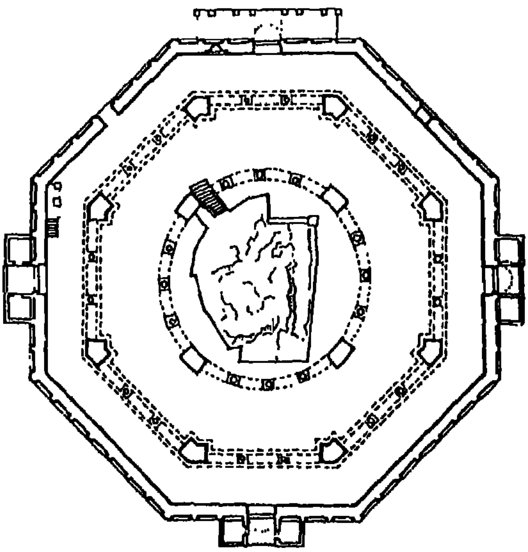
ستنتج اثنا عشر ألف حصان، وثلاثة آلاف بغل وحمار، وعدد مماثل من الجمال كميات كبيرة من الأسمدة العضوية، لكنها ستتطلّب أيضاً أطناناً من العلف والشعير، وهكذا تستمر الجلبة بين السوّاس، ومحمّلي الحبوب، والتجار، والمشترين. وتكدّس المؤمن لكنها توضع بسهولة في أكياس كبيرة من الألياف تسهّل الحركة والنقل بسرعة، بسرعة كبيرة دون فقدان الأغذية.

تشمل زمالا، مدينتي، صانعي أسلحة، وسرّاجين، وخياطين، وجميع المهن الضرورية لمجتمع منظم، ويقوم فيها سوق واسع يؤمّه عرب التلّ. أما الحبوب اللازمة لنا فستأتينا بالمتاجرة إلا ما يجيئنا منها من قبائل الشمال».

كان عبد القادر هكذا في مركز دائرة تمتد حدودها على مدّ النظر في الأفق، إذاً فهي بدون حدد، كالملائكة المستهامين حبّاً الذين يدورون حول الكرة الكونية. والبرد والحرّ، والجفاف والرطوبة، في النقاط الأساسية الأربع، بالأزرق والأحمر، والأصفر، والأخضر ـ والعتاق، خيمته في مركز المراكز، مع كتبه ومخطوطاته في صناديق، وخيوله، وحرسه الشخصي المؤلف من ثلاثين شاباً أسود بهيّ الطلعة، وفرسانه في سترة حمراء وسروال أزرق، مع برنسين، أحدهما أبيض والآخر رمادي، في موقف رائع، متنبهين لأيّ إشارة من الأمير.

مخطط مسجد القدس





كانت خيمة المرشد في المركز تبثّ الكلمة التي تصل إلى الكائن. الخيمة مركز كوني صغير بأوتادها التي تثبت في الأرض حبالاً من توتّر وتنشر في الأرض والسماء بينما الكون الأكبر رمز كلّ ما يدعمه، يحمل ويساعد على البناء، **كالمهندس** الفائق. لكن القاعدة تبقى المعلّم نفسه، وحده: فزمالة هي إشارة واسعة خارجية، دلالة من بعيد، مفعمة بالرمز، كعلامة على هامش الآفاق الرحبة التي تراوح فقط بالحركة الهاربة للبدو، المحتواة هنا، مكبوحة، لكنها بعيدة عن دناءات المدينة. فالمدينة ليس لديها حسّ الكيان المشترك... وأمام المدخل رايات مطرّزة بآيات قرآنية، رايات بيضاء، وخضراء من أطلس، وصفراء، وحمراء؛ تعلوها كرات من ذهب وفضة. ودواره الخاص في المركز محاط بأربع نقاط من مخمّس: في الجنوب أمين سرّه (بالخروبي)، وفي الشمال ميلود بن عِرّاش، وفي الغرب ابن التهامي بالطبع، وفي الشرق عبد القادر بوكليكة، قائد تَكدمت. وبينهم إنّما على دائرة تألية: محمد بن علال بن مبارك، والحاج الحبيب، وفي الجنوب والشمال آغا الفرسان والشواش، وبينهم جنود الحرس والرهائن. وهكذا جميع الناس على مدى الصوت.

شملت الدائرة الثالثة أربعة عشر دواراً (من ثمان إلى ثلاثين خمية وملحقاتها) لمختلف القبائل، والدائرة الأخيرة الأكثر بعداً سبعة دُوارات للاتحادات، لكن الحشم من مختلف الأقسام كانوا متوضعين في مخمّسات هم أيضاً، في وضع متوسط بين القبائل الأقلّ ضماناً.

من النقطة المركزية، يمكن للمستنير أن يقرأ السموات السبع، وحدود الدوائر السبع للأرض. وخُصّ باب الجنوب لخليفة الصحراء (السي خضور بن عبد الباقي بالنسبة للظرف). والكلّ يشكّل مجموعتين من المربّعات المتداخلة والمثلثات المقلوبة التي تلزم كلّ واحد أن يُرى من الجميع أينما مرّ، لكن طريقة الترقيم ترضي خاصة الأمير. كان الثماني الأقطاب محاطاً بثلاثة اسوار، والأعور يتحكّم بالنقطتين الرئيسيتين المضاعفتين، ولكن المثلثين المنقلبين خاصة، مثلث **المربوب**، ومثلث **الربّ**، يشيران إلى العلاقة بين الفارس وسيّده: المربوب يحمل ألوان ربّه، ولون عبد القادر الأبيض... فالمخطط الخفي لزمالة هو إذاً التعبير عن الثقافة الأخوية المضادّة (التي ليس لسرّها المعنى الخلدوني في العصبية القبلية)، فسرّها هو شرعيّة المعلم، المرشد والإمام

في آن واحد، معلم النقطة والصلب (انظر المخططات في الصفحات ١٩٦ - ١٩٧ - ١٩٨ - ١٩٩).

تؤلّف الزمالا خليفة النور، وتشكّل الجواب الأكمل لمشكلة البداوة أو التحضير في المسجد. ورسم المخطط منضبط تماماً.

«... عندما حدّدت موقع خيمتي، عرف كل واحد المكان الذي يجب عليه أن يشغله. فحولي ثلاثمئة أو أربعمئة جندي من مشاتي النظاميين، وفرسان حشم إغريس المتفانين في إخلاصهم. فليس أمراً سهلاً الوصول إليّ: ليس لأنني اتخذت احتياطات من أجل سلامتي الشخصية، بل لأنني شعرت أن من الضروري أن أتمّم مشيئة الله، وقد التجأت إليه ليقوي ويحمي الذراع التي تحمل رايته».

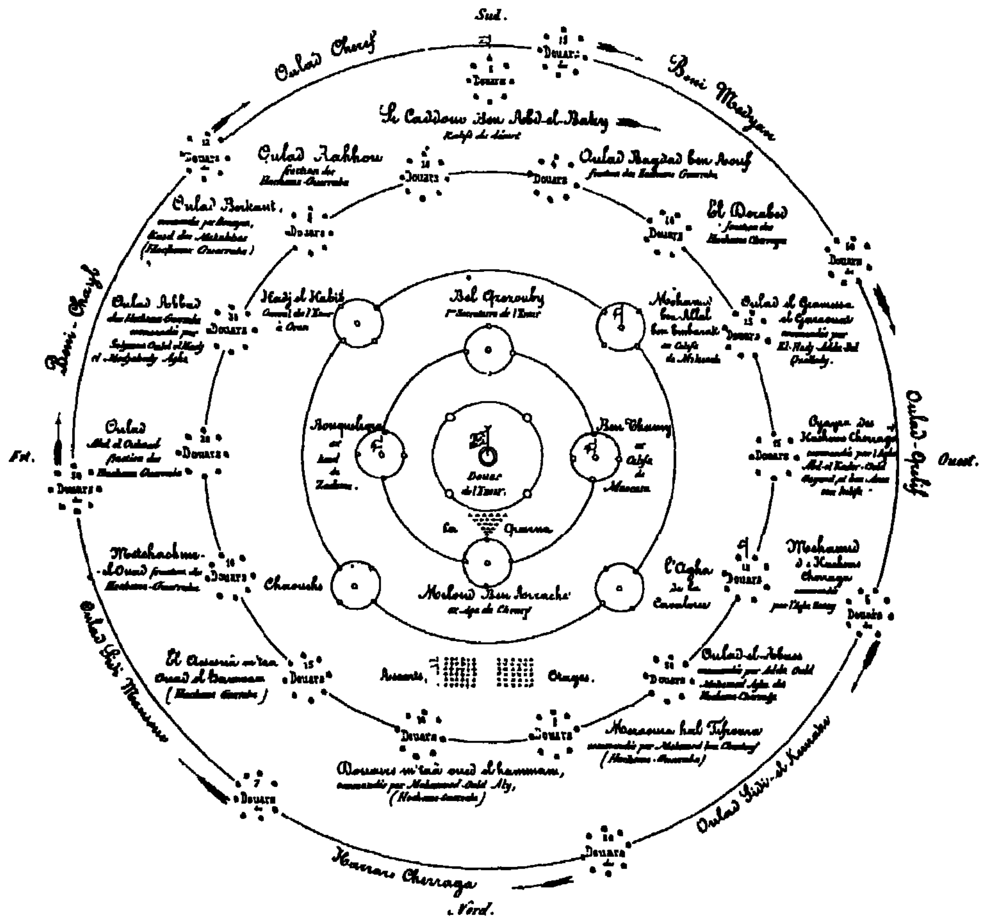
لم يكن عبد القادر يشكّ بأن الله سيعرّضه أيضاً إلى كثير من التنازلات وقليل من الإعداد قبل أن يلزمه بالتخلّي كلياً.

في ١٦ أيار - مايو ١٨٤٣ وبهجمة جريئة تبع ابن الملك، هنري أوجين فيليب لويس دورلتان، دوق أومال، عن بُعد، والخيل مطلقة الأعنة، يوسف المعروف بجوزيف فانتيني وفرسانه من السباهي، على رأس بضع عشرات من الفرسان فقط، فيصل إلى خيمة الأمير ويأسر عدداً من ذويه، ويبعثر مخطوطاته، وينهب كنوزه[1].. وقال عبد القادر فيما بعد لشرشل، بدون أسف أن الحادث أقل أهمية مما اشاد ونشر عنه الفرنسيون.

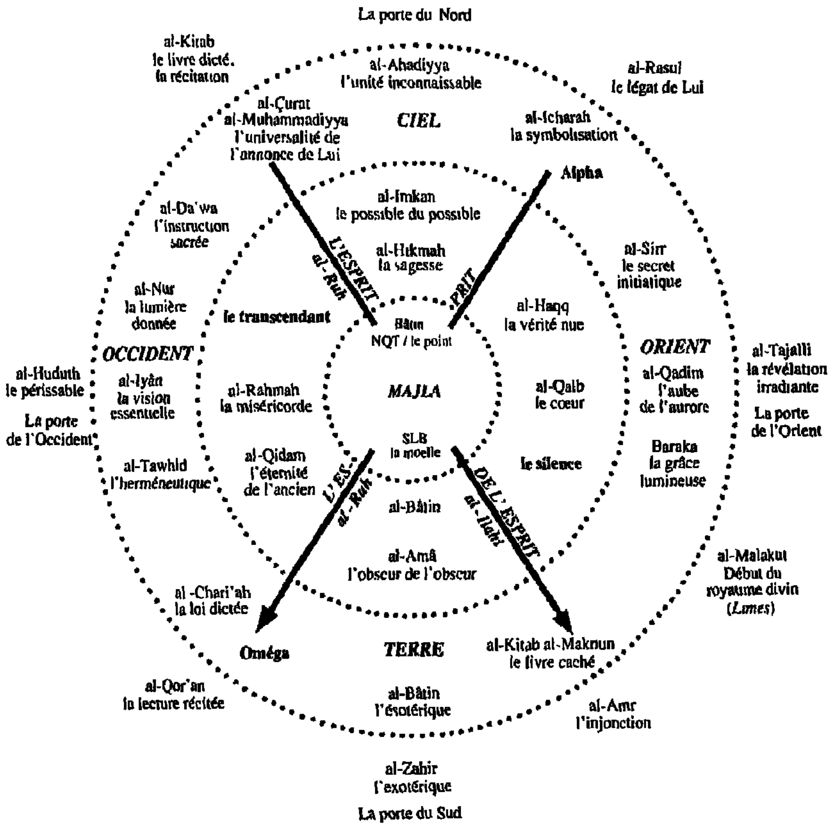
«في الفترة التي هوجمت بها زمالة، كانت تنبسط في تاكين كف جبل آمور.. وكنت قريباً من تاغمنت... ومعي ألف وخمسمئة فارس.. وكان ابن خرّوب مع الفليتة، وبن عّلا في المنطقة الوهرانية، ولم يداخلني أبداً أي خوف من أن أتلقى مثل هذه النكبة الرهيبة من ناحية مدية.

١ - خلّد هوراس فرنة هذا الحدث في تصوير جداري بطول أكثر من ٢٥ م، وهو موجود في متحف فرساي، في حالة سيئة جدّاً من الحفظ.

المخطط التمثيلي لزمالة

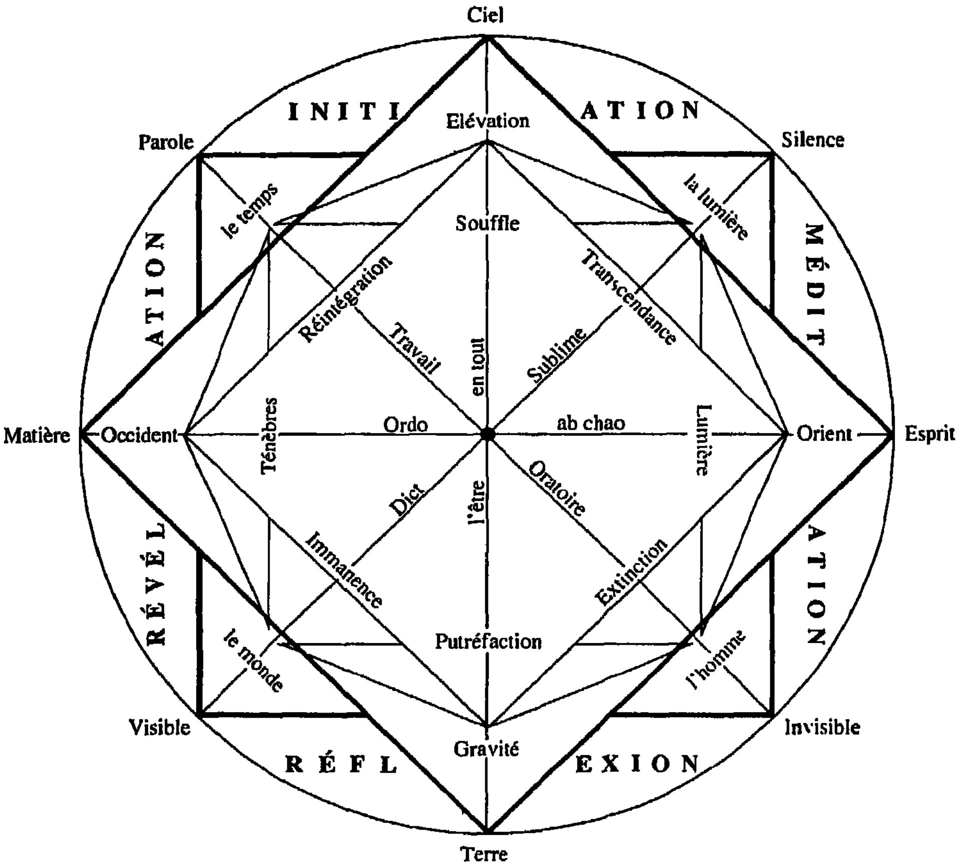


مخطط



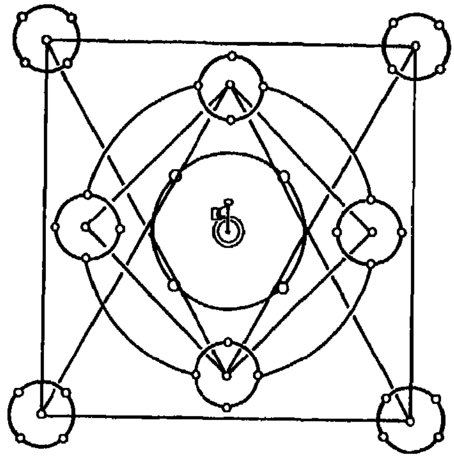
Le Monde et le Temps

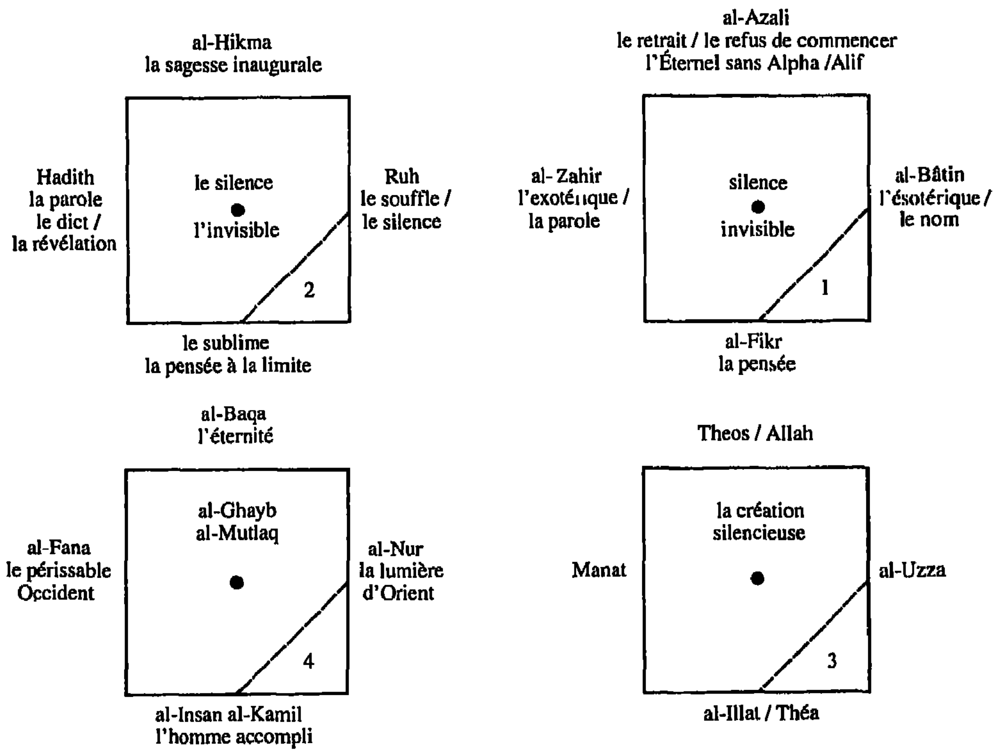
مخطط



Ciel
INITI
ATION
Elévation
Parole
Silence
le temps
la lumière
Souffle
ATION
MÉDIT
Réintégration
Transcendance
Travail
en tout
Sublime
Matière
Occident
Ténèbres
Ordo
ab chao
Lumière
Orient
Esprit
Dict
l'être
Oratoire
RÉVÉL
Immanence
Extinction
ATION
Putréfaction
le monde
l'homme
Visible
Invisible
Gravité
RÉFL
EXION
Terre

مخطط




al-Hikma
la sagesse inaugurale
Hadith
la parole
le dict /
la révélation
le silence
l'invisible
2
Ruh
le souffle /
le silence
le sublime
la pensée à la limite
al-Azali
le retrait / le refus de commencer
l'Éternel sans Alpha /Alif
al-Zahir
l'exotérique /
la parole
silence
invisible
1
al-Bâtin
l'ésotérique /
le nom
al-Fikr
la pensée
al-Baqa
l'éternité
al-Fana
le périssable
Occident
al-Ghayb
al-Mutlaq
4
al-Nur
la lumière
d'Orient
al-Insan al-Kamil
l'homme accompli
Theos / Allah
Manat
la création
silencieuse
3
al-Uzza
al-Illat / Théa

المعلم هو المرشد، والسرّ هو إقرار شرعيته، وهو يؤمّن الاستمرارية وثبات الأمر المقدّس. إنّه روح الملأ الأعلى المجهول. فالزمالة هي إذاً التخطيط الكامل المقابل للمعرفة الخفيّة: إنّها الأخوّة المساريّة/ الطريقة.

أما الدعوة فهي التوجيه الفائق في قدسية النور. والمعرفة المضافة للرمز تمنح معرفة الكيان وتحدّد مساهمة كل واحد في مستواه، ومساهمة الجميع سوية: والعقل وحده يحدّد البّنية. لكن توجد درجات للاتصال ضمن المجموع (الزمالة/الزاوية/الطريقة) مع الشرق.

التخيّل الرمزي يحدّد وضع المسارّ على المسرح، ولكن ليس جميع أعضاء الزمالة من المسارّين فبعضهم مخصّصون للمعركة الخارجية، ومن اجتاز درجة بالتفكير والنسك ينتقل بالورْد والذكر، وهذا مايتم في الخلوة، وفي الإنسان، وفي شمولية آدم.

المسارّة صاعدة دائماً/ بلاغ، وتتفسّر بحدود البركة الإلهية.

خليفة النور المركّب بالزمالة هو الجواب الأكمل على مشكلة البداوة وتحضّر المعبد فالزمالة إذاً هي الإسقاط القادري عبر هندسة رمزية لفكر التوحيد، وهي تمثيل في ذات الوقت للغيب المطلق قبل العودة الكبرى إلى المشرق.

تمثل ثلاث دوائر المستويات الثلاثة للخلافة بثلاث درجات، والمسارّة الصاعدة التي تشمل المريد والشيخ.

إنّه حجّ من الجنوب إلى الشمال ورحلة متدرّجة نحو التسامي عبر مسار داخلي في مركز المركز.

غير أن لاموريسيير كان يلاحق الأمير الذي بقي في مكمنه منذ شهر أيار ـ مايو: وكانت ريح السيروكو (الشلّوق) تهبّ منذ أيام وأيام وليس لدى الرجال إلا ثمار البلوط للأكل، وهم في صيام رمضان. وأشار أحد الشيوخ الخونة إلى أن زمالا هي عند بئر تاكين في غودجيله، فانتهز الدوق أومال الفرصة،رغم أن ليس لديه أوامر، وليس معه إلا ستمئة فارس، لكنه لم يستطع أن يدمّر إلا نحو عشر زمالاً، وكانت تضمّ في تلك الفترة نحو ستين ألف شخص، لكن أعمال السلب كانت كبيرة وخسائر جماعة الأمير قاسية، فقد أسر أكثر من ثلاثة آلاف شخص معظمهم من النساء والأولاد والشيوخ، ونهبت أهراء الحبوب، والماشية، والذهب... وخاصة، وهذه خسارة لاتعوّض بالنسبة للأمير، آلاف الكتب التي جمعت بعد معاناة وبحث... يا لسفاسف العسكر... هتف الأمير عندما بلغه النبأ بعد ثلاثة أيام متأسياً لأن أمّه وزوجته وأولاده قد نجوا من الأسر بفضل إخلاص الحشم: «الحمد لله! أليس كل من أحببناهم، وفقدناهم هم الآن في نعيم الجنّة؟ وكل هذه الأشياء التي كنت أثمنها عالياً، وأعتبرها غالية على نفسي، وأهتم بها اهتماماً كبيراً قد أعاقت حركاتي، وحرفتني عن الطريق القويم، وسأكون في المستقبل أكثر حريّة في محاربة الكفّار».

ثم أضاف مخاطباً خلفاءه: سنكون من الآن فصاعداً أكثر خفّة، وفي شروط أفضل لخوض الحرب.

منذ سبعة أشهر والجيش الفرنسي يلاحق الأمير ليستحوذ على أملاكه النهائية وليحتجز خاصة عائلته، وخلال ذلك أمكن لرجال عبد القادر تحقيق بعض الانتصارات، قضوا على شراسة مصطفى بن اسماعيل، وأتوا برأسه المقطوع إلى الأمير، لكن هذا تأمّله بألم شديد. شيء ما يخالجه دون أن يستطيع تفسير هذا القلق الذي ينتابه. إنّه يدرك أن مصائبه ستزداد خلال هذا الصيف المرهق. انفراج واحد يواسيه، فبعد أشهر من التيهان، فإن الدائرة، وهي التعبير العائلي الذي يُطلق على زمالا هي في المغرب آمنة في منطقة بوكشيمة، بينما الأمير يكافح في الشرق، لكن المصائب ترد متشابكة في سلاسل سيئة، فصديقه الأثير بن علّال قد قتل في معركة وادي الملّاح في أقصى الجنوب بينما جيش الأمير يدور حول كل الجزائر ليصل إلى مراكش.

أخذت الأهراء تفرغ، والقبائل تتشتت، وينتقل بعضها إلى الجانب الفرنسي، والدعم الأكثر قيمة يلاحق ويدمّر، واستبسل عبد القادر في المعركة: فبرنسه يخترقه

الرصاص، وخيله تُقتل تحته، ولم يتسن له الوقت خلال فصل الخريف حتى للنوم؛ فلاموريسيير يتعقّبه، ويقفز فوق السرج، ويمرّ عبر المطاردين الفرنسيين، ويخونه بنو عامر، ويطلق زعيمهم النار على الأمير لكن هذا يصرعه في الحال.

ويلتجئ عبد القادر إلى مراكش في تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٤٣ ويكتب إلى السلطان، وإلى ملكة انكلترا عن طريق هذه الشبكات اليهودية وأصدقائه في جبل طارق، ولكنه يستمر في غزواته وهجماته على المنطقة الوهرانية، فيحتل بوجو آنئذ لالا مُغنية في مدخل سهل وَجدة، وهذا مايناسب استراتيجية الأمير الذي أراد أن يجرّ مولاي عبد الرحمن سلطان مراكش إلى النزاع؛ ويتردّد الانكليز أمام العرض الذي اقترحه الأمير ونقله إليهم الكولونيل شكوت، ويقذف الفرنسيون طنجة وموغادور... ويتابعون سياسة الأرض المحروقة بينما استعمار الشعب يسير ببطء.

يحاول سنغارنيه وبوجو رشوة خلفاء الأمير بَركاني وابن سالم، وخاصة بو حميدي، لكن منطقة القبائل التي قاومتهم بقيت على ولائها للأمير... ويرد بن علال بجواب لاذع على الفرنسيين[1]:

«لقاء هذه السلطة التي أمارسها من أجل إعلاء كلمة الله، وخدمة لمولاي السلطان عبد القادر، ماذا تعرض علي يا بيجو وأنت الذي تحتاج إلى تصديق من سيّدك؟ أتعرض المناطق من بلادي التي يمكن للبارود أن يستردّها كما أخذها؟ أم تعرض علي المال وعار الخيانة...».

ومع ذلك ورغما عن غارة جريئة حتى تيارة فُصل الأمير عن جماعته في الشرق؛ وإخلاص خلفائه المطلق وحده، وخاصة ابن سالم يمنعهم من الإنكفاء والتراجع، ويتراسلون، ولاتبدر من عبد القادر أي محاولة تأنيب لهم على ما انتابهم من شكوك وتعرّضهم للإغراء.

يكتب ابن سالم: اعترف لك بأننا شككنا في بقائك على قيد الحياة، وساد اعتقاد عام بأن والدتك هي التي تكتب باسمك.

ويجيبه الأمير: ما من أحد يمكنه الفرار من الموت. هذا هو أمر رب العالمين. إنّما الشكر لله لم تحن ساعتي بعد... اصبروا في المحن... وشجّعوا أتباعكم وساعدوهم،

١ - ذكره سهلي SAHLI (انظر المراجع)

ودافعوا عنهم، وتحمّلوا أخطاء سوء تقديرهم، انظروا إلى مدى قدراتهم بتسامح واحترام...

ويغرق السلطان في تأمّلاته، ويصوم، ويصلي، ويستشير. ما العمل؟ إنّه يفكّر أكثر فأكثر بالهجرة: جَمعُ القبائل غير القادرة على تحمّل نير الكفار والرحيل بهم جماعة نحو الشرق... إنّه الاعتزال!

كم من مرّة أضناه التعب، وهو على حصانه، فرأى **السكينة**، هذه النسمة من الريح المدوّمة التي وُهِبَت رأسين، يسبق أحدهما الآخر إلى أن يصلا إلى مكة، حيث تلتفّ النسمة في مكان بيت الله متخذة شكل قرص، أو مجنٍّ مستدير/ **هُفافة**، هناك حيث يذكر الثعالبي حديثاً عن الإمام علي كرّم الله وجهه يقول فيه: إن الله أمر ابراهيم أن يبني له بيتاً على الأرض ليعبّر فيه عن غيابه غير المحتمل... حضور، غياب...

لكن قد يكون الوقت مبكراً لفقدان كلّ أمل، فدبلوماسيوه ينشطون، بل إن بعض المراكشيين من علية القوم يحفزونه على إرغام السلطان، بل وحتى على الحلول محله إن تخاذل عن واجبه في دعم الجهاد المقدّس... وبعد كل حساب فهو بالذات إدريسي، وعرش أسلافه يجب أن ينقذ من دمار محتّم.

لكن الأزمنة النهائية لم تحن بعد: وأحاديث عدة تتعرّض لهذا القلق «قبل أن تقوم الساعة».

لم يستطع عبد القادر أن يعزم على هذا الحلّ. ألم ينقل حسن بن عطية عن الرسول ﷺ أنه قال: «الأكثر سوءاً من بني قومي سيتقدّمون على الخيرين منهم بحيث أن المؤمن سيختبئ خجلاً، كما يختبئ حالياً المنافق بينكم».

مولى الساعة

كان عبد القادر يفكر بنصيحة أمّه المتكرّرة: الله وحده يعلم الساعة وكما في كلّ مرة يجب فيها عليه أن يتخذ قراراً حاسماً، لجأ إلى الصيام والصلاة. وغرق في التأمّل. وهو جالس في وضع شعائري، وسبحته في يده، ومن حوله المقرّبون إليه ينتظرون في صمت وهم يفكّرون بما ينتظرهم من مهام، وسمح السكون الداخلي لضجّة الخارج أن تتسرّب إلى المكان، لكن الأمير كان بعيداً في أفكاره، لم يلجأ هذه المرة إلى الإستشارة مخالفاً بذلك قاعدة **الشورى** التي سنّها النبي ﷺ بنفسه، لأن القضية شخصية

محضة، ولايمكن أن يبت بها أحد غيره... فابن محيي الدين يتساءل، هل مهمته من عند الله؟ أهو المهدي المنتظر؟ منذ بعض الوقت كان هذا السؤال يشغل تفكيره: ماهو هدف مهمته، وماهي طبيعتها؟

كانت الضهرة منشغلة «بمستقبل وحي» جديد، محمد بن عبد الله؛ شُلغٌ يلقب أبا معزة، هذا إن لم يكن واحداً غيره، إذ في كلّ مرة يقبض الفرنسيون على واحد، يبرز آخر جديد في مكان ثانٍ، إذاً فلا يمكن أن يُلتبس بين عبد القادر وبين هذا النوع من المجاهدين. وبعد فهل يجب قَلْب السلطان وأخذ مكانه لخلق دولة كبيرة تمتد من منطقة القبائل حتى المحيط الكبير حيث أوقف سيدي عُقبةُ حصانه؟ أو التهيؤ في رباط ومتابعة الحملة ضد الكافر، والاعتصام من أجل حرب مقدسة؟ أو هل يجب الهجرة نحو الشرق قبل العودة ثانية؟

«هل يمكن أن أعتمد على أمير المؤمنين، كما يقترح حمدان بن خوجه بينما تخلّى الباب العالي عن قسنطينة؟».

«اللهم إني أستنجدك بعلمك، واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم، فإنّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت فعلاً علّام الغيّوب».

اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري فيسّره لي وبارك لي فيه. وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به»[1].

استعاد في ذاكرته المدة الطويلة التي تفصله الآن عن الزمن الذي كان يقيم فيه الحجج على ضرورة الجهاد: إنّه يلحظ الآن منحى آخر، منحى المقاومة المستمرة للتخلّي والقنوط، ويتحتّم عليه الآن واجب عتاب السلطان في رسالة مفتوحة ولكن كيف يبرّرها؟ هل يجب عليه التأكيد مجدداً على مقاصده، وهل هذا الشكل الجديد هو واجب شخصي أو مهمة جماعية يجب أن يجذب إليها الجماعة؟ واستعاد في ذاكرته أيضاً الاستشارات الفقهية والفتاوى التي تلقاها من كبار علماء الإسلام عقب التماساته الإختيار بين الجهاد والهجرة، مستبعداً بغيظ، هذه **الفتوى** المبهمة التي زعم هذا الخبيث ليون روش أنّه أتى بها من الطائف والقاهرة وتونس[2]... هذا الخائن

---

١ ـ دعاء الاستخارة (المترجم).

٢ ـ أعتقد أن إمريت في مقال ظهر في «المجلة الافريقية» العام ١٩٤٧ قد أعطى الرأي النهائي: ليون روش كان غشّاشاً في هذا الموضوع.

المنضم للتيجني انتقم بذكاء، فقد أكّد أن بإمكان المسلم أن يعيش تحت السيطرة الفرنسية، ووضع نفسه في خدمة «خليفة سلطان الفرنسيين» وراح يبني من جديد عين ماضي. وتذكّر عبد القادر سخرية أبيه وهو يقول لأحد المنافقين:

- إنّك تفعل كأبي بكر الذي تذكّر حديثاً للرسول ﷺ بعد عشرين سنة، لأنه يلائم مصالحه..!

من الأجوبة التي وردته فتوى الشيخ المصري العايش، الذي عرفه محيي الدين إمام المذهب المالكي في الأزهر، وكان جوابه غامضاً، ومشككاً حتى بأهداف سلطان مراكش القائمة.

في رأيه أن الإمام يمكن أن يتعامل مع الخصم شريطة أن يكون لدار الإسلام مصلحة في ذلك، إضافة إلى ما أكّده في فيض من الحديث بأن مراكش لاتخشى أي خطر جدّي من جهة الأجانب...

«إنك السور الفاصل بين أعداء الله والسلطنة المراكشية».

لكن هذا لايسوّي أيّ أمر، بل زاد تشوّش عبد القادر في فتوى أخرى للشيخ المذكور فهو يعتبر أن المسلم ملزم بالهجرة إذا لم يتمكن من التصرّف كمسلم في المنطقة التي يحتلّها العدو.. ويعطي الشيخ مثلاً عن الأندلس المفقودة[1]. وإذا كان عبد القادر لايستطيع أن ينسى النص القرآني الذي يردّده دون انقطاع، فإن في خاطره دائماً دروس الحديث التي شرحها له والده، وورد إلى ذهنه نصّ البخاري:

«لاتلتمس السلطة إذ أنّها إن وصلت إليك بناء على طلبك كنت عبداً لها، أما إن منحتها دون طلب منك فستكون سيّدها».

يجب إذاً الاستمرار في الصراع إنّما مع احترام ماثبت بأمر الله.

«وقد كتب فيما بعد إلى شرشل في نوع من التبرير الذاتي الذي لم يفصح فيه عن أسبابه الحقيقية:

«رفضت العرض المغري الذي قدّم لي بصوت فيه كل الإجماع...

ليس فقط لأن ديني يمنعني من الاضرار بسلطان مختار، أقرّه الله في سلطانه، وإنّما

١ ـ من أجل جميع هذه الفتاوي انظر برك ولاروي أولها عدة ترجمات، ونصوص عربية منها ماهو في كتاب «التحفة».

أيضاً لأنني أعرف مراكش... بتفاوت الآراء فيها. ولو ارتضيت للزمني على الأقل خمسة عشر عاماً لأتمكّن من أن أفرض في أي مجال الامتثال للشرع وتثبيت هيبة حكومتي».

كان جبليو الريف يفضّلون الدفاع عن الأمير وقومه بدلاً من الصراع إلى جانب السلطان، لكن الأمير لم يعزم على اتخاذ هذه المبادرة، لأنه يعلم أن الفرنسيين والإسبان والإنكليز قرّروا عدم دعمه في هذه المغامرة المحتملة، بالرغم من وجود مؤيدين لهذا الحل في كل من هذه البلدان.

أما عبد الرحمن، فكجميع سادة المملكة، يفضل إنقاذ ملكه، قبل الجهاد من أجل الإسلام.

إن العيش مع معاصريه ليس إلا إحباطاً... والمصلحة العليا لمجتمع المؤمنين، وللأمة، وللدين، تتفوق على كل اعتبار؛ والتوازن، أيّاً كان عدم ثباته أفضل من فقده. والسلطان هو ظلّ الله على الأرض، ولابقاء لملكه مع الكفر، كما لايمكن أن يستمرّ مع الظلم.

واجب الهجرة

في تلك الليلة اتخذ عبد القادر قراراً بأن يقدّم الخدمة القصوى التي يمكن أن يؤدّيها لشعبه، لأنه يعرف أنه ليس سلطاناً، ولامهديّاً، وإنّما هو عامل مسكين على درب الله. فكر أيضاً أن الإنسحاب لا يعني الاعتزال... غير أنه لم يعلن عن قراره إذ يجب أن يتفاوض ضمن أفضل الشروط. والواقع أن بوجو كان قد عاد هذه المرّة أيضاً ومعه أكثر من مئة ألف جندي يتمتعون بخبرات سابقة، وخاصة بنتائج سياسة الأرض المحروقة... كانت القبائل النازفة في كل مكان والمنعزلة تستسلم للعدو بعد أن بدت قوته وفعاليته لانفاذ لهما عدا عن قسوته.

ففي ١٨ حزيران ـ يونيو كتب سان آرنو.

«لن أترك شجرة منتصبة في بساتينهم، ولا رأساً على أكتاف هؤلاء العرب البؤساء... هذه هي الأوامر التي تلقيتها من شانغارنيه، وسأنفذها بحذافيرها. سأحرق كل شيء، وسأقتل الجميع.

وفي ١٤ آب ـ اغسطس ١٨٤٤ يهزم دوق إيسلي، دون كبير صعوبة فرسان

ولدي مولاي عبد الرحمن، مما اضطر هذا السلطان إلى أن يوقّع في طنجة بتاريخ ١٠ أيلول - سبتمبر معاهدة صلح بين مراكش وفرنسة، اعتبر بموجبها عبد القادر خارجاً على القانون.

حدّدت فرنسة ومراكش حدود الجزائر بموجب اتفاقية لالا مغنية: وانهارت جميع جهود عبد القادر، إضافة إلى أن السلطان فرض عليه أن يستسلم له.

لم يعد الإنكفاء إلى الصحراء ممكناً بالنسبة للأمير، وهو يعرف أن بإمكانه الاعتماد على الجبالا الذين يحمون الدائرة، ويعود إلى مراكش ليتهم بالخزي السلطان المارق، وهو قوي بدعم جماعته وكثير من المراكشيين.

كان السلطان المراكشي خلال سنة كاملة يناوش قبائل الأمير الملتجئة إلى مراكش ودائرته بينما حرسه الأمين يتجوّل بين الريف وفاس ليحمي هؤلاء التعساء، حتى أن ابن أخ السلطان بالذات هاجم على رأس جيش حقيقي الأمير الذي لم يكن معه إلا ألف ومئتا رجل، لكن عبد القادر تمكن بمهارته العسكرية من دحره، إنّما رأى أن هذا الوضع لايمكن أن يستمرّ فالرجال والنساء يتألمون كثيراً، والحرب مستمرة في الجزائر نفسها، وهي دائماً أكثر قسوة وبشراسة، خاصة وسلطان مراكش يعاقب القبائل التي تدعم الأمير إلى درجة أن بعضها (ومنهم بنو عامر) قد هلك القسم الأكبر منها.

هزم عبد القادر الفرنسيين مرة أخرى عند وادي تفنا في سيدي ابراهيم في أيلول - سبتمبر ١٨٤٥ حيث جرح، وتاد إلى هناك جميع هؤلاء الأسرى الذين ذبحوا فيما بعد ثم أطلق النار على عين تموشَنْت لكن هذه الأحداث كانت فردية، وانتظر الجميع في صعوبات قصوى عودة السلطان... من المؤكّد أن علم الأمير قد رفرف على مسكرة لكن حامليه لوحقوا من جميع الجهات، وراح الأمير يساير خط الساحل مقترباً من منطقته الوهرانية وهو يأمل إشارة من الإنكليز.

في خريف ١٨٤٧ أرسل خليفته الأمين بوحميدي إلى السلطان، وانتابه قلق ممضّ فعبّر عن ألمه المؤثّر في قصيدة معبّرة[١] بينما كانت الكتيبة الصغيرة تبتعد يودّع فيها صديقه سليل قبيلة الحسا.

١ - اخترت ترجمة لابن الشيخ لنص هذه القصيدة التي نشرها صلاح الخرفي في «الدفاتر الجزائرية في الأدب المقارن رقم ١٩٦٨/٣ لأن زميلي بيّن بوضوح عدم صحة الفرضيات الرومنسية التي دفعت بعض الفرنسيين إلى القول أن هذه القصيدة كتبت في بو لسيّدة فرنسية.

يوم الرحيل، أحطت عنق من يغادرونني بقلائد من لآليء دموعي
وحادي العيس يحث مطاياهم، بينما خار في نفسي القلب والقوّة والتصبّر
وودّعتهم والتفت بتنّهد وأنا أترك مكان لقائنا قفراً.
وعدت على غير هدى، بينما ألد أعدائي يعرفون مثل هذه العودة.
يا صديقي أعر أذنك، وتذكّر مايروي الهوى،
لايمكنك أن تبقى أصمّ دون مطلبي
فأنا أجد للتغني بعواطفي كلمات عذبة غريبة على طريقة الأُصمعي
يا نفس، لقد فقدت يوم رحيلهم متعة الحياة.
فلا تأملي في أن تطول مدّتها.

كانت تمطر بغزارة يوم ٢١ كانون أول ١٨٤٧

تهيّأ عبد القادر لعبور الملوية وقد ارتفعت مياهه بفعل الأمطار، فهو يعيد الدائرة إلى بلاده! لأجل أن ينتهي، فمعظم أخوانه قد استسلموا، وبوحميدي سيعدم من قبل سلطان مراكش، ومحمد بن عيسى البرقاني، حاكم مِدية السابق قتل في طازه، ومراكش التي كانت ملجأً للجزائريين غدت قبراً لهم... وعائلته ليست في أمان داخل السلطنة الشريفية.

أزفت الساعة وبدأت خاتمة النهاية أخيراً!

كان مصطفى التهامي يخبُّ إلى جانب نسيبه عندما وصلا إلى ممرّ قربوس المعبر الوحيد نحو قبائل الصحراء التي بقيت مخلصة بحيث يأمن عبد القادر على وضع أهله بينها. لكن لاموريسيير هنا: منذ الساعة الثالثة صباحاً، ومعه ألف ومئتا فارس، وثلاثة آلاف وخمسمئة راجل... وقد عاد بوجو ومعه أكثر من مئة ألف رجل، ومنذ منتصف شهر تشرين أول ـ اوكتوبر ١٨٤٥ تجوب الفرق الجهنمية كل البلاد، يذبحون الرجال دون رحمة، ويحرقون المساكن أيّاً كان نوعها، ويدمّرون المحاصيل ويخنقون الهاربين بدخان النيران التي يشعلونها في مغائر لجوئهم دون شفقة... وهكذا أتمّ سان آرنو وعده، ونفّذ برنامجه... لكن جنرالاً آخر يحمل اسم بِليسيه سيسّجل ذكره الأسود للتاريخ بإبادة قبيلة وِلْد رياح «كحيوانات منتنة»... تمكّن عبد القادر خلال صيفين

وشتاءين أن يفلت من مطارديه؛ وهو في شرق مدينة الجزائر قرب وادي إيّسر، ويهبّ يوسف؛ لكنه الآن شمال بوغار؛ كلا إنّه في جرجرة، هو دائماً بعيد عن اللحاق به.

ويوجّه بوجو الأمر إلى عشرة جنرالات، وثمان عشرة فرقة بملاحقته دون هوادة، وتهزل الخيل، وتدمى عراقيب البغال، ويرتعش رجال القبائل قرّاً في الشتاء، وبتأثير الحمّى المتفشية بينهم في الصيف. وكان عبد القادر في الجنوب، لكن أبناء نائل والهرّار المطاردين، دون حبوب أو علف لماشيتهم، بعد أن حرمهم بوجو من مناطق رعيهم يستسلمون. ويتّجه الأمير غرباً حيث ابن عرّاش يزمع على المرور إلى مراكش، وجميع الناس يتخبّطون في الوحل، والريفيون يهاجمون الدائرة، والخيام لاتقي من المطر والبرد القارس؛ والنساء، والأطفال، والشيوخ، والجرحى، والدواب تنوح جوعاً وغيظاً...

وعلى البدوي أن يرتضي دائماً بالذريعة الغذائية: التركي يستولي على الحبوب، وينبغي التوّجه دائماً إلى الساحل من أجل التجارة وتأمين الغذاء للمواشي صيفاً. الأمل الوحيد باجتياز عبد القادر هذه المحنة مع ذويه وجماعته هو العودة إلى الجزائر لأن الكلّابة الفرنسية ـ المراكشية قد أطبقت عليه من الآن فصاعداً؛ وعبد القادر يعرف ذلك. والثمن الواجب دفعه هو المنفى، سقوط الزاوية أي خسارة مكتسب أسلافه الأساسي: إنه حلّ الطريقة وضياع الكلمة... وخلال ليالي سهر لانهاية لها، كان عبد القادر يرتّل القرآن بكامله، يبحث عن الدرب عبر كل آية. وها هو الآن يفقد احد آخر قوّاده، ابن يحيى ويجمع من بقي له ويذكّرهم بأيمانهم المتبادلة، ويعظهم فيجيبونه.

ـ نشهد أمام الله أنك فعلت كل ما تستطيع لإعلاء كلمته، والله سينصفك يوم الحساب الأخير.

كان الممرّ غارقاً في ضباب تزيد من كثافته نفثات الدخان الخدّاع المنطلقة من أحمال الحلفا المطلية بالزفت والمحترقة على ظهور الجمال المذعورة، ولم يتوقّف التراشق بالرصاص، لكن الدائرة تمكنت من الوصول إلى الهضاب حيث يمكن أن تحميها قبيلة بني سناسن.

قال عبد القادر: صدقوني، لقد انتهى الجهاد. فلنعترف بالواقع، والله شهيد على أننا صارعنا بكل ما ملكنا من قوى وقدرات... وهاهي القبائل وقد أنهكتها الحرب؛ أما أنا فإنني أثق بمن قاتلوني في الميادين أكثر من ثقتي بالرجل الذي انكشفت لي خيانته.

لن يستسلم الأمير إذا لسلطان مراكش وإنما للجنرال لاموريسيير الموجود بقواته هنا

في الوديان وعلى الهضاب مع آلاف الرجال. كان المطر يتساقط بغزارة، وعبد القادر لايتمكن من الكتابة... ومرّ يومان مؤلمان، وكلّ شيء ينهار... وتقدّم عبد القادر يحيطُ به بعض الأحياء من رجاله حتى قبر سيدي ابراهيم حيث قام بفروضه الدينية: وكان رسله قد عادوا من ملاقاة الفرنسيين، وأطلع لاموريسيير الدوق دومال على طلب الأمير فتعّهد له بنقله مع أفراد عائلته إلى عكا أو إلى الإسكندرية...

تقدّم الأمير عندئذ مع من بقي من رجاله نحو «جامع الغزوات» وهناك وأمام جمع من الجنرالات صرح بأنه يقبل طائعاً مختاراً، بعد أن أعْلِن عن الموافقة على شروطه، بالتنازل ومغادرة البلاد.

«كنت أرغب أن أقوم بهذا العمل في وقت أبكر من هذا اليوم. لكنني انتظرت مشيئة الله. لقد قطع لي الجنرال عهداً لي ملء الثقة به، ولا أخشى أن ينقضه ابن ملك كبير مثل ملك الفرنسيين»[1].

في اليوم التالي وهو عشية عيد الميلاد، رؤي الأمير وهو ينظر باطمئنان إلى من بقي في دائرته يلتحق به، يتقدم على حصانه إلى أمام ابن ملك فرنسة وهو يرتدي برنسين أبيضين تحت عباءته السوداء؛ كان أكثر شحوباً وزهداً من كل ماسبق له من أيام وقفز عن جواده الأثير وقدّم عنانه لدوق دومال قائلاً:

«أقدّم لك هذا الحصان الذي أكن له مودّة خاصة لأنه الأخير الذي امتطيته، ويجب الآن أن أفترق عنه، وأنا آمل أن يجري بك إلى السعادة...».

وارتد عبد القادر بن محيي الدين الحسني إلى نفسه وهو في بداية بؤس منفاه، لم يسمع حتى جواب الدوق دومال الذي حملته الريح إلى أبعد من فم المترجم. إنّه من الآن فصاعداً وحيد مع نفسه.

وضعت اليد على ممتلكاته، وبُخست قيمتها، وقدّم سيفه إلى لاموريسيير الذي سيدافع عنه فيما بعد بفتور، لكنه سيساعده ماليّاً.

وتتوجّه الجزائر، لفترة من الزمن، لتغدو فرنسيّة جزئياً، وينطلق متغطرسو باريس منتصرين، مقدّمين الاحترام للأمير دون أن يلحظوا ذلك:

١ ـ لاجدوى من التأكيد على أن جميع شهود ذلك العصر ومؤرخيه يؤكّدون أن الدوق دومال ضمن هذا التعهد، الذي أُخلّ به بعد ذلك! بل إن المجلس التشريعي وجه اللوم بعد أيام لموريسير على تسرعه في وعوده.

«أتاح لنا استسلام عبد القادر أن نخفض عدد الرجال ونقلّل من الأموال المخصّصة لأفريقية... وأمكن لفرنسة أن تنقل إلى أماكن أخرى مئات الآلاف من الرجال الذين وضعوا هذه الشعوب تحت نيرهم».

هذا ماكتبته صحيفة «المرشد Le Moniteur» بتاريخ ٣ كانون الثاني - يناير ١٨٤٨، بينما البحر المتوسط الغاضب والجامح لايريد أن ينقل الأسير إلى مصيره المقدّر.

القسم الثالث

الهجرة - المنافي

«والى ذلك الذي يخبّ باتجاه الغرب، امتدت يد غير منظوورة لتعكس اتجاه مطيته، وتحوّل رأسها نحو الشرق. ماذا ستترك هنا؟»

سان جون بيرس، في كتاب «الرياح».

«أريد أن أجول العالم، فقيراً، في خدمة الله».

أبو بكر

﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله، ورضواناً، وينصرون الله ورسوله ـ أولئك هم الصادقون﴾ (٥٩، سورة الحشر، ٨).

آخر بني المور

ألقى أبو عبد الله، آخر بني سراج، وهو يهجر غرناطة، نظرة أخيرة على مدينته الرائعة، وأطلق تنهدة عميقة، فقد أدرك ضياع كل الأندلس، لأن أبانا آدم أضاع مرة واحدة كل الجنان. هذا الجرح لم يلتئم، فبعد ضياع الأندلس، قام جدل كبير بين العلماء، والأقل علماً: هل يجب القبول بالهيمنة المسيحية والعيش في ظل قانون كافر، أو الأفضل ترك الأرض، والبلاد، وهذه المدن البيضاء المحبوبة، والدروب الهادئة، والمصاطب، وصحون الدور حيث العرائش البهيجة، وهذه الحدائق الندية المعطّرة بأزهار البرتقال؟ كانت جذوع الصبار بألواحها الثخينة تشكّل أسيجة عميقة وترسم خرائط للمكان، وجنبات الدفلى تجوب بيقعها القرمرية الوديان المتطاولة بينما مدُّ السنابل الثقيل المشبعة بالشمس يتمايل مع الريح ويرسم طرقات متحركة لاتعرفها إلا القبّرات.

كان عبد القادر يتأمّل غالباً جمال الخَلْق الإلهي، وهو ينظر باعجاب، دون أن يرتوي، إلى هذا المشهد الكوني. لذلك ليس من المدهش أبداً أن يتصور عدة مرّات، قيادة شعبه كموسى جديد نحو الشرق في هجرة كبيرة. كان يفكّر بها مقتدياً بالنبي ﷺ نفسه. ألا تتحدّث الآيات الأولى من «سورة الحشر» عن هؤلاء الفقراء المهاجرين[1]، ونموذج هجرة النبي أليست هي الأمر العارض؟ ألم يصرح الرسول ﷺ غداة حملة ضد الكفار: «عدنا من الجهاد الأصغر نحو الجهاد الأكبر»؟

١ ـ الآية الثامنة من سورة الحشر «المذكورة أعلاه» التي تفيد الاعجاب بفقر المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم، وهم أول من يدخل الجنة، وفي مقاربة مع النموذج النبوي انظر مؤلف ك. وكوبر «المسكين والمجاهد، أساس الإسلام» باريس ١٩٩١.

واستشار عبد القادر كعادته دائماً، جماعته أولاً، فكانوا منقسمين، ثم علماء العالم الإسلامي بدءاً من عاصمته المركزية القاهرة المصرية حتى فاس المغربيّة: كيف يمكن للمجاهد أن يغدو مهاجراً كما سيّدنا محمد ﷺ نفسه، عندما نزح عن مكة إلى المدينة؟

وأجاب العلماء: «عندما لايتمكّن المسلم من التصرف كمسلم في المنطقة التي يشغلها الغريب أو المحتل يجب أن يهاجر...» والحال لئن كان هذا هو الوضع في الأندلس فإن أمر بورمون في مدينة الجزائر المتعدّي باستمرار على حرية العبادة الإسلامية يلزم بالتأكيد الهجرة.

يشير جاك برك إلى حالات عديدة أفتى فيها العلماء المسلمون بالرحيل، وبدؤوا بأن دخلوا في خدمة الأمير ثم سلطان مراكش قبل أن يرحلوا إلى الجزيرة العربية أو إلى سورية؛ وقد عاد بعضهم في نهاية القرن، بينما رحل آخرون، وهنا يكمن مفتاح أحد غوامض تاريخ الجزائر: وهو الرقم الحقيقي لعدد السكان قبل الغزو الفرنسي(1). وفي رأيي أن الهجرة كما الموت أفرغا قسماً من البلاد، على الأقلّ من قواه البشرية الحيّة: وكما بيّن آجرون فإن الرحيل امتد حتى حرب العام ١٩١٤! كما أن حرب العصابات ضد الفرنسيين لم تنته بنفي عبد القادر لكنها دامت على الأقل حتى فتنة المقراني الكبرى في ١٨٧٠ - ١٨٧١، بينما لم تتمّ السيطرة فعلاً على الجنوب إلا في القرن العشرين.

ضمن هذا المنظور للتاريخ فإن السرد مبتور ولايتبع التسلل الزمني. فسرّ الأسرار يقرأ عبر محطات المواقف السبع: طولون - بو - آمبواز - باريس - بروسه - دمشق - ثم الشرق العمودي.

كما أن السرد لايتبع ترتيب الأماكن، ولاحظٌ سير الرحلات، وأكثر من ذلك فإن

---

١ - فيما يتعلّق بي توصلت إلى نتيجة المناورة الاستعمارية بكميات الحبوب اللازمة لعلف خيول الأمير: فالجزائر كانت تنتج كميات كافية منها والحال أن موضوع تسديد ديون الحبوب هو الذي «برّر» غزو الجزائر... وهذا يعني أنها كانت تنتج كميات منها، وسيدرك القارئ السبب - باستثناء الهواية المشتركة في الولع بالخيل - ألححت على معتمدية الأمير وسوقياته، فليس من الممكن تغذية اثني عشر إلى خمسة عشر ألف رأس خيل، ومثلها من حيوانات الرحّل التابعة، وستين ألف رجل مقاتل دون وجود شعب يصل عدده إلى ملايين الخلائق.

الأسفار في البحر قد دُمجت، إذ بعد مغادرة ممرة مع الحاج بن نعوم أدركت لماذا يسجّل البحر دائماً بشكل مجمل في السير العربية: وكأن الرحلة البحرية تعتبر من الناحية الكمية حيادية إذ أنها استهلاك للزمن في اللامكان؛ إنّها عبور لايشير إلّا إلى انقضاء مدة زمنية طويلة في حركة خالصة نحو الحجاز؛ فالهدف الوحيد هو التوجّه إلى الكعبة. والقصة تصمت دون المراحل، ولاتتضّمن البحر، ليس للتحدث عن الأرض، وإنّما للبرهان بأنها المكان المفضّل: إنّها الطريقة/ الدرب الموصل من المدينة إلى مكة. ومن الشريعة إلى الحقيقة. وبما أن كلّ خط رحلة عبر الصحراء يعتبر مجازاً كالرحلة البحرية، فبالحري يكون كل خط رحلة حجّ كتاباً مؤشّراً بعلامات اصطلاحية، وقبور، ومقامات، وآبار، وأكوام حجارة، مسمّاة ومصنّفة، إشارات تشطّب الأرض كوشم، خُطب وحدة شعور حجيج ضمن مجتمع في السير.

وحده الحلم هو كتابة السائح.

لكن الطرق عديدة وتتصالب أحياناً ولايحول أحدها دون الآخر: وسيبين عبد القادر أنّ اللاتبسيطية الفردية، في مجتمع كالمجتمع الإسلامي، عبر العلاقة الشخصية للفرد مع الخالق المسمى هو /كهويّة إلهية فائقة الوصف/ هي الطريق الأقصر للاتحاد في وحدانية الكائن. بينما ستكون حياته الظاهرة، في الوقت ذاته، مليئة وكاملة.

ولكن كما ترك معلمه ابن العربي أرض الأندلس موطنه، سيترك عبد القادر منطقته الوهرانية لأن الشيخ الأكبر يؤكّد أن «كل الطرقات دائرية» والمسار المتخذ لن يقود إلا إلى السائر نفسه.

الهجرة الثانية

العودة إلى الشرق

محطة الوقوف الخامسة

كان المركب يدور بيطء حول رأس توبكابي في مدينة القسطنطينية، في ٧ كانون الثاني ـ يناير ١٨٥٣، واستنبول تمتد على هضابها السبع على جانب البوسفور.

وكان محمد وإبراهيم يركضان على طول الجسر الخشبي للمركب.

ـ أبي، إنني لا أرى قصر الباب العالي...

ـ ذلك لأنّه خلف الأسوار، هناك، مابعد هذا المنتزه الواسع الذي يصعد، كما ترى.

ـ وضمّ عبد القادر أصغر أولاده، الهاشم، إلى صدره، دون أن تظهر عليه أي إشارة قلق: ماذا سيكون قدره الجديد بعد أن عاد إلى أرض الإسلام من جديد؟ إنَّ له كثيراً من المآخذ على الأتراك حتى ليخجل من نفسه... ومع ذلك....

كانت الزوارق التي يتزايد عددها ترافق الباخرة، والأشرعة مطويّة تقريباً، **واللابرادور** تتهادى ببطء نحو رصيف إيمنونو على مدخل القرن الذهبي. قال عبد القادر وقد رفع قليلاً صوته، «هيّا يا أولاد حان موعد الصلاة» لاحظ محيي الدين، الابن البكر، تقطيباً يرتسم بين حاجبي أبيه. وردّ الأولاد بصوت واحد:

ـ آه! كلا.

وأضاف أحمد وعينه تبرق ببعض اللامبالاة: لقد أعفيتنا من الفروض خلال السفر، كما أنني سأستدرك مافاتني من الصلوات هذا المساء.

ابتسم عبد القادر وقال:

ـ كلا يا بني، لقد أعفيتكم من بعض الصلوات، لكن ليس من الصلاة ككل ولا من شكر الخالق إلهنا، الواحد، لأنه قادنا إلى المرفأ الأمين، إلى دار الإسلام، نحو خليفة المسلمين المعظّم. «وبعد كل حسابٍ، يا إلهي، إنهم يعبرونَ عن حمدهم لك بفرحتهم بعد التجارب العديدة». قال عبد القادر في نفسه، وهو يفكّر بذعر، في وصوله الأوّل إلى أمام طولون على الباخرة **«الاصمودة»** في كانون ثاني ـ يناير ١٨٤٨، بعد عبور جليدي، كان مقدّمة لهذا البرد الرطب الذي سيقتل عدداً من ذويه في السجون الفرنسية. وطرد من فكره صورة أمّه الورعة وهي تنتحب في ممرات حصن لامالغ الرطبة وتقول: «اللي فات مات!» ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلْك، فقُل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وقل ربِّ أنزلني مُنْزلاً مباركاً، وأنت خير المُنزِلين﴾

(٢٣، سورة المؤمنون، ٢٨، ٢٩).

وكان عبد القادر منذهلاً، دون أن يفصح، باتساع المدينة التي تمتد تحت ناظريه، وعدد المساجد وضخامتها، وأهمية المدارس المتجمّعة حولها، وروعة حدائقها، فهو، رجل الصحراء، لم ير أبداً مثل هذا الإسراف في كل شيء، حتى في القاهرة، أو في

بغداد، أو في مكة؛ فالزوارق الصغيرة على طول الأرصفة ملأى بالأسماك، والثمار والبقول. وأيقن أن أولاده سيستعيدون صحتهم في بلاد بمثل هذا الغنى، وتوجّهت صلواته للترحّم على أرواح المخلوقات الصغيرة المتوفاة في بو، وامبواز، وبقيت هناك في بلاد الكفر، رغم وعود الراهب الطيّب الذي عَرَض صيانة قبر مبارك المسكين. الله وحده يعلم الساعة.

لكن فكرة سيئة كانت تدور في خاطره في الوقت ذاته: كان بإمكان الأتراك أن يساعدوه بقوّتهم، وداي قسنطينة خاصة، وقد كان أحد رعاياهم المخلصين لكنهم تركوه يضعف ويتلاشى كالكلب. وفكّر بالحديث الذي ذكره مسلم عن عجرفة القسطنطينية المبتهجة لهزيمة القدس، وبكل التبنؤات الرؤيوية التي تعلن **الملحمة** والمسيح الدجّال[1]:

«لكن لن تأتي الساعة قبل أن ينزل الروم في منطقة حلب، ويخرج جيش من المدينة المنوّرة لحربهم، ويتهيّأ أفضل رجال الأرض في تلك الأيام للمعركة. ويقول الروم عندئذ: «دعونا نقاتل من أسروا رجالنا». ويجيب المسلمون: «كلا، قسماً بالله لن نتيح لكم أن تمسّوا أخوتنا» ويتصارعون، ويُقهَر ثلث المسلمين دون أن تنالهم رحمة الله، ويُقتَل الثلث الثاني ويكونون أفضل الشهداء لدى الله. وينتصر الثلث الأخير، ولن يُقهَرَ أبداً، ويستولي على القسطنطينية...».

ـ كان يرى أسلحة، وجنوداً في كل مكان، وقد شوّشته هذه الفكرة إلى أن أتى أخيراً من ينبئه بأن السلطان يدعوه لمقابلته.

كانت السلطنة العثمانية في آن واحد تغلي مع التحديث الذي بدأته **التنظيمات**، وهي إصلاحات بدأها السلاطين المتنوّرون ـ كما أنّها في تفكك فقد ضاعت منها أفريقية الشمالية، والبلقان، وانتزعت منها روسية شبه جزيرة القرم، وغدت مصر مستقلة عمليّاً عنها. ورأى عبد القادر، الذي كان ضحية مباشرة لهذا التفكك، أمام عينيه، قيام نظام جديد تسيطر عليه فرنسة وانكلترة، وكان أيضاً مسحوراً بهذا التغيّر الذي حقّق له سعادة كبرى لوجوده أخيراً في ديار الإسلام، ولكنه لم يكن يعلم بعد الدور الذي سيلعبه، دون إرادة منه، في النهضة العربية، وفي نشر الإسلام الأكثر كتماناً، والواقع ففي دراسة ثلاثية التعبير الإصلاحي: **تنظيمات**، **نهضة**، **إصلاح**، التي

١ ـ هو النبي الكذاب الذي يأتي قبل نهاية الكون، وفقاً لرؤيا يوحنا، ليدعو إلى دين معاكس (المترجم).

يجب أن يضاف إليها كلمة بعث؛ حان الوقت لتضمينها بالعمل الأكثر عمقاً لإسلام الصمت.

سينزح عبد القادر من التراث الروحي، وخاصة لدى ابن عربي. وهو يشرح لنا لماذا يستشهد في كتاب المواقف بمعلمه. إنه يعتقد في الواقع أن الكون كان في رقاد عندما توفي رسول الله ﷺ، ولمحّ إلى الحديث الذي يذكر أن هذا قد نزل خلال الثلث الثالث من الليل نحو سماء هذا العالم: «إننا الآن في الثلث الثالث من ليل رقاد الكون. والواقع أن المظهر الإلهي الذي يمنح النِعَم، والعلوم، والمعارف الكاملة بأشكالها الأكثر تماماً هو ذلك العائد إلى الثلث الأخير من الليل، لأنه الأقرب، ولأنه يظهر في سماء عالمنا. لذلك فعلم هذه المجموعة هو أكثر كمالاً باقترابها من نهايتها منه، في وسطها، أو في بدايتها منذ موت رسول الله ﷺ.

هذا يعني كم يجب في جلبة النهضة، ثم القومية العربية، ألا تبخس قيمة الإصلاح الآخر كما كان الأمر حتى ذلك الحين. وهذا الإصلاح يعود إلى إسلام أكثر كتماناً، وأكثر حميمية يشعّ في دوائر محدودة من عارض سريع الزوال بحيث لايحسّ به من يهتم بالوقائع التاريخية. ومع ذلك فهؤلاء الرجال كانوا على تصالب طرق العروبة والإسلام. وبعض تلامذة عبد القادر اشتهروا نظراً لمواقفهم الجهرية (مثل عائلة العايش)، وهم شواخص على درب يجب استكشافها يوماً؛ فسنجدهم في الأخويات، وفي المحافل الماسونية، ولكن سيوجدون خاصة في الأماكن، من الأكثر انفتاحاً، حتى الأكثر كتماناً، التي راح الأمير يعلّم فيها: هذا العلم الذي نضج خاصة عند عودته من الغرب، في ذلك الشكل المبتكر في الجري نحو الشرق الذي بدأه عبد القادر في برد وألم طولون، نحو النور، التشريق المكتمل.

الفصل الأوّل
المنفى الأول التجوّل في فرنسة المور[1]
من النفي في فرنسة إلى الكتمان.

محطة الوقوف الأولى

طولون: كانون ثاني - يناير ١٨٤٨: القنوط

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل هو الله أَحَد * الله الصَمَد * لم يَلِد ولم يُولَد * ولم يكن له كُفُواً أحد﴾ (١١٢، سورة الإخلاص ١ - ٤).

عيد الميلاد ١٨٤٧ يحلّ، والباخرة **الأصمودة** تترنّح في البحر المتوسط لامبالية بمصير البَرَرة، باردة، عنيفة، متعبة، جامحة كأنها تريد أن تنكر تاريخها الخاص، وهي ترتجّ بين شاطئ وآخر حتى البرقتين[2] وما بعدهما حتى أعمدة هرقل[3] وعبد القادر على متنها، لم يلتفت إلى الوراء بعكس أبي عبد الله وآدم، يترك بلاده ومسقط رأسه دون أن يعود إليها حيّاً، فالمنفى الغربي ينتهي أخيراً بعودة الروح المنفصلة إلى كنهها المفقود؛ سكينة في الوجدان المنشطر بحثاً عن الوحدة المستحيلة.. لم يكن يعرف بعد أن طولون ليست مرحلة نحو الشرق كما وُعد، إنّما هي سجن رهيب بارد ورطب. كانت الباخرة الفرنسية محمّلة بالنساء، والأطفال، والشيوخ، والجرحى، الذين استقلوها على عجل من جامع الغزوات إلى وهران ثم إلى المجهول. إنّهم يجابهون مخبولين المنفى في فوضى الضياع. وقد بيعت جميع أملاك الأمير وأمتعته بمبلغ زهيد، ولم يكن يعلم بعد أن سلطان مراكش قد خانه وأنه أمر بقتل موفده الأمين بوحميدي.

---

١ - المور MAURE: اسم أعطاه الرومان لبربر أفريقية الشمالية ثم شمل بعد ذلك العرب الذين احتلوا الأندلس ووصلوا إلى جنوب فرنسة، ومنه حالياً اسم موريتانية (المترجم)

٢ - البرقتان Les SYRTES: خليج برقة في ليدية وخليج قابس في تونس.

٣ - أعمدة هرقل: ضفتا مضيق جبل طارق.

رست الفرقاطة في ١٠ كانون ثاني - يناير ١٨٤٨، وقسم الأسرى إلى مجموعتين، أرسلت الأولى إلى حصن مالبوسكه، أما الثانية المؤلّفة من الأمير وعائلته فأرسلت إلى حصن لامالغ Lamalgue عبر ممّرات رطبة، سيّئة الإضاءة، ونساء الأمير يبكين وهنّ يعانقن والدته لالا زهرة الصامدة، شاحبة، في غلالاتها المدعوكة، بينما اقسم مصطفى بن التهامي ألا يتكلّم وألا يغسل لحيته المخضّبة بالحناء. أما قره محمد قائد فرسان الأمير ومرافقه الدائم فقد تزيّا بزيّ خادم ليبقى إلى جانب سيّده. أمّا الأخوة وبقية الأقارب والتابعين فسيصلون فيما بعد، وقام جَدَل كبير لمنع إرسالهم إلى جزيرة أخرى أكثر بعداً.

لم يفهم عبد القادر سبب نقض ابن الملك لعهده: إنّه يريد السفر إلى الإسكندرية لكن الملكية كانت تترنّح والأحزاب والجهات المختلفة منقسمة حول مصير الأمير؛ وأصغى عبد القادر مندهشاً، مستغرباً الاقتراحات التي نقلها إليه الجنرال دوماس الذي هرع من باريس، مرسلاً من قبل غيزو Guizot[1] الموجّه هو بالذات من الاستعماريين: يجب على الأمير أن ينسى الوعود المقطوعة له.

- إنّكم لاتعرفونني إذاً؟ كم هم غريبون هؤلاء الأروام! هوذّا رجل كنت أعتقد أنني أعرفه[2] وقد جاء ليهينني في عمق سجني بالذات؛ ولكن كيف يتصرّف هؤلاء الفرنسيون؟

فوجئ عبد القادر بهذا الطلب وأجاب:

«إذا كان بإمكانك أن تأتيني من قبل ملكك بكلّ ثروات فرنسة، مجمّعة أموالاً ومجوهرات، تضعها في ذيل هذا البرنس، لرميتها حالاً في البحر الذي يلطم جدران سجني، ولا أعود عن المطالبة بتنفيذ العهد الذي قطع لي علانية. هذا العهد الذي سأحمله حتى قبري. إنني ضيفكم، فاجعلوني أسيركم إن أردتم، لكن الخزي والعار سيلحقان بكم لابي».

هذه الصيغة التي ذكرها الأمير فيما بعد لشرشل أكّدها دوماس بنفسه وكذلك

١ - فرنسوا غيزو (١٧٨٧ - ١٨٧٤): سياسي ومؤرخ فرنسي كان رئيساً للحكومة في ١٨٤٧ - ١٨٤٨ سببت سياسته المحافظة ثورة ١٨٤٨ وقيام الجمهورية الثانية (المترجم).

٢ - كان دوماس DAUMAS كولونيلاً في الجيش الفرنسي أثناء معاهدة تفنا وعيّن وكيلاً - وبمثابة قنصل لفرنسة لدى الأمير في عاصمته «معسكر - عند تنفيذ المعاهدة» (المترجم).

عدد من معاصريه. كان موقف عبد القادر واضحاً: إنّه ضيف فرنسة حتى القبر. ولاندرك لماذا وكيف يمكن لبعض الأفكار الزائغة أن تشكّك في تمسّكه بالمواثيق لكن هذه هي قصّة الآخرين، وقصّة الأمير وحدها تهمّني هنا.

وسيعترف له فيما بعد: «دوماس، إنني أموت!» وكما الأمر دائماً يلجأ إلى الشعر ليعبر عن قلقه:

لاتسألني أين روحي
فأنا ذاهب حيث تذهب
وأرغب فيما ترغب
ميت رغم قوتي وصحة جسمي
لن أنساه ماغرّدت ورقاء بشجوها الحزين
وعندما أغيب وتتابع روحي هيامها في الصحراء
سأذكر دوماً مليحات الصبا والجمال اللواتي أنقذتهن صباح المعركة
عندما هربن مذعورات وعلالاتهن تتلاعب بها الرياح.

كان عبد القادر يجلس على سريره الحقير في عمق ذلك السجن الرطب؛ ونفسه ترزح باستمرار في محاولة الإجابة على جميع الأسئلة التي تراوده، لايمكنه أن يستسلم للجنون، وهو يفكر بالموت، يجلس في تلك الوضعية التي طالما لفتت أنظار زوّاره في بو، إحدى ساقيه مثنية تحته، والأخرى طليقة، إنّه في جدلية الوجد المعكوس: في اللحظة التي تتغطن فيها البهجة بالألم. في مأثور الكتاب إن المصائب تعيد الإنسان إلى طبيعته، إنّها تنقله من حالة غبطة أصلية إلى الحالة الحيوانية، الفطرية، العضوية. وهكذا فعالم الإنسان جهاد مستمر كي لاينزلق إلى الحيوانية، والعنف الطبيعي، والفوضى، والفتنة... وقد أدرك عبد القادر أن هذا التوتر المستمر هو في الوقت ذاته صعود نحو الحالة الفردوسية بين الحالتين.

﴿وجاءت سكرة الموت بالحقّ، ذلك ماكنت عنه تحيد﴾ (٥٠ سورة ق، ١٩).

وكعادته عندما يتعرّض لمحنة أو تجربة، يعود منهجياً إلى تلاوة القرآن الكريم، وإلى تعاليم أبيه ومعلميه ليجد فيها عناصر الإجابة. وكإبراهيم يعي أن الإستقرار ليس من طبيعة الإنسان، وكآدم وحواء ترك ابراهيم الخليل بلاده وبيت أبيه، والنبي نفسه ﷺ،

اليتيم، يحقّق ويدشّن يوم الصفر من العصر الإسلامي عند وصوله في ٢٤ أيلول - سبتمبر ٦٢٢ م إلى يثرب التي تغدو عندها المدينة؛ فبداية الهجرة تسجّل هكذا الفصم في مدى الإدراك، الفصم الأونطولوجي الذي يغيب في النسيان والنفي وثنية مكة الجاهلية، جاهلية الفوضى التي وجب التغلب عليها بالقوّة.. ويدمّر النبي في رمضان من السنة الثامنة للهجرة أوثان الكعبة... فالفصل هنا انتقال سلبي يقطع العلاقة مع مكان مشوّش ومجتمع رفض كلام الحق. ولغة بابل نصبت خيمة بداوتها بيننا، والتّيهان ماقبلَ التاريخي كتيه الجاهلية، بربرية ماقبل الإسلام، يجب أن ينتهي إلى ماهو أبعد من أوهام الاستقرار، إلى الوعي بأننا عابرون في هذه الدنيا، إنما نحن كفرعون وقد فاته أن يخلّص نفسه، لانريد أن ندرك أن الإنسان في منفى... لكن ماهي إرادة الله؟ وكيف نفهم إشاراته؟ إن الكلام المنزل ينبهّنا:

﴿بديع السموات والأرض، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (٢، سورة البقرة، ١١٧).

﴿كذلك يخلق الله مايشاء، إذا قضى أمراً، فإنما يقول له كن فيكون﴾ (٣، سورة آل عمران ٤٧).

كيف يمكن إدارة غير المتوقع؟ إن عبد القادر سيبدأ طريقة حياة جديدة، حياة جوّال، وهو لايعلم حتى الآن أنه سيغدو ذلك المتجوّل المتحفظ، المتلائم في قرارة نفسه مع طريقة ولاء العرب غزاة العالم في صدر الإسلام. إنه يعود إلى نقطة الصفر. فكل بداية هي استئناف في واقعها كمأساة، تدشين عنف.

عندها تبدأ محادثات طويلة مع دوماس ولرو Lheureux قائد الحصن، حول جميع المواضيع الفلسفية والدينية، والسياسية، ويكتب إلى الأسقف دوبوش Mgr Dupuch، وإلى آخرين؛ وينظم القصائد، ويصلي خاصة، وينصرف إلى تعليم أولاده، ويغيب المقاتل في ظلّ العالم الذي ينصرف إلى تعليم الآخرين، فيحقق التقليد النبوي الذي يؤكّد أن العلماء هم ورثة الأنبياء. وقد فكّر عبد القادر دائماً أن هذه هي مهمته الرئيسة، وأن الأخرى لم تكن إلا عارضة، وقد شرّب قناعته الهادئة لرفقائه، وهو يذكر في كل مرة لزوّاره الرسميين:

«ليس لديَّ ضمانة أعطيها لثبات تصميمي الحاسم مستقبلاً، إلا ماكنت قد أعطيته، فلو لم أرد الاستسلام لما رأيتموني هنا».

ومافتئ يؤكّد على هذا الوضع الذي لم ينحرف عنه، كما تشهد جميع مراسلاته حتى بعد تحرّره من الأسر.

دورة فرنسة المور

تطلّ سنة ١٨٤٨ وهي غريبة بما يحصل فيها من أمور مذهلة؛ إذ يحلّق لامرتين فوق الأحزاب بجمهورية ذات خمسة رؤوس تستسلم بعد ذلك لنابوليون الثالث مكرّرة بما يشبه التهريج ١٨ برومير[1]. وبينما لاتعرف الثورة ماذا ستفعل في الجزائر، كانت تسمع في المجلس آراء غريبة.

فبوجو يؤكّد:

«يجب التخلي عن الجزائر، فهذه البلاد التي لاينبت فيها القمح أبداً، يجب أن تحكم بواسطة الزعماء الوطنيين ولايحتفظ فيها إلا ببعض المرافئ من أجل التجارة».

ويقفز فيكتور هوغو معارضاً:

«يجب الاحتفاظ بالجزائر لأننا سنحمل إليها الحضارة».

وأراغو العالم الكبير[2] لايريد تغيير الوضع، ويصرح:

«ليس على الجمهورية أي التزام تجاه عبد القادر، فهي تأخذه في الوضع الذي تركته فيه الحكومة السابقة أي أسيراً...!».

وتؤكّد الصحافة والحزب الاستعماري على خطر السماح للأمير بالذهاب إلى مصر حيث سيتلّقى دعم الانكليز... وحتى توكفيل[3] ينطلق في هذه القضية من حكم محذّر:

«يجب ألا نعيد قصة غزو أمريكة، ولانقلّد الأمثلة الدمويّة التي استهجنها الرأي العام من الصنف الإنساني تجاه الحقد الشديد الذي تولّد في قلب شعوب القارة

١ ـ تقوم ثورة في العام ١٨٤٨ يضطر على إثرها لويس فيليب للتنازل عن العرش في ٢٤ شباط ـ فبراير ١٨٤٨ وتقوم الجمهورية الثانية حيث يتقلّد الشاعر لامرتين فيها وزارة الخارجية، وينتخب شارل لويس نابوليون ابن أخ بونابرت رئيساً للجمهورية، وهذا ما يذكّر بيوم ١٨ برومير (٩ تشرين ثاني ١٧٩٩) عندما عاد نابوليون من مصر وأنهى حكم المديرين وأعلن قيام القنصلية (المترجم).

٢ ـ فرانسوا أراغو: فيزيائي وفلكي فرنسي (١٧٨٩ ـ ١٨٥٣) تولى لفترة قصيرة خلال ثورة ١٨٤٨ وزارة الحربية والبحرية.

٣ ـ توكفيل (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩): كاتب سياسي فرنسي (المترجم).

الأصليين، والذي تغذيه دائماً السيطرة الأجنبية... ستغدو الجزائر عاجلاً أو آجلاً حلبة مسوّرة ينبغي على الشعبين الصراع فيها دون رحمة حيث يجب موت أحدهما».

ويكتب الأمير رسائل إلى جميع الجنرالات ورجال السياسة الذين صادفهم: ولا يردّ أحد. عندها ينصرف عبد القادر إلى العناية بأمه، وتعليم القرآن إلى أولاده، وقراءة المؤلّفات الدينية لمن حوله، ويصلّي، ويستقبل بعض الزائرين، ومنهم الراهب كوردوران، ويقضي ساعات مع دوماس ولرو. ويتحدّث في الرياضيات مع سجّانيه... ويعرض لدوماس الذي يسجّل ملاحظاته كل يوم وجهة نظره في الخيل، بكلّ تأكيد، وأيضاً في الدين، كما يحدّثه عن الجزائر.

«يمكن أن يقارن العلم بمطر السماء؛ عندما تسقط قطرة منه على محارّة منفتحة فإنها تعطي لؤلؤة، وإن سقطت في فم أفعى أعطت سمّاً ناقعاً». ودائماً بهذه اللذعة من السخرية المميّزة له، ينتهي بحكم قصيرة وحاسمة سنجدها في جميع نتاجه الفلسفي والديني والصوفي:

«إذا أراد الله ضياع نملة، خلق لها أجنحة لتطير ويأتي العصفور فيأكلها...»

وكتب في ٢٨ شباط - فبراير ١٨٤٨.

«دوماس، قرأت في الكتب أن الجمهورية شكل حكم جيّد، لكن أترى كم تجعلنا ثقافتي أكثر تبصّراً من ثقافتكم حول مصير الإنسان، هوّذا سلطان كبير سيّد، ملككم فيليب الذي أخضع أفريقية، وقوي بتحالفاته وذرّيته، واشتهر بحكمته، لكن يوماً واحداً كان كافياً لخلعه! ألست على حقّ في اقتناعي بعدم وجود قوّة موثوقة، وحقيقة، وواقع، إلا بمشيئة الله؟ صدقني إن هذا العالم، عالمنا الحالي، ليس إلا رِمّة، وليس من متنازع عليها إلا الكلاب».

﴿تبارك الذي بيده المُلك، وهو على كلّ شيء قدير﴾ (٦٧، سورة الملك، ١).

أعلن له الجنرال دوماس المفتتن أكثر فأكثر بأسيره، والقلق من كآبته. أن الجمهورية سترسل له رسولاً لأنها تخشى من النوايا الإسلامية أن تظهر مجدداً في الجزائر. ولم يكن رسولها إميل أوليفيه ذلك الأحمق العدواني، لكن وجب عليه أن يحصل على وعد من الأمير. وكانت مداولتهما حزينة ومأساوية في آن واحد وقد أعدّ عبد القادر نصّين[1]

١ - مرة أخرى فضلت ترجمة ميشيل هابار، لأنني لا أعلم أين هي هذه الرسالة في الملفات الحكومية، ولها نصٌ مختلف قليلاً لدى آزان لكنه أكثر تعاطفاً مع الأمير من نص شرشل.

اعتبرهما توطئة لتحريره وسفره إلى المشرق.

«الحمد لله الواحد الأحد، الذي لايزول ملكه مدى الأبد إلى أركان الجمهورية الذين يحكمون فرنسة، وهم بالنسبة لها كما العينين والأعضاء للجسم».

حضر لرؤيتي سيدي أوليفيه رسولكم، وأبلغني أن الفرنسيين باتفاق تام بينهم أبطلوا الملكية وقرّروا أن تكون بلادهم من الآن فصاعداً جمهورية.

سرّني هذا الخبر لأنني قرأت في الكتب أن هدف هذا الشكل من الحكم هو اقتلاع الظلم ومنع القوي من التسلّط على الضعيف. انكم قوم كرام تتمنون الخير للجميع؛ ويفترض أن تكون روح العدل قد أملت تصرفاتكم؛ والله قد اختاركم لتكونوا حماة التعساء والمكروبين. لذلك فأنا أعتبركم حماتي الطبيعيين، فأبعدوا عني هذا الحجاب من الألم الذي ألقي علي، إنني أطلب تحقيق العدالة على أيديكم.

لايمكن لأحد منكم أن يدين مافعلته. دافعت عن ديني ووطني قدر ما استطعت؛ وأنا على يقين بأنكم لن تستطيعوا في نبل نفوسكم إلا أن تقدّروا صنيعي، عندما قهرت ـ وعندما بدا لي بما لايقبل الشك أن الله، لأسباب تخفى عنا قرّر سحب يدَ عونه لي ـ **اتخذت قراري باعتزال العالم**[١].

وبينما كان بإمكاني بسهولة كبيرة أن أجد ملجأً لدى البربر أو قبائل الصحراء، ارتضيت أن أضع نفسي بين يدي الفرنسيين.

كنت مقتنعاً أنهم سينقلونني، بمجرّد إعطائهم الوعد لي، إلى البلاد التي طلبت الذهاب إليها؛ وضمن هذه القناعة اخترت فرنسة، ووثقت بها، لأن كلمة فرنسة، حتى ذلك اليوم، تعتبر موثوقة لاتنقض. وهكذا طلبت من الجنرال لاموريسيير أن أنقل إلى الإسكندرية دون الرسو في وهران أو مدينة الجزائر أو أي مرفأ فرنسي.

بناءً على هذا الطلب، لم يمنحني فقط موافقته الشفهية، بل أرسل لي رسالة رسمية يضمن فيها تحقيق رغبتي موقّعة باسمه بالفرنسية، ومختومة بختمه بالعربية. وعندما وصلتني هذه الرسالة، وأيقنت أن كلمة فرنسة واحدة، سلّمت نفسي لكم.

١ ـ التأكيد على هذه العبارة من قبلي لأنها مفتاح التتمة، وبدونها لايمكن فهم تصرّف عبد القادر لذلك عنونت فصل الأحلام بامبراطورية عربية فكر بها نابوليون الثالث: «مملكتي ليست من هذا العالم» (انظر القسم الثالث).

إن قناعتي في الوقت الحاضر قد تزعزعت، فأعيدوها بمنحي حريتي.

إنّكم أنجزتم عملاً يعد بنشر السعادة بين الجميع، فلا تجعلوني مستثنى من وعدكم.

غالباً ما قلت في نفسي: «إن يأسرني الفرنسيون في المعركة فسيعاملونني بشهامة، لأنهم أهل شجاعة وسماحة ويعرفون كيف يقيمون التوازن بين الغالب والمغلوب».

وبعد! فأنا لم أؤخذ أسيراً، وإنما سلّمت نفسي بملء إرادتي الحرّة. يمكن لبعضكم أن يتصوّر أنني أسفت على الحل الذي اتبعته، ومازال تتملكني الرغبة بالعودة إلى الجزائر، فأقول إن هذا لن يحدث، ويمكنني أن أعدّ الآن من بين الأموات، ورغبتي الوحيدة هي أن يُسمَح لي بالذّهاب إلى مكة أو إلى المدينة لأنصرف إلى الصلاة هناك والتعبد إلى الله العلي العظيم إلى أن يأخذني إلى جواره.

وتقبّلوا تحياتي.

عبد القادر بن محيي الدين، ١٢٦٤/آذار - مارس ١٨٤٨[1].

مَن من الحكومة المؤقتة يمكنه أن يدرك أن المسارّ هو في طريقه إلى الولادة مجدّداً من هذا الموت؟ إن عبد القادر نفسه لايعرف ذلك بعد. والله هو العليم لكن الأمير يرفق بهذه الرسالة وثيقة[2] كتبت بخط يده تؤكد وعده «العزّة لله وحده» أعطيتكم وعد شرف لايمكن أن يتطرّق إليه الشك (لايمكن بعده أن يداخل نفوسّكم أي شكٍ) وبيانه:

أصرح أنني من الآن وصاعداً لن أقوم بأيّ عمل يعكّر الفرنسيين، لا من قبلي شخصياً، ولا بالرسائل أو بأي طرائق أخرى (لا بالكلام، ولامن قبل أي من أتباعي، وذلك طيلة مدة حياتي).

أقسمت هذا القسم أمام الله، وبمحمد ﷺ وإبراهيم وموسى ويسوع المسيح وبالتوراة (وبأسفار موسى الخمسة) والإنجيل (والزبور) والقرآن؛ (وبمكة والمدينة، والأرض المقدّسة. أقسم بالبخاري ومسلم وكل ما لدينا من مقدّسات) أجري هذا القسم بقلبي، وكذلك بيدي ولساني (أقلع كلياً عن التعرّض لقضايا الفرنسيين).

---

١ - في كتاب «تحفة الزائر» - الطبعة الثانية ١٩٦٤ ص٥١٧ - ٥١٨ رسالة مماثلة في المضمون لهذه الرسالة لكنها مختلفة في التفاصيل لذلك فضلت ترجمت النص الفرنسي عدا عن أن الرسالتين مختلفتان في التاريخ فرسالة التحفة مؤرخة ٦ شباط - فبراير ١٨٤٨ (المترجم).

٢ - النص الذي ذكره آزان أكثر اكتمالاً من نصّ شرشل، أوردت النصين، وبين قوسين ما ليس في ترجمة هابار.

هذا القسم يلزمني أن ورفقائي، وهم أكثر من مئة، سواء منهم من يوقع هذه الوثيقة أو من لايوقعها لجهله بالكتابة.

مع تحيات عبد القادر بن محيي الدين.

ومرة أخرى تزدري فرنسة بهذا العهد المعطى، فلا يضارع ضنى عبد القادر إلا قنوط أهله وجماعته الذين يفكرون بالانتحار، ويصيح الأمير يائساً: «وليغفر الله هذه الجريمة نظراً لدوافعها».

يبقى دوماس، مدة طويلة أيضاً سنده الوحيد وتعزيته، ويغرق الأمير، وعائلته في قنوط عميق. ويثير الإعلان عن نقلهم ـ كأسرى ـ إلى قصر بو سخطاً كبيراً بينهم، خاصة وأن قسماً من رجالهم تقرّر إرساله إلى جزيرة سانت ـ مرغريت. ويصرخ الأمير أن القوة وحدها ستلزمه بالتنفيذ، وأخيراً وبفضل دوماس الذي يرافقه يتم نقل الأمير مع سبعة وستين شخصاً من أهله وأتباعه في ثلاثة مراكب إلى مرفأ ست Sete، وتغادر هذه المراكب طولون في ٢٨ نيسان ـ ابريل ١٨٤٨ يرافقها دوماس ولرو.

محطة الوقوف الثانية

بو ـ ١٨٤٨: التجربة

من سِتْ، وعن طريق قناة الجنوب يصلون إلى تولوز بعد ذلك بيومين حيث ينزلون في فندق بيبن Bibent في شارع بالانس Balances، ويتدافع الفضوليون ويرتسم في الرأي العام تيار مقرّب للجزائريين، إذ أن كثيراً من الجنود الذين خدموا في أفريقية كانوا يعرفون تسامح الأمير مع الأسرى. وفي اليوم التالي، وهم محاطون دوماً بالدرك والقنّاصة على الخيل تسير القافلة إلى بو عن طريق البيرنيه والبريد؛ ويصلون إلى قصر هنري الرابع في ٢٩ نيسان وفي وقت متأخّر من الليل، ويتوفى أحد الأطفال خلال السفر. حواجز من حديد، وجنود، وحرس، ودوماس الذي يغادر تاركاً مهمته للنقيب بواسونه، بينما عبد الله أحد الأبناء المريض منذ طولون يتوفى بدوره... ولايملك عبد القادر أبداً الهمّة على تأمّل قمم البيرنيه المكلّلة بالثلوج مع أنه لاحظ وهو يعبر هذه المقاطعة من فرنسة كم هي غنيّة بتلالها المشجّرة التي تشرف عليها هذه الكنائس الجميلة المبنية بالآجر الأحمر وقباب الأجراس ذات الجدران، وهذه الأنهار الغزيرة، والقناة المظلّلة مع طرقاتها الكبيرة لجرّ السفن وهويساتها، والتوقّف عند عتبة لورانمه في

المكان المسمّى: «نقطة توزيع المياه». كلّ ذلك أدهش عبد القادر فتساءل: كيف يمكن لفرنسة، وهي بهذا الغنى، وهذه السعة أن تقصّر إلى هذه الدرجة في شهامتها نحو أولئك الذين وضعوا بها ثقتهم.

كان قصر بو قيد الترميم، وأنزلت عائلة الأمير في الطوابق بينما وضع عبد القادر خلال الليل في البرج القرميدي المسمّى برج غاستون فوبوس؛ وكان من جملة تعليمات الحكومة منع الأمير من تعلم اللغة الفرنسية. ومع ذلك تنتظم الحياة، وتأخذ مدينة بو المتحفظة في الوهلة الأولى، من استقبال هذا الأسير، شيئاً فشيئاً، في جعل الحياة له أكثر سهولة، فيزوره الوجهاء والضباط، ورجال الدين، وتنشأ بعض الصداقات حتى بين النساء بحيث كوّنت فيما بعد فريق ضغط حقيقي، ولم ينقطع الأمير خلال سنوات طويلة عن الكتابة إلى جميع هؤلاء الأشخاص الذين ساعدوه في بو كما في أمبواز، بما فيها رسائل شعرية يصعب إظهار فصاحتها بالفرنسية، وعلى سبيل المثال ما وجهه إلى السيّدة دي باربوتان[1]:

أعينيّ ابكيا بدموع من دم، إلى أن تفقدا البصر

دون أن تعوّضا أكبر خسائر هذه الدنيا

الزمن الذي فقدناه، والصديق الذي غاب عنا.

- ويأتي بعض قدماء جيش أفريقية للالتحاق به طالبين العمل في خدمته، كنافخ البوق اسكوفيه، وتتكوّن مجموعة رسوم إبينال EPINAL، ويساهم فيها الأسقف دوبوش خاصة، وهو لايفتأ يردّد كم هو كبير الأمير، وكم هو مدهش في المحنة، ويموت له ولد آخر، وتولد طفلة صغيرة... ويبقى الخدم والأهل، والأشخاص المتقدّمون في العمر على حشّيات ملقاة كيفما اتفق في الغرف، وحتى في الممّرات، غير متأثرين بالرواح والمجيء غير المنقطعين، وغير آبهين بالجنود والحرس، ويرد بين الحين والآخر خبر طيّب يجلو سواد المرارة: معتقلو جزيرة القديسة مرغريت يعودون للالتحاق بأسرى قصر بو، ويحصل قره محمد على إذن بالتجول بين غابات منتزه بو؛ ويخرج أحياناً أخوة الأمير في عربة حتى الضواحي مدعوين من الوجهاء. وتقوم علاقات طيّبة مع النقيب بواسونّه كما تنشأ بين عائلة الأمير وزاراغوزا آمر القصر صداقة حقيقية.

---

١ - عرض تميمي في «مجلة التاريخ المغربي» العدد ١٢، تموز - يوليو ١٩٧٨ نحو مئة من هذه الرسائل.

لكن عبد القادر، ككل عربي في حداد لايترك مقرّه، واعتبر أنه سيبقى أسيراً مدى الحياة، فتغلب على شكوكه، واستسلم لقدره، وسيطر على انفعالاته بل إنه يكتب بناء على طلب دوماس بحثاً عن وضع النساء في الإسلام (انظر الوثيقة رقم ١٠).

ويذكر عبد القادر للأسقف أن القرآن يوصي المسلمين بأن يضطلعوا بأمور تراثهم.

﴿شَرَع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه، كَبُر على المشركين ماتدعوهم إليه، الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب﴾ (٤٢، سورة الشورى، ١٢).

﴿فلذلك فادع واستقم كما أُمِرت ولاتتبع أهواءهم، وقل آمنت بما أنزل الله من كِتاب﴾ (٤٢، سورة الشورى، ١٥).

ومافتئ يذكر لجميع زائريه أنه صبور في المحنة، وأنّه يدرك صعوبات فرنسة لكن لايمكنه أن يتخلى عن العهد الذي قطع له باستقراره في المشرق. وهذه هي رغبته، وهو يذكّر بها في كلّ مرة، كما يكتب عنها لجميع مراسليه وخاصة إلى الأسقف دوبوش.

«وكما استطعت أن تميّز عبر مرآة محادثاتنا: أنا لم أُخلق لأكون مقاتلاً ويبدو لي أنه لم يكن علي أن أحمل السلاح حتى ليوم واحد، ومع ذلك فقد حملته طيلة حياتي. إن أقدار العناية الإلهية خفيّة! فبمصادفة غير متوقعة وجدتني فجأة خارج المجال الذي كان كل شيء يهيّئني له: ولادتي، وتربيتي، واختياراتي. قَدَر، ونزعة، أرغب من كل قلبي، كما تعلم، أن أعود إليهما، ولا أفتأ أتضرّع إلى الله أن يحقق لي هذه العودة الآن وأنا في نهاية سنوات نشاطي...»

وبصورة خاصة راح الأمير يشرح دروس ابن العربي المتعلّقة بهذه النقطة، ويتعمّق بها خاصة إلى نهاية منطقها المقارن المتجابه مع هذا التحدي القاسي تجاه الآخر المسيطر والمتغطرس.

أي درس في التسامح نجده في هذه الأبيات:

فطوراً تراني مسلماً أي مسلم ... زهوداً، نسوكاً، خاضعاً، طالباً مدّا

وطوراً تراني للكنائس مسرعاً ... وفي وسطي الزنار أحكمته شدّا

برباطة جأش، ستقوده إلى آفاق أبعد أيضاً، فغناه الداخلي، وطاقته العقلية المكتسبتان بالتدريب ستتيحان له أن يحوّل إيجابياً تأثيرات سجنه وعزلته.

﴿وماتشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ (٨١، سورة التكوير، ٢٩).

ومن تساؤلاته عن الإرادة الإلهية، ومن شكوكه، وكالعادة، ينظم الحياة حول الصلوات الشعائرية والدروس التي يعطيها لأولاده ومَنْ حوله، وشيئاً فشيئاً يرتضي استقبال الزائرين بحيث غدا يعقد جلسات تستمر عدة ساعات يومياً والحضور مفتتنون بعلو نظرته، ومعارفه، وسعيه إلى زيادة المعرفة، والجميع يقابلون باحترام تفانيه، وتساميه على المحنة، وامتناعه عن توجيه النقد لمن خانوه:

في كل مرّة أتصوّر فيها خطأً مهادنة تريحني
أرى نفسي تزداد إرهاقاً.
وتتوقّد نار الشوق في أحشائي
جَمَرات متوهّجة
لو صُبّت عليها مياه البحار جميعها
لما زادتها إلا لهيباً
يا منازلُ، أين مخيّماتي في الربيع والصيف.
منذ أن ولدت حتى زمن غدوت فيه كفصل الشتاء

ويصلي، ويصوم، ويريد أن يفهم لِمَ أراد الله أن يفرض عليه هذه المحن؟! ·ويتعبه التقشف، ويثقل عليه أحياناً الزائرون، ويجيب من يلومونه على ممارسته حياة بمثل هذه القسوة بعد خمسة عشر عاماً من معارك ضارية:

«لماذا تريدون أن تبعدوا عني المواساة والرجاء، وتطلبون أن تكون صلواتي أقل جدارة بذلك الذي أوجهها إليه من أعماق قلبي، والذي قد يمكنه في أحد هذه الأيام أن يجيبني عنها من أعالي عرشه».

غير أنه يجري لاحقاً مناقشات لاهوتية طويلة مع الأسقف دوبوش يتابعانها بمراسلات كثيفة. ويرافقه مطران مدينة الجزائر السابق خلال رحلته من بوردو إلى آمبواز عبر نهر اللوار، وفيما بعد، يقيم الأمير في أمبواز صالوناً أدبياً ودينياً حقيقياً يستقبل فيه أساقفة آخرين، ورجال دين، حيث تجري مناقشات نموذجية[1].

---

١ ـ انظر بحث الأسقف هنري تسيه H.TRISSIER حول محيط الأمير الإسلامي المسيحي في مجلة Islamo chreslrane العدد (١) ـ ١٩٨٥.

أقول باسم الدين والآب قبله وبالروح روح القدس قصداً ولاكيدا
وطوراً بمدارس اليهود مدرّساً أقرّر التوراة وأبدي لهم رشدا

وفيما بعد يذهب الأمير إلى أبعد من ذلك، لكن الحكومة الفرنسية لايمكنها سماع مثل هذا النوع من الحجج.

في تلك الفترة يبدأ أخوة الأمير، وخاصة ابن عمته وصهره مصطفى بن التهامي بكتابة تاريخ العرب، الذي يقص أحداث المقاومة الجزائرية ويسجل كل هذه المناقشات.

كما أن ماري دير Merie Diaire زوجة بواسونه التي تلتحق بهم فترة في أمبواز، وحتى في بروسه تشهد على الفعالية الثقافية النشطة لهذه المجموعة الصغيرة الروحانية؛ كما أن بواسونه الذي يعمل أيضاً مترجماً يجمع نصوصاً سينشر بعضها لاحقاً. إنّها توطئات لاجتماعات سريّة لاحقة، ولاتصالات مع كيانات روحية ستعمل فيما بعد على إدخال عبد القادر في هذه المراكز الروحية التي تحكم العالم دون ازدراء بالدنيوي، وفي ذلك المقام المساري حيث يزول الوسطاء لأن الوحي الهابط مماثل للروح بالذات... ولكن فرنسة تفكّر في الوقت الحاضر بالخطر الانكليزي، والأمير لم يصل بعد في مسيرته إلى هذه المرحلة:

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير * الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ (٤٢، سورة الشورى، ١١ - ١٣).

في هذه المرحلة من حياته، يصفه جميع زائريه بالطريقة نفسها، وبعض رسوم ذلك العصر تظهره لنا: منعزلاً، محافظاً على الكتمان... وجهه المتطاول محاط بلحية سوداء مسرّحة بعناية وهي تحيط كهالة بلونه الشاحب. جبينه عريض، وأنفه أقنى بين وجنتين منهكتين بفترات صيام وَتَجْدي طويل.

الفم مكتنز قليلاً، ومغلق باصبع الصمت؛ يمكن أن تُلحَظ خلف ثنيته القاسية فكرة محتبسة تنطوي على نفسها، أو أنها على الأقل لم تصل بعد إلى مراحل العطّاء والتعليم؛ وفي الوقت الحاضر فإن الحبس يسبّب أحياناً تقلّص ألم يبدو على الشفتين عندما تنفرجان، كأن الحديث يُدميهما. وكل حيوية هذا الوجه الذي ضربه التقشف بموت خارجي يكمن في العينين (انظر الرسوم)، عينان صافيتان يرشح من عمقهما اللامتناهي النور الناتج عن الصلاة والوجد، والنشاط اللاهب في النظرة يجعلها على

التوالي قاسية وناعمة، حانية وجائرة... وبريق إرادة المقاتل العاتية المذعورة حالياً طيّ غموض المصير المنتظر، يكمن هاجعاً تحت رصانة أجفان محتجبة كأنها في عمق سحابة وضّاءة. لكنها تبدو مستعدة للاستيقاظ لتلهب الشعب من جديد من أجل معارك أخرى هذه المرّة؛ لأن هذه النظرة تحتوي على جميع الرؤى والأحلام التي تفتن وكذلك على منابع الحياة التي تروي. إن الأمير المقاتل، زعيم الحرب، لم يَعُد موجوداً، وعبد القادر نفسه لايعرف هذا حتى الآن، لأن الله الأكثر علماً قد أعدّه لجهاد آخر.

لم يصل الأمير وحاشيته، في الوقت الحاضر، إلى نهاية معاناتهم: فالحكومة أرادات أولاً أن «تحرّر» عدداً من أشخاص حاشية عبد القادر للتخلّص منهم. وقد زاد هذا الإجراء من تثبيط الهمم، ووجب أن يتنبّه عبد القادر كي لايسعى بعضهم للهرب أو التعرّض للقتل في معركة ميئوس منها. إذ أن كثيرين، في ذعرهم، أحسّوا أن الساعة قد أزّفت.

﴿وإذا وَقَع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة من الأرض تكلّمهم؛ إن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون﴾ (٢٧، سورة النمل، ٨٢).

ويمرّ الوقت ولاتنفذ الوعود، ويموت ولد آخر في الخريف... ويجب دفن الأموات في أرض الكِفر:

﴿فطوّعت له نفسه قَتلَ أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين. فبعَث اللهُ غراباً يبحث في الأرض ليريه كي يواري سوأة أخيه. قال «يا ويلتي» أعجزت أن أكون مثلَ هذا الغراب، فأواري سوأة أخي، فأصبح من النادمين﴾ (٥، سورة المائدة، ٣٠، ٣١).

وحصل الأمر الأسوأ عندما سمّي لاموريسيير وزيراً للحرب: وظن عبد القادر بسذاجة أن الجنرال الذي استسلم له سيحترم له عهده، فكتب إليه في السابع من شهر شعبان ١٢٦٤/ الموافق ٩ تموز - يوليو ١٨٤٨.

«إن شعوب المشرق والمغرب في الأرض والجزر تعرف الوعد الذي قطعته لي، فيجب إذا أن تخلّصني من النسيان الذي أغرقت فيه كرجل رمي به في البحر. وأرجو أن يأتي الخلاص على يدك... فإذا لم تفعل فليحلّ عليك العار! وليفقد كل امرىء ثقته بكلامك! ولتخسر اعتبار الصغير والكبير، ولتكن امرأتك محرّمة عليك!».

لم تحظ هذه اللعنة بأي جواب، وانحازت مدينة بو إلى ضيفها فتكتب صحيفة مذكّرة البيرينه Le Memorial de Pyrenees: «إن التاريخ الذي استهجن سلوك

انكلترة الخسيس تجاه نابوليون، سيجد العبارات المناسبة في قسوتها ليصف نقضنا للمعاهدات...» أكثر من ذلك فقد عمد لاموريسيير إلى منع الزيارات وحتى المراسلات. وأمام هذا الازدراء غير المعقول من قبل السلطات الفرنسية، وصل القنوط إلى أوجه، ولقي عبد القادر صعوبة كبرى في منع أتباعه من مهاجمة الحراس بقبضات أيديهم... ويكتب شرشل بإملاءٍ من عبد القادر هذه العبارة المدهشة بحزنها: «لقد صدأت قلوبهم!»

غير أن الأسير الحزين الذي لاينقطع عن التذكير بالظلم الواقع عليه، ما يزال يجد القوة للتحدّث عن الإسلام لزوّاره، وهكذا يؤكّد لأحد أعضاء الحزب الملكي، فالو Falloux الذي يزوره أثناء مروره في بو:

«إن «الهنا» ليس مختلفاً عن الهكم كما تقولون».

«استقبلني الأمير دون أن ينهض، وهو جالس على سريره، وساقاه متصالبتان تحت أثواب واسعة من الصوف الأبيض. وأضاف بعد عبارته الآنف ذكرها أعلاه:

«الإنسان كالمرآة[1]. والمرآة لاتعكس صورة السماء إلا عندما تكون نقيّة. والنفس لاتتغذى بالأفكار الكبيرة إلّا عندما تكون حرّة. أنا لا أستطيع في حالة الأسر التي احتجز فيها أن أغذّي إلّا الأفكار المتعلقة بألمي».

وينصرف عبد القادر إلى إدراك القدر الذي خصّه به الله، فيتأمل في الموت ويجد أخيراً الجواب، في التأويل. لقد كتب:

﴿كلُّ نفس ذائقة الموت﴾ (٣، سورة آل عمران، ١٨٥)

فالموت إذا هو المحكّ، الإشارة، دلالة حدود تأكيد المظهر المستقل إلى أن ينتهي الفصل معه، مع الخالق. فالموت يشكل جزءاً من حالة الخلْق، بين الخالق والمخلوق الذائق الموت، والعائد إذاً إلى الخالق لأنّه لم يعطه حريّة الانفصال عنه؛ وإنما إمكان التعبير في مظهر خاص به إنما السيّد دائماً، ومسبقاً هو الله. لكن الحياة لاتموت، فهي تُظهر في انكشافات متتابعة الحياة الحقيقية، حتّى في الظاهر أي في الأدلة.

﴿هو الأوّل والآخر، والظاهر والباطن﴾ (٥٧، سورة الحديد، ٣).

١ ـ تمثيل كل صورة للعالم بمرآة يظهر فيها «الله الأوحد» في «المتعدد» والمتعدد في الأوحد كتناوب رؤية، هو إحدى الدعوات التي يصوغها عبد القادر فيما بعد. (انظر ج. م. هيرث).

التجوّل في فرنسة المور، تابع..

أخيراً في ٣ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٤٨ يترك الأمير بو إلى بوردو، وفي لحظة رحيله، وأمام أهل بو المتأسفين لمغادرته يتسنى له القيام ببعض أعمال الإحسان التي تثير عواطف السكان، سواء الصدقات التي يقدّمها للكاهن من أجل الفقراء أو الهبات التي يمنحها لقدماء جنود أفريقية أو للعمال الذين رافقوا الأسرى في محنتهم. وعندما وصل الأمير إلى مشارف بو من جهة طريق بوردو نزل من العربة وعانق عمدة المدينة وودّع بحرارة ساراغوزا بينما كانت هتافات الجمهور تتعالى على الحواجز. وقد حفلت الصحافة المحلية بمدح الأمير والثناء عليه، لذلك ليس من المستغرب أن تظهر رسوم ايبنال عبد القادر بطلاً محبوباً أمام أعين الفرنسيين وأثيراً حتى على الباريسيين.

جاء الآن دور أهالي بوردو لتقديم الاحترام له، وكان في الصف الأول مطران مدينة الجزائر السابق الأسقف دوبوش، وأقيمت وليمة كبرى في فندق سانسو الواقع في شارع فوسيه - دي - شابو روج Fosses du chapeau rauge وظهر الأمير على الشرفة مابين أسقفين دوبوش، ودونه Mgr DONNET مطران بوردو؛ وعلا هتاف الجماهير... ويتمّ الإقلاع من بوردو على متن الحرّاقة التجارية: الكايمان Caiman على أنغام الموسيقى العسكرية بينما تقدّم ثلّة من الحرس التحية أمام جمهور متعاطف يتزاحم عبر صواري السفن والدواقل. وما من أحد يعلم أن إقامة الأمير في أمبواز ستكون أيضاً ضمن نظام قاس من تقييد حريّته.

تهبط الكايمان نهر الجيروند وتدخل نهر اللوار لترسو في بيمبوف، ومن هناك يستقل المواكب مركباً مسطحاً حتى نانت حيث تطلق المدفعية ثلاث عشرة طلقة تحية للمسافرين رغم أنّهم أسرى.

يصعد الأمير بهدوء مجرى النهر منوّراً بهذا الخريف الناعم، ومرّة أخرى أيضاً صعب عليه فهم سبب توجّه هذه الفرنسة الغنيّة إلى جزائره الفقيرة.

محطة الوقوف الثالثة

أمبواز، من ٨ تشرين الثاني ١٨٤٩ إلى ١١ كانون أول ١٨٥٢ - ابراهيم الصديق الحميم

بدت امبواز[١] بسرعة باردة كالصقيع، فقد بدا نظام الحراسة المشدّدة مثيراً

١ - أشكر السيدة دبال - مورش DEBAL - MORCHE أمينة متحف أمبواز التي هيأت لي مجموعة معلومات حول إقامة عبد القادر في أمبواز.

للسخرية لتطرفها.. كتيبتا مشاة.. ثمانون شخصاً ونحو خمسة عشر خادماً أسود يتوزعون كما يتيسر لهم تحت أنظار لالا زهرة والدة الأمير، وزوجاته الثلاث خيرة، وعائشة، ومباركة، وأولاده الثلاثة، وابنته، وأخوته، وعم عجوز، وأولاد أخوته، وعدة خلفاء وقواد سابقين من أتباعه... سيتركون عند مغادرتهم لأمبواز خمسة وعشرين قبراً لأمواتهم في ترتبها.. عدا آخرين سمح بنقلهم إلى الجزائر.

أمكن للمعاملة الطيبة التي أبداها بعض القيمين الفرنسيين والرهبان المتطوّعين أن تخفف من قسوة المناخ الرطب والقنوط وتثبيط الهمم على الأمير وعائلته: فبواسونه يغدو صديقاً حميماً، والأب رابيون المتقدّم بين كهنة امبواز رفيقاً مخلصاً والراهبة سان بيير، والراهبة سان موريس أكثر من صديقتين حميمتين للعائلية كما تشير الرسائل التي تلقتها الأخيرة من الأمير باسم العائلة خلال سنوات طويلة.

«أمّي، وصديقتك خيرة والأولاد... يذكرونك دائماً بالخير. فرهبانيتكم العامرة بالحنان جعلتنا ننسى متاعبنا وأحزاننا؛ والصداقة التي أظهرتموها لنا لايمكن أن تصدر إلّا عن أخوة حقيقيين...

أنت وأخواتك تعشن من أجل فعل الخير، فأنتن كريمات رحيمات تركتن كل شيء من هذا العالم ومباهجه لتنصرفن للتعبّد لله والإحسان للبشر».

كان الأمير يكتب كثيراً: أولاً إلى أصدقائه في بو، إنّما أيضاً إلى الوزراء، والجنرالات، والمارشالات ـ الوزراء الذين تسلّموا وزارة الحرب (راندون ـ هوبول ـ شرام ـ لرو دي سان آرنو...) ثم إلى دوماس خاصة الذي يصفه بأنه مفتاح جميع الأوضاع الصعبة، الأكثر إخلاصاً من أصدقائنا، المتفاني في تنفيذ وعوده...». كما يكتب إلى السلطات، إذ يجب الاهتمام بالأقارب الذين بقوا أسرى في مراكش، ابن أخيه، ابن السيد محمد سعيد، وابن عمه بن مصطفى، وتابعه الأمين بن عبد الله المكيّ. وكانت الاتصالات تتمّ بواسطة قنصل فرنسة في طنجة. ووجب أيضاً تصفية جميع القضايا العالقة، من ماشية سرقها الجيش الفرنسي ولم يسدّد للأمير ثمنها، وإعادة الأراضي المصادرة من أهله... إطلاق سراح أخوته، عودة بعض أتباعه إلى الجزائر، ومجيء آخرين إلى فرنسة... وكانت حلول جميع هذه القضايا تستدعي إجابات شكر وعرفان من عبد القادر نيابة عن عائلته التي يوليها جلّ اهتمامه. وشيئاً فشيئاً فإن افراد العائلة سيلتحقون به في فرنسة أو فيما بعد في سورية.

في ١٠ كانون أوّل - ديسمبر ينتخب لويس نابوليون رئيساً للجمهورية، وينصحه بوجو وشانغارنيه بتحرير الأسير، لكن وزير الحرب الخائف من الإنكليز في هذه القضية يعاكس ذلك، ويعارض المجلس بسبب مذابح الأسرى التي لم تنجل إلا فيما بعد، كذلك فإن الحزب الاستعماري بالمرصاد، ويقوم اللورد لوندنبري بمساع من أجل هذا التحرير التي ردّ عليها بمرارة لويس نابوليون: «إذا كنت لم أقم بالعمل الخيّر الذي أرغب به، فذلك لأنني لم أستطعه..».

بهذا أجاب صديقه اللورد الذي تربطه به مشاعر ودّ منذ فترة وجوده منفياً في انكلترة. وأضاف:

«وجدت الباب العثماني متهيئاً لاستقباله، ولم تتبدل نواياي بالنسبة للأمير، فأنا أريد عاجلاً أو آجلاً منحه حريته، لأنني أعتقد أن شرف فرنسة يتطلب هذا الإجراء، لكنني في الوقت الحاضر ألقى صعوبات جمّة...». جرّب بوجو أن يحظى من الأمير على وعد معلن بالتخلي عن نقله إلى الشرق، وأن يرضى بإقامة توفّر له أسباب الغنى في فرنسة. بل إن المارشال يقيم الحجّة، بتعاطف، حول ما ستوفره الأعمال الزراعية من متع ومكاسب للأمير وعائلته الذي يرى الجميع مدى اكتئابه وملله.

لكن الأمير كان قد ردّ سابقاً في رسالة على طلب مماثل لدوماس:

«تطلبون منا البقاء في فرنسة! نحن لانتحدث لغتكم، وليس لنا عاداتكم، ولاقوانينكم، ولا دينكم، حتى أن ثياب نسائنا تثير سخرية نسائكم ألا تدرك أن هذا معناه الموت»[1].

يبدو مثل هذا الجواب جارحاً، لكنه كان ثابتاً، وسيبقى طيلة حياته بحيث تبدو غريبة النوايا التي ينسبها إليه المؤرخون والسياسيون ماعدا تلك التي عرضها بوضوح.

«لو وضعت جميع كنوز الأرض تحت قدميّ، لو أمكن جمع كل كنوز الأرض ووضعها في أذيال برنسي، وخيّرت بينها وبين حريتي، لاخترت حريتي. أنا لا أطلب منّة ولاحظوة، بل أطلب تنفيذ الإلتزامات التي كانت أساساً للاتفاق الذي جرى معي.

طلبت كشرط لاستسلامي كلمة شرف من جنرال فرنسي، وهذا الجنرال الفرنسي أعطانيها دون قيد أو شرط، وأكّدها لي جنرال آخر، وهو ابن ملك.

---

١ - نجد هذا النصّ لدى أزان وشرشل وغيرهما.

ففرنسة إذاً ملتزمة نحوي كماأنا ملتزم بالنسبة لها. فمحاولة تعطيل اتفاق الماضي هو إرادة المستحيل. فأنا لن أعفيكم من تعهدكم.

سأموت وهو معي ليسربلكم العار الأبدي والخزي، وستعرف الملوك والشعوب، نتيجة معاملتي، أي ثقة يمكن إيلاؤها لكلمة فرنسي.

ويموت بوجو بالكوليرا في العام ١٨٤٩، ولم تعد قضية تحرير الأمير تطرح إلا من قبل الأسقف دوبوش الذي يستبسل من أجل هذه الغاية. وينصرف عبد القادر إلى التأسي بالدراسة والممارسات الدينية، فيمتّن هذه الجماعة الروحية من حوله، ويستغل هذا المنفى الداخلي لإعداد عدة مؤلّفات موجهة للفرنسيين يترجم بعضها وينشر في السنوات التالية[1].

﴿ماكان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وماكان من المشركين. إنَّ أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه، وهذا النبيّ، والذين آمنوا، والله ولي المؤمنين﴾ (٣، سورة آل عمران، ٦٧ ـ ٦٨).

كان إخفاق الأمير ثم احتجازه فرصة سماوية[2] ليساهم في تأثير روحي، في مباركة لفرنسة لتلك البلد التي ستغدو، سواء عمداً أو صدفة، قوّة مسلمة. وقد قام عبد القادر بهذه المهمة بالنسبة للغرب خير قيام حتى موته، وما من حاجة للبحث بعيداً عن أمانته لتعهداته، وفيما بعد عن رفضه لمملكة، فقد اكتشف عبد القادر هذه **البَرَكة** التي يصفها هو نفسه **ببركة ابراهيم** عندما التقى صدفة في امبواز بأبي الأديان الثلاثة.

«أوّل ما انفتح لي من عالم الخير والنور هو أنني صادفت خلال رؤيا مفاجئة الصديق الحميم.. خليل الله».

رأيت ابراهيم، وأنا أحد أبنائه الأكثر شبهاً به.

أدركت أنه يحفظ بالنسبة لي نصيباً من ميراث.

إن الله استجاب إلى طلب ابراهيم، بحيث أن معظم الأديان والمجتمعات التقليدية

---

١ ـ وخاصة: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل الذي طبع بعد ترجمته إلى الفرنسية في بيروت العام ١٨٥٥ من قبل غوستاف دوغا G. DUGAT. ثم أعيد طبعة في باريس في ١٨٥٨ (٣٥ ٣٧١ص) وظهرت له بعدها عدة طبعات إحداها في تونس من قبل بوسلامة.

٢ ـ هذا هو رأي جيليس والمؤلف يوافقه كلياً فيه.

تشترك في الحبّ الذي تكنّه له: وهذه الحظوة لم ينلها أيّ من الرسل الإلهيين عليهم السلام.

ويفرض نفسه عليه من يغدو مرجعه النهائي.

حكّمت عقلك في الربّ العظيم فما ... تنفك تحكم فيه حكم ذي سرف
تقول ليس كذا وليس هو كذا ... الحقّ في طرف وأنت في طرف
قيدتم مطلقاً لاقيد يحصره ... القيد حدٌّ وليس الله كالهدف
إن قال ليس كمثلي شيء قل هو ذا ... أو قال لي أعين فقل بذا كلفي
لاشكّ أنك يوم الحشر تنكره ... إذا تجلّى لجمع الخلف والسلف
وتستعيذ عياذاً منه جهلاً فيا ... خسارة العقل، يا ويلاه من صدف
عندي من العلم لبّه وجوهره ... والناس أعينهم ترنو إلى الصدف
قد قيّدتهم عوائد وثبّطهم ... تقليد من يمشي نحو الظلمة السدف
فلو وجدت له أهلاً لبحتُ به ... مستخرجاً كنزه المحفوف بالطرف
لكن أهله قد مضوا فلا طالب ... تلقاه يسمو إلى العلياء والشرف[1]

وفي مراسلة مع بعض رجال الدين، ومنهم الأب بورغاد الذي ألّف كتاباً في الحوار بين العلماء واللاهوتيين في موضوع الانجيل والقرآن بعنوان: **أمسيات قرطاجة**. ويعلن عبد القادر أنه مستعد على طريقته للمساهمة في هذا النوع من النقاش ويكتب حينئذ نقضاً للانتقادات الموجّهة للإسلام: **«المقراض الحاد لقطع لسان منتقصي دين الإسلام بالباطل والإلحاد»** ونرى منذ تلك اللحظة فكر مليء لم يكن بإمكانه إلا أن يفلت في حينه من الفرنسيين المتوجّهين نحو الشرق الظاهر والذي سنجده فيما بعد في **كتاب المواقف** والقصيدة الصوفية:

أقول أنا وهل هنا غير من أنا ... فما زلت في أنا ولوها وحيرانا
ففي أنا كلّ مايؤمّله الورى ... فمن شاء قرآنا ومن شاء فرقانا
ومن شاء توراة ومن شاء انجيلا ... ومن شاء مزماراً زبوراً وتبيانا

---

١ ـ لاتتوفر القصيدة الصوفية المثبتة بالنص الفرنسي بين مراجعنا، فوضعنا هذه القصيدة الصوفية من مطلع كتاب المواقف (ص ٢٠ ـ ٢١) (المترجم).

ومن شاء مسجداً يناجي ربّه　　ومن شاء بيعة ناقوساً وصلبانا
ومن شاء كعبة يقبل ركنها　　ومن شاء أصناماً ومن شاء أوثانا
ومن شاء خلوة يكن بها خالياً　　ومن شاء حانة يغازل غزلانا
ففي أنا ما قد كان وهو كائن　　لقد صحّ عندنا دليلاً وبرهانا

وبينما كانت فرنسة في عهد الإمبراطورية الثانية تنصرف بكليتها إلى الإثراء، من كان يمكنه أن يفهم هذا العرض من الأمير الذي يتجلى هدفه الوحيد في هذا البيت.

أقول لهم من ذا الذي هو جامعي　　عليّ أكنّ له مدى الدهر حلوانا

وفيما بعد يتيح لنا مؤلّف عبد القادر الصوفي: **كتاب المواقف** أن نفهم أن احترامه لمسيرات الآخرين تعتمد على اليقين بأن الله يتجاوز معتقداتنا وأشكالها. وتبدأ قيود الأسر تخفّ شيئاً فشيئاً، لكن عبد القادر لايخرج إلا نادراً وإلى حديقة المنتزه فقط، ويجيب طبيبه الذي ينصحه بضرورة الهواء الطلق ذات الجواب باستمرار.

«ما أحتاج إليه هو هواء الحريّة، فهو وحده القادر على إحيائي من جديد».

ويشكر الدكتور آلكيه Alquie الطبيب المفتش في الجيش بهذه العبارات

عندما تصارع الروح الجسد لتتخلّص من الروابط التي تحبسها به.

يأتي العلم متمثلاً بشخصك ليعيد الانسجام: فهذا مجالك يا من تنتمي إليه أسرار الحياة في صميمها.

وهو يطلب غالباً، وخاصة إلى السيد دوماس أن يؤمّن له بعض الكتب.

«عندما زارنا السيد اسماعيل أوربن Ismail Urbain طلبت منه إبلاغك عن رغبتي بالحصول على بعض الكتب وخاصة مؤلّف شهاب الخفجي الذي يتضمّن بعض التفسيرات، وأناأفترض أن ليس من الصعب تأمينه من الاسكندرية...».

وسيكتب فيما بعد إلى نصير السان سيمونية المستقبلي، وصديق الجزائر بعبارات ملؤها الودّ:

«تلقيت كتبك الثلاثة، إنّ أمثال هذه الفرائد النفيسة قلائل. وقلائل من كان مثلك، فكأن قول الشاعر موجّه لك:

هذا أخوك يشدُّ أزرك، وينصر أمرك، وإذا ألمت بك مصيبة بذل كل غال ليقيك شرّها.

كتبت للجنرال دوماس أطلب منه شرح البيدهومي.. وأنا أنتظر زيارتك في نهاية شهر رمضان.

مايزال القدر يعاكسني، ويبدّد آمالي، لكنني أجد نفس سعيداً لأنني ما أزال ألقى بعض من يخفف آلامي. إنني أفتش عن صديق أبثّه لواعج حزني وأقاسمه مباهج أفراحي.

إن صديقنا الشاذلي قد انقطع عن الكتابة لي وأريد أن أوجّه إليه كتاباً بواسطتك».

لكنه مافتئ يتذكّر الظروف غير المبرّرة لاحتجازه والوعود التي قطعت له بينما استغلت حاشيته تخفيف قيود الخروج عنهم، فاستفادوا من نزهات، نظمها لهم، كما الأمر في بو، سكان امبواز والمنطقة، بل ولوحظ قره محمد يساهم بنشاط في قطف العنب... لكن الأمير لم يخرج من القصر[1] إلا في ربيع ١٨٥١، تحت إلحاح وجهاء البلدة المتأثرين لما يعانيه الأسرى التعساء، وذلك لزيارة قصر شنونصو وشكر أصحابه عائلة الكونت والكونته دي فيلنوف الذين كانوا يرسلون بانتظام الثمار والأزهار للأمير وعائلته، وشيئاً فشيئاً أخذ الأمير يخرج إلى الأماكن الجميلة المجاورة وأبدى اهتمامه بالزراعة المحلية، وعبّر عن إعجابه خاصة بالقطار الذي يمرّ في محطة ليمري، وكتب فيما بعد رسالة من القسطنطينية يشكر فيها ناظر محطة أمبواز السيد بيك - باريس Pic - Peris.

وبفضل بواسونه الذي كان يزداد تفانياً في خدمة الأمير تمكن عبد القادر من مراسلة الأمير لويس نابوليون رئيس الجمهورية الذي أعلن أثناء جولته الانتخابية السابقة لاستفتاء بتحويل الجمهورية إلى إمبراطورية في العام ١٨٥٢، وأثناء زيارته لمدينة بلوا، ورغم معارضة سان آرنو، أنّه سيزور امبواز للقاء الأمير عبد القادر.

١ - يجب أن نذكر أن آمبواز بلدة صغيرة تقع بين تور وبلوا، وهي تشتهر بقصرها العائد إلى أيام شارل الثامن، وهو أحد قصور وادي اللوار الشهيرة (المترجم).

ابن اخ المصري[1]

في ١٦ تشرين أوّل - اوكتوبر عام ١٨٥٢ تمكّن عبد القادر أن يهتف:

أمكن لبعضهم أن يطرحوني أرضاً، وأمكن لآخرين أن يقيّدوني لكن لويس نابوليون وحده هو من ملك قلبي.

التزم بهذا الوفاء سليماً حتى نهاية رحلته. وقرأ بواسونه، وهو متأثّر، الوثيقة[2] التي كتبها الرئيس، امبراطور المستقبل بخط يده في الاجتماع الذي جرى في القاعة الكبرى من برج مينيم Tour des Minimes في قصر امبواز حيث توافد الجنرالات، والوزراء، والمقرّبون (انظر الرسم رقم ١٠): وكانت لالا زهرة تتوّكأ على عصا، وشعر الجميع أن التاريخ يدور هنا أخيراً.

«جئت لأعلن لك حريتك؛ ستحملون إلى بروسة إحدى مدن السلطنة التركية ما أن تتمّ الترتيبات الضرورية لانتقالكم. وستعين لك الحكومة مرتباً يليق بمقامك السابق».

منذ مدة طويلة وقضية سجنك تسبب لي حزناً حقيقياً. إنّها تذكرني دون انقطاع بأن الحكومة التي سبقت حكومتي لم تف بتعهداتها بالنسبة لعدو بائس؛ وفي نظري أن من المخجل لأمّة كبيرة أن تكون قليلة الثقة بقدرتها الخاصة بحيث تتنكّر لوعودها. إن الأريحية هي دائماً خير الناصحين. وأنا مقتنع أن إقامتك في تركية لن تؤثر بأي حال على استقرار ملكياتي في أفريقية.

إن ديانتك، وكذلك ديانتي، تدعوان إلى الامتثال لأحكام العناية الإلهية وإذا كانت فرنسة الآن سيّدة في الجزائر، فهذه إرادة الله، ولن تتراجع الأمة أبداً عن الفتح.

كنتَ عدواً لفرنسة غير أنني مستعد أن أعترف بشجاعتك وسجاياك، وصبرك في المحن، ولذلك فإنني أعتبر أن واجب الشرف يقتضي وضع حدّ لسجنك والوثوق بشكل كامل وكلي بوعدك».

عجّل الأمير بإعلان النبأ الطيب لجميع الأصدقاء الفرنسيين الذين ساندوه، وانطلقت الرسائل المؤرخة في ١٨ تشرين أوّل - اوكتوبر للأب ريبون، وسيدي باباز

---

١ - المقصود بالمصري - نابوليون الأول، وقد أطلق عليه هذا اللقب بعد غزوه لمصر العام ١٧٩٨.

٢ - نص هذه الوثيقة مماثل لدى أزان وشرشل، وبالتالي لدى جميع الآخرين.

رمبواز، والباربوتان، والصديق السويسري إينار إينار، والجنرال دوشوسون... ويكتب عبد القادر فيما بعد في كتاب **المواقف** بأنه بدا في تلك اللحظة يقوّي ما ستكون فكرته العميقة والنهائية.

«إن الله قد أعلن لمن يتحمّلون بصبر خسارة ماهو مستحب لهم، بأنه هو أفضل من كل ما فقدوه. فهؤلاء يعرفون أنه هو حقيقتهم المتلازمة، وملجؤهم الضروري، وأنّ الأشياء التي فقدوها لم تكن إلا أوهاماً خالصة. ومن وجد الله لم يُضع شيئاً».

أدرك من خلال ألم المنفى أن السياسة تحدّ من المكان، بعكس المقدّس الذي يوسّعه؛ وأنّ الأرض لاتحتفظ بأولئك الذين يعبرون، وأولئك الذين ينصرفون إلى تقّصي المعنى والوجود يستكشفون أنفسهم في الهوامش وخارج الأماكن الدنيوية.

﴿كل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ (٥٥، سورة الرحمن، ٢٦، ٢٧).

كان سقوط سياسة السيف ضرورة، ولكن حكم الضرورة عابر، وعلى الباحث أن يستعيد الحركة الخاطفة للبدو والمسافرين على الدرب المستقيم. يجب العودة إلى الشرق في **التشريق**، وإنجاز الرحلة الحقيقية نحو الشرق العمودي أخيراً، قبل أن يلتحق بالشرق الخالد.

محطة الوقوف الرابعة

باريس، تشرين أول ـ اكتوبر ١٨٥٢ الانتصار الدنيوي

لاتغرّنك الحياة الدنيا، ولاتلهك أباطيلها عن ذكر الله.

تكتب «الالوستراسيون **Illustration** بتاريخ ٢٨ تشرين أول ـ اركتوبر ١٨٥٢:

«غدا عبد القادر أسَد احتفالاتنا العامة فنخبة باريس تصفق له وهو يتلقى ترحيب لويس نابوليون في المقصورة الإمبراطورية من الأوبرا معانقاً حيث استمعا إلى أوبرا «موسى» لروسيني. وبدأ عبد القادر يغيّر رأيه في الموسيقى وهو يذكر مبتسماً معارضته لها سابقاً كفتى يافع ورع.

وصل إلى باريس بعد الظهر في القطار يرافقه بواسونه المزهو بانتصاره، وقره محمّد، وابن أخ صديقه الأثير بن علّال. وفي اليوم التالي سيكون في قصر سان كلو (انظر اللوحة رقم ١١) حيث سيقدّم لامبراطور المستقبل وثيقة عهده لإطلاق سراحه.

«... الآخرون قطعوا وعوداً لم ينفذوها. وسمّوكم نفذتم وعوداً لم تصدر عنكم. وبفضل أريحيتكم سأتمكن من الذهاب لأحيا في بلد مسلم. إن الكلمات تنتشر كالريح؛ لكن الوثائق المكتوبة تبقى. أقدم إذاً لسموّكم هذه الوثيقة التي تتضمن عهداً مكتوباً».

وأمام جميع أركان الدولة، وفي هذا الصالون الذي تتصدّر فيه ساعة تشير إلى التوقيت في مكة المكرّمة، وضع الأمير حدّاً لمزايدات منشورة في الصحف وقرأها له بواسونه فكدّرته... ففيها عودة على الدوام لقضية مقتل الأسرى. إنّه من الآن فصاعداً ليس ممن يستخدمون السيف. فهو يكتب بدون انقطاع أو يملي لأن «السيف منذ أن أرهِفَ هو عبد للقلم منذ أن بُرِيَ». وتصريحه سيبقى محترماً حتى النهاية مهما كلّفه الأمر يلتزم به على سبيل المثال عند ثورة المقراني في ١٨٧٠ - ١٨٧١ وقد حرّضه أبناؤه على المشاركة فيها. ولانفهم كيف أمكن لهذا النص - الذي نشر وأذيع على نطاق واسع[1]. أن يساء تفسيره من هذا الطرف أو ذاك، بينما هو يؤكّد التطوّر الكامل للأمير: همّه الوحيد هو العودة إلى إلهامه الأول: الورع والتفسير، وتثقيف أبنائه، وتعليم الدين للجميع، والبحث الروحي في أعلى مستوياته.

«الحمد لله وحده

فليحم الله وليصن سمو لويس نابليون ابن أخ «مسلم مصر» وليهده ويسدّد خطاه.

من يقف الآن أمامك هو السجين السابق الذي حرّرته، وقد أتى يشكر صنيعك، عبد القادر بن محيي الدين.

جئت إلى أمام سموكم لأشكر طيبتكم وأمتع روحي بوجودكم، فأنتم في الحقيقة أعز إليّ من أي صديق لأنّكم صنعتم لي جميلاً يتجاوز كل عبارات الشكر التي يمكن أن أصوغها لكنه على مستوى نبل سجاياكم ورفعة مقامكم.

فلينصرك الله.

فأنت من هؤلاء الذين لاتثنيهم الاعتراضات الباطلة، ولايلجؤون أبداً إلى الخداع.

١ - عدة إلى نحو اثنتي عشر صيغة من هذا النصّ فلم أجد في مجملها فروقاً ذات اعتبار بالرغم من أن الصيغة الواردة لدى شرشل، وهي الأكمل لاتحتوي على كل عبارات المجاملة المتكلّفة وفقاً لممارستها في تفسيرات ذلك العصر.

لقد وثقت بي، ولم تستمع لأولئك الذين يحترسون مني؛ ومنحتني حريتي دون وعد منك، وأنجزت وعوداً قطعها آخرون ولم يلتزموا بها.

جئت إذاً أقسم لك بعهد الله ووعوده، ووعود جميع الأنبياء ورسل الله، ألا أفعل شيئاً يخالف الثقة التي وضعتها بي، وأن أحافظ بورع على قسمي بألا أعود إلى الجزائر.

عندما أمرني الله بأن أنهض ثائراً نهضت: وجعلت البارود يتحدّث حتى أقصى حدود وسائلي وإمكاناتي. وعندما أمرني أن أتوقّف توقّفت. وعندها تخليت عن السلطة واستسلمت.

إن ديني وشرفي يأمرانني كلاهما بأن أحافظ على قسمي، وأن أحتقر الحنث باليمين، إنني من ذرية النبي ﷺ وما من أحد يمكنه أن يتهمني بالخداع. كيف يمكن للخداع أن يخطر لي ببال وقد تلقيت جميل صنيع يديك.

إن المعروف سلسلة مذهبة تطوّق عنق الرجل ذي القلب النبيل.

أتجرأ على الأمل بأن تفكّروا بي عندما سأغدو بعيداً، وأن تعتبروني من ضمن أصدقائكم المخلصين؛ فبالرغم من عدم إمكاني مجاراتهم في الخدمات المقدمة، يمكنني على الأقل مساواتهم في المودّة التي يكنّونها لكم.

فليزد الله محبتك في قلوب محبيك، وليضرب بالرعب قلوب أعدائك».

هذا المشهد الذي رسم مراراً[1] في صور إيينال ولوحات وحتى في نقيشات لكاربو **Carpau**، لم يخف الصداقة الغريبة التي تعدّت المصالح السياسية للبرنس[2] لويس نابوليون والتي ربطت بين الرجلين لمدى الحياة؛ فهذا البرنس الذي برهن في السنوات التالية إلى أي مدى، وبأي دقة ينظر إلى أهمية «قضية الشرق» أجاب بأنه لم يفقد ثقته أبداً بعبد القادر، ولم يطلب منه وعداً أو قسماً.

«غير أنّك قرّرت أن تسجّل هذه الوثيقة وتضعها بين يديّ، فأنا أقبلها، وهذا التعبير

١ - انظر د. برناسكوني: ميثولوجية عبد القادر في الأيقنة الفرنسية العائدة للقرن التاسع عشر» مجلة الفنون الجميلة - كانون الثاني - يناير ١٩٧١، ص٥١ إلى ٦٢

٢ - استخدمت تعبير Prince «برنس» دلالة على نابوليون الثالث: قبل تسميته امبراطوراً تمييزاً للقب «الأمير» الذي عرف به عبد القادر ومنعاً للالتباس (المترجم).

التلقائي عن عواطفك يبرهن لي أنني كنت على حقّ عندما أوليتك ثقة بدون حدود.

قام البرنس نابوليون بالتجول مع الأمير عبد القادر في أنحاء القصر يتبعهم لفيف من الضباط ورجال الدولة، وأمكن لعبد القادر أن يستأنف ممارسة إحدى هواياته النادرة عندما أهداه البرنس حصاناً أبيض رائعاً. وفي اليوم التالي استعرضا سوية فرقة من الخيّالة قدّمت لهما التحية وكانت هذه هي المرة الأولى التي يحسّ بها عبد القادر بدفء بدن مطية «مسابق للريح» يهتز من تحته، وهذا ماشفاه فجأة من رطوبة السجون: وأنعش قواه ليتمكن أن يحيا مجدّداً حياته الجديدة، وقد كتب فيما بعد:

«اختطفني الله من «أنا» الموهوم، وقرّبني من أنا الحقيقي. إن اختفاء الأرض أدّى إلى اختفاء السماء، فالكل والجزء التبسا. والرحلة قد شارفت على نهايتها وماكان موجوداً غير «الله» انقطع عن الوجود».

وجد بواسونه صعوبة في نقل «مغناة عبد القادر الشاكية» التي نشرتها صحف تلك الأيام إلى العربية، بينما رسمه غوستاف دوره[1] G. DORE وهو يجلس على كنبة مريحة يدخّن «الشبوق»[2] بينما حضر بعض الأفراد ليطالبوا برأسه، وهذه هي مغناة الصحف...

في سن الخامسة اختار بنفسه
اسمه في العماد
إذ يقال أن اسم عبد القادر
يعني اسم نابوليون
فهذا الجوغورتا[3] الحديث
قد بارزنا خلال عشر سنين

١ - غوستاف دوره DORE.G: (١٨٣٣ - ١٨٨٣): رسّام ونقاش فرنسي، رسم بحماس شخصيات رابلة وبلزال ودانته، وسرفانتس.

٢ - الشبوق: غليون تركي طويل: لكن المعروف أن عبد القادر لايدخن بل منع التدخين في جيشه.

٣ - جوغورتا: (١٦٠ - ١٠٤ ق.م): ملك نوميديا (ونوميديا هو الاسم الذي كان يطلق على أفريقية الشمالية بين قرطاجنة وموريتانية) وقد حارب الرومان متحالفاً مع قرطاجنة (بعد مئة سنة تقريباً من عصر هاينبعل) لكن ماريوس القائد الروماني قهره. (الملاحظات ١، ٢، ٣ من المترجم).

خلال أسبوعين في باريس لم يهدأ عبد القادر لحظة: يَستقبل رجال علم ودين، ورجال دولة، وأمراء، وقواداً، وتمكن بصورة خاصة مع أسيره السابق في بلدة سيدي - براهيم المراكشية، الجنرال كوربي دي كونيور أن يشرح قضية مذبحة الأسرى[1] دون أن يخون أتباعه.

«لا أريد أن أتهم الآخرين... كان أسرانا لدى المراكشيين، وكان جنودي في غاية الغيظ لانقلاب الجميع ضدهم، ولم يكن لديهم من مؤن العيش إلا القليل من الشعير، ودب الخلاف بين ضباطي وأنا بعيد في الريف لدى بني سناسن».. لم يبال بالبرنس مورا، أو بالبرنسيس متيلدا أو بسان آرنو ومانيان، لكنه حرص على عدة تصرفات ذات أهمية في نظره، وفي طليعتها توجيه الشكر للأسقف دوبوش، وزار الكنائس ليظهر للجميع تسامح إسلامه، فرؤي في المادلين، ونوتردام، والإنفاليد، وسُمِع يطرح الآراء الأكثر دقة حول الدين، وقد نظم أفكاره فيما بعد ووجّهها إلى الفرنسيين عبر **رسالة**[2] إلى الجمعية الآسيوية التي غدا أحد أعضائها، وفيها يشرح آراءه حول فائدة العقل المقترن بالإدراك والإحساس، لفهم ترتيب العالم، مؤكّداً مع ذلك على عدم وجود أي تناقض بين الدين والسياسة والمعرفة العقلية؛ بل أكثر من ذلك، فهو يعتبر أنَّ المعطيات الدينية لاتصطدم بالحسّ السليم والمحاكمة الشاملة لكنه فيما بعد يبيّن أن حدود هذه المحاكمة تؤدي في حال النقص، إلى الطريق الصوفي. أما في الوقت الحاضر فهو يكتفي بأن يشرح أيضاً للفرنسيين الذين يمكن أن يسمعوه عبر بعض المسيحيين الذين يمكنه الاتصال بهم أن

«إلهنا وإله جميع المجتمعات المعارضة لنا هو في الواقع إله واحد... إنّه يبدو

١ ـ هذه القضية التي شغلت كثيراً أعداء الأمير تتلخص في أن ابن التهامي أمر بتنفيذ الإعدام بالأسرى في لحظة كان الأمير الملاحق لايتمكن من الاتصال بهم وهم يهربون من مكان إلى آخر وقد دب بهم الجوع. لكن الضباط الفرنسيين نسبوا هذه المذبحة إلى الأمير نفسه. ويؤكّد أزان أن هذه الشائعة التي أريد منها تشويه سمعة الأمير تمّت بناء على تعليمات من غيزو رئيس الوزراء بالذات: «إن سياستنا تدفعنا إلى بث هذه الأخبار التي دفعت الكثيرين حتى من بين المتعاطفين مع الأمير إلى إدانته.

٢ ـ الرسالة: صنف مألوف في الأدب العربي. والواقع أن الأمير أعدّ رسالته في روسة في أيار ١٨٥٥، وبدأت مجلة المرشد Le Moniteur في نشرها بتاريخ ٩ تموز ١٨٥٥ بناءً على تقرير من رئيس الجمعية الآسيوية، وكان عنوانها بالعربية «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» وقد ظهر منها عدة طبعات وعدة ترجمات لاحقاً (انظر ثبت المراجع).

لكل متعبّد لشيء ما ـ حجر أو شجرة أو حيوان ـ تحت شكل هذا الشيء، إذ ما من متعبّد لشيء محدّد يعبده لذاته. بل إنه يعبد الظهور الإلهي فيه؛ بذلك الشكل من الإله الحقيقي ـ فليتمجّد اسمه. هذا الظهور يمثل في كل شكل المظهر الإلهي الخاص به».

ويشرح عبد القادر بهدوء فكرته عبر رؤية إسلامية تقليدية كليّاً ليسوع (سيدنا عيسى)، سمة القداسة، كلمة الله وروحه، ابن العذراء، المنتظر في نهاية الأزمان كموعد لمجيء الدينونة، ولكن لايمكن أن يعتبر «إله المسيحية!» وهذا ما أذهل بعض رجال الدين وبعض العلماء، أما الباقون فقد تجنّبوا فهم هذه الشروح...

أما يوم نجاحه الباهر فكان عند الاستعراض العسكري على هضبة ساركوري. فهناك وجد الشريف العربي مجدّداً نبالته الكبرى، ولعّب حصانه كما يشتهي كان يخبُّ بين سان أرنو وصديقه الأمين دوماس، فأوقف حصانه على قائمتيه الخلفيتين أمام القناصّة، والمشاة بسراويلهم الحمر، والخيالة المنذهلين وأمام هذا البحر من القلانس، والقبعات المقرّنة والخُوَذْ انطلق بحصانه الأبيض وكأنه يجري فوق الغيم، والأعلام تنحني، والسيوف تحيي بين قرع الطبول وعزف الجوقة العسكرية.

لكنه أيضاً تأثّر لمرأى المرضى والجرحى في الإنفاليد، كما دهش عند زيارة المطبعة الوطنية، حيث اكتشف **نسخة طبق الأصل** للنصّ الذي أعطاه للبرنس لويس نابوليون وصرّح:

«البارحة رأيت بطاريّات المقاتلين، واليوم أرى هنا معاقل الفكر» كان يملأ ذهنه بكل ما تنتجه أوروبة، ويبدو له مفيداً للشرق، وفي الوقت ذاته كان يشعر أن بإمكان الغرب أن يتلقّح بالروح، وقد كتب في **تنبيه الغافل**:

«آه لو أرادوا أن يصغوا إليّ... لو وجدوا فيّ من يريد أن يعرف الطريق... لو أن المسلمين والمسيحيين أصغوا إليّ لأوقفت الخصومة بينهم، ولغدوا أخوانا في الخارج والداخل...».

في عشية عودته إلى آمبواز ليهيء سفر ذويه التقى عبد القادر مرة أخرى بالبرنس الذي وعده بسيف شُبِك نصله في دمشق وزُيّن غمده المذهب بالحجارة الكريمة.

«سأرسله لك إلى بروسه عندما يتجهّز تعويضاً لك عن السيف الذي سلّمته لدوق دومال»[1].

كان قصر امبواز في عيد، ولم تحتج لالا زهرة للاستناد على العصا لاستقبال ولدها الذي أعادت إليه فرنسة اعتباره. وانهمك الجميع، وكما كان الأمر في بو ودع سكان امبواز الأسرى المحررين بأسى. وخلال ذلك الوقت، حصل الأمير على حق التصويت في الاستفتاء وقدّم أربعة عشر صوتاً... بعد عشرين سنة، يوماً بيوم، من المناداة به سلطاناً من قبل القبائل في سهل إغريس، وبتاريخ ٢ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٥٢، يحضر مجدّداً إلى باريس ويستقبله نابوليون الثالث في التويلري، في رواق المارشالية، بكلّ المظاهر الرسمية وأمام جميع الهيئات النظامية، وهو حدث أبرزته وعلقت عليه صحف العصر مطوّلاً.

التجول في فرنسة المور، النهاية

بدأت عند ذلك رحلة طويلة لأكثر من عشرة أيام عبر فرنسة محت ذكريات الوصول السيئة: سَفَر بالقطار من أورليان إلى باريس، الأولاد ينظرون بإعجاب إلى مشاهد الطريق، والنساء يضحكن. وفي محطة ليون حيث توقّف الموكب ليأخذ من جديد قطاراً إلى شالون، يدخل البارون دي روتشيلد في محادثات مع الأمير، إذ أن بعض أصحاب المصارف، وبعض الهيئات بدأت تكوّن أفكاراً عن هذا الشرق الذي يجب غزوه بالمشاريع؛ وبدأ السان سيمونيون نشاطهم... وقام مركب بنقل الجماعة من شالون إلى ليون حيث أقام الكردينال دي بونالد، والمارشال دي كاستلان والمحافظ حفل استقبال فخم، وكانت الجماهير في كل مكان تهتف للأمير وذويه، وجاء المحاربون القدماء يحيونه، وتوبعت الرحلة بالمركب حتى أفينيون وأعجب الأمير بهذه الرحلة النهرية وبالأعمال الزراعية التي كان يشاهدها على الجانبين، وما فتئ يسأل عنها مرافقيه أو مضيفيه. ومن أفينيون مجدّداً بالقطار حتى مرسيليا، حيث بقيت العائلة أسبوعاً في «فندق الأباطرة» Hotel des Empereurs وعبد القادر يريد أن يرى كل شيء، ويطلب أن يُشرح له كل شيء، فعالمية هذا المرفأ قد سحرته وكذلك فعالياته؛ لقد بدأ يفهم أسباب التوسع الاستعماري وضرورته حيث تشكل مرسيليا رأس الجسر له: فتعجّ بالسفن المثقلة بالمعدات، والجنود، والأشخاص من جميع الفئات الذين

١ ـ سيف عبد القادر محفوظ في متحف لامبري في بلدة سالون ـ دي بروفانس (مقاطعة اكس ـ ان بروفانس).

يقلعون إلى شواطئ أخرى لن يراها أبداً... فهو مايزال يحترس قليلاً من هذا الغرب القوي، إذ كما تقول لالا زهرة المتحلية بالحكمة دائماً: «من يقلّد شعباً، ينتمي إليه».

يغتنم عبد القادر أيضاً فرصة إقامته في مرسيليا، ليكتب إلى جميع الذين ساندوه رسائل وداع، وشكر، وتوصيات، ومن الملفت للنظر الانتباه الذي يوجهه إلى الأكثر بساطة بينهم الذين يخصهم برسائل مفخّمة كتلك التي يرسلها إلى الكونتات أو المارشالات: فإيرما فرون وبناتها، والسيد ميليه، والسيد جوليان، والسيد تافنه هم مستخدمون في السكك الحديدية أو على المراكب العاملة في نهرب الرون[1].

في ٢١ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٥٢ تترك السفينة «لابرادور» المرفأ القديم مقلّة الأمير وعائلته إلى الشرق، ها قد انقضت خمس سنوات تماماً على توّقف عبد القادر عن القتال بالسلاح، وهو مستعد للجهاد الأكبر، الصراع الحقيقي. وبدأت هذه الرحلة بشكل جيّد، فعند توقف الباخرة في مسينا يزور صقلية ويرى جميع دلائل الوجود الإسلامي في الغرب. وسيتوقف أيضاً في تاورمين وهو يفكّر بالتاريخ أمام هذه الآثار الرائعة تحت شمس كانون الأول ـ ديسمبر. إن الله فعلاً هو سيد الكون.

ذكرياتي عنك، يا سهول صقلية
وأنا أطلّ من أعلى جبل إثنا، تدفع إلى القنوط
ولو لم تكن دموعي من ملح لشكّلت أنهاراً لهذه الجزيرة من الأمجاد
يجب سكنى الجنة لنمتلك القدرة على التغني بروائع صقلية
يكفي أن بحرها الأبيض يقودنا إلى دار الإسلام
آمين[2]

---

١ ـ اعترف أنني دهشت لكثرة الرسائل الصادرة عن الأمير إلى جهات متنوعة وكثيرة، وتوصلت بعد حسابات معقدة إلى أن الأمير قد كتب بخط يده أو أملى على أمناء سره نحو /٦٠٠٠/ ستة آلاف رسالة.

٢ ـ وبالمقابل وصفها ـ وقتئذ ـ العلامة سيدي الطيّب بن المختار بقصيدة طويلة منها:

هذه صقلية لاحت معالمها	تجر تيهاً فضول الربط من أمم
دار أقرّ لها بالفضل ذو نظر	والفضل ما شهدت فيه ذوو الهمم
كانت منار هدىً، كانت محط ردىً	كانت سماء شموس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي مآثرهم	بكاء طرف قريح بات لم ينم

(عن تحفة الزائر ص٥٧ ـ المترجم).

ويخترق عبد القادر البحر لتغدو قطرة مائه بحراً، ويصلي ويشكر الله، ويستغل فرصة السفر ليستظهر القرآن لأولاده. ويتلون سويّة الآية: ﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلْكِ فقل الحمد الله الذي نجّانا من القوم الظالمين، وقُل ربُ أنزلني مُنزَلاً مباركاً وأنت خير المُنزلين﴾ (٢٣، سورة المؤمنون، ٢٨، ٢٩).

كان عبد القادر واقفاً، ويداه متجهتان نحو السماء يسأل الله أن يهديه «لأن الله عندما يريد أن يوجّه إليّ أمراً، أو نهياً، أو يدفعني للإجابة عن سؤال يقتلعني من نفسي، ويلقي عليّ ما يرغب بتلميح دقيق محتوى في آية قرآنية».

في ذلك الليل والباخرة تدخل بحر مرمرة، أوحى إليه الله:

﴿لله الملك وحده، لاشريك له﴾

واستعصى على عبد القادر فهم المراد ولكن فيما بعد وفي دمشق..جاءه:

﴿إنّما قولُنا لشيءٍ إذا أردناه، أن نقول له: كن، فيكون﴾ (١٦ سورة النحل، ٤٠).

الفصل الثاني
العودة إلى دار الإسلام
محطة الوقوف الخامسة: بروسة ١٨٥٣ - ١٨٥٥

﴿الله نُورُ السماوات والأرض، مَثَلُ نوره كمشكاة فيها مصباحٌ، المصباح في زُجاجة، الزجاجة كأنّها كوكبٌ دريٌّ يُوقَد من شجرة مُباركةٍ، زيتونةٍ لاشرقيةٍ ولاغربيةٍ، يكاد زيتها يضيءُ ولو لم تَمسَسْه نار، نُورٌ على نور، يهدي الله لنوره من يشاءُ﴾ (٢٤، سورة النور، ٣٥).

في رسالة مكتوبة بخط يد الأمير على رسم لقصر امبواز معطاة للسيد كرسبن Crespin قنصل فرنسة في بروسه، وهي موجودة في أرشيف غرفة تجارة مرسيليا يمكن أن نقرأ:

«الحمد لله الواحد الأحد»

هذا هو رسم القصر الملكي في امبواز، وقد دخلنا إليه يوم الخميس مساءً، ثالث أيام عيد الأضحى/ ٨ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٤٨، وخرجنا منه يوم السبت ٢٨ صفر ١٢٦٩/ ١١ كانون أول - ديسمبر ١٨٥٢.

وصلنا إلى القسطنطينية يوم الجمعة ٢٧ ربيع الأول ١٢٦٩/ ٧ كانون الثاني - يناير ١٨٥٣، بعد الظهر، ووصلنا إلى بروسة في ٧ ربيع الثاني من السنة ذاتها/ ١٧ كانون الثاني ١٨٥٣.

الفقير إليه، تعالى واهب جميع الخيرات، عبد القادر بن محيي الدين[١].

أحبّ عبد القادر سريعاً تلك الصعدة القاسية قليلاً بين أشجار الزيتون التي تذكّره ببعض مناطق تلمسان والأقسام الداخلية من بليدا، ولفت نظره خاصة قِدَم الأشجار وتنوّعها، وكثرة الجداول، وكثافة التشجير والزروع في السفوح الجبلية، ولاحظ صفوفاً عديدة من الأشجار المثمرة، أشجار التين، واللوز، وفي كعوبها نباتات الفول وزراعات أخرى؛ وقد عُني جيّداً بالأراضي وحراثتها وسقايتها.

١ - كان الأمير غالباً غير دقيق في التواريخ التي يعطيها، وحتى شرشل أحياناً وقع في أخطاء حتى سنة.. لكن هذه الوثيقة استثنائية في دقتها.

وجدّدت الينابيع الحارّة ذكريات طفولته عن حمّامات بو حنيفة، وأتاحت له منشآت المدينة الدينية العديدة جلسات صلوات وتأملات عديدة.

غير أن الأمور لم تبدأ بشكل جيّد: فعندما وفد الأمير وعائلته من استنبول عبر بحر مرمرة ونزلوا في مرفأ مُديانا الصغير لم يُبد باشا المرفأ كثيراً من التعاون، كما أن المنزل الموضوع تحت تصرفهم في حيّ ابراهيم باشا بدا غير صالح للسكن في وضعه الحاضر، وقد أرسل خالد باشا عقد الملكية كما أن الحكومة التركية دفعت ٤٠٠٠٠ قرش، لكنها لم تبذل أي جهد إضافي بينما كان الأمير ينتظر الإعانات المالية الأولى من السفارة الفرنسية:

راتبه النظامي (٨٣٣٣,٣٣ فرنك بشكل حوالة لمدة ٢٠ يوماً) توجّه إلى داسود وسلومون في استنبول الذي يحوّلها بدوره إلى عدة وسطاء: أنطون حومي ثم شيحا ويوسف صيدح، وأخيراً رفاييل ليڤي اسلامبولي، وبذلك لم يصل حتى منتصف السنة، لكن الأمير تلقّى بالانتظار مبالغ مختلفة من أجل إقامته واستقراره ٣٨٦٤٥ فرنكاً في آذار ـ مارس ثم ٢٩٥٠٠٠ فرنك خلال السنة من أجل الإصلاحات وشراء مزرعة على بعد نحو عشرين كم من بروسه في «جلتك»[1].

تمّ إجراء الإصلاحات اللازمة للمنزل سريعاً لإيواء العائلة والتابعين: فعدا الأولاد ووالدة الأمير وزوجاته الثلاث، توجد ست خادمات، وستة خدم، وستة موظفين وعشرة خيول. وكان المنزل يتألّف من طابقين في الأوّل منهما خمس غرف وبهو وظلة، ثم شقة واسعة في الطابق الثاني وظلّة أخرى، وفي الحديقة أربعة مناهل ماء وفسحة دار كبرى تطلّ على المطابخ والحمّام؛ ولكن يجب أيضاً إيواء جميع الحاشية الذين بلغوا سريعاً نحو مئة شخص وخمس عشرة عائلة، ووجد الأمير بعض الصعوبات في إقامة دار أخرى في كشكتزيزاده. كانت تقارير القناصل والقائمين بالأعمال مليئة باعتراضات قسم المحاسبة الذي لايعرف كيف يواجه جميع هذه النفقات وغيرها: من سيسدّد نفقة إرسال الحصان الذي أهداه الأمير إلى نابوليون

١ ـ حول جميع هذه النقاط المحدّدة وغيرها مما يلي ذكرها بما فيها تلك العائدة إلى إقامة الأمير في دمشق فإن ملفات وزارة الخارجية المحفوظة في تانت واضحة تماماً وكذلك السجلات القنصلية ومراسلات «إشيل Echelles» وقد أمكن لي مراجعة نحو /١٨/ ثمانية عشر صندوقاً بفضل مساعدة ابنتي وهي أستاذة تاريخ والتسهيلات المشكورة المقدمة من مسؤولي الأرشفة.

الثالث ليشكره على السيف الذي وصله بتاريخ ٢٥ شباط - فبراير ١٨٥٣؟ من سيدفع نفقات حجّ والدة الأمير وزوجته خيرة إلى مكة؟ كيف تنبغي معاملة بنات داي الجزائر اللواتي يعانين البؤس، وقد أخرجهن الأمير من دير راهبات المعونة وكتب بشأنهن للسفير الفرنسي:

«لي الشرف أن أكتب للسيد المركيز دي لافاليت بشأن نفيسة بنت حسن باشا وبناتها... لم أعرفهن إلا عندما جئن يشرحن لي وضعهن البائس، فليس لديهن ملابس ولا وسائل للعيش، ولايعرفن كيف يتدبرّن أمورهن، وقد احتفظت بهن خشية أن يؤدّي بهن سوء الحال إلى الرذيلة، وأنا أعتقد أنني بهذا العمل أتمكن من توجيههن في طريق الصلاح.

عدا عن ذلك فإنني بحاجة إلى من يعرف التركية والعربية ولم أجد هنا من يجيد هاتين اللغتين ويمكنني استخدامه وبإمكاني الاعتماد على هؤلاء الفتيات لمعرفتهن اللغتين».

إن الأعمال الصالحة ليست بالنسبة للجهاد في سبيل الله إلا كنسمة خفيفة على بحر واسع وعميق... إنها **المجاهدة**، عمل مايمكن حالياً، ولما كان عبد القادر أريحياً، ولايحتفظ بشيء لنفسه، فقد وجب عليه أن يواجه حاجات جالية جزائرية أو مغربيّة كانت صغيرة وهي الآن تتزايد باستمرار، بل سيصل عددها في دمشق إلى عدة آلاف من الأشخاص... ذلك أن العثمانيين راحوا يشتكون لسفارة فرنسة إذ أن هذا العالم الصغير دائم الحركة والنشاط بين الجزائر وفرنسة وتونس وطرابلس الغرب والسلطنة العثمانية: ويجب تأمين رحلة مجانية لقدور بن صيدلي المتوجّه إلى قوليه. كما أن الحاج الحبيب التحق بالعائلة وغدا وكيلاً مالياً لها. كذلك فإن عبد القادر تدخّل لدى السلطات الفرنسية بشأن الأراضي المعادة لأخوته الذين غدوا يروحون ويجيئون إلى الجزائر ومنها؛ كما يجب عليه متابعة موضوع عودة مَن رغبَ من أتباعه في امبواز إلى الجزائر (الآغا بوزيد، والسي بالخير) وأن يحصل لهم على تذاكر سفر مجانية من بيروت إلى القسطنطينية من أجل عودتهم. كما يجب إحضار ابنة الحاج الحبيب، وكيله، من عنّابة عن طريق تونس. كان بندتي **Benedelti**، القائم بالأعمال يشكو من كل هذه الأمور التي تشغله بها هذه العائلة، كما أن البارون روسو القنصل في بروسه، وقد كان في طولون في حصن لامالغ يكتب الرسالة تلو الأخرى إلى المحاسبة من أجل

وساطات عديدة إذ يجب تصفية جميع هذه القضايا المتعلّقة بإقامة هذه الأسرة الكبيرة، وكذلك تصفية جميع المشاكل العالقة منذ سنوات الرحيل عن الجزائر، مع كل التباسات التشريع الفرنسي الجديد فيها. وضمن الحدود التي تعتبر فيها جماعة عبد القادر في نظر العثمانيين كرعايا فرنسيين[١].

إضافة إلى ذلك فإنّ لدى السفارة أوامر صارمة لمراقبة جميع أعمال الأمير السابق، ولوحظ وصول بولاد Bullad المترجم العسكري السابق إلى بروسه للالتحاق «بخدمة» الأمير، والواقع أن وزارة الجيش كانت حذرة على الدوام، وكان بولاد يقرأ جميع المراسلات وينقلها إلى الفرنسية في تقارير شبه يومية إلى السفارة، ولكن كانت تحدث دائماً المعجزة ذاتها، فالأسير المراقب يرتبط بصداقة متينة مع مراقبه الذي يدافع عنه إن لزم الأمر عند انفصالهما[٢]. استمر عبد القادر يكتب كعادته دائماً إلى جميع من ساعدوه وخاصة إلى الراهبات ورجال الدين الذين وجّه إليهم رسائل رقيقة، وكان متأثراً بمشروع إعداد القبور لموتاه الذين دُفنوا في أمبواز خلال إقامته فيها. وقد كتب بتاريخ ١٣ شباط ـ فبراير ١٨٥٣ بهذا الشأن إلى نائب مقاطعة «أندر ولوار» بول دي ريشمون وإلى عمدة امبواز السيد تروفه، وإلى معاونيه، وإلى «جميع سكان امبواز كباراً وصغاراً ومن الجنسين» ولكن وبما أن شهرته تجاوزت الحدود الفرنسية فقد كان هدفاً لالتماسات أجاب عنها دائماً بتواضع عبر صغية تراسلية تقليدية تميّز شخصيته وطبعه.

«الحمد لله وحده.

إلى السيد الفاضل البارون ج. ب. فون ساسرن إيسلك في ألمانية. السلام عليكم تلقيت رسالتكم ورأيت فيها ضمن تعابيركم اللطيفة، البرهان عن نفس سامية، إذ

١ ـ طرحت هذه المشكلة ماديّاً عند موت الأمير في دمشق: هل يجب تطبيق القانون العثماني أم القانون الفرنسي، أم القانون الإسلامي المطبّق في الجزائر بشأن ميراثه؟ واستمرت المنازعة خمسين سنة... وفي ملفات وزارة الخارجية في باريس بعض صناديق «محفوظة» تحتوي وثائق تثير الاستغراب حول هذا الموضوع بما فيه الرواتب المدفوعة لورثة الأمير من قبل فرنسة.

٢ ـ يعتبر هذا الوضع ميزة ملائمة للمؤرخ: فملفات وزارة الخارجية وغرفة تجارة مرسيليا تمتلك دفاتر بولاد وكل مراسلات تلك الفترة مع الرسائل وترجمتها، بل والإجابات وتعليق المحاسبة عليها. لكنني استخدمت عدا عن ذلك الرسائل التي نشرها تميمي.

أن ثلاثة أشياء تبيّن دخيلة الأنفس: الرسائل، والآثار الأدبية، والهدايا. تطلب مني شيئاً مكتوباً بخطّ يدي لتضمه إلى مجموعة خطوط أصيلة لكبار الشخصيات، إنني أقل من أن أعد نفسي كذلك، ولكن بما أنك أردت أن تصنّفني من بينهم فإنني أنزل عند رغبتك وأرسل لك هذه الكتابة بخط يدي.

صادفنا في كل مكان تعاطف الأمم الأوروبية ـ فليغمرهم الله بنعمه ـ ولكن العاهل الأكثر أريحية ونبلاً هو بلا ريب نابوليون الثالث أدام الله عزّه وذكرى أفضاله.

والسلام عليكم ورحمة الله.

عبد القادر بن محيي الدين
جمادى الثانية ١٢٦٩/ آذار ـ مارس ١٨٥٣».

اهتم الأمير أيضاً بكتبه وإغناء مكتبته ولم يفارقه هذا الهوى أبداً. وفي رسالة موجّهة إلى الكونت دي نولن Nallent الذي استقبله بحرارة في مرسيليا «أعلمك أنني طلبت من أخوي السي مصطفى والسي الطيّب أن يشتريا لي كتباً وكتبت إلى قنصل فرنسة في طنجة أرجوه أن يسدّد كلفتها؛ وها إنني أرسل لك ١٢٥ ليرة ذهبية، أرجو إيصالها إلى السيد القنصل تسديداً لما أسلفه من كلفة الكتب التي أمّنها أخواي».

وصلته بعض الصناديق أخيراً عن طريق البحر والتحق به كاتبه السابق الحاج الخروبي مع ابن سالم.

هيّأ في المزرعة الإقامة لعدة عائلات ووزّع عليهم قطعاً من الأراضي، وكان يزرع بالطبع الشعير، لكنه غرس أيضاً الكثير من الأشجار، وجرّب بمساعدة عمال بولونيين زراعات أوروبية. وبينما كان يقضي بعض الأوقات في التنزه على صهوة جواده أحبَّ حمامات بروسه: وجدير بالذكر أنها أقدم الحمامات في المنطقة وكان عبد القادر يفضل خاصة تلك الموجودة في اسكيكا بليكا والمنتزه المظلّل لحمام ينيكابليكا القديم، وكان يقضي ساعات طويلة يوم الجمعة في هذه المقصورات الصغيرة ذات الفسيفساء من المرمر الوردي والجدران المكسوّة بالقيشاني الأخضر ـ المزرّق وهو يفكر بالطاهر والنجس في المجتمع الإسلامي... ومن الحمام إلى الجامع أو إلى يزيل كوربه يسير برفق وهو يتأمّل هذه الحدائق المعلّقة ذات الأشجار المعمّرة حيث تجري المياه بدون توقف.

كان يحار أمام عظمة السلطنة العثمانية، ورغم عواطف ثابتة تنفره منها، لاينكر أنها حملت لواء الإسلام عالياً، لكنه لايفهم كيف ارتضى الباب العالي بمثل هذه

السهولة التخلي عن دار الإسلام في المغرب. كما أنه كان مغتاظاً ويشكو من قلّة الإهتمام الذي أبداه العلماء المسلمون في المنطقة نحوه: غير أنه عدا عن الساعات التي كان يخصّ بها تثقيف أولاده، وأبحاثه الدينية والتأمّلية، فقد اعتاد ـ وتوطّدت هذه العادة بشكل كبير في دمشق ـ أن يقوم دائماً بجولات في المساجد، والتكايا، والمدارس، ليعطي فيها دروساً ويتناقش مع المسلمين، وخشي الوجهاء والموظفون من نفوذه وفضلوا فعلاً ألا يكون هذا البطل العربي الكبير إلّا درويشاً متواضعاً.

في العام ١٨٥٤ كانت فرنسة في حالة حرب مع روسية، وذهب عبد القادر يبحث عن ثلاثة خيول أصيلة يهديها للامبراطور نابليون الثالث، ووصل في ذلك حتى عمق منطقة ديار بكر، وطرز قصائد شعرية على سروجها، وأحبّ أن يتابع شؤون حرب القرم التي تتعلّق بالإسلام أيضاً، وجرت فيما بعد مراسلات بينه وبين شامل البطل الشركسي.

شُغل طيلة ربيع ١٨٥٥ في أخذ وعطاء معيبين مع السلطات الفرنسية بخصوص حجّ أمه وزوجته إلى مكة واضطر إلى السفر عدة مرّات إلى القسطنطينية ولاحظ مدى المراقبة المفروضة عليه عند السفر. فالحكومة الفرنسية قد أخضعته فعلاً للاختبار لمعرفة نواياه لأن الحزب الاستعماري كان يشكّ دائماً في توجّهاته الجزائرية... لكن الله أرسل آنذاك إشارة: فقد تدمّر جزء من بروسه في زلزال آب لعام ١٨٥٥، وكان الأمير الذي لجأ إلى مزرعته قلقاً على عائلته، وكتب إلى السفارة بأن حان الوقت للسفر إلى مكان آخر أي إلى بلاد الشام على الأقل، إن لم يكن إلى أرض الإسلام المقدّسة، ويبدو من مراسلة لليون روش أن نابوليون الثالث، خلال مداولة في التويلري، قد وافق على فكرة استقرار الأمير في دمشق.

الفصل الثالث
بلاد الشام

حيث يتمّ النظر[1] خلال هذين العقدين (١٨٥٠ - ١٨٧٠)، تلاحظ القوى الأوروبية الخمس (انكلترة، والنمسة، وروسية، وفرنسة، وبروسية) تساهم بحماس في عديد من البعثات، واللجان، والمعاهدات، والمؤتمرات (برلين، باريس، فيينا)، والاضطرابات الاقتصادية والطائفية في سورية الكبرى، وتجزئة السلطنة العثمانية، بينما الجواسيس المستشرقون، نساء، أو جزويت، أو انكليز، أو فرانكو - فاتيكان، من الليدي ستانهوب حتى كوهن المعروف بالغراف يجوبون المنطقة يتبعون أو يسبقون وسطاء يهود أو أحباراً، وسان - سيمونيين أو ماسونيين، ومغامرين من كل صنفٍ ولون. وقد رؤي لأوّل مرّة أول تقسيم جغرافي، هذا إن لم يكن استراتيجياً بين روسية والنمسة اللتين تهتمان بمستقبل المقاطعات الدانوبية، ومسيحيي البلقان، بينما توجّه فرنسة وانكلترة مطامعهما نحو الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ونحو بلاد مابين النهرين، وأبعد من ذلك إلى آسية الجنوبية عموماً؛ حيث راح الرباعي الراقص يهيء أمكنه له لقرن أو أكثر، وتظهر بعض أسماء سيحفظها التاريخ: آل جنبلاط، وآل شهاب، وآل اده، وغيرهم ممن يحملون اسم بشير، وراح يتردد اسم جبل لبنان والبقاع، والموارنة والدروز، ومن قَبْل البوسنة والهرسك، بينما ترتسم سياسة واسعة لنابوليون الثالث بخصوص الشرق الأدنى، ويتهيأ لها رجال استثنائيون، وسفراء، ووزراء مثل لافاليت، وتوفنل، ووالوسكي وغيرهم كثيرون[2].

نحو بلاد الشام

الرحلة إلى الشرق - تابع

يغتنم عبد القادر فرصة إقامة المعرض العالمي في باريس، فيسعى إلى أن توجّه إليه

١ - أعدّ هذا القسم بكامله انطلاقاً من مؤلّف أساسي للأب جوزيف حجّار بعنوان «أوروبة ومصير الشرق الأدنى». وكذلك بالتدقيق في ملّفات وزارة الخارجية في باريس، ونانت واكس - ان - بروفانس، ووثائق غرفة تجارة مرسيلية.

٢ - بالنسبة لهؤلاء الشخصيات انظر باكه - غرامون، وكونر الب، وهيتزل ١٩٩١.

الدعوة لزيارتها، ويحضر صلاة الشكر Te Deum بمناسبة الاستيلاء على سباستوبول، وينجو من إصابة بالكوليرا فيسرع بالعودة إلى تركية بعد أن حصل على وعد من الإمبراطور بنقله إلى دمشق واستقراره فيها، إنّما بعد أن خزّن أيضاً انطباعات شديدة بزيارته للمعرض العالمي: «هيكل العقل والذكاء الذي أحيته نفثة من الله...».

في نهاية تلك السنة ١٨٥٥ كان ادمون دي لسبس De Lesseps قنصلاً لفرنسة في بيروت بينما فرديناند يأخذ طريقه إلى السويس حيث سيتصالب قدره مع قدر الأمير الذي يستقرّ أخيراً في دمشق.

ابتسم عبد القادر بحزن وهو يرى الأولاد يتهلّلون راكضين عبر سلالم بَهوي المنزل، وكانت نافورة من مرمر، وعرّيشة كرم تجعلان البهو أكثر نضارة ولطفاً بينما الخدم والحمّالون يُحدثون برواحهم ومجيئهم ضجّة كبرى.

سأل قره بهدوء أميره: بماذا تفكّر يا معلّم؟

ـ سيسعد الأولاد هنا، وربّما انتهت متاعبنا مع نهاية ترحالنا. لكنهم لن يعرفوا رائحة الخيمة الفوّاحة، ولن يشعروا أبداً بأصواف جبل آمور تصرّ تحت أقدامنا المتعبة والمتورّمة من همز الركاب. إنني لأتحسّر على هذا، لكن هو القدر، سيغدون حضريين... وأنت تعرف ماذا ادعى ابن خلدون بخصوص الحضر: سيفقدون العصبيّة الخفّية التي تشكّل قوة القبائل والعرب. هيّا لنزر البيت بالتفصيل، يبدو أن نهر بردى يجري من خلفه، هيّا لنرى.

غير أن الأمور لم تكن سهلة: فأولاً أراد عبد القادر أن يأتي بكلّ جماعته إلى دمشق، وهذا ماعارضه السفير: ففرنسة تخشى مثل هذا العدد من المغاربة في دمشق. ويكتب الأمير بتاريخ ١١ تشرين ثاني ـ نوفمبر ١٨٥٥ من غملك إلى توڤنل بأنه لن يسافر إلّا مع المئة وأحد عشر شخصاً الذين أرفق قائمة بأسمائهم: «لا أتمكن من تحمّل عار التخلّي عنهم في بلاد أجنبية»، ويمتثل سفير فرنسة ـ لكن دائرة المحاسبة لديه تحتج على كلفة العملية ـ ويردّ عبد القادر بأن يعد بتحصيل رفقائه لرزقهم بالعمل بعد وصولهم إلى دمشق.

«... ولكن أن أتخلى عن رفقائي في بلاد غريبة معيب بالنسبة لي، وغير جدير بالكرم الفرنسي باعتبار أنني الآن أعدّ ابنا لفرنسة، مما يعني أنكم مسؤولون معنوياً عن تصرف آلام عليه».

في ٢٦ تشرين ثاني ـ نوفمبر ١٨٥٥، ترسو الباخرة التاج مقلة كل هؤلاء الناس في مرفأ بيروت. ومرّة أخرى لم تكن الرحلة في البحر إلا مرحلة نحو مركز الكون، نحو مكّة المكرمة.

هوّارة[1] (جبل لبنان) ١٨٥٥

إنّك شخصية غريبة يا شرشر بك، فالآن وقد تزوّجت ابنة الشريف خانم التويجي، لماذا لاتتابع الطريق الذي يوصلك إلى الله الواحد الصمد.

هدّأ شارل هنري شرشل حصانه اللاهث، فهما منذ الفجر يقومان برحلة متعبة وقال:

«أنت تعلم يا صديقي العالم، أنني بالرغم من ارتدائي الثياب التي ترتديها، لن أكون إلّا مهتدياً نتناً...!».

واقترب عبد القادر إلى أن حاذى بمطيته رفيقه، ثم ارتد إلى الخلف مغتاظاً وقال: آه! لن نبدأ مجدّداً! أعرف هذا الشعور! عانيت هذه المشكلة مع عمر ليون روش، ولم أعرف فيما إذا كان قد خان، أو ارتدّ، أو كفر، أو خدع نفسه بكل بساطة، ومن أجل هذا أبقيت على حياته. ولكن، فيما بيننا، ودون اهتمام بأسماء الناس، أنت تعرف ذلك، فنحن متفقان كل مساء، فالواقع أنك تخاف من لالا فيكتوريا... وأطلق ضحكة مقهقهة وهو يقطع الطريق على الفرس الانكليزية.

كان يجريان بفرسيهما منذ الصباح الباكر، يتدافعان كيافعين يروحان ويجيئان بسرعة، وكل منهما يفكر بألعاب فتوّته البعيدة، فشرشل وصف له أكثر من مرّة لعبة البولو دون أن يتمكن من إقناع عبد القادر أن الإنكليز أو الهنود هم المتكرون الحقيقيون للعبة الكرة والعصا على ظهور الخيل. وسهل إغريس بعيد من الآن فصاعداً، وكذلك انكلترة أيضاً. بينما تظهر بيروت في فجوة كثيب.

ـ ألا نعود؟

كانا بالعمر ذاته، خمس وأربعين سنة، ولهما الولع ذاته بالخيل، والأدب، والنساء، والجدل الديني. وشارل هنري سليل أدواق مالبورو، وكما هو الواجب، قام والده بالخدمة في الهند، بعد أن حصل على ثروة «البورشا» الكبيرة، التي تمكن بفضلها شرشل أن يقوم

---

١ ـ الأرجح أنها «المختارة» موطن آل جنبلاط في الشوف؟

باستثمارات كبيرة في لبنان. وفي التاسعة عشرة من عمره كان في الكتيبة الستين التي مارست حرب العصابات في البرتغال وإسبانية، في الوقت ذاته الذي ابتكر فيه عبد القادر هذه الحرب في الجزائر. وفي العام ١٨٤٠ كان مرافقاً للجنرال أوغوستوس فون جوكموس المكلّف بالتصدّي للنفوذ الفرنسي ـ المصري. وفي العام ١٨٤١ غدا شرشل نائب قنصل في دمشق، وفي نزاع مع نُجيب باشا حاكم سورية، اتهمه الفرنسيون، من أجل تلطيخ سمعته، بقضايا نسائية، وحتى بمناهضة الساميّة.

صحيح أن انكلترة كانت تحرّض العثمانيين ضد الفرنسيين، وهذا مايدفع الصديقين إلى الضحك ساخرين. وسيبقى شرشل حتى أحداث ١٨٦٠ الوحش الأسود الذي يخشاه القناصل الفرنسيون في المنطقة، حيث كان فعلاً يمارس نشاطاً كبيراً، دون أن يُعرَف أهو موجه من قبل وزارة المستعمرات، أو أنه مدفوع بهذا الحبّ الذي يكّنه للعرب بحيث يتبنّى قضيتهم. وبعودة شرشل من استنبول عرف وتأثر بقصة عبد القادر الأمير المقهور، كجميع معاصريه، فمرّ على بروسة حيث كان عبد القادر قد وصلها لتوّه، وكان ذلك بدء صداقة طويلة بين الرجلين. كان شرشل معجباً بالدروز والبدو، فراح يتدخل وينغرز أكثر فأكثر في المجتمع العربي في سورية ولبنان: وتبنّى العادات العربية، وتعلّم اللغة، وارتدى الثياب العربية، وغدا في أعين البريطانيين خليفة الليدي ستانهوب المختفية في العام ١٨٣٩. إذ يبدو أن هذا الإفتتان بالشرق قد هزّ آخرين غيره... وقد بنى مقراً فخماً له على أحد سفوح جبل لبنان، في هوارة[١]، وكعبد القادر، أنشأ مشاريع زراعية مع سقاية لها وزراعة على المصاطب، واهتم بغرس أشجار التوت لتربية دود الحرير، وشقّ الطرقات، وأنشأ الجسور، وفتح المدارس، وكان أرملاً فتزوّج ابنة أحد أعيان دمشق وهي تمت بصلة نسب إلى أحد أشهر الأسماء اللامعة في لبنان: الأمير الشهابي. وكان مستشاراً سياسياً وعسكرياً لجميع سادة الحرب في المنطقة ـ ولئن كان يراعي السياسة الانكليزية، فإنّه كان دائماً إلى جانب الأقلّيات في مواجهة العثمانيين، لذلك كثر أعداؤه إنّما كان يسخر منهم. لكنه كان يستشفُّ المستقبل. وهذا هو الفرق الوحيد بينه وبين عبد القادر. كان يقول:

«عندما ينفصل جبل لبنان عن تركية، فيجب أن يغدو انكليزياً أو يشكل جزءاً من دولة جديدة مستقلّة».

١ ـ المختارة؟ (المترجم)

وقد كتب في العام ١٨٥٣ في مؤلّفه «جبل لبنان»

«يجب أن يكون واضحاً، أن سورية ومصر، في حال استمرار التفوّق البريطاني، ستقعان تحت السيطرة الإنكليزية أو تحت تأثيرها».

أما عبد القادر فكان بكل بساطة يعتقد بوجوب بقائهما بلدين عربيين مستقلين.

ـ إنّكم غريبون أيّها الأوروبيون، تفكرون من أجلنا! من المؤكّد أنني شرحت لك أن بوجو انتصر علي بالخيانة، وكذلك أيضاً لأن جيشه كان يفوق جيشي إنما ليس بتفكيره. أنت تعرف شعبي، وترى هنا الاستبداد، كما ترى الشقاء، أعطني الوقت، انتظر زمن النهضة والتجديد. نعم سأستخدم تقنياتكم، لكن سأطعّم الغرب بالروح التي تنقصه. إنّكم في عالم بدون روح...

ـ أيّها الأمير، يا صديقي، ما تقوله هام جدّاً: يجب أن أصرّح لك بأنني قرّرت أن أكتب عن كل هذا. سنناقش موضوع الشرق، أنا وأنت، هناك ونحن جالسان على تلك المصطبة ننظر إلى البحر ونحن نشرب الشاي. يجب أن تؤدّي الكتابةُ خدمةً ما لمشاريعك ولمشاريعي. هل اطلعت إحدى الصحف على الأحداث التي التزمت بها؟

ابتسم عبد القادر وقال:

ـ فكّرت في ذلك وأنا في أمبواز. ولكن لم أكن أبداً في وضع يتهيّأ لي فيه تسجيل أفكاري، ورغم ذلك أمليت بعض قطع متناثرة على نسيبي[1]. وقبل ذلك كنت كثير الانشغال بحيث لم يتسع لدي الوقت. كنت أقوم بواجبي، وهذا مأأخذ كل وقتي؟ سأرى كيف ستتم إقامتي في دمشق، وربّما أمليت بعض الأشياء على أولادي في يوم ما؟ غير أن التعليم الديني يشغلني أكثر من اهتمامي بحياتي الدنيوية.

كان شرشل قد اتخذ منذ الصباح قراره لذلك أصرّ على سؤاله:

«إذا حاولت أن أسجّل بياناً عن مختلف نشاطاتك، فهل ستساعدني؟

ـ بكل سرور، سأجيب بكل طيبة خاطر على جميع الأسئلة التي ترغب بطرحها عليّ[2].

---

١ ـ هذا النصّ يتضمن شروحاً أخرى غير حياة الأمير، والواقع أنه كان بمثابة دراسة لاهوتية حقيقية مقارنة، جواباً لطلبات من الأسقف دوبوش وبواسونه.

٢ ـ يعرض شرشل هذا المشهد في مقدمة كتابه الذي عنونه: «حياة عبد القادر، سلطان العرب السابق في الجزائر ـ كتب بإملاء منه بالذات» لندن ـ شابمان وهل ١٨٦٧

محطة الوقوف السادسة

دمشق ١٨٥٦

كان الطريق المتجه نحو الشرق[١] يخترق أولاً سلسلة من الحدائق الرائعة المسيّجة بالصبار تتخللها بعض مقامات الأولياء التي تشكل بقعاً بيضاء بين خضرة البساتين وجنبات الصبّار، وكانت ضاحية المدينة تشكل خطاً من المقاهي يقضي فيها العرب أمسياتهم وهم يدخنون النارجيلة. ووصل موكب الأمير عبد القادر وعائلته ومن انضم إليهم إلى دمشق في ٦ كانون أوّل ـ ديسمبر ١٨٥٥، وقد قصّ الأمير بكل أمانة أخبار وصوله إلى دمشق لتوفنل، ولسبس، وشرشل إذ أن الرحلة لم تخل من بعض المفاجآت... وعبد القادر يدرك أنه اجتاز السلطنة العثمانية إلى بلاد الشام، أي إلى بلاد عربية، وهذا يغيّر كليّاً مظاهر الرؤية: فقد استقبل في كل مكان كبطل سواء في المنطقة اللبنانية الدرزية حيث كان ينتظره مئات الفرسان وهم يطلقون رشقات الرصاص تحية لمقدمه، أو في دمشق حيث خرج الناس حتى ضاحية المدينة الغربية ليهتفوا له مرّحبين.

«حضر عزت باشا، سري عسكر، للقائنا على بعد خمسة فراسخ من المدينة، ونزلنا في داره في الصالحية، كما أن سمو نامق باشا خصّص لنا داراً تحوي على أكثر من عشرين غرفة...».

كان الاستقبال هنا يختلف تماماً عن الاستقبال الذي لقيه في القسطنطينية ولم يتبادر إلى ذهن عبد القادر أنه سيغدو محطّ اهتمام عدة طموحات سواء من الجانب العربي أو الجانب الفرنسي. ولئن أعدّ له الدمشقيون هذا الاستقبال الحافل فذلك لأن المغاربة القاطنين في دمشق عملوا بعناية على نشر وصيانة شهرته كمدافع مستبسل عن الهويّة العربية الإسلامية فرأى المجتمع الدمشقي في استقباله الحافل فرصة جديدة لمعارضة السلطة العثمانية. وقد سهّلت هذه في الفترة الأولى إقامة الأمير، ثم أهملت، موقتاً، وضعه، ومن جهتهم استجاب الفرنسيون أكثر فأكثر، وبسخاء، لمطالب الأمير المالية، حتى أن مبالغ كبيرة جدّاً خصّ بها على مدى تلك السنوات، فقد كان نابوليون الثالث ووزير خارجيته الكونت والوسكي[٢]

١ ـ ورد في النص الفرنسي: «نحو الجنوب؟» كما ذكر المرور على جبل الدروز، والأصح الطريق المتجه نحو الشرق، فهو متجه من بيروت إلى دمشق، مروراً بمنطقة الشوف الدرزية (المترجم).

٢ ـ الكونت والوسكي: (١٨١٠ ـ ١٨٦٨) هو ابن سفاح لنابوليون الأوّل والكونتس البولونية والوسكا ترأس مؤتمر باريس العام ١٨٥٦ ثم غدا وزير خارجية نابوليون الثالث.

وغيرهما كثيرون يحلمون بامبراطورية عربية كبرى تقوم على مبدأ القوميات على طريق الهند البري أو البحري، وكلّ شيء، سينشط بين خطّ همايوني[1] ١٨٥٦ وفتنة ١٨٦٠ ويقظة العرب تعبّر عنها قصيدة لابراهيم بن ناصيف اليازجي مطلعها:

تنبّهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طما الخَطْب حتى غاصت الركب

غير أنّ عبد القادر مازال غير حرّ تماماً في حركاته، فتعليمات والوسكي واضحة: فعلى بولاد أن يأخذ بالاعتبار على نحو منتظم «جميع الوقائع التي يمكن أن تحدث حول الأمير والتي يمكن أن تبدو لك ذات طبيعة تهمّ حكومة الإمبراطور».

(تعليمات ١٤ كانون أول ١٨٥٥ - انظر الوثائق رقم ٧ - ٩). ولما كان الأمير لم يبلّغ بعدم إمكانه ترك دمشق دون إذن، فقد حاول بولاد أن يثنيه عن عزمه على الذهاب إلى القدس وحتى إلى مكة... وهذا ما أثار غضب الأمير بشدّة، لكنه لم يمنعه من السفر عندما لايكون مشغولاً في إدارة مزارعه. إذ أن كل شيء يؤازر تجدّده: الاستقرار، وقد كان شاقّاً في البدء، ثم غدا مزدهراً، وهذا ما أتاح تجمّع جالية من المغاربة وصلت إلى نسب مدهشة: خمس سكان دمشق... ثم الاتصالات مع جميع علماء المدينة واندماج عائلة «الجزائري» في طبقة الوجهاء، أخيراً الأسفار سواء ضمن سورية ولبنان، أو إلى مكة المكرّمة ومصر.

اوروشليم (القدس)

فكّر عبد القادر وهو ينظر إلى المشهد المؤثّر لتشابك المباني الدينية في القدس اعتباراً من باب دمشق بقصة الخليفة عمر كما ترويها المدائح وقصص الأولياء:

«نحن في العام ١٧ للهجرة، ٦٣٨م».

بعد أن فتحت أبواب مدينة القدس دخل الخليفة عمر بن الخطاب إلى أن وصل أمام كنيسة القيامة، ولاحظ أن موعد الصلاة قد حان، فسأل البطريرك صفرونيوس أين يمكنه أن يتمّم فرض صلاته، واقترح عليه رجل الدين المسيحي أن يدخل الكنيسة. لكن عمر البعيد النظر هتف قائلاً «لن أدخل أبداً للصلاة في هذه الكنيسة، وهذا لمصلحتكم معشر المسيحيين؛ إذ عندما يصلي خليفة النبي ﷺ في مكان فسيستولي عليه المسلمون ويحرمونكم منه دون رجعة».

١ - هو شبه دستور أصدره السلطان عبد المجيد في شباط - فبراير عام ١٨٥٦.

جلس عبد القادر في وضع شعائري، وهو يتأمّل الأماكن المقدّسة: المسجد الأقصى، ومسجد عمر، لكنه كان يفضل القبّة لشكلها الهندسي. فهناك وهو مستند إلى أحد الأعمدة، يرى القرآن وهو يرتّله غيباً: وهندسة الشاهد التي يعرفها عن ظهر قلب تكشف اختلاف التنوّع عن الحقيقة؛ إنّه يرى صيغة ابن العربي:

«الحقيقة الإلهية هي المرآة التي ترى فيها نفسك كما أنك أنت مرآة الله التي يرى فيها أسماءه» إن الكتاب يعكس أشكال الكون والإحكام الإلهي.

﴿إنّ علينا جمعَهُ وقرآنَه﴾ (٧٥، سورة القيامة، ١٧).

من المؤكّد أن المبدأ قد صيغ بشكل غير قابل للتغيّر لكن إدراك الظواهر الإلهية يبقى مفتوحاً لكل تحوّلات الأشكال

﴿إن هذه تذكِرَةٌ فمن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً، وما تشاؤون إلا أن يشاءَ اللهُ، إن الله كان عليماً حكيماً﴾ (٧٦، سورة الإنسان، ٢٩، ٣٠).

إنّ قوّة الإسلام أنّه تنفسيّ: فالقرآن ليس كتاباً للأعين فقط، إنّه ضابط للّفظ، والترتيل، وهو مقرأ الإنشاد، وهو دعامة فعل محاكاة الكلام الخلّاق الذي يملأ كامل المدى الصوتي والمجهول. فالترتيل هو إذاً تأمّل جسماني في إنثناء المؤدّي على المؤدّى خلال خمس محطات يوميّة تحبك انقطاع مجموع الزمان والمكان في المدى الموحّد المنطلق من الشريعة إلى المدينة.

ويبدو القلق في تراسل المراكز لأن الأمير لايزور قناصل فرنسة في بيروت، أو يافا، وحتى في القدس، بينما قام أولاً: «بزيارات أولى لجميع السلطات التركية الرئيسة»؛ وكان في كل مكان يلقى استقبالاً حاراً من سكان فلسطين. وقلقت وزارة الشؤون الخارجية إذ من شأن «هذا التصرف أن يجذب إليه أشخاصاً معارضين للحكومة المحلية (...) وهذا من طبيعته أن يثير القلق لدى الباب العالي (...) ». ويؤكّد القنصل أوتري Outrey، خاصة في مذكرات طويلة على واقع أن عبد القادر لايخفي بشكل كاف عواطفه ويتحدث بشكل صريح ضد الإدارة العثمانية مضيفاً أن «المغاربة» ليسوا محبوبين في دمشق، وأن العرب يكرهون الأتراك.. ورأى توفنل السفير في القسطنطينية وأوتري أنّ من الواجب حثَّ عبد القادر على الاستقرار نهائياً وبالتالي فعلى فرنسة أن تساعده على شراء أملاك، بينما يشكو القنصل من

النفقات الكبيرة «المخصصة لإرضاء نزوات دار حريم اقتنص حصراً كل إمكاناته..!»[1].

كذلك فإن الذهاب والإياب المستمرين على عدة سنوات لأخوة، وأصهار، وأبناء الأمير بين الجزائر وتونس ومصر، كانا يسبّبان إزعاجات كبيرة للقناصل وللأتراك؛ فبعد سنوات من هذا الرواح والمجيء، لم يعد أحد يعرف جنسية هذه العائلة، وخاصة فيما إذا كان يجب على «الجزائريين»، الذين كان عبد القادر يضم إليهم بسهولة محيّرة ـ بالنسبة للسلطات المحلية والفرنسية ـ كل شخص آت من المغرب، دفع الضرائب المحلية، والعثمانية. لكن البرقيات، والتقارير، ورسائل الجواسيس والقناصل السريّة، لاتقول كل شيء حتى وإن تطرّقت أحياناً إلى تفاصيل مدهشة في دقتها. وكما هو الأمر دائماً مع عبد القادر، يجب إجراء قراءة مضاعفة، خفيّة وظاهرة، إذ أنه في اللحظة التي يبدو فيهاأكثر مايكون جليّاً، هو أكثر خفاءً... فالأمير يصلي، ويفكر، ويعمل، ويعلم، ويكتب:

«في كلّ مرة توجد فيها تعابير في القرآن أو السنة تنطوي على مثولية الله، فإنّها تتعلّق بدرجة تجلّيه، وتحديده بالأشكال التي يبديها بمقتضى اسمه **الظاهر** وفي كلّ مرة توجد تعابير على سموّه فإنّها تتعلّق بانعزاله عن الأشكال بمقتضى اسمه الباطن...».

إن العلاقة مع اللامنظور ـ بما أن صورة المنظور لاتقيّم إلا بانعكاسها على مرآة اللامنظور التي يشكلها القرآن ـ ليست من اهتمامات الرجل العادي، خاصة والقداسة في الإسلام ليست وقفاً على بعض الأشخاص. لكن الأمير هنا في طريقه لإعداد انسحابه من العالم الدنيوي، وهذا ما لم يفهمه الفرنسيون والسياسيون وخاصة وأن هذا الانسحاب لايعني أبداً بالنسبة للأمير الاعتزال كما سيتبين لاحقاً.

وبهذا الخصوص يكتب شودكوتيز[2].

خلفاء أو سقاؤون؛ إنّهم لايهربون من ظرفهم؛ بل هو الذي يتركهم أحياناً؛ فاعتزالهم هو الجمهور، وصحراؤهم هي الساحة العامة، والامتثال هو نسكهم، والمألوف أعجوبتهم. والحرب الصغيرة المقدّسة ضد العدو الخارجي لاتحوّلهم عن الكبرى ضد الكفر الذي يحمله كلّ واحد في نفسه، ولا الكبرى عن الصغرى.

---

١ ـ تانت، رسالتان بتاريخ ٢٠ تشرين أول ١٨٥٦ مسجّلة برقم ٢٦، و ٧ كانون ثاني مسجّله برقم ٣٥.

٢ ـ ميشيل شودكوتيز ١٩٨٢: «الأمير عبد القادر ـ كتابات روحية».

فحياتهم تقرن بدون أسف، لكن ليس بدون جهد، قضايا العصر وقضايا الخلود. إنّهم كتلك الشجرة الطيّبة التي ورد ذكرها في القرآن: في سورة ابراهيم، الآية ٢٤: «أصلها ثابت وفرعها في السماء. إنّها رمز الإنسان الكامل؛ الذي هو بمقتضى الخلافة الإلهية يضم في شخصه الحقائق الحقيّة، والحقائق الخلْقية».

كيف يمكن لجواسيس نابوليون الثالث أن يشرحوا هذا التطوّر في الأمير لوزيرهم.

محطة الوقوف السابعة

الشرق العمودي

الإنسان الكامل

﴿ألهاكم التكاثر﴾[1] (١٠٢، سورة التكاثر ١).

الإنسان الكامل هو عنوان مؤلف منهجي للصوفي عبد الكريم الجيلي (١٣٦٧ - ١٤١٧) ويعني بالإنسان الكامل، أو الإنسان الشمولي من حقّق جميع درجات الكائن لكنه يعني أيضاً النموذج البدئي المستمر للإنسان، وهو في الوقت ذاته الرمز الإنساني الكامل، الروح، مجموع الكون.

إن فكر عبد القادر وممارسته الصوفية كانتا موضوع شروح واضحة من قبله، ومع ذلك، فإنّني ما أزال - حتى الآن؟ لم أفهمها كلّياً، ولأكون أكثر يقيناً فإنني أعود إلى دراسات ميشيل شودكوتيز M. Chodqiewicz وشارل آندره جيليس Ch. A. Gilis؛ إلا عندما أفضل تفسيري الشخصي. وعلى المستوى العام، أقول إن مبدأ الأمير «أكبري» كلياً. أي أنّه منسجم مع تعاليم أكبر العلماء محيي الدين ابن العربي الحاتمي الأندلسي (١١٦٥ - ١٢٤٠)؛ ومع ذلك، يبدو لي، في التفاصيل، أن عبد القادر ينطلق إلى مدى أبعد أحياناً: إنّه بالتأكيد يكتب ويعلّم كمعلّمه معتمداً على الصيغة: «لم أخلق فيك الإدراك إلا ليكون إدراكي هدفاً لك» لكنه لايعتزل العالم، ويساهم في الحياة الاجتماعية، وفي السياسة، حتى وإن كان وفق المعنى الإسلامي التقليدي الذي تعنيه هاتان الكلمتان، كما برهن على ذلك بشكل رائع في أحداث ١٨٦٠. ولكنه مع ذلك عضو في المجلس البلدي لمدينة دمشق، ويمارس التجارة، وحتى يضارب في

١ - ورد في تفسير الجلالين: التكاثر: التفاخر بالأموال والأولاد والرجال (المترجم).

شراء الأراضي بما فيها أراضي في فلسطين! ويحبّ النساء حتى أن قنصل فرنسة يشكو من كلفة «حريمه». إنه، بالتأكيد، ينسحب بين وقت وآخر، إلى صحرائه الداخلية، حيث ينصرف إلى التأمّل، وقد «اختفى» سنة في الأراضي المقدسة، ولكن لئن كان مفتتناً:

«إنني من أولئك الذين أنعم الله عليهم برحمته، وهداهم إليه، وعرفهم على حقيقة الكون الرئيسة بالافتتان الوجدي لا بوسيلة الارتحال المساري».

إنّه ليس مجذوباً بالله إنّما هو مجنون متيّم بحبه: «قيل لنا إن رجلاً صالحاً ذكر عن قيس ليلى أنه من أولئك الذين أحبّوا الله وأنه اتخذ حبّ ليلى ذريعة لكتمان وجده الإلهي (...). أبعدني عن نفسي، وأعدني إليك، لأن حبّك في الحقيقة يذهلني عنك...».

وعبد القادر الذي يشرح غالباً **فتوحات** ابن العربي، وهو أوّل ناشر حديث لها، يعتقد أن ليلى (لكن أهي المرأة أم الليل؟» هي القناع ونقطة الاستناد للوجود الإلهي. ويكتب آنذاك ـ مما يكتب.

وكم من شهيد للغرام مشاهد ... لبعض الذي شاهدت مات فأُقبرا
وذا قيس عامر تخيّل نورنا ... في ليلى فمات والهاً متحيرا

فالجوهرية تبقى بالنسبة إليه، على مستوى مختلف من التاريخية: فلماذا الانقطاع عن هذه أو تلك بينما الإنجاز يتطلب الاثنتين؟ وهكذا فعبد القادر تمم مسيرته الاستثنائية ماعدا نقطة واحدة: رفض مملكة نابوليون الثالث العربية، فمملكته ليست من هذا العالم، كما يؤكد في إحدى قصائده.

لم نصعق والسموات تُعلِن
ان المُلك من هذا اليوم
لله وحده لاشريك له

وفي مكان آخر

إنّ المسارّين يعلمون أن كل نفس ذائقة الموت
لذلك هيّأ لهم حراس الملك أسبابه.

أهو توق إلى اللامتناهي؟ إنه بالأحرى ميل منطقي وأونطولوجي لهذا الحبّ نحو جوهره الاستعلائي... أو كما يعلن مولانا:

«أريد أن أخصّك بلغة بدون كلمات، لغة تبقى خفيّة على جميع الآذان، هي حقاً، لو تكلّمت بها بين الجماهير، لن تتمكّن أي أذن إلا أذنك أن تسمعني».

ومع ذلك فإن تسامحاً رحباً يوجهه، وهذا منذ مدّة طويلة. منذ أن أدرك وارتضى أن الطرقات متعددة، ولم يعارض أبداً وهو يطوّر ويبسط سلاسل مسارّين يتلاقون داخل مجتمعات دون أن يتعارضوا.

إنّ له سبع مرّات سبع سنوات، وهو في الثالوث: حبٌّ ومُحبٌّ ومحبوب...

الفصل الرابع
مفتاح الفرنجة

أينما يُنظَر في تلك السنوات الغربية، كانت تركية تسير نحو حماية خاصة من انكلترة، والنمسة، وفرنسة؛ فالمارشال راندون أخضع منطقة القبائل، موقتاً. وإسبانية غزت مراكش ضمن شروط أملتها الحكومة اللندنية في الوقت الذي توفي فيه السلطان المراكشي مولاي عبد الرحمن. وفي بلاد الشام بدأ الدروز والموارنة يتحركون...

أينما ينظر كان أمير بروسية الوصي غليوم يعبّر عن قلقه للقيصر اسكندر بواسطة سفيره مترنيخ، بينما الحرب المدنية بين المسيحيين والدروز تستمر تحت نظر العثمانيين اللامبالين.

ومع ذلك، وأيّاً كان التفكير حالياً، فإنّ وضع الأقليات في السلطنة العثمانية كان أكثر تسامحاً ممّاأقامته الدول القومية الحديثة. فهذا النظام المتضمن لسلطات محلية ضمن المناطق الإدارية، أي الولايات والقائمقاميات، يعطي حريّة كاملة للأقليّات لتسوية قضاياهم وفق تشريعهم الخاص، بينما تكتفي الدولة التركية بفرض الضرائب وإدارة المجتمع من قبل نخبة محليين.

بدأ التحديث الدخيل يقلقل هذا المجموع، الذي لم يكن منسجماً بالتأكيد، لكنه أقلّ شراسة مما أشاعه أعداء العثمانيين وكان تاريخ البدء هو المرسوم المسمّى «الخط الهمايوني» في شباط - فبراير ١٨٥٦ الذي صدر مؤكّداً الإرادة السامية السلطانية «غولهان» المعلنة في ٣ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٣٩ مفتتحة بدء عهد الإصلاحات، **التنظيمات**.

عبد القادر الشهم

﴿قال: ربّ، إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً، فلم يزدْهم دُعائي إلا فراراً﴾ (٧١، سورة نوح، ٥، ٦).

كتب عبد القادر، وقد غدا كثير الإطلاع على السياسة العالمية، بتاريخ ١٠ حزيران - يونيو ١٨٦٠، من دمشق إلى صحيفة «نسر باريس Aigle de Paris»:

الحمد لله وحده

أعجبت بكل ما كتبتموه حول موضوع الدول الإسلامية، وأنتم في الحقيقة ناصحون طيّبون

إنّك قد أسمعت لو ناديت حيّاً ولكن لاحياة لمن تنادي

وقد ارتكزتم في خطابكم على نقطتين؛ وكان بإمكانكم أن تضيفوا إليهما نقطة ثالثة تقولون فيها إن الحكام المسلمين حقيقة يحبون سلوك الأشخاص الشرفاء ويتبعون آثارهم في العدالة وازدراء متاع هذه الدنيا إذ يجب أن يكون الكبار هم القدوة للصغار.

للأسف نحن بعيدون عن ذلك.

سبق لمحمد ﷺ في زمنه أن ذكر الوضع الحاضر للسلطنات الإسلامية والمسيحية ولكلّ ما يحصل في الوقت الحاضر وهذا ما يعطي لنبوته كلّ هذه السيطرة. فقد أعلن اندحار الأكاسرة، وهو ذا لاوجود الآن لفرعون أو لقيصر. وقال أيضاً إن الملوك المسيحيين سيستمرون في السلطة حتى نهاية الأزمان، وأن الله سيتخلى عن حكّام شعبه بسبب سلوكهم المخالف لشرائعه، ولظلمهم، وحبهم لمتاع الدنيا.

وقال أخيراً إن العالم لن ينتهي إلا بعد أن يشكّل المسيحيون الأكثرية بين بني البشر.

وهذا الحدث لن يتأخّر في الحصول إذ كما قال مسلم، أحد المفسرين الموثوقين لكلام النبي ﷺ، إن لهم أربع مزايا تؤمن لهم النجاح في المستقبل:

الحلم عند الانتصار، والمقاومة عند الإندحار، والقدرة عند الارتداد مهاجمين، والإحسان إلى الفقراء، والضعفاء، واليتامى.

وأضيف من طرفي، أنهم يضمون إلى هذه المزايا واحدة أخرى أكثر سمّواً أيضاً وهي أنّهم يعرفون كيف يتخلصون، عندما يلزم الأمر، من ظلم ملوكهم واضطهادهم...

اللهم إني أبكي! اندحار الإسلام.

إنّا لله وإنا إليه لراجعون.

في هذه الفترة تسود فوضى رهيبة بين الدروز والموارنة، وللشرّ في كل مكان جذور عميقة، فالقتل والمذابح في كل مكان.

نسأل الله أن تنتهي الأمور على خير

والسلام عليكم من الفقير إلى الله الغني.

سبقت هذه الأفكار ببعض أيام مذابح دمشق التي برهن فيها الأمير الشهم عن رحمة إسلامية أشهرت اسمه كبطل حقيقي في كل أوروبة؛ ولكن ما من حتميّة في هذه الملاحظات، إنّما هي ببساطة تساؤل يمرُّ في حياته: ماهي مشيئة الله الحقّة؟ فحريّة الاختيار والقضاء والقدر يسيران على المستوى نفسه، وأخويته، الطريقة القَدَرية قد طرحت بوضوح مشكلة الممكن وغير الممكن: هل للفعل الذي يعرف الله أنه ليس في قدرة الإنسان إمكان الحدوث؟ إنه تلميح إلى سورة القَدْر (السورة ٩٧) وليلة القَدْر في السابع والعشرين من رمضان.

﴿تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كل أمر﴾ (٩٧، سورة القدر ٤).

﴿يعلم ما بين أيديهم، وما خلفهم، ولايشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشية مشفقون وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (الأنبياء، والنحل).

﴿لايُسأَلُ عما يفعل وهم يُسألون﴾ (٢١، الأنبياء، ٢٣).

عندئذ تحرّك الناس وأمعنوا الفكر، وخلقوا المشاريع، وابتسم القدوس, شفقة لكنه سخر منَ المملكة الدنيوية لأن المقدس هو دلالة المطلق، وما يمنح الملكية ليس من هذا العالم... ومع ذلك فالمدني والدنيوي يتدخلان ويهاجمان دون انقطاع المقدّس، فكان على هذا أحياناً أن يخرج من مكمنه، بحكم الضرورة.

أدرك عبد القادر أنّ الآخر يتداخل، وهكذا فعلى المستوى العالمي تكون قضية الشرق هي قبل كل شيء قضية الغرب! كيف يمكن التحكّم بطريق الهند، وتحويل المتوسط إلى بحيرة فرنسيّة دون اعتراض من روسية أو بروسية؟ وبدون التلاعب بالألفاظ، ومن أجل التحكم بطرقات المنطقة، كيف يمكن الاختيار بين خط الحديد الألماني، والطريق الانكليزي، والقناة الفرنسية؟ أيكون بتبادل عدم تدخل كل قوة في المصاد الخاص للقوة الأخرى؟.

إن ترك فرنسة مطلقة اليدين في الجزائر كان ضمانة كبرى من قبل القوى العظمى الأخرى، لكن هذا لايكفي الإمبراطور المعجب ببونابرت مصر والمطارد من قبل

جماعته مصرفيي روتشيلد وتالابوت، والسان ـ سيمونيين، ورجال الكهنوت، وغرفة تجارة مرسيليا، دون أن ننسى الجمعيات، الجغرافيّة، والماسونيين... وهكذا تكوّنت عصبة تآمر راحت تعبّر عن أهدافها في صحف: «صديق الدين Lami de la religion» ومجلة العالمين Larevue des deuxmamdes، مروراً بمجلة الشرق والجزائر والمستعمرات Lo revue de lorient, de l A lgerie, etdis eolomies: لإقامة السلام، يجب خلق دولة عربية سورية، تحت حماية فرنسة الإمبراطورية ويعهد برئاستها إلى الأمير عبد القادر.

«في وسط أحداث الشرق، يلاحظ الرأي العام بفضول موقف عبد القادر الذي يُعتبر وسط أُخوته في الدين جندي الحضارة، ويحلم على الأرجح بأن يكون محمد علي سورية.

نستغفر الله في أن نكون راغبين في طرح مشروع أو إبداء رغبة! إنّما هي صورة نشير إليها بالإصبع»[1].

كانت هذه الفكرة تتردد منذ عدة أشهر، وبصورة خاصة في صحيفة مارونية في باريس هي «بيرجيس باريس» وقد تناولتها بذات التعابير صحف: «تقدّم ليون Progres de Lyon» و«الدستوري Le constitutinnel» و«بريد الأحد Le courrier de Dimanehe» في اليوم التالي! لكنها لم تهبط من السماء! فمنذ ١٨٥٧ على الأقل، تتشابه تقارير القناصل، وبعضهم مرشح ليكون وزيراً، بشكل غريب: من دي توفنل إلى لسبس مروراً بأوتري وبنتيفوغليو، ويصل التحليل ذاته إلى مكتب والوسكي: لئن كان إعلان الخط الهمايوني (١٨ شباط ـ فبراير ١٨٥٦) وخلاصة معاهدة باريس (٣٠ آذار ـ مارس) قد أدخلا السلطنة العثمانية في «جوقة الأمم المتحضرة»، والحداثة، فقد كان لهما نتائج خطيرة على المقاطعات السورية، وقد حان الوقت لإيجاد حلّ لهذه المقاطعات على شاكلة الحل الذي سمح لمصر محمد علي أن تتحرر قبل ذلك بثلاثين سنة. وقد طُرح حلّ تنصيب الأمير عبد القادر عليها في فترة حدوث مذابح دمشق والموقف الشهم الذي وقفه الأمير. وقد تمّ هذا الاقتراح من قبل الجنرال دي قارتينبري حاكم الجزائر آنذاك في تقرير سري بتاريخ ١٣ حزيران ـ يونيو ١٨٦٠ بخصوص هجرة الجزائريين إلى سورية.

---

١ ـ صحيفة صديق الدين، ٢١ تموز ـ يوليو ١٨٦٠

«إنني مقتنع أن جميع القرائن التي جمعتها منذ عدة أشهر تفيد أن الأمير عبد القادر مايزال يرغب في أن يلعب دوراً. ولا أعتقد أنه يفكر بالعودة إلى الجزائر رغم التقدير الذي يحظى به اسمه هنا. لكنني أرجح، نظراً للحالة غير الثابتة في الشرق، أنه قدر المكانة التي يمكن أن يصل إليها بقوة ذكائه وطاقته، ومهارته، مدعوماً برفقاء شجعان ومخلصين، أرسلتهم إليه الهجرة من الجزائر، وليسوا أوّل الوافدين، لكنهم من أقوى الرجال الذين تعرفهم القبائل المحاربة وهم مجهزون بموارد مالية حصلوا عليها من تنازلهم عن ممتلكاتهم. هل ينوي الإمبراطور أن يمكن عبد القادر من أن يلعب دوراً في الشرق؟ علينا عندئذ أن نترك الهجرة تأخذ مجراها. وفي حال العكس فأمر تعديلها يعود إلينا.

أي مصلحة لنا في أن نرى الإسلام يجدّد قواه؟»[1].

إنّه انقلاب غريب، عندما نفكر ببرودة العلاقات القائمة بين الأمير طيلة تلك الفترة، مع القناصل الفرنسيين، والمخاوف المبرّرة لأوامر والوسكي، وتقارير بولاد، إلى أن حصل الأمير على سحب مترجمه في ١٨٥٧. للأسف لم أجد جواب الوزير!، إن كان هناك جواب! ولكن هذه هي المرّة الأولى التي تطرح فيها القضية بهذا الشكل. والواقع أن عبد القادر كان بإمكانه أن يتحرك خلال الفتنة مع رفقائه المسلّحين، حتى أن أحد مطالب السلطة العثمانية، بعد هذه الأحداث، هو نزع سلاح الجزائريين!. ولكن حتى العام ١٨٦٠ تؤكّد التقارير على انصراف الأمير إلى توطيد ملكيته الزراعية والعقارية، وعلى نفقاته، وعلى تركيز اهتمامه بالبحث والتدريس.

الدعوة الباطنية

«بهذا التشنج السرّي بين حنايانا، نعرف الدنو الجائر».

سان ـ جون برس

الواقع أن الأمير عبد القادر أرسل تلاميذه في الفترة ذاتها لمقابلة نصّ **إشراقات مكة** مع مخطوطة ابن العربي الموجودة في قونية:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلانٍ ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائفٍ   وألواح توراة ومصحف قرآن

١ ـ أرشيف الشؤون الخارجية، دمشق، الجزء السادس، الملف ١٥.

أدين بدين الحبّ أنّى توجّهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

إنّها نهاية المنفى الغربي بالنسبة لعبد القادر، والالتفات إلى الإصلاح، الهدى الباطني الذي سيتمّ كبشائر في نهضة العالم العربي، إذ ما بعد تحركات الدواوين القنصلية الأوروبية، بدأ العالم العربي يتحرك بدوره، ويتوق إلى الاستقلال. ومدينة دمشق هي ملتقى كل الممرات، والاجتماعات فيها في المجالس. والناس جميعاً يتابعون الأحداث ولكل مشاريعه. والأمير عبد القادر ليس بمعزل، بل بالعكس فهو عضو في المجلس البلدي، ويختلط بالخاصة والوجهاء السوريين[1].

ونشاهده يناقش بثبات تحديث سورية انطلاقاً من إنشاء الطرقات والجسور، كما أنه يساهم بدعم مالي لبعض كبار العائلات السورية مثل آل العظم، ولا يتردّد في أن يناقش قناصل انكلترة (ريتشارد بورتون الذي مضى عليه أكثر من عقد من الزمن في دمشق، وجمس فين القنصل في القدس)في نطاق التمويل الخارجي ضمن نطاق الاستثمارات الأجنبية التي يشجعها رشيد باشا. وخلال تلك الفترة فإن كبار أبنائه انصرفوا إلى تجارة الحبوب على النطاق العالمي، ومن تلاهم غدوا من الوجهاء في حوران وحتى لدى الدروز، مما ساعد العائلة فيما بعد على أن تمدّ نفوذها من صيدا حتى الجليل حيث دفع عبد القادر بثلاثمئة جزائري إلى الاستقرار قرب بحيرة طبريا، مما سبّب بعض المشاكل في العام ١٨٨٢.... لكن الجزائريين استقروا أيضاً في دمشق وحتى في المناطق المجاورة لها لأن الأمير تمكّن من إعفاء ألف ومئتين وسبعين شخصاً من الضرائب العثمانية لأنهم اعتبروا «جزائريين» أي في الواقع فرنسيين! والملفات ملأى برسائل احتجاجات السلطات التركية التي طلبت أكثر من مرة من سفير فرنسة أن يعمل على دفع عبد القادر إلى التقيّد بالأنظمة بل حتى أنها طلبت طرده[2].

كما أن السلطات العثمانية أرادت تجريد الجزائريين من السلاح بعد أحداث ١٨٦٠

١ - عن كل هذه المرحلة، وعدا عن الأرشيف الفرنسي، ومؤلف تميمي (١٩٦٨) توجد بعض توضحيات في المنشورات الانكليزية ومؤلفا ل.س. شليشر؟ وف. س. خوري متميزان بما يحويان من معلومات عن وجهاء العرب في القرن التاسع عشر (انظر ثبت المراجع).

٢ - في أرشيف نانت الرسالة رقم ١٢٤ تاريخ ٢٦ حزيران - يونيو ١٨٦١ من ماكس أوتري، وكذلك تلك التي تحمل رقم ١٣٣ تاريخ ٤ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٦١ من فؤاد باشا، كما أن قضية الضرائب على الجزائريين دامت سنوات.

الدامية التي أمكن خلالها لجزائري عبد القادر أن ينقذوا آلاف المسيحيين في الوقت ذاته، وفوق كل شيء كان عبد القادر ينصرف إلى التأمّل، ويقرأ، ويدرس، ويصلّي، ويكتب، ويدرّس خاصّة. وراح ينّمي طريقة فكرية قويّة خلال هذه السنوات من التأمّل والبحث. إنّه يعلّم بطرق مختلفة في حلقات متداخلة: في الجامع، ومختلف محافل الأخويّات، وصالة بيته، وفي حلقة أكثر خصوصية وأكثر انسجاماً تقتصر على عدد محدّد من الموهوبين والمساريّن. وكما في الجمعيات السريّة فإن هذه المجموعة من الحلقات والمراكز الروحية تسوس العالم؛ فمجتمع الدراسات الروحية يستوحي أي أنّه يلتمس الرأي الواحد، لكن عبد القادر يتصرّف قبل كلّ شيء كعالم مسلم منهجي تماماً وتقليدي؛ فهو يعلّم، ويقرأ، ويشرح علناً النصوص الرئيسة للمأثور الإسلامي مثل **صحيح البخاري**، في المدرسة الأشرفية، بينما في مدرسة أخرى: الجقمقية، يعلّق خلال عدة أشهر على مؤلّفات في العلوم القرآنية لمؤلّفين مصريين تقليديين (جلال الدين السيوطي، وأحمد بن المبارك)، أو ذلك القاضي الكبير من القرن العاشر... وفي مكان آخر، وسنة أخرى، يقرأ، ويشرح الكتاب الذي يعرض الرؤى الروحيّة لأحد كبار الأولياء المراكشيين: عبد العزيز الدّباغ (١٦٨٤ - ١٧١٩)، لكنه في التصوف، يقلّص عدد الحضور، وخاصة بعد عودته من مكة في العام ١٨٦٤، حيث يقتصر على حلقة ضيّقة يجمعها في منزله غالباً، عقب صلاة فجر الاثنين، لقراءة **الفتوحات المكية** لابن العربي؛ وفي مكان آخر أيضاً وسنة أخرى (١٨٥٩ والحالة هذه) يعود إلى شرح **صحيح** مسلم والبخاري.

سيغدو بعض تلاميذه[١] من المفكرين الهامين سواء بين المتصوّفين أو روّاد النهضة العربية وحتى الفكر القومي مثل أحمد سليمان الخالدي الطرابلسي، وأحمد القمشخاناوي ومحمد الخاني ابن الشيخ الخالد أحد موجّهي عبد القادر إلى مكة، وكذلك الشيخ محمد الطنطاوي.. وبالطبع بعض الجزائريين الذين تبعوه، وما يزال أحفادهم في دمشق، وهؤلاء ينتمون إلى فرع الخالدية من النقشبندية، وسيكون هذا الفرع في أساس تجديد الأكبرية في مصر حيث ولد الشيخ في العام ١٢٤٠ هـ علاقات غريبة لثلاثة أجيال من العلماء والأولياء المسلمين الذين كان أجدادهم في

١ - انظر معطي الحافظ؛ ون. أباظة: تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: جزآن، دمشق ١٩٨٦.

السابق المثقفين للآباء دون النظر للجنسية ولا للجغرافية، فبينما الخالد قد وجّه محيي الدين والد عبد القادر، فإن ابنه الخاني بتوجيهه الأسئلة إلى عبد القادر ومناقشته، قد أخذ ملاحظات عنه ستغدو أساساً لتأليف **كتاب المواقف**.

أخيراً فإن عبد القادر كان على اتصال مع شخصيتين من كبار عائلات المثقفين المصريين: وهما الشيخ عبد الرحمن العايش الذي كان إلى جانبه في لحظة وفاته، وهو أكبري بالطبع، ومنفتح جداً، ومتفهم للحداثة، وأيضاً ابن هذا الشيخ محمد العايش، المفتي الأكبر للمذهب المالكي في مصر الذي أصدر **فتوى يدين فيها خيانة سلطان مراكش(١)؛ وإلى تلك الفترة، وعن تلك المناقشات نتجت مخطوطة ماتزال غير منشورة لعبد القادر هي: حسام الدين لقطع شَيْن المرتدين.**

وبالرغم من أن الشيخ الأكبر، أهم المعلمين، هو «أوقيانوس معرفة ليس له شاطئ» فإن عبد القادر كان أوّل «ناشر» حديث لنتاج ابن عربي الذي أعاد نسخه عن المخطوطات الأصلية المحفوظة في قينوي في قونية التركية، وخاصة الأجزاء السبعة والثلاثين من **الفتوحات المكية** المكتوبة بين ٦٢٩ و٦٣٦ هـ (١٢٣٨ تقريباً) من قبل الشيخ الأكبر(٢).. والأمير يستوحي مباشرة من معلمه بشرح نتاجه، بل إنه سيصحّح نصوصاً نُسبت إلى الشيخ الأكبر دون وجه حق: فتوجيه ابن العربي يغدو عندئذ كاملاً والاتصال بالروح بين عبد القادر ومحيي الدين يتمّ متجاوزاً المكان والزمان في حنية المدى المكاني الزمني لأن «الأولياء» أحياء في أزلية الله، وبالتالي يمكنهم أن ينشروا تأثيرهم في أي لحظة على مريدهم في تأمّل الأسرار الإلهية.

إن القضية الوحيدة التي تهمّ الفيلسوف تتركّز على فرضية أن «الله» يندمج مع الطبيعة. لكن الصوفي يذهب إلى أبعد من ذلك. إلا إذا كان متميّزاً عن عالم الخلْق لا بل عن «مهندسه» إن لم يكن عن «الخالق» بالذات... هل يجب عندئذ الاتحاد «بالله» بالانفصال عن كل شيء، أو الاتحاد بالآخر ـ الكلّي؟ إن أكبرالنعم تبدو عندئذ في اتحاد الجسد والروح في وجود حميم. فالحب الحسّي هو الحب الروحي، كما أن الحبّ

١ ـ هذه هي قراءة غينون GUENON لنشاط العايش، وهي أحد مفاتيح اهتمام بعض الأوساط بآثار الأمير: انظر م. فالسان: دراسات تقليدية: كانون ثاني ـ يناير ١٩٥٣.

٢ ـ مخطوطات موجودة حالياً في استنبول ويجري دراسة عليها عثمان يحيى: انظر: ابن العربي «نصوص مختارة ـ بإشراف م. شودكوتير ١٩٨٩».

الدنيوي هو الحب المقدّس. والتحكّم في الطاقة (العَزْل الذي جعل منه رجال الدين طريقة مانعة للحمل) يشير إلى التحكم في المقابل للاتحاد كما في تاو[1] الحب.

هذه المقولة تشرح بإسهاب موقف عبد القادر من النساء: إنه يعتبر بالذات أنّه في اندماج معه في التلاشي والفناء عندما يجامع المرأة التي يحبّها وهكذا تتحقّق الثنائية الوحدانية. وهذا هو البرزخ، المضيق بين الأوقيانوسين من الكائن المطلق والوجود النسبي الذي يتحدّث عنه القرآن الكريم:

﴿مَرَجُ البحرين يَلتقيان، بينهما بَرْزخٌ لايَبْغيان (٥، سورة الرحمن، ١٩، ٢٠)[2]

لكن البرزخ هو أيضاً عمودي بين ماهو في الأعلى كما هو في الأسفل، ومحور الكون يمرّ من قدرة مَنْ هو على الطريق، يجلس في الوضع الشعائري بدلاً من التصالب الكوني. وقد كتب ابن العربي:

«أعلم اسم ونَسَب كل قطب سيأتي حتى يوم الحساب الأخير، وبما أنّ معارضة ماهو مكتوب، يؤدّي إلى تدمير حقيقي، أخفيت هذه المعرفة شفقة على الأجيال الآتية» ومعلمو «الصوفيّة» يعلنون اختيارهم، وعبد القادر يقول صراحة في مناسبات عديدة، إنّه على اتصال معه كما يذكر كيفية اتصالهما. وبالنسبة لي ما من شكّ في أن عبد القادر هو القطب، قمّة التدرّج الخفي، الرجل الكامل، المدار الفائق الذي يرمز إلى محور العالم، وهو في أساس النهضة الحقيقية، والإصلاح الجوهري في صمت وبما يدقّ عن الوصف. ويبدو واضحاً أن عبد القادر اختار المنفى لتحقيق هدفه، وليس مجد مملكة عربية في الجزائر أو سورية... ممتثلاً لما ورد في القرآن الكريم:

﴿يعلم مايَلجُ في الأرض، ومايخرج منها، وماينزل من السماء، ومايعرُجُ فيها، وهو معكم أين ماكنتم، والله بما تعملون بصير﴾ (٥٧، سورة الحديد، ٤).

١ ـ التاو: هو العقل أو الكائن الأسمى في الديانة الطاوية الصينية (المترجم).

٢ ـ يتذكّر عبد القادر دروس أمه حول التمييز بين الخير والشرّ بدءاً من مجاز الماء العذب والمِلْح: وهاتان الآيتان يمكن أن تفسّرا بطرائق مختلفة بالنسبة لترجمتي هنا مثل:

ـ سمح للمائين (البحر المالح والنهر العذب) أن يلتقيا مع وجود حدّ داخلي لايمكنهما أبداً تجاوزة:

ـ أو أنه سمح للمجريين باللقاء وبما أن بينهما منطقة وسيطة فإنهما لم يشاءا هذا اللقاء.

ـ أو أنه فصل بين البحرين المتماسين ورفع حاجزاً بينهما بحيث لايختلفان.

والتوافق مع الأوامر الإلهية تقشّف، والاعتيادي أعجوبة... والقدر الساطع ليس إلّا قناع القداسة: والحرب الصغيرة ضد العدو الخارجي لم تحرف عبد القادر عن الجهاد الأكبر ضد الكفر المتضمّن في نفس كل كائن. والإنسان الكامل مقترن بشخصه بموجب تكليف إلهي. وقد أشار عبد القادر إلى هذه الخلافة بصراحة عدّة مرّات، **في الحقائق الحقيّة والحقائق الخلّقية**.

بعد أن استوفى خفايا الطريقة المساريّة، التزم بها بتصميم بدءاً من العام ١٨٥٥ دون شك إذ أن الحديث يذكر أن الله ينزل في الثلث الثالث من الليل في الطريق الأكبري الذي تلقى خرقته باكراً، وسندرك بشكل أفضل من الآن فصاعداً المخطط المعقد لزمالة، ويمكننا قراءته بشكل كامل (انظر الشكل في الصفحة ١٩٩).

ضمن هذا السياق من التعقيد المتزايد تتفجّر فتنة ١٨٦٠ التي ستجعل من عبد القادر، مرّة أخرى أيضاً، الرجل الذائع الصيت في أوروبة، وأحد الأبطال الواقعيين الأكثر إدهاشاً، لأن أعماله الظاهرة تثير هذه الدهشة، عدا عن أن الناس لايعرفون حقيقته الخاصة... فصور إبتيال هي أكثر أهمية هنا من التاريخ غير أن تاريخه الحق هو أسمى بكثير من الأسطورة[١].

مفتاح الفرنجة

اعتبر مسيحيو سورية من قبل الأتراك رأس جسر للغزاة الأوروبيين؛ والاحتمالات التي ولّدها الخط الهمايوني والدعم المالي غير المنقطع مع أنواع الدعم الأخرى التي تقوم بها القنصليات لرجال الكهنوت والرهبنات عملت على تقوية هذه الفكرة بين السكان المسلمين الذين لاحظوا **أهل الذمّة** يهرعون للدخول في خدمة الدولة والجيش، وغُذّيت الغطرسة من الجانبين بعناية من قبل مختلف الزعماء، ومتنفذي مختلف الفئات ورجال الدين ورؤساء المجموعات العرقية الدينية عائلية أو قبلية، واختلطت الأسباب... دون إمكان الاستدلال على برهان عن مؤامرة حقيقية يغذيها العثمانيون، وبدأت الأحداث في أيار ـ مايو ١٨٦٠ بحرب أهلية حقيقية بين الدروز والمسيحيين في لبنان. وكتب عبد القادر

١ ـ هذه المناقضة حول التاريخ التي تشغلني منذ البداية تمتد من هيغل إلى فيلار ـ بارون... ولا ادّعي أنني قد توصلت إلى حلّها.

عندئذ رسائل عديدة إلى علماء حمص وحماة. وبعد أن أعلم السلطات الفرنسية، أطلع عصمت باشا والي دمشق على مخاوفه، وطلب دعم العلماء الدمشقيين لتهدئة الخواطر، وتوجّه أيضاً إلى الدروز.

«إلى شيوخ الدروز في جبل لبنان وسهول حوران وجبالها.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إنّكم تعرفون صداقتنا لكم وتأييدنا لجميع العاملين في خدمة الله، لذلك نرجو أن تسمعوا أقوالنا وليكن لكم من رأينا النصح والهداية.

إنّ الحكومة التركية وغيرها على إطلاع عمّا تكنّونه من بغضاء للمسيحيين في لبنان، ويمكنكم أن تتصوّروا أن الحكومة لاتحملكم كامل المسؤولية عن الحرب الدائرة بينكم وبينهم. وقد تجد لكم فيها بعض الأعذار.

ولكن إن قمتم بالاعتداء على مدينة (والمقصود هنا مدينة زحلة) التي لم يكن بينكم وبين سكانها أي خلاف، فإننا نخشى أن يسبّب لكم هذا التصرف تصدّعاً في علاقتكم مع الحكومة، وأنتم تعرفون مدى حرصنا على مايؤمن الراحة والهناء لكم ولمواطنيكم، والعاقل يقدّر جميع العواقب قبل أن يخطو الخطوة الأولى.

لقد قام بعض خيّالتكم بأعمال نهب في المناطق المجاورة لدمشق، ومثل هذه التصرّفات لاتليق بجماعة تميّزت بتعقلها وحكمة سياستها.

أكرّر أننا قلقون جدّاً من أجل راحتكم، ويهمّنا جدّاً كل ماينعكس على سمعتكم».

هذه الرسالة ذكرت من قبل شرشل، وقد تكون دفاعاً عن مصالح ذاتية، خاصة ونحن نعرف أن للأمير مشاريع زراعية هامة في حوران، ولكن ما من شيء يدلّ على أن هذا التصرف قد أملته أهداف سياسية. وقد راجع الأمير عدة مرّات الحاكم التركي الذي سمح له بتسليح أتباعه الجزائريين. لكن عبد القادر لم يكن يهتم في ذلك بقضايا سياسية لمصلحة الفرنسيين أو العثمانيين. وإنّما كان يتصرف كمسلم صالح أمين للحديث الذي ورد في صحيح مسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه. وهو أضعف الإيمان..».

في ما تلا هذه القضية يجب ألا ننسى قيمة هذا الدافع، بينما تنسب له الدول العظمى دوافع أخرى، لكنه هو بالذات قال لنابليون الثالث إنه قام بواجبه كمسلم، لكن ما من أحد رغب أن يصدقه عند ذلك.

الفصل الخامس
المملكة العربية

من إميل دوركهايم مؤسّس علم الاجتماع تعلّمت شيئاً رئيساً: «سيكون علم الاجتماع تاريخاً أو لن يكون!» لم أتصور وثاقة هذه الصلة الحازمة قبل أن أغوص في ملفّات تلك الحقبة بينما كنت أعتقد أنني أعرف المنطقة انطلاقاً من أعمالي كدارس سياسي... لكننا نتعلم في جميع الأعمار.

كان نابليون الثالث يحلم إنّما ليس بالقدر الذي يؤكّده المشنّعون عليه. لقد فهم جيّداً قضية الشرق، ونَصحه والوسكي بشأنّها تماماً؛ وأنا أترك جانباً قضية المملكة العرية في الجزائر، وذلك لأن هذا الموضوع قد عولج بإسهاب من قبل زملائي المؤرّخين (آني ريْ غولدزيغر، وشارل روبير آجرون)، كما أن الأمير لم يعره اهتماماً أبداً. وباستثناء تلك القضية الغامضة جداً التي حدثت في العام ١٨٧١، التي شجب خلالها الأمير تصرف ابنه البكر في التحاقه بالجزائر وتأييده لثورة المقراني وجماعته، كان واضحاً منذ تلك اللحظة أن عبد القادر لم يعد يهتم بشكل رئيس بالقضايا الجزائرية لأسباب عديدة مختلفة أهمّها تعود إلى تفوّقه على ذاته. ولننشر ببساطة أن نهاية المقاومة الجزائرية على الأرض يتوافق مع نهاية الإمبراطورية كما تصوّرها نابليون الثالث، وكان عبد القادر أكثر من متأسف لكن هذا لم يفد إلا في تأكيد تبرير صحة اختياره الاعتزال الدنيوي.

اتبعت فيما يتعلّق بموضوع بلاد الشام والسياسة الفرنسية في سورية دراسة الأب جوزيف حجّار (**أوروبة وأقدار الشرق الأدنى، ١٩٨٨**) مع اعتمادي على ملفات الدائرة التاريخية في الجيش، وملفات وزارة الشؤون الخارجية التي تتضمن كنوزاً من المعلومات وخاصة وثائق توفنل، وتقرير دي بومون عن الإرسالية الفرنسية إلى سورية ولبنان، وكذلك أيضاً روايات عديدة عن رحلات كتلك التي قام بها بُوجلا، ولوّه، وفوغ، وروشمونتيه، ولورته الخ... ودراسات إيريت السابقة إنّما المهمّة جداً، كما أن مجلة «العالمين، وملفات غرفة تجارة مرسيليا، ومذكرات عائلتي لِسبس وشارل رو تعتبر مناجم معلومات لاتنفد... طبيعي أنني لاأتمكن هنا من معالجة مجموع المشكلة

السورية، لأن مايهمني فقط هو موقف الأمير، لكن القارئ المتنبّه يلاحظ عدة تلميحات لسياق معقد جداً يشمل تربية دود الحرير، ومجازفات طريق الهند، دون نسيان قضية الأقليات الدينية... فعندما وصل عبد القادر إلى دمشق، كان السيد برتويس قد ابتكر طريقة جديدة تتيح تأقلم دود الحرير واستغل الاقتصاد السوري ذلك قبل أزمة سنوات ١٨٦٠ الرهيبة، بينما كان المترجم بولاد قد بدأ تقاريره عن الأمير بخصوص النتائج التي أثارها الخط الهمايوني: وإذا كانت السلطنة العثمانية قد غدت رجل أوروبة المريض، فإنها دخلت أيضاً في المرحلة المسماة **التنظيمات** وهي إصلاحات للتحديث ستؤثر على المنطقة العربية الإسلامية لمدة طويلة. في ١٨ شباط ـ فبراير ١٨٥٦ أعلن السلطان عبد المجيد بموجب الخط الهمايوني إلغاء وضع **أهل الذمة**، وإطلاق حرية العبادة، وتحقيق المساواة المدنية والسياسية (والعسكرية) لكل أعضاء مجتمعات السلطنة معتبراً الجميع رعايا عثمانيين، وأفراداً متساوين وبالأحرى مواطنين، وقد كان لهذا القرار في رأي العديد من الملاحظين هزّة إسلامية من مكة حتى جبال إيبرية في اليونان، والجبل الأسود في البلقان بل والبوسنة والهرسك.

مَطَلُّ دمشق

انتقد الأمير بمرارة بعض هذه الإصلاحات لأنها تمسّ بالحقوق الإسلامية إضافة إلى أنّه لم يستطع التخلص من نظرته المعادية للأتراك الناتجة عن موقفهم في الجزائر موطنه الأصلي، وكانت علاقاته مع السلطات التركية مقبولة لكنها بدون مشاعر مودّة؛ وبالمقابل فإن السلطات التركية كانت حذرة من نشاطاته حتى موته، والملفّات مليئة باتهامات القسطنطينية للجالية الجزائرية؛ إذ أن عبد القادر ساهم في تباشير هذه الحركة الواسعة التي بلغت في مطلع القرن التاسع عشر حركة النهضة والشعور القومي العربي.

كانت تقارير المراكز الفرنسية من أوتري في دمشق إلى لِسبس في بيروت تصل إلى السفارة في القسطنطينية ويرفعها توفنل بدوره إلى والوسكي وكلّها تركّز خلال سنوات ١٨٥٦ ـ ١٨٦٠ على مشكلة الأقليات وتحركات القناصل الروس والانكليز وخاصة بعض الشخصيات الانكليزية مثل مور وبراندت والكولونيل شرشل، والواقع أن هؤلاء لعبوا دوراً فعّالاً في الشكاوي ضد العثمانيين التي زعزعت مركز القائمقام المسيحي لكن هذا هو موضوع آخر.

هكذا كان والوسكي يلحّ في توجيهاته على أن يتجنّب الأمير خلق المتاعب

للأتراك. وإذا كان بولاد قد أرسل بسرعة تقارير لاتترك أي شكّ لدى الوزير حول هدوء عبد القادر وولائه، فإنه يركّز أيضاً في تقرير طويل بتاريخ ٣٠ آب ـ اغسطس ١٨٥٧ (انظر الوثيقة رقم ٨) على عدم ركون فرنسة إلى طمأنينة يمكن أن تكون خدّاعة، إذ أن الظروف الجديدة قد تغري عبد القادر بمغامرة سياسية جديدة. ويطلب بولاد من الإمبراطور التفكير بإبعاده عن دمشق. لكنه وبشكل مناقض، وفي ذات التقرير الذي يتهم فيه الأمير برغبته في بعث «الشعور القومي العربي الفعّال» في سورية، مستغلاً انهيار السلطنة العثمانية يضيف:

«(....) ربّما يأتي يوم يكون فيه من المناسب جدّاً لفرنسة وجود رجل مثل عبد القادر في قلب سورية يستطيع سواء كأداة أو كحليف أن يطرح ثقله في ميزان مقادير السلطنة العثمانية. (...) ».

ويُتَحدَّث عَرَضاً عن مثل هذا المشروع حتى أحداث ١٨٦٠، وبفضول بعد ذلك بسنوات أيضاً.

وُجد في فرنسة حزب قوي «مناصر لعبد القادر»، كما سبق أن رأينا، وهو يتألّف بشكل رئيس من قدماء أسراه، ومن ضباط قدماء في جيش أفريقية حاز الأمير على إعجابهم، وقد أضيف إليهم، من الآن فصاعداً، أوساط مالية وتجارية قويّة، ووجدت بلا مراء «حملة صحفية» حديثة جداً في هذا الاتجاه، وخاصة في «مجلة العالمين» وأيضاً في «مجلة الشرق والجزائر والمستعمرات» (مثلاً عدد تموز ـ يوليو ١٨٥٨) وأيضاً مجلة «صديق الدين».

لكن صحيفة «تقدّم ليون Le Progres de Lyon» تبدي بتاريخ ٢١ تموز ـ يوليو ١٨٦٠ بعض القلق حيال اعتماد مثل هذا الاستخدام العارض لعبد القادر.

ويعود بولاد إلى فرنسة، بعد فتور في علاقته مع الأمير، بينما تستمر القنصلية في مراقبة حثيثة له، وخاصة خلال انطلاق لسبس وبرتويس في مشروع طريق معبّد بين بيروت ودمشق ستغطى تكاليفه باكتتاب من قبل البورجوازيين الشاميين (ثلاثة آلاف سهم تمّ بيعها سريعاً بين دمشق وبيروت وحلب)، ونجد فيه من الجانب الفرنسي مجموعة بولين تالابوت P. TALABOT واسحق بيرير I. PERIRE الذين سيستقبلهم الأمير عدّة مرّات في دمشق، وكما الأمر دائماً السان سيمونين وغيرهم من الماسونيين.

انتهى الطريق في العام ١٨٦٢ ونشط الأخوان لِسُبس منذ آذار ١٨٥٩ في مشروع قناة السويس كما سنرى فيما بعد، وجاءت منشورات شركة القناة وخاصة: «صحيفة اتحاد البحرين»[١] D le l'jien des deux mer تدعم حملة الصحافة المؤيدة للحزب «القادري» بإضافة الأرباح المحتملة التي يمكن أن يجنيها جميع الناس من هذه المغامرة. وراح لسبس يجوب فرنسة ملقياً المحاضرات التي نشرت فيما بعد وعُمِّمت بواسطة المطبعة المركزية العائدة للخطوط الحديدية «شكس وشركاه CHAIX t Cie». خلال ذلك الوقت كان نابوليون الثالث منشغلاً بالقضية الإيطالية[٢]. فأهمل قليلاً موضوع سورية، لكن سياسته توبعت بعد ذلك من قبل توفِنل الذي غدا، بعد أن كان سفير فرنسة لدى الباب العالي، وزيراً للخارجية في مطلع العام ١٨٦٠. والواقع أنّه في آخر برقية مجملة له كسفير أكّد على ضرورة دعم مشروع القناة الذي حصل من السلطات التركية على ضمان احتياطي له. وبدا عندئذ ترابط دعوة الحزب المناصر لعبد القادر في فرنسة مع المصالح التي يمثّلها لسبس في الحملة الداعية لمملكة عربية تحت سلطة الأمير. وشيئاً فشيئاً انضم آخرون لهذه الحملة، فقد عثرت مثلاً على هذه الرسالة السريّة المؤرّخة في ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ١٨٦٣[٣].

«إن الكولونيل أوريي OREILLY المكلّف بتشكيل هيئة درك حديثة في دمشق، قد دعي إلى القسطنطينية، إذ أنه انصرف إلى مؤامرات تهدف إلى طرد الأتراك من سورية بواسطة تفاهم يقوم بين العشائر البدوية والجزائريين يتم على أثره المناداة بعبد القادر ملكاً على سورية. وقد اتصل دعاة هذا المشروع بقنصلية فرنسة في دمشق التي خصّتهم ببعض العون والتشجيع.

إن السياسة الفرنسية لاتتضمن تجاه تركية لاتحفظات ولامؤامرات خفية..» مع ذلك

١ ـ أنا لا أؤمن بالصدف، ولكن لا أعلم إن كان أبناء عائلة لِسبس الذين يعرفون المغرب والمشرق منذ عدة أجيال على اطلاع على المعنى الخفي لهذا العنوان «مجمع البحرين» الذي يعني باللغة العربية المكان الذي التقى فيه موسى بالخضر، والأمير عبد القادر، البرزخ الفائق يذكر في قصيدة له: أنه هو بالذات رأى رؤيا موسى (انظر جيليس ٩٨٩/ ص٢٩٠).

٢ ـ هي انفصال ايطالية عن الامبراطورية النمساوية وقد أيّدتها فرنسة، وكسبت بذلك مقاطعة السافوا ومدينة نيس. (ملاحظة المترجم).

٣ ـ نانت، ملف زارة الخارجية رقم ٢٢: مراسلة مع القسم والسفارة الفرنسية.

فسخرية التاريخ تضطرني للتذكير بأنه خلال محاولة الإيطالي أورسيني اغتيال الإمبراطور نابوليون الثالث (١٤ كانون ثاني - يناير ١٨٦٠)[1]، كانت الأوكسترا تعزف قطعة موسيقية بعنوان «لننطلق إلى سورية»... وخلال الأشهر التالية فإن السلطات المسيحية في لبنان والمسلمون العرب في سورية قد رفعوا إلى الإمبراطور دون تحفظ مظاهر جمّة من الشكر والامتنان.

كثرت الاضطرابات وتصاعدت حدّة اللهجة في البرقيات، بينما ازداد الهياج بين الأساقفة الموارنة، وبين الدروز والسلطات التركية، وتحدّث قناصل الدول الخمس الكبرى عن حرب أهلية منذ بداية العام ١٨٦٠، وعن مؤامرة وتدخل تركيين، وساد في الرأي العام أن الدروز والبدو سيتحالفون مع المسلمين في حال سقوط آخر معقل للمسيحيين (وهو مدينة زحلة) ليستولوا على دمشق. إذاً فقد حان الوقت لتتدخل أوروبة وتعيد النظام إلى نصابه بالاعتماد على «ورثائنا الأمناء في الشرق المسيحي». والاستثمار المباشر لثروات هذا الشرق يتيح لسورية أن تحظى بنسائم نهضة حضارية منعشة...

تمّ عند ذلك التفكير بإرسال حملة فرنسية جهزت بعد ذلك باسم دوافع انسانية (هكذا وردت كلمة الدعوة لها!) وأظهرت رغم تعارض المصالح الفرنسية - البريطانية وكأنها «حملة فرنسية - أوروبية» وعهد بقيادتها إلى الجنرال بوفور دي هوبول Beavfort d'Haupul وانتشرت من تموز - يوليو ١٨٦٠ حتى نهاية حزيران - يونيو ١٨٦١... بينما كلّف فؤاد باشا بقمع الفتنة في سورية - وكانت ضارية في دمشق - وبإعادة النظام إلى لبنان، قبل أن يغدو مرشح الدول الكبرى كنائب للسلطان أمام تحفظ الأمير عبد القادر لكن مع فارق «ذي أهمية هو أن هذا المنافس الأخير لن يكون أبداً مرشحاً بالذات... وقد نقلت صحيفة «صديق الدين» عن التايمس بتاريخ ١٩ تموز - يوليو ١٨٦٠ مايلي:

«(...) إذا لم يستطع الباب العالي إعادة النظام بنفسه في سورية، يكون الوقت قد حان لاعتبار الأتراك قد قضوا مدة كافية كسادة في تلك البلدان، ومن واجب الأمم المسيحية أن تقوم باستشارات للنظر في مستقبل تلك البلاد التعيسة (...)».

---

١ - يذكر اللاروس Laroosse: أن هذه المحاولة جرت في ١٤ كانون ثاني ١٨٥٨ وألقي القبض على المتآمر وحوكم وأعدم. (المترجم).

تعدّدت المشاريع عندئذ وهي تزداد وضوحاً: وكلّف الكونت ادوار دي وارن بوضع مذكّرة[1] لنابوليون الثالث: وقد استند إلى دراسات مستشرق شهير: م. دي سولسي، فأكّد على ضرورة عدم معارضة المشاريع الإنكليزية صراحة بل بالعكس تنسيق طموحات الدولتين البحريتين بدلاً من وضع الخطط للمجابهة في شرق البحر المتوسط وعلى طريق الهند بطريق بري في المجال السوري ومابين النهرين؛ يجب إذاً وضع حدّ لهذا النظام، وبالأحرى بشكل شرعي خاصة وأنه ينتهي إلى القضاء على المسيحيين:

«في تحدّ أخير يبدو المسلمون مستعدين لترك ضفاف البوسفور والإرتماء على أوروبة قبل أن يعودوا نهائياً إلى طرقات أعالي آسية».

بدا تدخل فرنسة وانكلترة ضرورياً بقدر ماهو متكامل: فانكلترة ستتدخل في بلاد مابين النهرين، بينما يكون تدخل فرنسة في سورية ولبنان:

«(...) أما فيما يتعلّق بشكل هذا التدخل، فإن العبقرية الانكليزية اكتشفت منذ وقت طويل الشكل الأكثر بساطة وفعالية، الأكثر مرونة وقابلية للتنفيذ: وهو النظام المتدارك الذي طبقّته شركة الهند في جميع الولايات الهندية أو المسلمة التي وجب أن تلجأ إلى حماية انكليزية لإطالة وجود أخذ يتداعى».

رفع وارن، المطمئن إلى هذه الأفكار التمهيدية، «بتواضع» إلى الإمبراطور، اقتراحاً باتفاق مع انكلترة لإقامة:

«نظام مضاعف مساعد مماثل تماماً للنظام الذي أقامه الانكليز بنجاح ثابت منذ أكثر من ستين عاماً لدى جميع الأمراء الواقعين تحت حمايتهم في الهند (...).

(....) احتلال فرنسي مساعد في سورية من اللاذقية أو طرابلس يشمل بيروت ودمشق والقدس حتى الحدود المصرية جنوب رفح.

(...) واحتلال انكليزي مساعد لوادي الفرات من أنطاكية حتى بغداد والبصرة... تتم الإدارة باسم تركية من قبل موظفين أوروبيين تساعدهم قوة عسكرية مختلطة قسم منها أوروبي والقسم الآخر من ابناء البلاد (.....) وتدفع رواتبهم من دخل المناطق المحتلة (...)».

١ - باريس، ملفات وزارة الخارجية: مذكرات ووثائق، تركية، الجزائر ١٢٢.

بدأ التفكير فعلاً بهذا المشروع، واستمرت الاتصالات بين توڤنل وبرسينيي واللورد روسل بشكل لاينقطع طيلة تلك المدة كما تشهد مذكّرات شهر تموز - يوليو:

«(...) إن الحكومة الانكليزية تقبل مبدئياً باقتراحنا، غير أنها لاتتمكن من إرسال جنود إنكليز إلى سورية للأسباب التي يعرفها الجميع: وهي أن القوى البحرية بالنسبة لانكلترة تحل محلّ القوى البريّة. لكنها ستزيد بشكل معتبر مرابطتها البحرية على السواحل السورية بحيث تكون قادرة على حماية سكان الساحل بشكل فعّال (...) أما سكان الداخل وخاصة جبل لبنان المسيحي فسيحمون من قبل الجنود الفرنسيين وقد يساعدهم جنود نمساويون. ولاتعتقد الحكومة الانكليزية بضرورة طلب قوى روسيّة. أو قوى بروسيّة، ولكن من المهم أن يتمّ الاحتلال الفرنسي بموجب اتفاق يناقش ويُقرُّ عندما تتوجّه الحملة الفرنسية إلى مقصدها. ويرجو اللورد جون[1] أن تعدوا المشروع اللازم (...)».

وخلال هذه المداولة فإن برسينيي[2] وروسّل وافقا على مشروع قرض أعده اللورد روتشيلد لتسوية الأزمة المالية في تركية[3].

هكذا كان الجوّ، إن لم نقل الوضع في تموز - يوليو ١٨٦٠، عندما وقعت أطراف النزاع الصلح في جبل لبنان، بينما اندلعت الفتن في دمشق، تلك الفتن التي ستحقق لعبد القادر شهرته، وتشجّع المزايدات حول ملكيته المحتملة، بينما هو يعيش في تلك اللحظة المحدّدة نشوة الوجد ويكتب أجمل قصائده الصوفيّة والغيبيّة:

في هذه الحالة من النشوة، والامّحاء واللا وجود

---

١ - هو اللورد جون روسل وزير خارجية انكلترة في تلك الفترة.

٢ - برسينيي Persigny: هو سفير فرنسة في لندن خلال تلك الفترة (المترجم).

٣ - هذا المشروع يشبه جداً كل المشاريع اللاحقة بما فيها حرب الخليج في العام ١٩٩١ مروراً باتفاقية سايكس - بيكو، ودون أن ننسى مشاريع لبنان الكبير المختلفة. لم أكن أجرؤ أن أكتب هذا وبهذه التعابير، لو لم أقرأ عشرات الرسائل، والتقارير، والقصص التي تتضمن جميعها الكلمات ذاتها: (ومن بينها مثلاً: الكونت دي باريس: دمشق ولبنان؛ سِغور: قافلة فرنسية في سورية) وهي تعابير سنجد ما يماثلها في العام ١٩٢٠ عند إقامة دولة لبنان الكبير من قبل الفرنسيين.. إن التشهير بالاستبداد كتبرير لحق الاستعمار، وواجب التدخل ذريعة قديمة، والبرهان هو أنها ماتزال سارية دائماً وفي كل مكان... ولئن وجدت مؤامرة في هذه الحالة المحدّدة، فقد كان أقلّها من قبل العثمانيين والأتراك، ومعظمها من قبل الغربيين.

وصلت إلى حيث لم يعد في الحقيقة مكان محسوس أو لامحسوس.
وتلاشت الأبعاد فلا عمودي، ولا أفقي
وعادت الألوان إلى نقاء بياضها الأساسي
وزالت النسب والعلاقات وتجدّدت حالة البدء
وبلغت الرحلة نهايتها بحيث لاوجود إلا وجود الله.

دمشق ازمة ١٨٦٠

تقرير من لانوس LANUSSE القائم بأعمال قنصلية فرنسة في دمشق بتاريخ ١٩ حزيران - يونيو ١٨٦٠[١]، وقد أعدّ هذا التقرير في غياب القنصل، قبل الأحداث بشهر.

«(...) المعلومات التي ذكرتها أعلاه ليست مجرّد احتمالات، فنوايا المشير (أحمد باشا) معروفة من قبل بعض كبار أعيان البلاد الذين كشفوا عن مخططاته، وأنا أستمد هذه المعلومات من الأمير عبد القادر الذي وقف في هذا الظرف، كما في الماضي بالنسبة للقنصلية موقفاً جديراً بكل ثناء.

عندما علم الأمير بالخطر المحدق بالأوروبيين والمسيحيين، جاء من تلقاء ذاته ليضع نفسه تحت تصرفي، وليؤكّد لي عونه في حال الخطر، وقد عرض في مثل تلك الحالة أن يجمع كل الجزائريين المخلصين له وأن يكون على رأسهم من أجل حماية الحيّ المسيحي.

إنّه يعتقد جيّداً أنّه لن يتمكّن من إنقاذ جميع المسيحيين بعدد قليل من الرجال، ولكنه يستطيع أن يبعد الخطر عن عدد كبير منهم، وليتوصل إلى تحقيق هذا الهدف، فقد سألني الأمير إن كان بإمكانه الاعتماد على القنصلية لتأمين المال اللازم لتسليح ألف جزائري. وقد تردّدت في البدء بالسماح للأمير باتّخاذ هذا التدبير المتطرّف، لعدم اعتقادي بوجود خطر حقيقي. وأراني الآن مضطراً للعودة عن رأيي فالخطر مداهم. لذلك سمحت للأمير بالإنفاق على جميع الترتيبات التي يراها ضرورية، مع حثه على التزام الكتمان والحذر التامين بحيث لايثير شكوك السلطة.

١ - وثائق وزارة الخارجية - دمشق. المجلد السادس، وبيروت المجلد ١٢.

آمل من سعادتكم الموافقة على هذه الترتيبات وماتستلزم من نفقات».

لكن لافاليت بدا منزعجاً من هذه المبادرة من لانوس، لأن مستشاريه أوتري وبارّه دي لانسي لايعتقدان بإخلاص هؤلاء الجزائريين.

«هؤلاء المهاجرون الموجودون في سورية لحقدهم على الاحتلال الفرنسي على الأقل بقدر إخلاصهم لقائدهم السابق...

ويسود هنا غموض لن ينكشف مع استمرار هذه القضية. فباريس، والسفارة الفرنسية في القسطنطينية، والقناصل، والأمير، هم في مواقف متناقضة في نظرتهم. لكن بقية السفارات تتلقى من قناصلها التقارير ذاتها.

«أريد إبلاغكم اليوم عن الأخبار الأكثر شناعة المتعلّقة بحرق ونهب الحيّ المسيحي: قليلة هي المنازل التي نجت حتى هذا اليوم من النيران. وماتزال الحرائق مستمرة في فتكها. وسلوك الباشا معيب للغاية. فقد بدا مجرّداً من كلّ مزيّة إدارية، ولم يظهر في أي مكان؛ والجنود يقفون لامبالين بدلاً من أن يحاولوا منع النهب. ولايمكن معرفة متى سيتوقف هذا البلاء مادام الباشا وجنده في مثل هذا الموقف.

إنني أنقذت لأن مقرّي موجود في الحيّ المسلم، ونائب قنصل النمسة مع زوجته عندي... وقناصل فرنسة، وروسية واليونان لدى الأمير عبد القادر..

إن الباشا محتجب يتداول مع مجلسه الاستشاري، ولكن لو قلّت مداولته وزادت فعاليته لكان أفضل. وكل الناس يقولون إنه لو أظهر بعض القدرة واليقظة لأوقف الحريق والنهب معاً؛ لكن جنوده لم يفعلوا شيئاً، وسعادته لم يقم بأي بادرة.

حوادث القتل ليست كثيرة، ويبدو أن الهدف الرئيس للمعتدين هو النهب والحرق. وقد أضرمت النار في معظم الكنائس المسيحية. لكن دير الرهبان العازاريين الفرنسي الجديد نجا حتى الآن... وكانت القنصلية الروسية أول مكان مهاجم.

تبدو السلطات مشلولة وعاجزة عن التصرّف؛ وقد لجأ نحو ثلاثة إلى أربعة آلاف مسيحي، على مايقال إلى القلعة، وهكذا تبدو حالات القتل قليلة جداً ولكن لانعلم ماذا سيحدث الآن بعد أن انضمّ الدروز إلى النهب.

كان القنصل الانكليزي أيضاً شاهداً مباشراً كما استمد معلوماته مما حمله إليه أدلته وحراسه الشخصيون، لكن هؤلاء وجدوا صعوبة في شق طريقهم «لكثرة الناس في

الطرقات» وهكذا فهذه الأنباء المباشرة تمثّل انطباعات اللحظة، وليست أبداً وقوعات ممحّصة، كما أنها لاتعد أبداً تقريراً معدّاً بشكل مدروس لاعتماده رسمياً في السفارة.

وبتاريخ ١١ تموز - يوليو ١٨٦٠ بلّغت أنباء أخرى من بيروت إلى المسؤولين في العواصم الأوروبية. وأبرقت السفارة الانكليزية إلى لندن عن طريق سميرنه (إزمير) هذه الأسطر الموجزة:

«عصيان محمدي في دمشق، الاثنين ٩ الجاري، مقتل خمسمئة مسيحي. الكنائس والأديرة، والقنصليات قد أحرقت. القنصل الأمريكي جريح، والقنصل الهولندي قتيل».

كانت التفاصيل المرسلة من قبل قنصل فرنسة العام بنتيفوغليو وقائد المحطة البحرية دي لارونسيير ذات تأثير أكبر. فبنتيفوغليو يذكر أحداثاً محدّدة، وعرضه مكثف وسريع.

«تشتعل النيران في دمشق. وقد تلقيت رسالة من السيد لانوس الذي اضطر لمغادرة المقر القنصلي واللجوء إلى منزل الأمير عبد القادر، وكذلك قنصل روسية السيد ماكييف... وقد بدأ الهجوم أولاً على القنصلية الروسية».

لم يكتب لي لانوس إلا بضعة أسطر، وهو يعتبر الوضع خطيراً جداً، وهو يذكر أن وحدات الجيش الحكومي سلكت النهج اللامبالي ذاته الذي اتبعته في دير القمر، وحاصبيا، وراشيا، الخ..

لايوجد حالياً دروز في المدينة، والمسلمون وحدهم محدثو القلاقل، والبيوت المسيحية تنهب، والرجال يقتلون والنساء ترسل إلى دور الحريم، ويقدّر عدد القتلى في اللحظة التي أكتب فيها نحو خمسمئة، لكن النهب والقتل مستمران. يذكر السيد لانوس أن الأمير عبد القادر ينقذ كل من يستطيع إنقاذه، ويضيف «ولكن هل يمكنه الاستمرار غداً؟».

بيروت هادئة في الوقت الحاضر، ولاتبدو لي مخاوف جدية مستقبلاً، لكن الأحداث تتسارع بشكل مذهل بحيث يصعب التكهن بما سيحدث إذا لم تتخذ تدابير شريفة وقاسية وذات فعالية مباشرة».

هبّت العاصفة التي تزمجر منذ عدة أسابيع يوم ٩ تموز - يوليو، وبدا السبب المباشر

لا أهمية له في ظروف أخرى فقد قام بعض الفتيان المسلمين بشتم الصليب علناً فأوقفهم أحمد باشا وأرسلهم والقيود في أرجلهم يكنسون شوارع المدينة فكانت هذه ذريعة لهيجان شعبي.

... قامت الجماهير بمهاجمة الحي المسيحي تنهب وتدمّر البيوت، وتقتل كل من لايهرب ناجياً بنفسه. وكانت أوّل المنازل المهاجمة القنصلية الروسية... أما قنصل انكلترة فقد احترم بصفته يمثّل دولة صديقة للمسلمين؛ لكن تأكّد أن مثيري الفتنة كانوا يفتشون عن قنصلي فرنسة وروسية لذبحهما. وبما أن مهاجمة الحيّ قد تمّت نهاراً، وكان عدد المهاجمين قليلاً في البدءِ وانشغلوا بنهب البيوت الأولى التي وصلوا إليها، فإن القسم الأعظم من المسيحيين تمكّن من الهرب ولجأ إلى بعض بيوت أشراف المسلمين، ومنزل الأمير عبد القادر والسرايا، والقلعة...

كان أحمد باشا نفسه مع جنده النظامي من اللاجئين إلى هذه الأمكنة، وهكذا ترك للرعاع كل الحرية في إشاعة الفوضى لمدة أربعة أيام فنهب الحي المسيحي بكامله وقُتل من بقي فيه. «وغدا ركامَ جثثٍ حقيقياً» غير أن الحيّ المسيحي الآخر الواقع في ضاحية الميدان حيث يسكن مجموع الحرفيين قد نجا كلّياً بفضل الحزم الذي أبداه وجهاء المسلمين.

نوّه جميع الشهود بصورة خاصة بدور الأمير عبد القادر، لكن يبدو أن الوقائع المرويّة والأحكام الصادرة تندرج في انطباع مشوّش جُمع من المراسلات القنصلية والرسمية وتكوّنت على أساسه سيرة معظّمة جديدة. ومن المهم إذاً سماع أصوات أخرى. ويذكر الأب حجّار شهادة أكثر دقة صادرة عن مسافر حضر إلى الأمكنة بعد وقوع الأحداث بخمسة أشهر. ومع معرفة ماسبّبته المبالغة الأسطورية من جدال في فرنسة، فإن التطرّق إلى شهادات مهملة يتيح استكمال ملفّ لم يُعرف إلا جزئياً.

«... ألجأ عبد القادر كل من جاء يطرق بابه، بل وقام بجولة في المدينة ميسّراً للأشخاص الهاربين في الشوارع وبدون ملجأ إمكانية الانضمام إلى القافلة الصغيرة التي نظمها تحت حراسة جزائرييه وانطلق بها لإنقاذ القناصل والرعايا الفرنسيين المقيمين في دمشق.

لكن قد يستغرب القارئ رأياً يذكر أن عبد القادر لم يحقق جميع الآمال المركّزة عليه في وقت الشدّة، ولم يقُم بكل ماكان ينتظر منه، بل بما يعفيه من اللوم وكان

بإمكانه نظراً لمقامه الرفيع والتأثير المعنوي الذي يمارسه على سكان دمشق أن يفعل أكثر من ذلك... ونحن ندعم الرأي القائل بأن علماء المسلمين ووجهاءهم في الميدان برهنوا عن فعالية ومبادهة أكبر بكثير وهي أحق بالمديح والثناء. عند أوّل مظاهر الفتنة، انسحب عبد القادر إلى ملكية له في الأشرفية على بعد ساعتين من دمشق، وذلك كي يتخلّص بلباقة من الإحراج، ووجب توجيه الرسل العاجلين له، وتوسّلات الرعايا الفرنسيين، وتضرعات راهبات المعونة ليقرّر العودة إلى المدينة، وليبدأ أولاً بجمع كل من ينتمي إلى فرنسة من رعايا وموظفين ورهبان وراهبات، وخلال هذه العملية انضم عدد من المسيحيين إلى قافلته ولجؤوا إلى منزله.

ومهما يكن فيجب الاعتراف بالخدمات الحقيقية التي أدّاها، وإذا أبدينا بعض التحفظات، فخدمة للحقيقة وعدم الوقوع في مبالغات من صوّروا عبد القادر كأسد يقذف بنفسه في المعترك لينقذ النساء والأطفال من خناجر القتلة. هذه الرؤية وهذا التقدير لأعمال الأمير عبد القادر السامية وحسناته تتقابل مع رؤية أخرى وتقدير آخر للوالي أحمد باشا ولموقف الجالية اليهودية في المدينة. ويبدو أن التوثيق القنصلي قد عالج هاتين القضيتين بطريقة فيها بعض التحامل، والشاهد العيان الذي يذكّره الأب حجّار يتطرق إلى ذلك معبراً عن الشعور المتجلّي في الوقوعات العربية المحلية.

يمكن لموقف الوالي التركي وتصرفه اللذين أدانهما مسبقاً القائم بأعمال القنصلية الفرنسية في دمشق السيد لانوس أن يكونا موضوع تفسيرات أخرى ومن المؤكّد أن سلوك الباشا يبقى غامضاً في سلبيته الكليّة، وتخوّفاته المفرطة؛ لأن الأغلبية الواسعة من السكان المسلمين في المدينة لم تساهم مطلقاً في هذا الهيجان، بعض الرعاع فقط قاموا بالنهب، لكن القضية تبدو أكثر تعقيداً لو عدنا إلى قائمة[1] أولئك الذين حوكموا وأدينوا فيما بعد وهذا ما يتيح معرفة الفئات الرئيسة من المتمردين فقد نفذ حكم الإعدام بمئتي شخص منهم أحمد باشا الحاكم السابق وضباط الحرس التركي، كما أرسل إلى المنفى عدد مماثل تقريباً منهم أحد عشر شخصاً من **الخاصة** من كبار علماء دمشق وبرجوازييها. وقد كتب أوتري في تقريره: «وهكذا تمّ التخلّص من الشخصيات المزعجة».. أي ابتذال!

هل كان فؤاد باشا يحضّر لمستقبله الشخصي؟ لقد غدا فعلاً مرشّح الدول العظمى

١ ـ انظر الأب حجار: المرجع السابق ص١٠٧٦، وفيه القائمة الاسمية للبرجوازيين.

للملكية... لكن في إطار موقف أحمد باشا فإن شاهد عيان آخر يذكر الحالة الفكرية لمسلمي العاصمة:

«.... مايجب التنويه به هو أن القسم الأعظم من سكان دمشق المسلمين لم يشاركوا في هذه المذبحة...

هذا الوضع يبرهن على أن الوالي لم يكن أمام فتنة شعبية عامة شارك فيها مئة وخمسون ألف شخص كما زعم فيما بعد، وإنّما تجاه مجموعة من المتزمّتين والأشرار يمثلون الرعاع، ولو أظهر الحزم لوجد مساندة من معظم السكان الذين يخشون في دمشق، كما في غيرها، نتائج مثل هذه الفوضى وفقدان النظام».

هل يجب أن تطول هذه المسؤولية الشخصية التي أُدين بها الوالي لتصل إلى من هو أعلى منه في السلّم الهرمي للسلطة في العاصمة العثمانية؟ يتردّد معظم الشهود والشاهد المعتمد من قبل الأب حجّار لايميل إلى هذا الاتجاه؛ فأحمد باشا لايمكن أن يتلقى تعليمات بهذا الخصوص من الباب العالي. «لأن الأتراك لاينقصهم الذكاء»... والوثائق المتوفّرة التي حلّلها الأب حجّار تعطيه كامل الحق. لايمكن التفكير بمكيافلية مؤامرة. فقد اتضح أن السلطة المحلية ضعيفة جبانة ولايمكن للباشا أن يعتمد على فعالية جنوده وتقيّدهم بالنظام بعد أن لاحظ تصرفهم في البقاع دون أن يتبع ذلك أي عقاب. أخيراً إن كان السكان المسلمون في دمشق لايدعمون العصاة، فإنهم غير راضين عن سيرورة التحررية السياسية، والانعتاق المدني الذي اضطلعت به الطوائف المسيحية وأظهرته علناً، والمراسلات القنصلية جليّة حول هذا الموضوع، كما يؤكّده شاهد آخر مشهور هو الكونت دي فوغو DE VOGUE وهو يتحدث بدوره عن الموقف المثالي للأمير عبد القادر. وهذه الشهادات المتقاربة تدعو إلى إظهار الدقة في الحكم، ويبقى الرأي عن عبد القادر في مركز الاهتمام، فالشاهد العيان يفيد بأن الأمير أجاب المندوبين أن «الوالي لو أراد» لأمكنه تجنيب الحي المسيحي هذه النكبة:

«وعندما طلب منه أن يكون أكثر صراحة، لزم الصمت؛ رغم الجهود التي بذلت لدفعه إلى توضيح ما بفكره، لكن لم يتمّ التوصل إلى أيّ إضافة إلى قوله..».

غير أنه سيخرج عن صمته، وسيعبّر بصراحة عن شعوره بعد ذلك بسنة. فالكونت دي فوغوه، وهو عالم آثار ومستشرق يحضر إلى دمشق مع بعض مواطنيه بمناسبة دراسة واستقصاء للآثار المسيحية في سورية، ويقصّ فوغوه حكاية زيارته للأمير التي

تطرقا فيها إلى قضية مذبحة المسيحيين وسلوك المسلمين وفقاً لإرشادهم الفقهي، ويكشف جواب عبد القادر عن تفكيره حول **الذمة** أي عقد حماية الطوائف غير المسلمة؛ وهذه الفكرة تستحق أن توضع في هذا السياق الذي نقلها به العالم الفرنسي، سفير فرنسة مستقبلاً في العام ١٨٧٠ والمرتبط بشكل وثيق بالأوساط المسيحية، ومما قاله بدقة:

«(...) كان ذلك في دمشق، ولم تكد تمضي سنة على الأحداث الشهيرة التي أدمت المدينة. والحي المسيحي مايزال على وضعه الذي أعقب الحرائق: فعلى مدى النظر لاترى العين إلّا خرائب مهجورة، وعلى طول الجدران المسوّدة ماتزال بقع من الظواهر المشؤومة. وقد اجتمع بعض الفرنسيين عند عبد القادر في ذلك البيت الذي لجأ إليه عدد كبير من المسيحيين خلال المذابح. وتناول الحديث تلك الأحداث الرهيبة التي لعب فيها الأمير دوراً أقل حسماً لكنه أقلّ لامبالاة مما أريد الحكم عليه.

سأل أحد المحاورين الأمير عن رأيه، من وجهة نظر الفقه الإسلامي في سلوك الدمشقيين فأجاب عبد القادر الذي يعتبر من الفقهاء: «لقد كانوا على خطأ في استخدام حقّ لهم، لكن حقّهم صريح لانزاع فيه، فالمسيحيون لم يدفعوا **الخراج** (في الواقع هو الجزية)».

اكتفى فوغوّه بردّ فعل متحرّر من الوهم، ونحن نعرف فيما بعدأن تجربته الشرقية والسوريّة ستوحي إليه بأحكام وتصرفات تتعلق بالسياسة الدينية والكهنوتية للبابا بيوس التاسع بالنسبة للطوائف المسيحية في السلطنة العثمانية:

«اعتقدت القوى العظمى الأوروبية أنّها أحسنت التصرف، في العام ١٨٥٦، عندما ألزمت الباب العالي العثماني بإلغاء هذه الضريبة المعيبة، ولكن رأينا ماذا ربح المسيحيون بهذا النصر الدبلوماسي، وكيف حكم عبد القادر، وهو الشخصية الإسلامية المفترض تسامحها ومصالحتها، على نتائج ذلك؟».

بديهي هنا أن أنصار عبد القادر الفرنسيين لايتفقون جميعهم مع رأي المستشرقين.. لأن الحجّة خدّاعة، فالضريبة المنوّه عنها ليست معيبة، وهي في آن واحد عامة وتقليديّة؛ والأمير يبقى هو أيضاً تقليدياً حول هذه النقطة المحدّدة: المسيحيون ذمة يجب حمايتهم، ولكن يجب عليهم احترام القوانين؛ أي مرّة أخرى أيضاً، هو بالأحرى متحفّظ، كما هم البورجوازيون المسلمون في بلاد الشام.

بعد هذا التحفظ حول موقف بعض مسلمي دمشق؛ من الملائم الإشارة إلى سلوك الطائفة اليهودية، والتي يوازي حيّها ويتداخل أحياناً مع حيّ المسيحيين. هذا الحيّ اليهودي سلم تماماً. وهكذا فإن المسيحيين الشرقيين وبعض الصحفيين أتهموا اليهود بالتواطؤ في الأحداث، ويؤكّد الحسّ المشترك أن النفور، المستتر غالباً، إنّما الحقيقي بالتأكيد، يسود بين الطائفتين المتنافستين رغم أنهما من الأقليات ومنذ أحداث ١٨٤٠ السابقة في دمشق مافتئت العداوة بينهما تشتد من جراء تزايد تزاحمهما في القضايا التجارية.

«... مايثير الاستغراب ويجب التنويه به هو أن مثيري الفتنة قد احترموا الحيّ اليهودي. فاليهود لايوحون لهم إلا بالازدراء، لا بالحقد، لذلك تركوهم آمنين، وربّما أيضاً لأن هؤلاء الأخيرين كانوا يقومون بحكمة بشراء العطف الإسلامي نقداً، ومافتئ المسيحيون، وقد زادهم البلاء غيظاً، يتهمون اليهود بالتواطؤ، وهم يؤكّدون أنهم شاهدوهم يقدّمون المرطّبات للقتلة لإرواء عطشهم بين أنقاض الحي المسيحي الذي يتصاعد منه الدخان وألسنة النار».

وأيّاً كان الأمر، فإن الرأي العام اليهودي، في الوقت ذاته، وفي فرنسة خاصة، قد اهتم بتأثّر بنكبة المسيحيين في سورية ولوحظت مبادرات كريمة تعبر عن هذا الاهتمام، انسياقاً مع مظاهر التأييد التي بدت في مجالات الصحافة تضامناً مع الأقليات مع التخفيف من غلواء الأحداث كما وأنّ ما من «جديد تحت الشمس».

يجب أيضاً عدم إغفال التنافس الفرنسي ـ البريطاني: حتى أن القنصل الانكليزي في دمشق كتب إلى سفارته في القسطنطينية، وعلى رأسها اللورد هـ. بولور، H.BULWER، أن تفاقم الفتنة ناتج عن تواطؤ لانوس وعبد القادر، واحتج السفير ضد حرارة تهنئة عالي باشا الصدر الأعظم لإنعام السلطان على الأمير بالوسام المجيدي الهمايوني من الرتبة الأولى، وقد دفع هذا الحدث القنصل أوتري لتوجيه رسالة إلى السفير لاڤاليت بهذا الخصوص مما دفع السفير إلى توجيه تقرير طويل إلى باريس، اقترح على أثره الوزير «توفنيل» على الإمبراطور منح وسام جوقة الشرف لأوتري ولانوس، إضافة للأمير بالطبع.

دامت هذه الأحداث المرعبة، في الواقع، طيلة أسبوع، وتمّ أوّل تقرير من لانوس إلى الوزير عن هذه «المذابح السورية» بتاريخ ١٧ تموز ـ يوليو، وقد أكّد أن الفتنة بدأت يوم

الاثنين، التاسع من تموز، في الساعة الثانية بعد الظهر، ولم تتوقف إلا في يوم الاثنين التالي، السادس عشر منه، «لكن الأيام الثلاثة الأولى كانت الأكثر رهبة».

يشكل تقرير السابع عشر من تموز هذا قمّة مراسلات القنصلية في دمشق، لكنه لم يستطع أن يحفز الحكومة الفرنسية على اتخاذ قرار في ذلك التاريخ بالذات. لكن توفنيل نَشَط بفاعلية في القضية السورية وبدأ المساعي الدبلوماسية من أجل حلّ لهذه الأزمة وشقّ الطريق لحلّها وتصفيتها على المستوى الأوروبي. بدا لانوس مقتنعاً بحقيقة وجود مؤامرة مبرمجة تُفذت في الساعة والأماكن المحدّدة سلفاً. «وبدأت المذابح، دون أن يقوم الجنود المكلّفون بحراسة الحي منذ بعض الوقت بأي جهد لإيقاف الفتنة». وبدا أنّ كل شيء منسق بين مسؤولي المجموعات غير النظامية والعصابات الوافدة من الأحياء البعيدة وقد دمّر الحي المسيحي كلّياً. وقدرت الخسائر بالأشخاص «بنحو ثمانية آلاف إنسان من جميع الأعمار ومن الجنسين. وقد تجّنب قتل النساء، وخاصّة الشابات منهن لكنهن أخذن سباياً إلى حيث تعرضن إلى معاملة أفدح من الموت». والقائم بالأعمال القنصلية لايشك بضلوع السلطات المحلية في هذه الجرائم:

«... وبدلاً من أن تسعى السلطة المحلية لقمع العصيان، قامت بالعكس بكل ما أمكنها لتشجيع النّهابين ومشعلي الحرائق، واشترك الجنود أنفسهم في النهب، ويمكن القول دون أن نخطئ أو نغالي، إن الأموال النقدية والأشياء الثمينة قد أخذت من قبلهم، ومن قبل الضباط».

استحق سلوك الأمير عبد القادر كل الثناء، فهو لم يتوانِ مع مجموعة رجاله عن مجابهة عصابات الرعاع الهائجة وحتى «جنود السلطان المعظّم» ويعود إليه الفضل في إنقاذ أحد عشر ألف مسيحي تمّ إيواؤهم لديه، أو في حيّه، أو وجّههم إلى أماكن آمنة في القلعة حيث «اضطر أحمد باشا إلى استقبالهم، على كره منه» والقنصل نفسه مع زملاء له ورجال دين أوروبيون وجدوا ملجأً في منزل الأمير، لكن بعض الرهبان الفرنسيسكان قتلوا قبل أن يتمكنوا من النجاة من هذه المجزرة.

«(...) يشوب المدينة الآن بعض الهدوء، ولكن يبدو لي أن هذا الهدوء ظاهري فقط، إذ أن أحمد باشا، رغم وصول الوالي الجديد محمد باشا، يتابع دائماً مشروعه لإبادة جميع مسيحيي دمشق، وكذلك مسيحيي حمص وحماة، إذ أن الشائعات تفيد بأن المذبحة قد امتدت إلى هاتين المدينتين في الأيام الأخيرة».

بدت هذه التوقّعات غير مبررة، بينما بدا من الصعب التحقّق من المعلومات الأخرى من مصادر معاصرة للأحداث. لكن القائم بالأعمال ملأ دوره في غياب القنصل أوتري، بتوجيه رؤسائه نحو احتمالات قلق وهيجان متوقّعين. بينما اكتفى زميله في بيروت، بنتيڤوغليو، بإعلام توفنيل، بتاريخ ١٤ تموز ـ يوليو، أن ممثلي المسيحيين في الجبل «قد توصلوا إلى توقيع عقد الصلح مع الدروز كما أراده هؤلاء المدعومون من قبل السلطات المحلية» ولكن ليس بدون تردد وبكثير من الحذر.

مملكتي ليست من هذا العالم

«مملكتي ليست من هذا العالم فكتمان ما خص به الله الكائن البشري الحقيقي من نفوذ ومحقه لايمكن ائتلافهما مع مملكة دنيوية».

في الثالث من كانون أول ـ ديسمبر ١٨٦٠ طرح السيد ب. بوجلا B.POJELAT على الأمير بالذات السؤال التالي:

«طُرِحَ اسمك في الصحف الفرنسية كحاكم لسورية. هل وصلتك هذه الأخبار؟».

وأجاب عبد القادر:

ـ نعم، وإذا لم أكن مخطئاً فهذا هو أحد الأسباب الرئيسة مما يبديه الأتراك من غيظ تجاهي وتنكيد لي. لكن فلتطمئن تركية. إنني أنهيت مسيرتي السياسيّة ولا أطمح إلى سلطان على البشر أو إلى مجد في الدنيا؛ أريد أن أعيش من الآن فصاعداً في طمأنينة الهناء العائلي، والصلاة، والسلام.

والواقع أن المناقشات حول مستقبل سورية بقيت موضوع الساعة في السياسة الأوروبية، ليس فقط من قبل اللجان التي تداولت فيها أثناء زياراتها لدمشق، ولكن كان يتمّ البحث فيها بين باريس ولندن؛ وخاصة في الخيار بين المرشّحين الرئيسين المحتملين: الأمير عبد القادر أو فؤاد باشا. وسفير فرنسة الجديد في لندن أجمل العناصر في تقرير رفعه بتاريخ ١٢ كانون أوّل ـ ديسمبر ١٨٦٠ إلى توفنل، فمشروع اللورد دوفرن DUFERRIN قد طرح مجدّداً على بساط البحث بشكل جدّي، سواء في سورية أو بين العاصمتين المتنافستين، ويبدو أن اللورد جون روسل قد اقتنع بوجهة نظر مندوب الملكة البريطانية المعارض للأمير عبد القادر:

«الفكرة الوحيدة التي أطلعني عليها اللورد جون هي أن فؤاد باشا سيسمى والياً على سورية.

وبهذا الخصوص، فإن سكرتير الدولة الرئيس لفظ اسم عبد القادر قائلاً: «إن الأتراك يمكن ألا يروا فيه مؤمناً حقيقياً؛ وبالرغم من أن اللورد جون روسل لم يقدّم لي هذا الاعتراض كواقع لارجعة عنه، فقد وجدت أن ليس من واجبي إبداء الرأي فيه؛ وتوقّفت مداولتنا عند هذه النقطة».

وفي دمشق تداول المندوب الانكليزي دوفرن مع المندوب الفرنسي بكلار Beclard صراحة بهذا الشأن ولأوّل مرّة علناً. واشترك القنصل أوتري في هذا النقاش ولاحظ الممثلون الفرنسيون البعد الحقيقي لمشروع المندوب الانكليزي الذي لم يعرف عنه حتى حينه إلّا تلميحات وإشاعات، أي معلومات جزئية إن لم تكن مغلوطة، وكتب أوتري بشكل سرّي إلى لافاليت، بينما بكلار اطلّع عليه بشكل نظامي توفنيل.

كانت اتصالات ماكس أوتري تتناول نقاش الفكرة ككلّ، وتورّطات العلاقات الفرنسية ـ الانكليزية في المجال السوري، وكان النقاش الرئيس قائماً حول المحافظة على وحدة السلطنة العثمانية واستبعاد أي فكرة لتجزئتها، خاصة والأمر يتعلق بتوفيق محاولات إعادة تنظيم الوضع في جبل لبنان مع المشروع العام المتعلق بإعادة بناء وإصلاح الإدارة في سورية، وقد لخص أوتري النقاش القائم حول هذا الموضوع بهذه الملاحظة الرئيسة:

«هل يجب أن تُضمَّن الامتيازات المطلوب منحها لجبل لبنان والموارنة ضمن حلّ مشترك لكامل سورية؟».

من هنا بدأت بواكير ما غدت تعرف بالقضية الفرنسية ـ اللبنانية حتى يومنا هذا.

«هكذا طرحت المشكلة، وكان الغرض الموافقة على نقطة انطلاق تهدف إلى هدم كل البنيان الذي يعدّه اللورد دوفرن؛ إذ أن هذا الدبلوماسي نشط خلال تلك المحادثات الطويلة، وأكثر من المرات السابقة في محاولة تحقيق رغبة عارمة لديه لإخضاع الموارنة للنظام العام، بل وصرّح أن من الضروري، على الأرجح، إلغاء جميع امتيازاتهم السابقة..»

ويستنتج القنصل الفرنسي الاستراتيجية الانكليزية من تأكيد نُسب إلى دوفرن ليوجز رأيه بقوله:

«(...) يجب ألا تؤخذ كلماتي بحرفيتها. ولكن إذا طرحت فرنسة أساساً لمفاوضاتها حرمة الوضع الخاص للجبل، فلن نندهش من أن يعتبر هذا نقطة انطلاق معارضة، ستقودنا التنازلات المتبادلة بالنتيجة، على الأرجح، إلى حلّ وسط يكون مقبولاً من الطرفين».

ويثابر القنصل أوتري كعادته في مناقشة نقاط تعتبر رئيسة أو مؤثّرة دون أن يصمّم على أن يعرض موضوعياً عناصر مشكلة أو تسلسل وقائع يجب توضيحها. بل ينتقل غالباً من موضوع إلى آخر بطريقة تلقائية وغريزية، مخفّفة ومجزأة. بينما يختلف الأمر كليّاً مع بكلار مندوب فرنسة في القضية اللبنانية كما يشير وضوح تقاريره ودقتها. فعرضه للمشكلة السورية كما طرحها رسمياً زميله دوفرن كان موضوعاً لتقرير له في ١٤ كانون أوّل ـ ديسمبر لتوفنيل؛ وهو يعتمد على توجيهات متلقاة من الوزير تتعلق بامتيازات الجبل. ومقابل هذا الوضع الثابت لفرنسة يستنتج أن اللورد دوفرن يتصوّر مخطط إعادة تنظيم عام لكل سورية. وتتلخص قناعة زميله في واقع أساسي:

إن العداء القائم بين المسيحيين والمسلمين في هذه البلاد، والذي تجلّى بتواطؤ السلطات التركية في الأحداث الأخيرة، ناتج في قسمه الأعظم عن ذات الامتيازات التي يُسعى لضمانها لسكان الجبل.

يستخلص دوفرن نتائج سياسية صالحة لكل سورية: أولاً،إلغاء الإمتيازات المحصورة القائدة بأهل الجبل؛ ثم فصل سورية عن النظام الحكومي للسلطنة العثمانية، ومنحها أنظمة عامة متناسقة قابلة للتطبيق على كل مناطق تلك البلاد، وتنصيب حاكم عام شبه مستقل لسورية بكاملها يتبع له باشواوات يديرون المناطق تحت إمرته، وضمن هذا الإطار العام يكون للبنان المسيحي باشاه المسيحي الخاص. ويؤكّد المتدخلون العديدون (لبنانيون وفرنسيون) على هذه النقطة، وبأن لبنان في هذه الحالة لن يكون تحت سلطة عبد القادر. عند عودة دوفرن من دمشق إلى بيروت، بتاريخ ١٠ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٦٠، وجد برقيات من حكومته تؤيد مشروعه بشكل كلّي تقريباً. وهكذا من أجل أن يوضّح المندوب الانكليزي هذا المشروع يقدّم لزميله الفرنسي مذكّرة من أربع عشرة نقطة تحدّد وجهة نظره في إعادة تنظيم كل سورية. وقد أسرع بكلار بإرسال ترجمة عنها إلى وزيره تنصّ على:

ا ـ عدم تجزئة السلطنة العثمانية.

٢ ـ بَسط منافع التدخّل الأوروبي على جميع مسيحيي سورية.

٣ ـ تطبيق مبدأ الدمج لا الفصل على جميع الطوائف والسلالات التي يتشكّل منها السكان.

٤ ـ تقوية الحكم المحلي للمقاطعة.

٥ ـ وضع أساس لإدارة مالية ومدنية وعسكرية في سورية يختلف عن الأساس المعمول به في باقي المقاطعات.

٦ ـ المسؤولية الشخصية لأمين السلطة المحليّة تجاه أوروبة.

٧ ـ نتيجة لهذه المسؤولية، منح هذا الأمين صلاحيات واسعة لتأمين الهدوء في المنطقة الواقعة تحت إدارته.

٨ ـ تماثل إدارة الجبل مع إدارة بقية بيلكيات المقاطعة بحيث أن الحاكم المسؤول لايمكنه أن يتذرع بحجة استقلال أحد مرؤوسيه في حال اختلال النظام، ولا أن يكون له أي دافع للغيرة يحمله على تدبير الدسائس ضد تلك السلطة الدنيا وشلّها.

٩ ـ تماثل المواطنين المسيحيين مع المواطنين المسلمين فيما يتعلّق بحق الملكية، والخ..

١٠ ـ جيش مختلط يتألّف دون تمييز من المسلمين والمسيحيين.

١١ ـ شرطة تكوّن بطريقة يُحفظ فيها الأمن داخل كل قبيلة، أو شيعة، أو طائفة من قبل أبنائها.

١٢ ـ إدارة بلدية توجّه ذاتياً جميع القضايا المدنية، والدينية غير السياسية في كل قطّاع أو قبيلة، أو طائفة، أو شيعة.

١٣ ـ تمثيل القوى الخمس العظمى لدى الحكومة المحلية في سورية بمندوبين سياسيين مجهّزين بتوجيهات واحدة ويتمتعون موقتاً بحقّ إجراء تمثيل مشترك لحلّ القضايا المتعلّقة بالإدارة الكليّة للمقاطعة.

١٤ ـ تحدّد مدة هذا التنظيم الجديد للإدارة في سورية بعشر سنوات.

لم يختلف المتفاوضون إلا على اللقب الذي سيطلق على الحاكم، وعلى وجوب فصل جبل لبنان عن سورية؛ وهذا ما فتئ الأمير يكرّر رفضه له.

لايمكن إلا أن يداخلنا الذهول أمام هذا التاريخ الذي حُدِّدت عناصره منذ تلك

الفترة، وبالتالي توجيه نقد قاس لما يبديه معاصرونا السياسيون أو الصحفيون الذين لايرون إلا سرد الوقائع حول «المعجزة اللبنانية» المزيّفة، والبؤس المحيق بالموارنة وحدهم... والواقع أن التقارير تبيّن بوضوح أن الوزراء والجنرالات في هذا الوضع المحدّد تماماً يخلطون في تحديد مسيحيي الشرق[١]، ولايقيمون أي فرق بين المستقبل السياسي لسورية وإعادة التنظيم الإداري لجبل لبنان.

بتاريخ ٢٢ أيلول ـ سبتمبر ١٨٦٠، قلّد شارل شيفَر الأمير عبد القادر وسام جوقة الشرف من المرتبة الأولى ممنوحاً من الإمبراطور نابوليون الثالث، وقد كان أثناءها في زيارة للجزائر.

كان شارل شيفر، المترجم السابق للإمبراطور[٢] شخصية تثير الفضول في تنقّله بين القدس، ودمشق، والقسطنطينية، وما يتمتع به من ثقة توفنل، وما يكلّف به من مهمات سرّية عديدة، وسيط بالولادة، متجوّل دائماً، مرتبط مع الأب لافيجري Lavigarie ومستعد للكشف سريعاً عن التحالف بين الانكليز وعائلتي جنبلاط والنكاد (النكدي؟).

في اليوم نفسه أجاب وزير الحربية المارشال راندون (قاهر منطقة القبائل!) على التقرير الذي أرسله إليه الجنرال دي بوفور Beaufgort بالموافقة على خطة احتلال المنطقة وإعادة تنظيمها. وقد طرح الوزير السؤال عن دور عبد القادر بتعابير دقيقة:

«هل تعتقد أن عبد القادر يستطيع أن يمارس مهمة حاكم سورية؟ وهل تعتقد أن الدول العظمى ذات التمثيل في بيروت ترغب في تسميته لهذه المهمة؟ أنا لا أبحث عمّا نتمناه مستقبلاً من هذا الاختيار المفترض بالنسبة لمستعمراتنا في أفريقية. ولا أتوقّف إلا عند اللحظة الحاضرة، وفيما يتعلق بإعادة السلام الدائم إلى سورية، وفي

١ ـ كان معظم ضحايا دمشق من الروم الكاثوليك. وكل هذا القسم يستند إلى دراسة الأب جوزيف حجّار، محققة مع ملفّات وزارة الخارجية التركية، وأوراق توفنيل، وملفّات إدارة الدراسات التاريخية للجيش في فينسين، ومراسلات الوزير.

٢ ـ في ملفات وزارة الخارجية مجموعة باسم «أوراق شيفر SCHEFFER» فلشارل عديد من المذكرات والتقارير: فهناك تاريخ ممتع للتحدث عنه بالتوازي مع تاريخ الأب كوهن الذي كان مماثلاً له في الجزيرة العربية... إنّه إعلان للهواة.

هذا السياق من الأفكار، يبدو لي عبد القادر أهلاً للتسمية بالشهرة التي اكتسبها في الجزائر؛ وبالسلوك الجريء، الذي مارسه في الظروف الأخيرة (...).

أمّا المشروع المتعلّق بالأمير، والذي لم يبلّغ إليه بدون شك، مطلقاً، فموجود في تقرير سرّي[1] للجنرال بوفور بتاريخ ٦ تشرين أول - اوكتوبر ١٨٦٠.

(....) لا أعتقد أن الدول العظمى توافق على تسمية عبد القادر حاكماً على سورية بكاملها كما أن تركية لن تقبل بهذا أبداً. يمكن على الأكثر تسميته والياً على دمشق، ومنطقة عكا وربّما منطقة الجليل، إذا لم توجد وسيلة لتسمية والٍ مستقلٍ للقدس تتفق عليه أوروبة المسيحية، ويمكن فيما بعد أن تشمل سلطة عبد القادر حَلَباً وجزءاً من شمال سورية، وبذلك تتشكل نواة لسلطنة عربية يمكن أن تمتد تدريجياً إلى بغداد والبصرة (...).

أما حدود سلطة الأمير من الغرب، وجنوب لبنان، فيجب ألا تتعدّى نهر الليطاني الذي ينبع من قرب بعلبك ويصب في البحر بين صيدا وصور».

أتساءل أحياناً إن كنت لا أحلم وأنا أعيد قراءة هذه الأفكار المعبّر عنها في العام ١٨٦٠! ومن المعلوم أن عبد القادر لم يكن على إطلاع عليها. ويتابع بوفور دائماً في ذات تقرير ٦ تشرين أوّل ١٨٦٠:

«لن أرضى أن يكون عبد القادر حاكماً على لبنان، أيّاً كان موقفه النبيل خلال الأحداث الأخيرة، وأياً كانت مكانته ونفوذه على العرب، فهو لن يتعدى كونه عربياً ولن نعرف من سيخلفه بعد موته، دون أن نتطرق إلى ما سيسببه من غيظ وجرح إحساس، وضعُ لبنان، المستقل دائماً، تحت السلطة المباشرة لحكم مسلم (...).

هل يمكن أن يقال أكثر من هذا؟!

والواقع، في تلك الفترة بالذات غدا ترشيح الأمير مشكوكاً فيه، ثم مربكاً. فتوقّعات أنصار عبد القادر لاتتفق أبداً مع المصالح الإمبريالية الصرفة. فقبل أن تنضم «التايمس» إلى مجموعة لسبس أشارت إلى أن القضية هامة جداً بحيث يجب أن يُعهَدَ بها إلى أمير أوروبي أو عند الاقتضاء إلى أمير مصري! بينما بدأ اسم الأمير شهاب

١ - جميع تقارير بوفور موجودة في ملفات إدارة الدراسات التاريخية للجيش برقم G٤/١/٣ ومعلّق عليها بملاحظات لتوفنيل موجودة في ملفات وزارة الخارجية بعنوان «مذكرات ووثائق» تركية، ١٣٦.

يتردّد في الأوساط المسيحية بمبادرة من الأب لافيجري مدير مؤسسة مدارس الشرق ـ الذي سيشتهر فيما بعد في الجزائر ـ وكان في بعثة إلى لبنان. وترددت الفكرة في باريس من قبل المستشرق ريمون X.RAYMOND في سلسلة من المقالات ظهرت خلال شهر تشرين أوّل ـ اوكتوبر في **«مجلية العالمين»**. ولائحة الذرائع استعمارية بشكل واضح: فسورية تأخذ أهميتها وبعدها الاقليمي الهام في المدى المتوسطي الموجّه بأهمية البحر الأحمر وقناة السويس المستقبلية؛ ويجب أن يتمّ في سورية الإجراء ذاته الذي تمّ في الجزائر، وعبد القادر ليس على المستوى الملائم لإنجاز هذه المهمة الإصلاحية.

«كان الأمر في اليونان، والجزائر، وتونس، ومصر، كما الحال الآن في سورية، مناطق لم يعد السلطان قادراً على الحكم فيها وتطلّبت الضرورة خلق شيء لدرء هذا العجز خشية أن يتحول إلى فراغ وفوضى.

إن المصالح الأوروبية لايمكنها أن تتحمّل (هذه الفوضى!) لأنها بحاجة إلى الأمن في البحر الأحمر. أو ليس من التعقّل أن يُفكر بذلك منذ الآن؟ هل يمكن لأوروبة أن ترضى، كضمانة فعّالة وحاليّة لمصالحها في البحر الأحمر، بالحق الشرعي في أن تحمل تظلّماتها إلى القسطنطينية، وهي ليست على هذا القدر من الغنى أو القوة لتتمكن من التعويض عن الجرائم المرتكبة، وبالأحرى للوقاية منها؟».

ويستخلص السيد ريمون بشكل منطقي:

«ولهذا السبب يُنظر إلى سورية حقوقياً كملكية لاوارث لها، ومن المناسب للمصلحة العامة أن ينصّب عليها أمير مسيحي من سلالة أوروبية. رغم الشكوك التي يمكن أن توحي بها مراعاة القانون المكتوب».

وعندها جاء دور الجنرال دي بوفور للتخفيف من حميته، وحتى لاقتراح فؤاد باشا قبل أن ينضم إلى الخيار المسيحي... فيكتب في تقرير بتاريخ ٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٨٦٠:

«كذلك أيضاً، إن تمكّن عبد القادر، إلى حدّ ما، أن يضبط القبائل العربية الحاليّة التي تُركت تتصرّف على هواها، فسنجد فيه عنصراً قويّاً يجابه، عند اللزوم، فظاظة الأتراك، الذين برهنت الأحداث على عدم استكانتهم إلا أمام السواعد القويّة (...).

وكان الجنرال بعد موعد فاشل مع الأمير لرفض الأخير استقباله[1]، والدخول في هذه المناورات وخاصّة في هذه التركيبة قد كتب بتاريخ ٢٣ تشرين أوّل - اوكتوبر معلناً تخليه عن اقتراحه وهو يراوغ:

«إنني أتأسف لعدم رؤيتي عبد القادر. وقيل لي إنّه لايرغب بأي سلطة؛ وإنه يخشى أن يعرّض وضعه للشبهة أمام معارضة الأتراك الشديدة له وحقد مسلمي المدينة؛ لكنني لا أثق كليّاً بكلّ ما يمكن أن يقوله.

أيّاً كان الأمر، من المستحسن المطالبة في آن واحد باستقلال لبنان وحكمه الذاتي، وبمنح سلطة ما لعبد القادر للإحتفاظ بإمكان التخلي عن القضية الأخيرة إن لم نتمكن من الحصول على قبول بقية الدول العظمى لها؛ فهذا التنازل سيجعل الترتيب المتعلّق بلبنان أكثر سهولة، ويمكن لعبد القادر بدون سلطة معترف بها، أن يؤدي لنا خدمات كبيرة إن جدّت ظروف جديدة. فأنا أعتقد بصدق وفائه للإمبراطور واعترافه بجميله.

من حسنات العسكريين أنهم ينطقون برأيهم في الأمور بدون مراعاة... وأنا لا أعرف ماهو المستوى الثقافي والروحي للجنرال بومون دي هوبول في تلك الفترة المحدّدة من مسيرة الأمير الذي كان يتهيّأ لحجّته الأخيرة من أجل نهاية الرحلة، وهو على يقين ثابت بهذه الفكرة:

«لاتغرّنك الحياة الدنيا، ولاتخدعك أباطيلها عن ذكر الله».

١ - في «تحفة الزائر» يذكُرُ محمد بن الأمير أن الجنرال بعد خلاف مع فؤاد باشا اعتمد على ضرب دمشق وأرسل إلى الأمير رسولاً يطلب منه الخروج منها مع رجاله لكن الأمير سار إلى قرية قبّ الياس في البقاع حيث اجتمع سرّاً مع الجنرال وأقنعه بالعدول عن ذلك (انظر تحفة الزائر - ص ٦٣٥ - الطبعة الثانية) (المترجم).

القسم الرابع

نهاية الرحلة إلى الشرق ـ التصوف

واقع أن الوجه يقيم مع الخطاب علاقة الأنا لايعني أنه يصنف فيه.

عمانوئيل لفيناس: الكلية واللانهاية.

ليس في الكائن إلا الله!

﴿وماكان لبَشَر أن يكلّمه اللهُ إلا وحياً، أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيُوحيَ بإذنه مايَشاءُ، إنّه عَليٌّ حكيم﴾ (٤٢، سورة الشورى ٥١).

«كل إنسان يمتلك، بفعل كونه إنساناً، الاستعدادات الضرورية لالتقاط الحقائق في الحال التي توجد فيها، لأن النفس، حيث يوجد العلم، هي بالنسبة لحقيقة الأشياء في ذات وضع المرآة بالنسبة للأشياء المتبدلة التي تظهر فيها، وتتابع بعضها في إثر بعضها الآخر. غير أن الأشكال في المرآة لاتنكشف كليّاً، وذلك لعدة أسباب: الأوّل منها يمكن أن يعود إلى النقص الذي يتناول أحياناً شكلها بالذات، وهكذا مثلاً فإن مادة الحديد التي صنعت منها المرآة قد لاتكون جيّدة الصنع، أو التشكيل، أو الصقل بشكل كاف. وقد يكمن السبب الثاني في مايصيب المرآة من حطٍّ. كاختفاء بريقها الأوّل، حتى ولو بقي شكلها سليماً. والسبب الثالث في الوضع السيىء للمرآة بالنسبة للشيء الذي يجب أن تظهر صورته، وكذلك عندما يكون الشيء خلف المرآة؛ والسبب الرابع هو احتمال وجود حجاب بين المرآة والشيء الواجب انعكاس صورته عليها، والسبب الخامس الجهل المتعلّق بالجهة التي ستوجد فيها الصورة المبحوث عنها، بحيث يغدو من المتعذر القيام بالمطابقة بشكل موثوق بين الشكل وصورته في المرآة (...)».

كتب عبد القادر هذا النص في العام ١٨٤٨[1]: وفي العام ١٨٦٤ دخل في الطور الأخير طور اللاتميّز بين الذات والموضوع؛ فقد انتقل من الوجد في بدايات حياته الصوفية إلى الاندماج ENTASE أي الخروج من الذات والاندماج في الله. إن الاتحاد مع الواحد ليس قائماً بين هويتين مختلفتين، ولا بين جوهرين متميّزين: بل يقوم في تحقق الوحدة ضمن وحدانية الكائن.

١ ـ هذا النص موجود في «رسالة إلى الفرنسيين»، وقد استند إليه أخي ج. م هيرت HIRT في مؤلّف قيّم عن «التحليل النفسي والإسلام»، نشر في العام ١٩٩٣ تحت عنوان «مرآة النبي» لدى غراسة Grassei.

الفصل الأوّل
الدعوة الخفيّة الشرق العمودي

تشكل العزلة، رغبة في الاستمرار برفقة المعلم، من الآن فصاعداً مشروع عبد القادر الوحيد، لكن دون أن ينقطع كليّاً عن العالم، ومن هنا تفرّد ممارسة الأمير العمليّة، فهو لايكتفي بأن يغدو ناسكاً إنّما يستمر من أجل انسجام التوازن، بعد تلك العزلة، في العيش حياة عريضة كإنسان اجتماعي. لكنه في الوقت ذاته، وبطريقة ليست مناقضة في نظر، ومن أجل أن يغدو «رفيق النبي ﷺ»، وجب عليه أن يقوم بحجّتين متتاليتين بين مكة والمدينة؛ وهكذا فقد ترك دمشق في كانون الثاني - يناير ١٨٦٣، ولم يعد إليها، عن طريق الاسكندرية، إلا في تموز - يوليو ١٨٦٤، بعد أن دخل في «الماسونية» بتاريخ ١٨ حزيران - يونيو، كما حاز على تلك الملكية في الإسماعيلية التي سيتم التطرّق إليها بمناسبة مشروع قناة السويس.

الخلوة

العزلة بسبب الاستهلاك

﴿كلّ من عليها فانٍ، ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلال والإكرام﴾ (٥٥، سورة الرحمن ٢٦، ٢٧).

﴿يقولون أئِنّا لمَردودون في الحافرة؟﴾ (٧٩، سورة النازعات، ١٠).

قل لملوك الأرض: «افعلوا ماتريدون فنصيبيكم ناقص، ولنا الحصة الكبرى».

بعد أن قضى عبد القادر عِدَّة أسابيع في القاهرة أبحر إلى جدة ليصل إلى مكة قبل موعد الحجّ: وقد استقبل من قبل علماء المدينة المقدسة، والتقى فيها بآخر أستاذ له على قيد الحياة، وهو الشيخ محمد الفاسي الشاذلي، بينما وضع الشريف الهاشمي لأم المدائن تحت تصرفه غرفتين صغيرتين داخل الحرم، إنّما ليس للاعتزال، فزوّاره كثيرون جداً، لذلك كان يعتذر منهم، ليذهب بانتظام إلى غار حراء، ذلك الذي كان يحلم به في أيام فتوّته، المكان الذي نزلت فيه أولى السُوَر على النبي ﷺ.

﴿إقرَأْ باسم رَبّك الذي خَلق، خلق الإنسان من عَلَقٍ﴾ (٩٦، سورة العلق ١ - ٢).

تقشّف، وتفسير للنصوص كاملان. غذاؤه خبز وزيتون، .لقد وصل إلى هناك،

بالصراع الروحي إلى الدرجة العليا من الاستنارة في قمّة جبل النور. اكتمال المسار عبر جميع المواقف والمحطات؛ فكانت مشروعة تلك الثقة التي بدت في **كتاب المواقف**؛ فالله والرسول كشفا له تفسيرات جديدة، حتى ليصحّح جسارات ابن العربي، ويذهب إلى أبعد من ذلك أيضاً، لأنه يتلقى من الله بالذات التأكيد على صوابية المذهب الأكبري؛ فالرؤى الجديدة تنسخ أحياناً الشرع، أو على الأقل تتحرّر من التزّمت في الدين، مع تنبيه سامعيه وقارئيه ليحذروا التفسيرات التي يمكن أن تستخدم ذريعة للقمع، وخاصة عندما يدعم عدم وجود الخطأ، وتوحيد جميع العبادات: إن وحدانية الكائن تجعل كل عابد لايعبد إلا هو! وهذه المقولة تتردّد في كل كتابات الأمير.

في يوم الأرض بتاريخ ٢٩ آذار ـ مارس ١٩٩٣، كنت في القدس، والمدينة مضربة والساحة خالية تماماً، وكنت مستغرقاً في التأمّل وأنا في جلسة شعائرية وقد استندت إلى إحدى عضائد مسجد القبة المشرّفة: والصخرة هناك أمامي، تشعّ كل طاقة العالم الكوني. أتخيّل إبراهيم الخليل وقد وضع رأسه عليها، واتخذ قراره بالتضحية، إنه الميثاق. وأرى أثر حافر فرس النبي ﷺ، حيث ارتفع من هناك في ليلة الإسراء والمعراج! هنا منذ عشر سنوات فهمت مخطط زمالة، في هذا المسجّد المثمن الذي تشكّل عضاداته صليب فرسان القدوس Kadoloseh، حرّاس الهيكل، وصليب القديس اندراوس[1] (انظر المخطط ص١٩٤).

توجد سبعة أبواب لابراهيم، وخمسة لجبرائيل، وثلاثة لميخائيل، وواحد لإسرافيل فالمجموع ستة عشر باباً /١٦/ ٦ + ١ = ٧ وهو الرقم الذهبي لعبد القادر وكذلك لإبراهيم، الأب البدوي الوحيد الحنيف «قبل الرسالة المحمدية». وقد بنى الأمير عبد القادر أولاً عاصمة ثابتة له، ثم حوّلها إلى «متنقلة» قبل المنفى ثم العودة إلى محور العالم، برزخ البرازخ، مجمع البحرين.

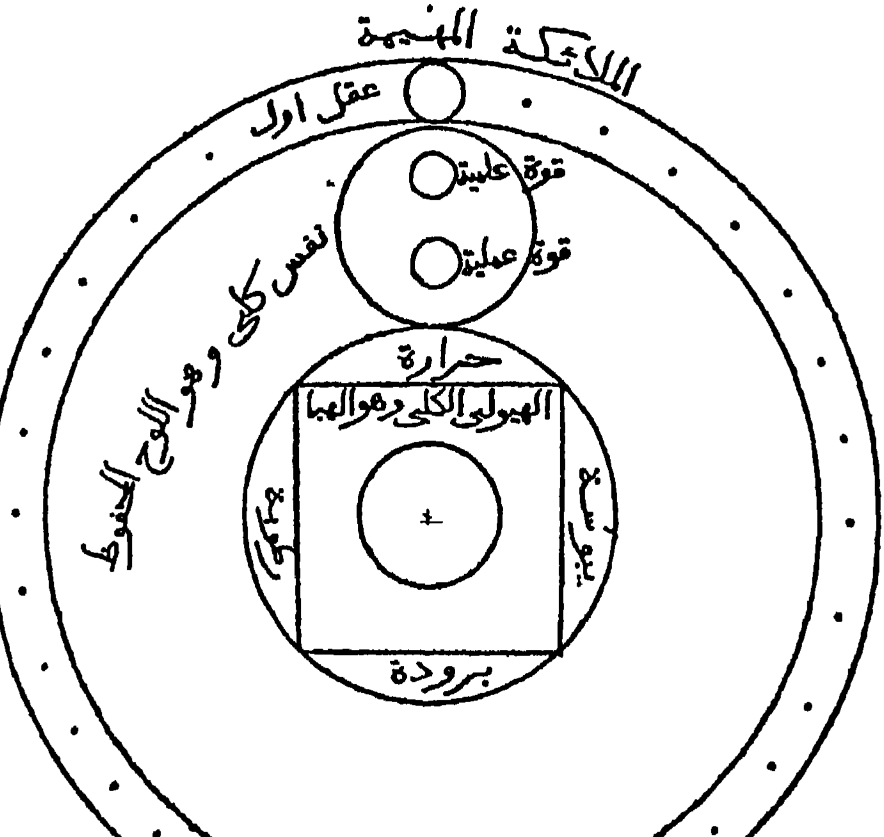
كان عبد القادر هناك فسألته:

ـ يا معلم، بقي عليّ أن أقول لهم القول الرئيس الأكثر تعبيراً لتعاليمك.

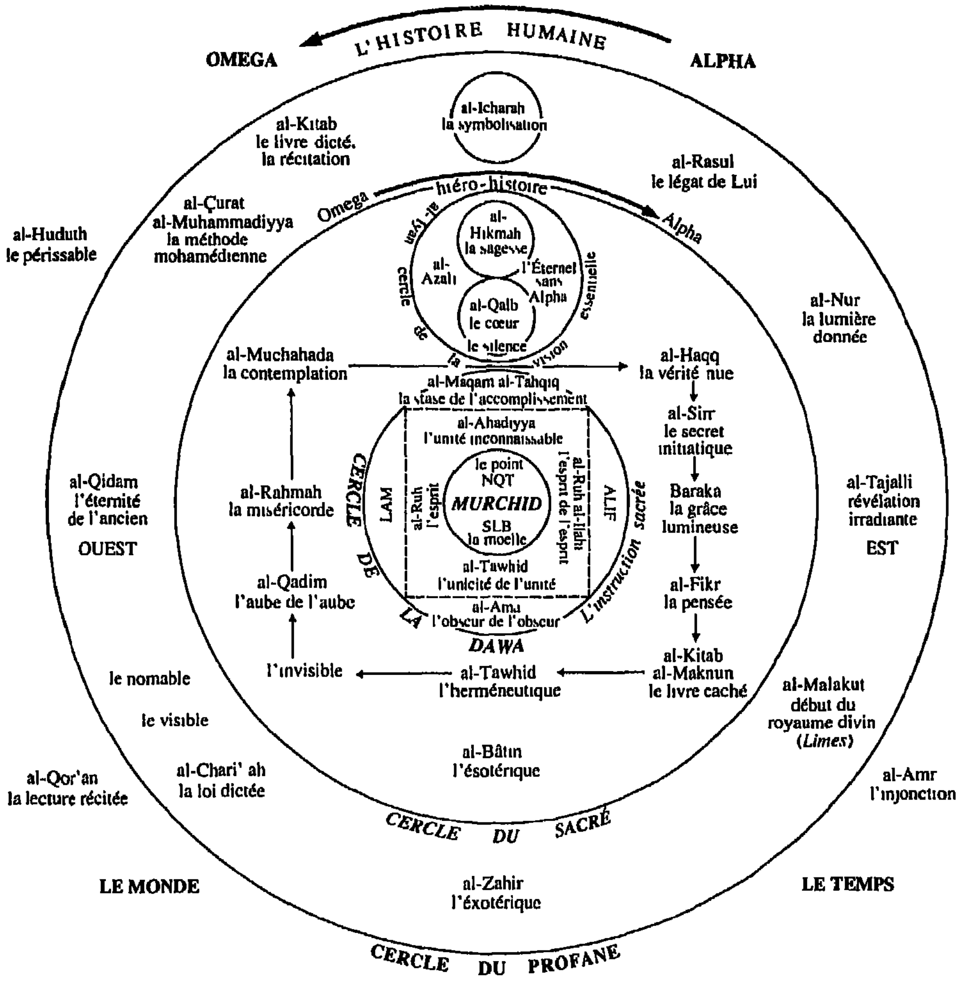
---

١ ـ ينتمي عبد القادر إلى الماسونية، ويبدو من غير المقلق أن يؤكّد تابعوه البعيدون، ماسونيون ومسلمون، من غينون GUENON حتى فال VALSANO على العلاقة بين الرهبنات «الفرسانية الهيكلية» والباطنية الإسلامية. انظر خاصة سلسلة أبحاث فالسان حول المراتب العليا من الاكوسيسم ECOSSISME وكذلك مؤلف غينون GUENON: نظرات في المسارّة: الفصل ٣٨».

مخطط


الملائكة المهيمة
عقل اول
قوة علمية
قوة عملية
نفس كلي وهو اللوح المحفوظ
حرارة
الهيولي الكلي وهو الهبا
يبوسة
برودة

مخطط



L'HISTOIRE HUMAINE
OMEGA
ALPHA
al-Icharah la symbolisation
al-Kitab le livre dicté, la récitation
al-Rasul le légat de Lui
al-Çurat al-Muhammadiyya la méthode mohamédienne
al-Huduth le périssable
Omega hiéro-histoire Alpha
al-Hikmah la sagesse
al-Azali
l'Éternel sans Alpha
al-Qalb le cœur
le silence
cercle de la vision essentielle
al-Nur la lumière donnée
al-Muchahada la contemplation
al-Haqq la vérité nue
al-Maqam al-Tahqiq la stase de l'accomplissement
al-Ahadiyya l'unité inconnaissable
le point NQT
MURCHID
SLB la moelle
LAM
ALIF
al-Ruh l'esprit
al-Ruh al-ilahi l'esprit de l'esprit
al-Tawhid l'unicité de l'unité
al-Ama l'obscur de l'obscur
CERCLE DE LA DAWA
L'instruction sacrée
al-Sirr le secret initiatique
al-Qidam l'éternité de l'ancien
OUEST
al-Rahmah la miséricorde
Baraka la grâce lumineuse
al-Tajalli révélation irradiante
EST
al-Qadim l'aube de l'aube
al-Fikr la pensée
l'invisible
al-Tawhid l'herméneutique
al-Kitab al-Maknun le livre caché
le nomable
le visible
al-Malakut début du royaume divin (Limes)
al-Bâtin l'ésotérique
al-Qor'an la lecture récitée
al-Chari' ah la loi dictée
al-Amr l'injonction
CERCLE DU SACRÉ
LE MONDE
al-Zahir l'éxotérique
LE TEMPS
CERCLE DU PROFANE

ـ إنك تعرفه، يا اسطفان بن الأول، إنّك تعرفه جيّداً: فتعاليمي تتلخص في آية واحدة من القرآن الكريم.

﴿وقضى ربُّك ألّا تَعْبُدوا إلا إيّاهُ﴾ (١٧، سورة الإسراء، ٢٣).

ـ ولكن يا معلّم، كيف تُفسَّر هذه الأية؟

ـ أيّها الجاهل، وهل تسمية الناس تغيّر من جوهر الكائن؟

مذهب واحد: الوحدانية: وحدة الوجود.

أعلن قول الله: لا إله إلا أنا.

فالله في العديد من آياته يؤكّد على وحدانيته: وهكذا فهو يتوجّه إلى جميع البشر ليعلمهم أن اختلاف المذاهب لايمسّ مطلقاً حقيقته الرئيسة الواحدة التي لاتتجزّأ، وجميع الأديان والمذاهب التي تجهر به هي أسماء، لكن تعدّد الأسماء لايعني تعدّد المسمّى.

الوحيد لايتعدّد ولاينقسم.

هو الحقيقة الرئيسة لكل مايمكن تصوره في الوجود، أو تخيّله، أو إدراكه بالحواس إنّه كل الأضداد وكل المتشابهات.

ولاشيء غيره (لاشيء غير هذا) في الكون.

إنّه في آن واحد الأوّل والآخر، والظاهر والباطن ولاشيء غير هذا في الوجود.

إنّه حقيقة كل معبود، وما من عابد يعبد إلاه.

إذاً إن كنت تفكر أنه ما يقوله أهل السنّة، فهو هذا، وغير هذا! وإذا كنت تؤمن بما تدعو إليه مدارس الإسلام (كلها) فهو هذا، وغير هذا، وإن كنت تعتقد بأنه مايؤمن به المسلمون، واليهود، والمسيحيون، والمجوس، والمشركون، فهو هذا، وغير هذا.

وإذا كنت تفكر وتؤمن، بما أعلنه العارفون الفائقون ـ الأنبياء والقديسون، والملائكة ـ فهو هذا، وغير هذا.

ما من أحدٍ مخلوقاته يعبده في كل مظاهره، لأن ما من أحد يعلم كل مظاهره كما أن ما من أحدٍ يتمكن من نكران كل مظاهره، فهو هو المنكور وهو المعروف.. هوّ ذا أساس تعاليمي.

- ولكن، أنت، أيا معلمي؟

- أنا؟ إن ذاتي مفتتنة به! والكلّ والجزء ممتزجان.

- ولكن يا معلم، إن كان الله يتجلى في مخلوقاته، وهذه تمتزج به، فهو إذا بحاجة إلينا نحن معشر البشر المساكين. هذا مايستعصي علي فهمه!

- تريد أن تقول إن الخَلق بدون الله لاذات لهم؟ هذا بديهي! لكن العكس ليس صحيحاً: من المؤكّد أن الله، لولا خلقه، لايتجلّى، ولكن اعلم أنّه لتجلّي ذاته لذاته لايحتاج أبداً لمخلوقاته، فهو في علاقة الجوهر مستقل بشكل مطلق عن العوالم، وحتى عن أسمائه. فكّر! من وجهة النظر هذه، لمن سيتسمّى؟ لمن سيصف نفسه؟ في هذه الدرجة، ليس إلا الجوهر، الواحد، المطلق! وبالمقابل عندما تجلّى بأسمائه وصفاته، إذاً عبر تجلّيه بأفعاله، احتاج إلى المخلوقات. وقد أكّد الشيخ الأكبر بهذا الخصوص: «لو لم يوجد لما وجدنا، وماكان لم يكن».

و«الفجر الذي أهوى شعّ فأزاح الليل، فما من غروب» كما قال الحلاّج.

بعد سنة من وصول عبد القادر إلى الحجاز، انتقل من مكّة المكرّمة إلى الطائف، المدينة الأكثر اعتدالاً في مناخها لأن تقشفه قد أضناه؛ وعند عودته مجدّداً إلى مكة أنبأه واليها عبد الله باشا أن عائلته قلقة عليه لعدم وصول أخبار عنه؛ لكنه استمرّ في عزلته لعدة أشهر أيضاً: فذهب إلى يثرب، **المدينة** الفائقة، تلك التي فتحت بالحبّ وليس بالحرب. وبدأ فيها عزلة لعدة أشهر في بيت أبي بكر، الخليفة الأوّل، وهو بيت مجاور لمسجد الرسول ويتصل معه بنافذة صغيرة.

هناك انخطف عن نفسه، وعن العالم؛ وبعد شهرين من العزلة الكاملة، قام بزيارة الأماكن المقدّسة في المنطقة: أضرحة صحابة النبي ﷺ، جبل أحد، مسجد قباء، لكنه حكم بقسوة على كل هذه الثروات التي راكمها كبار هذا العالم في كلّ هذه الأمكنة، وفي ضريح النبي نفسه، ورفض زيارة الكنوز التي نظر إليها كانحراف، وإسراف، وتبذير.

ثم عاد إلى مكة للقيام بحجّته الثانية: وقضى أربعة عشر يوماً في السير ترافقه قبائل حَرْب، وهي نهّابة، لكنّها معارضة للعثمانيين، وقد حيَّت شهرته وجنّبته أن يعيد المسار نصف البرّي ونصف البحري حتى مرفأ رائس الذي يشرف على الصعود إلى المدينة المقدّسة.

بعد تلك السنة التي قضاها في العزلة والتنسّك الكامل المستوحيين من الرغبة

الوحيدة في المثول الإلهي، كيف يمكن لعبد القادر، الذي يحتفظ بهذا الجزء من الملكية التي يذكرها القرآن الكريم:

﴿ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث﴾ (١٢، سورة يوسف ١٠١)، كيف يمكن أن ينصاع لألاعيب سياسة الأوروبيين، وقد كتب:

أتصعقنا بينما المعبود ينادي

«إن الحُكْم إلّا لله»، «لامعقّب لحكمه».

ومع ذلك ففي تلك السنة ١٨٦٤ ينشط مشروع قناة السويس! ومرّة أخرى أيضاً لايمكن للإنسان الكامل أن يزدري العالم؛ وهو لاينسحب منه، لكنه لاينتمي إليه. فاكتمال الحياة الروحية لايتمّ بالهرب، إنّما بالحضور في المجتمع؛ واتصل بفرديناند دلسبس، وكانت الأمور قد تغيّرت منذ رحلة الأمير السابقة إلى مصر في مطلع العام ١٨٦٣، حيث زار موقع القناة، وشرحت له تفاصيل تقنية عديدة. أمّا الآن فالخديوي محمد سعيد قد توفي، وحل محله ابن أخيه اسماعيل، وهو أكثر ميلاً للمشروع الانكليزي منه لمشروع دي لسبس، غير أنه ينزل الأمير عبد القادر في قصر فخم، مصيف كامل، حيث وفد للترحيب به والسلام عليه أعيان المسلمين، والمسحيين، واليهود، والبدو، والأجانب؛ مما أثار عيرة الخديوي خاصة وأنَّ عليه حلّ قضية شائكة تتعلّق بملكية كبيرة منحت للأمير بين الإسماعيلية والتل الكبير في منطقة بير أو بلح - واختلف حول الجهة المانحة أهي شركة القناة، أم الخديوي؟ - وهكذا ففي العام ١٨٦٩، عند تدشين القناة كان استقبال الخديوي اسماعيل للأمير عبد القادر، عند نزوله من الفرقاطة التي وضعها الإمبراطور نابوليون الثالث تحت تصرفه، متسماً بالبرود. ذلك أن القضية تجاوزت الممثّلين أنفسهم بسبب طريق الهند، فدائماً هو السبب!.. بينما يهيءّ الله لمخلوقاته الدروب كما يشاء.

﴿وردُّوا إلى الله مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ماكانوا يَفترُون فذلكُم الله ربكم الحقُّ، فماذا بعد الحقّ إلا الضلال فأنّى تُصرَفون﴾ (١٠، سورة يونس، ٣٠، ٣٢). إنّه الخافض، الرافع.

التلاقي الماسوني

يكتب عبد القادر في أشعاره الصوفيّة:

«فليس يدري الذي أقول غير فَتَى   قد جاوز الكون من عَينٍ ومن رُتَب»

كما يكتب في رسالته الجهرية إلى الفرنسيين:

«الدين واحد. ولو يعيرني المسلمون والمسيحيون انتباههم لقضيت على اختلاف وجهات النظر بينهم، ولغدوا أخوة في الداخل وفي الخارج...».

بعد أحداث دمشق الدامية، غُمر عبد القادر برسائل التقريظ والأوسمة، وأتاحت له هذه القضية أن يلتقي مرّة أخرى مع الماسونيين: مرّة أخرى، بالرغم من أننا لانعلم متى، وماهي مناسبة اللقاء الأوّل. والواقع أن بعض جهات الاتصال بينه وبين بوجو - الماسوني نفسه - كانوا من الماسونيين، من بن دوران إلى البارون دي ميشيل، مروراً بالمترجم المشؤوم المقدّم عبد الله. وهذه المرّة كانت الأشياء أكثر استقامة، لكنها ليست أقلّ غموضاً. وهكذا فمنذ أن تلقى الرسالة الأولى من «محفل الشرق الكبير Grand Orient» في فرنسة، وهي تهنئة على تصرفه، عمد الأمير إلى الاستماع إلى شروح عن أهداف هذه الجمعية ونشاطاتها، ومداخلها ومخارجها، يقدّمها له أحد أصدقائه، وهو لبناني ومن الماسونيين القلائل العرب، والمسلمين القلائل في تلك الفترة، وهو شاهين مكاريوس الذي ربطته بعائلة الأمير صداقة حميمة بحيث وجّه فيما بعد اثنين من أبناء الأمير وهما محيي الدين، الابن البكر، ومحمد، إلى الانتساب إلى محفله «فلسطين» في بيروت. بينما انتسب ابن ثالث لاحقاً وهو الأمير عُمَر إلى محفل «النور» في دمشق وانتهى إلى رتبة عليا في محفل «معجبي الكون» في باريس، كما كان ابن رابع للأمير هو علي خليل ماسونياً أيضاً. وكلهم تابعون إلى الجهات الوصائية الانكليزية في الجمعية. أخيراً فإن العديد من أحفاده كانوا ماسونيين، حتى من كان منهم في الجزائر مثل أبو طالب (محيي الدين ابن أحمد) في العام ١٩٠١.

ليس لدي برهان عما إذا كان قد تحدّث عن ذلك إلى شرشل أوّل من نشر سيرته الذاتية وأشار (في العام ١٨٦٧) إلى مسارّة الأمير؟ وكان قادة الماسونية البريطانية في تلك الفترة من العسكريين والقناصل؛ والأخوة الماسونيون يتنقّلون كثيراً بين مصر ولبنان وسورية. وتتميّز شهادة أحد الماسونيين الزائرين الأمريكيين وهو روبير موريس[1]

١ - انظر ت. زارغون، ١٩٩٣: لما كان بعض المؤرخين الجزائريين قد شككوا في تأكيداتي وحتى في الوثائق والمراجع التي نشرتها جزئياً في بعض المجلات المتخصصة، وجب أن أفصل في سرد هذا الحدث.

بدقتها، وهو يتحدّث عن لقاء أجراه في دمشق بتاريخ ٧ نيسان ـ ابريل ١٨٦٨، حيث صحبه الأخ ناصيف مشاقة بعد اجتماع ماسوني إلى الأمير الذي قام «بمعانقته على الطريقة الأخوية الماسونية» وكان حاضراً في ذلك اليوم عدا أبناء الأمير الماسونيون، جوزيف بيلاستر J. PILASTERE الماسوني الفرنسي من محفل «الحقيقة» في مرسيليا، وكذلك عدة أعضاء إنكليز، وإيرانيين، وأتراك، ويونانيين، من محفل «فلسطين» في بيروت؛ وبعض أفراد عائلة العظم المعروفة في دمشق. وكان عبد القادر نفسه مدرج الاسم في جداول محفل «سورية» في دمشق دون أن يتوفّر برهان على حضوره اجتماعات ذلك المحفل.

غمرت القوى الغربية الأمير الشهم بمظاهر الإمتنان والإعجاب بعد قضية مذابح ١٨٦٠: رسائل، وهدايا، وأوسمة، وزوار تتتابع على دمشق وغصّ الرَدْبُ الصغير في باب الفراديس بالوفود حاملي الهدايا: فانكلترة قدّمت له بندقية مضاعفة الماسورة مطّعمة بالذهب؛ والولايات المتحدة مسدسين؛ وقدّم له الفرنسيون وسام جوقة الشرف من المرتبة الأولى، والروس وسام النسر الأبيض، والبروسيون وسام النسر الأسود، واليونانيون وسام «المخلّص»، والإيطاليون وسام «موريس واليعازر»، وجزيرة سردينيا صليبها وكذلك البابا بيوس التاسع، وبالطبع منحه السلطان العثماني النيشان المجيدي الهمايوني من المرتبة الأولى. كما بدرت من العالم الإسلامي ردّات فعل مماثلة، كان أفضلها في نظر الأمير تلك الرسالة[1] التي وردته مَن البطل القوقازي محمد شامل أفندي المنفي في روسية.

«إلى من اشتهر بين الخواص والعوام، وامتاز بالمحاسن الكثيرة عن جملة من الأنام، الذي أطفأ نار الفتنة قبل الهيجان، واستأصل شجرة العدوان والتي ثمارها ليست سوى وجه الشيطان».

الحمد لله الذي منح خادمه القوة والإيمان. إننا نتحدث عن الصديق الوفي والحقيقي عبد القادر العادل.

السلام عليكم، وليحمل نخيل الاستحقاق والشرف على الدوام ثماره بشخصك وبعد اعلم أنه عندما قرع سمعي ماتمّجه السماع، وتنفر عنه الطباع؛ وألمحّ هنا إلى

١ ـ الرسالة موجودة في تحفة الزائر (ص٦٦٢ ـ ٦٦٣)، وفي كتاب: «فارس الجزائر، الأمير عبد القادر» للعماد مصطفى طلاس (ص٣٢٠ ـ ٣٢١) وهي هنا أقرب إلى النص المدوّن بالفرنسية (المترجم).

الأحداث التي جرت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والمسيحيين، حيث تصرف الأوّلون بأسلوب غير لائق باتباع الإسلام، وربّما كان يفضي إلى إمتداد العناد، بين العباد، في تلك البلاد، مما ألقى ظلاً من الكآبة عل روحي، والعبوس على طلاقة وجهي، وقلت بيني وبين نفسي: ظهر الفساد في البر والبحر، بسبب شرور وحقد الإنسان.

وقد دهشت كيف عمي من أراد الخوض في تلك الفتنة العظيمة من الولاة عن حديث رسول الله ﷺ: «الا من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقّه، أو كلّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة.

آه! يا للكلمات السامية! ولكن عندما علمت أنك آويت المسيحيين تحت جناح الطيبة والمحبة، وأنّك تصديت للذين يتصرّفون خلافاً لإرادة الله تعالى وربحت سعف النصر في مضمار المجد، باركتك كما أن الله العلي القدير سيباركك يوم لاينفع مال ولابنون.

والواقع أنك أحييت كلام الرسول الأكبر، الذي أرسله الله العلي القدير رحمة للعالمين، ووضعت حاجزاً ضد من يتجرأ على سنّته بالمخالفة، نعوذ بالله ممن تجاوز حدود الله.

وأنا متلهف لأعبّر لك عن الإعجاب الذي أكنه لتصرفك، أسارع لأوجّه إليك هذه الرسالة كنقطة فيض من ينبوع مشاعري الودّية السيّيء الحظ؛ بمشيئة المعلم الكبير قد وقع بين أيدي الكفار.

١٢٧٧ هـ شامل المنفي

لم يستطع عبد القادر إلا أن يفكّر بقدرهما المشترك، فتعدّى جوابه[1] عبارات المجاملة إلى خلاصة عن مسيرته الخاصة، مع التأكيد على أن تصرفه يعود إلى عواطفه «الشريفية» وإلى شعوره كحامٍ لأهل الكتاب.

«الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيّدنا محمد، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

---

١ ـ هذا الجواب موجود أيضاً في «التحفة (ص٦٦٣ ـ ٦٦٤) وفي كتاب العماد طلاس «فارس الجزائر» (ص٣٢٢ ـ ٣٢٣) واعتمدت على نص التحفة إذ يبدو أنه نسخة عن الكتاب الأصلي للأمير (المترجم).

إنّه من الفقير، إلى مولاه الغني، عبد القادر بن محيي الدين الحسني، إلى الأخ في الله ـ تعالى ـ والمحبّ من أجله: الإمام شامل، كان الله لنا ولكم في المقام والرحيل. وسلام الله عليكم ورحمته وبعد، فإنه وصلني الأعزّ، كتابكم، وسرّني الألذّ، خطابكم. والذي بلغكم عنا، ورضيتم به منا، من حماية أهل الذمّة والعهد، والذب عن أنفسهم وأعراضهم بقدر الطاقة والجهد هو ـ كما في كريم علمكم ـ مقتضى أوامر الشريعة السنية، والمروءة الإنسانية. فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق. وهي مشتملة على جيمع المحامد، الموجبة لإئتلاف اشتمال الأطواق على الأعناق، والبغي في كلّ الملل مذموم، ومرتعه وخيم، ومرتكبه ملوم، ولكن يُقضى على المرء في أيام محنته حتى يرى حسناً، ما ليس بالحسن «فإنا لله، وإنّا إليه لراجعون». على فقد أهل الدين، وقلّة الناصر للحقّ والمعين، حتى صار من يَظُنّ من لاعلم له أن أصل دين الإسلام: الغلظة، والقسوة، والبلادة، والجفوة!! فصبر جميل، والله المستعان ومنذ زمان بلغنا وصولكم إلى عند قيصر روسية، وأنه يعاملكم «بما هو أهله» من الإحسان، وأنزلكم من الإكرام أرفع منزل ومكان. وسمعنا أنكم طلبتم منه تسريحكم إلى الحرمين الشريفين (مكة والمدينة). فنسأل الله أن يجيب مطلوبكم، وينيلكم مرغوبكم...

وامبراطور روسية من أعظم ملوك الأرض شأناً، وأحرصهم على تخليد المفاخر في بطون الدفاتر، فنرجو لكم من حضرته الفخيمة حصول الأرب، بلا نَصَب ولاتَعَب. كما فعل معنا الإمبراطور نابوليون الثالث، فإنّه فعل معنا من سنيّ الأفعال ما لم يخطر لأحد في بال. والمرجو ـ في الحقيقة هو الله المعبود، لامعبود سواه».

في هذا السياق من الغبطة بدا أيضاً الماسونيون في تهنئتهم للأمير، بإرسال الهدايا، وبالرسائل التي تعبر جيداً عن شعور الفرنسيين حيال المجاهد الجزائري في الفترة التي كان نابوليون الثالث يحلم فيها بمملكة عربية جاءت الرسالة الأولى من المحفل الباريسي «هنري الرابع»، الذي قدم أولاً للأمير حلية، وهي مدالية[1] معبّرة برموزها اهتم لها

١ ـ أعيدت هذه المدالية إلى G.O (الشرق الأكبر) بتاريخ ١٣ تشرين أوّل ـ اوكتوبر ١٩٤٧ (الرسالة ٢٩٩٧) من قبل عبد الرزاق عبد القادر أحد أبناء أحفاد عبد القادر من الجنسية الفلسطينية في الأرض العربية المحتلة. والمدالية موجودة في متحف شارع كاده CADET. ومن أجل هذا القسم قمت بالتنقيب في ملفات G.O وسجلات محفل هنري الرابع والمقالات والنشرات المتعلقة بهذا الموضوع وأعددت عنها ثبت مراجع شبه كامل للمجلة الماسونية «الزردة Le MAILLON» عدد نيسان ١٩٨٣.

الأمير وهي تتألف من دائرة موضوعة ضمن مربع مضاعف وفي المركز على أساس من ميناء أخضر، كوس مثلث علّقت عليه عناصر نظرية مربع فيثاغورث. وأمكن لعبد القادر أن يقول في نفسه إنّ في جعبة الماسونيين شيئاً يستحق الاهتمام.

«أيّها الأمير الشهير

أينما تبرق الفضيلة، ويعمّ التسامح وتُمجّد الإنسانية، يهرع الماسونيون ليهلّلوا وليقدّموا التقدير لمن عرف، مع بذل أكبر التضحيات، كيف يتمم صنيع الله على الأرض، ويقدم للمظلوم دعماً حافظاً منزّهاً عن كل غرض. ذلك لأن الماسونية تعتبر هؤلاء الرجال منهم، وأنّهم يسيرون على طريقهم، وهي تشعر بالحاجة لرفع الصوت عالياً لشكرهم ومباركة همتهم باسم الحظ العاثر، والمجتمع، والمبادئ السامية التي تستند إليها.

لهذا السبب، جئنا أيّها الأمير الشهير، نحن أعضاء المحفل الماسوني «هنري الرابع» و«شرق باريس»، بعد العديدين غيرنا، إنّما بذات الحماسة والعرفان بالجميل، لنضيف زهريّة إلى تاج التبريكات الذي يضعه العالم المتمدن فوق هامتكم الجليلة النبيلة، ولنقدّم قسطنا من الإعجاب إلى من سما على أحكام إدانة مسبقة مصدرها الإنغلاق والتزمّت في الدين، وتجلّى إنساناً قبل كل شيء، فلم يستمع إلّا إلى إيحاءات قلبه ليضع حاجزاً حصيناً أمام الهيجانات البربرية والتعصب.

نعم إنّك فعلاً الممثّل، والنموذج الحقيقي لتلك القومية العربية المجيدة التي تدين لها أوروبة بالقسم الأعظم من المدنية والعلوم التي نوّرتها. ولقد برهنت بتصرفاتك، وشهامة طبعك على أن تلك الأرومة لم تنتكس، وأنها إن بدت خامدة فيمكن أن تستيقظ لتحقق إنجازات عظيمة بحوافز عبقرية قادرة كعبقريتك، فبعد أن دعمتها بسيفك وحققت لها مجداً وكبراً عرفت فرنسة - وقد كانت غريمتك - كيف تقدّرهما وتنظر لهما بإعجاب، وها أنت تعظمها بالشهامة والتضحية اللتين برهنت عليهما مثبتاً أسس حضارة أشادها أمثال عمر وابن رشد، والفارابي، وهم قدوة المحاربين، والعلماء والفلاسفة الذين تعتز بهم أمتكم وبحقّ.

لك إذاً، أيّها الأمير الشهير، لك المجد والشكر مجدّداً! وليحقّق الله الذي نعبده جميعاً، هذا الإله الذي يقيم عرشه في أعماق كل القلوب الكريمة، ليحقق مشيئته على

يديك! ألا يبدو في الواقع أنه قد قادك، بعد العديد من التقلّبات، وبتدبير خفي من عنايته الإلهية إلى وسط هذه المناطق لتبدّد منها غياهب الجهل، ولتخمد سعير التعصب الأحمق، ولترفع إلى مرتبة الشعب المتمدّن هؤلاء التعساء الذين ضلّلهم الجهل؟ وهكذا فنحن نتكل على العناية الإلهية منتظرين هذه النتيجة بتأثيرك الوَرِع وبنفوذ معارفك وفضائلك.

إنَّ الماسونية الحرّة التي يقوم مبدؤها على الإيمان بالله وخلود الروح، وتؤسّس أفعالها على محبّة الإنسانية وممارسة التسامح والأخوة الشاملة لايمكنها إلا أن تشهد ببالغ التأثّر العبرة الكبرى التي تعطيها للعالم. وهي تعترف بك وتعتبرك واحداً من أبنائها (بالمشاركة بالأفكار على الأقل) وأنت الرجلُ الذي مارس، بدون تفاخر، وبإلهام أوّلي، شعارها السامي: «الواحد للكلّ».

بهذا الشعور، أيّها الأمير الشهير، يجد محفل هنري الرابع، وهو مجموعة صغيرة من العائلة الماسونية الكبرى، من واجبه أن يوجه لكم هذا التعبير البسيط إنّما الصادق عن عميق مودّته، وأن يقدّم كعربون احترام حليته الرمزية. هذه الحلية التي لاقيمه لها إلا بدلالات رموزها: الكوس، والمسواة، والفرجار؛ والعدالة، والمساواة، والأخوة؛ لكنها حلية تلتمع على صدور مخلصة للإنسانية وتستهيم حباً بأمثالها. وبهذه الصفة نقدمها لكم، وإذا تكرّمتم بقبولها، وعندما ستلقون نظرة عليها، ستقولون في أنفسكم: إن هناك بعيداً في الغرب قلوباً تخفق في توافق مع قلبكم، ورجالاً يبجلون اسمكم، وأخوة يحبونكم كواحدٍ منهم؛ وسيكونون فخورين إن أتاحت لهم روابط أكثر وثوقاً ليعتبروكم في عداد المؤيدين لمؤسستهم.

شرق باريس، في ١٦ تشرين ثاني ١٨٦٠ من التاريخ الميلادي.

وبما أننا نعلم بوجود دعوات عديدة وُجهت إلى الأمير، فمن المهم أن نتساءل لماذا لم يجب إلّا على هذه (هذا إذا لم تكتشف رسائلَ جديدة في الملفّات). إن قسماً من الجواب موجود تماماً في هذه الرسالة. فأولاً هناك دعوة واضحة: إنّها تقترح على الأمير أن يغدو في آن واحد ابناً لهذه الماسونية التي تقول الرسالة إنَّها أم جميع ذوي الإرادة الطيّبة الذين يمارسون الأخوّة، وأخاً لمجموعة الماسونيين الأحرار الذين يقولون عن أنفسهم إنهم «أبناء الأرملة»، وعلاقة أب ـ أخ تستتر

كثيراً في أخوية يقتل أعضاؤها «رمزياً» المعلم المؤسس حيرام[1] في طقوس ودرجة إكمال.

يتعلق الأمر هنا بنداء مضاعف باتجاه العقل الباطن للأمير الذي اهتم بعد إخفاقه السياسي في البحث الصوفي (لكن هل عرف عنه ذلك في تلك الفترة؟، وهل كان الماسونيون يعرفون ذلك عنه؟ هذا مايُشكُّ به). فالماسونيون الأحرار يقترحون إذا في آن واحد الاندماج الارتدادي، والتجربة الأخويّة، إنّما الاستيهامية إذ أن الأمر ليس في هذا الوارد دون عقدة اندساس.

أعتقد أن الأمير قد تحسّس بهذه الدعوة، إذ لايمكنه إلا أن يبتسم للصورة الثلاثية التي يقترحها الماسونيون للإسلام: فقراءتهم مناقضة لقراءته، فالماسونيون يفكّرون بالقوة المقاتلة (عمر صورة الأمير المقاتل التي ستتكرّر في كل هذه القضية) وبالعلم (ابن رشد، وتذكراتهم عن تقدّم العرب في هذا المضمار)، والفلسفة (الفارابي)، والواقع حتى في هذا الحال فإن الأمير لايفكر إلا بالمعرفة الروحية، وبالشجاعة، وبالحسيّة؛ كما ستلاحظ في إجاباته الخاصة فيما بعد، وهذا ماسيطرح مشاكل في الترجمة أمام الأخوة...

نمتلك على الأقل رسالة أخرى موجهة إلى الأمير تؤكّد فرضيتي، وهي تبدو عند القراءة الأولى وكأنها تمثل الصورة الفرنسية ذاتها لعبد القادر حامي ضحايا التعصب، وهي رسالة محفل «الصداقة المخلصة»، وموقّعة من قبل مورا MURAT، الذي تذكّر أنه أحد رؤساء الماسونية عبر O.P.A النابوليونية والشغوف بالدراسات المصرية[2].

لمجد مهندس الكون الأعظم.

محفل القديس يوحنا المعروف بمحفل «الصداقة المخلصة» والموضوع تحت إشراف شرق فرنسة الكبير.

---

١ ـ يعتقد أن حيرام إيبور المستشار اليهودي لهيرودوس أغريبا ملك فلسطين هو المؤسس الأول للماسونية في العام ٤١ م وسميت في حينه «القوة الخفية». وكان حيرام قد فقد أباه وهو طفل فأطلق عليه اسم «ابن الأرملة» ولذلك يسمى الماسونية أنفسهم، وهم أخوته «أبناء الأرملة» وقد ذهب حيرام إلى صور ليفتش عن عمه حيث قتل أو مات ونهشت جثته الطيور الكواسر، وفي مطلع القرن العشرين حضر أحد الماسونيين الأمريكان وهو درايم ريغر إلى صور، وفتش لمدة سنة إلى أن اهتدى إلى المكان الذي مات فيه فنصب له قبراً وعليه شعار الماسونية، وكان يؤمه الماسونيون للزيارة (عن كتاب سعيد الجزائري ـ الماسونية. مؤسسة النوري ـ دمشق ـ ١٩٨٦) (ملاحظة المترجم).

٢ ـ من دراسة للمؤلّف بعنوان: «من شرق إلى آخر» باريس ـ المركز الوطني للأبحاث العلمية ١٩٩١.

إلى الأمير عبد القادر، نسأل الله له الحفظ والرشاد!

نحن جمعية الماسونيين الأحرار نردّد معك: لا إله إلا الله.

وليس لنا إلا مبدأ واحد: هو المجد لله مهندس الكون الأعظم!

والحب الأخوي لجميع أبناء البشر أبناء الله الأب الواحد.

الواثقون بالعدالة الإلهية الضامنة لخلود الروح.

نوجّه لك أيّها الأمير الورع هذه البادرة الودية لموقفك البطولي والنبيل وسط التعصب الرهيب الذي كسا بالحداد سورية بكاملها.

فليباركك الله، أيّها الأمير الحكيم الباسل في هذا السلوك الديني المستوحى من عاطفة الأخوة الإنسانية أكثر منه من تسامح بسيط.

ألم يتوقع الله، والذي لم يخلق كائنين متماثلين تمام التماثل حتى ولا ورقتي عشب أو حبتي رمل، طرقاً مختلفة لفهمه وعبادته؟

وما أهمية هذه الفروق إذا كنا جميعاً ننضوي تحت فكرة عدم إمكان خدمة الله بشكل حقيقي إلا بالعمل في محبة ليستنير ويساعد بعضنا بعضاً الآخر. إن الله هو الأب السامي: أو ليس السلام، والاتحاد، وسعادة جميع أبنائه المتمتعين بالعقل والحرية، مجده الأعظم؟

على هذا الأساس، نحن جمعية الماسونيين الأحرار المنتشرين في كل أرجاء الأرض، بعدد مايزال قليلاً في الواقع، سنكون معك دائماً، دعاة الأخوة الإنسانية والمدافعين عن حرية المعتقد، وكذلك عن استقلال الشعوب التي تحترم حقوق الجميع.

إليك إذاً أيّها الأمير الورع تحية الأخوّة بالله، أبينا المشترك، وليحقق الله السعادة لعائلته والإزدهار لك في جميع مشاريعك الحقّة».

هذه الرسالة في الواقع، تختلف كليّاً عن السابقة، فهي أكثر تقيّداً بالشكل المسيحي منها بالشكل الإسلامي، بالرغم من أن هذا المحفل يضم في عضويته سفير الشاه وعدداً من الشخصيات الفارسية المسلمة. وبينما جهد محفل هنري الرابع بأن تتطرّق رسالته إلى بعض المعارف الثقافية العربية الإسلامية، فإن نصّ هذه الرسالة، فيما عدا الترجمة التقريبية للصيغة الإسلامية المؤكّدة لوحدة الله الأحد، إذ أنها تبدأ بشهادة «لا إله إلّا الله» يؤكد على الآب، «الأب المشترك» و«مهندس الكون الأعظم» و«الله»؛

بينما رسالة محفل هنري الرابع، لاتلمّح إلا إلى «الله الذي نعبده جميعاً» ولكن يمكن أن يكون عبد القادر قد تحسّس بصيغة «العرش... في أعماق كل القلوب» الذي يتناسب مع مفاهيم **العرش والذكر** في القلب، ولكن يمكن أن يكون أيضاً قد اهتم بفكرة الواحد والمتعدّد الأشكال في الرسالة الثانية.

أراني، وأنا مازلت في موضوع اختيار الأمير الردّ على رسالة المحفل الأوّل، مضطراً لوضع فرضية. الواقع أن عبد القادر قد فضّل مقولة الأم ـ الأخوة، على مقولة الأب ـ الأخوة، ليس لأنه مسلم، وبالتالي فهي رؤية مثالية، لكن بالأحرى لأنها واقعه المغربي المعاش، وليس لديه في الواقع لاشعور مبني بطريقة أوديبية؛ خاصة وأن أباه قد لعب دوراً رئيساً في توجيهه: فمحيي الدين حتى في اسمه، وكذلك عبر الطريقة القادرية هو في أساس ميل عبد القادر نحو ابن عربي. فالأب الموجّه والمعلم يحملان كلاهما الاسم ذاته وهو يعني «منعش ومجدّد الدين» والواقع أن الأمير لايمكن أن يؤمن بالصدفة، لأنه سلك في آمبواز طريق إبراهيم القرآني، وكالصديق الحميم، قد أوضح الانكشاف، فهو لايأخذ بالرؤيا ولا بالحلم، بحرفيتهما.

ومن جهة أخرى فإن أمّه، التي يذكرها دائماً في رسائله، بكلمة **الوالدة**، وفق المتداول في المنطقة الوهرانية، قد توفيت مؤخّراً[1]، وبذلك تحرّر من أجل مسيرته الأخيرة، وهكذا مافتئ بين عامي ١٨٦١ و ١٨٦٥ يسافر بما فيها حجّه إلى الأماكن المقدّسة. وقد كانت العقبة الأخيرة أمام تحقيق الأقل من مساراته. وكان يقول فيما بعد لمن يلومه على ترك عائلته: «صحيح أن عائلتي عزيزة عليّ، لكن الله أعزّ». وفي حديث نسب إلى البخاري عن أبي هريرة أنه قال: وفد أحد الأشخاص على رسول الله ﷺ وسأله:

«يا رسول الله من أحق برعايتنا.

أجاب الرسول ﷺ: أمّك.

ـ ثم من؟

---

١ ـ وبهذه المناسبة فإن رسالة غريبة وديّة من عبد القادر إلى ليون روش تزيد من غموض العلاقة مع هذا الشخص. فلو أن هذا الأخير لم يكن حقاً إلا ذلك الخائن، كما يذكر الوطنيون الجزائريون هل يكتب له الأمير: «لقد لفظت الشهادة بين ذراعي، ولقد أحبتك كأحد أولادها، فليكن حزنك عليها كحزننا، ونسأل الله أن تكون آخرتنا كآخرتها».

ـ أمّك.

ـ ثم من؟

ردّ الرسول للمرة الثالثة: أمّك.

ـ ثمّ من؟

ـ ثم أبوك».

والنبي يعتقد أن الخضوع لله لايتعارض مع البر للوالدة لأنه كان «يتيم الأب والأم» والعبد للعلي القدير، عبد القادر، قد ترك أمه ـ أم الكتاب ـ بناءً على ديانة الأب والمعلم، ليتمكن عندئذ من الالتحاق بأمّ المدائن. وقد علّمته أمّه لالا زهرة القراءة؛ وعلّمه محيي الدين أنّ عليه أن يغادر مسقط رأسه لأجل الحجّ، أما المنفى فقد أتاح له أن يتخلّى عن الأرض الأم ليتقدّم في طريق الله.

لكن الماسونيين لايعرفون كل هذا، ولدينا البرهان في رسالة نشرها ياكونو Yacono في مؤلّفه عن الماسونية الجزائرية[1]. فبعد أن ترأس مادول Madaule إقامة محفل سيدي بالعباس، وجب عليه السفر في المنطقة، وفي تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٨٦٧ كتب إلى المشرق الكبير رسالة فيها بعض الغرابة فقد قال:

«عدت من جولة قمت بها في القبائل التي تفصلنا عن مراكش، والتي تمارس شعائر إسلامية، سبق لعبد القادر ممارستها والتي يمكن تسميتها الشعائر الحرة لموريتانيا. إن توجيه البريد إلى فرنسة خلال بضع دقائق يضطرني إلى تأجيل ذكر التفاصيل المثيرة للفضول، والواجب تبليغكم إياها حول هذا الاكتشاف الهام. إنني آمل أن أتمكن من توجيه هذه الطاعة الرهبانية الجديدة للخضوع لقوانينكم.

ويضيف ياكونو: هذه «الطاعة الرهبانية» الجديدة قد لاتكون إلا أخوية القادرية المشهورة التي اعتمد عليها عبد القادر. وهكذا بعد سبع وثلاثين سنة من الاستيلاء على مدينة الجزائر، يجهل أحد أقطاب الماسونية، الصديق للعرب، والمتكلم بلغتهم على

---

١ ـ المؤلف: قرن من الماسونية (١٧٨٥ ـ ١٨٨٤) غير أن ياكومو قدْ كتب مقالاً عن الأمير الماسوني في مجلة «شرق كبير فرنسة G.O.D.F» (الإنسانية Homanisme ـ رقم ٥٧، أيار ـ مايو ١٩٦٦: ٥ ـ ٣٧ اعتباراً من وثائق متوفرة في تلك الفترة ضمن ملفات G.O.D.F.

مايبدو بوجود الأخوّيات! من المؤكّد أن الوصول إلى الملغمة بين الأشخاص غير المتعارفين يقتضي السير في طريق طويل».

هذا ما يجعل أيضاً هذا الغموض في رسالة محفل هنري الرابع، وكذلك في النصوص التي سأعرضها لاحقاً أكثر إثارة للذهول. إنّها تتناول جميعها هذه التفاهات المبتذلة السائدة في ذلك العصر عن الشرق، ولكنها في الوقت نفسه تعرض مظاهر إيجابية جداً في تمثيل الماضي والنظر إلى مستقبل ممكن عبر تلميحات إلى «القومية المجيدة... وشهامة تلك الأرومة التي لم تنتكس وإنّما تبدو خامدة... ويمكن أن تستيقظ لتحقيق إنجازات عظيمة... تتجلّى بالشهامة والتضحية... عدا ما حوته من أسلاف عظام نقلوا الثقافة إلى أوروبة...» مع ذلك تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الصورة تتوافق عمليّاً مع تلك التي سيبرزها بعد عدة سنوات باعثو النهضة العربية في باريس كما في أمكنة أخرى، من جمال الدين الأفغاني إلى الكواكبي وحتى. فيما بعد إلى حزب «البعث» والواقع أننا نعرف، منذ أطروحة تييري زركون، وأبحاث فنسان كوش، أن أحد عوامل تلك الإيديولوجية الجديدة يعود، جزئياً إلى المحافل الماسونية؛ إذ يوجد هنا تلاحق مدهش إلا إذا كان هناك خدعة أو إخراج آخر في تاريخ ليس له، دون شكّ، ذات المعنى، بالنسبة للصوفيين وللمؤرخين. لكن يجب ألا ينسينا هذا غموض مسعى عبد القادر كما سأبيّنه في اللامنطق الذي يرتكبه الماسونيون في تفسيرهم؛ إضافة إلى أنّه لايمكن من شرح المظاهر السلبية كليّاً، التي ينشرونها في الوقت ذاته عن صورة الشرق. وإذا استثنينا ملاحظة سأقدّمها لاحقاً عن تسامح الإسلام لدى مادول. هذا القطب الذي سيلعب دوراً كبيراً في نشر الماسونية في الجزائر - يبدو واضحاً عبر جميع هذه النصوص أن الخطاب الماسوني يرتكز بشكل مطابق على مفهوم ذلك العصر أي نظرة الغرب إلى الإسلام من كنيه Quinet إلى رنان Renan، مروراً بسيلفتسر دي ساسي De sacy؛ وهو مفهوم ليس مستقلاً أبداً، ويقابل «الجهل» و«الجريمة» و«التعصب» و«البربرية» «بمشعل الحقيقة» وهكذا **فما من جديد تحت الشمس.**

لايُستثنى الماسونيون الأحرار من القاعدة وهم يعيدون هذا الخطاب بعينه حتى عندما يتعلق الأمر بنَغَم يضيفونه للإشادة ببطلهم الجديد. ولأبين ذلك اخترت فيما يلي سرداً تعظيمياً لأحداث دمشق، مجرّدة من سياقها، لإعطاء عبد القادر مجدّداً مكاناً متميّزاً في التصوّر الشعبي، بينما السلطات الفرنسية ماتزال حذرة منه كما يبيّن السرد التاريخي للوقائع.

التعظيم الماسوني

إنه متضمّن في نشرة خاصة صادرة عن شرق فرنسة الكبير G.O.D.F (تحت رقم ٢٩٣، العام ١٨٦٥، ٤٢ ص)، وهو مكرَّر فيما بعد من قبل جميع المؤلفين اللاحقين؛ من هذه الوثيقة أنطلق إذاً، مع تصحيح بعض الأخطاء وخاصة تلك التي تعود إلى الترجمة عن رسائل أصلية.

«- توقفوا، فما زال أمامكم الوقت، وإذا لم تستمعوا إليّ فهذا يعني أن الله لم يمنحكم العقل وما أنتم إلا بهائم لاتتحرك إلا عند مرأى العشب والماء. صرخ المتجمهرون بغيظ كصرخة الرومان سابقاً في الحلبات: المسيحيون! المسيحيون! سلّمنا المسيحيين، الكفرة، وإلا سنشملك بالعقوبة ذاتها ونلحقك بأخوتك.

- أجاب عبد القادر وعيناه تبرقان بالشرر لن تصلوا إلى المسيحيين مادام واحد من جنودي البواسل على قيد الحياة. إنّهم في حماي، يا قتلة النساء والأطفال! وأبناء المعصية. جرّبوا إذاً أن تنتزعوا واحداً من هؤلاء المسيحيين الذين ألجأتهم إليّ وأعدكم بأنكم سترون يوماً رهيباً، لأنكم ستتعلمون كيف يتقن جنود عبد القادر استعمال البارود.

ثم التفت نحو مرافقه الأمين قره محمد، قائلاً:

- قره، إليّ بحصاني وسلاحي، وأنتم يا رفاقي المغاربة، فلتبتهج قلوبكم، والله على ما أقول شهيد، سنقاتل من أجل قضية بمثل قدسية القضية التي قاتلنا من أجلها سوية في السابق.

صرخة الحرب هذه كانت نهاية الصراع، وستبقى منقوشة في ذاكرة كل مُعترف بالجميل في العالم المتمدّن، فقد أحدثت لدى الجميع رجّة انفعال حقيقية؛ لأنّها كشفت، وحدها فقط، عن قدرة العواطف الماسونية التي تعمر روح أخينا الشهير. نعم! كان ماسونياً مجيداً هذا الذي يسمي، دون تمييز بين الأجناس والأديان، جميع البشر أخوته، وكان مستعداً لبذل دمه من أجلهم.

هذا النصّ سيستخدم أساساً لجميع النصوص عن هذا الحدث لأكثر من مئة سنة: ففي عددنا الأخير (وهو يعود إلى مقال في مجلة العالم الماسوني، العام ١٨٦٥، ص٢٢٨) وبخصوص فكاهة أطلقتها صحيفة فرنسة La gazette de France ذكرنا أن الأخ عبد القادر قد انتسب في الاسكندرية (مصر) إلى محفل هنري الرابع. شرق

باريس. إنّما في محفل الأهرام تمّ انتسابه بتاريخ ١٨ حزيران - يونيو ١٨٦٤. لكن ما جهلته أو تظاهرت بجهله صحيفة فرنسة، التي تتهمنا بأننا أعداء المذهب الكاثوليكي، رغم احترامنا لجميع الأديان والمذاهب، هو أن الأمير الشهير، المتشيّع المتحمّس للقرآن، كما وصفته الصحيفة، قد قُبِلَ في الماسونية عقب تصرفه الرائع خلال مذابح سورية حيث أنقذ اثني عشر ألف وخمسمئة مسيحي من أيدي المتعصبين؛ وأن مؤسستنا لم تحرص على اعتباره من أتباعها إلا لأنه ظهر وسط هذه المشاهد من المجازر والدماء، وهو من سلالة الرسول ﷺ، ليس كممثل متزمت لشيعة وإنّما كنصير لمبادئ الأخلاق المستقلة عن كل فكرة فوق الطبيعة، المحترمة للشخصية الإنسانية متجاوزة كل الانقسامات والأهواء الدينية، وهذا ماهو، بالاستباق عمل ماسوني رئيس.

نتذكر أيضاً القدرة التي أبداها عبد القادر أمام هذا الجمهور الهائج الذي يطالب بسفاهة بالمسحيين الملتجيئين إليه، وهو محاط بيعض المخلصين له، وبدون سلاح، وهو يسعى إلى تهدئة الجموع وهو يقول لهم:

- آه! يا أخواني، إن تصرفكم خارج عن الدين. أنكون في يوم جهاد ليحق لكم قتل الناس؟ إلى أيّ درجة من الضعة قد هبطتم لأنني أرى مسلمين تلوّثت أيديهم بدماء النساء والأطفال. ألم تسمعوا كلام الله: ﴿من قتل نفساً بغير نفس، أو فساد في الأرض، فكأنّما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً﴾ ألم يَقُل لكم أيضاً: ﴿لا إكراه في الدين، ظهر الحق؛ وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً؟﴾.

توقفوا، فما زال أمامكم الوقت، وإذا لم تستمعوا إليّ، فهذا يعني أن الله لم يمنحكم العقل، وما أنتم إلا بهائم لاتتحرك إلا عند مرأى العشب والماء.

صرخ المتجمهرون بغيظ، كصرخة الرومان سابقاً في الحلبات: المسيحيون! المسيحيون!» مايلي هو السرد، مكرّر كلمة كلمة، ومثبت كالأصل في نحو عشر مقالات ظهرت في مختلف المجلات الماسونية، وعبر الصورة التي يرسمها الماسونيون للأمير، وعبر المهمة التي سيقترحها الفرنسيون والماسونيون عليه، يجب التوقّف لحظة هنا عبر إسقاطات لاواعية للماسونيين على عبد القادر في السرد التعظيمي الذي خُصّت به تصرّفات الأمير البطولية، وهي تصرفات تبرّر الاهتمام الذي وجهه إليه الماسونيون، يلح النص (ولا أقول النصوص لأنني متأكّد من تماثلها جميعاً، أليست هذه هي بعد كل حساب، خاصة تكوين الأسطورة؟!) على واقع أن الأمير يسمي جميع

البشر أخوة له. ويظهر هنا في آن واحد اعتبار الماسونيين هذه الصيغة من قيمهم الخاصة، وجهل بالإسلام.

إن عبد القادر يتصرّف ككل مسلم ورع تجاه أهل الذمّة/ المعاهدين، وهو يستخدم من أجل ذلك، في حالة الخطورة والعصيان، مفهوم وممارسة الحُرْم مما يعني الحماية في مكان مُقدس. وعندما يرى الماسونيون في ذلك بشكل رئيس مأثرة ماسونية بالاستباق! وأيضاً عندما يرى خطيب محفل هنري الرابع «علم التسامح يقابل علم النبي ﷺ» فذلك لأنهم لم يلحظوا أن هذا الفعل هو إسلامي بشكل رئيس، وأن هذه الكلمات قرآنية حصراً... وتعابير: «لا إكراه في الدين، وظهر الحقُّ وزُهِقَ الباطل» تعيد في الواقع إلى نصّ قرآني. أن يعتَبر الشرق موقعاً متميّزاً، ومرجعاً أسطورياً سالباً جزئياً، فهذا ماهو معروف، والماسونيون المشربون بهذه الصورة سينتهزون بادرة عبد القادر لنشر مبادئهم:

«كل أوروبة، وكل العالم المتمدن قد ارتعش ألماً واستنكاراً للأحداث التي أدمت سورية. وبينما كان التعصب يثير بهيجانه كتل الدهماء الجاهلين العميان لتنقضّ على المسيحيين التعساء؛ أحست الإنسانية التي أخرستها رهبة هذه التصرفات الوحشية بالعزاء عند رؤية مسلم، رجل حاربنا مدة طويلة يجعل من صدره الباسل الشهم درعاً لوقاية اخواننا.

لقد أنقذ الأمير عبد القادر مجازفاً بحياته اثني عشر ألفاً وخمسمئة مسيحي تعيس نذروا للسيف، وشمل الجميع بأحد هذه الأعمال المجيدة التي لايمكن نسيانها، وهكذا توجّهت إليه جميع الأنظار بالإعجاب، فكل من شعر في أعماقه بقلب ينبض بالنبل وحبّ الإنسانية هلّل للرجل الذي أعطى قدوة مثالية في التضحية والتسامح.

وقد تأثرت الماسونية بدورها أمام هذا التصرّف الذي يتماشى مع مبادئها وهدف إنشائها فقرّر محفل هنري الرابع، إلى جانب آخرين، أن يوجّه رسالة تهنئة إلى الأمير مع حلية كرمز تقدير.

ولم يتأخر جوّاب الأمير أبداً وكان يحوي طلباً صريحاً بالمسارّة. وأدرك محفل هنري الرابع أهمية هذه المسارّة لمستقبل الماسونية في الشرق، فاستقبل الطلب بمبادرة عاجلة، واهتم مباشرة بالسعي إلى تأمين وسائل تحقيقه. وكتبت رسالة أخرى إلى الأمير لاطلاعه على شروط المسارّة، وعلى الأسئلة التي يجب أن يجيب عليها. وقد أجاب

بالطريقة الأكثر صراحة ووضوحاً، بشكل أرضى المحفل الذي كلّف الأخ فنيز Vennez وهو آنذاك المحترم صاحب الرتبة الأولى فيه أن يتفاهم مع المشرق الأكبر في فرنسة حول الطريقة التي يمكن إجراء هذه المسارّة فيها نظراً للعقبة الكبرى الناتجة عن غياب العضو المُستقبَل.

رغب صاحب السمو الأمير لوسيان مورا L.MURAT أن يحقق للماسونية هذا الكسب المجيد فأعلن استعداده بكل طيبة خاطر لإجراء كل التسهيلات الممكنة لتحقيقه، وكنا نستعد لإتمام هذه المسارّة عندما قامت الأحداث التي عكّرت الانسجام الطيب في داخل المحفل وأدّت إلى تأخير مؤسف في التنفيذ.

وعند رفع المارشال مانيان Magnan إلى رتبة الأستاذية الكبرى، أراد المحفل متابعة مشروعه بناء على الصلاحية التي منحته إياها الإدارة السابقة. وقامت أمامه العقبات... وكنا نعرف أنّ في الاسكندرية محفلاً فرنسياً: هو محفل أهرامات مصر، وذكر في الوقت ذاته عن رحلة للأمير إلى تلك المناطق، وفكّر محفل هنري الرابع أن بالإمكان الوصول أخيراً إلى النتيجة المرغوبة عن طريق المحفل المذكور، وتمّت الكتابة إليه لاطلاعه على القضية بكاملها، واقترح عليه، عند الاقتضاء، إجراء مسارّة، الأمير باسم محفل هنري الرابع.

بحسن الالتفات، واللطف الماسونيين أعلمنا الأخ كوستو Custot، المحترم، أن محفل «أهرامات مصر» يضع كلّ شيء تحت تصرفنا، وسيتابع المساعي مع الأمير - الموجود آنذاك في مكة أو المدينة - للاستفادة من الفرصة السانحة عند توفرها - وأرسلت جميع الوثائق، وفي نهاية شهر حزيران - يونيو ١٨٦٤ علمنا رسمياً إجراء المسارة مع الأمير وتنسيبه في الدرجة الأولى من محفل «أهرامات مصر».

هذا الانطباع موجود في مجموع النتاج الماسوني الذي أمكنني مراجعته، وعلى سبيل المثال مجلة أكاسيا ACACIA الماسونية التي صدرت بمناسبة العيد المئوي للجزائر إذ أعادت طباعة النص نفسه في الصفحة ٣٩، كما نجد هذا النص في نشرة شرق فرنسا الكبير صفحة ٥١٩:

«في الفترة التي أدمت النزاعات المشؤومة، الناتجة عن التعصب الديني، سورية؛ كتب محفل هنري الرابع إلى الأمير (...)».

وتتابع النشرة في الصفحة ٥٤٠

«هذان الخطابان أحدثا تأثيراً فائقاً في الشرق، وسيساعدان، بكل تأكيد، على نشر الماسونية في تلك المناطق».

والملاحظ أن موضوعين رئيسين موجودان دائماً: عبد القادر الكائن المكتسب بالتسامح والجدير بنشر هذه الأفكار؛ والأسلوب الخاص بالماسونيين الذي يتميّز على الأقل، باستحقاق الوضوح خلف التفاصح، ويمكن أن نعزّز كامل الخطاب بما يلي:

إن أعجوبة الأخوة التي تمت اليوم يجب أن تعطي ثمارها! فالسيف الماسوني الذي عهدنا به إلى يدي أخينا الحبيب عبد القادر لن يكون أقل بريقاً من سيف المحارب؛ ويبدو لي أنني أرى، على ضوء نجمنا، وخلف شمسنا، نهاراً جديداً يبزغ من أجل الشرق.

نيكولو Nicoullauol خطيب محفل الأهرامات، شرق الاسكندرية (مصر).

يمكن للقرّاء غير المتنبهين، انطلاقاً من هذه الخلاصات، أن يدركوا الأحداث التي ترأست عمل الشرق الكبير في فرنسة، لكن نية هذا الشرق، مابعد السياسة الفرنسية، تظهر أيضاً بوضوح في مختلف الخطابات التي رافقت الاحتفالات المتنوّعة بمسارّة عبد القادر، سواء في الاسكندرية أو في باريس، كما تشهد هذه اللوحة (من خطبة خطيب محفل هنري الرابع بتاريخ ١٨ حزيران - يونيو ١٨٦٤ في باريس.

«بإعطائنا لمسارّة الأخ عبد القادر مثل هذا الدويّ، يجب أن نعلن هنا، قبل كل شيء، أننا لانمجّد أبداً الأمير وحده، أياً كانت فضائله واستحقاقاته التي يسرنا جميعاً الاعتراف بها؛ فنحن كثيرو التشرّب لمبدأ الماسونية الكبير الكافي الشافي بحيث لانجثو أمام أحد إخواننا، ولانفكر، كما كتبت خطأً إحدى وسائل الدعاية والإعلان الرئيسة، أن رجلاً مهما علت مرتبته في الحياة المدنية يمكن أن يشرّف الماسونية بالانتماء إليها. والماسونية، وهي تجمُّعُ رجالٍ أحرارٍ مستقيمين، أصدقاء للفضيلة والإنسانية، تؤكّد استحقاق الرجال بحيث تريد جيّداً دعوتهم للمساهمة في عملها بمنحهم المسارّة، لكنها لاتقصد، ولاتريد أن تتفاخر بمكانتهم وألقابهم الخارجية، فما أن يُقبلوا في هياكلنا، حتى يغدوا جميعاً مسارّين أخوة على قدم المساواة، والفرق الوحيد الذي يمكن أن يقوم، يتعلّق بالاستحقاق الشخصي، وفي الاندفاع الأكثر أو الأقلّ حماساً الذي يبدر عن كل منهم لدراسة القضايا الأخلاقية، وممارسة عمل الخير والانتخاء لتأمين النجاح المعنوي والمادي للمجتمعات.

ما رأيناه في المسارّة التي كرّسناها اليوم بعد أن تابعنا طويلاً اكتمالها، هو انغراز الماسونية في مهد الجهل والتعصّب، إنّه علم التسامح يسلّم لأيد محترمة، ويُعهد به إلى ذراع أثبتت جدارتها، ورفعته، والأمنية الأثيرة لدينا أن يرفع فوق أعلى مآذن المساجد مقابل راية الرسول ﷺ.

يعتبر الأمير الماسوني، بالنسبة لنا الإسفين المنغرز في صخرة البربرية، إنّه الفأس الموضوعة على جذر شجرة سم الجهل ذات الثمار المميتة، والموجّهة لاقتلاعها في زمن قريب. ويمكن تقدير نتائج هذه المسارة عندما نسمع إجابات الأمير على الأسئلة التي وّجهت إليه من قبلنا عن هذا الموضوع من جهة، وعندما نطّلع على الأعمال السامية التي خطّتها لنا باتقان ريشة الأخ نيكولو.

إن الرجل، الذي وضع نفسه في خدمة الله، ويمتلك مثل هذه الطاقة، وهذه القدرة في الإقناع، لايمكن أن يبقى متوانياً عن فعل الخير، وهو وقد تسلح بمشعل الحقيقة سيعمل على أن يشعّ من حوله. وبعد أن ينير أمنائه المغاربةأولاً، سيرسلهم بدورهم ليحملوا الكلمة الطيّبة، ويعظّوا باللسان والقدوة لنشر الحبّ والتسامح، وسيكون لتعاليمهم العذبة المقترنة بالمثل الصالح والمكرّرة باستمرار على هذه الأجيال تأثير الماء الذي يتساقط قطرة قطرة، إنّما بدون انقطاع لينتهي بحفر سريره في الصخر الأكثر قسوة.

وإذا كنا قد تحدّثنا عن الطاقة التي تميز الأمير، والتي نعتمد عليها لنجاح مهمتنا التي غدت من الآن فصاعداً مهمته، فلأننا نعلم كم ستكون هذه الطاقة ضرورية أمام المقاومات التي لن تتأخر في إبدائها المعتقدات الباطلة المستندة إلى تقاليد بربرية. إذ أننا راينا أميراً هندياً انتسب إلى الماسونية في كلكوتا «فغدا هدفاً» لمضايقات مترّمتة من مواطنيه الذين لم يستطيعوا أن يتصوروا كيف يمكنه أن يغدو ماسونياً دون أن يجحد معتقده الديني». ولهذا اضطررنا أن نضيف أنّ ذلك الاستقبال الذي جرى من قبل محفل انكليزي، كان موضوع احتجاجات من قبل المعلم الأكبر الإقليمي الذي يعارض في قبول المسلمين. إننا نعرض لكم هذه الواقعة لتسجّل إلى جانب اعتراضات المحافل التي مازالت لاتقبل اليهود. وننتقل إلى فعل أكثر مواساة يحمل إلينا الأمل في أن تلقى مهمة الأمير، في سورية على الأقل، من العقبات أقل مما نخشاه.

في الرابع من آب الماضي، وفي دمشق ذات الذكرى الأليمة، في دمشق نفسها،

وعلى أرض قد تكون رُويت بدماء المسيحيين، تجمّع جمهور غفير مؤلّف من رجال ينتمون إلى مختلف الأديان لوحظ بينهم ممثلو السلك القنصلي، والوالي رشدي باشا، ليشهدوا بخشوع وضع حجر الأساس لمدرسة يهودية. وكان مشهداً جميلاً ومؤثّراً بالتأكيد يعبّر عن وحدة الفكر تجاه عمل حضاري للغاية في مكان كان مسرحاً للعديد من الجرائم والبربرية.

نرى في ذلك بادرة سلام ووئام، ستسهل كثيراً إن عني بها مهمة أخينا عبد القادر لدى مواطنيه. إن نفوذه القائم على الجرأة والفضيلة سيجعل كلمته مسموعة، وسنعمل من أجل مساعدته على تأمين مراسلات منتظمة ومستمرة معه، نطلعه خلالها على أعمالنا، وبقدر الإمكان على سير الماسونية في العالم وإذا تلطّف مهندس الكون الأعظم بدعم جهوده وجهودنا، فسنرى أخيراً الشرق ينفض أكفانه، ويخرج كما أليعازر من قبره، ويولد من جديد مليئاً بالحيوية من أجل الحياة الأخلاقية والحضارة.

هوّذا السبب، أيّها الأخوة الزائرون الأعزاء، هوّذا لماذا وَجَد محفل هنري الرابع، أنّ من واجبه الاحتفال بهذه المسارّة كحدث واعد بمستقبل زاهر للماسونية. وهكذا فبقَلبٍ مليء بالفرح نرى مسارعة الأخوة من جميع الطوائف للردّ على ندائنا ومظهر هذا الشرق يتزيّن بمثل هؤلاء الأخوة المحترمين المشاهير، ومرأى هذه الأرتال العديدة، الجيّدة التجهيز، يبرهن لنا أننا لسنا منخدعين في تقديرنا، وأنّكم مثلنا تدركون أهمية هذا الفعل، وتضمون أمنياتكم إلى أمنياتنا لنرى في يوم ما الاحترام الاجتماعي لكل الجنس العربي».

من المدهش الملاحظة مع ذلك أن المفردات المستخدمة لوصف الجهل والبربرية والتعصب التي بدرت من بعض المسلمين هي من حاليّة نادرة، ومثابرة تامّة... ولكن أذكّر أيضاً، أنها أيضاً وما بعد «الأسلوب» الماسوني غدت أحد مواضيع النهضة العربية، بعد ذلك بسنوات.

إن ميزة الخطاب الصريح هي أن بالإمكان أولاً الأخذ به بحرفيته: فهذه المهمة الأولى هي إذاً واضحة تماماً؛ يجب على الأمير أن ينشر أفكار الماسونية «كما الإسفين ينغرز في صخر البربرية «وهو موجّه للقضاء على ثمار الجهل. لكن من أجل هذا يجب عليه بعد ذلك إنشاء محافل والمساهمة في «استشراق» الماسونية (هكذا ورد التعبير).

لكن الواقع أن عبد القادر كان يفكر بمهمة أخرى في الاتجاه المعاكس من الشرق نحو الغرب.

«ما رأيناه فوق كل اعتبار في هذه المسارّة، يا أخوتي، هو أن نصل بواسطة الأمير إلى تكوين محافل من أبناء البلاد، إننا نرغب أن تستشرق الماسونية إن صحّ التعبير، أن تحمل مجدّداً إلى الأمكنة التي كانت مهدها كل الحَسَنات القادرة عليها، وأن تمزّق عُصَابة الجهل، وتحطّم نهائياً سيف التعصب، وتقود أخيراً هذه الأمم التائهة إلى هيكل الإنسانية الكبير بطرق المحبة والأخوة العذبة.

نحن نعرف أن محترفات ماسونية سبق أن قامت في الشرق، في القسطنطينية مثلاً، رفعت عالياً وباعتزاز رايتها، نعرف هذا ونغتبط به، لكن هذه المحافل قد تأسّست من قبل الأوروبيين الذين يسكنون تلك المناطق، وهم من يتردّد عليها، ولم تكوّن، حسب معلوماتنا، أنصاراً لها بين المسلمين. ونحن نعتقد أن هذا أمر يؤسف له، ويجب علاجه. لذلك يجب ألا نقصّر في المديح والشكر لأخينا محفل «أهرامات مصر» المحترم، وإلى شرق الاسكندرية، اللذين سلكا بإقدام في طريق فسيح، وأرادا تحقيق رغباتنا بمنحهما الهداية للأكثر شهرة واستحقاقاً، دون ريب، من أحفاد الرسول ﷺ، للشخص الذي تعقد عليه الماسونية الآمال من أجل نشر أخلاقها ومبادئها».

من المؤكّد أن إخوة الإسكندرية اقتنعوا بأهمية هذه المسارّة فارتضوا أن يقيموا احتفالها بالتفويض، واستجابوا بهذا الشأن لمطلب محفل هنري الرابع:

... مقتنعين أنّهم شرعوا في سلوك طريق مضمون، بل وسريع، للوصول إلى نشر حسنات النور الماسوني بين السكان العرب، ولأن مثالهما النبيل سيسّهل لنا الوسائل لاقتلاع هؤلاء السكان من أحكامهم المسبقة الضارّة، وإطلاقهم بقوّة في حقل مدنيتنا الأوروبية الواسع(١).

حول هذه المهمة للماسونية، حربة الاستعمار والتنوير مجتمعين، يعطي ياكونو تفاصيل دقيقة هامة. وهكذا فالأخوة الذين أرادوا تأسيس محفل في سيدي بالعباس يكتبون لشرق فرنسة الكبير بخصوص الإمكانات الواسعة للماسونية في الجزائر:

---

١ - رسالة بتاريخ ٢٩ آذار - مارس ١٨٦٤، ملفّات «شرق فرنسية الكبير G.O.D.F»، وسجّلات محفل هنري الرابع، والمراسلات المتبادلة مع محافل الاسكندرية، والمجلات الماسونية موجودة في مكتبة الشرق الكبير، شارع كاده CADET، وهي في متناول كل قارئ مهتم.

«يكتب مادول إلى الشرق الكبير: لاتعتقدوا كالفرد العادي أن لاشيء بعد جبال الأطلس. فسهوب الصحراء مزروعة بالمدن وبعضها ذات أهمية، إذ أنها تأوي من عشرين إلى ثلاثين ألف نسمة. بل أكّد لنا أيضاً وجود مدن تضم خمسين إلى ثمانين ألف ساكن، وكلهم يمارسون شعائر الإسلام الساذجة، هذه الشعائر الأكثر تسامحاً مما عداها هي تلك التي تعانق مبادئنا بكل حميّة».

يجب الإشارة إلى هذه الملاحظة الإيجابية عن الإسلام، وهي استثنائية في تلك الحقبة. وقد أجاب عليها الشرق الكبير ببراءة واضحة.

«لانعرف كثيراً كيف نؤسس محافل في أفريقية الفرنسية، وتأثير الماسونية على العرب يمكن أن يشكّل عوناً كبيراً للاستعمار، والمسلمون يؤمنون بمعتقدات لا حصر لها تتلاءم كليّاً مع مبادئ الماسونية، وهكذا فإن مؤسستنا لاتخشى في البلاد الإسلامية أن تلقى المقاومات التي يبديها رجال الكهنوت في البلدان الكاثوليكية».

يخصص ياكونو فصلاً كاملاً لمشاريع الماسونية في هذا المنحى وتُلحَظ بوضوح ما بعد خيبات الأمل:

«في العام ١٨٣٩ تقرّر استمالة سكان البلاد الأصليين الذين يعتبرون بتأثير وظائفهم أو وضعهم الاجتماعي قابلين للسعي إلى الخير الذي تقترحه عليهم الماسونية، إن نصبت أعلامها فوق الأرض الأفريقية».

هذا المشروع لم ينجح إلا جزئياً، لكن ياكونو يذكر حالة مثالية تتيح لنا في الوقت الحاضر أن نفهم ماهو نوع قيم الترابط المركزية التي يمكن لأحد أبناء البلاد الأصليين أن يستبطنها عبر الثقافة الماسونية، وقد يوضّح لنا ماكان يؤمله عبد القادر: وهذه الحالة تتجلى في الخطاب الذي ألقاه في المحفل الأخ سيدي العربي بن الطيب في عيد الانقلاب الصيفي العام ١٨٦٥:

«في المنزل العائلي، ومنذ سن مبكّرة رسّخ لديّ أبي، الذي أحبّه وأجلّه لأنني أعرفه إنساناً ورعاً، مبادئ أخلاق قويمة، وقد تمسّكت بها لأن من يعلمني إياها كان متقيّداً بها.

إنما يجب أن أقول إنّها لم تستجب تماماً لتطلعاتي، فقد وجدتها منحصرة، وإن صحّ القول خاصة.

غير أن حدساً ما كان يقول لي إن الأخلاق الحقيقية والموثوقة موجودة، ولكن أين يمكن الكشف عنها؟ أين يمكن اقتباس مبادئها.

كان الظلام يخيّم باستمرار حول تحرياتي.

ووسط هذه الظلمة المتجدّدة دون انقطاع التمعت فجأة نقطة مضيئة أمام خاطري، إنّها المنارة التي تحول أثناء العاصفة دون تحطّم المركب على الأرصفة، هذه الشرارة البرّاقة، هي الماسونية، الماسونية المسماة بحق سبيل الإنسانية. عندما غدوت ماسونياً، تعلّمت ماكنت لن أعرفه أبداً لو بقيت أميناً لتقاليد البيت الأبوي.

استغفر الله، فأنا لا أريد أن أنكر دين آبائي.

لكن ما أريد أن أقوله لكم اليوم هو أن ديني مهما بلغ من السمو والطيبة لايفرض عليّ أن أحبّ جميع الناس أيّاً كان الدين الذي ينتمون إليه. أما الماسونية فتريد أن نحبّ جميع البشر أياً كانت البقعة الأرضية التي يسكنونها، فهم جميعاً متساوون، وهم جميعاً أحرار.

من جهة أخرى، أليس مكتوباً على واجهة هياكلنا الكلمات السامية الثلاث:

حرية، مساواة، أخوة، وهي مستقبل البشرية؟

ألم أتعلم بسعادة منذ أن غدوت ماسونياً، أنني، وأنا العربي، يجب أن أحب الكاثوليكي، والبروتستنتي، واليهودي، والفرنسي، والهوتنتوت[1]، وكأنهم ينتمون إلى ديني نفسه؟ وكأنهم أخوة لي؟

هذه الفكرة وحدها المتعلّقة بكليّة البشر، بحقّهم في حبي تواسيني وتسمو بي. عندما ندرك مثل هذه الحقائق نحسُّ بقيمة الإنسان وكبره.

إذاً، أنا على حق عندما أقول في البداية إن الأخلاق التي تعلمتها في صباي رغم صحتها، كانت منحصرة وشخصية، بينما أخلاق الماسونية تشير إلى الإنسانية كلها وتشملها، وهي عامّة ولاحدود لها، وبالتالي فهي الأنقى، وهي الأصحّ هوّ ذا، يا اخوتي الأعزاء، بكلمتين، الفوائد التي اكتسبتها من مسارتي الماسونية، استفدت أشياء أخرى أيضاً لكنها ثانوية بالمقارنة مع المبادئ الأساسية لمؤسستنا. وفي اجتماع قريب آخر سأعدّدها لكم.

---

١ ـ الهوتنتوت HOTTENTOT: سكان افريقية الجنوبية الغربية، ويسمون أحياناً البوشمن (المترجم).

بما أننا اليوم في عيد، فاسمحوا لي أن أصرّح ببعض الأمنيات.

أطلب من مهندس الكون الأعظم أن يعم الاتحاد، والسلام، والوئام بيننا. وأن تكون القبلة التي سيعطيها الأخ لأخيه، ونحن نحبك سلسلة الاتحاد، قبلة حقيقية أخوية مخلصة.

قبلة السلام، والاتحاد، والوفاق. آمين، آمين، آمين».

يمكن أن نحكم هنا على فرق الموقف بين مسلمين جزائريين انخرطا في الماسونية في الفترة ذاتها، إنّما في ظروف مختلفة كلياً:

فبعكس عبد القادر، فإن سيدي العربي بن الطيّب المقهور، والمستعمر، في إشكالية أوديبية: كلّ شيء يشير في حالته إلى اللوم الذي يوجّهه إلى أبيه لأنه لم يعرف كيف يفكر ضمن عروض كليّة. إنه لم يعلمه محبّة جميع البشر؛ وهو عندئذ يفتش عن أب مثالي في المؤسّسة، والماسونية بالنسبة إليه هي البديل المتخيَّل للأب.

أما قراءة المؤلّفات الروحية لعبد القادر فتظهر نموذج شخصية أخرى هي أقل ثورية بكثير بعد المعركة والمنفى، إذاً هي أقل تعلّقاً بالكلام الأبوي. وقد كان بإمكان عبد القادر أن يقول بداهة عكس ما صرح به سيدي العربي:

«إن ديني الطيّب كلياً والفائق، يفرض عليّ، (ولا أقول إنّه لايفرض) أن أحب جميع البشر أيّاً كانت الديانة التي ينتمون إليها».

الإستقبال الماسوني

تؤكّد الكلمات التي ألقاها مسؤولو المحفل عند مسارّته، والتقارير التي أعدّت عنها في فرنسة، سواء في الصحافة الماسونية، أو في تقارير الاجتماعات هذه الصورة للأمير، وتقرير مسارته يصفه كالتالي:

«أعطيت الكلمة إلى الأخ الخطيب الذي قرأ أولاً الأجوبة الخطيّة المقدّمة من الأمير عبد القادر، والمترجمة إلى الفرنسية من قبل محفل هنري الرابع. وقد قوبلت هذه القراءة بعاطفة إعجاب شديد. فالأفكار الفلسفية التي فصّلها عبد القادر بحماسة تلك الروح الشرقية الشاعرية كشفت عن مفكر حرّ سما إلى آراء الحضارة الأكثر كمالاً، وقد أظهرت روحاً كبيرة لاترتضي معلمين إلا الله والطبيعة.

بدا الأمير وهو يحدّد التعاريف السيكولوجية للأخوة، والإحسان، والروح وخلودها

بالمنطق الأكثر دقّة وكأن نوراً جديداً سلّط عليه. فقوة محاكمته لاتقلّ أبداً عن قيمة سلاحه. ومنذ أن سلّ هذا العضو الجديد في سورية، سيفه الحامي من غمده، بيّن أيّ قوّة يمكن أن يضيف العون القوي للإيمان الباسل، والأخوة التي لاتقهر إلى القضيّة العادلة.

أدخل العضو الجديد عندئذ إلى الهيكل؛ ونفّذ رحلات التجارب الموصوفة بالشعائر وأقسم اليمين المألوف؛ وكرّسه الأخ المحترم ماسونياً، ومُنح النور واعترف به عضواً عاملاً لمحفل هنري الرابع المحترم. (ويبدو وفقاً لمراسلة لاحقة أنه قد منح الدرجات الثلاث الأولى في وقت واحد).

أخذ الأخ الجديد مكانه إلى يمين الأخ المحترم، وبدا وجهه مشعّاً ونظرته تتصفّح الحفل الصامت، وتعطي علائم لا التباس فيها تنطق بالامتنان الصادق لجميع هؤلاء الأخوة الذين يحيطون به.

تناول المحترم عندئذ الكلام فبيّن ببعض عبارات حارّة عن مشاعر الصداقة الأخوية الخالصة التي يجب أن يلقاها الأمير من جميع أخوته. وترجم هذا الخطاب إلى العربية أمام الأخ الجديد المنتسب.

جهد الأخ الخطيب ليبين للمحترف الدرجات التي يظهرها المنتسب الجديد لصداقة جميع الأحرار الماسونيين. كما بيّن للأمير واجبات ومهام الماسونية. وأنهى مهمة المحترم معطياً، إنّ صحّ القول، العماد الفكري، بعد التكريس الأخلاقي والرمزي وقد تُرجم هذا الخطاب إلى العربية والجلسة قائمة.

أبدى المحترم للزوار العديدين شكر المحترم وتبادل معهم طرقات التحية الثلاث بحيوية تعبيراً عن التقدير».

خطابات الترحيب التي تبعتها عشرات الرسائل الموجّهة للأمير أو إلى محفل هنري الرابع من قبل المحافل المختلفة كانت من هذه النطقة موضحة للمهمة التي عُهد بها للأمير، والتي تُقنع بسهولة بما يقوله كارل ماركس في **الايديولوجية الألمانية**: «لايمكن لإيديولوجية أن تعمل إلا إذا استبطنها أولئك الذين ينشرونها».

«أيّها الأمير الشهير والأخ العزيز.

إن تفكيرك السامي دفعك إلى تقدير أساس مبدئنا. وقد كُشفت لك أسرارنا قبل

التكريس الماسوني الذي أضفي عليك نظامياً؛ فحدسك للأشياء التي كُشفت لك يرد من إلهامات قلبك الموجّهة نحو الهدف الذي يطمح إليه كل رجل خيّر: سعادة أقرانه، وبالتالي الأخوة الإنسانية».

فالماسونيون يشعرون إذاً أنهم يتعاطون مع مسارّ، رغم أنهم لايستطيعون الشكّ بأنهم أمام معلم كبير.

«ليس لنا أي عبادة خاصة، وليس لنا إلا معتقد واحد: هو الإيمان بالله خالق جميع الأشياء، وبخلود الروح. فكل واحد حرٌّ إذا بالإيمان وفق قناعاته، وما تعلّمه، وما يمليه عليه ضميره. لكن تضمّ جميع الماسونيين هذه الرابطة المقدّسة التي نسميها سلسلة الاتحاد، وهو شعار مستمد من القوانين الإلهية التي تريد تضامن جميع الكائنات فيما بينهم، وأقول إن جميع الماسونيين متعهدون بأن ينذروا أنفسهم سوية لنشر الأخلاق الشاملة وممارسة أعمال الخير.

من أجل إطاعة هذه الأنظمة الرئيسة في جمعيتنا، نقوم بالتضحية بكل فكرة غريبة عن حاجات الاتحاد والتضامن المؤهّلة وحدها لتثبيت السلام والوئام بيننا، وبدونهما لايمكن استقرار أي تناسق.

أنت تدرك إذاً، أيّها الأمير الشهير، والأخ العزيز أن هذا الهيكل لا يضمّ إلا رجالاً أحراراً، تحركهم الرغبة في أن يقيموا في قلب الإنسانية المبدأ الذي ننصاع له جميعاً والمتعلّق بالله، لأننا لانريد إلا تقليد أعماله في الخير الذي نسعى إلى تحقيقه.

إننا سعداء وفخورون لأن أخانا محفل هنري الرابع قد اختارنا كوسطاء من أجل التكريس الذي أجريناه لك باسم المحفل المذكور، إضافة إلى المطالبة بالنسبة لنا، وهذا من حقّنا، باعتبارك من بين الأعضاء العاملين في هذا المحفل المحترم. إننا نأمل بأنك تريد الاستمرار في الاتصال بنا بقدر ما تسمح به ظروفك من أجل مساعدتنا، كما أن من واجبنا أن ننشر النور بين الناس، ونحافظ فيما بيننا على الإتحاد الأخوي، وهو أوّل واجباتنا وأكثرها قداسة».

قام الأخ دوبوك[١] DUBOC بدوره بقراءة خطاب الأخ نيكوّلو خطيب محفل الأهرام:

---

١ ـ كلّف هذا الأخ بأن يطلع عبد القادر فيما بعد على النشاطات الماسونية: لكنني لم أجد أي مراسلة تفيد بأنه قام بهذه المهمة.

«أيها الأمير الشهير، والأخ العزيز.

إن الماسونية الحرّة هي للعالم كما النيل لمصر، تحمل إليه الخير دون أن يكتشف مصدره.

إنّها تأخذ الإنسان منذ صباه لتقوده إلى أهدافه الخالدة، مقلّدة مهندس الكون الأعظم الذي أعطاها كهيكلِ الأرض بكاملها، وكمشاعل النجوم التي تبرق في القبة السماوية. وقد أفهمت الماسونية الإنسان أن قانون العمل المستمر قد فُرض عليه وأن عليه أن يعيد إلى خالقه ما تلقاه منه؛ فيرفع إليه هياكل في نفسه، لتشعّ فيها الأنوار الوحيدة التي أمكنه إشعالها، وأعني بها الفضائل التي تحقق بها، طبيعته ومجدها.

وهي قد وُلدت من الحاجة التي شعر بها البشر في أن يبقوا متحدين في ممارسة الشريعة الحقيقية رغم الانقسامات التي يزرعها الزمن والميل إلى الشقاق في البشرية، وأن يبقوا متساوين رغم الفروق الطبقية والمراتب الناتجة عن نزوات الثروة، وأن يبقوا أخيراً أحراراً رغم الاستبداد.

وهكذا فقد اتخذت شعاراً لها المبادئ الخالدة المؤهّلة لتنظيم المجتمعات، والمصاغة في هذه الكلمات السحرية الثلاث: حرية، مساواة، أخوة.

عندما يجرؤ شعب على أن يسجّلها في ضميره، وفي الوقت ذاته ينقشها على أوابده، فإنه سيجعلها تدور العالم.

لكن سريعاً، وكمثل البروق، تدخل في السحب، وتبدو وكأنها اختفت نهائياً.

لأن الأمة التي وضعتها على جبينها، لم تجعلها للأسف تتغلغل لا في روحها، ولا في إرادتها.

لكن أين ستختبئ هذه المبادئ عندما تهرب مذعورة من ضجيج الكوارث الاجتماعية؟ في حضن تلك التي وُلدت منها!

وكما تفتح الأم دائماً ذراعيها ليلجأ إلى حضنها الابن الوجل، أو الشاب المتقزز، أو الرجل المقهور؛ وكما تنشق أحشاء الأرض بعد أن حملت على سطحها بحبّ الإنسان لتضمه إليها عندما يموت، أو بالأحرى عندما يبدو ميتاً، لتعانقه بحنان؛ هكذا عندما تلاحق أهوال الكون المادي هؤلاء الأبناء التالين للماسونية، وتلعنهم فإن هذه تأويهم.

يمكن أن تتنّهد معهم، وتخلط دموعها بآلامهم، لكنها تعتز إلى الأبد لأنّها ولّدت هذه المبادئ التي هي حياتها وحياة البشرية. إنّها تضمهم بحنان، وتحفظهم، وتعنى بهم لتجعلهم سريعاً أكثر قوة وحيوية من أجل الكون الذي ينتظرهم، كما تستقبل الأرض في أحشائها الإنسان من أجل أن تعيده على الدوام أكثر شباباً إلى الطبيعة، وإلى مبدأ كل الأشياء، إلى الله، والحياة الأبدية.

ليست الحرية الماسونية أبداً تلك الربّة ذات النظرة النفور، والرأس المشعث الشعر التي تعمّم على العالم أحياناً ارتعاشاتها السامية، وتطلعاتها الرهيبة؛ التي تهزّ قيود الأمم بيدٍ، وتقتل الملوك باليد الأخرى، التي توقظ، فعلاً، الشعوب من سباتها، وتعلّمهم كيف ينهضون مُجدداً، لكنها تضع في الوقت ذاته أسلحة فتاكة في أيديهم، وتعلمهم الانتقام، وتجعل من الرجال المستقلين طغاةً جدداً، وبعد أن اقتلعت العالم من الرق والإقطاع والأسياد رمته في عبودية الإرهاب.

كلّا! إن الحرية الماسونية هي الممارسة الحرة للأفعال الناتجة عن معرفة صحيحة للحق والواجب.

إنّها ترتكز على السير بشجاعة في الطريق الذي يمليه الوجدان دون أن تهتم بالجَلَبة العدوّة، وضجيج الأهواء، كما النسر الذي لايهتم بصيحة بغاث الطير التي تتابعه غيرى من جلال طيرانه.

إنها تقوم على الإدراك أن الإنسان يمكن أن يكون حرّاً وهو في القيود وعبداً حتى وهو على عرش ملكه.

وعندما نتكلم عن المساواة، فالمقصود بذلك المساواة المعنوية. هل يمكن أن توجد على الأرض بدون الماسونية؟ من المسموح به الشك بذلك. فهي التي أدخلتها في الضمائر لتنقلها بعد ذلك إلى الأفعال؛ وهي التي تنميها وتحفظها في أحضانها وتمتنها في كل نفس لتنشرها شيئاً فشيئاً إلى الخارج. فجميع الماسونيين متساوون، أياً كانت طبقتهم، ووضعهم، وثروتهم، وهم لايستمدون كبرهم إلا من استحقاقهم وفضائلهم.

هذه المساواة العذبة هي التي تساعدنا على تطبيق المبدأ الرئيس الثالث من نظامنا: الأخوة الماسونية (...). وهي كأختها الحرية لاتشبه الفضيلة الدنيوية المشار إليها بذات الإسم. فالأخوة الماسونية وحدها هي التي لاتتولد أبداً إلا أفعال

التضحية، ومن المتعذر أن أعدد المعجزات التي أحدثتها. أن تزيل من بين البشر كل الفروق الناتجة عن اللون، أو الطبقة، أو المعتقد، أو الرأي، أو الوطن، أن تدمّر التعصّب والمعتقدات الباطلة، وأن تقتلع الأحقاد القومية ومعها كوارث الحروب. وبكلمة واحدة أن تجعل من الجنس البشري عائلة واحدة موحّدة بالتضحية والعمل والمعرفة. هذه هي المهام الكبرى التي تهدف إليها الماسونية، وهذه هي الرسالة التي تسعى إلى إتمامها كل يوم. يكفي من أجل هذا تطبيق مبدئها الوحيد الذي تنادي به أيضاً جميع الأديان:

أحبب قريبك كنفسك.

وهكذا فقد كانت أكثر تعقلاً من كثير من المؤسّسات الأخرى، عندما أسرعت بالإعلان لأتباعها أن لقب ماسوني لايكفي الشخص ليكونه، وأنه يفقد استحقاقه له إن توقّف عن ممارسة الفضيلة التي يفرضها.

وكما أن الكتب المقدسة تقول: ليس الإختتان بعملية تجري على الجسد، وإنّما هو بطهارة الروح». كذلك نحن نقول: «ليس ماسونياً من ينتسب إلى الماسونية، وإنما من يجعل من روحه هيكلاً طاهراً يحلّ به الروح الإلهي، من يمارس عمل الإحسان السامي، وهو مستعد ليتقاسم رغيفه مع أخوته، ويبذل دمه من أجلهم.

ما من أحد مثلك أيّها الأخ الشهير يستحق، بفضائله، هذه الإشارة من التضحية والحب، وما من أحد أكثر منك تأهلاً للدعوة لحملها بفخار.

كم من الأعمال في مسيرتك تدفعنا إلى أن نقول لك: إنك ماسوني منذ زمن طويل!» لكن ماتزال ماثلة في الأذهان بصورة خاصة تلك المشاهد من التعصب التي دفعت أيدي الغدر لتقتل بالحديد والنار مجموعة عزلاء من البشر! ومايزال يتردّد في قلوبنا هذا الخطاب الموجّه إلى ممثل فرنسة من قبل الأمير الشهير:

«اسمع: مادمت حيّاً، ومادام أحد من مغاربتي حيّاً، فلن يتمكن أحد من مسّ شعرة في مفرقك.. لكن الخطر يتعاظم، ويجب تهيئة وسائل أكبر للدفاع: وإذا أصررت على البقاء في مقرّك، فستضطرني لملازمته لحمايتك؛ ألم تقل لي أنت بالذات: حيث يوجد علم فرنسة، توجد فرنسة. حسن! احمل معك علم فرنسة، وارفعه فوق منزلي، ليغدو منزل عبد القادر فرنسة».

والواقع أن الراية المثلثة الألوان ارتفعت فوق البيت المقدس الذي غدا ملجأً

للمسيحيين، ولا أعرف قبّة تحت السموات تمكنت فيها هذه الراية أن ترفرف بفخر كما رفرفت فوق بيتك.

لكن مهمة رجل الله هذا لم تتوقّف عند هذا الحدّ، فعند غياب جند الحضارة، نذر نفسه، وهو سليل النبي، ليحل محلّها، وتجرّأ مع مجموعة من المخلصين له أن يجابه المذبحة، وغاص وهو على رأس ثلاثمئة رجل بتصميم، وولداه يتبعانه في الأحياء التي تعيث فيها الفتنة فساداً، وهو يرجو المسلمين أن ينضموا إليه ويدعو المسيحيين أن يلجؤوا إلى بيته هاتفاً: «أيّها المسيحيون، أيّها التعساء! تعالوا إليّ، تعالوا! أنا عبد القادر بن محيي الدين، المغربي، ثقوا بي وسأحميكم».

على وقع هذا الصوت المفعم بالأمل، بدت بعض الوجوه المذعورة خلف النوافذ الصغيرة في بيوت المسيحيين، وارتفعت صيحة الخلاص في المكان المنعزل، وهرع كل واحد ليحتمي بالنجدة غير المنتظرة التي أرسلها الله له.

من بين الاثني عشر ألف وخمسمئة مسيحي الذين أنقذهم من الموت، وُجد الرهبان العازاريون، وراهبات المحبّة وتلاميذهم الأربعمئة. وكان منظراً رائعاً مرور موكب سليل النبي وهو يسير محاطاً بالكهنة والراهبات والأولاد الذين اقتلعهم من الموت، وجنوده، هؤلاء المحاربون القدماء يقودون بيدٍ اليتامى المساكين وقد غدوا حماتهم، ويدفعون بالأخرى وبأعقاب البنادق القتلة الذين يحاولون أن ينتزعوا منهم الأمانة المقدسة التي عهد إليهم بها.

لكن الحشد الهائج لم يتأخّر عن المجيء ليطالب بوقاحة بتسليمه المسيحيين اللاجئين لدى عبد القادر، وضرب صفحاً، وهو السلطان المحترم، عن إهاناتهم، وخرج بدون سلاح لتهدئة الجماهير وستكتب حوليّات الحضارة بأحرف من ذهب كلماته النبيلة التي تلخّص المبدأ الماسوني فيما يتعلق بالدين.

قال لهم: آه! يا أخواني! إن تصرفكم خارج عن الدين. أنكون في يوم جهاد ليحقّ لكم قتل الناس؟ إلى أيّ درجة من الضعة قد هبطتم، لأنني أرى مسلمين تلوّثت أيديهم بدماء النساء والأطفال. ألم تسمعوا كلام الله: من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنّما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها فكأنّما أحيا الناس جميعاً» ألم يقل لكم أيضاً: «لا إكراه في الدين؛ ظهر الحق، وزُهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

وهنا كرّر الخطيب، بعد هذه الآيات القرآنية، كلمة، كلمة، السرد الذي سبق أن ذكرناه:

ـ صرخت الجماهير مهتاجة: المسيحيين! المسيحيين!

ثم يعود الخطيب ليعبر عما في نفسه ونفوس زملائه:

«إن الفرحة تعمر قلوبنا عندما نفكّر في المؤازرة التي سيقدّمها لنا عامل قوي بحكمته والاحترام الذي يوحي به، من أجل إشادة هيكل الحكمة، ونشعر بحاجة ملحّة للصلاة تسيطر علينا؛ إذ يجب أن نشكر الله ونبارك مقاصده الخفيّة ورؤاه اللامتناهية، الله الذي يكافىء هكذا الإنسان الفاضل ويدفعه إلى تذوّق حلاوة صداقة رحبة كروحه؛ كما يبارك في الوقت ذاته الماسونية لجهودها الثابتة لتأمين سعادة الجنس البشري والأخوّة الدينية والأخلاقية بين الشعوب! نسأل الله أن يمنح أخانا الشهير العمر المديد المليء بالسعادة ليتمكن من مساعدتنا لأطول مدّة على إزالة أنقاض خرائب البربرية، وللعمل على أن تثمر في تلك البلدان المعادية والجاهلة غراس الحقيقة الشاملة.

التبجيل إذاً، التبجيل، التبجيل ثلاث مرات للماسونية التي تحافظ على الناس في حالة أخوة.

إلى القويّة، إلى التي لاتقهر.

إلى تلك التي تعلمنا أن نكبح أهواءنا، وأن نتبع بمحبة مبادئ الإحسان المحيية والخالدة.

إلى تلك التي أعطت الكون القانونين الناظمين له، وجعلته يدور باتجاه التقدّم المعنوي والمادي.

وهما حقه وحريته.

إلى تلك التي علمت الإنسان كيف يحرّك الإزميل والسيف، وبيّنت له أن العمل هو أضمن الوسائل للفوز.

المجد للماسونية.

فهي المدعوّة لتؤمن مستقبل الإنسانية.

لقد آمنت! وتكاثرت! فالمجد لها! بعد أن انتشر أبناؤها في كل أصقاع الأرض

وأسست في كل مكان مرابع للسلام والمحبة.

إنّها في الوقت ذاته الدين، واللغة، والوطن الشامل.

يا للبرهان المدهش الذي يقدّمه لها اجتماعنا هذا اليوم.

نتوزّع على أديان مختلفة في تعاليمها وشعائرها، لكن الماسونية وحدّتنا في حضنها كأصدقاء، وكأخوة، وكأعضاء جسد واحد.

لقد أتينا من كلّ أصقاع المعمورة، ومن الجهات الرئيسة الأربع، وهي وحدها القادرة على أن تجعلنا متحابين كأبناء وطن واحد.

إنّها اللغة الشاملة؛ ونحن نتعارف ونتفاهم، ولكل يوم إشاراته، فالمجد لسلسلة الاتحاد الواسعة التي تغلّف العالم.

إنّها بإشارات محبتها توقف أمواج العواصف البشرية الغامضة! فيختفي الحقد، ويغدو الناس أقل عدوانية، ويشعرون بشكل لايردّ أنهم منجذبون إلى دائرة روابطها السرية المؤنسة والمتعاظمة.

المجد لها!

إن أعجوبة الأخوّة التي تتّممها اليوم يجب أن تعطي ثمارها! والسيف الماسوني الذي نعهد به إلى يدي أخينا العزيز الطاهرتين لن يكون أقل بريقاً من سيف المحارب. ويبدو لي أنني أرى على ضوء نجمتنا نهاراً جديداً يبزغ من أجل الشرق!!

هذا الخطاب ـ السردي رهيب وشبيه بالهلوسة، لننتقل إلى القراءة الوقائعية: إنّها مطابقة للايديولوجية المسيطرة؛ لكن الخطاب يغدو رهيباً عندما يتصدى متصلفاً إلى موضوع الأم والأرملة، وذلك ليكون متحدّراً من قوعدة لغة Metalangage/ فالترميز الماسوني ليس متسامحاً، ولا أعلم كيف تمكن هذا الأخ من إنشائه قبل أن يقرأه علناً: لعله كان في حالة لاشعور كلي، لكن هذا لايعني أبداً البراءة؛ أوأنه كان مكيافلياً بشكل شيطاني. لن أتعرّض إلا لوجهة نظر واحدة، مع الأخذ بالاعتبار واقع أن الخطيب من سكان الإسكندرية فهو يعرف حدّاً أدنى من المعلومات عن الإسلام، ولكن ليس عن التحليل النفسي... فهو يلحّ بغلاظة على الأواليات الارتدادية، وأكثر من ذلك، إنّه يقوم بها بطريقة قاسية بالنسبة لعبد القادر، إذ أنه يذكّره بنكبته ليركّز على أوالية الإيحاء بالأمان:

«لكن أين ستختبئ هذه المبادئ عندما تهرب مذعورة من ضجيج الكوارث الاجتماعية؟ في حضن تلك التي ولدت منها!!».

نحن نرى جيّداً في هذه الحالة، أنها تتعلّق بالأم. أما في حالة سيدي العربي، التي ذكرت سابقاً، فهي عن الأب... وبين ذراعي الأم «المفتوحتين دوماً يلجأ الرجل المقهور. ويتابع الخطيب الذي يغدو عندئذ جليّاً:

«وهكذا عندما تلاحق أهوال الكون المادي هؤلاء الأبناء التالين للماسونية وتلعنهم، فإن هذه تأويهم».

لا أعلم ماذا فهم عبد القادر من هذا الخطاب الذي كان يترجم له أولاً بأول، لأنه لايفهم جيداً الفرنسية. لذلك يجب أن نقتبس من أجوبته الخاصة مايمكننا من أن ندرك الصورة التي كوّنها هو بالذات عن الماسونية عبر ما قال له الماسونيون، وما بعد الصورة التي كوّنوها هم عنه.

رؤية عبد القادر

استخلصها من رسائله ومن أجوبته، لأن محفل هنري الرابع طلب من الأمير أن يجيب على أربعة أسئلة تطرح عادة على كلّ طالب انتساب. إذ أنه، وبعكس ما كتبه عدة مؤرّخين[1]، لم يستسلم للمسارّة، ولم يكتف بشكر المحفل على هديته، لأنه يكتب: «أرغب فعلاً أن أشترك في أخويتكم القائمة على المحبة..» والواقع أن الأمير لايمكن أن يغفل عن رغبات الأخوة الذي أنهوا رسائلهم كالتالي:

«وليباركك الله، لأنك ستغدو حقاً رسوله، وسنفرح ونبتهج معه، لأن بّره سيتزايد ويتكاثر بواسطتكم، مع جلال أرز لبنان، ومع أريج ورود شارون، وبفضل جهودك المظفّرة ستنعم أجيال المستقبل بسلام في تذوّق شجرة الحياة. وهوّذا الجواب الأوّل للأمير:

١ - أذكّر مرة أخرى أن هذه الرسائل موجودة، وليست مزيفة كما ادعى بعضهم، وهي ملك السيد زوماروف M. ZOUMAROFF، وقد قرأتها عدة مرات لأتأكد أنني لست منخدعاً خاصة وأنني منذ أبحاثي الأولى لاحظت أن الأستاذ تميمي قد نسخها ثانية ونشرها في صيغة عربية واضحة عن المخطوطة وهي في مجلة التاريخ المغربي العدد ٩ - ١٠ - ١١ التي ذكرت سابقاً، ويبدو ختم الأمير واضحاً على المخطوطة. فإذا بقي أشخاص يتحدثون عن التزييف بعد هذه البراهين، فلن أستطيع فعل شيء.

الحمد لله وحده

أيها السادة المحترمين (كذا) رؤساء وأعضاء الجمعية الفخيمة الفرنماسونية الموقرين حفظهم الله تعالى.

بعد إبلاغ حضراتكم أكمل شوق وأوفر اعتبار صادر عن خلوص قلبي. أقول انني بينما أنا أتغزل بما سلف من أقوالكم الفخيمة وأتأمل كيف أن صانع العالم العظيم لايمنح لعباده أنعاماته جميعها دفعة واحدة بل شيئاً فشيئاً لتدوم لذاة (كذا) البشر ويتواصل الشكر غير منقطع نحوه تعالى، حظيت بكتاب حضراتكم الكريم الصادر عن محبة غير مشكوك بها مع الزهرة الكلية السمو التي تفوق بطيبها الرمزي رايحة الورد الغالي التحية وبإشارة عدلها ومساواتها وأخويتها حكمت (كذا) أرسطو طاليس الجامعة لأصناف المحاسن وأشتاتها. فحصلت مخلصكم على سرور ربما لايدرك، أولاً لمسروريتي بها إذا احتسبت ذاتي كمن اكتشف كنوز العالم. وثانياً لمصادفة (كذا) ورودها ما كنت أتأمله في إحسانات الخالق سبحانه وتعالى لأن الأمر الذي ترغبونه حضرتكم من اتحاد أفكاري مع أفكاركم الجليل (كذا) لا أحتسبه إلا نعمة من أنعامات الخالق أفتقرني بها موهبة خصوصية بغير مشقة بتة فله الحمد على ذلك ولي كمال السعد والسرور إذا قبلتم مني ذلك لأنني أتأكد وأحقق أن مسراتكم حسنة وأفكاركم مستقيمة. ليس بشهادة أعدل من ميلكم نحوي عندما سمعتم اكترائي بإخواني في البشرية ومساعدتي لهم عند تلك القومة البربرية. وأي شرف يفوق محبة الإنسان الإنسانية وهل إذا لم تجد (كذا) المحبة فينا نكون ذوو (كذا) دين قويم حاشا. إن المحبة الأساس الوحيد والله إله الكل فيجب نحب (كذا) الكل. فالآن[1] أقدم لجمعيتكم الفايقة الكمال كتابي هذا لغايات، ثلاث هم (كذا) أجل مرغوبي أولهم (كذا) إظهار ممنونيتي لحضراتكم على ما افتقدتموني به من هذا الوسم المبارك الذي حصلت عليه بدون استحقاق (إلا إذا كان لسمو محبتي لجميعكم وميلي الخصوصي لأفرادكم واجمالكم) لأن قيمته عندي أفضل من التاج الذي كان يتزين به الاسكندر ابن فيلفوس الرومي ولذلك قبلته بفرح وتوقير فايق الحد. ثانياً لتكون رغبتي محققة عند حضراتكم باقتبال أخوية المحبة

١ ـ لم يعط الأصل الفرنسي إلّا هذا القسم بدءاً: الآن أقدم.. لكن فضلنا وضع الرسالة كاملة خاصة وأن لها أصلاً بالزنكوغراف وبخط يد الأمير نثبته في الصفحة التالية.

واشتراك الرأي بعموم ترتيباتكم العظيمة لأنني مستعد أن أكون غيوراً بها ومتى عرفتموني عهودها والارتباط بها سأكون على ما أفهمتموني حضراتكم من الأساسات محافظاً جداً وأحتسب ذاتي سعيداً متى وجدت واحداً من عمالكم الغيورين بنوع أوفر مما تظنونه بي. ثالثاً لتدوم من الآن فصاعداً وسائل الوداد بيننا غير منقطعة لأني مستعد لكلما (كذا) يخطر بآرائكم الحميدة مكملاً كلما تبتغيه مني قوانين محبتكم بكل سرور غب معرفتي مايلزمني أجراه (كذا) لاتمام مقصودي. هذا مع تكرير ممنونيتي لجميعكم في كل آن ومكان وتبليغ إكرامي وتوقيري لعموم أخويتكم من الجهات الأربع والله تعالى يحفظكم مسرورين آمين.

في ١٥ رجب ١٢٧٧ هـ

٢٦ فيفري ١٨٦١

المحب المخلص السيد عبد القادر بن محيي الدين
(ثم ختمه)

كما نوّه بالإشارة الباطنية الأولى «الجهات الأربع» التي رأينا أهميتها إنّما وضع لها في تصوّر الأمير للمكان عند وصف مخطط زمالة.

أشار المؤلف إلى ما في هذه الرسالة من تفخيم للجمعية ورؤسائها تاريخ ١٠ آب - اغسطس ١٨٦٤ والواقع أنها كتبت في مطلع العام ١٨٦١ م كما يشير التاريخ الهجري المثبت في نهايتها، أما رسالة ١٠ آب ١٨٦٤ فلم يذكرها المؤلف لكننا نثبتها فيما يلي لأن فيها تأكيداً بعد ثلاث سنوات ونصف على عزم الأمير على الانتساب إلى الماسونية[1].

١ - حصلنا على نصّ هذه الرسائل باللغة العربية من مجلة التاريخ المغربي (العددين ١٥ - ١٦/١٩٧٩) التي نشرها الدكتور عبد الجليل التميمي مطابقة للأصل باستثناء إضافة ملاحظة (كذا) بعد خطأ نحوي أو إملائي في النص الأصلي، وإضافة أرقام لمقابلة التاريخ الهجري بالتاريخ الميلادي أو للإشارة إلى مصدر الوثيقة. ونشير إلى أن المجلة وقعت في خطا (غير مقصود) ناتج عن طمس حرف في تاريخ الرسالة الأولى، إذ الواقع أنه ١٥ رجب وقد أجرينا التصحيح. (ملاحظة المترجم)

رسالة من الأمير عبد القادر إلى اعضاء جمعية البنائين الأحرار

من دمشق الشام في ١٠ آب ١٨٦٤

إلى جناب الأجلاء الكرام حضرات رؤساء لوج هنري الرابع الفخام حفظ الله تعالى وجودهم وبلغهم أقصى مرادهم آمين. نحب اهداء حضراتكم أشواق (كذا) لامزيد عليها وتحيات فؤادية سنية لاتعداد لها مقرونة بالسؤال عن خواطركم الجليلة الفخيمة أبدى (كذا) لقد وصلني كتابكم العزيز عندي وفرحت به كما فرحت بالتهنئة الصادرة من ذوات اجلاء وإني عرفت أن أساس هذه الجمعية الشريفة هو جلب النفع لعباد الله تعالى ودفع الضر عنهم والسلوك على مقتضى الإنسانية والأخوة البشرية وهذا مراد الله تعالى من جميع عباده وأمر بذلك على ألسنة رسله فهنيئاً لمن عرف هذه الحكمة العظيمة وعمل بمقتضاها وأنى أرى نفسي سعيدة حيث أكون ممن قام بهذا الشرف العزيز وها أنا أنتظر لافاداتكم العظيمة النفع لتكون ضوءاً ومرشداً لي أتوصل بها إلى إتمام المقصد العظيم الذي قصدته باندراجي بأخويتكم المحبوبة الذي أسأل الله تعالى أن يشيد أركانها ويكون حافظاً لها وحامياً ومن صميم القلب أهدي حضراتكم أوفر التحية راجياً عدم براحي من البال المنير والسلام في البدء والختام.

١ جمادى الأولى ١٢٨١

المخلص عبد القادر بن محيي الدين الحسيني

نفس الوثيقة تحصلنا عليها من الأستاذ ياكونو، وهو بدوره تحصل عليها من الحكيم مالتات.

أجاب محفل هنري الرابع على طلب الأمير برسالة مطوّلة يشرح فيها أهداف الماسونية ويبيّن شروط المسارة. ويطلب منه الإجابة خطيّاً على الأسئلة التي تطرح عادة على طالبي الانتساب وهوذا النص:

«أيها الأمير الشهير. تلقينا بشعور من السعادة والامتنان يجلّ عن الوصف جوابكم الجميل والفائق الذي شرّفت به تهانئنا الأخويّة، وقد قامت تعذرات مطلقة حالت دون أن نردّ في وقت مبكر على الرغبة التي أبديتموها لتنضموا إلينا برابطة الأخوة الماسونية، وها نحن نعجل للتعويض عن هذا التأخير الشاق رغم أنه إرادي، ونصل دون أي تمهيد إلى النقطة الرئيسة من الموضوع (يعود التأخير المذكور إلى استبدال مورا **Murat**، وقد سمي الإمبراطور نابليون الثالث المارشال مانيان **Magnan** معلماً أكبر). تقول لنا في رسالتك الموقّرة، أيّها الأمير الشهير:

«أتوجّه حالياً إلى جمعيتكم برسالتي لأغراض ثلاثة:

١ - لأعبر لكم عن امتناني.

٢ - من أجل أن يعرف مقامكم جيّداً...

ما من شيء كان بمثل هذا الإمتاع لقلوبنا، وقد اعتبرنا هذا التصريح الصادر عن مثل هذه الشخصية الشهيرة الممثّلة للقومية العربية أروع مكافأة يمنُّ بها العلي القدير على جهودنا، رائعة خاصة بنتائجها من أجل تقدّم الحضارة، إذ أنّك مدعو بفعل المسارّة التي ستمنح لك، لتكون بالنسبة للشرق رسول الديانة الإنسانية الكبرى. ومن وجهة النظر هذه، نجد أنه يتوجب علينا قبل كل شيء أن نقدم لكم مفاهيم واضحة ودقيقة حول الالتزامات التي يتمّ التعهد بها عند دخول الماسونية.

كلمة حول النظرة العامة للمؤسسة تبسّط كثيراً الموضوع. سنحاول إذاً أن نبيّن لكم نقطة انطلاقنا، وهدفنا، وتطلعاتنا.

إننا مضطرون لهذا الغرض أن نطلعكم على المواد الأولى من دستورنا وهي مواد تحتوي على الجهر بعقيدتنا».

أضرب صفحاً عن هذه النصوص التي أرسلها المحفل إلى الأمير: وهي تتعلق بدستور شرق فرنسة الكبير، وبعض معلومات تتعلق بالتقيد بالنظام وإطاعته مما لانرى داعياً لإدراجه في هذا المؤلّف، مع الإشارة إلى أن هذا لم يزعج عبد القادر إذ أن الماسونية في تلك الحقبة كانت وحدانية (مؤمنة بالله الواحد) صراحة. غير أن بعض التعليقات والشروح المضافة إلى مواد الدستور تبدو لي صريحة وتتيح فهم المشروع:

«هوّذا الشرعة الماسونية في جوهرها، ومن تطبيق هذه المبادئ بالطبع ينطلق إشعاعها على المجتمع الحديث والخير المدعوة لتحقيقه فيه.

فلنجرب إذاً أن نفصل هذه المبادئ، كما نفهمها، وكما نتوقع بيقين عذب أن تفهموها أنتم بالذات أيّها الأمير الشهير.

تهدف جمعيتنا إلى القيام بأعمال الخير، ودراسة الأخلاق وممارسة جميع الفضائل ليس لدينا حول هذا الموضوع أي شرح نقدّمه لكم، وقد برهنت أعمالكم على أن هذه الفقرة تتعلق بكم وكأنكم أنتم الداعون إليها، من هذه الناحية إذاً، يمكن اعتباركم منذ زمن ركناً في الماسونية الحرّة.

إنها ترتكز على قاعدة وجود الله، وخلود الروح، ومحبّة الإنسانية والنقطتان الأوليان، وأنت المتابع بدقة لأحكام القرآن، هما أساس إيمانك الديني، وهنا أيضاً أنت في مشاركة جديدة في الآراء معنا؛ أما محبة الإنسانية فقد برهنت عنها بطريقة لاتسمح بأيّ شكٍّ في هذا المجال.

في البند الثالث تتجلّى كل مؤسستنا والأساس الأكثر صلابة الذي تستند عليه. لاتهتمّ الماسونية باختلاف الشعائر الدينية، وهي تقبل في أحضانها كل من يؤمنون بخالق الأشياء كلها تحت أيّ اسم التمسوه، وقد كتبت على رايتها كلمة تسامح وإليك كيف تشرحها:

هذا التسامح ليس لامبالاة منهجية بالعقائد، وإنّما هو مظهر رائع لاحترام حريّة الاختيار، وحريّة الفحص، والقناعات القائمة إمّا على نتيجة أبحاث علمية، وإمّا على ما هو أكثر،على الحكم العميق للوجدان. ولهذا السبب، ومع إلزامها أعضاءها بالمحافظة على الكرامة الأكثر استقامة، تحترم الإيمان الديني والميول السياسية لكل منهم؛ ولهذا السبب فهي تمنع في اجتماعاتها أي نقاش حول هذه المواضيع.

لقد احتفظت بشعار: حرية، مساواة، أخوّة.

- حرية الفكر والفحص قبل كل شيء: فالإنسان في مجال العقل ليس مسؤولاً إلا أمام الله ووجدانه؛ وحريّة التصرف وفق قوانين الطبيعة الخالدة المتعلّقة بقوانين العدالة الأساسية والاجتماعية.

- ومساواة، من الناحية المعنوية، من أجل تثقيف الجماهير وتربيتها تقدمياً. ومن الناحية المادية، بتحقيق الرفاه العام النسبي، ثمرة العمل المشترك.

- وأخوة، محبة ذاتك في الآخرين، عاطفة يعيش بموجبها الجميع كفرد واحد، تجعل من جميع الحيوات حياة واحدة، وتضمّ جميع الجهود في جهد واحد سام؛ هدفه الوصول إلى توزيع قدر متساو من السعادة لكل عضو من العائلة الإنسانية والماسونية تلزم بالعمل؛ ولكنها أبعد ماتكون عن اعتباره عقوبة، بل تجعل منه واجباً مشرفاً ومقدساً، إذ أن العمل في نظرها أساس المجتمع، فهو يساهم في النمو المادي للكائن، ويمنح الإنسان تكامل قوّته الفيزيائية، وتكامل عقله، كما يساهم في تحسين مصير الإنسانية، إذ أن كل شيء في هذا العالم هو ثمرة العمل الفردي الذي يشكّل وفقاً لقانون إلهي مجمل الخير الاجتماعي.

هذا العرض الملخص لمبادئنا، وهو عرض سيتُّمم، أيّها الأمير الشهير، تدريجياً مع الدرجات التي ستمنح لك يكفي حالياً لنبيّن لك أن الماسونية هي عمل بناء، وعدالة، وحق، وأن وسائلها هي المحبة، والإحسان، ودراسة الحقيقة والخير.

من الطبيعي جداً إذاً وقد علمنا ما تريد، ونحن نعرف مايمكن أن تقدّم لنا من مساعدة لتحقيق الهدف الذي نصبو إليه، أن نقابل بلهفة عاجلة الطلب الذي وجهتموه لنا، إذ بدا لنا أن الشرق مدعو بواسطتكم إلى تجدّد معنوي، وأن الماسونية ستتابع في الأمكنة التي كانت مهدها عمل التحرّر الثقافي الذي بدأ بمنتهى الفخار في الأزمنة الأخيرة على درجات عرش فارس.

بدت للوهلة الأولى عقبة كبيرة؛ ناتجة عن بعدكم، تعترض تحقيق رغبتكم، التي هي رغبتنا أيضاً؛ فمنح المسارّة الماسونية المعبّر عنها باحتفالات وشعارات ذات مدلول معنوي وفلسفي يتم بطريقة شخصية تماماً ليتمكّن المسارّ بأجوبته على الأسئلة التي تطرح عليه من أن يفتح قلبه أمام من هم قضاته قبل أن يصبحوا أخوته، ويتيح التغلغل حتى الحنايا الأكثر خفاء من روحه.

هذا الشرط الرئيس كان متعذر التنفيذ حالياً. لذلك حصلنا من السلطة التي تدير محفلنا على إذن بأن نستعيض عنه بطلب إجابتنا خطياً على الأسئلة الثلاثة الرئيسية التي تطرح على كل عضو جديد في الماسونية وهذه الأسئلة هي:

ماهي واجبات الإنسان نحو الله؟

وماهي واجباته نحو أمثاله؟

وماهي واجباته نحو نفسه؟

بعد الإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة، نرجو كلازمة لها أن تبيّنوا لنا رأيكم في:

١ ـ خلود الروح. أو عدم موت النفس.

٢ ـ مساواة الأجناس البشرية في نظر الله.

٣ ـ مفهومكم للتسامح والأخوة.

هذه هي المواضيع التي نرجو أيّها الأمير الشهير، أن توافونا بنتيجة أفكاركم الناضجة حولها، وهي نتيجة لانشك في أنها ستكون مطابقة لما ننتظره منكم.

بعد القيام بهذا الإجراء، يبقى عليكم أن ترسلوا لنا **وصيتكم**، ومن حقّكم أن

تقابلوا هذا الطلب بدهشة، لذلك ها نحن نعجّل بشرح مرماه في ذلك الظرف.

إن المنتسب الجديد، الذي قُبل لإجراء اختبارات المسارّة، يُدخَل أولاً إلى مكان مظلم، مجلّل بالسواد، بعيد عن حركة الناس وضوء النهار، حيث يجد على الجدران كتابات تذكّره بتفاهة كل عظمة مهما سَمَت، وانتهاء الحياة إلى العدم. وأمام هيكل عظمي، وهو وحيد، يُترَك منصرفاً إلى نفسه، مفكّراً بنهايته؛ وعندها يجد أمامه على منضدة الأسئلة الثلاثة الأولى التي سبق أن تحدّثنا عنها وعليه الإجابة عنها خطيّاً. وتحت هذه الأسئلة يوجد فراغ كُتبت في أعلاه كلمة وصية وعليه أيضاً ملؤه.

بهذه الكلمة أردنا أن نفهمه أن دخوله في الماسونية هو موت العالم الأناني، عالم أن يهتم كل واحد بنفسه فقط، وأن عليه في هذه اللحظة السامية، إلى جانب تفكيره بواجباته العائلية، أن يفكر بالتعساء الذي نواسيهم في كل يوم وأن يمدّ لهم يد العون.

خلاصة ماسبق، ننتظر إجاباتكم على الأسئلة التي طرحنا، أجوبة جليّة حازمة كما نتوقّع ممن يشعر ويفكر معنا. ومباشرة بعد ذلك، وضمن المهلة المحدّدة في الأنظمة، سنرسل لكم المنح المستحق لمختلف الرُتَب والتعليمات العائدة لها والحقوق التي تمنحها.

عندما تتمعن في مضمونها، ستشعر بالحاجة لنشرها من أجل خير البشرية، وستدعو إلى النور الأمم التي ماتزال هاجعة في ظل الموت، وتوقظ فيها النار المقدسة بدعوتها إلى مؤسسة الأخوّة الشاملة الكبرى. وسيباركك الله، لأنك ستغدو حقاً رسوله، وسنفرح ونبتهج معه لأن برّه سيتزايد ويتكاثر بواسطتكم مع جلال أرز لبنان، ومع أريج ورود شارون، وبفضل جهودك المظفّرة ستنعم أجيال المستقبل بسلام في تذوّق شجرة الحياة. نسأل الله العليّ القدير أن يستجيب لدعواتنا بأن يحلّ عليكم بركاته. فهذه هي أيّها الأمير الشهير أقصى أماني أخوتك المخلصين.

ماسونيو محفل هنري الرابع.

تستحق أجوبة عبد القادر على الأسئلة المطروحة من أجل قبوله في محفل هنري الرابع أن تنسخ وتُشرح بالتفصيل لأنّها أجوبة أجدر بأن تسمى دروساً حقيقية استخدم فيها الأمير لهجة وطريقة تعبير مدرسيتين. إذ لايمكنه أن يبالغ في تقدير كفاءة الأوروبيين، حتى المسّارين، في فهم تعليم إسلامي باطني. لذلك بدت أجوبته وكأنّها

دراسة صغيرة كوزموغونية حقيقية، وهي تحتوي دون شك على الجواب الديني، والميتافيزيائي، والسيكولوجي وحتى الصوفي على الأسئلة. ولكن كيف أمكن للأمير أن ينتسب إلى الماسونية؟

لايحتمل الجواب بالنسبة لي أيَّ شك. إنه انتساب عن يقين، يقين بأن بالإمكان استخدام هذه المنظمة كأحد المسالك، سواء كجسر بين الشرق والغرب لتجاوز النزاعات اللاهوتية، أو لتوجيه بعض الأوروبيين على طريق الشرق، أو، وهذا إمعان في التفاؤل، لأن الماسونية تبدو للأمير وكأنّها المؤسّسة الأوروبية الوحيدة الجديرة باستحقاق الهداية: وقد أكد على ذلك لاحقاً بشكل واضح تقريباً.

بتعبير آخر، وأنا هنا أصوغ فرضية الساقي المَسقي: أعتقد الماسونيون استغلال عبد القادر وفكّروا بذلك، لكن الأمير المعلّم كان لديه مشاريع أخرى من أجلهم... لم يستطيعوا استيعابها.

وهذا هو مطلع رسالة الأمير.

«الحمد الله وحده

أيّها السادات الأجلّه، والهداة الأدلة جمعية الفرمسون، خصوصاً المفَّضل المقدّم في خلوة هنري الرابع؛ إنّه وصلني كتابكم وشوّقني خطابكم ولا أقدر أن أصف ماحصل عندي من السرور بوروده وإني أجيبكم باختصار حسب ترجمة المترجم لمكتوبكم وما أدري هل الترجمة موافقة لمرادكم أم لا».

كان تحفّظ الأمير مشروعاً: فهو من جهة لم يفهم المعنى الماسوني «للوصية الفلسفية» وهذا ما طرح مشكلة صغيرة؛ ومن جهة أخرى فإن الماسونيين لايعرفون المفردات الخفّية لابن العربي وهي القاعدة في التعبير عن أفكار الأمير؛ أخيراً فقد قامت مجادلات عديدة بيني وبين بعض المؤرخين الجزائريين حول هذا الموضوع بخصوص تفسير بعض المفاهيم القادرية، بل وحتى حول صحّة هذه الرسائل.

لنبق أولاً في العام ١٨٦٤، كان المترجمون في جميع مراحل هذه القضية، من الماسونيين المستعربين، فلهم إذاً مصالح إيجابيّة وهم غوستاف دوغا G.DUGOT الذي نقل أيضاً إلى الفرنسية: «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» ثم ج. أوبير J.Oppert أستاذ السنسكريتية في المكتبة الإمبراطورية، وأخيراً الأخوان ألفريد، وشارل غابو A&

CH. Gabeau والأخير هو مترجم الحكومة. أما عبد القادر فقد صحب عند سفره إلى فرنسة في العام ١٨٦٥ مترجمه الخاص السوري الجنسية، لذلك وضعت بين قوسين ترجمتي الخاصة لبعض الفقرات، وتعليقي على بعض الأخطاء الفادحة إذ أنني فضّلت أن أعرض الترجمة الماسونية لأوضح المعنى الذي فهمته أو أعطته السؤال الأوّل: ماهي واجبات الإنسان نحو الله؟

«أما قولكم ماهو الواجب على الإنسان لحق الله فجوابه إنه يجب على الإنسان أن يعظّم الله تعالى ويحبه ويسعى فيما يرضيه، ويقرّب إليه، ويتخلّق بأخلاقه تعالى مثل الرحمة والمغفرة والستر والعطاء والعلم والعدل واللطف وأمثالها، وأن يقتدي به في أفعاله ويجدّ في تنفيذ إرادته ويسلّم لأمره، ويرضى بأحكامه، ويصبر لبلائه. إنه لايقدر على رفع ما وضع غيره تعالى، وأن يتحقق أن كل نعمة هو فيها هي منه تعالى وحده، لاشريك له في خلقها».

إنه القسم الأقصر من الأجوبة. ألبداهته؟ أم لعدم ضرورة التفاصيل الدقيقة؟ في العام ١٨٦٤ كان عبد القادر رجلاً شديد التديّن، يرشد إلى استقامة المعتقد ويمارس النظام المتنسّك، والاعتزال، والجهاد الروحي. فليس لديه شيء يقوله إلّا الأحديّة الموحّدة؛ والتأكيد عليها في إجابته، ووقفاته الفاصلة، مكتفياً بكلمة هو التي تعني لديه الله الواحد الأحَد، لكنه يؤكّد ببساطة أن الإسلام لا يقبل «الشرّك»، وهذا يعني في الواقع عدم قبول ألوهية السيد المسيح. والحال أننا نعلم أن لعبد القادر موقفاً[1] كثير التمنطق حول هذه القضية وهو يتعلّق بمفهوم أقنوم التجسّد المعقّد.

هذا ونثبت فيما يلي كامل رد الأمير كما أورده الدكتور تميمي (ص٣٣٩ ومابعد) علماً أن الإجابة على السؤال الثاني: ماهي واجبات الإنسان نحو أمثاله؟ واردة في (الصفحة ٣٤٨) أما ملاحظات المؤلّف المتداخلة مع أقسام الرسالة فسندرجها في النهاية.

رسالة الأمير المتضمنة اجوبته على الأسئلة الماسونية

الحمد لله وحده

أيّها السادات الأجلّه، والهداة (كذا) الأدلة جمعية الفرمسون، خصوصاً المفَّضل

١ ـ هذا هو نصّ المخطوطة المسماة «شفاليه»، والنقاش الذي تم بينه وبين الأسقف دوبوش.

المقدّم في خلوة هنري الرابع؛ أنّه وصلني كتابكم وشوّقني خطابكم ولا أقدر أن أصف ماحصل عندي من السرور بوروده وإني أجيبكم باختصار حسب ترجمة المترجم لمكتوبكم وما أدري هل الترجمة موافقة لمرادكم أم لا».

١ ـ **أما قولكم ماهو الواجب على الإنسان لحق الله:** فجوابه أنه يجب على الإنسان أن يعظّم الله تعالى ويحبه ويسعى فيما يرضيه، ويقرّب إليه، ويتخلّق بأخلاقه تعالى مثل الرحمة والمغفرة والستر والعطاء والعلم والعدل واللطف وأمثالها، وأن يقتدى به في أفعاله ويجدّ في تنفيذ إرادته ويسلّم لأمره، ويرضى بأحكامه، ويصبر لبلائه. إنه لايقدر على رفع ما وضع غيره تعالى، وأن يتحقق أن كل نعمة هو فيها هي منه تعالى وحده، لاشريك له في خلقها».

٢ ـ **وأما قولكم ماهو الواجب على الإنسان لحق أقرانه.** فجوابه أنه يجب عليه نصحهم بإرشادهم إلى مصالح دنياهم وأخراهم وعونهم على ذلك بتعليم الجاهل وتنبيه الغافل والذب عنهم وعن أعراضهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وقضاء حوائجهم وترك حسدهم وجلب النفع إليهم ودفع الضر عنهم وجميع الشرائع تدور على أصلين الأول تعظيم أمر الله والثاني الشفقة على خلق الله تعالى ويجب عليه مع هذا أن يرا (كذا) نفوسهم ونفسه من أصل واحد وأنه لافرق بين نفسه ونفوسهم إلا باختلاف الملابس والمظاهر لأن النفس الكلية المنبعثة عن الروح كانبعاث حواء من آدم أصل نفوس الكل وهو مادة لاتعدد والتعدد إنما هو في ملابسها التي تظهر بها وصورها التي تتجلى بها وذلك أن الأجسام بيوت مظلمة وأقطار سوداء فإذا غشيتها أنوار النفس الكلية أضاءت وأشرقت بالأنوار المفاضة منها كالأماكن إذا غشيها نور الشمس أضاءت ونور الشمس واحد لاتعدد فيه وقرص الشمس واحد وهو ذاتها غير أن نور الشمس لما صدر عنها أضاءت الأماكن المتعددة به فتعدد بتعددها فالتعدد من جهة الأماكن لا من جهة النور على ما هو عليه لايتغير والشمس كذلك والنور الذي بالشام غير النور الذي بافرانسا ضرورة فليس إلا نفس واحدة في مظاهرها فالتعدد للمظاهر لاللظاهر كما ظهرت مراتب العدد وتعددت بالواحد من الآحاد والعشرات والمآت والألوف لأن كل مرتبة من مراتب العدد ليست غير الواحد الظاهر بها لأن الاثنين مثلاً ليس إلا واحداً وواحداً اجتمعا فحصل الاثنان فليس فيه سوى الواحد المتكرر وكذا سائر

مراتب الأعداد إلى غير نهاية فمراتب الأعداد كلها تفاصيل لأحوال الواحد وهي كثيرة وهو واحد.

مثال آخر: النفس الكلية مثل مركز الدائرة والنفوس الجزئية مثل الدائرة والدائرة كلها خطوط ونقط متصلة بعضها يبعض فنقطة مركز الدائرة تقابل كل نقطة من نقط الدائرة بكلها وكل نقطة من نقط الدائرة هي عين نقطة المركز باعتبار انفرادها ومقابلتها إياها فهي محيطة بكل نقطة من هذا الوجه ولهذا صح للإنسان أن يحب ذاته في غيره.

٣ ـ **وأما قولكم ما الواجب على الإنسان نحو نفسه:** فالجواب أنه يجب عليه أن يزكيها ويطهرها من كل رذيلة ويزينها باكتساب كل فضيلة والفضائل وإن كانت كثيرة فهي ترجع إلى أربعة أصول فإذا حصلت هذه الأصول واعتدلت حصلت جميع الفضائل. وهي قوة العلم وقوة الغضب وقوة الشهوة وقوة العدل بين هذه الثلاثة:

* أما قوة العلم فاعتدالها وصلاحها في أن تصير بحيث يحصل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال. فإذا اعتدلت قوة العلم حصلت منها ثمرة الحكمة، فالحكمة رأس الفضائل.

* وأما قوة الغضب فاعتدالها هو أن يصير انقباضها وانبساطها على حد ما تقتضيه الحكمة.

* وكذلك الشهوة اعتدالها هو أن تكون تحت إشارة الحكمة أعني إشارة العقل والشرع.

* وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع فاعتدال القوة الغضبية هو المعبر عنه بالشجاعة فإذا زادت على الاعتدال سميت تهوراً وإذا نقصت عن الاعتدال سميت جبناً وضعفاً وكلاهما مذموم. واعتدال القوة الشهوانية هو المعبر عنه بالعفة، فإذا زادت على. الاعتدال سميت شرهاً وتكالباً وإذا نقصت سميت جموداً وكلاهما مذموم. واعتدال قوة العلم هو المعبر عنه بالحكمة فإذا زادت على الاعتدال وصار صاحبها يستعملها في اخداع الناس والمكر بهم سميت خبثاً ومكراً، وإن نقصت سميت جهلاً وكلاهما مذموم. وأما

العدل فهو حالة وقوة يسوس بها الغضب والشهوة ويحملهما على مقتضى الحكمة.

ويجب عليه مع هذا نحو نفسه أن يراعى حق الجسم الذي هو من عالم الكون والفساد فإنه يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعم والمشرب والملبس والمنكح لأن الجسم لم يخلق عبثاً لغير فائدة ولاقرنت النفس بتدبيره لأمر باطل ولأن النفس لما تعلقت بتدبير الجسم غمرتها ظلمة الطبيعة فاحتاجت إلى الحواس لتكتسب بها العلوم والمعارف فلا بد من السعي فيما يصلح الجسم واستعمال الأشياء التي جعلها الله سبباً لبقاء هذا الجسم وحواسه، فإن إهمال الجسم بالكلية وتعريضه للهلاك من أكبر الخطايا وفيه اعتراض لخالقه ومضادة لحكمته تعالى.

أما عدم موت النفس فهو مما تطابقت عليه العقول والشرع المنقول لأن الموت فساد واضمحلال والفساد إنما هو من صفات الأجسام فإن تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء إذا صار هواء والهواء إذا صار ماء والنبات إذا صار تراباً والتراب إذا صار نباتاً. وأما الشيء الذي ليس بجسم ولا هو محتاج في بقائه إلى جسم فلا يتصور فساده والنفس ماهي جسم ولا عرض ولاتتجزى (كذا) ولاتتحيز ولا هي في جهة ولا في مكان ولاتوصف بشيء من أوصاف الأجسام ولاتدرك بشيء من الحواس ولايتوصل إلى معرفتها بشيء سواها فهي العالم والمعلوم والعلم لاتباين في شيء من ذلك إذ التباين من صفات الأجسام والنفس جوهر روحاني غير مركب وماليس بمركب لايموت ولايفنى. فالنفس لاتفنى والروحاني لايدخل تحت الزمان وما لايدخل تحت الزمان لايتغير فالنفس لاتتغير.

٤ ـ **وأما كون جميع أجناس البشر متساوون (كذا) أمام الله** فجوابه أما من جهة وجودهم وحقيقتهم التي هم بها بشر فقد قدمت أنهم متساوون في ذلك وأن حقيقتهم واحدة وإن تعددت ملابس تلك الحقيقة وصورها وأسماؤها مثل الحقيقة البياضية في الثوب والجوهر والكاغد والدقيق والسمن فإن البياض حقيقة واحدة ظهرت في الكاغد ظهورها في الجوهر من غير أن يتصف البياض بأنه جزء منه فيه. وكذا العودية في الخشب والمنبر والتابوت والكرسي ونحو ذلك من الحقائق. وأما كون جميع أجناس البشر متساوون (كذا) أمام الله بالنسبة إلى رضاه وغضبه فلا ـ إذ العقول والشرائع قاضية بأنه لايتساوى الإمام الصادق والخائن

الكاذب ولايكون صاحب الرذائل مساوياً لصاحب الفضائل ولايكون الذي يغضب أحوال الضعفاء والفقراء والأيتام ويتلف نفوسهم مثل الذي يواسيهم بماله ويسعى في حياتهم فلا تتساوى النفوس أمام الله في المجازات (كذا) لأن النفوس على أربع مراتب: الأولى النفوس الفائزة بالمطالب العقلية من معرفة الصانع والوقوف على حقائق الأشياء بحسب الطاقة البشرية. ثانيها: النفوس التي ترتسم فيها المطالب ولاأضدادها وهم في سعة من رحمة الله ومرتبتهم أحط. ثالثها: النفوس الجاهلة التي ارتسمت فيها أضداد المطالب الحقة المطالبة لما في نفس الأمر لاكن (كذا) لاتكون راسخة فيها بل تزول بسبب من الأسباب فيحصل لها ماحصل لمن قبلهم من الرحمة. رابعها: النفوس الشقية وهم الذين انتقشت نفوسهم بالصور المضادة للأمور الحقة وتكون راسخة لاتزول بسبب من الأسباب ونفوس هذه المرتبة هالكة ونسبة النفوس المختلفة إلى النفس الكلية كنسبة ولات (كذا) الأمصار إلى الأمام الأعظم. ولذلك يثابون إذا عدلوا في الرعايا ويعاقبون إذا جاروا وهذا مثال للنفوس المولات (كذا) على الأجسام الآدمية الحاكمة على الحواس من قبل النفس الكلية التي هي نفس النفوس والعقاب والثواب وقت عزل الإمام لهاؤلاء (كذا) الحكام بالموت ومع هذا فإن النفوس لشرفها تلحقها رحمة الله بعد نفود (كذا) الغضب الإلهي فيمن أراد الله عقابه وإلا شقيت بدخول النار فهو كما تشقى في الدنيا بالأمراض والعلل والهموم وتزول عنها فإن ذلك غير مؤثر في شرفهاإذ كانت من العالم الأشرف فإن الله يعاملها بما يقتضيه شرفها. فكما أن الأصل يجمعها كذلك الرحمة تجمعها وتصير النفوس كلها إلى خير ونعيم.

قولكم كيف تفهمون إبراء التحمل والأخوية: إنا نعلم أن الله تعالى ما خلق هذا الخلق عبثاً لغير شيء لأنه حكيم لايعمل شيئاً لغير فائدة ولا خلقهم ليأكلوا ويشربوا ويتمتعوا ويعمروا دار الدنيا فقط لأنه لو خلقهم لهذا لاغير مانقلهم عن هذه الدار ولأبقاهم في الدنيا دائماً. فلا شك أنه خلقهم لأمر آخر هو المقصود بالذات وماسواه وسائل إليه فالمقصود من خلق الله هذا الخلق هو أن يعرفوه بصفاته التي دلت عليها مصنوعاته فإن كل مصنوع لابد أن يكون لصانعه صفة العلم بالشيء المصنوع وأن تكون له قدرة على صنعته وأن يكون حياً لأن العلم والقدرة لاتكون لمن لاحياة له فإذا عرفوه بصفاته وكمالاته لزمهم أن يذلوا ويخضعوا له

والخضوع هو العبادة والعبادة تكون بالقلوب بالعلوم والمعارف وبالأبدان وبالأموال كالصدقات والخلق كلهم عابدون لله ومريدون التقرب إليه، ولاكن (كذا) منهم من اهتدى وأصاب المقصود ومنهم من ضل وأخطأ المقصود لأن الله تعالى موصوف بالصفات المتضادة فهو المنعم وهو المنتقم وهو المذل وهو المعز وهو المعطي وهو المانع وهو المضل وهو المهدى (كذا) إلى غير ذلك من الأضداد ولاتبقى صفة من صفاته معطلة من غير أن يظهر في العالم أثرها.

فلا شك أن في العالم من ضل وأخطأ الصواب وفي العالم من اهتدى وأصاب الصواب. وكما أن في العالم عزيز وذليل وغني وفقير ومنعم عليه ومتنعم منه ونحو ذلك وأن كل العالم عابد لله وخاضع له بمعنى أنه يجري في أفعاله على إرادة الله به فكل شيء في الوجود مطيع لله من هذا الوجه، والملل والديانات لاتتناها (كذا) لكثرتها ولكن أصولها عشرة: وهم الكفار والطبائعيون والفلاسفة والثنوية والمجوس والدهرية والبراهمة واليهود والنصارى والمسلمون فمدار الجميع على هذه العشرة ملل. وما ثم طائفة من هذه الطوائف إلا وقد خلق الله منها ناساً للجنة وناساً للنار لأن الكفار في الزمان المتقدم من النواحي التي لم تصل إليها دعوة الرسول في ذلك الوقت منقسمون بين عامل خير جزاؤه عند الله الجنة وعامل شر جزاؤه عند الله النار وكذلك أهل الكتب من اليهود والنصارى والمسلمين، فالخير قبل نزول الشرائع وإرسال الرسل ما قبلته القلوب وأحبته النفوس واستلذت به الأرواح، وبعد إرسال الرسل ونزول الشرائع ما أمر الله به عباده بواسطة الرسل. والشر قبل ارسال الرسل ونزول الشرائع ما مجته القلوب وكرهته النفوس وتألمت به الأرواح. وبعد إرسال الرسل ما نهى الله عنه عباده بواسطة الرسول. وذلك أن كمال حال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته ويعرف الخير للعمل به. أعني أن تصير قوته النظرية كاملة بحيث تتجلى منها صور الأشياء وحقائقها تجلياً كاملاً مبرءاً (كذا) عن الخطأ والزلل، وأن تصير قوته العملية كاملة بحيث يحصل لصاحبها ملكة يقتدر بها على الأعمال الخيرية الصالحة. والمراد من الأعمال الخيرية الأحوال التي توجب النفرة عن العادات البدنية وتوجب الرغبة في عالم الروحانيات. فلا سعادة للإنسان إلا بالوصول إلى هاتين الحالتين. والناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: أحدها الذين يكونون ناقصين في هذه المعارف وهذه الأعمال، وهم عامة الخلق وجمهورهم. ثانيها الذين يكونون كاملين في هذين المقامين إلا أنهم لايقدرون

على علاج الناقصين وهما الحكما (كذا) ثالثها الذين يكونون كاملين في هذين المقامين ويقدرون على معالجة الناقصين ويمكنهم السعي في نقل الناقصين من حضيض النقصان إلى أوج الكمال وهاؤلاء (كذا) هم الرسل. فيلزم الإنسان أن يعرف أولاً الحق والصدق في الاعتقادات ماهو وأن الصواب في الأعمال ماهو، فإذا عرف ذلك ثم رءا (كذا) إنساناً يدعو الخلق إلى الحق ورءا (كذا) أثراً قوياً لقوله في صدق الخلق من الباطل إلى الحق عرف أنه رسول صادق واجب الاتباع. والرسل لايأتون قط بشيء يخالف العقول السليمة ولاكن (كذا) ربما يأتون بشيء لاتصل العقول إلى إدراكه فإذا بينه الرسول أدركته العقول واستحسنته. وذلك لأن طور الرسالة فوق طور العقل، كما أن طور سن التمييز فوق طور سن الصبا فاجراء التحمل هو أن لايتعرض لصاحب دين ويجبر على ترك دينه ونقص اعتقاده بالسيف والقهر. وجميع الشرائع الحقة جاءت بهذا سواء دين الإسلام وغيره. والجهال من المسلمين وغيرهم يظنون أن المسلمين إذا قاتلوا النصارى أو غيرهم إنما يقاتلونهم ليتركوا دينهم ويدخلوا في دين الإسلام فهو خطأ فإن شريعة الإسلام لاتجبر أحداً على ترك دينه ولاكن (كذا) يجب على من عرف الحق في الاعتقاد والصواب في الأعمال ورءا (كذا) مخطئاً ضال (كذا) عن الصواب أن يرده برفق وسياسة ويبين له الطريق بالبراهين والأدلة التي تدركها العقول وهذا من باب جلب النفع ودفع الضر عن الاخوان بل هو أعظمها. وأما الوصية فما فهمت المراد بها فنرجوكم الاعلام بذلك. والفقراء عندنا كثيرون والذي يلتفت إليهم كاد أن يكون معدوماً. ونحن والحمد لله فاعلون معهم غاية طاقتنا والسلام

منتصف ربيع الثاني

الفقير إلى مولاه... عبد القادر بن محيي الدين...

يبدي المؤلّف الملاحظات التالية:

- يتساءل في نهاية الإجابة على السؤال الثاني: كيف استطاع الماسونيون ألّا يبدر منهم أي ردّ فعل على تعريف النُقَط، بينما لديهم في طقوسهم بالذات عبارة مماثلة؟ النقط، تركيزها هو فعل المهندس... وعبد القادر يمدّ لهم يد المساعدة بدءاً من ظهورات النور، والعدد، والدائرة. وسبق لي أن بيّنت أهمية هذه الهندسة لدى الأمير: فهي مستمدة من ابن العربي محسَّنة.

والواقع أن الأمر لم يقتصر على عدم فهم الماسونيين لها ولكن ج دوغا G.Dugat يفاقم وضعهم عندما يزيد في ترجمته ملاحظة أوروبية وسطية: «... هذه الفكرة من الأمير لها علاقة ما مع تفكير باسكال: بما أننا لانتمكن أن نحبّ إلّا من هو خارج عنا، فيجب أن نحب كائناً موجوداً فينا وليس هو بنحن؛ والحال أن الكائن الكلي وحده تميّز بهذه الصفة: فمملكة الله فينا، والخير الكلي في ذواتنا ولكنه ليس نحن. وباسكال فهم هذا بالطبع...» ويضيف دوغا أيضاً: «يذكّر شكل المحاكمة بالأسلوب المدرسي ولكن في عمق الأفكار يبدو الأمير روحانياً إلى حدّ ما بالمعنى المحدث، وأسلوبه واضح، دقيق، لكن الطبيعة الفلسفية (هكذا) لهذه الرسالة تجعل الترجمة صعبة جداً» ما من أحد إلا ويتعرّض لهذا النوع من المشاكل ورينه خوّام الذي قدّم طبعة جديدة من **رسالة إلى الفرنسيين** يشير إلى ضعف ترجمة دوغا.

ـ يبدي المؤلّف ملاحظة حول ترجمة كلمة «الشهوة» بالهوى Passion في الجواب على السؤال الثالث ويذكر أن هذا تخفيف وخاصة إذا عرفنا مفهوم الاندماج وأطروحات عبد القادر حول الانسجام والتكامل بين الرجل والمرأة. ولكن المسيحيين لديهم مشكلة في النظر إلى أجسادهم، والماسونيون ليسوا متحررين من هذه المشكلة.

يشير بعدها إلى جملة سقطت في الترجمة رغم أهميتها وهي «أما قوّة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقل والشرع».

في خاتمة الجواب على السؤال الثالث: هذا كثير الاستقامة ولايمكن إلا أن يفتن الماسونيين الذين ينادون بخلود الروح، مع الانتباه إلى مايقوله فيما بعد عن الهلاك الأبدي، كما أن الأمير يؤكّد في مطلع الجواب على السؤال الرابع وجهة نظره الشخصية في الفرق بين الظاهر والجوهر: في مثالي البياض والخشب.

ـ يعيب المؤلّف على مترجم الرسالة عدم فهمه للنفس الكلية التي ترد بمعنى نفس النفوس، وكذلك وضعه كلمة «الله» بعد الإمام عند الإجابة على السؤال الرابع.

أجوبة الأمير لجملة الأسئلة التي طرحها عليه لوج هنري الرابع

كذلك يلاحظ في نهاية الإجابة على هذا السؤال: وفيما يتعلق برحمة الله التي تلحق النفوس الشريفة، أن جحيم عبد القادر ليس جحيم دانتي حيث الرجاء مفتن للهالكين...». ولكنه بخطئه وبدون قصد، ينبّه إلى ابتكار قادري: فعبد القادر كمعلمه ابن العربي يفكر أن فرعوناً سينقذ وأن العقاب ليس سرمدياً (فرعون هو فرعون سورة يوسف في القرآن الكريم، وهو فرعون النص التوراتي في قصة يوسف أيضاً).

وفي الإجابة على السؤال الخاص حول التسامح والأخوة: أو مايسميه الأمير إبراء التحمّل والأخوية: تلاحظ أيضاً صعوبة في الترجمة ناتجة عن جدلية صيغ الفعل بين لازم ومتعد إلى جانب صيغ المبالغة المستخدمة لدى الصوفيين عدا عن أن الأضداد لاتعني تناقضاً وإنّما تكاملية، كما نجد هنا فكرة أساسية عند الأمير لكنها ليست تقليدية تماماً وهي أنّ كل مصلٍّ أياً كان نوع صلاته فهو يصلّي لله. ثم يذكر أن كلمة ملّة Seete لاتعني الانتقاص، وإنما تؤخذ بمعناها الأنتروبولوجي، وقد استخدمها الأمير في منادراته - أي مناقشاته - مع رجال الدين المسيحيين؛ والفقهاء المسلمون أقرب إلى فهم المسيحية الشرقية منهم إلى الكاثوليكية الغربية، لكن الفروق ليست ذات أهمية في رأي عبد القادر، وهو في تصنيفه للناس إلى ثلاثة أقسام يشير إلى أنه لايعتقد بالتساوي بينهم وفقاً للمفهوم الماسوني على الأقل، وهناك فرق بين عامة الخلْق، والحكماء والرسل وينبّه المؤلف إلى خطأ ترجمة الفئة الأخيرة بأنبياء: فهم رسل مبعوثون.

أخيراً وقعت الترجمة الفرنسية في خطأ فادح في القسم الأخير من الجواب الذي ينطلق فيه الأمير من مفهوم الآية القرآنية ﴿لاإكراه في الدين﴾ (٢ - سورة البقرة - ٢٥٦)، وهو يذكر صراحة أن جميع الشرائع الحقّة جاءت بهذا، سواء دين الإسلام أو غيره، ويبدو أن هذا الخطأ سواء أكان من قبل مترجم الأمير أو غيره من التراجمة يتكرّر في بعض الرسائل الأخرى كما نوّه التميمي. أما كلمة الوصيّة التي طلب الماسونيون من الأمير وضعها، وهم يقصدون الوصية الفلسفية أو الفكرية، ويبدو أنها تُرجمت له بمعنى آخر فلم يفهم المراد منها، وطلب زيادة الإعلام مع توصيته في الختام بالفقراء الكثيرين. وقلة الملتفتين إليهم.

فضلت أن أقدّم هنا الترجمة المقدّمة للماسونيين في محفل هنري الرابع دون ترجمتي الخاصة لأبين كيف نظروا إلى هذا النصّ والفكرة التي أمكنهم أن يكوّنوها

عن الأمير عبر أجوبته المترجمة. ولنصرّح في الحال أن المترجم قام بجهد محترم، وأنّه بالتأكيد متمكن من اللغة العربية، فأنا لا أركز إذاً على تفصيلات الترجمة، وإنّما على أن المترجم لايعرف لغة التصوف الإسلامي ولا أسلوب الخطاب الباطني، ولا أعتقد إذاً أن الأخوة استطاعوا إدراك مزدوجة **الباطن/ الظاهر**، ويبدو واضحاً أن تعابير أخرى ذات معنى مزدوج قد فاتتهم.

إضافة إلى أن الجواب مختصر، وعبد القادر، دون شك، كما في **رسالته إلى الفرنسيين** يتحدّث بلغة مبسّطة، بالرغم من أنه أجرى بعض التلميحات حول قدرة الماسونيين على فهم رسالته الخفيّة... وقد وجب الانتظار نحو قرن أو أكثر ليلاحظ بعضهم ذلك.

غير أن هذا النص لايمكن أبداً إهماله، وأنا أكتفي هنا بذكر بعض نقاط الاستدلال إذ أنني أفصل في مكان آخر أفكار الأمير العميقة.

الإتجاه العام للنصّ أشعري لاقدري مضاد لفكر المعتزلة[1].

لايتمّ الإلحاح على الإختيار الحر وإنّما على كامل القدرة الإلهية؛ ولكن مع بعض الفرق عن الأشعريين الملتزمين. فعبد القادر يلحّ ضمن سلسلة الأسماء الإلهية على الرحمة عبر الصوت الذي يستخدمه غالباً: الرحمن الرحيم: فالله ليس مستبداً كيفياً، وهذه هي إحدى إطروحات مدرسة وحدة الوجود التي ينتمي إليها عبد القادر، فللخير بالنسبة إليه عنصر واحد وحقيقة واحدة وتعدّد المعتقدات يعود إلى تعدّد أسماء الله نظراً للتنوّع اللامتناهي في الظهور الإلهي، وقد كتب عبد القادر في كتاب المواقف:

«إنّ لله تسعة وتسعين اسماً إن أردت دعوته بلسانك، وليس له إلا اسم واحد إن أردت دعوته بقلبك».

غير أنه يشير إلى اجتماع الضدين في الأسماء الإلهية دون أن يذكر، مع ذلك، أن المطلق غير خاضع للمنطق الأرسطوطاليسي. وبصورة عامة، فإن العرض يتبع **فصوص الحكم** للشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، والتناقض الظاهر يقوم بين الحقيقة المحمديّة التي لاتسمّى أبداً هنا وظهوراتها.

---

١ ـ الأشعرية: مدرسة عَقَدية ولدت من تعاليم أبو الحسن الأشعري (٨٧٤ ـ ٩٣٥) الذي انفصل عن المعتزلة. انظر لاوست: الانشقاقات في الإسلام. طبعة بايو ـ باريس.

وما عبّر عنه المترجم، بشيء من الأسف، بالروح الكلّي هو الروح **الأعظم** وعقل كل شيء، والكلام؛ ترجم بالعقل الأول في نظرية القرن ـ أوسطية، أو النوس NOUS في الأفلاطونية المحدثة، والفكر الأفلاطوني. وهو يتعلّق بالتحديد الأوّل الذي هو درجة الوحدة التعددية أو الظهور الإلهي الثاني للأسماء أو الصفات. ولكن عبد القادر يحترس في قول الظهور الإلهي الأوّل للأسماء، وخاصة فيما بعد هذا التحديد الأوّل، وما من تلميح على مستويات عدم التحديد. وهذا التحديد الأوّل متصوّر كمبدأ لإحداث التعددية وما يسمى هنا الروح السامي يسميه الجيلي Jili**الوجه الله في الإنسان الكلّي**، رغم أنني أعتقد أن عبد القادر كان يعتمد في قراءاته على ابن العربي أكثر من عبد الكريم الجيلي... لكن يمكن أيضاً القول **أم الكتاب** أو باء **بسم الله**. والواقع أن عبد القادر يعني العقل الافتتاحي. هذه الحقيقة تتجسّد في آدم (مؤسّس الماسونية وفقاً لسيرتها التعظيمية!) وعند هذه النقطة فإن نهاية النصّ تثير الفضول لأن آدم هو نفسه نبي ـ رسول. إن التصنيفية التي يعطيها عبد القادر لأشكال المعتقدات كلاسيكية تقريباً، فهي تتوافق مثلاً مع تصنيف الغزالي لكنه يضيف في النهاية والأديان الموحى بها... مما يمكن أن يظهر وكأنه تنازل لمخاطبيه. إنّما لدينا البرهان أن عبد القادر بالنسبة إلى هذه النقطة يذهب إلى مدى أبعد من جميع المسلمين: فهو يقصّ حلماً لامه فيه ابن العربي على استخدام صيغة السلام عليكم في تحيته للمسيحيين، وقد أقام عبد القادر الحجّة ضد رأي معلمه ليبرهن على صحة موقفه.

وما يبدو لي أساسياً هو إلحاحه على الواحد والمتعدّد... وقد عرض في الواقع بسرعة الوحدة الجمعية **/الواحديّة**، بينما هو في كتاب المواقف يشرح بإسهاب كل هذه النقاط، ويؤكّد على أهمية **الألِف/باء** دون أن ينسى سرَّ **اللام/ألف**... فاندماج الحرفين مماثل لاندماج الحقيقة الإلهية في أشكال المخلوقات.. فالله والخَلْق اسمان يشيران إلى مسمّى واحد... بعد ذلك يعرض عبد القادر أنواعاً عديدة من الظهورات مبسطة بأمثلة عن النور والعَدَد والدائرة، ومما يثير الفضول أن الماسونيين الباريسيين، وهم الملمون باللاقياس، واللامعقول، والخيالي، والمعقّد، بل وربّما برباعيات هاميلتون (١٨٤٣)، لم تبدر منهم ردود فعل على تأكيدات عبد القادر، ومن المحتمل أن يكون فيها تأثيرات من أخوان الصفا وابن سينا، ولكن الأمثلة كانت تقليدية تماماً ولاتسمح بتقرير جازم.

ألاحظ أن عبد القادر يفضّل قوس النزول، ويبقي أكثر من مقتضب حول قوس الصعود، ولكن في قوس النزول يتجنب ليس فقط الأحدِّية مابعد الواحديّة، وإنما أيضاً عالم المثال.

لن أوضّح معنى هذا «النسيان»[1] الذي يدهشني خاصة وأنّ المسارّة بالنسبة إليه صاعدة دائماً وتظهر في الحدود المجتازة برحلة الإنسان في ذاته بالوِرْد والذِكْر، في المحفل، وفي شمولية الأدَما ADAMA، عبر النعمة الإلهية: المبَرَكَة التي يريد أن تستفيد منها فرنسة.

ربّما كانت هذه استراتيجيةً في وقت كان مايزال فيه غير واثق من القدرات الماسونية.. والحدّ الأدنى الذي يمنحهم إياه مع ذلك، هو أنهم يعرفون أن طريق المسارّة، وهو العائد إلى التقشف، هو طريق صاعد، وان طريق التصوف وهو العائد إلى البركة، طريق نازل. وأنّهما لايختلطان حتى وإن تصالبا أحياناً، ولايمكنهم بالتأكيد أن يعرفوا جميعاً أن السيرورة المساريّة والنتاج الكبير الكتيم ليسا في الحقيقة إلا ذات الشيء الواحد: هو الظفر بالنور الإلهي الذي هو الخلاصة الوحيدة لكل تعلّق بالقيم الروحية. وتفسير هذا في المفردات القادرية: هو أن **التوحيد** يقوم على معرفة **الحدود** أي الدرجات السماوية والأرضيّة، والاعتراف بأنّ كلاًّ منها هو وحيد في صفه ودرجته دون أن يكون لشيء غيره ضرورة له. والحال أن الماسونيين لديهم معالمهم Land - marks بمراتبها ودرجاتها: فالتماثل هنا مُدهش.

وبالمقابل فقد وجدت جواب الأمير عن المساواة بين البشر يكشف تماماً عن شخصيته، فهو يعرض فيه قوانينه في إدراك الحقيقي: من الشيء الطبيعي، قطعة الخشب غير المصنّعة، إلى الشيء التقني الذي شكّلته يد الإنسان. وهو يحدّد مراكز اهتماماته حيث تسيطر فيها نرجسية شديدة، هي أقل ظهوراً بكثير لدى ابن العربي الذي يستميله العطر خاصة. أما عبد القادر فهو مهتم على الدوام، عبر بساطة في اللباس، بحالة لحيته التي كان يخضبها دائماً بالسواد حتى نهاية حياته. وفي هذا النص يظهر تفضيله للبياض في ثلاثة أشياء: البَشرة، واللباس، والحلي. وبعدها يعبر عن اهتماماته التي تتعلق بالعيش (موضوع الطحين)، والاتصالات المكتوبة (الورق)،

١ ـ انظر حول هذا الموضوع المعقد م. فالسان M.VALSAN: «الدرجات الأخيرة ECCOSSISME والتحقّق النازل» في الدراسات التقليدية العدد ٣٠٩، ١٩٥٣ ص٢٢٥.

والموت (النعش)، والاتصالات الشفهية منبر الوعظ، والكرسي). والواقع أننا نعلم بحصوله على إذن بالوعظ والإرشاد الشفهي؛ ويبدو لي بديهياً أنه بتعداده لسلسلة: المأكل، والمشرب، والملبس، والمجامعة يشير إلى أنه ليس داعية إصلاح، وإنما صوفي مندمج؛ والعدوانية والخوف من الشذوذ الجنسي غائبان هنا بالرغم من أنهما يشغلان بال كثير من مفكري عصره، وأولئك الذين أتوا بعدهم حتى ابن باديس مثلاً. غير أن عبد القادر هو على الطريق المستقيم إذ أن انتباهه يرتكز على ماهو جميل، وخاصة في جسمه وفي وجهه، وهو يستعيد الحديث الشهير رأيت مولاي في أجمل خلائقه..» وقراءة القرآن هي الإلتفات إلى هذه المرآة من العلائم التي تعكس الصورة الإلهية.

ثم يعود موضوع الموت من جديد، لأن عبد القادر يشعر في آن أنه مهدّد ولأنه خاصّة يذكر لماذا لانتمكن من الاستمتاع كثيراً في هذا العالم، لكنه على الأقل لايرى في الموت ماينسبه إليه الجهلة والحمقى، فهو وحده الذي يتيح رؤية وجهه، «انظر ماذا حجبت من أجل أن تكون هكذا..» يبدو لي أن هذا النصّ الصغير لعبد القادر أكثر أهمية من غيره ليُوجّه إلى الأوروبيين، ويجب أن يكون قد اعتقد بقدرة الماسونيين على فهمه؛ وإلا فما الذي يدفعه ليرتبط وينكشف هكذا؟

أحد المؤلّفين القلائل ممن لمحّ إليه في ذلك العصر (ف. دستاليوز Ph. d'Estailleur) يعتبر أنه موجّه لطمأنة اليهود، رغم أن مما يدعو إلى الدهشة أن في محفل الجزائر وكذلك أيضاً في كل المحافل الماسونيّة في أوروبة، لم يكن لليهود وجود لأنهم لم يُقَبلوا فيها. ومايزيد هذا الأمر أهمية هو أن معارضة المسلمين للماسونية تبرّر بشكل رئيس بتواطئها الضار (المفترض) مع الصهيونية ـ واعتبارها ـ على ذات المستوى مع الماركسية ـ ابناً خفيّاً لها، وهي حجّة لم توسّع وتنتشر إلا بعد ذلك بزمن طويل عند خلق دولة إسرائيل، ولكن بذرتها وُجِدَت في البروتوكولات.

الفرضية الثانية، هي أن عبد القادر الذي كانت تدفع له فرنسة بسخاء (يقدر كتبة سيرته الذاتية مبلغ ما يصله سنوياً منها بين مليون ومليوني فرنك سنوياً، بينما يستنتج من الملفات أن مايصله شهرياً هو ١٠٠٠٠ فرنك ذهباً) وهو يغتنم كل الفرص ليبرهن على ولائه، ويبدو لي أنّ من المشكوك فيه شعور الأمير بأنه مدين لفرنسة على هذا المستوى، عندما نعلم كيف ينفق الأموال التي تصله، غير أنه كان واضحاً دائماً في

مدى تقيّده بوعده لنابوليون الثالث، كما نعلم أن السلطة لم تعد تهمّه[1] فرضيّة طبيعية جاءت تطعّم الفرضيّة السابقة، ففكرة الموت بدأت تحاصر عبد القادر، إذ أخذ يشعر أن حياته يمكن أن تكون في خطر في سورية وخاصة بعد الدور الذي لعبه في قضية العام ١٨٦٠، فبعضهم يتهمه بأنه غير مسلم بل «أفريقي مدحور لاجئ إلى الأراضي العثمانية... فهو أكثر غربة من أي باشا تركي»[2]. إنه بحاجة لدعم أوروبي ليصمد كما يعترف بطريقة تثير الفضول، وتتباين مع الصورة والشهرة اللتين عرفتهما أوروبة عنه. والواقع أنه يقول ذلك بجلاء. ولكن هل يُلزم هذا القول بالقناعة به؟ - إن المسارّة في هذه الحالة ستضعف الجزع من الموت. هل نقتنع بهذا خاصة إذا أخذنا المعنى الباطني كليّاً: «أمتني لأتمكن من أن أرى وجهك..». الفرضية الثالثة، وهي أكثر جدّية وتزعج إلى حدّ ما تلك المجموعة من الجزائريين الذين يعتبرون الأمير بطلاً مقاوماً ومؤسّساً لدولة جزائرية حديثة (وهذا ما لايمكن إنكاره). هذه الفرضية، تعتبر عبد القادر قد تطوّر نحو مواطنية عالمية إسلامية، جعلته يهمل وطنه الإقليمي لمصلحة دار الإسلام المتجدّدة بدعم من الغرب. إنها أطروحة تستقيم جيّداً عندما ندرس فكر الأمير وكتابات مرحلة النضج وحياته في دمشق قرب ضريح معلّمه ابن العربي. وبهذا المعنى فالمحفل متحرك لدى المؤثّرين المسلمين والمسيحيين. وبهذا المعنى فإنّ الإقلاع عن الجمود المرتبط بالوطن الأم، يدفعه مع مؤثّرات الحج نحو **التشريق**، وفي نهاية الرحلة نحو الشرق يكتشف أن هذا الشرق عمودي. يجب إذاً التخلي عن الأرض، والتقدّم في طريق الله والواقع أنه هنا في مسلكه لأن والدته قد توفيت، والسبيل منكشف أمامه منذ وَجده في غار حراء.

لدى ابن العربي مركز سام خارج عن الشكل الخاص للإسلام، ومن واجب المسلم أن يطلب المسارّات خارج شكله الديني: هذا هو العمود السادس في الإسلام. فهل حوّل عبد القادر النموذج الأخوي الأصلي العائد لبلاده، ليخلعه على مؤسسة مماثلة،

١ - لهذا الفرضية مؤيّدوها ومعارضوها، ويمكن العودة إلى منشورات السيرة الذاتية للأمير المعروفة كتلك المعدّة من قبل إمريت Emerit والرأي المعارض لآجيروون Ageron في السيرة الذاتية المنشورة في مجموعة «الافريقيين»، ومقال في «مجلة الغرب المسلم» (١٩٧٠) وكذلك المقال المذكور سابقاً لتميمي في «مجلة التاريخ المغربي».

٢ - انظر ريمون Raymond: «سورية والمسألة الشرقية» مجلة العالمين العدد ٥، أيلول ١٨٦٠، ص٣٩٩ - ٤٢٥.

أوروبية، قابلة للمقارنة معه؟ إذ كيف يمكن تفسير عبوره ثلاث أخويّات إسلامية ليستقر في أخويّة فرنسية «مسيحية»؛ وفي مجمل الحال «إبراهيمية»؟. الواجب الديني، والفضول الباطن، والإنحسار المميت لاتفسر كل شيء، وقس على هذا الرغبة في الاندماج في مجموعة أخويّة، أو البحث عن دعم سياسي. مع أن هذه الأسباب تطبق على كل طالب انتساب أياً كان وضعه.

تبقى إذاً فرضية واحدة أعتقد أنها ملائمة. عدا عن أنّها مدعّمة بدراسة مؤلّفاته غير المنشورة في تلك الفترة: فعبد القادر تقيّ زاهد، باحث عن المسارّة، متصوّف، وكما ذكر جميع معلميه الذين تتلمذ عليهم وقرأ عنهم، قد تتلقى المسارّة عبر مسيحي، أو حيوان، أو ميت وحتى عبر كافر، فالمسار في الأسفل والمسّارة في الأعلى، إذاً فلِمَ لاتتمّ عن طريق جمعية مساريّة تريد أن تضع نفسها جسراً بين الشرق والغرب. إن الساقي المسقي يتيح إجراء الملتقى بواسطة برزخ البرازخ.

استطاعت هذه الفكرة أن تفتن الأمير كما لاحظت عبر مؤلّفه: **كتاب المواقف**، وقد كتب بوضوح أنّ من غير الوارد استيعاب كل آراء الفلاسفة واللاهوتيين. وقراءة كتابات الأمير الروحيّة تدفعني إلى القول إنّ احترامه لمسارات الآخرين تستند على اليقين بأن «الله» يتجاوز معتقداتهم: فمصداقية كل تجربة صوفية هي الموقف الذي توقظه تجاه كل أخوتنا في الإنسانية؛ فالأمير يتوجّه إذاً إلى كل واحد منا كمونياً... إلى قدرة الإنسان.

وقد اندفع عبد القادر إلى أبعد من الأرسطوطاليسية والأفلاطونية العربيتين التقليديتين (ليختصر الطريق معتمداً على المؤلفين الذين ذكرهم الماسونيون من ابن رشد إلى الفارابي) وهو يفكر بأن معرفة العقل الاستهلالي هي أيضاً الطريق، وأن المسارّة وحدها تكسب العقل النظري/ الخلق المتأمّل الصامت، وهو يفضّل فكرة شخصية جدّاً ـ بزغت عند ابن العربي ـ عن الخلق المضاعف: فالصمت قد ولّد الخلق غير المرئي، والعقل الأوّل ـ الانفتاحي لم يستخدم إلا مرة واحدة بشكله الظاهر، ثم انسحب إلى الشرق ليلقي الخَلْق في هجعة الرقاد، ولن يستيقظوا إلا في تأمُّل الثلث الأخير. ويقول عبد القادر بجلاء في كتاب المواقف إننا غدونا فيه، فبدءاً من الباطن إذاً، سيقوم الخَلْق المتركّز في النقطة بفيض المعرفة الحميمة النهائية والنهائية على الكائن: إنّها التجربة/ انكشاف الوجود الذي سيقول للأمير بعد أن قال لبعض المتنسكين من قبله: «أنا الحقّ» أي «الله».

والحال أن المسارّة لدى عبد القادر هي الباب الأوّل لهذه التأملات الكاملة: وهي تتألّف من علم أحرف الدعوة، لأن العقل الاستهلالي غير قابل للفصل عن التنبؤ، وعن علم الذكر، وعلم الأعداد، والمجموع يشكل التفسير الروحاني، والتأويل الذي يجسّده المرشد، أي المعلّم الحي أو الميت. وقد مارس عبد القادر التفسير والتأويل كما سبق أن رأينا، وهو يرى أن بإمكانه أن يكون البرزخ بكونه المرشد في ماسونية تحمل الكلمة المهندسة: ولم يكن يعلم أن الماسونية الفرنسية، لأسباب تاريخية محتملة ستدفن هذا الكنز ضمن أسرارها المكنونة لحوالي قرن من الزمن.

كان عبد القادر أوّل «شرقي» أُسرَّ إليه ببث «نفحة Le pneuma» الألف ـ لام، أي «أل Al» بين أدنى طالبي الانتساب، أخيه الضال «الغربي»، لأنه فهم أن بالإمكان في **البحر المتوسط للكتاب** يمكن اجتياز الخط الفاصل بين الظل والنور إنما في الخُمس المتأخر أو في الثلث الثالث من الليل... فالزمن لم يَحُن بعد، ونحن لسنا في هذا الثلث من رقاد الكون.

كل هذا لايفي الموضوع حقّه ولايوضّح لنا سبب انتساب المسلمين الآخرين المقرّبين منه إلى الماسونية، كأبنائه، وعدد من تلاميذه، والأفغاني دون شك. لماذا عبر هذا الطريق المتعرّج تشق المدنية ممّراً عبر حشد لامتناه من الصدف. كما يقول أنجلز Engels. وربّما أمكن للغرب عبر هذه اللغة المرمزة، باعتبارها ثقافة باطنية، أن يكون أكثر قرباً من الثقافة الإسلامية عن طريق الماسونية، وهذا يعني **عكسياً** أنّها هي التعبير الأقل سوءاً في الغرب عن ظاهرة عادية في الشرق؛ دون معرفة إنما ببعض شك، كحمارة تحمل ذخائر، جزءاً من تراث، على الأقل من الجدَل الحواري بين الباطن والظاهر. رغم هذه الانتقادات الحميّة، هذا ما يفكر به «غينون Guenon» الذي سار الطريق المعكوس، فانتقل من الماسونية إلى الإسلام.

قد يكون هذا التعارض مثلاً جيّداً لأطروحة «انجلز وا. بلوش E.BLOCH» حول الخطاب الديني في بعض الأوقات، وقد استخدمته في بعض دراساتي الدنيوية غير أنها قليلة الاستقصاء الأكاديمي... ولكن كم هي عصيّة على الفهم طرق المولى...

نفهم بسهولة من الأجوبة المنشورة أعلاه للأمير عبد القادر كيف لم يتمكن من استيعاب الأسباب الظرفية التي جعلت شرق فرنسة الكبير (بتأثير قسّ من مدينة نيم!) يتخلى عن الإرجاع إلى مهندس الكون الأعظم في العام ١٨٧٧، ولكن في تلك

الفترة، ووفقاً لما أعرفه فإن روابطه مع شرق فرنسة الكبير كانت منفصمة بل وغير موجودة؛ ولا أعلم شيئاً عن نشاطه الماسوني في الشرق الأوسط إلا أنه مسجّل في سجّل محفل سورية في دمشق، وأن أولاده قد حصلوا على المسارّة في محافل انكليزية، ويشهد الزوّار الماسونيون على حسن الاستقبال الأخوي للأمير، من غير زيادة، وقد وجدت بعض علاقات لمحفل الأهرامات في الاسكندرية في الملّفات الوثائقية في طولون... ولكن ما من أحد يعلم أين توجد ملفات هذا المحفل (ربّما في دار الكتب، المكتبة الوطنية في القاهرة، لأن الرئيس عبد الناصر صادر جميع الوثائق الماسونية في عام ١٩٥٦).

عندما حضر عبد القادر إلى فرنسة في عام ١٨٦٥ قام جدل بين الماسونيين هزئت منه صحافة اليمين لأن الأمير لم يحضر الاحتفال الماسوني الذي أعدّ له. لكنه استقبل في ٢٨ آب «أغسطس» في آمبواز وفدين ماسونيين أدلى إليهما بتصريح شبيه بالتقريظ: «إني أعتبر منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) كأوّل مؤسّسة في العالم، أرى أن كل رجل لايجاهر بالعقيدة البنائية (الماسونية) يعدُّ رجلاً ناقصاً، وأؤمّل يوماً أرى فيه انتشار مبادئ الفرنسماسونية في العالم، ويؤمئذ فإن كل شعوب العالم ستعيش في سلام وأخوّة».

يحق لنا إذاً أن ندعم مثابرته في هذا الطريق خاصة بعد أوّل موعد فاشل في ٢٦ آب «أغسطس»، وعند عودته إلى باريس، فإنه استقبل في ٣٠ آب «أغسطس»، محفل هنري الرابع وأجاب خلال هذا الاستقبال عن الأسئلة التي طرحت عليه حول الأفكار التي يمكن أن يكوّنها الشرقيون عن الماسونية[1]:

يسيء السكان الظن بالفرانماسونية في الشرق، وينظرون إلى الماسونيين عامة كأشخاص كفار، لا يتقيّدون بشريعة، ومستعدين لإشاعة الفوضى في المجتمع، وقد كنت أشاطرهم هذا الرأي قبل قراءتي لمبادئ الفرنماسونية، وبعد أن تعمّقت في دراسة أهدافها وشرائعها اقتنعت بأنها من أروع المؤسّسات على الأرض:

ـ هل تعتقد أن بإمكانك نشر الماسونية في هذه المناطق؟

ـ إن الشعوب غير متهيئة بعد لها، بل وأعتقد أن من المتعذر حالياً إقامة اجتماع في

١ ـ هذا النصّ موجود في السجّل (المسمى «دفتر المهندس») العائد لمحفل هنري الرابع في مكتبة الشرق الأعظم G.O ص ١٣٠ ـ ١٦٢.

البلاد التي أسكنها. فالاجتماعات السريّة ممنوعة قطعاً، ويلاحق الأشخاص الذين يحضرونها، ولولا اعتمادي أنا شخصياً على القوى الأوروبية لغدت حياتي في خطر».

وعندما ذُكر له أن ازدهار بعض البلدان الغربية مثل هولاندة وانكلترة والولايات المتحدة، وفرنسة ذو صلة باشعاع الماسونية فيها، أجاب وابتسامة حزينة تبدو على شفتيه: «إن تلك البلدان حرّة، والأمر في الشرق مختلف».

ولكي يُسمع أن تلك البلدان الحرّة اليوم لم تكن في الماضي كذلك، وأن البلدان الأخرى يمكن أن تغدو حرّة سأل أحد المسارّين الجدد عن رأيه في قصر سبق أن دعي إلى زيارته في تورين (هو بلا شك بلسي ـ لتور) وهو مزيّن بالحواجز المشبكة، والمشانق الجماعيّة حيث كان المسيحيون يشنقون المسيحيين.

كان واضحاً دائماً ولا يتنازل، مع ذلك التسامح الداخلي المميّز له، يُفحم دائماً سائليه بدقّة أجوبته، وهذا على ما أعتقد أنه المفتاح الأخير من أجل قراءة جميع هذه «الرسائل إلى الفرنسيين» أيّاً كان شكلها: فالأمير عبر الماسونيين، وما بعد الفرنسيين، يتوجّه إلى جميع البشر. والتقويم بالنسبة إليه لايتعلّق فقط بالمجتمع الإسلامي. وقد قال هذا صراحة في أحد الأجوبة: «على الإنسان أن يحب ذاته في آخر غيره» وبما أنه أحد أفراد هذه الأمة التي قال فيها القرآن الكريم ﴿ولتكن مِنكم أمّةٌ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المُنكر، وأولئك هم المفلِحون﴾ (٣، سورة آل عمران ١٠٤). فإنّه يفعل ذلك حيثما أشار الله تعالى له بذلك.

إضافة إلى أنّه حصل على الأذن بالتعليم والأمر الخاص بالإخبار بالنعم الحاصلة له، وخاصة نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى: فهو يقول هذا بوضوح في كتاب المواقف: (الموقف ص٨٣).

«قال تعالى: ﴿وأما بنعمة ربّك فحدّث﴾ (٨٣ سورة الضحى ١١). هذه الآية ألقيت علي بالإلقاء الغيبي مراراً عديدة لا أحصيها، والمراد بالتحدّث بها إنشاؤها وبثّها لمستحقيها المستعدين لقبولها، إذ ماكل علم يصلح لكل الناس، ولا كل الناس يصلح لكل علم. بل لكل علم أهل».

والواقع أن رحلة العام ١٨٦٥ إلى أوروبة كانت هامة جداً له: فهو يحلم بأن يلقّح الغرب بالروحانية، وأن يحمل التحديث التقني إلى الشرق، وهو يفكر بأن هذه المهمة

تعود تاريخياً إلى أيام وَجده التدشيني في آمبواز، عندما أحسّ أن النبي ﷺ أمره أن يكون واسطة في إبلاغ هذه البشارة إلى أمته، فهو مكلّف بأن يحمل البركة الإسلامية كبركة ابراهيم إلى الغرب[1].

وهكذا فإنه أراد أن يرى كل شيء، وأن يناقش جميع الناس: وكرّر القول دون انقطاع أنه لو يستمع إليه لوفّق بين الناس جميعاً. أراد أن يذهب لزيارة البابا وأن يجري مُنادَرة مع لاهوتييه. إن مايحقّق الكبر الحقيقي لعبد القادر هو أنّه ليس **فقيهاً** بسيطاً وإنما هو **عارف عليم مستلهم يرتضي إعادة افتتاح أبواب التأويل.**

سيعود مرّة أخرى في العام ١٨٦٧ ليزور المعرض العالمي في باريس، لكنه الآن في لندن في شهر آب «أغسطس»، قوي بمسانديه: اللورد لندندري Londonderry، وأخيه غير الشقيق كاستلراغ Castelreagh، وعائلة بورتون Burton، والشاعر وليم تاكراي W.Thackheray؛ ويُذكَر أن «ويلشير Wilshire» حاكم جبل طارق كان في السابق يعمل على شراء الأسلحة للأمير، كما وضع تحت تصرفه عملاءه اليهود، وأن القنصل البريطاني في طنجة «إدوار هاي دروموند E.H.Drummond» ثم ابنه جون وهما صديقان «للندنبري» كانا يعيانه السلاح عن طريق موغدور (الصويرة) بينما دافع عنه الكولونيل «سكوت Scott» من غير جدوى لدى الملكة.

وقد زار «دير وستمنستر»، ومجلس العموم، والمتحف البريطاني، والمعرض العمالي في قصر كريستال، ولقي استقبالاً حارّاً في نظر بعضهم. ويجب القول إن ماكان يشغل بال وزيري الشؤون الخارجية الانكليزية طيلة تلك الحقبة، وهما اللورد بالمرستون و ج. روسل هو معارضة الاستراتيجيات الفرنسية في البحر المتوسط. فعبد القادر في نظرهما ليس إلا بيدق شطرنج لا أكثر ولا أقل...

يستمع عند عودته إلى باريس إلى درس في السوربون في موضوع تاريخي هو: «خطاب الإمبراطور الروماني أوغوست في مجلس الشيوخ عن تنظيم أفريقية». يعود نابوليون الثالث من الجزائر حيث أعلن قرار **مجلس الشيوخ** (بتاريخ ١٤ تموز ـ يوليو عام ١٨٦٥) فرض الجنسية الفرنسية على الجزائريين، الذين لم يكونوا يريدون أكثر من ذلك في تلك الفترة.. وسأل الإمبراطور عبد القادر رأيه في مشروع إمبراطورية عربية،

١ ـ انظر إلى النص في الموقف ٨٣، من كتاب المواقف، وفي شرح جيليس GILIS ص ١٧.

وحمل اسماعيل «أوربّن Ismail Urbain» ردّ «لا» صريحة جازمة. فالأمير لم يَنقد أبداً لألاعيب السياسية الفرنسية في الشرق، ومع ذلك فإن الشائعات والمزايدات، والاستراتيجيات عن ملكيته لم تنقطع خلال خمس سنوات... ولم تكن الماسونية غريبة عن ذلك؛ لكنها لم تكن تعلم أن نصر الأمير سيتحقق في وقت متأخر، وفي سجّل آخر، وجزئياً عبرها. فليس من الصدف أن تكون فرنسة اليوم إحدى أعلى أماكن الأكبريّة والتفكير التقليدي حول وحدة الوجود. وبهذا المعنى ففرنسة موضع حظّ للإسلام لأن الإسلام هو موضع حظ لفرنسة... حتى وإن كان مايزال بعض المغالين في العلمانية والماسونيون الآخرون الضالون في الدنيوية لا يلحظون ذلك.

الفصل الثاني
برزخ البرازخ

في ١٧ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٨٦٩ دشن الخديوي اسماعيل قناة السويس بحضور الإمبراطورة أوجيني، وامبراطور النمسة، وولي عهد بروسية وأمراء وسفراء من جميع البلدان، والأمير عبد القادر...

كانت هذه نهاية مغامرة طويلة، لعب فيها عبد القادر وصديقه شرشل دوراً رئيساً. فهذا الأخير رغم التنافس الفرنسي - البريطاني، وأخيراً ضد رأي «بالمستون Palmeston»، أقنع الجنرال «جواشموس Joachmus» بفائدة قناة السويس. أمّا عبد القادر فهو مرتبط بصداقة مع فرديناند دي لسبس وقد أيّد المشروع الحامل للتحديث الذي يعتقده الأمير حيوياً لنهضة الشعب العربي. فقد اعتبر هذا المشروع، عدا عن أهميته لصناعة الحرير في مدينة ليون، والتعاظمات الفرنسية، محققاً لفكرة التحديث التي رفع لواءها السان - سيمونيون، والفرانماسونيون الذين اكتشفهم عبد القادر، ليس عن طريق الصدفة، وإنما بالسعي إلى المعرفة. إنّها مشيئة الله. بالرغم من أن هذا موضوع آخر، نذكر أن ليس السان سيمونيون هم الذين حقّقوا مشروع القناة، لكنهم ساهموا إلى مدى كبير في تغيير الرأي السائد عن الشرق. وهكذا فقد كتب الأب «انفانتن Enfantin» في مراسلاته الفلسفية والدينية[1]:

«إنكم على حق في القول: إن في ذاتي رأياً مسبقاً مفاده أن محمداً ﷺ هو من الرجال الذين ساهموا إسهاماً كبيراً في توجيه الجنس البشري على طريق قدره الديني. هذا موقف أدعو بإلحاح العالم المسيحي ليتخذه، الآن وهو يريد أن يجعل من العالم الإسلامي صديقاً له... لا أعتقد أننا سنكون في خير إن انحزنا إلى موقف ينظر فيه إلى محمد ﷺ كدجّال عمل على تقهقر الشعوب الشرقيّة... وأنا مقتنع مثلكم بوجود كثير من الأشياء يجب أخذها مجدّداً من الإسلام، سواء من حياة محمد ﷺ أو من

١ - ذكرت في مؤلف ب. رينيه P.REGNIER: السان سيمونيون ومصر (١٨٣٣ - ١٨٥٥) باريس - BUE ١٩٨٩ ص: ١٤١.

حياة علي (كرّم الله وجهه)، أو حتى من محمد علي، باشا مصر، أو من عبد المجيد السلطان. أو حتى أخيراً من الأمير عبد القادر.. ولكن من أي نقطة، ومن أي جهة حسنة يمكن أن نلامس هؤلاء السادة الذين هم من البشر؟. هل يجب فقط القطع، والبتر بالسيف؟ أو هل يجب ببساطة أن نقلّم ونشذّب؟ كلا ولا شك، يجب التثقيف، والتطعيم والتقرّب بالمعاشرة».

البرزخ الأرضي كمرآة لمحور العالم.

﴿حتى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ الموتُ، قال ربِّ ارجعُون، لعلّي أعملُ صالحاً فيما تَرَكتُ، كلّا إنّها كَلِمةٌ هو قائِلُها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبْعَثون﴾ (٢٣، سورة المؤمنون، ٩٩ - ١٠٠).

إن التصوّف يعارض دائماً التقشّف، كما يعارض التماس الرزق إدارة العالم. وتصوّف عبد القادر لايرفض العالم إنّما يبغي حياة صامتة ضمنه قادرة على وقاية نوع من التخفي الروحي في الوقت ذاته الذي يقوم فيه بدور فعّال وكأنه غائب عنه[1].

شرع عبد القادر في المرحلة الأخيرة من حياته، وقد تحرّر كلياً بالوجد، يسعى ليضمّ السماء إلى الأرض لمصلحة الناس الكبرى، كل الناس. وهو يصف الحدث وظروفه في المدينة المنوّرة في الموقف ٣٧:

«في يوم كنت منصرفاً فيه إلى الخشوع، متوجّهاً إلى القبلة، أتضرّع إلى الله، فصُعِقتُ وغبت عن العالم وعن نفسي، ثم أعادني الله إلى حسّي بعد أن ألقى علي كلمته: «الآن، جاءك الحق». تؤكّد سِنّة من سنن النبي: إن أصابك في عملك لدنياك خير، وأنت تفكر بدينك فعملك جهاد في سبيل الله، فإن استخدمته من أجل أقاربك وعائلتك فهو صدقة، والحقيقة أن قطعة من فضة تكتسب شرعاً في تجارة خير من عشرة دراهم تربحها عن طريق آخر».

بالطريقة ذاتها التي كان فيها عبد القادر يسعى إلى جمع الكتب وتحصيل المعارف من جميع المصادر لم ينقطع أبداً عن تطبيق هذا الحديث حرفياً، فهو ما فتئ يفكر بتأمين الرفاه لأهله، وحتى في الفترة التي بلغ بها الاندماج الأسمى، وماعاد شيء يربطه بالدنيوي، تابع تجاربه الزراعية وتتبّع بإعجاب التقدم التقني الغربي وتحديث

١ - يسمّي ماكس فيبر هذا «النموذج المثالي» البراعة الدينية داخل أو خارج المجتمع

مصر، ومن ضمن هذا السياق يمكن أن ندرك بشكل أفضل علاقته مع «ف. دي لسبس».

كان فرديناند ابن ماتيو قنصل فرنسة في تونس، وقد أرسل إلى قنسطينة في عام ١٨٣٠ لأن الفرنسيين أرادوا التفاوض مع الباي أحمد... وقد عيّن فرديناند قنصلاً في الإسكندرية، عام ١٨٣١، وبقي سبع سنوات في مصر؛ ثم نُقل إلى منصب آخر في السفارة الفرنسية في اسبانية، وبالتحاقه بمدريد في عام ١٨٤٨ توقّف في بو ليزوور الأمير عبد القادر، الأسير الشهير.

عندما سمّي محمد سعيد باشا في عام ١٨٥٤ خُدَيوياً على مصر، عاد فرديناند يغري صديقه بمشروع شقّ قناة السويس، ويحصل منه على رخصة أوليّة لمشروعه، وتشكلت الشركة العالمية لقناة السويس البحرية في عام ١٨٥٨، وضرب أوّل معول في مكان مدينة بور سعيد الحاليّة في عام ١٨٥٩، وتمركز لسبس في التمساح البلدة الصغيرة التي أصبحت فيما بعد مدينة وسميت الاسماعيلية[1].

كتب ف. دي لسبس في مذكراته: «في العام الذي تلا مذابح ١٨٦٠ في سورية توجّهت إليها لتأمين عمال لمشروع قناة السويس، وأبلغت الأمير وأنا في مدينة القدس عن استعدادي لزيارته في دمشق التي مازال سكانها في موقف حذر وريبة من الأوروبيين، وأسرع لملاقاتي إلى خارج المدينة عندما أعلن له نبأ اقتراب قافلتي منها، وأجلسني إلى قربه في عربته الخاصة، واجتزنا المدينة التي اصطف سكانها في مجموعات أمام منازلهم، يحيون الأمير بمودة، وبالانحناء حتى الأرض احتراماً. وقد استقبلنا خلال بضعة أيام في كل مكان كأصدقاء».

تعرّض مشروع ف. دي لسبس لكثير من الجدل، واعتبر هو بالذات من قبل كثيرين إنساناً خيالياً، صاحب رؤيا وأوهام، ولاقى مشروعه الضخم آنئذ نظرات وانتقادات متشائمة أكثر مما لقي من دعم. لكنه كان ذا موهبة استثنائية في القدرة على الإقناع، وكان يقينه معدياً، وعرف كيف يجعل الأمير يقاسمه ثقته بالنجاح وبجدوى المشروع اقتصادياً ونتائجه الطيّبة على ازدهار مصير وتقدم الشرق حضارياً، فهو يأمل بثورة اقتصادية عالمية، وتحقيق تطوّر زراعي هام في جوار القناة البحرية، وعلى ضفتي قناة المياه العذبة التي تربط تلك المنطقة الصحراوية.

---

١ - كل هذا القسم مستمد من مؤلّفات ف. شارل - رو F. CHARLES - ROUX

غدا الأمير بعد مداولة دي لسبس معه في دمشق عام ١٨٦١ نصيراً متحمساً لشق قناة السويس، وراح يقدّم البراهين المتعدّدة على اهتمامه اليقظ لتنفيذ هذا المشروع؛ وبعد ذلك بأقل من سنتين، ذهب ليحكم بنفسه على مدى تقدّم الأعمال في المشروع. وقد دعي من قبل الشركة لزيارة موقع العمل في برزخ السويس على نفقتها، وكان قد أزمع على السفر للحج إلى مكة المكرّمة، فأقام في مصر من ٢ إلى ٢٨ كانون الثاني - يناير ١٨٦٣، وقد ذكرت ظروف إقامته في ثلاثة أعداد متتابعة من النشرة نصف الشهرية للشركة: **برزخ السويس، صحيفة الاتحاد بين البحرين**؛ وكان رئيس تحرير هذه النشرة «أرنست دبلاس E.DESPLACES» بالاعتماد على مراسلات ووثائق ترسل إليه من قبل معاوني دي لسبس المباشرين. وصل عبد القادر إلى مرفأ الاسكندرية في أوّل كانون الثاني - يناير عام ١٨٦٣ على متن الباخرة الفرنسية «سيناء»، وبعد رسوها ذهب في الثاني من الشهر برفقة السيد «دي بوڤال DE BEAUZVAL» قنصل فرنسة العام «وفرديناند دي لسبس» الذي حضر من مقر العمل لملاقاته، والسيد «فرنوني» الترجمان الذي ألحقته الشركة بخدمته طيلة مكوثه في مصر، متوجّهين إلى محطة السكة الحديدية حيث أخذوا القطار المتوجّه إلى طنطا، وعند انطلاقه من الإسكندرية تجمّع في المحطة وفد كبير من راهبات سان ڤنسان دي بول والآباء الرهبان العازاريين الذين حضروا ليعبروا له عن شكرهم لما فعله في دمشق من أجل المسيحيين، عام ١٨٦٠، وقد أجاب على مظاهر الامتنان التي أبدوها بكلمة قال فيها:

«أشكر موّدتكم، وللأسف فقد أُنبئت في وقت متأخر عن الأحداث الحاصلة وإلا لتمكنت من الحيلولة دون المذبحة؛ أسأل الله أن يقيكم من كل شرّ. تابعوا مسيرتكم على دروب الفضيلة. وعودوا إلى دمشق وأعدكم بأنكم لن تغيبوا أبداً عن ناظري».

برهنت تتمة رحلته في مصر على أن الشعبيّة التي حظي بها لدى المسيحيين لم تضرّ بمكانته بين المسلمين. ففي طنطا وهي المدينة كثيفة السكان في الدلتا المصرية ومركز الإيمان الإسلامي المتحمس، ورأس تفرع السكة الحديدية التي سيأخذ خطها إلى سمنود على ذراع دمياط، كان موضع تظاهرة ترحيب ليس فقط من السلطات الإقليمية والمدنية، وإنّما أيضاً من قبل الشيوخ والعلماء، وأئمة المساجد الذين لاقوه بالهتاف والتهليل وذهبوا به إلى أجلّ أماكن العبادة الإسلامية في المدينة. وقد وضع

قطار خاص ربطت به القاطرة الخاصة للخديوي محمد سعيد تحت تصرفه ليقلّه من طنطا إلى سمنود.

من سمنود حيث يتوقّف خط الحديد استقلّ سفينة بخارية تعود إلى شركة قناة السويس هبطت به في النيل حتى دمياط التي كانت حتى ذلك الحين ولقليل من الأشهر بعده مقر المهندس الرئيس، مدير الأعمال التقنية في شق البرزخ، «ڤوازن Voisin» بك الذي خلّد اسمه في حوليّات الهندسة المدنية، وكان دي لسبس قد أعلن لجميع رؤساء الإدارات في الشركة عن المسار الذي سيسلكه الأمير، وفي دمياط تمّت له زيارة المنشآت، وقُدّم إليه الموظفون الفرنسيون الذين وجه إليهم هذه الكلمات المتضمنة كلّ التشجيع الحار:

«بتحيتكم أيّها السادة أحيي الرجل الملهم من الله، وأنتم بعملكم مع الرجل الشهم دي لسبس تستحقون اعتراف العالم كله بحسن صنيعكم، إنني شديد التأثّر بالاستقبال الودي الذي قابلتموني به لأنني أكنّ كل الحبّ للأمة الكريمة التي تنتمون إليها».

انتقل الأمير وحاشيته بالمركب من دمياط إلى بور سعيد عبر بحيرة المنزلة، ولم تكن بور سعيد آنذاك إلا تجمعاً صغيراً من البرّاكات القائمة فوق شاطئ من الرمل الأشهب، وانصبّ جل اهتمامه، في عام ١٨٦٣، على تلك الورش القائمة آنذاك من قبل مهندسي شركة القناة والمتعهدين المتعاملين معها، واهتم الأمير اهتماماً كبيراً بالأعمال القائمة التي شرحها له مهندس القسم وطرح أسئلة في غاية الأهمية حول الأعمال المنفذة وتلك الأكثر أهمية بما لايقاس ويجب تنفيذها وتتعلق «بمستقبل بور سعيد والنمو المتوقع للمدينة الجديدة والأهمية المنتظرة لها». وهنا كما في دمياط حرص الأمير على تشجيع مستخدمي الشركة منوّهاً بعظمة المشروع وعبقرية مبتكره. قال لهم:

«أنتم مؤسسو مدينة جديدة، فهيئوا المجال الفسيح لتوسّعها، إذ يقدّر لها أن تستقبل أبناء الله الوافدين من مختلف أصقاع الأرض. وسيجتازها المسلمون بعدد كبير، ولن ينسوا أبداً، عند المرور بها، أن يتضرعوا لله ليحفظ الرجل الكبير الذي عرف رغم العقبات الكثيرة كيف يتمّم هذا العمل الإنساني والحضاري الكبير. فليباركه الله».

من بور سعيد تابع عبد القادر ورفاقه الرحلة في زورق عبر القناة البحرية الضيقة

التي شقت على طول نحو ستين كيلومتراً إلى الفردان، واعتباراً من تلك النقطة غدت رحلتهم بريّة لمتابعة السير على موازاة خندق يشقُّ عبر أراض كثيرة الوعورة لاجتياز إحدى العقبات الأكثر ارتفاعاً في كل مجرى القناة المستقبلية: إنها عتبة القسر التي بدئ باختراقها للوصول إلى منخفض واسع أوصلت إليه مياه البحر المتوسط في تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٨٦٢ وهو بحيرة التمساح؛ وقد أوجبت الأعمال الصعبة في القسر وجود تجمع موّقت من البراكات والخيم والشاليهات لإيواء جموع العاملين هناك، وقد عبر الأمير وموكبه هذا التجمّع ومرّوا من أمام شاليه بنيت للخديوي في قمّة تلك العتبة، وتابعوا سيرهم على موازاة فرع قناة مياه عذبة تحمل مياه النيل إلى تلك المنطقة الصحراوية وانتهى بهم المطاف إلى موقع مدينة جديدة بُدىء بتأسيسها وستسمى بعد ذلك بقليل الإسماعيلية: وهناك على ضفة الحويض الذي غمر حديثاً بماء البحر وغدا بحيرة التمساح سيكونون تقريباً في منتصف المسار المخطط للقناة. وقد عادوا بعدها إلى القسر ليقضوا في منزل للشركة وتحت سقف المهندس المشرف على العمل أمسية ٧ كانون الثاني - يناير وليل السابع إلى الثامن منه.

خلق ذلك اليوم انطباعاً قوياً في نفس عبد القادر، الذي صرّح للسيد ڤرنوني، مترجمه، وهما يعبران عتبة القسر وهي قيد الاختراق:

«هنا يتمّ بعث مصر، هذه التي اشتهرت في الأزمنة القديمة بأرضها الغنية المعطاء وأوابدها الضخمة. حتى هذه اللحظة، كنت أنظر إلى رجال عصرنا كأناس ضعفاء غير قادرين على فعل شيء إلا التقليد؛ لكنني أعترف اليوم أنهم يتجاوزون في جدارتهم رجال العصر القديم. العزّة للسيد دي لسبس، وليعِنْه الله على إتمام العمل الجبّار الذي شرع به».

وعلى ضفة قناة المياه العذبة التي انتهت حديثاً، رأى عبد القادر تدفّق مياه النيل الواردة من مأخذ على بعد مئة وثلاثين كيلومتراً قرب مدينة القاهرة، وأمام ذلك الحوض الطبيعي الذي يحمل اسم بحيرة التمساح حيث شقت الأيدي العاملة والآلات طريقاً لتدفقات مياه البحر المتوسط، عبّر عن إعجابه وأمله بالطريقة التي عرفت عنه:

«هنا حول هذا الحوض الرائع، وفي مياه النيل المبارك المحيية، ليأت عبيد الله، خالق كل شيء من كلّ أصقاع الأرض ليرتاحوا من متاعب رحلاتهم الطويلة».

من القسر حيث قضوا ليلتهم، توجه عبد القادر ومرافقوه الجزائريون في مركب (هو دون شك «الذهبية» المركب الشخصي لدي لسبس) إلى التل الكبير عبر قناة المياه العذبة. وكانت زيارتهم للأعمال الخاصة بشق القناة قد انتهت، وتهدف جولتهم في التل الكبير للإطلاع على مشروع آخر لدي لسبس وهو خلق منطقة زراعية خصبة في وادي الطميلات على طول قناة المياه العذبة وقد حصل دي لسبس على رخصة للشركة لإنشاء هذا المشروع وتملّك أراض عقارية تغدو مواطن استقرار للبدو الرحل هناك، وللفلاحين الوافدين من مناطق مصرية أخرى وللمزارعين الآتين من سورية؛ وكان هذا المشروع يشكل قسماً من التصميم الأساسي لدي لسبس وهو أثير على نفسه، فهو يرغب في أن يحمل الخصب إلى هذه التخوم الشرقية لمصر، وقد كان سائداً فيها من قبل في الأزمنة السحيقة، عندما كان للنيل فرعان آخران يمرّان من تلك المنطقة وقد جفّا منذ زمن طويل، وكان فرديناند يردّد غالباً مقاطع من التوراة تتحدث عن ازدهار أرض جاشان Gessen، التي تختلط بها دون شك هذه القطعة المصرية التي غدت الشركة مالكة لها. وهو يريد أن يشهد الأمير هذه المحاولة في النهوض الزراعي، كما أنها مناسبة للقاء مع زعماء القبائل البدوية المخيّمة في المنطقة قرب الوادي والتي أقام معها دي لسبس ومعاونوه علاقات طيبة.

في الثامن من كانون الثاني - يناير عام ١٨٦٣ رسا عبد القادر في التل الكبير، حيث استقبل من قبل رئيس الإدارة الزراعية في الشركة «جول غيشار J. Guichard» الذي غدا فيما بعد عضواً في مجلس شيوخ الإمبراطورية الثالثة، ورئيساً لمجلس إدارة قناة السويس. وعدا عن الاستقبال الذي أقامته الشركة للأمير وهو ضيفها فقد أقام له بدو المنطقة احتفالاً حماسياً رائعاً، فحضر زعماؤهم لملاقاته واستقباله في المرسى ورافقه فرسانهم في موكب حتى دار الضيافة التي أعدت لينزل بها وهم يقومون بألعاب الفروسية التي ذكّرته بمنطقته الوهرانية، وفي دار الضيافة، وهي «قصر» يعود إلى أيام محمد علي باشا، تلقى تحيات السكان، وقرويي وفلاحي المنطقة ومن بينهم مجموعة من السوريين الكاثوليك الذين جاؤوا لشكره لحمايته أبناء طائفتهم في دمشق كما استقبل رجال قبائل البدو وعلى رأسهم شيوخ الأناديس الذين بقوا للعشاء معه وهم يعبرون عن أسفهم لعدم تمكنه من البقاء والنزول ضيفاً عليهم في مضارب خيامهم. وكان الأمير يتحدث لكل من وفدوا عليه عن إعجابه بالمنجزات الكبيرة المتحققة،

وتأثره أمام هذه النتائج الباهرة، وتقديره لكل ما رآه ويطلب إيلاء الثقة لهؤلاء الرجال الذين ينجزون هذه المشاريع وبذل كل التضحيات من أجل نجاحها.

في يوم ٩ كانون الثاني ـ يناير توجّه عبد القادر إلى القاهرة عن طريق الزقازيق حيث كانت حافلة الخديوي الخاصة تنتظره في محطة القطار. وفي القاهرة حيث نزل الأمير في أحد قصور الخديوي محمد سعيد، وكان «دي لسبس» قد سبقه إليها لم يكتف عبد القادر بشكره شفهياً، بل وجّه إليه أيضاً رسالة مؤرخة في ١٢ كانون الثاني ـ يناير عام ١٨٦٣ يعبّر له فيها عن إعجابه واستحسانه لكل ما رآه، ولعلها رسالة اتفق عليها بينهما إذ أنها بصيغتها تتعدى واجب المجاملة وتصلح لتكون وثيقة تاريخية ووسيلة دعاية للمشروع الكبير وهذا نصها:

«الحمد لله وحده

إلى الماجد النبيل دي لسبس حفظه الله وأمدّه بعونه.

لم يتسن لي الوقت أيها السيد الكريم، والشهم الحكيم، عندما سعدت بلقائك أن أعبّر لك عن شكري وامتناني بمناسبة التسهيلات التي أمنتها لي لزيارة القناة البحرية على طولها حتى بحيرة التمساح ثم العودة إلى القاهرة.

خلال هذه الرحلة، رأيت أشياء يعود الفضل فيها إلى أفكارك المثمرة، ولحكمتك وتصوّرك الفائق، أشياء لم يتمكن من تحقيقها الاسكندر الكبير، وهذا مايذكّرني بصحة المثل القائل: لقد ترك الأقدمون كثيراً مما يجب فعله للأجيال الحالية.

من أجل أن تقطع البرزخ بين البحرين كنت أرخميدس الثاني الذي سبق له أن باشر هذا العمل في عهد بطليموس الثالث الملقب بـ «صديق الأب» وقد بقي هذا البرزخ مفتوحاً حتى ملك القياصرة الذين ردموه لمنع أعدائهم من الوصول إليهم.

كذلك من أجل إيصال مياه النيل حتى السويس كنت الرابع بين من أنجزوا هذا العمل وأتاحوا للسفن أن تجري فيه.

كان أوّل من قام بهذا العمل طوطيس أحد ملوك مصر المقيم في ممفيس، وهو معاصر لإبراهيم. وفيما بعد فإن هذه القناة، التي خربّت، أعيد حفرها من قبل أندرومانوس أحد ملوك الإغريق بعد الإسكندر، ثم خربت مرّة أخرى، وقام الوالي العربي عمر بن العاص بحفرها مجدّداً، وبفضله استمرت الملاحة فيها حتى عهد

الخليفة المنصور في العصر العباسي الذي أمر بردمها، وها أنت أيّها الجليل القدر رابع هؤلاء.

لقد أراد الله أن يحفظ لك المجدين المشرّفين والاستحقاقين الكبيرين بحفر القناة البحرية، وقناة المياه العذبة، وبذلك حزت قصب السبق، إذ لم يتمّ لأحد غيرك القيام بهذين العملين في آن واحد.

ما من إنسان عاقل يمكن أن يشكّ بأن عملك هذا إحسان حقيقي للبشرية وهو في الوقت ذاته ذو فائدة عامة ستتدفق حسناتها على جميع سكان الأرض من طرف إلى آخر؛ إننا نتضرع إلى العلي القدير أن يسهل لك إنجاز هذه المهمة وأن يحقق اتصال مياه البحرين.

المخلص لك

عبد القادر بن محيي الدين

في الثامن من أيام بقيت لنهاية رجب ١٢٧٩ (١٢ كانون الثاني - يناير عام ١٨٦٣).

حتى وإن كانت الرسالة معدّة للدعاية، فقد وضع فيها عبد القادر كلمات أساسية له: البرزخ، وبين البحرين؛ لأنه هو بالذات برزخ البرازخ... وأنا لا أؤمن بالمصادفات.

نُشر نصّ هذه الرسالة، بالطبع، كاملاً في باريس في «صحيفة الاتحاد بين البحرين» فهي قد كتبت من أجل ذلك: وبديهي أنّ دي لسبس وشركته يسعيان إلى شهادة مسؤولة تقنع الشرقيين الذين يستخدمهم في أعماله، كما تقنع من يُراد جذبهم إلى المجال الزراعي في منطقة القناة، والعديدين من الشهود المباشرين أو غير المباشرين ممن يتابعون أعماله الجريئة، وأخيراً إقناع الرأي العام الغربي، حيث مايزال الإيمان بنجاح المشروع يحتاج بشكل كبير إلى التحريض. لجميع هذه الأسباب، كانت الجولة التي أجراها عبد القادر عبر ورش وأماكن عمل شقّ البرزخ وملكية الوادي قابلة لإحداث دويّ أكثر فعالية وجدوى من الزيارات التي قامت بها شخصيات غربية كبيرة مثل الكونت «دي شامبور Chambord»، والدوق «دي برابان Brabant» (الذي غدا الملك ليوبولد الثاني) وفيما بعد الأمير نابوليون. فضلاً عن أن التأثير العملي المنتظر لهذه الزيارة الجزائرية، والقصد الدعائي الذي استجابت له يبدوان بجلاء عبر أسطر كهذه التي تلي والمستخلصة من الدوريّة المنشورة من قبل شركة القناة:

«أينعت ثمار الزيارة التي قام بها عبد القادر للصحراء. فقد رأى العناية التي أحيط بها الفلاحون العاملون في شق البرزخ. وكان تأثير كلامه كبيراً بين العرب، فاسمه مشهور ومحترم ومقدّر، ومسيحيو سورية الذين دافع عنهم معرّضاً حياته للخطر لن يتردّدوا أبداً بوعد منه، في الحضور ليطلبوا من الشركة قُطع أرض لاستثمارها وزراعتها، وللتجمّع قرب قناة المياه العذبة التي، بتبديلها كثبان الرمل إلى سهول خصبة ستُدبُّ الحياة في هذه المناطق غير المسكونة منذ قرون (عدد أول شباط ـ فبراير عام ١٨٦٣).

إننا نحب عبد القادر: وننظر بإعجاب إلى طبعه، ونقدّر الخدمات التي قدمها في دمشق لقضية الحضارة، ونعترف بمدى تأثير عقله الكبير؛ ومستخدمو الشركة الذين يتابعون عملهم بإخلاص بعيداً عن أهلهم، وأصدقائهم، ووطنهم، سيحتفظون، دون شك، بذكرى طيّبة لزيارة الأمير القصيرة لهم، ولن ينسوا التشجيع الذي أحله بينهم أحد الرجال، الأكثر شهرة بالتأكيد في الأسرة العربية الكبيرة (عدد ١٥ شباط ـ فبراير عام ١٨٦٣).

غادر عبد القادر القاهرة في ١٨ كانون الثاني ـ يناير إلى السويس حيث أبحر في العشرين من الشهر ذاته على متن السفينة الحربية الفرنسية «لكوريو Le Curieux» التي وضعها الإمبراطور نابوليون الثالث تحت تصرفه إلى جدّة ومن جدّة انتقل إلى مكة. وفي اليوم ذاته الذي غادر فيه القاهرة، جرى حادث ذو أهمية سياسة كبيرة في الإسكندرية: فقد توفي الخديوي محمد سعيد، وحلّ محلّه على عرش مصر وليّ عهده الشرعي، ابن أخيه اسماعيل، وهو أكبر أمراء العائلة المالكة.

كان الخديوي الجديد معارضاً بتصميم لمشروع التنمية الزراعية المتضمن في الخطّة الأساسية لشركة القناة، كما كان عازماً على ألا يقدّم للشركة اليد العاملة المنصوص عنها في عقد الرخصة، حتى وإن أدى هذا الإخلال بالشرط إلى إجهاض إنشاء القناة. هذه التصرفات الشخصية لاسماعيل ومعاونيه السياسيين الذين اختارهم نوبار باشا وشريف باشا، وهي تصرفات أقل ملائمة بكثير من تلك التي كان يقدّمها سلفه للمشروع الذي بدأه دي لسبس، وسار به خطوات في الطريق القويم، حالت بين الشركة وبين جني الفوائد التي كانت تتوقعها من الدعم المعنوي للأمير عبد القادر، الذي كان آنذاك قد دخل في خلوة دينية.

لكن نوايا الخديوي الجديد، وخاصة فيما يتعلق باستعادة الملكيات العقارية المتنازل عنها للشركة، لم تكن قد عرفت بعد، عندما في ١٦ حزيران - يونيو عام ١٨٦٣، فوّض مجلس الإدارة المنعقد في باريس رئيسه فرديناند دي لسبس أن يقدّم للأمير عبد القادر هدية، منزلاً وأرضاً واقعين في بير أو بلح، وهي محلّة مابين الإسماعيلية والتل الكبير. هل كان دي لسبس يشك بأن هذه الملكية التي يتصرّف بها لمصلحة عبد القادر، سيعترض على شرعية تملّكه لها هو بالذات؟ فأرض أبو بلح دون أن تكون بعيدة عن الملكية الكبيرة في الوادي لاتشكل قسماً متمماً لها. إنّها قسم مجاور لقناة المياه العذبة، بدأ جول غيشار باستصلاحه، وبنى فيه بيتاً ريفياً. وفضلاً عن ذلك، ولاتقاء النزاع المتوقّع بين اسماعيل والشركة اعتمد دي لسبس على تأثيره الخاص، وحسن نواياه تجاه مصر التي لايريد لها إلا الخير كلّه، والوسائل الطيبة التي استخدمها لإرضاء الخديوي، فقد بدّل اسم التمساح وأطلق على المدينة الحديثة المنشأة قرب البحيرة اسم الاسماعيلية تيّمناً بعهد اسماعيل، وفي الوقت ذاته أعطى لقناة المياه العذبة التي شقّت من النيل حتى بحيرة التمساح، مع فرعين أحدهما إلى بور سعيد والآخر إلى السويس، ورغم أنّها تعود إلى مبادرة وقرار من المرحوم محمد سعيد اسم قناة الاسماعيلية. كما أن دي لسبس لم ينتظر السماح له من مجلس الإدارة ليقدّم للأمير عبد القادر بيت أبو بلح والأراضي المجاورة له. ومنذ نيسان - إبريل عام ١٨٦٣ كتب بخط يده الرسالة الموجهة إلى عبد القادر الذي مايزال في مكة.

«الحمد لله وحده

إلى صاحب السمو، والشهرة والنبل عبد القادر ليحرسه الله ويمده دائماً بعونه.

إن الرسالة التي وجهتها إليّ، أيّها السيد الشهم الكريم، بعد زيارتك للأعمال الجارية في القناة، ملأتني سروراً، وأحدثت تأثيراً كبيراً في أوروبة حيث نشرت. إن شهادة بمثل سمو وحكمة شهادتك يمكن أن يكون لها أطيب الأثر على النفوس التي ماتزال تشكّ بنجاح المشروع الكبير الذي منحته تقديراً إسلامياً شرقياً حقيقياً، أو بفائدته. لقد حقّقنا سوّية روابط أخوّة أرغب في أن أراها أشدّ متانة في المستقبل، ولهذا الغرض رأيت أن أقدم لكم باسمي وباسم شركة القناة ماييسّر لكم المجيء عندما ترغبون للسكن على ضفة القناة البحرية الكبرى قرب بحيرة التمساح وفي الأراضي التي يسقيها النيل المبارك.

إننا نضع تحت تصرّفك وتصرّف عائلتك منزل بير أو بلح مع الأراضي العائدة له.

سأكون سعيداً بأن ألقاك مجدّداً عند عودتك من الأراضي المقدسة. إنني مسافر خلال أيام إلى باريس، وسأعود إلى مصر خلال شهرين.

أسأل العليّ القدير أن يشملك برعايته ويحقق لك كلّ ماتطمح إليه

«ف. دي لسبس».

كانت هذه الرسالة جواب دي لسبس على تلك التي وجهها له الأمير من القاهرة بتاريخ ١٢ كانون الثاني ـ يناير عام ١٨٦٣. وكان تقديم الملكية لعبد القادر ولعائلته شهادة عرفان وصداقة من قبل مقدّمها. وهي تهدف مع ذلك لإشراك الأمير وذويه في مشروع تقويم وتطوير المناطق المجاورة للإسماعيلية. لم يتأخر عبد القادر في الإجابة على رسالة دي لسبس. وكان جوابه موجّهاً من مكة بتاريخ ٥ أيار ـ مايو عام ١٨٦٣، ونشرت ترجمتها في دورية الشركة في عدد أوّل تموز ـ يوليو.

«الحمد لله وحده

تلقيت رسالتك العزيزة وأنا في مكة المكرّمة أنعم فيها بسعادة الروح والجسد؛ فزادت رسالتك من فرحي ومن سعادتي.

عندما أقرّر العودة لرؤيتك، سأعلمك عن موعدها قبل ذلك بشهرين. يفدُ إليّ كثير من الأشخاص المهتمين بقناة السويس من الحجاز واليمن للاستعلام عنها، وأنا أبين لهم فائدة هذا المشروع وأهدافه. فيعودون عندئذٍ وهم يتضرّعون إلى الله للإسراع في تحقيقه متخلين عن الأفكار السخيفة والمضلّلة التي كوّنوها عنه، كما يحدث للإنسان الذي يجهل حقيقة الأمور. نسأل الله أن يمدّك بالعون ويحقّق لك النجاح لكي تقطع رؤية المشروع كاملاً ألسنة السوء بخصوصه.

صديقكم المخلص

عبد القادر بن محيي الدين.

منتصف غرة ذي القعدة ١٢٧٩ ـ ٥ أيار ـ مايو عام ١٨٦٣.

كان الأمير إذاً في نهاية إقامته وهو دائماً متحمّس لتحديث الشرق، وفي تمام التوافق، بعمله هذا، مع مبادئه الأخلاقية، والاقتداء بالرسول ﷺ نفسه. انقضت سنة تفجّر فيها النزاع وساءت العلاقات بين الخديوي اسماعيل والشركة؛ وتجلّى ذلك في رفض اسماعيل تأمين عمال تعينهم الحكومة لصالح الشركة ورغبة الحكومة المصرية

باستعادة الأراضي الخصبة التي تنازل عنها الخديوي السابق محمد سعيد للشركة؛ وعمدت الشركة إلى استقدام عمّال من خارج مصر واستعمال آلات وأجهزة أعدت خصيصاً للشركة لتدارك النقص في اليد العاملة، ولإنجاز الأعمال في أوقاتها المحدّدة. أما فيما يتعلّق بالأراضي القابلة للزراعة التي سحبت منها ملكيتها، فإنها اعترضت على هذا النقض للعهود التي قطعت لها، وبعد نزاعات حادة ومجادلات مربكة اتفق الطرفان على تحويل موضوع النزاع - تعيين العمال وملكية الأراضي - إلى تحكيم الإمبراطور نابوليون الثالث، الذي ارتضى في آذار - مارس عام ١٨٦٤ القيام بدور الحكم، وأعطى قرار تحكيمه في ٦ تموز - يوليو عام ١٨٦٤.

لم يكن قرار التحكيم قد صدر، لكن الخلاف كان قيد الدرس في باريس من قبل لجنة تشكلت لهذا الغرض لدراسة الموضوع ورفع مطالعتها واقتراحاتها للامبراطور، عندما علم في مصر وفي فرنسة أن عبد القادر سيترك الحجاز متوجّهاً إلى السويس، واستقبل هذا الخبر في شركة القناة بسرور خاصة وقد سبقته إشاعة أولاً عن موت الأمير، أما الخديوي وحكومته فكان سرورهما أقل عند سماعهما النبأ. فالجو قد تغيّر، واسماعيل خلال هذا الربيع المضطرب من العام ١٨٦٤، يمكنه منازعة مؤسّس القناة حتى في قضايا تافهة، ولكن ليس له مآخذ على عبد القادر، بل إن هذا شخصية مسلمة يجب مداراتها، ولامبرّر أبداً لعدم مراعاة التقدير الملائم لمقامها. وقد أبدت دوريّة الشركة في عددها الصادر بتاريخ الأوّل من حزيران - يونيو عام ١٨٦٤ الانشراح الذي أحدثه نبأ الزيارة الثانية القريبة لهذا الأمير الشهير الذي توطدت سلطته وازدادت بهذه المكانة الدينية الرفيعة التي تجلّت خلال حجّه المبارك».

انتظر دي لسبس ومعاونوه لمصلحة مشروعهم أن تحدث إثباتات عبد القادر وشهادته مجدّداً التأثير ذاته، أي أن تقدم العون ذاته الذي ظهر منه في زيارته الأولى. ويقرأ في «صحيفة اتحاد البحرين» مايلي:

«سيرى عبد القادر بنفسه النجاحات والتقدم الذي حققه المشروع في حملته الأخيرة وسيجد ورش العمل في العام ١٨٦٤ في نشاط أكبر بكثير مما رآه في العام ١٨٦٣، فالآلات العاملة على البخار التي حلّت محل أيدي الفلاحين ستسترعي انتباهه بالتأكيد... في كلّ أعمال هذا المشروع التي تتمّ في الصحراء لمصلحة أخوته في الدين».

لم تنس الشركة كلّ شهادات التعاطف والتشجيع التي بدرت من القائد الجزائري السابق تجاهها منذ ثمانية عشر شهراً، ولا التأثير الفائق الذي أحدثته بين الشعوب العربية الآراء التي أبداها والتي أملتها نظرته الصائبة التي لاقت التقدير والمديح في كل الأوساط العالمية.

حضر الأمير من جدّة على متن السفينة البخارية العائدة للشركة المصرية للملاحة المجيدية. ورسا في السويس بتاريخ الخامس من حزيران - يونيو. وفي القاهرة وضع الخديوي اسماعيل تحت تصرفه قصر مصافير - خانه المخصص لإستضافة الشخصيات الزائرة المتميّزة؛ ونشرت في صحيفة «المرشد الشامل Le moniteur Universel» المسائية، وغيرها من الصحف الباريسية، بتاريخ الثامن من حزيران - يونيو، برقية تلغرافية تفيد أن الأمير عبد القادر سينزل في ملكيته الممنوحة له من قبل شركة القناة في بير أبو بلح». والواقع أن برقيّة موجّهة من الاسماعيلية من عبد القادر إلى دي لسبس بتاريخ الحادي عشر من حزيران - يونيو صيغت على الشكل التالي: «إنني في الاسماعيلية، وسأعود هذا الصباح إلى بير أبو بلح، أشكركم على الاستقبال الذي لقيته هنا، راجياً من الله أن يحفظكم على الدوام».

نشرت «صحيفة اتحاد البحرين» هذه البرقية في عددها الصادر بتاريخ ١٥ حزيران - يونيو ١٨٦٤، مؤكّدة أن بير أبو بلح، بقرار من الشركة يعود تاريخه إلى سنة مضت «قد قدم كمقر للأمير» وأرفقت النبأ بالتعليق التالي:

«استلم الأمير ملكيته، وهو الآن ضيف الشركة، ووجوده وسط العمال الأوروبيين، والمودّة التي يشرف بها الشركة ورئيسها، والتشجيعات التي مافتئ، بحكمته العالمية، يبديها لأعمال شقّ البرزخ، ستؤتي بالتأكيد ثمارها الطيّبة في وسط كل هذه الشعوب العربية التي تجلّ اسمه، والتي يظهر منها أنه في توافق مع صاحب السموّ الخديوي، وهو أيضاً ضيف عليه، في كل مايتوقّعونه من بذور الحضارة التي تنشرها الشركة بمشاريعها».

والواقع أن عبد القادر قد زار مازوّره إيّاه مندوبو الشركة. وثقة محرّر هذه السطور، في الاتفاق الكامل بين الخديوي ودي لسبس وعبد القادر في استقرار الأمير في ملكية على أرض في برزخ السويس كانت غير مبرّرة على الإطلاق فيما يتعلّق باسماعيل. فالخديوي يشجب قطعاً نوايا دي لسبس لمصلحة الأمير؛ والمراسلات السياسية لقنصلية

فرنسة العامة في مصر لاتترك مجالاً لأي شك حول هذا الموضوع؛ وبينما كان دي لسبس يعتبر بير بو بلح غير متضمّن في الأراضي المتنازع عليها كان اسماعيل يتوقع أن تعيده الشركة إليه مع بقية الأراضي التي مُنِحَت سابقاً لها باستثناء تلك المستخدمة في الورش والمحترفات والمخازن وكان معتقداً أنه بواسطة المطالبة بتعويض سيصل إلى ذلك. والواقع أنه لم يكن منخدعاً، إذ أن تحكيم نابوليون الثالث كان يتجه نحو حلّ على أساس التعويض المالي.

لايمكن لدي لسبس أن يجهل خلافه مع اسماعيل حول هذه النقطة. إنّما ربّما كان يتوهّم إمكانية الوصول إلى حلّ؟ أما عبد القادر فلم يكن يشكّ بشيء، فالشركة، وفقاً لتصريح قنصل فرنسة العام، أخضعت لاتفاق نابوليون الثالث واسماعيل الهبة التي منحتها للأمير؛ وهذا منطقي: فللإمبراطور، في الواقع كلمته التي ينبغي العودة إليها في أماكن إقامة الأمير، وحتى في تنقلاته، والخديوي، دون أن يكون في الوضع ذاته، له الحق، وهو حاكم مصر، النظر في اعتبار الأمير مرغوباً به أو لا في مصر، وبالقدر ذاته من حقه أن يعتبر ملكية بير بو بلح داخل الخلاف أو خارجه. وكان نابليون الثالث قد أعلن موافقته على قبول التحكيم الذي طلب منه، مع التحفظ على أن بير بو بلح خارج الخلاف. ولكن عند طلب عبد القادر المعبّر عن رغبته في الذهاب للاستقرار في ملكيته، كان جواب اسماعيل واضحاً إلى حدّ لايمكن أن يلتبس على الأمير. وهذا الجواب وفقاً لقنصل فرنسة العام، هو أن الإمبراطور لايمكنه إصدار إذن بالسماح لعبد القادر في الإقامة في مقرّ، مازال لايعرف، نظراً للغموض المكتنف قضية ملكية الأراضي، إن كان يعود أولاً للشركة التي وهبته إياه. وبهذه المناسبة ينوّه القنصل العام للوزير الفرنسي بالخطأ الذي وقعت فيه الشركة بتصوّرها أن اسماعيل لايهدف إلى استعادة جميع الأراضي التي تنازل لها عنها في بداية الأمر محمد سعيد.

وبشكل مستقل عن هذه المسألة المتعلقة بملكية الأرض، كان للخديوي سبب آخر لرفض، أو على الأقل، لتأجيل الموافقة، لم يفصح عنه بعد لصاحب العلاقة؛ إنّما لم تفت قنصل فرنسة ملاحظته: وهو أن توقّع استقرار دائم لعبد القادر في مصر يسبّب الذعر للخديوي. فمكانة الأمير وحظوته وتصرف العشائر البدوية في الصحراء تقلقه؛ والقصر الذي استضاف فيه عبد القادر في القاهرة أثناء إقامته في العاصمة، كان يعج دائماً بالوفود العربية، والأشراف، والشيوخ، وغيرهم من الشخصيات المسلمة. وأدرك

الخيديوي أن المرور المستمر للحجّاج الذاهبين إلى مكة سيقيم للأمير الجزائري، إن استقر في بوبلح، بلاطاً دائماً يمكنه أن يمارس تأثيراً قوّياً على سلطانه. وعبد القادر قد غدا موضع شبهة اسماعيل للسبب ذاته الذي حظي فيه بمودّة دي لسبس: حظوته الكبيرة ومكانته بين الشرقيين والتقدير المعنوي السامي الذي يكنُّه له العالم الإسلامي.

غادر الأمير مصر في ٢١ حزيران ـ يونيو عام ١٨٦٤ وعاد إلى دمشق دون أن يستبعد نهائياً إمكانية وجود مقر مصري رئيس أو ثانوي له في برزخ السويس. في السادس من تموز ـ يوليو صدر قرار نابوليون الثالث التحكيمي وهو يبتُّ في قضيّة المبدأ ـ نقض الحكومة المصرية لتعهُّديها نحو الشركة ـ ويقدّر الأهمية الماديّة للأضرار التي تعرّضت لها ويحدّد قيمة التعويض النقدي المكافئ، لكنه لايتعرض للحكم فيما إذا كان البيت الريفي والملكية المتوسطة تعود له في الموقع الذي يبعد ثلاثة أو أربعة كيلومترات عن الإسماعيلية يشكل أو لا يشكّل، جزءاً من مجال الشركة العقاري. يمكن إذاً لدي لسبس أن يستمر في موقفه، وقد استمرّ.

وانقضت من جديد فترة عدة أشهر لم يتعرض فيها لهذا الموضوع؛ ولا للشخص المدهش الذي سبّب الشك والقلق للحكومة الخديوية عندما وصل مجدداً إلى الاسكندرية بتاريخ ٢٧ كانون الثاني ـ يناير عام ١٨٦٥؛ ودامت إقامته في مصر حتى ١٠ شباط ـ فبراير. وقد توجه عبد القادر إلى برزخ السويس، وتوقف في الإسماعيلية، وتفقد ملكيّة بير بو بلح، حيث فسّرت زيارته من قبل الشركة بالذات وكأنها تسلّم عيني للملكية.

هل كان مجيء عبد القادر إلى مصر، كما تشير المراسلات الدبلوماسية للقنصل الفرنسي العام في الاسكندرية، بناء على دعوة من دي لسبس بنيّة استلام الملكية التي وهبته إياها الشركة؟

على كل حال لقد جاء، وأيّاً كان السبب، فإن هذه الزيارة الثالثة لمصر كانت مفاجأة غير سارة أزعجت الحكومة المصرية. وكذلك كانت المفاجأة في قصر الخيديوي أشدّ، ليس لأن الأمير قد أبلغ عن معارضة اسماعيل لمشاريعه في الإقامة في مصر، وإنّما أيضاً لأنّ الحكومة الإمبراطورية في فرنسة أكّدت للخديوي أن عبد القادر لن يستقر في برزخ السويس دون موافقة اسماعيل. هذا الزعم من قِبل قنصل فرنسة في الاسكندرية يدفع إلى الافتراض أنه لسبب أو لآخر، أخّرت الحكومة

الفرنسية اطلاع الأمير على التوكيد الذي أعطي من قبلها لنائب القنصل المصري. ويشير السيد «تاستو Tastu»، القنصل العام إلى سبب آخر دفع اسماعيل للنظر بريبة إلى عودة عبد القادر الطارئة إلى مصر، وهو تصرف دبلوماسي انكليزي أثار شكوكه وحذره في آن واحد من الأمير ومن شركة القناة. وحول هذه النقطة فإن القنصل العام مؤيد لرأي دي لسبس الذي كتب في مؤلّفه: ذكريات أربعين عاماً:

«إن السياسة التي حاولت دون جدوى منع تنفيذ القناة البحرية، لم تنقطع عن إثارة شكوك خديوي مصر ضد عبد القادر».

لكل ذلك فإن وزير خارجية اسماعيل، شريف باشا، وجّه بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ـ يناير عام ١٨٦٥، إلى المندوب السامي للشركة في مصر، السيد «دي جراردين De Gerardin»، رسالة احتجاج، ولوم، وشكوى، هذا نصها:

لاحظت حكومة صاحب السمو خديوي مصر بدهشة عودة عبد القادر الطارئة إلى مصر، وانتقاله إلى منطقة قناة السويس بنيّة الاستقرار في جوارها، وامتلاك كمية من الأراضي والحقول التي تخلّت له عنها الشركة سبق منذ الزيارة الأولى للأمير إلى مصر، وبعد معرفة نواياه ونوايا الشركة أن أبدى صاحب السمو ملاحظات إلى السيد المندوب، وإلى قنصل فرنسة العام الذي لم يعترف فقط بشرعيتها، وإنما جاء بعد بضعة أيام يحمل رسمياً لسموّه تأكيداً جازماً من حكومة الإمبراطور بأن عبد القادر لايمكنه البقاء في مصر بدون موافقة الخديوي.

إن حكومة سموه لها الحق بأن تعبر عن استغرابها اليوم لعودة عبد القادر رغم أن الظروف التي سبق لي ذكرها معروفة من قبل رئيس الشركة بتصريح جرى له من قبل الخديوي بالذات.

غير أنه بالرغم من مسعى أكيد من السيد تاستو القنصل العام، والتأكيدات الرسميّة من حكومة الإمبراطور والتي كان من نتائجها رحيل عبد القادر، علمت الحكومة المصرية بعودة الأمير بناء على دعوة جديدة وجّهت إليه من قبل الشركة، والحال أن الظروف التي تمّت بعدئذ تعطي لتلك الدعوة طابعاً غريباً بقدر ماهو غير مبرّر. فكيف يمكن للشركة أن تسلم عبد القادر ملكية أراض وحقوق واقعة في البرزخ، مع وجود تعابير جازمة في قرار التحكيم الإمبراطوري تنصّ على إعادة جميع الأراضي الممنوحة لقاء تعويض؟ هل يمكن أن تجهل الشركة أنها لاتستطيع أن تتنازل عن أي أرض وفقاً

للتعابير الجازمة في قرار التحكيم؟ وكيف يمكنها خاصّة أن توجّه مثل هذه الدعوة للأمير، رغم أن إقامته في مصر موضع تحفظات جديدة من قبل الخديوي اعترفت حكومة صاحب الجلالة الإمبراطور بصحتها وأساسها.

باختصار، يأسف صاحب السمو بشدّة لرؤية الشركة؛ بدلاً من أن تتقيد بالواجب الذي يفرضه عليها صالح المشروع، تضع نفسها في موضع غير ملائم وبالغ التعقيد تجاه الحكومة المصريّة التي تستحق مع ذلك على حسن العلاقات معها تقديراً خاصاً من جهة الشركة.

يطيب لي إذاً الاستمرار في الاعتقاد، يا سيدي المندوب السامي، بأن الشركة، وهي تفكر بالنتائج المحتملة للوضع الذي خلقته، ستتراجع عن منحى لايمكن، عدا عن تشويهه لطابعها، إلا أن يعرّض مصالحها للخطر. آمل إذاً أن تعرف كيف تتخذ، في هذا الظرف، باعترافها بشرعية حقوق الحكومة المصرية، الموقف الأكثر ملاءمة للمحافظة على حسن التفاهم الذي تجهد حكومة صاحب السمو الخديوي لتمتينه من جهتها.

وتفضلوا بقبول فائق الاعتبار...

وزير الشؤون الخارجية شريف باشا».

حوت هذه الرسالة الرسمية والقاسية بالأحرى مزاعم ومطالب لايمكن لمندوب الشركة السامي، المرسلة إليه ـ مع أنه عضو مجلس إدارة ـ أن يبحث في شرعيتها؛ لذلك اكتفى السيد جيراردن، بتاريخ ٣١ كانون الثاني ـ يناير، أن يجيب عليها بتحفظ شديد، دون أن يناقش الأدلة. إنّما بتعابير فيها بعض الحزم.

«صاحب المعالي:

تلقيت الرسالة التي أردتم توجيهها لي بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ـ يناير، وأنا أبادر لإعلام معاليكم أن التعليلات الموجودة فيها هي من طبيعة وجب عليّ حيالها أن أرفعها إلى السيد قنصل فرنسة العام وإلى رئيس الشركة.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام».

قبل أن يتمكّن دي لسبس، الموجود آنذاك في باريس، من الإطلاع على هاتين الرسالتين المتبادلتين، قام شريف باشا، الذي أخذ الموضوع بمنتهى الجديّة، بمسعى عاجل

لدى فوازن بك؛ وهذا اللجوء إلى المهندس المسؤول عن الأعمال التنفيذية ينطوي على تهديد غير مستتر بأن يحلّ غضب الخديوي على سير الأعمال، إذا لم تُزَل بسرعة أسباب ذلك الغضب. تمّت مداولة شريف باشا مع فوازن بك في القاهرة بتاريخ الأوّل من شباط ـ فبراير عام ١٨٦٥، وقدّم فوازن تقريره إلى دلسبس في اليوم ذاته وهو ينصّ على مايلي:

«بدعوة من وزير الشؤون الخارجية، تمّ لي في هذا اليوم اجتماع مطوّل مع معاليه بشأن موضوع عبد القادر الذي أبادر لإطلاعكم عليه:

وصلتني هذه الدعوة أولاً بشكل برقية مرسلة من السيد فرنوني يستدعيني فيها إلى القاهرة في أسرع وقت ممكن لمقابلة السيد الوزير.

حيّرتني هذه البرقية كثيراً، إذ لم يسبق لي رؤية معالي شريف باشا ولم أتصوّر أنه يستطيع التداول معي في مواضيع تتعلّق بمسائل غير فنيّة، وفي هذه الحالة لم أفهم سبب الاستدعاء العاجل. وصلتني البرقية بتاريخ ٢٨ كانون الثاني ـ يناير، أي عشية اليوم المعلن فيه وصول عبد القادر إلى بير بوبلح. أجبت السيد فرنوني ببرقية أيضاً أعلمه أنني أنتظر رسالة توضيحية منه يجب ألا يتأخر في إرسالها لي، وأنني سأسافر على الأرجح بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ـ يناير. وفي الوقت ذاته أعلمت السيّد المندوب السامي راجياً منه أن يكتب لي إلى القاهرة لتوجيهي إذا أمكن ذلك، وأن يرسل لي جميع التوصيات والتعليمات التي يرى فائدتها في هذا الظرف. ووفقاً لرجائي، وجدت هنا عند وصولي، مساء أمس، نسخة رسالة شريف باشا إلى السيد المندوب السامي مما أطلعني بشكل كامل على الوضع، إضافة إلى رسالة من المندوب السامي نفسه تحتوي بعض التوصيات حول الموقف الذي ينبغي اتخاذه، في حال كون زيارة الأمير إلى البرزخ هي الموضوع الذي سيبحثه الوزير معي. وفي هذا الصباح كتبت كلمة للوزير لأعلمه بوجودي، ولسؤاله عن الساعة التي يرغب فيها باستقبالي. وعند وصوله إلى الوزارة أجاب على كلمتي بالموافقة على دخولي إلى مكتبه مباشرة عند وصولي. دام لقاؤنا فترة من الزمن وسأحاول أن أنقل إليكم ما دار فيه بالتفصيل. شرح الوزير أنه استدعاني للتداول معي في حدث يدعو للأسف حتماً، وهو ناتج عن تصرّف قامت به الشركة، وقال لي إنه كتب إلى المندوب السامي ليطلعه على الانطباع المكدّر لحكومة صاحب السمو والطريقة التي تنظر فيها للأمر. لكنه فكّر، عدا عن ذلك، أن

المركز الذي أشغله على رأس الأعمال يوجب علي أن أساهم في معالجة الموقف الحالي بسرعة للحصول على تعديل للقرارات التي ستغدو مشؤومة حتماً على الشركة، وهو مقتنع بأن الاهتمام الذي أبديه لإنجاح الأعمال سيدفعني إلى الاعتراف بالفائدة التي تجنيها الشركة من التراجع عن المشروع الذي يشكّل بادرة عدوانية صريحة ضد صاحب السمو الخديوي، وهو في الوقت ذاته خرق صريح لشروط القرار الإمبراطوري.

تذرّع معاليه بإخلاصه للقناة، وبرغبته الصادقة في أن يرى هذا المشروع يصل إلى نهايته الطيّبة التي تفيد تجارة العالم أجمع، وذكّر بمدى سروره، عندما قرّرت الحكومة بدء العمل بقناة القاهرة، لإعلان النبأ بنفسه إلى رئيس الشركة، وكيف استغل تلك المناسبة ليجدّد التعبير عن عواطفه الشخصية في تأييد المشروع والتأكيد على الاستعدادات الطيّبة للحكومة حتى أن السيّد دي لسبس حضر حالاً إليه لتقديم شكره، فهو إذاً يرى بحزن حقيقي الشركة تدخل الآن في متاهة يمكن أن تهدّد بالخطر كل شيء، وتعدّل بشكل لايمكن تجنبه جذرياً كل الاستعدادات الطيّبة للحكومة. ذكر معاليه بعد ذلك كل الاعتبارات، والتقديرات، والانتقادات المحتواة في رسالته إلى المندوب السامي وانتهى كما تذكر تلك الرسالة بالإعراب عن الأمل في أن تتخذ الشركة الموقف المناسب لتأمين حسن التوافق بينها وبين الحكومة المصرية.

استمعت إلى كامل خطاب معاليه ببالغ الاهتمام، ولكن بوجه هادئ لاتنمّ قسماته عن أي تعبير، ودون أن أحاول أي مقاطعة للكلام وعندما وجب أن أتحدّث بدوري، بدأت بشكر الوزير على تعاطفه مع المشروع، وبالتعبير عن سعادتي لسماعه وهو يؤكد عن استعدادات صاحب السمو الطيّبة من أجل نجاح هذا العمل، وأضفت أن الشركة حريصة على الرعاية الكريمة التي تحيطها بها الحكومة وهي مصدر قوّتها الرئيسة كما أنها في الوقت ذاته لها مثل اهتمامه في التقيد بترتيبات القرار الإمبراطوري. لكنني استسمحته في عدم إبداء أي ملاحظة في موضوع، ليس لي شخصياً أي صفة وظيفية للخوض في تفاصيله الخاصة والمعقدة التي تكرّم معاليه وذكر لي ملابساتها، وأنا لا أعلم تماماً ماهي نوايا الرئيس حول موضوع عبد القادر وأراضي بير أبو بلح، ولا القرارات التي اتخذها؛ وهو لم يترك لي، عند سفره إلى فرنسة، أي تعليمات حول هذا الموضوع. وكل ما يمكنني قوله هو أن حَدَثَ الوصولِ الطارئ لعبد القادر إلى مصر،

لايبدو لي في ذاته ذا مدلول سياسي كبير نظراً لأن الأمير لن يبقى إلا بضعة أيام في البرزخ، ويعود بعدها إلى دمشق. أخيراً ومع تأكيدي على تعذّر دخولي في نقاش حول تفسير التحكيم الإمبراطوري لم أتردّد في أن أؤكد (بناء على تعليمات السيد المندوب السامي) أن الشركة حريصة دوماً على أن تلبّي جميع المطالب المشروعة للحكومة، وأن تفعل كل ماباستطاعتها للمحافظة على حسن التفاهم. وانتهيت بأن وعدت معاليه بنقل جميع الملاحظات الناقدة التي أبداها بمنتهى الدقة الممكنة إلى الرئيس مع التأكيد على النتائج التي يتوقعها في حال قيام صراع بين الشركة والحكومة.

هذا هو باختصار يا سيدي الرئيس، تقريري عن المداولة التي تمت مع الوزير وأعتقد أنني لم أنس شيئاً؛ وأنا واثق من أنني لم أغيّر شيئاً.

خالجني انطباع لدى خروجي من هذه المداولة أن الخديوي ساخط جداً على الشركة بمناسبة رحلة عبد القادر. وستعارض الحكومة المصرية بجميع الوسائل التي تستطيعها لتحول دون إقامة الأمير في مصر حتى ولو فترة مؤقتة. وكل محاولة معاكسة تبدو لها عملاً عدائياً صريحاً وهي عازمة بتصميم على أن تقابله بعدوان مماثل ضد الشركة؛ وستنتهز الذريعة أو الباعث، وفقاً للطريقة التي سينظر فيها إلى الأمور، من خلال التخلي عن ملكية بير أبو بلح الصغيرة، لتعتبر أن الشركة لم تحترم قرار التحكيم الإمبراطوري وبالتالي فهي نفسها غير ملزمة به...

بكلمة واحدة، تبدو لهجة الحكومة مليئة بتهديدات مبهمة، هذا صحيح في الوقت الحاضر، لكن هذه التهديدات يمكن أن تتجسّد بطرائق مختلفة.

إنني كثير الجهل بكل هذه الخفايا الدبلوماسية بحيث لاأدرك المدى الحقيقي لهذه التهديدات المبطّنة ولتخمين جميع نتائجها المحتملة تقريباً، ولكن ها أنتم على إطلاع على الوضع وسيكون بإمكانكم أن تحذّروا.

قبل أن أختم هذه الرسالة الطويلة يجب أن أتدارك سهواً في تقريري:

وهو أن الوزير تأسّف كثيراً لغيابكم في هذه الفترة عن مصر، وإلا لكان عالج هذا الموضوع بصراحة ووضوح معكم».

إذاً أدى مشروع دي لسبس المتعلّق بعبد القادر إلى تهديد بأزمة خطيرة في العلاقات العامة لشركة قناة السويس مع حكومة الخديوي. ولايمكن للتهديد أن يكون أوضح تلويحاً بأكثر مما بدا في حديث شريف باشا مع ڤوازن بك. فوزير الشؤون

الخارجيّة استدعى مدير الأعمال التنفيذية ليشعره أن سخط الخديوي اسماعيل سينعكس حتى على صعيد تنفيذ الأعمال الحقلية إن لم تنقشع هذه السحابة السوداء سريعاً. والواقع أن أعمال شق البرزخ، وإشادة القناة كانت في وضع ممتاز، لكنها مازالت غير قريبة من الانتهاء؛ فمعارضة انكلترة ومناوراتها من أجل إجهاض مشروع دي لسبس وشركته لم تنته إطلاقاً. واستمر السفير البريطاني في القسطنطينية، وقنصل بريطانية العظمى في مصر في دسائسهما، وعندما زار سفير بريطانية في تركية السير هنري بولور H.BULWER مواقع العمل وورشاته برفقة دي لسبس نفسه استمرَّ في إظهار عدم قناعته بنجاح العملية، وكرّس نفسه من أجل إقناع قادة السياسة المصرية بشكوكه الصادقة أو المدّعاة. وجهد دي لسبس من جهته في إقناع الرأي العام الغربي بأنه سيصل بكل تأكيد إلى تحقيق أهدافه، وقد دعا في شهر كانون الثاني - يناير عام ١٨٦٥ غرف التجارة الرئيسة في أوروبة لترسل مندوبين عنها لزيارة مواقع العمل، وقُبلت دعوته، وتوقّع وصول المندوبين إلى الاسكندرية في مطلع شهر نيسان - أبريل من تلك السنة، فأي ضربة ستوجّه إليه إن وصل المندوبون ليشاهدوا الأعمال متوقّفة بأمر من الحكومة المصرية! فالظرف إذاً في مرحلة حرجة جداً.

هو كذلك أيضاً بالنسبة لعبد القادر الذي استمرّ في هدوء تام في الموقع، أي على البرزخ، يقوم بنوع من الاستقصاء حول ملكيته ويصعب عليّ الاعتقاد بما زعم به شريف باشا، أو ارتضاه القنصل العام تاتسو بأنه على إطلاع باعتراضات اسماعيل باشا ورفضه السماح له بالإقامة في مصر، وحتى بتحفّظات نابوليون الثالث حول هذا الموضوع: ويبدو لي هذا مستبعداً، إذ لو عرف بالحد الأدنى مما يجري، لما تصرّف أبداً هذا التصرّف، والواقع أنّه في هذه الأيام الأخيرة من كانون الثاني - يناير، كان الأمير في بير أبو بلح حيث تفقّد المكان بدقة، يصحبه جول غيشار، الذي حضر من التل الكبير، مقرّ عمله المعتاد، لمرافقته؛ وقد قدّم غيشار تقريراً مكتوباً لجيراردن عن تلك الزيارة، التي لم تنته، كما سنرى دون ظهور اختلاف في وجهات النظر بينه وبين الأمير حول مساحة الأراضي العائدة لهذا الأخير.

طلب عبد القادر من غيشار أن «يثّبت له الحدود» لأنّه حضر «ليستلم نهائياً الأراضي التي وهبته إياها الشركة» ولم يعط جيراردن المطّلع على مسعى عبد القادر أي تعليمات جديدة حول استلام هذه الملكية، وتعليمات المندوب السامي السابقة العائدة

إلى آذار ـ مارس عام ١٨٦٤، وإلى الأشهر التي تلته تنصّ على وضع هذه الملكية مع الأراضي المجاورة لها تحت تصرف الأمير، «وبشكل يرضي البدو الذين يزرعون تلك الأحواض من جهة أخرى»، وبما أن حدود تلك الأحواض لم يتم سابقاً إجراؤها بطريقة رسمية، فإن غيشار عيّن لعبد القادر حدود الأرض التي سبق إلحاقها بالمنزل الريفي بشكل قطعي أي حوض أشّر عليه بحرف A ولوّن بالأحمر على مخطط ألحق بالرسالة التي ورد فيها:

«تشكّل المساحة الكليّة المؤلّفة من الكثبان، وهي الأراضي المرتفعة الواقعة فوق مستوى السقاية «من مياه القناة العذبة»، ومن الحقول المستصلحة والمزروعة من قبل المتعهد العام ما مجموعه سبعة وستون هكتاراً منها أربعون هكتاراً تقريباً مزروعة». واعترض الأمير عندئذ على صغر هذه المساحة؛ فمنطقة بير بو بلح المقصودة في رسالة الهبة تشمل جميع الملحقات الصالحة للسكنى وحدّها هو الجدول الذي أشار إليه غيشار معترفاً أنّه نهاية الوادي، أما القطعة المحدّدة على المخطط فلا يمكن أن تشكل مشروعاً زراعيّاً جدياً، والأمير لايريد استئجار أراض أخرى. وهكذا استيقظت لدى الزعيم الجزائري المحارب سابقاً غريزة المالك، والحسّ العملي للمزارع! وأجاب غيشار بأن ليس لديه تعليمات دقيقة لتسليمه أراضيَ غير تلك المحدّدة على المخطط، وتذرّع بضرورة ورود هذه التعليمات من دي لسبس بالذات الغائب حالياً عن مصر ولكن بإمكانه أن يرسل من باريس توجيهاته لإرضاء الأمير الذي يطالب كما ورد في الرسالة الموجّهة إلى جيراردن «بجميع هذه الأراضي التي تشكل مساحة مئتين وخمسة وتسعين هكتاراً، منها مئتان تصلح بسهولة للزراعة» وكانت العبارة التالية تشير إلى آفاق آمال الأمير التي تتوافق كما سنرى مع نوايا دي لسبس؛ ويذكر غيشار: «إنّه (أي الأمير) لايجد مساحة الأراضي كافية لتستحق، حتى إشعار آخر، إحضار عائلات من سورية».

إذاً، فاستلام هذه الملكية، الذي تمّ بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ـ يناير عام ١٨٦٥، كان موضوع اعتراضات، بل إنّ غيشار يتحدّث عن «إشكالات». وقد سبّب هذا الاستلام لعبد القادر خيبة أمل واضحة. ومع هذا فإنّه لم يعدل عن الهبة التي أنعمت عليه بها الشركة، بل تفاوض مع المزارعين الذين يشغلون الأرض الموضوعة تحت تصرفه، وأجرى معهم عقد مؤاكرة؛ وأظهر سلطته كمالك على قطعتين تحفّظ عليهما

غيشار ورتب أجرة على شاغليهما، وطلب مأخذ ماء من ڤوازن المهندس المسؤول على قناة الإسماعيلية، وأعطى توكيلاً لأحد مشايخ الوادي ليدير أعماله، وطلب من غيشار أن يوقّع معه هذا التوكيل كشاهد، وأشار في ذات التوكيل إلى جميع قطع الأرض، التي طالب بها ورفض تسليمها له، ماعدا واحدة منها؛ وتركه غيشار في الإسماعيلية يستفهم من كبار الملاكين في منطقة الوادي، عن أنواع الزراعات المألوفة في المنطقة. وبالإجمال فإن الأمير تصرّف وكأن ما من مشكلة قائمة؛ وهذا سبب إضافي يجعلني أزداد يقيناً بأنه لم يكن يعلم تماماً ما يجري من أمور في القاهرة. هل مرّ مجدّداً، قبل مغادرته مصر، على العاصمة حيث يمكن أن يكون قد اطلع على الوضع تماماً؟ أجهل ذلك، فما من شيء في ملفّات الشركة يشير إلى وجهته بعد مروره على برزخ السويس، وعلى كل حال، فقد غادر مصر عائداً إلى دمشق بتاريخ ٢٠ شباط - فبراير عام ١٨٦٥.

أرسل جيراردن إلى دي لسبس النسخة الأصلية لرسالة غيشار المؤرخة في ٧ شباط - فبراير، ومن المقدر أن يكون دي لسبس قد استلم قبلها نسخة عن رسالة شريف باشا إلى جيراردن المؤرخة في ٢٩ كانون الثاني - يناير، وجواب جيراردن إلى شريف بتاريخ ٣١ كانون الثاني - يناير، وتقرير ڤوازن بك الموجّه إليه شخصياً بتاريخ الأوّل من شباط - فبراير. إذاً ففي حوزته جميع عناصر القضية، وكل المعطيات عن وضع أحس ڤوازن بخطره، وكذلك جيراردن بالتأكيد؛ ورغم ذلك فإنّ ملاحظة بخط يده ملحقة برسالة غيشار تفيد أن من رأيه أن تشمل الهبة المساحات المرجوّة من قبل عبد القادر. والواقع أن هذه الملاحظة تحدّد مختلف القطع العائدة لحوض بير أبو بلح والتي يبلغ مجموع مساحتها ٢٩٦,٩١ هكتار وتضيف:

«هذه الأراضي تشكل الملكية الممنوحة لعبد القادر بقرار من مجلس الإدارة سابق للصعوبات التي واجهتها الشركة وكانت موضوع طلب التحكيم الإمبراطوري. وقد تمت هذه الهبة ضمن الشروط ذاتها التي كانت تتمتع بها الشركة آنذاك».

وكلمة «آنذاك» تفيد أن دي لسبس قد سلم بالواقع، الذي لايمكن إنكاره من الآن فصاعداً، والمتعلّق بمطالبة الخديوي بملكية بير أبو بلح وكذلك بمنطقة الوادي، فكلاهما في رأي الحكومة المصريّة متضمنان في الأراضي الواجب إعادتها إلى مصر بموجب قرار تحكيم نابوليون الثالث بينما كان عبد القادر في طريق العودة إلى دمشق، كان

قنصل فرنسة العام في الإسكندرية، المبلّغ من قبل جيراردن، يعتبر الموضوع قد سُوّي، بخيبة أمل الأمير ذاتها أمام تقليص غيشار لملكيته. وهكذا استبق السيد تاتو الأحداث لأن عبد القادر لم يتخل أبداً عن الهبة، ولم يطلب منه دي لسبس أن يصرف النظر عنها، لكن تسوية الموضوع بالشكل العاجل، وفي الاتجاه الذي أرادته الحكومة المصرية، لم يعد فيه مجال للشك، وإذا كان دي لسبس لم يصرح بأنّه تراجع عنه، فذلك لأنّه كان يفضل أن يضعه اسماعيل أمام الأمر الواقع، بحيث يمكنه أن يتذرع أمام الأمير بعذر لا مجال للاعتراض عليه.

كما أقرت الحكومة المصرية من جهتها، وقد شعرت بأنها أمسكت بالطرف المناسب وتخلّصت من وجود عبد القادر الذي كانت تعتبره بكل تأكيد مزعجاً، بألّا ضرورة لتأزيم الوضع، فلم ينفذ شريف باشا تهديده بإحداث أزمة في العلاقات العامة بين الشركة والحكومة، وبإعاقة استمرار الأعمال. وهكذا وجد مندوبو غرف التجارة في أوروبة، عند زيارتهم في نيسان ـ أبريل، أيار ـ مايو عام ١٨٦٥ الورش بكامل نشاطها وقد وصلت الأعمال إلى درجة من التقدم تضمن النجاح للمشروع في النهاية. وقد أشارت «صحيفة اتحاد البحرين» إلى جولتهم التفتيشية؛ وبالمقابل لم تتطرق بكلمة إلى زيارة عبد القادر الثالثة إلى مصر، بينما سبق لها أن أسهبت في تفاصيل الزيارتين الأوليين. وكان من السهل تخمين سبب صمتها المعبر، وهو الحرص على مداراة الحكومة المصرية من قبل الشركة، ومن قبل فرنسة.

أما الأمير عبد القادر الذي لم يطلب منه دي لسبس التخلي عن ملكيته، فقد استمر في الشهادة علناً، وباهتمام ثابت لايتغير، لأهمية نجاح شق البرزخ وإنشاء القناة، وقد حضر في زيارة إلى باريس في صيف عام ١٨٦٥، وقام بزيارة للشركة حيث استقبل رسمياً من قبل مجلس الإدارة، المجتمع في جلسة بتاريخ ٢٠ تموز ـ يوليو برئاسة الدوق دي ألبوفيرا، نائب الرئيس، وكان دي لسبس غائباً عن فرنسة، وصدر محضر رسمي عن ذلك الاجتماع باللغتين العربية والفرنسية وهو موقّع من الدوق دي البوفيرا والأمير عبد القادر، وقد جاء فيه:

«قام الأمير عبد القادر، الموجود حالياً في باريس بزيارة لمجلس إدارة شركة قناة السويس البحرية، واستمع باهتمام إلى المعلومات التي عرضت أمامه عن تقدّم الأعمال، وقد عبر عن كامل تعاطفه مع مشروع شق برزخ السويس ومودّته لرئيس

الشركة السيد فرديناند دي لسبس، ولجميع الأشخاص الذي يؤازرونه لتحقيق النجاح لهذا المشروع».

يعتبر أعضاء المجلس الذين حضروا زيارة الأمير إلى المقرّ الإداري للشركة في باريس النواة الصلبة للجماعة القادرية التي يجب أن يضاف إليها إميل أوليفيه[1] نفسه.

كان هناك نابوليون «سوشه SUCHET»، دوق دي ألبوفيرا، نائب رئيس الشركة، وابن لويس سوشه، مارشال فرنسة وأحد قادة نابوليون الأول؛ والكونت تيودور دي لسبس، والبارون جول دي لسبس أخ فرديناند، وممثل باي تونس، والابن البكر شارل دي لسبس؛ والسيد دي شانسل، ضابط البحرية ومفتش السكك الحديدية؛ والفيكونت تيرلا النائب؛ وفيكتور دلاميل الصهر السابق لفرديناند والمستشار العام لمقاطعة الاندر، ولاغو الوزير المفوض، وراندويغ النائب، والمصرفي الباريسي كوتوريه، والكونت دفرانس قبطان الفرقاطة، والمرافق السابق للبرنس نابوليون، والسيد دي اندرادا الدبلوماسي البرتغالي، ودافيد الوزير المفوّض، ومعطي بك العقيد مدير التحصينات في مصر، وبونتوا - بونكاره المستشار العام في أور - ولوار؛ وميرو السكرتير العام للشركة وصاحب المؤلّفات المتعلقة بمصر..

اهي نهاية وهم ام اختلاس؟

نُفّذ قرار نابوليون الثالث التحكيمي في مصر بين نهاية العام ١٨٦٥ ومطلع العام ١٨٦٦ وأعيدت كامل الملكية العقارية المتنازل عنها سابقاً للشركة إلى الحكومة المصرية، وكانت ملكية بير أبو بلح بما فيها بيت السكن والأراضي الملحقة به متضّمنة بين الأملاك المستعادة وفقاً لإرادة اسماعيل، وهكذا شطب نهائياً المشروع الذي كان يداعب مخيلة دي لسبس: البعث الزراعي للتخوم الشرقية في مصر بتحضير البدو، واستقدام الفلاحين وهجرة المزارعين السوريين.

عند ذاك بلّغ دي لسبس عبد القادر برسالة ذكر له فيها أن الملكية التي وُهبت له قد استعادتها حكومة الخديوي، وهو مضطر لإعلامه بذلك راجياً إسقاطها من حسابه. ولم يتأخر جواب عبد القادر وكان مفعماً بعزّة النفس والمودّة.

---

١ - اميل أوليفيه OLLIVIER.E (١٨٢٥ - ١٩١٣) رجل سياسة فرنسية. رئيس الحزب الثالث استلم رئاسة الوزارة في العام ١٨٧٠.

«السيد الأفخم فرديناند دي لسبس حفظه الله في هناء وسعادة. تلقيت رسالتك وأدركت مضمونها المتعلق بأبو بلح.

أبلّغك بأنني لا أرغب ولا أتمنى إلا صداقتك، وأنني لم أحبب ملكية أبو بلح إلا لأكون قريباً منك جسماً وروحاً.

إن ماتراه صالحاً هو صالح في نظري، وأنا مستعد لأعطي كل ملكية مصر، لو أنها في حوزتي، من أجل راحة بالك، فكيف لا أسرُّ لكلّ ما يتوافق مع مصالحك؟ فكن مطمئناً من ناحيتي فأنا أحب ما تحبه، وأُسرّ لما يسرّك.

صديقك المخلص عبد القادر

دمشق في ٢٢ شوال ١٢٨٢ (١٠ آذار ـ مارس عام ١٨٦٦).

وجد دي لسبس بحق أن هذه الرسالة منطبعة بالنبل المميّز لطبيعة الأمير، والواقع أنها توحي بالإخلاص في صداقة متبادلة دون شكّ بين هذين الرجلين الاستثنائيين. وفي رأس الترجمة الفرنسية للنص العربي كتب دي لسبس بخط يده الملاحظة التالية:

«ترجمة رسالة من عبد القادر، وهي جواب لاتصال من رئيس الشركة يعلن له فيه أن ملكية بير أبو بلح التي سلّمت له سابقاً قد تمت إعادتها إلى الخديوي وفقاً لترتيبات جديدة عقدت مع الحكومة المصرية».

يبدو أن دي لسبس عدا التعرض لدسيسة الإختلاس، أو عملية الدعاية البسيطة، كان على الأكثر ضحية ذلاقة لسانه.

في النصف الثاني من شهر نيسان ـ أبريل ١٨٦٦ ذهب دي لسبس في رحلة إلى سورية؛ فالرحلة السياحية إلى تلك المناطق تثير في نفسه ذكريات شبابه، عندما كان قنصلاً في الإسكندرية والقاهرة، وكانت جيوش محمد علي باشا قد استولت بقوة السلاح على فلسطين وسورية وكانت تلك المناطق تخضع سياسياً لمصر. كان معه في رحلته الكونت كلاري وهو ابن عائلة من أصل مرسيلي وتمتُّ بصلة نسب لجوزيف بونابرت شقيق نابوليون وملك نابولي ثم ملك إسبانية.

ذهب دي لسبس إلى دمشق حيث استقبله عبد القادر، وشرح له فرديناند ما لم يتمكن من كتابته حول إلغاء ملكية بير أبو بلح وإعادته إلى الحكومة المصرية، وقد لاحظ أن الأمير رغم أنه يتلقى راتباً من الحكومة الفرنسية لايعتبر من الأغنياء،

فأسف على المصير السيء الذي انتهت إليه الهبة التي عمل على منحها له من قبل الشركة، ودون أن يشعر بمسؤوليته عن حرمان صديقه الجزائري منها؛ أحسّ أن عليه أن يقدم له شيئاً وهكذا أقنعه قبل مغادرته له بقبوله لخدمة يؤديها له، وقد كتب بشأنها للمندوب السامي للشركة السيد جيراردن الرسالة التالية، بتاريخ ٥ أيار ـ مايو عام ١٨٦٦:

«إن الأمير عبد القادر الذي كتبت له بأن ملكية بير أبو بلح التي قدّمت له من قبل الشركة، والمستلمة من قبله منذ أكثر من سنة، قد أعيدت إلى الحكومة المصرية عقب اتفاق جديد مع الخديوي. وقد أجابني بنبل: «إنني مستعد لأعطي كل ملكية مصر، لو أنّها في حوزتي، من أجل راحة بالك، فكيف لا أسرُّ لكلّ ما يتوافق مع مصالحك؟» في الرحلة التي قمت بها إلى سورية، مررت على دمشق، وكان هدفي الرئيس زيارة الأمير، وهناك لقيت منه استقبالاً حافلاً أثار إعجاب السيد كلاري. لكن قنصل فرنسة، السيد رينو أعلمني أن وَلَدي الأمير الأوّلين في حالة صحية سيئة، وأنَ عدم توفّر المال فقط يمنعه من إرسالهما إلى فرنسة لاستشارة أحد الأطباء في باريس، والإقامة لفترة وجيزة من الوقت.

اعتقدت إذاً أن من واجبي أن أؤمن للأمير رحلة ولديه للمعالجة في فرنسة وقد قابل ذلك بمزيد من الامتنان، وتلطّف الكونت كلاري بالاهتمام بهذه الرحلة اعتباراً من الاسكندرية، وسيتفق مع الجنرال فلوري في باريس بخصوص النفقات العائدة لإقامتهما في فرنسة، وسيطلب بهذا الخصوص تعليمات الإمبراطور الذي حمل من الأمير رسالة إليه.

تكفّلت بنفقات إقامة وسفر ابني عبد القادر من دمشق إلى بيروت فالاسكندرية؛ أرجو أن ترفق إذاً نسخة من هذه الرسالة وتضمّها إلى فواتير النفقات التي ستقدّم إلى المندوبية من أجل تسديدها، وأن ترسل أيضاً نسخة أخرى إلى السيد الدوق دي ألبوفيرا في باريس لتتمكن الإدارة من الاهتمام بتسديد النفقات التي سيدفعها أو سيتابع دفعها بالاتفاق مع أخي جول الذي سأوصيه بصورة خاصة بالشابين. يبدو لي أن هذه الطريقة هي الأفضل، وربّما هي الأوفر على الشركة لتقدّم للأمير بعض التعويض عن سحب ملكية بير أبو بلح منه.

لك أحسن تحياتي..

ملاحظة: مرافق الرسالة الأصلية من عبد القادر مع ترجمتها، الرجاء ضمّها إلى الملف وإرسال نسخة عنها مع نسخة رسالتي الحالية إلى باريس.

حضر السيّدان محمد ومحيي الدين ابنا الأمير فعلاً إلى فرنسة في العام ١٨٦٦ على نفقة شركة قناة السويس من دمشق إلى باريس وبإشراف الكونت كلاري بدءاً من الاسكندرية، وتكفّل الجنرال فلوري معلم الفروسية في القصر الإمبراطوري بنفقات إقامتهما في فرنسة وقام جول دي لسبس أخو فرديناند بإسكانهما في باريس.

في العام ١٨٦٧ قام عبد القادر بزيارة معرض باريس العالمي ضمن مآثر الإمبراطورية الثانية. وجذب هذا المعرض جماهير الزائرين، كما وفد إلى بلاط التويلري بهذه المناسبة عدد من الملوك الأجانب: قيصر روسية، وملك بروسية، وسلطان تركية، وملك بلجيكا، وملك بافارية، وشاه إيران، وخديوي مصر، الخ... وكانت المساهمة المصرية في المعرض هامة، وعهد بتنفيذ قسم الآثار القديمة إلى عالم دراسة الأوابد المصرية الفرنسي أوغوست ماريت، المدير العام للآثار في مصر، فعمل على إعادة بناء معبد مصغّر مماثل لمعبد أدفو في المعرض، أما القسم الحديث فتمثّل في إشادة «أوتيل» أي فندق أوخان مع ملحقاته من المتاجر، والبضائع، والتجار، ومكاريي الحمير مع حميرهم، وكان لشركة القناة جناح مستقل عن جناح مصر، عرضت فيه خرائط، ومجسّمات، وصور فوتوغرافية، وخطوط بيانية ونماذج عن الأجهزة والآلات العاملة، ولوحة مشاهد عمودية منوّرة (ديوراما) لبرزخ السويس، فالمشروع يسير من الآن فصاعداً باندفاع نحو النجاح، والثقة فيه تتوطد يوماً بعد يوم.

وصل فردیناند دي لسبس في شهر حزيران ـ يونيو مع الخديوي اسماعيل الذي رافقه من الاسكندرية، وقد كتب دي لسبس في مؤلّفه: **ذكريات أربعين سنة:**

«من المعروف أن عبد القادر حضر إلى باريس لزيارة المعرض العالمي في العام ١٨٦٧، وقد حلّ كبقية الملوك والأمراء الأجانب ضيفاً على الإمبراطور» طبعاً لم تكن الضيافة الإمبراطورية لعبد القادر على مستوى تلك المقدّمة لاسكندر الثاني قيصر روسية الذي أنزل في قصر الإليزه، أو للخديوي اسماعيل الذي حلّ في جناح مارسان، إنّما أمنت له الرحلة إلى باريس والإقامة اللائقة فيها، وأمكنه أن يتجوّل كيفما شاء وفي أي وقت بين أرجاء ذلك المعرض الرائع الذي شغل لأول مرة «الشامب دي مارس Champ de Mars» غير أن «صحيفة اتحاد البحرين» صمتت عن هذه الزيارة

وعن إقامته في باريس كي لاتثير حساسية اسماعيل بعد أن عاد الانسجام الودّي بينه وبين دي لسبس.

غير أن عبد القادر وجد بين حاشية دي لسبس أحد معارفه القدامى: إميل أوليفيه الذي غدا مفوّض الحكومة المصرية لدى الشركة، وهو الذي كان منذ عشرين سنة، وفي آذار - مارس عام ١٨٤٨، مفوّض الجمهورية الثانية في مقاطعات فرنسة الجنوبية الشرقية، وشارك في انتقال الأمير من حصن طولون إلى قصر بو.

خلال العام ١٨٦٨ غدا بإمكان دي لسبس أن يعلن جهاراً أن قناة السويس ستكون منتهية في شهر تشرين أول - اوكتوبر من العام التالي. وقام اسماعيل من جهته بجولة على العواصم الأوروبية لدعوة ملوك ورؤساء حكومات أوروبة لحضور حفل التدشين الرسمي الذي حدّد بتاريخ ١٦ تشرين الثاني - نوفمبر عام ١٨٦٩. وكان مولاه السلطان العثماني قد خلع عليه منذ بعض الوقت لقباً جديداً: هو الخديوي، لقب غير اعتيادي ينقل إلى خلفائه، ويمنحه وضعاً استثنائياً كأمير اقطاعي في السلطنة العثمانية، وحاكم وريث لمقاطعة عثمانية مستقلة. لكن الباب العالي لم يُخف سخطه لرؤيته ينطلق دون العودة إليه، وبمبادرة خاصة منه إلى توجيه دعوات إلى ملوك ورؤساء، وهذا الغيظ التركي لم يَفُت العواصم الغربية، لكنه لم يمنع قبول دعوات الخديوي بشكل واسع: وخاصة في باريس، حيث قرّر نابوليون الثالث أن يُمثّل بالإمبراطورة أوجيني في احتفالات التدشين، وفي ڤيينا وعد الإمبراطور فرنسوا جوزيف أن يحضر شخصياً؛ وفي برلين قرر غليوم بروسية أن يمثّله الأمير ولي العهد وزوجته؛ وفي لاهاي وعد ملك البلاد المنخفضة أن يرسل أيضاً ولي عهده وزوجته، وفي روما عهد ڤيكتور - عمانوئيل بهذه المهمة إلى أخيه دوق داوست؛ أما بقية الملوك فقد اختاروا كممثلين لهم سفراء، أو أميرالات، أو رجال دولة، كما أن اسماعيل دعا بدوره شخصيات أخرى بصفتهم الشخصية، وخاصة بعض رجال الأدب، والفنانين. أخيراً كان للشركة مدعووها الخاصون، وفي المقام الأوّل من هؤلاء الأمير عبد القادر، وبما أن تنقلاته ماتزال خاضعة لموافقة الحكومة الفرنسية، فقد وجب أن تُعرض هذه الدعوة على الامبراطور نابوليون الثالث، ووافق الامبراطور وقرر أن يضع تحت تصرف الأمير المرافقة الحربية العائدة للبحرية الوطنية: لي فوربن Le Forbin؛ وهكذا حرص دي لسبس على أن يكون في حفل التدشين الرسمي مشاهد مميّز كان من أوائل من آمنوا بنجاحه وأمدوه بعون معنوي لم يتخاذل أبداً.

كذلك فإن الإمبراطورة التي ستكون عرّابة قناة السويس، لم تقتصر على الموافقة على دعوة دي لسبس للأمير، وإنّما قرنتها بدعوة منها. على الأقل هذا مايمكن أن يستنتج من رسالة قنصل فرنسة العام في بيروت الذي أعلن في رسالة للأمير دلاتور دوفري De la tour dAvvergne وزير الخارجية الفرنسية أن الأمير قد غادر مرفأ بيروت متوجهاً إلى مصر:

«إن الأمير عبد القادر الذي تكرّمت صاحبة الجلالة الإمبراطورة بإعلامه عن سرورها برؤيته في مصر بمناسبة تدشين افتتاح قناة السويس بادر إلى تلبية هذه الدعوة الكريمة العطوف، وهو سعيد لاستطاعته المثول أمام جلالتها وتقديم عميق احترامه. وقد أبحر في هذا اليوم، متوجّهاً إلى الاسكندرية».

هذه الرسالة مؤرخة في ٢٨ شباط ـ فبراير عام ١٨٦٩ مما يشير إلى أن عبد القادر قبل أن يتوجّه إلى برزخ السويس قد أقام أكثر من أسبوع في العاصمة الثانية لمصر.

١٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٨٦٩

البرزخ الأرضي

وصلت الفرقاطة «لي فوربن» وعلى متنها الأمير عبد القادر إلى مياه بورسعيد قبل يومين من وصول اليخت الإمبراطوري «**العقاب** L. Aigle» الذي يقلّ من القسطنطينية الإمبراطورة أوجيني بعد زيارتها للسلطان عبد المجيد. وفي ١٦ تشرين ثاني ـ نوفمبر عام ١٨٦٩، حضر عبد القادر الاحتفال الديني في الصباح ومهرجان الابتهاج في المساء.

ففي الصباح أقيم احتفال ديني خاص لحمد الله من قبل رجال الدين المسلمين بدأ بتلاوة مباركة من آي الذكر الحكيم ثم خطاب لكبير علماء القاهرة وأعقبه قدّاس من قبل رجال الدين المسيحيين الأرثوذوكس والكاثوليك، وفقاً للطقس الشرقي واللاتيني، ومباركة القناة، وتسبيحة الشكر، وخطاب أسقف التويلري.

وفي المساء جرى استقبال على ظهر «**المحروسة**»، يخت الخديوي، وإطلاق أسهم نارية، وإنارة المرفأ بالشهب المتوقدة على السفن الراسية وشوهد الأمير يتوجّه سيراً على الأقدام من الرصيف إلى المنصة الرئيسة المنصوبة على رمل الشاطئ في مواجهة سرادقين جلس في أحدهما العلماء والأئمة وشيوخ المساجد، وفي الآخر الأسقف الكاثوليكي والرهبان الفرنسيسكان، والبطاركة والأساقفة والكهنة الشرقيون. وكان

آخر من جاء للجلوس على المنصة امبراطورة الفرنسيين، وامبراطور النمسة، وملك هنغارية يسبقهما حرس باهر: وكان على المنصة الخديوي اسماعيل وابنه توفيق، وولي عهد بروسية وقرينته، وولي عهد هولنده وقرينته، وارشيدوق النمسة فيكتور، وأمير هانوفر جورج، والأمير يواكم مورا، وفرديناند دي لسبس وعائلته، وجماعة من المشاهير المدنيين والعسكريين من مختلف الجنسيات، بينهم رجال دولة، منهم البارون دي بوست والكونت اندراسي، وأميرالات منهم الأميرال النمساوي تجتوف، وجنرالات منهم خاصة الجنرال الروسي ايجناتييف، وسفراء، برز من بينهم خاصة سفير بريطانية العظمى في القسطنطينية، وباشوات مصريون وأتراك من بينهم شريف باشا ونوبار باشا، ولم يتخلّف من المدعوين إلا دوق داوست الذي استدعي إلى إيطالية لسوء حالة أخيه الصحية الملك فيكتور عمانوئيل.

دهش الفرنسيون العديدون[1] الذين حضروا احتفال التدشين لمرأى الأمير عبد القادر الذي أثار إعجابهم وقد كتب شارل رو:

«وسط بريق البزّات الرسمية برز وجه عبد القادر حازماً صارم القسمات، كان يلتفّ ببرنس أبيض، ليس عليه من زينة إلا قلادة جوقة الشرف الفرنسية تلتمع على صدره؛ وتعبّر عن الفكرة الجميلة والشهمة في حضور هذا البطل المقهور حفلاً يتمثّل فيه اتحاد الشرق والغرب».

على الرصيف أمكن ملاحظة وفد ماسوني كبير بأشرطة وبيارق من جنسيات مختلفة تضمّها المحافل المحليّة: «اتحاد البحرين» و«برزخ السويس» و«حبّ الحقيقة»...

كانت السفينة البخارية التي أقلت شارل رو من مرسيليا، المسماة **الطوارق**، ترسو إلى جانب الفرقاطة «فوربن». وقد كتب شارل رو:

«أمكنني أن أرى عن قرب الأمير خلال عدة أيام، وأشهده يقوم بصلاته صباحاً ومساءً بانتظام على سطح «الفوربن»، وقد أثّر بي مظهره النبيل، ولطف معاشرته، لكن الخديوي اسماعيل بقي على موقفه المتجهم من عبد القادر ولم تغيّر أبهة المناسبة من تصرّفه، فقد كان منشغلاً، وحتى حاسداً، لهذا النفوذ الذي يتمتع به الأمير بين العرب، ومدى تقديرهم له.

١ ـ توجد نحو مئة لوحة تعود إلى ذلك العصر تمثّل حدث تدشين القناة (انظر الشكل ١٨).

وأيّاً كانت أحكام اسماعيل المسبقة ضده، فهي لم تمنعه من احتفالات الأيام التالية: ففي صباح ١٧ تشرين ثاني - نوفمبر عام ١٨٦٩ جرى موكب بحري من سبعين سفينة، منها خمسون سفينة حربية، وقد سبقتها حرّاقة مصرية مرشدة، وكان على رأسها يخت «العقاب» مفتتحاً المسيرة، وجاءت «الفوربن» رابعة عشر في هذا العرض النادر: وهي بين يخت روسي، وسميريّة[1] فرنسية؛ وكان عبد القادر يكرّر على سطح الماء ومتن الفرقاطة الفرنسية في القناة المنجزة، عبور المسار الذي سبق أن أجراه مرتين من بور سعيد إلى بحيرة التمساح في العام ١٨٦٣ ومن المنزلة على الأرض اليابسة في ١٨٦٥ عبر جدول الخدمة الضيق. ورأى مجدّداً عتبة القِشر حيث سبق أن شاهد الآلات الحفّارة الجرّافة؛ أما الآن وعلى الضفتين فقد تجمّع في هذا المكان المطل على القناة جمهور من الفلاحين وهم يهتفون محيين السفن المارة وهي ترفع كافة الأعلام الأوروبية، ورأى فوق مياه بحيرة التمساح هذا الأسطول العالمي المدهش، الذي يبرهن على قدرة هذا الحوض الواسع على أن يغدو كما كتبت «صحيفة اتحاد البحرين» المرفأ المركزي لقناة السويس. وشاهد مجدّداً دارة دي لسبس المخططة بالأحمر والأبيض، والتي استضيف بها سابقاً؛ ووجد نفسه على بعد أربعة أو خمسة كيلومترات من منزل بير أبو بلح الريفي، حيث أثار قرار ملكيته غيظ اسماعيل. وشهد في مساء ليل ١٧ - ١٨ تشرين الثاني - نوفمبر إنارات الأسطول، ثم مهرجان التخييم العربي الذي انتصبت خيامه على طول قناة المياه العذبة، ثم ألعاب الفروسية في المهرجان الذي أقامه الفرسان البدو أمام دارة دي لسبس. وفي ١٨ تشرين الثاني - نوفمبر حفلة الرقص والعشاء التي أقامها اسماعيل في قصر أعدّ لهذا الغرض.

في الساعة الثانية عشرة والنصف من يوم ١٩ تشرين الثاني - نوفمبر بدأ الأسطول المزيّن بالأعلام يتوجّه نحو الطرف الجنوبي للبحيرة المرّة الكبرى. وقد كتبت «صحيفة اتحاد البحرين»:

«يوجد شيء مهيب ووقور في هذه المجموعة من السفن المنعزلة عن كل تجمّع سكني، تحيط بها الصحراء، وهي تحت سماء تتلألأ نجومها وتنعكس أنوارها على سطح هذا البساط المائي الرائع الذي لايقل سعة عن بحيرة جنيف وقد أحدث هنا بعبقرية رجل فذّ»..

---

١ - سميريّة AVISO: سفينة حربيّة صغيرة تستعمل لحراسة القوافل البحرية المدنية.

وبينما كان يتمّ تبادل الزيارات مساءً بين سفينة وأخرى، وتتبادل هذه السفن التحيّات بالأسهم النارية والأنوار المشعة، كان عبد القادر على سطح «الفوربن» من ذلك العدد القليل الذي يتذكّر كيف كان في العام ١٨٦٥ يتجول على الأقدام فوق الأرض اليابسة خلال زيارته الأخيرة للبرزخ.

في العشرين من الشهر، رفع اليخت «العقاب» مرساته في الساعة السابعة إلا الربع صباحاً ودخل في فُرضَة السويس في الساعة الحادية عشرة والنصف وتتابع ورود السفن التسع والستين التي تبعت اليخت الإمبراطوري في الساعات الأولى من بعد الظهر، ورأى عبد القادر مجدّداً، لكنه آت هذه المرّة من بور سعيد، أي من البحر المتوسط، مرفأ السويس هذا الذي رسا فيه في العام ١٨٦٤ قادماً من مكة المكرمة ومن جدّة، ليتابع طريقه في مصر برّاً. وهكذا انتهت هذه الرحلة البحرية التي لم يسبق لها مثيل إلا على سبيل التجربة وفي زوارق خدمة؛ وغدا برزخ السويس من الآن وصاعداً يُعبَر بالسفن.

بينما كان أسطول التدشين يتفرّق، بقي عبد القادر على متن «الفوربن» وهو يصعد في القناة من الجنوب إلى الشمال ليلتحق ببيروت، بعد أن شهد انتصار صديقه دي لسبس، وحضر «اتحاد الغرب والشرق» كما كتب شارل رو متمثلاً في تحقيق فكرة قديمة جداً راودت أذهان نخبة من الفرنسيين خلال قرنين تقريباً لوصل البحرين، البحر المتوسط والبحر الأحمر ومن خلالهما المحيطين الأطلسي والهندي.

كل رموز هذه العملية كانت منسجمة مع مفهومه للمكان والزمان، وبالتناسق مع المهمة التي كلّفه بها الله في أن يكون **رائد البرزخ**، حتى وإن كانت تدور في رؤوس الآخرين أفكار أخرى.

قبل أقلّ من سنة من الحرب الأوروبية الأولى الكبيرة، حرب ١٨٧٠ الفرنسية الألمانية، كان الجوّ الذي أحس به عبد القادر بين بور سعيد والسويس، خلال تلك الأيام من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر عام ١٨٦٩ يوحي باتحاد متواصل في كلّ شيء: اتحاد واتصال بين بحرين، اتحاد بين القارات، اتحاد تواصل بين المسيحية والإسلام؛ لكن النزاعات العالمية كانت تخبّئ العديد من التكذيبات لهذه المشاعر السامية التي تنعش نفس الأمير الجزائري، الذي التحق بعد صراعه الطويل والجريء، واستسلامه المؤثّر، دون شك، إنّما مع أي أوهام، بالقضية الفرنسية عامّة وبمشروع دي لسبس خاصة؛

ويقتضي الواقع أن نسجّل أن هذا المتصوّف الأكبر في ذلك العصر كان نصير التحديث لأمّته، وهو الذي حقّق في شخصه برزخ البرازخ.

لم يضع تدشين قناة السويس خاتمة للعلاقة بين الأمير ودي لسبس، الأمير الذي رأى دي لسبس في قمة مجده، ودي لسبس، الذي كان أول من أظهر لعبد القادر مزيداً من الودّ والإحترام، يرى صديقه قمة في المزايا الأخلاقية والفكرية وقد عبر عن ذلك بقوله:

«أولئك الذين عرفوا الأمير خلال أسره، وفي سورية، أبدوا الإعجاب بهذه البساطة في التصرفات، وهذا الطبع الرفيق العطوف باستمرار، وهذه النفس المؤتلفة مع الأفكار الأكثر سمواً. لكنّ مثلاً أعلى من التقارب الإسلامي - المسيحي، والتضامن الفرنسي الجزائري كان يزيد روابط الصداقة بين الرجلين وثوقاً، ودي لسبس هو في آن واحد منظّر ورسول لهذه القضايا، ومؤلّفه «ذكريات أربعين سنة يحوي فصلاً بعنوان «الجزائر وتونس» هو دحض منظّم لمقولة أن الإسلام والمسيحية متعارضان، وإطراء، يعتمد على أدّلة مستمدة من خبرته في شمال أفريقية، ومعرفة بالروح العربيّة، لسياسة متسامحة مع الجزائريين والتونسيين، وقد جاء فيه:

«يتابع الزمن الذي يُبرئ كثيراً من الجروح سيره؛ في احترام صادق للدين والتقاليد، وعدالة كبيرة في إدارتنا، واهتمام مستمر بتحسين وضع السكان وتثقيفهم مما يساعدنا على استمالة القلوب؛ كما ساعدتنا شجاعة جنودنا على كبح المقاومة المسلّحة».

وهو في بسطه لهذا الموضوع، يستشهد بمثال عبد القادر، إذ أن أحكامه وآراءه حول هذا النقطة تلتقي مع وجهة نظر الأمير الذي قَدّم له برهاناً جديداً على ذلك.

مع نجاح مشروع قناة السويس غدا دي لسبس بالنسبة للآخرين ولنفسه مخترق البرازخ، وشَغَله مشروع أقل سعة، بشكل عابر مابين انتهاء الأعمال في قناة السويس، وبدء تشغيل مشروع قناة بناما.

يتعلّق هذا المشروع العابر بشق البرزخ الضيّق تقريباً الذي يفصل بين البحر المتوسط وشطوط الجنوب التونسي، وذلك على المستوى التقريبي لمدينة قابس، وبفضل هذا الاختراق يمكن جرّ مياه البحر إلى هذه البحيرات القديمة الجافّة وإلى تلك التي تشكّل امتداداً لها في جنوب الجزائر. وقد بدأ بدراسة المشروع ضابط، هو المقدّم رودير، كلّف من قبل الحكومة بتعميق الدراسة له، لكن دي لسبس الذي بدأ عمله الدبلوماسي في

تونس، قبل ذلك بنحو خمسين سنة تقريباً، كان يتابع بعناية قضايا المحميّة التونسية والمقاطعات الجزائرية، واهتم بهذا المشروع، وقدّم بخصوصه بحثاً مختصراً إلى أكاديمية العلوم، فهو إلى جانب القضايا التقنية، يعلّق على مشروع هذا البحر الداخلي الإفريقي آمالاً كبيرة في التقدّم الإنساني والحضاري، كما فعل من أجل السويس وبناما[1] وفقاً لشعاره «**نفتح الأرض للبشر**»، كما أن الإمبريالية تجد فيه أيضاً مصلحتها، إذ بواسطة طريق بحري وسطح مائي كانت تلحظ إمكانية التغلغل الفرنسي في قلب أفريقية.

وهنا كما في السويس فكّر في الحصول على دعم معنوي من عبد القادر، وقد حصل عليه فعلاً وأشار إلى ذلك في مقطعين من مؤلّفه «ذكريات أربعين عاماً».

«كتبت إليه منذ ثلاث سنوات ليرسل لي تعميماً موجّهاً إلى جميع الرؤساء العرب في المناطق التي سيعمل بها المقدّم رودير من أجل دراساته المتعلقة بالشطوط التونسية والجزائرية، وكانت توصياته مفيدة لإتمام مهمة رودير بنجاح. إنني أعلق الآمال على نجاح مشروع مخصص لتأمين السلام لجنوب الجزائر وتونس».

هذا النداء لعبد القادر الذي يعود إلى ماقبل ثلاث سنوات من كتابة دي لسبس لهذه الأسطر، يمكن تحديده بتاريخ العام ١٨٨٠، وأيّاً كان موعده، فإنه يؤكّد عليه في فصل خصّ به عبد القادر بعد موته وقال فيه:

«عندما كلّف المقدّم رودير من قبل الحكومة الفرنسية منذ عدة سنوات بإتمام دراساته حول البحر الداخلي الأفريقي، أرسل إليه عبد القادر، بواسطتي تعميماً إلى الرؤساء العرب في تونس والجزائر، ليقدّموا له المساعدة في أعماله».

لكن هذه المرّة يشير دي لسبس إلى مبادرة تلقائية، وهي مبادرة لاحقة، معاصرة للفترة التي بدا فيها مبدع قناة السويس متابعاً بنفسه دراسة تحقيق مشروع البحر الداخلي الأفريقي، فقد كتب دي لسبس:

«أخيراً، عندما أُنبئَ الأمير برحلتي الاسكتشافية إلى مناطق البحر الداخلي أرسل إليّ

١ ـ أسس فرديناند دي لسبس «الشركة العالمية للقنال بين المحيطين» لشق قناة بناما بطول ٧٩,٦ كم وبدأ العمل في العام ١٨٨١ لكنه تعثر كثيراً وصفيّت الشركة في العام ١٨٨٩ بعد فضيحة مالية وسياسية، وتوفي دي لسبس في العام ١٨٩٤ دون أن يرى حلمه يتحقق، وبعد استقلال بناما عن كولومبيا في العام ١٩٠٣ تنازلت للولايات المتحدة عن منطقة القناة واستأنفت هذه العمل في العام ١٩٠٤ ولم ينته إلا في العام ١٩١٤ (المترجم).

تعميماً آخر، يمكن النظر إليه وكأنه وصية نبيلة. فالأمير يعتقد أن هذا البحر سيساهم في إحلال السلام ضمن ملكياتنا الأفريقية، ويجذب بالخير الذي سنحققه قلوب ثلاثة ملايين مسلم مدعوين للتمتع بمزايا قوانيننا وحضارتنا».

يذكر دي لسبس نصّ الرسالة التي وجهها عبد القادر بواسطته إلى الرؤساء الجزائريين والتونسيين ليحثّهم على تأييد مشروع البحر الداخلي وليبين لهم الأسباب العامة للنصيحة التي يقدّمها لهم.

«الحمد لله وحده

من عبد القادر بن محيي الدين

إلى جميع القبائل العربية الساكنة في الجزائر، وخاصة إلى علمائهم، ومشايخهم ورؤسائهم الدينيين والعسكريين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بعد أجزائكم أحر التمنيات باليمن والسعد والنجاح في كل مايعود بالخير على النفس والجسد. أجد من واجبي أن أقدم لكم النصيحة التالية: إن الشركة الفرنسية التي تفكر بخرق برزخ قابس، الذي سبق أن حدّثتكم عنه، قررت اليوم أن تبدأ بالعمل والحضور لزيارة مناطقكم، ومن المؤمّل، بل من واجبكم أن يلقى هؤلاء الضيوف المحبة الإنسانية الكاملة، وحسن الاستقبال، وتسهيل الأعمال، والأريحية والتشجيع، والمساعدة بالقول والفعل.

يجب ألا تصغوا لهؤلاء الذين يتصوّرون خطأً أن خرق برزخ قابس يضرّ بالسكان، فهذه تخمينات خاطئة، ولايعتقد بها إلا الجاهلون، ومن ثمّ إن كان الله يريد لهذا الأمر أن يتمّ، فسيتم من حيث لاتتوقّعون وهكذا فإن الله قد أراد شقّ قناة السويس، وها إن البشرية تنعم بخيرات هذا العمل. وباختصار، فهذه الشركة الفرنسية تهدف إلى زيادة تحسين البلاد، وإنقاص الأراضي غير الصالحة للزراعة بحيث لاتحدث ضرراً لأي إنسان، وفي حال حاجتها لحقل أو بستان، أو بيت، فإنها ستدفع تعويضاً عنه أكثر مما يستحق. أخيراً فهذه الشركة رغم أنها قادرة بنفسها بالقوة والمال اللذين أرادهما الله لها، فإن العناية الإلهية قد سخّرتها لخير وفائدة خلق الله، ولهذا السبب فإنها ستبذل جهوداً كبيرة وتنفق أموالاً طائلة لإفادة مخلوقات الله. صحيح أنها ستجني بعض ثمار هذه الأعمال لكن ألا تعتبر هي أيضاً من مخلوقات الله؟ وهكذا عندما يكون السلطان عادلاً وخيّراً،

وبالرغم من أنه رئيس رعاياه، وقد وضع في مرتبة فوق مراتبهم (باعتبار أن خصب البلاد وإزالة مناطق الجدب ستتحقق على يديه)، فإنه ليس في الواقع إلا خادماً لرعاياه، ومهمته أن يسعى لتأمين كل الخير الذي يستطيعه لهم ويجنبهم كل مايضرّهم. وكل من يساعدونه في هذه المهمة، لهم عند الله أحسن الجزاء، ومن أراد مكافأته في هذه الدنيا حقّقها الله له في دنياه، ومن أرادها في الآخرة فإن الله أعد لكلّ حسنة ثوابها.

توجّه أحد أنبياء اليهود يوماً إلى الخالق قائلاً:

«يا إلهي إن ملوك الفرس وثنيون، وهم عبدة النار، ومع ذلك فخيراتك تعمّهم. إنهم يعبدون غيرك، ومع ذلك أقمت لهم الملك ومتّعتهم بحياة طويلة.

أجابه الله تعالى:

«هؤلاء الأشخاص عمّروا بلادي بحيث أمكن لمخلوقاتي أن تعيش فيها برخاء، ولهذا السبب تركت لهم الملك ومتّعتهم بحياة طويلة. إن الملك داوود عمّر الهيكل المقدس في أوروشليم، ولكن ما يكاد ينتهي من بنائه حتى ينهار من نفسه، حدث هذا مرّة بعد مرّة إلى أن قال له الله:

لن يكون إنهاء هذا البناء على يدك، وستكون هذه المهمة لولدك سليمان؛ لأن يدك ملوّثة بالدم، يريد أن يقول له إنه خرّب البلاد.

أجاب داوود: لكن يا إلهي أليس هذا من أجل مجدك.

أجاب الإله: نعم ولكن أليست حياة مخلوقاتي التي ضربتها قد وجدت لأجل مجدي؟

إن البشر إذاً هم عيال الله، والله يحب من خلقه الساعين لخير عياله. إن الجنس البشري أثير عند الله خالقه، وجميع المخلوقات من أرفعها حتى أحطّها مسّخرة لخير كبير الكل المسمّى الجنس البشري وخدمته.

في ٢٣ ربيع الأوّل ١٣٠٠

عبد القادر الحسني[١]

---

١ ـ انظر فرديناند دي لسبس: ذكريات أربعين عاماً ـ باريس ١٨٨٧ وهذه الرسالة موجودة في كتاب شرشل عن حياة عبد القادر، في ترجمة HABERT هابر له، وهذا مستغرب إذ أن الكتاب الانكليزي يعود للعام ١٨٦٧ والرسالة مؤرخة في ربيع أول ١٣٠٠ أي في العام ١٨٨٣ وقبل وفاة الأمير بعدة أشهر.

الفصل الثالث
نهاية السلطنة الدنيوية

الله وحده مالك المُلك

تأثّر عبد القادر لهزيمة فرنسة في العام ١٨٧٠، وعانى الحزن لانهيار الإمبراطورية: وعند موت الامبراطور ومن بعده ولده[1] كتب رسائل رثاء ضمنها قصائد شعرية أرسلها للإمبراطورة أوجيني تنتهي بهذا التقدير.

إن الشمس وحدها تنكسف.

كما أنّ الأتراك لم يحدّوا أبداً من مراقبتهم له ولجزائرييه، وقد حُكِم بشكل سيّء على مغامرة ابنه البكر في الجزائر العام ١٨٧١.

إن ملفّات الشؤون الخارجية عبر تقارير القناصل مليئة بالاتهامات الموجّهة من الباب العالي وولاته للجزائريين في دمشق، إضافة إلى أن بعض المسلمين السوريين يتهمون الجزائريين بأنهم خانوا الإسلام في قضية المسحيين، وهم بالذات «كفّروا» السلطان عبد المجيد وطلبوا من خليفته عبد العزيز أن يلغي كل ما أخذه من أوروبة وما أعطاه لها... كان عبد القادر يقول غالباً لقناصل فرنسة إنه مغتاظ من هؤلاء المسلمين الذين أدانوا عبد المجيد دون حقّ. كما أن دراساته الشخصية، وتأييده لحركة النهضة العربية الكبرى التي بدأت خطوطها ترتسم لم تلق الرضى من جميع الناس، فالبلاد العربية تتحرّك، وهو يتلقى كثيراً من الزيارات التي تثير القلق في أوساط السلطات التركية والفرنسية. وهكذا فقد احتجب عند حضور السلطات التركية الجديدة إلى دمشق، وكذلك عند زيارة مصطفى باشا المصري، وكذلك عند زيارة السلطان عبد العزيز في نهاية العام ١٨٦١، وقد كتب القنصل في تقرير له:

---

١ ـ استسلم الامبراطور نابوليون الثالث للألمان في سيدان (أول أيلول ١٨٧٠) ونقل إلى ألمانيا أسيراً، وأخلي سبيله بعد انتهاء الحرب وإعلان سقوط الإمبراطورية، فرحل إلى شيسلهورست في الانكلترة حيث توفي العام ١٨٧٣، أما ابنه فتطوع مع الانكليز لمحاربة قبائل الزولو وقتل في العام ١٨٨٠. (المترجم).

«إنّه في بعلبك، وقد فضل أن يبقى بعيداً عن دمشق ليتجنب الإزعاجات، ولا أعلم متى سيعود...».

كما أنّه، مع ذلك، كان كثير الإنشغال في إدارة أملاكه العديدة المختلفة. وبما تسببه له عائلته من قلق، إذ أقل مايمكن أن يقال عنها: إنّها لم تكن على مستوى المعلم الأخلاقي، فأخوته، وأولاده، وأصهاره وأبناء عمّه، لم يتوقفوا عن التجوّل بين مصر، وتونس، والجزائر... وقد سبّب له أخوه حسين خاصة مشاكل عديدة وانتهى إلى الاستقرار في القسطنطينية حيث راح يتآمر مع ابن أخيه محيي الدين: الابن البكر للأمير: مما أزعج عبد القادر إلى درجة أن الأخوة الباقين تدخّلوا لدى السلطات الفرنسية من أجل تهدئته. لكن يجب القول بأنه كان يدير شؤون عائلته بيد من حديد، وعندما حضر الامبراطور لزيارة دمشق في حزيران - يونيو من العام ١٨٦٣ (وكان عبد القادر أثناءها في مكة)، خرج أبناؤه وفق تسلسل المرتبة الاجتماعية إلى لقاء الامبراطور نابوليون الثالث مع بقية الأعيان. هذه السلطة تجعلني مرتاباً في قضية ١٨٧١[1]: فمحيي الدين لايستطيع أن يفعل شيئاً دون موافقة مسبقة من والده، خاصة وأن السلطات الفرنسية تراقبهم دون انقطاع؛ وقد وجدت تنبيهات مستمرة من القسم حول تشديد المراقبة على عبد القادر وعائلته، وبرقيات سريّة أكثر حزماً أيضاً بخصوص محيي الدين وعمه حسين[2].

وكانت قضية الرواتب تُطَرح باستمرار خاصة وأن عدة أفراد من العائلة أنعم عليهم بأوسمة (وآخرهم هاشم بك الذي حصل على وسام جوقة الشرف في عام ١٨٨٣) وهم يتلقون على أساسها إعانات مالية بأشكال مختلفة لكنها تترجح على هوى الأحداث. ووجب إعادة الكتابة دون انقطاع لاسترجاع مافقدوه... بل إن بعضهم طالب بإرجاع أراضيه في الجزائر ليتمكن من العودة إليها: وهم صهره سيدي قدور امبارك، وصهره الآخر محمد أبو طالب، وابن عمّه محمد بن ميلود، بينما ذهب أبن أحد قوّاده بن سالم إلى فرنسة مع بعض الضباط قبل العودة إلى الجزائر، كذلك أراد عالمان العودة، أحدهما جزائري يسمى أحمد بن عثمان. والواقع أن عدداً من

١ - المقصود بهذه القضية مشاركة محيي الدين في ثورة المقراني. التي انتهت إلى الفشل (المترجم)

٢ - ملفات وزارة الخارجية في نانت، إدارة بورتاليس. الملفات ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٢٤ آذار و ٤ أيلول ١٨٨١.

الجزائريين كانوا في وضع غير نظامي في سورية، وطالبت السفارة[1] بضرورة سفرهم وإقامتهم في الجزائر حيث سيشهدون «على حسن معاملة الفرنسيين وسوء معاملة الأتراك لهم» والحقيقة أن هؤلاء الأتراك أكّبوا على سلسلة من التنكيدات لم تضعف يوماً. ولم يتوان الباشوات الأتراك بين ١٨٦٠ و ١٨٨٢ عن المطالبة بإبعاد عبد القادر، والتبليغ عن مؤامرات الجزائريين والشكوى إلى الفرنسيين حول هذا الموضوع.

ينبغي القول إن لهؤلاء الجزائريين محذوراً آخر في أعين السلطات المحلية: فهم مستثنون من دفع الضرائب! وقد أعطى عبد القادر شهادات لجميع العرب من آل الحسني سواء الآتين من طرابلس أو تونس وحتى المراكشيين تفيد أنهم جزائريون، إذا رعايا فرنسيون! وقد قدّم في عام ١٨٦١ قائمة من ألف ومئتين وثمانية وستين شخصاً لإعفائهم، وقد حاول فؤاد باشا عبثاً إقناع ماكس أوتري لفرض ضريبة عليهم، لكن القنصلية رفضت[2]. وكانت مشكلة جنسية الجزائريين تعود دون انقطاع في الاتهامات العثمانية ولم تجد حلاً لها أبداً، إذ أن أولاد الأمير بالذات كان لهم مواقف مختلفة حول هذه النقطة أثناء تقسيم الميراث... وقد لاحق القدر أولئك العائدين «للجانب الفرنسي» لأن الأمير خالد بن هاشمي الذي لعب دوراً في النهضة القومية الجزائرية أعيد إلى المنفى في سورية... العام ١٩٢٦. جرّب أوتري أن يؤخّر مطالب الأتراك، فقد كتب مثلاً في ٣٠ تشرين ثاني ـ نوفمبر عام ١٨٦٠ إلى المركيز دي لافاليت[3].

«لي الشرف أن أشير إلى ميل مؤسف لدى السلطات لإبعاد أولئك الذين تصرّفوا بطريقة مشرّفة خلال أحداث سورية... فوجهاء المسلمين الذين سبق أن أتيحت لي الفرصة لتوجيه الإنتباه العطوف لحكومة الإمبراطور نحو حسن تصرفهم، يعاملون معاملة سيئة، كما يُسرّح الجزائريون بالتتابع من الخدمة، ويطالب الأتراك بتجريدهم من السلاح.

كانت الشكاوي ثابتة إلى حدّ أن عدة بلاغات بين ١٨٦٩ و١٨٨١ طالبت القناصل بمزيد من التسامح بالنسبة للجزائريين الذين يتمتعون بموجب قرارات خاصة بكافة حقوق

١ ـ الرسالة رقم ٦٤ العام ١٨٦٥ من هكار Hecquard إلى الوزير.

٢ ـ رسائل ١٢٤، و ١٣٦ الخ.

٣ ـ ملفات نانت: الرسالة رقم ١٢٧. ملف ٣

المواطنين الفرنسيين، وعددهم نحو أحد عشر ألفاً في سورية! من الواجب مراقبتهم إنما أيضاً السعي لتأمين كافة التسهيلات المترتبة عن وضعهم دون إهمال أي منها.

«الرغبة في تجنّب التعقيدات مع السلطات المحلية الذين يكرهون، في البلدان الإسلامية، دائماً الجزائريين، ويلومونهم باعتبار أنهم خضعوا لنير الكفّار، وهم يخشون في الوقت ذاته طبعهم الشرس... وضراوة الحكومات الشرقية ضد الجزائريين تقوم على اعتبار أنهم مخلصون للفرنسيين في ديار الغربة... وهم لايفتؤون يتعرضون للأمير بالتنكيدات لحرفهم عن ولائهم، بينما يبدون بالعكس رعاية خاصة لأولئك الذين يرتضون النظام العثماني».

مُنح الولدان الأكبران للأمير مثلاً لقب «باشا»، وانفصلا عن أخوتهما وأخواتهما عند موت والدهم. لكن أوتري يضيف بسخرية أن هذه الوسيلة في التصرّف (عند من يسمون حالياً «اللوبي الجزائري» في دمشق) لم تستخدم بشكل كاف، وأهملت كثيراً، وهذا مالاحظه عدة زائرين مثل الأب لوران دي سان ـ آنيان، والدكتور لورته اللذين يأسفان لأن فرنسة لم تأخذ على عاتقها تعليم أولاد الأمير، ويؤكد أوتري في الرسالة ذاتها أن الجزائريين في دمشق يتعرضون للاتهام أكثر بأنهم خانوا الإسلام. نحن هنا في قلب هجوم كلامي لم ينقطع، وجميع تعابيره غامضة في الواقع؛ فعندما عاد الأمير من مكة بدا عليه الإنزعاج من الإلحاف بالأسئلة عن عواطفه المعادية للأتراك، وعن أحداث الجزائر حيث كانت الفتن والتمردات تتعاقب، وقد دخل الأمير دمشق وألف فارس يحيطون به بعد أن خرجوا للقائه حتى ضاحيتها، وحضر إلى تهنئته بالعودة من الحج قناصل انكلترة وروسية، والوالي، والمشير، والتراجمة... لكن أوتري لم يتوصل إلى سؤاله عن تصرّف الأتراك في الديار المقدّسة، بينما نبّهه الأمير إلى توقّع قيام العرب بثورات محتّمة جديدة في الشرق بالذات، وكتب أوتري إلى الوزارة بتاريخ الأول من تموز ـ يوليو عام ١٨٦٤.

«أبدى عبد القادر تأثّره بحركات التمرّد التي تحصل في الجزائر؛ وهو لايفهم مثل هذه الفتنة في فترة منح فيها صاحب الجلالة الامبراطور العرب ملكية أراضيهم. إن هذه الحركة لايمكن أن يكون لها أي أساس في البلاد، إنما هي ناتجة عن أطماع متضاربة حرّضت لأغراض شخصية العواطف الدينية. ألا يمكن للجزائر إذاً أن تدرك ما تنعم به من طمأنينة في ظلّ الحكومة الفرنسية..».

إنّه لم يَقُل «ما لحظه عند الأتراك» ولكن كأنّ هذا تعبير عن ملاحظات واقعيّة؟ كيف يمكن لنا أن نعرف؟ وقد استمر عبد القادر في نشاطه من أجل المحرومين والبؤساء: فقد دافع عن ابن الجندي المعتقل في جلفة في العام ١٨٦٥، والذي يريد الانتقال إلى شرشل؛ وعن جزائري محكوم عليه بالأشغال الشاقة في طولون... لكن بدا متشائماً من إمكانات تغيير عجلة التاريخ في الجزائر بالذات.

عندها تفجّرت الثورة الأكثر أهمية التي ختمت نهاية المقاومة الجزائرية في العام ١٨٧١. فقد حاولت بروسية، بمناسبة هزيمة فرنسة في الحرب، أن تخدع عبد القادر بوعد تحقيق سلطة له في الجزائر، لكن الأمير أجاب الكونت ڤون بسمارك بعنف:

«لم تساعدني أبداً عندما كنت أقاتل في البلاد».

غير أنّ العملاء البروسيين سهّلوا سفر محيي الدين ابن الأمير إلى الجنوب التونسي، حيث جمع وحدة من المتطوعين، ووضع نفسه في خدمة مقاومين لم يتطرق إليهم التاريخ الرسمي كثيراً: ناصر بن شهرا، وأبناء حمدان الخجا... لكنه أسر سريعاً ومباشرة بعد انتشار خبر وصوله. وقد نشرت الحكومة المؤقتة سلسلة من الرسائل صدرت عن الأمير بتاريخ ٣ كانون الثاني ـ يناير ثم في ٩ و ١١ و ٢٠ نيسان ـ ابريل عام ١٨٧١ يعارض فيها التمرّد و«المحتالين»...

إن هذه الرسائل تطرح مشكلة لأنها اختفت من الملفّات، ويبدي المؤرخون الذين أشاروا إليها تحفّظات هامة بخصوصها: لايوجد عليها ختم الأمير، وهي تتضمن أخطاء عربية فادحة، كما أنها مخالفة لأسلوب مراسلته. وأنا من ناحيتي لم أجد إلّا رسالة واحدة مؤرخة في ٢٠ نيسان ـ ابريل عام ١٨٧١، ويذكر فيها الأمير أنه لم يعرف بسفر ابنه إلا مؤخّراً... وهذا مايستغرب لسببين: الأوّل لأننا نعرف من مركز دمشق أن محيي الدين قد سافر بتاريخ ٢٠ تشرين أول ـ اوكتوبر عام ١٨٧٠... والثاني لأن الأمير كان يراقب بدقة جميع تصرّفات أولاده.

أسف عبد القادر لسرعة الهزيمة التي لحقت بنابوليون الثالث، وأدرك سريعاً أن مابقي من الجيش الفرنسي سيستخدم في الجزائر ضد المقراني، وبسمارك نفسه قد أطلق سراح الأسرى الذين كانوا يلتحقون بالجزائر... فالثورة لا أمل لها؛ إذاً يجب عليه أن يخاتل، ويبرهن عن حنكة سياسية لتجنّب الانتقامات الواسعة، ولايمكن لومه عندما نعرف الثمن الباهظ الذي دفعه الشعب الجزائري نتيجة هذه الفتنة الأخيرة: فقد

قمعت بشدة وشراسة، وشُنق المتمردون أو أرسلوا إلى سجون الأشغال الشاقة، وطردت القبائل، وصودرت خاصّة آلاف الهكتارات من الأراضي.

بدءاً من تلك الفترة لم يعد عبد القادر يهتم إلا بالمشاريع الخيرية: القناة المائية في مكة؛ أبحاث ودراسات شخصية دينية، غير أن التاريخ أبى إلا أن يعاكس خلوته، وذلك في حادثتين على الأقل: طالب الباشوات المتعاقبون إبعاده مجدّداً عن دمشق في العام ١٨٨٢ نتيجة مشكلة معقّدة جرت في الجليل على ضفة بحيرة طبريا... فقد تآمر ثلاثمئة جزائري مقيمون هناك ضد السلطة العثمانية في سورية: وكان بعضهم يختبئون في أملاك الأمير (حيث كان أولاده يتاجرون بالأراضي والحبوب) وقد احتج الأمير على انتهاك حرمة المساكن هناك، وذكّر السفارة أن هؤلاء الأشخاص يحملون الجنسية الفرنسية... وهم من حاشيته»[1] لكن الوالي والباشوات في دمشق لم يرضوا بذلك أبداً. وخلال شهر آب ـ اغسطس ١٨٨٢، كانت البرقيات السريّة تبدي كلها قلق السفارة:

إذا غادر الأمير دمشق فهذا يعني بدء هجرة جماعية للمسيحيين من سورية...

«يشكّل الأمير ضمانة لمواطنينا، ولحفظ الأمن العام... برقية بتاريخ ٣ أيلول ـ سبتمبر موجّهة إلى طرابيا (وهي المقر الصيفي لسفير فرنسة على البوسفور).

إضافة إلى أن الدروز كانوا يهاجمون بشكل دائم طريق بيروت ـ دمشق، وكان دروز جبل لبنان يريدون أن يحرروا أخوانهم في جبل حوران (حيث للأمير ملكية هناك) من تعسّف العثمانيين؛ وقد دعم الأمير هاووش بك في الجنوب ضد امتناع الأتراك عن إصدار حكم لمصلحته، وتوسّط له في القسطنطينية، ويشير النقيب فين FAIN المكلّف بتشكيل وحدة وسيطة من الدرك مختلطة متوقّعة من قبل المفوّضين الأوروبيين إلى أن الدروز انضموا

---

١ ـ عند وفاة الأمير (٢٤ أيار ـ مايو ١٨٨٣) ذكر سفير فرنسة المركيز دي نواي أنّ قرار مجلس الأعيان Senatus cansolte العائد للعام ١٨٦٥ بمنح الجنسية الفرنسية للجزائريين ينطبق على قضايا الإرث: وبما أن الأمير يحمل الجنسية الفرنسية فيجب معالجة تركته وفق الحقوق والواجبات القنصلية..» وكان الأمير قد ترك ستة عشر ولداً منهم ثلاثة قاصرون، وسبع نساء منهم أربع شرعيات، وأختين ينفق عليهما، وخمسين شخصاً من الأقارب راحوا يتنازعون خلال ثلاثين سنة على ميراث يتألف من موارد تقدر بـ ٤٥٠٠٠ فرنك سنوياً تأتي من عقارات وأرزاق مختلفة، ومكتبة، وبندقية، وسيف، و ٥٠٠ ف نقد (قطع نابوليون) وأوسمته، وستة منازل، وملكية زراعية، وبستان، وطاحون، وجسر، وحمام، وخان... دون نسيان رواتبه من فرنسة، ودام الخلاف على ذلك حتى العام ١٩٥٣ على الأقل

إلى جماعة عبد القادر في حوران وأن شرشل والسير ريشار وود R.WOOD كانا يحضران لزيارة الأمير... والجواسيس الانكليز في كل مكان، كما رسا الإيطاليون في بيروت... وقد كتب قنصل فرنسة في بيروت، دي إيسار، متضايقاً:

«من السهل شرح مبرّر وجود اثنين. فالسيد هيكار Heequard يدفعه طموحه وهذه الإثارة المتولدة عن حاجة من يرغب في أن يُتحَدَّث عنه، وهذا ما يميّزه إلى درجة عالية؛ والأمير الذي يحلم بدور يلعبه في سورية، وشعاره أن يكون المواسي الأفلاطوني لكل المظلومين في المقاطعة، فبعد أن دافع عن المسيحيين في دمشق، ها هو الآن صديق الدروز في حوران، والبدو، والمسلمين وكل أولئك الذين يعارضون الباب العالي».

ثم يتابع القنصل في تقريره بتاريخ ١٦ كانون أوّل - ديسمبر عام ١٨٦٦[١].

«أما بالنسبة للأمير عبد القادر، فأعتقد أن من المهم إبلاغه وجوب الاحتراس من كلّ تصرفات إحسان يفكر بها مستقبلاً، عندما تكون من طبيعة تعرّض للشبهة مندوبي الحكومة والإمبراطور، وتشلّ حركتهم، وتسبّب في نهاية الأمر الاضطراب حيث من المهم أن تسود السكينة والهدوء المطلقان».

لم يكن هذا رأي دمشق، فالقنصل يستشير بانتظام الأمير حول جميع هذه المواضيع، إذ يكاد لايمر يوم دون مشكلة. والأمير يتوقّع (وفقاً لما تذكره التقارير الواردة إلى الوزارة)[٢] أن تغدو مصر تحت رقابة انكليزية، وأن يُطرد العثمانيون من أوروبة، وأن يحتل الروس القسطنطينية...

أخيراً بعد عدة مداولات ومساومات مع الباشا[٣] والوالي، تدخّل فيها مفتي دمشق محمود أفندي حمزة، ووجهاء المدينة، اتفق على أن يبقى الأمير في دمشق ولايهاجر إلى مكة المكرّمة، وأن يُطلق سراح من سُجن من أتباعه...

كان عبد القادر على صلة طيّبة جدّاً مع خاصّة دمشق، ولاسيّما زعماء النهضة

---

١ - يشير القناصل الذين تعاقبوا على بيروت باتريمونيو، ودي إيسار، وسينكوتيز حتى العام ١٨٨٠ إلى الإشاعات السائدة عن ملكية الأمير (وثائق دبلوماسية وقنصلية، ١٦ كانون أول ١٨٦٦).

٢ - الوثائق الدبلوماسية والقنصلية رقم ٥٥، ١٨٨١، ص٣٦٨، ورقم ١٢٨، ١٨٨٢ ص٤٤٠.

٣ - لعل المعنى بالباشا قائد الحامية العسكرية في المدينة! (المترجم).

العربية الثلاثة التي ستغدو فيما بعد أول حزب عربي. كما أن عرابي باشا[1] كتب له يرجوه الدعوة إلى اتحاد جميع المسلمين العرب... وهكذا فقد استغل القنصل المناسبة لإرسال مذكرة بتاريخ ١٤ أيلول ـ سبتمبر[2]، بإملاء من الأمير يقول فيها:

«إذا استمرت مقاومة الوطنيين العرب في مصر، يمكن قيام حركة عامة في العالم الإسلامي تنشط شيئاً فشيئاً، وأمام هذا الاحتمال ليس لدينا إلاّ هدف واحد هو المحافظة على مصالح فرنسة».

في الوقت ذاته، وبين شهري آب ـ اغسطس وتشرين أول ـ اوكتوبر، حصلت قضية أقلقت هذه المرة الفرنسيين، فمن بين الزوار العديدين الذين وفدوا على الأمير حضر أحد المشايخ الجوالين وقال له:

«إن أمير المؤمنين يوجّه لك تحيته الأخويّة وهو يرغب في تبليغه مدى استعدادكم للتوسط بينه وبين الشعوب الأفريقية التي يرغب في تحريرها».

ذلك أن الثورة كانت تزمجر في المغرب والأخويات تعبئ المؤمنين ضد الهجمة الأوروبية... ومنذ غزو تونس وفد العديد من المهاجرين إلى دمشق، «وقد طردهم الكفّار الظالمون من بلادهم»، وكان عبد القادر يتلقى رسائل عبر بيروت من قبل المقاومين وخاصة ابن خليفة الذي طلب مساعدته.

قلقت السفارة، رغم جواب عبد القادر الذي كان يؤكّد دائماً أنه لن يقوم بأي عمل ضد مصالح فرنسة، وجرّبت أن تعرف المزيد، خاصة وأن الأمير سلم بورتاليس رسالتين: الأولى إلى رئيس التيجانية ينصحه فيها بالاعتدال والثانية إلى الشيخ السيد معمر ابن الولي رئيس المسيني يطلب منه فيها أن يردّ عن طريق الضلال الرئيسين السي أحمد والسي بشير ولدي عدوّه القديم. من المؤكّد أن الأمير يعرف جيّداً التيجانية، وعن خبرة سابقة، لكن يبدو أنه غير مطّلع على التغيرات التي حصلت فيما بعد. إضافة إلى أنّه كان على اتصال منذ عدة سنوات مع أخوية السنوسية وهي أكثر فعالية، في تلك الفترة سواء في الصراع ضد الاستعمار، أو في البحث الروحي.

رأى الفرنسيون في هذه الاتصالات تغيراً في موقف عبد القادر عزوه إلى شيخوخته

---

١ ـ أحمد عرابي باشا (١٨٣٩ ـ ١٩١١): زعيم وطني مصري، حاول مقاومة النفوذ الانكليزي في مصر العام ١٨٨١.

٢ ـ جيرانس بورتاليس ١٤ أيلول ١٨٨٢، مذكرة رقم ٣٦.

الفكرية، غير أن السفارة رفضت مرّة أخرى إبعاده عن دمشق عشية موته تقريباً، فقد جاء في رسالة بتاريخ ١٥ آذار - مارس ١٨٨٣.

«طلب الوالي بإلحاح من الباب العالي أن يحدّد بسرعة مكاناً آخر لإقامة الأمير، إن كانت حكومة السلطان تحرص على سورية، إذ يعتقد هذا الوالي أن عبد القادر مستمر في بث الدعاية النشطة لفرنسة التي ستغدو عاجلاً أو آجلاً السيدة في دمشق إن استمرّ الأمير فيها.

لكن عبد القادر فضل أن يضع نهاية لكل هذه المجادلات بصعود روحه نحو الشرق الخالد، نحو باريها تعالى، خلال ليل الجمعة ١٨ - ١٩ من شهر رجب ١٣٠٠ الموافق ٢٦ أيار - مايو ١٨٨٣.

لم يكن يعرف أن الله قد احتفظ له باختيار أخير بعد موته، فالزعماء الوطنيون وقد احتاجوا إلى تثبيت شرعيتهم في العام ١٩٦٦ نقلوا رفاته من الجامع الصغير حيث كان يجاور وفقاً لإرادته معلمه ابن العربي ليدفنوها باحتفال كبير في مقبرة الجزائر العاصمة ويقيموا له نُصُباً مكان نصب بوجو.

كان عبد القادر كل شيء عدا التمثال الجامد للأمير.

وقد أجاب بنفسه عدة مرات ومسبقاً عن هذه النقطة وخاصة في رسالة إلى صديقه السويسري إينار:

«عبّرت شفتاي صراحة عن سلوكي: ويعرف مواطني أنني لم أستسلم للفرنسيين إلا بعد خمس عشرة سنة من الكفاح، وأنني لم أفعل ذلك إلا ممتثلاً لإرادة الله... فأنت لم تطلب مني الآن شيئاً غير ملائم أو لايتوافق مع الماضي».

ومافتئ حتى موته يصرّح بإخلاصه لفرنسة كما تشهد إحدى رسائله الأخيرة:

صاحب السعادة الحكيم الجليل السيد تيسو Tissot صاحب القلب النبيل لا الزمن ولا البعد يمكن أن يغيّرا شيئاً من تعهدي الوثيق الذي عاهدت الحكومة الفرنسية عليه. ولو اجتمع كلّ سكان الكون لما استطاعوا بأي طريقة أن يلغوا هذا العهد الذي يلزمني شرفي بواجب المحافظة عليه بكل إخلاص.

أصرح بلساني ومن صميم قلبي بأن ما من إنسان يمكنه تقدير إخلاصي مثل الحكومة الفرنسية التي تُبدي لي ولأولادي أشدّ الاهتمام وأنا فخور بالعطف الذي تظهره لي فرنسة وأعتز بإخلاصي الكامل لها.

سأكتب قريباً وصيتي وأودعها قنصلية فرنسة في دمشق، وسأصرح فيها بأني أعتبر الحكومة الفرنسية، بعد موتي، وصية على أولادي من الجنسين وهي الراعية لمصالحهم كما تفعل حالياً بالنسبة لمصلحتي.

أما الرتب التي مُنحت لولديّ محمد ومحيي الدين بناء على اقتراح الشيخ جعفر أبو الهدى المقرّب للسلطان عبد الحميد، فأنا لا أعتبرها في نظري إلّا كلعب الأولاد ليس لها أي قيمة، وأنا لاأوافق عليها أبداً، كما أن ولديَّ قد ندما على قبولها.

أما الحسين فهو عدوي وليس أخي وهو عدو فرنسة أيضاً، بارتضائه أن يكون جاسوساً للأتراك الذين قدّموا له معلومات مزيّفة فتآمر معهم. والقناصل الذين وجدوا في دمشق عند وجوده فيها يمكنهم إعلامكم عن دسائسه وعن سلوكه تجاه القنصلية. لكن الفرنسي الماجد الذي يدير سفارة الجمهورية اليوم يتميز بقدر من النبل يدفعه لئلا يصغي إلى التلميحات التي يمكن أن تصدر عن هذا الرجل، وأنا لست بحاجة إذاً لتنبيهه إلى هذه المناورات التي تكدرني وتحزنني.

أرجو من سعادتكم أن تحتفظوا بهذه الرسالة طي الكتمان وأنا متأكد أن نبل الروح الموجّهة إليها وسموّها ستبقيها سرّاً دفيناً.

انقضى قسم من العام ١٨٨١، وهو التاريخ الذي كتبت فيه هذه الرسالة وبورتاليس القائم بالأعمال القنصلية مافتئ يطالب بمراقبة محيي الدين وسيدي الحسين الذي يشتبه الأمير بتآمره[1]. ولم تُنشر هذه الرسالة إلا بتقرير ٢٠ حزيران - يونيو ١٨٨٣ المتعلّق بالورثة المباشرين، وقد اشتكى هؤلاء من أخويهما البكر، وكشفوا عن خيانتهما، وجدّدوا ولاءهم لفرنسة في وثائق عديدة، منها وثيقة موقّعة من الأمير الهاشمي والد البطل المقبل خالد، ثم في عريضة موقّعة من جميع الأولاد بمن فيهم البنات.

«الحمد لله وحده

إلى مقام من جمع إلى مزايا الرجال الكرام النبلاء فضائل المخلوقات الذين رضي الله عنهم. ذلك الذي يعرف بعون المولى المعظم أن يمدّ ظل حمايته على أولئك الذين وجّه إليهم القدر ضرباته الرهيبة فاستكانوا لقسوتها واعتبروا أنفسهم مستحقين لها.

إلى السيد حاكم الجزائر جعل الله نجمه يتابع تحليقه في أعلى الأعالي، ونشر

١ - برقيات سريّة رقم ٣٦. نانت.

الخصب والمجد والسعادة على هذه المناطق التي تستظل بحكمه بعد تقديم أجلّ الاحترام لعطوفة سموكم والتعبير عن عواطف إعجابي وتقديري، لي الشرف أن أعرض لكم ما يدمي القلب أسى وحزناً لقلة الاعتبار، بل أكاد أقول للخيانة التي تعرّضت لها عائلة الأمير عبد القادر، تلك العائلة الموضوعة تحت حماية فرنسة، الأمة العظيمة المجيدة التي تحظى بتقدير واحترام الجميع.

لايخفى عليكم المعاملات السيئة التي تعرّضنا لها من قبل الأتراك وعملائهم منذ موت والدنا وحتى اليوم الذي تركت فيه تلك المدينة. والحال أنني تلقيت من أخي أحمد في دمشق برقية يعلمني فيها أن عائلة مؤيّد بك التي تعتبر من أكبر العائلات نفوذاً في سورية وتسكن الصالحية، القرية التي تضمّ رفات أخي، والواقعة على مسافة ربع ساعة من عاصمة الولاية، هذه العائلة قد تجرّدت من كل احتراس وأثارت ضدنا بعض أفرادها فقتلوا ابن أخي السيد محيي الدين أبو طالب وابن عمتي عائشة السيد يحيي، وجرحوا ابن أخي أحمد، الأمير طاهر، جراحاً خطيرة لاأعرف مدى تأثيرها على حياته. هذا كما تعلمون نتيجة الحقد الخفي والشرس الذي يكنّه لنا بعض الأشخاص في دمشق منذ عام ١٨٦٠. أُنبئت بهذا برقياً من قبل أخوتي، المقيمين في دمشق، تحت حماية الحكومة الفرنسية مثلي، ورجوني، وهم لايستطيعون القيام بأي إجراء يتطلبه ذلك الوضع، أن ألجأ إلى مشاعر فرنسة الشهمة وإلى غيرتها المخلصة على أبنائها وخاصة عائلة أبينا عبد القادر الذي بقي حتى اليوم الذي انتقل فيه إلى الباري تعالى محافظاً على روابط الصداقة الأمينة والصادقة التي تشدّه إلى فرنسة.

ونحن جميعاً الذين تقيّدنا بالتعهّدات التي قطعها على نفسه بقينا أمناء لعهدنا ومشينا على أثر خطواته. نحن نلجأ الآن إلى فرنسة لتنتقم لنا من المعتدين علينا، الذين أساؤوا بعملهم هذا، أيضاً إلى كرامتها؛ ولتزيح عنا وصمة العار التي تخجلنا، وتحمينا من الإهانة وتبعد عنا آثارها، فالإزدراء الذي يوجه إلى الابن، مثله مثل الاحترام الذي يحاط به، ينعكس كلاهما على ذكرى الأب الذي ينتسب إليه.

اسمحوا لي، ونحن في هذا الوضع، يا سيدي الحاكم العام، أن ألجأ إلى حرصكم الغيور، وما عرف عنكم من حماسة في التصدي للأمور الصعبة وانجازها لتبذلوا كل جهد مستطاع ولتستخدموا كل حميتكم لتتدخلوا شخصياً في هذه القضية وترفعوا عريضتنا هذه مع تقرير داعم لها من قبلكم إلى السيد وزير الخارجية.

بهذا التصرّف تقومون بعمل جدير بمقامكم، وجدير بالحضارة التي تعلّمها فرنسة، وهي في المقام الأول منها، لبقية الأمم، كما ستكونون أخيراً في توافق مع حديث الرسول ﷺ: «كل راع مسؤول عن رعيّته».

أتضرع إلى الله أن يحفظ لنا حمايتكم الحارسة، ويزيد فرنسة رفعة، ويقهر أعداءها.

وتفضّلوا بقبول أعمق مشاعر امتناني ومودتي الصادقة.

لكم أطيب التحيات من ولدكم، ابن الحكومة الفرنسية وخادمها.

الهاشمي بن عبد القادر».

جميع هذه الرسائل المحفوظة في ملّفات وزارة الشؤون الخارجية تطرح مشكلة مصداقية الأبناء الذين سخت عليهم فرنسة تجاه الولدين اللذين انحازا إلى العثمانيين، لكن ليس من السهل معالجة الموضوع بكامل عمقه. فعديد من المؤلّفين الفرنسيين والجزائريين أعطوا آراء متباينة في الشخصية الحقيقة للأمير: «مسلم متعصّب»، «مواطن فرنسي مخلص». «خائن لقضية الجزائر»، «باني الدولة الحديثة».

هذه هي بعض المعارج التي استكشفت.

أما بالنسبة لي فإن عبارة واحدة يمكن أن تلّخص فعلاً كل ما يبدو في شخصيته من تعقيد: إنه ليس أميناً إلا له للمطلق.

أنا مُطلقٌ لاتطلبوا الدهر لي قيداً	وما لي من حدّ فلا تبغوا لي حدّا
فلا كائن إلا أنا به ظاهر	ولا كائن يكون لي أبداً قيدا
فقل عالم وقل إلهٌ وقل أنا	وقل أنت وهو لست تخشى به ردّا

وتذكّر (....)

أيا أنا من أكون إن لم أكن أنت	ويا أنت من تكون إن لم تكن أنا
إذا رفعت من بيننا العين والألف	فقد رفع الستر المفرّق بيننا
وذلك حين لا أنا لك عابد	ولا أنت معبود فزال حجابنا

هذا هو المكتوب: لكن لم يُقل كل شيء.

ملاحق

فهرسة مشروحة

بما أنني انطلقت من وجهة نظر الأمير بدلاً من التاريخ الرسمي الفرنسي أو الجزائري، فإنني أعطي الأفضلية للمؤلفات والنصوص التي استخدمتها ولكن بما أنني كنت سكرتير تحرير «حوليات أفريقية الشمالية **Annuaire de l Afrique du Nord**»، خلال عقد من الزمن؛ وبما أنني عملت في اكس - ان بروفانس في الإيرمام **Institut de Recherches d'Etudes sur le Monde Arabe et Musulman (IREMAM)**»، وفي ملفّات عبر البحر منذ الفترة التي بدأت فيها أطروحتي عن الجزائر، أي منذ نحو خمس وثلاثين سنة مضت، كما أنني أدرت (على نحو سيءٍ في الواقع!) مركز أبحاث في CNRS (المركز الوطني للأبحاث العلمية) عن العالم العربي، فيمكن الموافقة على القول بأنني قرأت جميع المؤلفات التقليدية المتعلقة ببيئة بطلي، وقد كان بعض مؤلفيها أساتذتي، ومعلمي، وربّما أصدقائي: إنني أفكر بجاك برك J.BERGUE، وموريس فلوري M.FLORY، وشارل - آندره جوليان Ch.A. Julien، وروجه لتورنول R.LETOURNEL وجان لويس مييج J.L.MIEGE، وآندره ميكل A.MIQUEL، وآندره نوشي A.NOUSCHI، وآندره ريمون A.RAYMON، ومكسيم رودنسون M.RODINSON، وآخرين كثر.

وبما أنني من هواة شراء الكتب القديمة، فقد اشتريت عدداً من المؤلفات الأصلية كتلك العائدة لآزان AZAN، ودوماس DAMAS، ورروش ROCHE وتعتبر اكس، أن بروفنس من هذه الناحية، مركزاً متميّزاً، لوجود عدد من السكان من أصل أفريقي شمالي، والعثور في سوق عادياتها على كنوز نفيسة أحياناً، ولوجود سجلات ماوراء البحار IREMAM Outre - mer أي نحو خمسين ألف مجلد على الأقل، ومجموعات كبيرة من الصحف، وبضعة كيلو مترات خطية من الوثائق الاستعمارية.

إن المراجع المتعلقة بالأمير، عدا تلك العائدة للاستيلاء على الجزائر، عديدة جداً، وتختلف في قيمتها. وكلّفت إحدى طالباتي بوضع فهرسة لها شغلت عدة مئات من الصفحات... فكان لابدّ من الاختيار، كي لايُثقَل المؤلف بصفحات عديدة إضافية،

لذلك لم أشر إلا إلى مقالات اعتمدت عليها بشكل جدي، أو تضّمنت وجهة نظر نهائية في موضوع ما: مثلاً: بن الشيخ BENCHEIKH وامريت EMERIT، وتميمي TEMIME، الخ...

قمت بالتنقيب أيضاً في عديد من المجلات والصحف العائدة لذلك العصر.

مجلة العالمين Le Revue des deux mondes.

الإبانة

مذكّرة البيرينة

الموجّه

الجيش وجيش أفريقية

حارس الجيش

نشرة الجمعية الجغرافية

حوليات أكاديمية العلوم الاستعمارية

المجلة الأفريقية.... الخ

والتايمس وحدها تخصص نحو خمسين مقالاً عن الأمير بين ١٨٣٧ و ١٨٧٠ وLittles Living Age نحو الثلاثين مقالاً.

أربكتني المؤلّفات العديدة عن سيرة حياة الأمير، سواء بالعربية أو بالفرنسية. وقد لاحظت خلال سنوات البحث أن مؤلف الجنرال آزان ـ رغم الانتقادات الموجهة إليه، وخاصة بسبب العنوان، يبقى أفضلها، وأن المؤلفين الآخرين قد اعتمدوا عليه خاصة، ولم نتقدم في معرفتنا الشخصية الحقيقية للأمير إلّا بعد دراسة حياته ومؤلّفاته وعمله في الشرق وذلك بفضل ميشيل شودكوتيز ومن الآن فصاعداً بفضل مؤلفي هذا على ما آمل، فهو قد انطلق من الملّفات الفرنسية. وهي تحتاج بحجمها ودقّتها إلى مؤلّف كامل من أجل المراسلات والمذكّرات وحدها، وقد أعدتُ دراسة مسيرته المساريّة، بما فيها الجغرافية، لأنني زرت وعشت في جميع الأماكن التي مرّ بها باستثناء غار حراء... طبعاً!.

الوثيقة رقم ـ ١ ـ

معاهدة الجنرال دي ميشيل بتاريخ ٢١ شباط ـ فبراير ١٨٣٤

اتفق الجنرال قائد الجيوش الفرنسية في مدينة وهران، وأمير المؤمنين سيدي الحاج عبد القادر بن محيي الدين على الشروط التالية:

أ ـ تتوقف النزاعات بين الفرنسيين والعرب بدءاً من هذا اليوم، ولن يدّخر الجنرال قائد الجيوش الفرنسية، والأمير عبد القادر وسعاً في المحافظة على هذا الاتحاد والصداقة الواجب قيامهما بين الشعبين اللذين قدر الله لهما أن يعيشا تحت سلطة واحدة. ومن أجل ذلك يرسل الأمير وكلاء عنه إلى وهران، ومستغانم، وأرزيو لاتقاء أي اصطدام بين الفرنسيين والعرب، كما يُرسل ضباط فرنسيون وكلاء عن فرنسة إلى معسكر.

٢ ـ يتمّ احترام ديانة العرب وعاداتهم.

٣ ـ يلتزم بردّ الأسرى من الفريقين.

٤ ـ تعطى الحريّة الكاملة للتجارة.

٥ ـ يلتزم العرب بإرجاع كل من يفرّ إليهم من العساكر الفرنسية، ويلتزم الفرنسيون بتسليم كل من يفرّ إليهم من مرتكبي الجرائم، الهاربين من القصاص، إلى وكيل الأمير في المدن البحرية الثلاث المحتلة من قبل الفرنسيين.

٦ ـ من أراد من الأوروبيين أن يسافر إلى داخل البلاد يُجهَّز بجواز سفر موقّع من وكلاء الأمير ومصدّق من الجنرال القائد الفرنسي، وذلك من أجل أن يلقى المساعدة والحماية داخل الإقليم بكامله.

الوثيقة رقم ٢

رسالة من عبد القادر، إلى الجنرال بوجو، بتاريخ ١٥ ايلول ـ سبتمبر ١٨٤١

(موجودة في كتاب شرشل، ترجمة هابار، ١٩٧٤).

سيدي:

عندما تولّى المارشال ڤاله Vallee حاكمية مدينة الجزائر، نقض المعاهدة القائمة بين الأمة الفرنسيّة وبيننا من عدة جهات، فلجأت إلى الوزير الفرنسي، وجاءني الجواب على الشكوى الحقّة التي تقدّمت بها بأن للمارشال مطلق الصلاحية في أن يتصرّف وفق ما يراه مناسباً. وعندما مرّت وحدات من الجيش الفرنسي في منطقتي دون إذن مني، وهي مجّهزة بجوازات سفر تحمل أختاماً غير صادرة عني، اضطررت أن ألجأ إلى السلاح لأحمي حقوقي الشرعية ضد الاعتداء وسوء نيّة المارشال الذي تصرّف بشكل لايليق بمثل أمة كبيرة.

تلقيت برضى كبير نبأ تعيينكم، يا سيدي، قائداً للجيش الفرنسي في الجزائر إذ أنني واثق كليّاً بمظاهر النبل التي تبدو دائماً في تصرفاتكم.

انتظرت بفارغ صبر عودة وكيلي السيد مانوشي Manucei مؤمّلاً أن يحمل إليّ أخباراً طيّبة من طرفكم مؤمّلاً أن تنتهي هذه الحرب التي بدأها المارشال ڤاله ظالماً بعد إبعاده عن الحكم، ولهذا السبب، وحتى لاتسيل الدماء هدراً من الطرفين عمدت إلى تهدئة هياج شعبي الذي لايرغب إلا في الحرب.

وكم كانت دهشتي كبيرة عندما علمت أنك تشترط علينا إلقاء السلاح، وتسليمه للفرنسيين كشرط أوّل للسلام. وبالرغم من أن هذا لن يكون إلا بشكل ظاهري، فيجب أن تعلم أن مبادئ ديني تحرّم عليّ تسليم أسلحتي للمسيحيين، وإذا وصل بي الجبن إلى حدّ تأمين صلح مخجل بهذه الوسيلة فهل يرتضيه شعبي؟ هذا الشعب المستعد لأن يستشهد وسلاحه في يده دون أن يخضع لنير حكم أجنبي.

كلا يا سيدي، إنني مستعد لعقد صلح معك بشرط أن تعيد لي المدن والأراضي التي احتلها الفرنسيون، وخاصة قسنطينة والمناطق العائدة لها، وعندها أتعهّد بدفع

مبلغ يُتّفق عليه بيننا خلال زمن محدّد.

إن عزيمتي تهيب بي للدفاع عن ديني الطاهر وحقوقي الشرعيّة؛ حتى آخر قطرة من دمي، لكن إن توفرت شروط مشرّفة للصلح فأنا راغب به والأمر يعود إليك يا سيدي في تقرير حرب ضروس أو إعادة رابطة المودّة التي سادت بيننا سابقاً.

الزمالة في ١٥ أيلول ـ سبتمبر ١٨٤١

الوثيقة رقم ٣

مقاطع من مذكرة مرفوعة من المارشال بوجو

بتاريخ ٢٤ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٨٤٥ إلى وزارة الحرب.

(...) من المستحيل تجنّب مثل هذه الضَرَبات من عدو بمثل هذه السرعة والجرأة (كان الأمير قد حقق عملية ناجحة خاطفة السرعة في منيا العليا). والأمير الذي يتألّف جيشه من الفرسان فقط، يمكنه أن يجتاز ١٥ ـ ٢٠ فرسخاً في ليلة واحدة، وهو يلاقي في كل مكان عواطف المودّة، وتقدّم له المؤن، والمعلومات الأكيدة عن مواقعنا، وهو يمر في مناطق لسنا فيها، ولن نكون فيها، إذ يجب أن نكون من السحرة للتنبؤ عن حركاته، وأن يكون لجنودنا أجنحة للوصول إليه. ولنلق نظرة من أجل تقدير الصعوبات التي ذكرتها فقط، على ما فعله عبد القادر منذ أحداث جمعة الغزوات المشؤومة (حيث تمكن الجزائريون بقيادة الأمير مباشرة من إحراز نصر سيدي ابراهيم الشهير).

دخل الجنرالان لاموريسيير وكافينياك مجتمعين في بلاد طرارا على الضفة اليسرى من تافنا المنخفضة، وتركهما عبد القادر يهاجمان السكان ومرّ من خلفهما وأحرق جسري المويلح وتفنا على بعد عدة فراسخ منهما، بينما كان أحد قوّاده يحرق جسر «الأيسر» على طريق تلمسان ـ وهران؛ وتراجع الجنرالان لاموريسيير وكافينياك إلى الخلف: ومر الأمير بين سبرو وتلمسان. وتبعه الجنرال كافينياك، وهجم الجنرال لامويسيير على سيدي بالعباس، ومرّ الأمير بين سعيدة ومعسكر. وكان لاموريسيير قد وصل إلى شرق معسكر فأرسل الجنرال جيري ضد عبد القادر في سعيدة، ومرّ الأمير بين كتائب الجيشين مع بضع مئات من الفرسان وغُددهم ووصل إلى أعلى مينا، حيث جمع فرنسان القبائل الذين كانوا يهربون من أمامي ومن أمام الجنرال بورجولي واتجه شرقاً حيث يحاول أن يقوم بضربة لانعرف هدفها ومايليها.

لنضف أنه يقوم في الوقت ذاته بواسطة عملائه بهجمات تضليل مفاجئة لإشغال قواتنا، وهكذا فإن بو معزة حرّض كل البلاد بين وادي حرجم والمينا، وجميع آغوات تيارت، وقسماً من أولاد العيادي على التمرّد، ثم مرّ من خلف جيشي لتحريض

منطقتي أوراسنيس والضهرا؛ كما أن شريفاً آخر هو مولاي العربي عقد اجتماعاً كبيراً في غودجيله، في الصحراء الصغرى وهو يهدّد غرب وجنوب مقاطعة طيطرى. كما أن أخا بو معزة بدأ يحرض المناطق المجاورة لمليانا على العصيان، وعندما أوقف وسلّم لنا برز أكثر من عشرين متنفذاً أقل أهمية منه يعلنون تمرّدهم في نقاط عديدة. إن الوضع أشبه بعش الزنابير.

هل يمكننا التواجد في كل مكان في آن واحد؟ هل يمكن أن نتقي ضربات المهاميز؟ هل يمكن أن نحشد مئة ألف رجل لملاحقة عبد القادر؟ كلا بالطبع! ولكن يمكننا الوصول والضغط على السكان الذين يقدمون له الخيّالة والمؤن (...). وخلال شهرين أو ثلاثة ستقع القبائل في ضيق شديد، وسيفقدون كثيراً من الرجال، والماشية، والمؤن؛ ولن يجد الأمير في كل مكان إلا البؤس والتدمير (...).

إن حرباً، هذه طبيعتها، لايمكن أن تنتهي إلا بفعل متواصل من جميع كتائبنا، ولنقل بصراحة، إذ يجب أن تعلم الأمة، بتدمير العرب، وبقتل محاربيهم الرئيسين تفصيلاً:

(يعود بوجو إلى عرضه بعد عدة أيام ويتابع).

يمكن القول إنصافاً لعبد القادر: إن ما من ثورة كبرى أبداً قامت في بلاد ضد غزاتها بمثل تحضير ثورته وتنفيذها.

يمكن للإحصائيين الفرنسيين أن يستنتجوا ما شاؤوا عن عدد السكان العرب. لكن الأكيد هو أننا نجد عدداً كافياً لنا من الأعداء في كل مكان، وبالرغم من أن قواتنا تتميّز بالشجاعة الفائقة، وأنّها لاتخشى مهما كان الثمن معركة ضد قوى تفوقها كثيراً، وهي تتقدّم دون انقطاع (...)، وقد تكبّد العرب خسائر هائلة (....) فالقبائل ما بين السندان والمطرقة، والضرورة تقتضي تدميرهم كليّاً (...) فالانهاك الكامل للعرب هو الذي سيجبر عبد القادر على أن ينسحب إلى مراكش مجدداً (...)، وللأسف لا أرى مخرجاً آخر لهذه الحرب الشائكة المعتمدة على التعصب الديني، وروح الاستقلال الوطني.

الوثيقة رقم ٤

رسالة من عبد القادر إلى لويس فيليب، تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٤٦

(بعد التحيات المألوفة) ووفقاً للترجمة التي تمّت في وهران، بتاريخ ٣ كانون أول - ديسمبر عام ١٨٤٦، من قبل البارون روسو، المترجم الرئيس للمارشال بوجو.

تتغيّر الأيام، كما أن الحرب تبدي حظوظها المختلفة، وكل ظرف يتطلب خصوصياته والمكان ضروري لمن يريد أن يتقدّم؛ ولكل فانٍ يومه المكتوب في لوح القدر ولكل مبتكر حظُّه في التوفيق.

أريد أن أذكركم أننا منذ البدء قبلنا برضى السلام، كما أننا قبلنا دون صعوبة الشروط التي فرضتموها ونحن نغتبط في العيش متفاهمين معكم؛ وباتفاق تام، ونيّة طيّبة، توطد تحالفنا خاصة وأن موافقتكم الشخصية ثبتت بطريقة دائمة معاهدات الصلح المتفق عليها بيننا: عدا عن أن تبادل الهدايا أكد على عواطف الصداقة التي يتولّد منها الخير العام.

كنا في هذا الوضع حتى لحظّة استمع فيها بعض أشخاص نافذين في الجزائر تحت قيادتكم إلى أفكار غادرة من عرب يهدفون إلى التشويش وسوء التفاهم بيننا إلى درجة وضعنا أمامكم كمذنبين نستحق العقاب، بينما بالعكس نحن من يشكو تجنّيهم علينا.

كتبت لكم عدة مرات شخصياً ورسميّاً، وقد شوّهت نواياي دائماً: إذ لم يصلكم إلا إيحاءات قلوبهم المعاكسة لمشاعري الحقيقية، والموجّهة بما يكنّونه لنا من حقد: وهكذا فقد انتصروا في مشروعهم، وحققوا الهدف المعنّد الذي تابعوه بحيث لايمكن إلا للشرّ أن يخيم بظلّه القاتم على أرض الجزائر. هدفت رسائلنا إلى إطلاعكم على كل شيء، لكن لم تصلكم ولا واحدة منها، وبالتالي تعذّر عليكم معرفة نوايانا.

في العام الماضي، خلال حملتنا على الشرق، أراد الله، بعد عدة معارك، أن يقع عدد من الأسرى في أيدينا، فكنا سعداء لهذا الظرف إذ إنه يسمح لنا بإجراء تبادل؛ وأنعمت النظر بهذا المشروع معترفاً بكل مودّة، وأصرح بهذا لكم بكل إخلاص، أنك بالنسبة لي أحد السلاطين الذين تُستخدم سلطتهم كرابطة لتزيد قدرات الأمم،

السلطان الذي يجب أن تتوجّه إليه صداقة المسلمين كما جاء في كتاب رسول ﷺ الآيات التالية.

﴿لتجدّن أقربهم مودّة للذين آمنوا، الذين قالوا إنّا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورُهباناً، وأنّهم لايستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، ممّا عرفوا من الحق، يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (٥، سورة المائدة، ٨٢، ٨٣).

قال الخرشي لعمرو بن العاص: «سمعت عن رسول الله ﷺ انّه قال: إن نهاية العالم ستأتي وسيكون المسيحيون الأكثر عدداً، وسأله عمرو عمن أخذ هذا الحديث، فقال: «عن رسول الله نفسه وأدعمه بالقول إن المسيحيين قد وهبوا أربع فضائل متميّزة: إنّهم الأكثر شهامة بعد المعارك؛ وذكاؤهم الفائق يتدارك بسرعة الحدث المأساوي الذي يصيبهم؛ وكرههم شديد ومحتوم على الخيانة، وإحسانهم مضمون للفقراء واليتامى والضعفاء وأضيف فضيلة خامسة هي أحسنها: إنّهم غير مضطهدين من ملوكهم. وقال النبي وهو يذكر بغضاء الحرب بيننا وبينكم عند نهاية العالم: «سيجتمع في تلك الفترة ستون ألف مسلم من أجل المعركة: وتذكر السِنَّة، إن حلفاً سيقوم بعدها بيننا وبين بني الأصفر». فنحن إذاً معادون لكم كما أنتم معادون لنا.

لم نستطع في العام الفائت أن نتفاوض معكم حول قضية الأسرى المسيحيين الذين بين أيدينا، لأننا لم نكن قادرين على عرض اقتراح يمكن أن يرضيكم: غير أننا في السنوات الماضية أطلقنا سراح أكثر من مئة أسير لبوجو بدون مقابل. ولما غدا بين أيدينا عدد من أسراكم كتبنا أكثر من ثلاث مرات للمارشال بوجو وللاموريسيير، ولممثلكم في الجزائر، ولم نتلق أي جواب بل إن رُسلنا حاملي بريدنا لكم قد سجنوا؛ وقلنا في أنفسنا: هذه خيانة لم يسبق للفرنسيين ارتكابها. إذ أنهم أول من يلوم الآخرين في مثل هذا الظرف؛ فمن التقاليد العريقة في القِدَم أن يعتبر الرسول غريباً كليّاً عن أي نوع من الكراهية بين المتخاصمين.

عندئذ سرت شائعات (بين العرب) بأن الأسرى (الفرنسيين) الذين أخذوا بالقوة، سيستردون بالقوة. ووعد الفرنسيون بمكافآت مالية كبيرة لكل من يأتي ببعض منهم إلى المراكز الفرنسية المتقدمة. ثم فكروا بوسيلة أخرى، وهي أن سلطان فاس قادر على إطلاق سراحهم، وأشاعوا في مناطقنا بأنه مكلّف بتحريرهم من يدي عبد القادر،

وإعادتهم إلى مواطنيهم بدون إرادتنا. وقلنا في أنفسنا: كيف يمكن للقادة الفرنسيين الأقوياء والمحاربين الذين خبروا الرجال والأمور أن تخطر لهم مثل هذه الأفكار؟ لكن يبدو أن ما دفعهم إلى ذلك هو عدد المراكشيين الكبير الذين يأتون يومياً لزيارة الأسرى الفرنسيين.

لم يهتم القائدان بوجو ودي لاموريسيير، من جهتهما، بهذه القضية، وبقيا على ما هم عليه من حقد ضدنا، بالرغم من أنهما لايجهلان أننا بالمقابل لن نترك لهما فرصة ينعمان بالهدوء فيها؛ وكما تعلم فقد بلغ الغضب منا درجة قررنا فيها أن نأمر بقتل الأسرى.

لم نميّز سابقاً بينهم وبين قوّاتنا، فيما يتعلق بالطعام والمأوى، بل أكثر من ذلك، كنا نقدّم لهم اللحم، والقهوة، وأشياء أخرى.

وما أن اقتنعنا أن بين الأسرى قادة ينتمون إلى عائلات كريمة، هم رجال شرفاء لم يحاولوا الهرب خلال أسرهم حتى أكبرنا سلوكهم وأعطينا الأمر بصيانة حياتهم، وفضلناهم على الآخرين الذين قتلوا.

الخلاصة، إن المسؤولين الحقيقيين عن هذه الظروف التي أدّت إلى هذا البلاء هم قادة جيشكم الذين لم يرضوا أبداً اقتراحات التبادل، عدا عن أنهم نشروا شائعات غير لائقة بكرامة أمتكم، ولايرفعة مقامكم. فالأفعال والأفكار المنحطة من قبل رجل سام لايمكن إلّا أن تؤدي إلى انحطاطه.

بعد مضي وقت على الأسر، لاحظنا بين الأسرى الباقين عاطفة امتنان تجاه المعاملة الحسنة التي غمرناهم بها؛ والتمس رجالنا المؤتمنين عليهم إطلاق سراحهم، ولم نرد في هذا الظرف وساطة مع عملائكم في الجزائر الذين تصرّفوا معنا تصرفاً غير لائق، وخلقوا بيننا الارتباك والاضطرابات، عندما لاحظنا أنكم تتجاهلون القوانين التي يجب الامتثال لها في معاملة شعب مجاور لشعبكم.

وبعد التفكير، ووفقاً لرأي القائد ورفقائه، تمّ الاتفاق على أن يطلق سراح هؤلاء الأسرى عن طريق مليلة، وبواسطة سلطان إسبانية، وهو أحد ملوك أوروبة الأقوياء الذين تقيمون علاقات صداقة معه منذ أمد طويل. بعد حصولي على موافقة جميع من حولي قررت العفو عنهم وفقاً لقانوننا:

اقطع الأعناق خلال المعركة، ولكن عند الانتهاء منها، يجب إجراء تبادل الأسرى، أو العفو عنهم.

إن المتقدّم بين هؤلاء الأسرى مطّلع تماماً على المفاوضات الفاشلة مع عملائكم من أجل عملية التبادل، وهو يعرف أيضاً أننا لم نتلق أي جواب على رسائلنا، مما كان سبباً لقطيعة كاملة بينكم وبيننا. وقال لنا هذا المتقدّم:

«إن تكتبوا رسالة إلى الملك فسأعمل على إيصالها له يداً بيد، وسيصلكم جواب، تأكّدوا من ذلك، لأن الملك ليس مطلعاً على أوضاعكم في هذه البلاد.

لذلك كتبنا لكم رسالة نطلعكم فيها على كل ما جرى؛ واخترنا من بين أتباعنا المخلصين الشاب العاقل المتميّز الآغا عبد القادر بن الهاشمي، الذي سيتشرّف بالمثول أمامكم. وعند عودته سنعرف إن شاء الله ما يجب علينا فعله، لأننا لانريد إلّا خير الشعب وكل ما له علاقة به، ونحن أبعد ما يكون عن الشرّ وكل ما يستتبعه.

إن أردتم مقابلة حسنتنا بمثلها فإننا نرجو إطلاق سراح من أسر من أفراد جيشنا، كباراً وصغاراً، أولئك الذين يعيش أهلهم بيننا. وهذا ما نرجوه من عظمتكم وشهامتكم، ولا أعتقد أنكم ستخيبون رجاءنا في مثل هذا الطلب العادل.

هذا هو أملنا، وثقتنا بمشاعركم النبيلة عند كتابة هذه الرسالة الآن معتبرين أننا نتصرف بطريقة مخلصة ملؤها الإنسانية. يشجّعنا على هذه المبادرة ما سبق أن أبديتموه تجاهنا من حسنات وأعمال خيّرة، ونحن على يقين بأن جميع طلباتنا السابقة لم تصل إليكم.

إنكم بعيدون عنّا ولم نتلق منكم أي رسالة. ونحن نعتقد أن الخير الذي ننتظره على يدكم تعويضاً عما أبديناه، أمر واجب. أما الضرر الذي حصل فلا نلام عليه لأننا لم نرد إلا الخير والإنصاف وكل ما يشكل حقّ الشعب القائم على الأعراف والعدالة. ولم نجد أبداً أي مساعدة من قبل عملائكم في الجزائر إذ أنهم سبّبوا ضياع البلاد وسكّانها وهم يفرضون عليها دفع الأموال.

أنهي رسالتي متوجهاً بتضرّعي إلى الله عزّ وجل التمس منه العون، فهو وحده موزّع الفضائل ومحقق العدالة.

كتبت بأمر من حامي حمى الدين أعزّه الله ومدّ في عمره.

كتبت في أوّل ذي الحجّة ١٢٦٢.

الوثيقة رقم ٥

رسالة من اللورد لندنبري إلى نابوليون الثالث بتاريخ ٢٥ آب ـ اغسطس ١٨٥١

من اللورد لندنبري

إلى لويس نابوليون بونابرت رئيس الجمهورية الفرنسية

برج غارون (كونتية انترم ـ إيرلندة) في ٢٥ آب ـ اغسطس ١٨٥١

يا أميري.

انقضت مدة كبيرة من الزمن منذ أن تلقيت في ٢٩ آذار ـ مارس كلمتك كأمير التي تذكر فيها «في هذا اليوم بالذات كلّفت سفيري الجديد في القسطنطينية بأن يدرس هذا الموضوع (...)» (أي موضوع إطلاق سراح عبد القادر) هل تعتبر بحاجة يا سيدي، أن أسألك شخصياً باسم روابط صداقتنا القديمة، أن تعطيني معلومات أوسع حول تطور مفاوضات سفيركم وإلام آلت أو ستؤول إليه.

إن لويس نابوليون لايكتفي فقط بالكلمات والجمل، إلا إذا كان النجاح قد بدّل طبيعة الرجل الذي كنته في أيام المحنة. فمجلساكم البرلمانيان في عطلة الآن، واحتفالاتكم الرائعة على شرف صناعات جميع الأمم انتهت وسيتسنى لك الوقت إذاً بكل تأكيد لتجد لحظة تفكر فيها بسجين آمبواز. في المشهد الأخاذ الساحر للاحتفال في قصر البلدية في باريس، ومئات بل ألوف من البشر يغمرونك بفيض من الإطراء والمديح ألم تطرح على نفسك هذا السؤال: «أين عبد القادر؟».

وفي عرض الشامب ـ دي ـ مارس، في التألّق الرائع لنخبة الجيش الفرنسي النبيل الباسل، ووسط الصيحات المتحمسة: «يحيا نابوليون»، ألم تشعر بشيء يحزّ في قلبك متسائلاً: «أين عبد القادر؟».

وبين حدائق سان كلو الفاتنة، وقد أحاط بك مفوضو الصناعة لجميع الأمم، ووسط تملّق الدبلوماسيين والنساء المتعلّقات بابتسامة منك، وبينما الأكثر إثارة منهنّ، بفضل حظوة عابرة خُصّتْ بها، تستند إلى ذراعك ألم يخطر ببالك: «أين عبد القادر؟

في هذه الساعات المجيدة، ألا يمكنني أن أطلب من ابن أخ الإمبراطور نابوليون (وهو اليوم رئيس للجمهورية) إن كان لايستطيع أن يحتفظ لنفسه ولنفسه فقط (ملبياً نداء طبيعته الحقيقية القائمة على الصراحة والجرأة) باستحقاق إنقاذ شرف فرنسة بتنفيذ شروط الاستسلام المتفق عليها مع عبد القادر؟

هل يمكن يا أميري أن تمنعكم حرب القبائل المؤسفة، وبدرجة أقل مخاوفكم الخاصّة من فكرة تحرير عبد القادر، عن إتمام عمل منصف ويستحق التقدير، خاصة وأن الرأي الذي أعطيته علناً فيه غدا ملزماً لك. عمل لايقتصر على التقدير فقط وإنما يتطلب منكم هذا الألم الناتج عن انتظار قلق استطاع وجدانكم الخاص وحده دون غيره أن يقدّر حرقته؟ هل يمكن للتشكّكات التافهة التي أشرت إليها أن تحرف نظركم كلياً عن هذه القضية النبيلة العادلة؟ إن ابن أخ نابوليون سيكون في الحقيقة جديراً بالشفقة إن لم نقل باللوم إذا سمح بتحويله عن دروب الرحمة، وشلّ شهامته في أجمل حميّتها.

صّدقني أن معارضة تحرير الأمير عبد القادر سواء أتت من جيشك، أو من برلمانك، أو من حكومتك أو نتيجة للخسائر التي تعرض لها جيشكم الشجاع في الجزائر لايمكن أن تصمد لحظة أمام المقارنة مع الواجب التاريخي الراسخ الذي يسجله وطنكم والاسم الفرنسي. وإذا قُدّر لعبد القادر أن يموت في سجون لويس نابوليون فستكون هذه فضيحة لاتتمكن مياه نهر الليته[1] أن تغسلها أبداً. من يمكنه التنبؤ، إن ترددت أكثر من ذلك، إلى كم من الوقت تبقى قادراً على أن تصل بهذه القضية النبيلة إلى استحقاقها؟ فلويس فيليب بغض النظر عن كلمته كأمير، يكون قد حصر لويس نابوليون في زنزانة حقيرة. لكن لويس فيليب لم يكن إلا أسير بطانته، ولويس نابوليون يحكم فرنسة. ألا يمكن للويس نابوليون أن يلوّح بالسوط لمن يريد جلده به؟

هل يمكن أن يرضى بتحقير اسم بقي محترماً ليُوصَلَ به إلى مستوى اسم أومال أو لامورسيير، إلى مستوى وعد نُكث به فلم يكن إلا فخّ غدر، بعكس جميع قواعد الحرب والأمم المتحضرة؟

لا أُجمِلُ كلَّ هذه الحجج يا أميري لإلزام نفسك النبيلة على الاعتراف بعدالة تدبير

١ ـ الليته LETHE: نهر في جهنم تحمل مياهه النسيان لأرواح الموتى (المترجم).

حدّدته أنت نفسك في تصريح أمام كل أوروبة بتعابير أشد قوّة من تعابيري. وإنّما بغية أن أشير إلى النتائج المشؤومة التي يمكن أن تحرج شهامتك، في حال القبول بتأخيرات أخرى أو التساهل فيها. أعلمني بالتالي عن الوضع الذي وصلت إليه المفاوضات التي يتابعها لاڤاليت مع السلطنة العثمانية لتأمين مقرّ إقامة في الشرق للأسير الكبير، قل لي إلى أين وصلت الآن المحادثات بين الجنرال أوبيك (سفيرك الحالي) مع السلطان. ومن أجل بلوغ هذه الغاية، أعلمني يا أميري، بالأسباب التي قادت إلى هذا التأخير في قرارك، وماهي نواياك الحالية؟ حبّاً بالسماء وباسمك الشهير.

اغتنم الفرصة
فمهما بلغ طريق الشرف من الضيق
فامش به وحيداً في المقدمة
واثبت، لأنّك إن تراخيت
أُبعدت عن الطريق القويم
وسيعمل الجميع لدفعك
إلى أمواج سيل مفاجئ
ليطرحوك على الشاطئ البعيد.
أو كن كالحصان الباسل
الذي يسقط في أوّل الصفْ
واستلق لتكون موطئاً
من خثّ حقير لأولئك الذين اتبعوك من بعيد (....).

وهكذا فتحْتَ تأثير تردّدات وَجِلة وارتيابات رعديدة، قد تتخلى لاسم ما، بدون مجد، يليك في استلام السلطة العليا، عن تاج تعاطف جميل يليق بمقامك منذ الآن أن تزين به جبين من ما أزال مصرّاً على اعتقادي باستحقاقه له، وبردّ حريته إليه.

والخلاصة يا أميري، وأنا لا انوي بالتأكيد تهديدك (لأنني أعلم أن روحاً كروحك تجهل الخوف)، وإنما أريد أن أطلعك على ما عزمت اجرائه، إن بقي ندائي الأخير هذا بدون نتيجة، ولم يعطني أي أمل إيجابي؛ فإنني سأنشر عندها، علناً وللعالم،

المراسلات والرسائل (التي امتلك نسخة عنها) والتي تمّت بين دوق أومال والجنرال لاموريسيير كما إنني أتعهد بأن أفعل ذلك من على مقعدي في مجلس اللوردات. لأريد أن أرهق الدوق أومال، فضعفه الأميري جدير بالشفقة والعطف، وقد لايكون إلا أداة لغيره. أما الجنرال لاموريسيير (وهو في رأي الجميع جندي باسل) فإنه لم يرد أن يكون أمام العالم مثالاً للصدق والشهامة، عندما استنكف هو بذاته (في الفترة التي كان فيها وزيراً للحرب) عن منح الحرية للرجل الذي خدعه وخانه في اتفاق استسلامه. وأنا أعتقد أن ما من حاجة للدعاية العريضة والتشهير بنكث العهد فبنود هذه الاتفاقية ناطقة بذلك.

بالانتظار القلق لجوابك على هذا النداء الأخير، يشرّفني، يا أميري أن أكون دائماً صديقك المخلص.

ڤان لندنبري

الوثيقة رقم ٦

رسالة من لويس نابوليون إلى اللورد لندنبري بتاريخ ١٣ ايلول - سبتمبر ١٨٥٦

من رئيس الجمهورية لويس نابوليون بونابرت إلى اللورد لندنبري

قصر الإليزه الوطني، ١٣ أيلول - سبتمبر ١٨٥١.

عزيزي اللورد لندنبري. تلقيت رسالتك المؤرخة في ٢٥ آب - اغسطس. وأنا أجد من الطبيعي جداً أن تذكّرني بالحظ العاثر للأمير عبد القادر.

لكن تسألني إن كانت السلطة قد غيّرت أحاسيس قلبي! وعلاقتك بي تتيح لك أن تعرف أنَّ شرف المهام العليا في نظري ليس إلا حملاً ثقيلاً هو أعجز من أن يبهر نفسي أو يشلّ الاستعدادات النبيلة في روحي وإذا كنت حتى الآن لم أنجز كل الخير الذي أتوق إليه، فلأنني **لم أستطع ذلك.**

وجدت الباب العالي العثماني مستعداً لاستقبال الأمير عبد القادر، ونواياي لم تتغيّر نحوه، فأنا أريد عاجلاً أو آجلاً منحه حريته، لأنني أعتقد أن شرف فرنسة قد ألزم بذلك بموجب التعهد الممنوح له. لكنني ألاقي في الوقت الحاضر صعوبات كبيرة جدّاً.

قام زير الحرب بزيارة عبد القادر منذ أيام قليلة، وقد وجده صابراً متحمّلاً، وأفهمه أن عليه الإنتظار أيضاً بعض الوقت. وعمل على أن يحسن شروط الوضع الذي هو فيه بكل الوسائل الممكنة (...).

أنت ترى يا عزيزي اللورد أنني أحدّثك بصراحة، وأنا أعرف مدى نبل قلبك. لكن يجب أن تقدّر وضعي ومايفرضه علي من واجبات. تقبل أحسن مشاعر ودّي وصداقتي.

لويس نابوليون

الوثيقة رقم ٧

أول تقرير لجورج بولاد موجّه إلى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ ٢٧ آذار - مارس ١٨٥٦. (وثائق الشؤون الخارجية تركية، ودمشق رقم ٤ (١٨٥٦ - ١٨٥٧) وكذلك تميمي. مجلة التاريخ المغربي ١٩٧٩ ص: ٣٣٦ - ٣٣٨) إلى صاحب المعالي الكونت والوسكي وزير الشؤون الخارجية.

سيدي الوزير

في الرسالة التي شرّفتني بتوجيهها لي بتاريخ ١٤ كانون أوّل - ديسمبر الفائت، والتي تسلّمتها عن طريق قنصلنا السيد أوتري، أعلمتني عن قرارك بتكليفي بمهمة خاصة لدى الأمير عبد القادر، تحت إشراف وبمساعدة القنصل الفرنسي في دمشق.

اضطّلعت بالمهام التي تفرضها علي المهمة الدقيقة التي شرفني معاليكم بتكليفي بها. وآمل أن أبذل كلّ جهودي للقيام بها بكل أمانة ودقة، إن دوري كما فهمته، يقوم على مراقبة الأمير والأعمال التي تجري من حوله، والتي أعتقد أنها ذات طبيعة تهم الحكومة والإمبراطور. وإنني أسرع إلى القول إنني لم ألاحظ حتى الآن ما يخالف الطبع الحكيم، والمتبصّر، والمتحفّظ للأمير عبد القادر الذي اعتدت أن أراه فيه في مختلف الأحوال التي أعرفها عنه منذ ثماني سنوات. أتشرف بأن أعرض لمعاليكم نتائج ملاحظاتي:

أولاً: فيما يتعلّق بقضاء وقته في دمشق: يقرأ الأمير كثيراً، وهو يخصص للدراسة التي شغف بها كل الوقت الذي يتسنى له بعد صلواته وممارسة شعائره الدينية، وتعليمه لأولاده، والزيارات التي يتلقاها، والنزهات التي يقوم بها في المدينة أو في ضواحيها، وهي أحياناً لزيارة بعض أضرحة الأولياء. وهو يقيم علاقات صداقة طيبة مع سلطات دمشق وسكانها، لكن دون مغالاة من أي طرف. وهو لايرى إلا القليل من الناس، ويضمّ بكل طيبة خاطر إلى حلقة أصدقائه بعض المرابطين والشيوخ وطلاب العلم الذين يقضي معهم ساعات كاملة في محاضرات تتعلق بالدين أو الأدب؛ ويتم استعراض مختلف آراء مفسّري القرآن الكريم، ويعطي كل من الموجودين رأيّه وتناقش التفسيرات إلى أن يتم الوصول إلى رأي جليّ مقنع للجميع الخ...

هذه الاجتماعات تتمُّ في أغلب الأوقات، وتشكل أحد الاهتمامات المفضلة لدى الأمير، وفي ماعداها فهو يعيش في عزلة تقريباً، كإنسان عادي بسيط، لايتباهى بأي ترف، بل لايبدو عليه شيء يشير إلى أهميته ورفعة مقامه؛ هذه البساطة هي من طبعه، إذ حتى في زمن سلطانه لم يسع إلى أي ترف إلّا في اقتناء الأسلحة والخيول؛ وفي دمشق لاخيل عنده، إذ وجد أن لاضرورة لشرائها. وليس لديه من السلاح إلا السيف الرائع الذي أهداه إياه الإمبراطور، «وهو مصمّم ألا يستلّه أبداً ضد فرنسة». في هذه الفترة يقوم بإعداد مؤلّف صغير عن موضوع طرح عليه خلال رحلته الأخيرة إلى باريس ويدور حول «المرأة العربية، دورها في المجتمع الإسلامي الذي حدّده لها القرآن الكريم»[1].

في كل ما اطّلع عليه من مراسلات عبد القادر ألاحظ غالباً تعبيراً عن عميق امتنانه للإمبراطور ولحكومة جلالته، وكذلك الأمر في أحاديثه عندما يجد مناسبة لذلك، لكنه رزين محترس في خُلقه، حذر بطبعه، كثير التحفظ في أحاديثه، وهو يتجنّب إعطاء أي رأيٍ في الأحداث السياسية الحاضرة؛ لكنني أعلم أنه في صميم نفسه لايكنّ كثيراً من الودّ للأتراك ليس كشعب وإنّما كأفراد، وهذا يعود إلى ارتيابات عرقيّة بين العرب والأتراك، ارتيابات قد لاتكون جديرة به، لكنه لم يعرف حتى الآن التخلّص منها. ولم أستطع حتى هذا اليوم أن أعرف تماماً ما هو رأيه بالنسبة «للخط الهمايوني» الصادر في ١٨ شباط - فبراير الماضي؛ لكنني أعتقد أنه في صميم نفسه لايؤيّد الإصلاحات التي تضع المسيحيين حتى اليهود على قدم المساواة المدنية والسياسية والدينية مع المسلمين؛ لكنه يدرك أنّ للضرورة أحكامها، وأفترض أنه بالعاطفة الدينية التي أعرفها فيه يأسف على المصير المتوقّع في مستقبل قريب أو بعيد للإسلام، وهو مثابر على أن يريده باقياً كما كان في نشأته الأولى، مما يدفعه غالباً إلى القول: «إن دين الإسلام يموت، لنقص المسلمين، المسلمين الحقيقيين. قد يكون مسموحاً لرجل كعبد القادر أن يُكنَّ مثل هذه التأسّفات دون أن يعبّر عنها صراحة، لكنه يكذّب حياته إن فكّر بشكل آخر».

رغم النفقات غير المتوقعة في السفر وكلفة الاستقرار الأوّل في دمشق، فإن الوضع المالي للأمير مُرضٍ. والديون التي غرق بها في بروسه سدّدت بكاملها قبل رحيلنا من

١ - انظر الوثيقة رقم ١٠.

تلك المدينة، وقد حرصتُ على أن تُسدّد قبل كل شيء؛ وقد تمّ ذلك بواسطتي، وبفضل موارد خارجة عن المألوفة تكرّم بها جلالة الامبراطور ومعاليكم بسخاء لعبد القادر. وقبل مغادرتنا بروسة باع عبد القادر «تشيفليكه» بشروط مناسبة في الفترة التي تمّ بها هذا البيع. وكان المبلغ الصافي الذي قبضه الأمير ٢٤٠٠٠٠ قرش استُخدِمَ قسمٌ كبير منها في شراء حليّ لحريم الأمير في اليوم التالي لوصولنا إلى بيروت، ثم خصّصت مبالغ أخرى لمشتريات من الطبيعة ذاتها؛ مما دفعني إلى لفت نظر الأمير إلى عدم التساهل في نفقات لافائدة منها، ولاتتناسب مع المخصصات العادية التي حدّدها له الإمبراطور بناء على طلبه، وبالتالي فيجب ألا يقع مرة أخرى تحت طائلة ديون جديدة. وكان قد سبق له من أجل تقليص نفقاته، وبناء على نصائح وُجهت إليه من أجل مصلحته الخاصة، وما فتئت أذكّره بها، أن قلّص عدد الأشخاص الملتحقين بخدمته، وكان هذا العدد كبيراً في بروسه ويستهلك دون فائدة قسماً كبيراً من المخصصات التي يعود الفضل بها لسخاء الإمبراطور، إنّما هي محدّدة لرفاه الأمير وأفراد عائلته بالذات.

يبدو أن مناخ دمشق قد لاءم عبد القادر فهو يتمتع بصحة جيّدة، لكن صحة عدد من أفراد عائلته، وخاصة الأطفال منهم تتطلب عناية أفضل. وآمل بتأثير الأيام الجميلة القادمة، وبعد أن ائتلف هذا الجمع مع الحياة في دمشق أن تتحسّن صحة الجميع؛ غير أن الطبيب الصحي الفرنسي بالوكالة السيد غاياردو يقدّم في كل مرّة يستدعى فيها من قبل عائلة الأمير كل عناية لازمة بحماسة وتجرد يستحق عليهما أجزل الشكر.

يعتقد عبد القادر خطأ دون شكّ أنّ باستطاعته أن يتغيّب عن ولاية دمشق، والاقتصار على إعلام القنصلية بغيابه والسبب الداعي إليه، وقد وضع مشروعاً في الفترة الأخيرة لزيارة الأماكن المقدسة في القدس مع أمّه وكبار أولاده، وصهره، وبعض الخدم، ورجاني أن أعلم قنصلنا برغبته. وتوقعت صعوبة في هذا الأمر، لكنني أعلمت قنصلنا السيد أوتري بذلك، لكنه لم يرد أن يأخذ الأمر على مسؤوليته وأعلم معاليكم به، ونأمل أن نتلقى قريباً التعليمات والأذن المطلوب. وقد قال السيد القنصل للأمير، وحرصت على أن أترجم له جيّداً، عدم إمكانه الخروج من ولاية دمشق دون إذن من حكومة الإمبراطور، وأن عليه ألا يطلب أو يلحّ على أمر كهذا حرصاً على مصلحته الخاصة، ويبدو أنه فهم جيّداً هذه الملاحظة نهائياً؛ فضلاً عن أن سلوك الأمير العاقل

والمتحفظ الذي لزمه باستمرار في بروسه، ولم يتحوّل عنه في دمشق، يسمح لي بأن أصرّح بأن هذه الرحلة لاتتضمن محذوراً أو عائقاً من أي نوع كان. أقترح أن أرافق الأمير في زيارته إلى القدس، وقد تفاهمت مع قنصلنا وأيّد مشروعي، وأنا أتفاهم دائماً مع هذا المندوب المحترم حول جميع الإجراءات المتعلّقة بالمهمة الخاصة التي أراد معالي وزيرنا تكليفي بها قرب الأمير. وعبد القادر راض تماماً عن علاقاته مع قنصلية فرنسة التي برهنت دائماً عن حسن المعاملة واللطف.

أتشرف بأن أكون مع عميق احترامي لمعاليكم، خادمكم المطيع والمخلص.

جورج بولاد
مترجم الجيش في الجزائر
والمكلّف بمهمة عند الأمير عبد القادر في دمشق

الوثيقة رقم ٨

التقرير الثاني لجورج بولاد، باريس وثائق وزارة الشؤون الخارجية تركية، دمشق، (١٨٥٦ - ١٨٥٧) تقرير موجّه إلى الوزارة بتاريخ ٣٠ آب - اغسطس ١٨٥٧ (انظر أيضاً تميمي، مجلة التاريخ المغربي ١٩٧٩ ص: ٣٣٨ - ٣٤٠).

سيدي الوزير

لي الشرف أن أعرض لمعاليكم خلاصة ملاحظاتي منذ تقريري الأخير. إن الجو السائد في الأيام الأخيرة يثير ملاحظات عديدة أبادر لتبليغ الحكومة بأهمها وهي:

أثار قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدول الأربع العظمى والباب العالي أحاسيس متيقظة في دمشق وخاصة بين العديد من المغاربة الذين يقطنون تلك المدينة. فهذه المجموعة المؤلّفة في قسمها الأعظم من المغامرين، والأشخاص المتعصبين، الأعداء بالفطرة للأتراك، الذين يعتبرونهم كفاراً فاقدي الايمان، هذه المجموعة تتمنى أن تنشب الحرب التي يعتبرونها قاضية على السلطنة العثمانية، ويمكنها بالتالي أن تحصل منها على بعض المكاسب وهؤلاء المهووسون يرون في مستقبل قريب تصدّع السلطنة، وهم يقسّمون مسبقاً مختلف المقاطعات التي تتألف منها، ويعطون لكل من الدول العظمى ما يرونه أكثر ملائمة لها.

وسط هذا الهيجان من الأهواء السيّئة، يبدو عبد القادر وحيداً تقريباً بين مواطنيه المغاربة محافظاً على تعقّله وحكمته وبعد نظره. وقد اغتنم هذه المناسبة ليعبر عن ولائه وإخلاصه للإمبراطور. وقد وجّه هذا التعبير في بريد هذا اليوم. قال: «مهما حدث، ولو أطبقت السماء على الأرض فإن عواطفه لن تتغير. ولنعتقد بإخلاصه فكل شيء يدعمه. وخاصة ولاء خمس سنوات إقامة في بروسة ودمشق لم تغفل فيها العين عن مراقبته، ولم يبدر منه ما يدفع إلى الشك بالثقة التي منحها.

لكن رأيي قد تغيّر منذ عدة أشهر. فأنا أرى كثيراً من عدم الثبات في الطبع العربي، وقليلاً من حسن النية الحقيقية، وخاصة تجاه المسيحيين، فمثل هذا النسيان للوعود، والتعهدات الأكثر قدسية لايمكن أن أدافع عن نفسي فيها

بالاحتراس تجاه المسلمين، رغم أن هذا هو الضمان الحقيقي للتعامل معهم إلّا في الأمور التي يكون لهم مصلحة فيها. وثمّة واقع لاحظته وأعتقد أن الشك لايتطرّق إليه، وهو أن عبد القادر يخشى إن نشبت الحرب، أن يتلقى الأمر بالعودة إلى فرنسة؛ ولايمكنني إلا أن أشير للأحوال المترتبة عن المعنى الحقيقي لهذا الحدث إن تمّ، خاصة وأن عبد القادر ليس إلا اسماً كبيراً، هذا صحيح، لكن هذا الاسم يحتفظ بتقدير كبير وخاصة في الشرق، وفي أوساط بعض الجماعات المتعصبة الذين يرون الأتراك مصيبة كبرى، والحال إذا نظرنا إلى السنوات الاسمية التي تتوالى دون جدوى، وإلى الولاة والقادة الذين عهد إليهم بأمن سورية، لايمكننا الاطمئنان إلى المستقبل، ويجب الشك في حالات معيّنة، ففي حالة استثنائية معيّنة، قد تبدر محاولة جريئة من رجل ذي طبع جسور مقدام، يبدو جيّداً أنّه لم يقل كلمته الأخيرة، وقد يكون هذا الرجل عبد القادر، فيجب ألا يغيب عن نظرنا أن ابن محيي الدين كان يحلم دائماً بقومية عربية مؤثّرة ولئن تخلّى عنها في بلاده فلأن الظروف كانت باستمرار غير مؤاتية له منذ نقض معاهدة تفنا وحتى استسلامه (١٨٣٩ - ١٨٤٧).

والحال إن توفّرت لِما لم يفعله، لما لم يستطع فعله، ظروف في المستقبل قد تسمح له بفعله، أليس من الطبيعي أن ينهض إليه؟ أي إذا قامت بعض الأحداث السياسية وسط التباينات الدينية، فمن المعقول الافتراض أن الأمير سيسعى، على الأرجح، إلى الاستفادة منها ليحقق في الشرق أملاً لم يستطع تحقيقه في وطنه الأم. والسلطنة العثمانية في نظر عبد القادر تنهار من جميع الجوانب، وما من شيء ينهضها أياً كانت الجهود القائمة لإعادتها إلى الحياة لأنها لم تعد قابلة لها. هل هو على صواب؟ هل هو على خطأ؟ هذه هي أفكاره؛ وإذا كان فعلاً لديه هذه الطموحات التي ننسبها الآن له، فسيأتي وقت إن لم نكن على حذر فيه، يندفع فيه إلى تحقيقها مع فرصة كبيرة للنجاح.

من جهة أخرى، ففي حالة حرب، تصبح بعدها معاهدة ١٥ نيسان ـ ابريل ١٨٥٦ رسالة ميتة (وهذا افتراض بحت لايمكنني أن أصرح به إلا بتحفظ كبير)؛ قد يأتي يوم يكون فيه من المناسب جداً لفرنسة وجود رجل مثل عبد القادر في قلب سورية، يستطيع سواء كأداة أو كحليف، أن يطرح ثقله في ميزان مقادير السلطنة العثمانية.

إنني أشعر أن موضوعاً بمثل هذه الحساسية يفرض علي التحفّظ، لذلك أتوقف خشية أن أهرف بما لا أعرف.

أصل الآن إلى موضوع شخصي تماماً، وتبدو لي أهميته ثانوية جدّاً، إلا إن وجدت علاقات بينه وبين التصرفات المحيطة به، التي يُحَسُّ بها أكثر مما يمكن التعبير عنها، إذ أنّها بالكاد تقبل الالتقاط في دقائقها حتى بالنسبة للملاحظ اليقظ. وإليكم هذا الموضوع:

كان عبد القادر حتى الأوقات الأخيرة يبدي لي ثقة تكاد تكون بدون حدود مما يسهّل قيامي بمهمتي قربه ويضمن لها النجاح، لكن الدِيَرة انتابتها الشكوك بي وعبّرت في ظروف عديدة عن عدم رضاها وحسدها؛ وهكذا استخدمت مختلف الوسائل الصغيرة، دُبّرت الدسائس المنحطة ليحترس الأمير مني، إنما بدون نتيجة، وكنت ازدري مناورات هؤلاء الدسّاسين الصغار، غير مهتم بتأثيرهم الخبيث، وكنت على خطأ في تقدير أهميته، لكن خطئي مبرر، فأنا المتسهدف الوحيد والموضوع يتعلق بمصلحة شخصية.

للأسف لم يهدّئ ازدرائي المكيدة، واستمر الافتراء يستهدفني وانتهى إلى الحصول على بعض النتائج إذ لاحظت في الفترة الأخيرة شيئاً من الضعف في ثقة الأمير بي، وحتى بعض البرود في علاقته معي، ورغبت في أن أعرف سبب هذا التغيّر الذي فاجأني فعمدت إلى مصارحة الأمير بشعوري لكنني لم أحصل منه على الإجابات الحاسمة التي كنت أتوقعها، لذلك رجوته، مادام الأمر قد بلغ هذا الحدّ، أن يطلب استدعائي، وهذا ما سيفعله، إن لم يكن قد فعله، إلا إن كانت هناك اعتبارات خاصة تمنعه، ولكن ما ثبت لي وقام عليه البرهان، عَرَضاً، هو أننا لم نعد على ذات المستوى من الثقة.

أمام هذا الوضع المؤسف وغير المتوقّع، يجب أن أضع جانباً كما سبق أن فعلت كل تفكير بالمصلحة الشخصية لأنصرف إلى ما يتطلبه واجب المهمة التي عهدتم بها لي وملأته حتى الآن، ولا أعتقد أنني جدير به إن لم أرجُ معاليكم التكرّم باستدعائي، وتسمية خلف لي إن رأيتم ذلك.

يبدو الوضع المالي للأمير في حدّ الكفاية فقط، فلعبد القادر نقاط ضعفه، فهو يسهّل استغلاله مادياً، فتضيع مبالغ كبيرة منه بتأثير حاشية طمّاعة جشعة؛ تستثمره

دون خجل، وأتساءل غالباً إلى أين سيؤدي هذا التنازل المؤسف لولا النصائح التي يحيطه بها المخلصون له. وصحته تتراوح بين الجودة والضعف وهي أقرب إلى الضعف، ويبدو أنّه يعاني من سبب مَرَضي مستمر يثير تكهنات غريبة.

ليسمح لي صاحب المعالي، مع انتهاء تقريري، أن ألحّ على استدعائي، لأن الثقة الكليّة للأمير هي الشرط الأوّل للمهمة الدقيقة المكلّف بها،ومادام الضعف قد تسرّب إلى هذه الثقة، فإنني أجد من واجبي أن أطلب استدعائي.

يشرفني أن أكون مع عميق احترامي لمعاليكم خادمكم المتواضع المطيع.

جورج بولاد

الوثيقة رقم ٩

تقرير بولاد الثالث. بتاريخ ١٢ تشرين أول ١٨٥٧

(تقرير موجّه إلى وزارة الشؤون الخارجية ـ أرشيف الشؤون الخارجية ـ تركية ـ دمشق (١٨٥٧ ـ ١٨٥٩) وتميمي «مجلة الشؤون المغربية ١٩٧٩، ص٣٤١ ـ ٣٤٣).

في تقريري بتاريخ ١٨٥٧/٩/١٤، وتقريري الآخر بتاريخ ٣٠ آب ـ اغسطس، عبرت عن مخاوف لم تثبتها الأحداث لحسن الحظ، وأنا الآن أذكر الهدوء الذي أعقب هيجان الخواطر بين الأشخاص المكلف بمراقبتهم: فقد مرّ غليان اللحظة مع الوضع الذي ولّده، وعاد كلّ شيء إلى حاله، وعبد القادر نفسه الذي لم يتراجع عن التصرف كرجل حكيم رصين، عاد عن وضع الارتباك والتردّد حيال سير الأحداث، وهو يفكر الآن أكثر من أي وقت مضى في الاستثمار الزراعي الذي يشغل تحقيقه أفكاره منذ نحو سنة، إنّما بدون نتيجة حتى الآن، رغم مساعي السيد أوتري العديدة في دمشق، ومؤخّراً في القسطنطينية بالذات لمساعدته في مسعاه، إذ يبدو لي من المشكوك فيه منحه حق الاستثمار الذي طلبه في قرية كفريم قبل انقضاء مدة طويلة، هذا إن تمّت الموافقة عليه، إذ أن عراقيل عديدة توضع في طريقه، ويبدو أن الأتراك لاينظرون بعين الرضا لهذا المشروع، وهم أبعد ما يكون عن تذليل الصعوبات أمامه، بخلق أخرى جديدة كلّما تمّ التخلّص من إحداها ليتم الانتهاء إلى عدم قبوله. لذلك تبدو شكوى عبد القادر بديهية ضد تصرفات الوالي عزت باشا الذي لايستجيب له بل بالعكس يبدي معارضة لمطالبيه.

تجدر الملاحظة أن عبد القادر في سعيه الحثيث للحصول على هذه الرخصة، إنما يرغب في تأمين عمل للعديد من الأشخاص الملتحقين بخدمته دون فائدة منهم، أكثر منه لتأمين مصلحة مادية له. وكذلك لمجابهة الحاجات العديدة لعائلته، وأخوته، وأقاربه، وأتباعه المخلصين الذين لايسمح لنفسه بالتخلي عنهم، أياً كان التقليص الذي يجريه على الأشخاص من حوله، إذ يستحيل عليه إبعاد من ضحّوا بكل شيء، بعائلاتهم، وأرزاقهم من أجله. ومن بين هؤلاء وعلى رأسهم يتميّز أكثرهم إخلاصاً

وأكثرهم غنى سابقاً خضور العال أحد قوّاده، الذي يبدو لي، ولأعترف صراحة، أن الإدارة الجزائرية قد ظلمته بمصادرة أملاكه في زمن السلم، وبعد إطلاق سراح الأمير. لقد أحسَّ عبد القادر بحزن عميق لأن بعض جنرالاتنا في أفريقية لا يكنّون له الودّ، واعتبَرَ، خطأ أو صواباً، أن الضربة الموجّهة لقائده السابق هي ضربة معنوية له، فهذا الإجراء الذي قرّر منذ سنتين ونفّذ منذ عدة أشهر فقط أحدث تأثيراً سيئاً في أوساط المغاربة في دمشق وبما أن ليست المناسبة هنا للتفصيل في هذا الموضوع، فإنني أتركه جانباً للعودة إلى تلك المتعلقة بصورة خاصة بالأمير.

أتشرف بأن أعرض لمعاليكم مسعى للأمير عبد القادر لدى سمو سعيد باشا نائب السلطان في مصر، الذي أبدى في مناسبات عدَّة الرغبة في التعبير لعبد القادر عن أريحيته حتى أنه منح المغاربة المقيمين في القاهرة تسهيلات خاصة تشير إلى تعاطفه معهم، عندما عرفت بذلك، وعرفت أن الأمير قد قرّر أن يستفيد من هذه المبادرة أعلمت السيد أوتري مفترضاً أن مسعى من هذا النوع فيه بعض مسٌ بنا، بالرغم من أنني لاأجد في الواقع من وجهة نظر أخرى أي محذور في رؤية أمير مسلم يبدي أريحية لمصلحة عائلة يجعلها تقاها وبلواها عزيزة على المسلمين جميعاً، لذلك اقتصرت على أن أوصي عند القيام بهذا المسعى ألا يبدو وكأنه شكوى من معاملة فرنسة للأمير، بل بالعكس أن يكون مناسبة للاشادة بكرم وطيبة الإمبراطور نابوليون الثالث، وكان من السهل الحصول على هذا التنويه الذي روعي بدقّة. ولكنني آسف لإضافة أن الأمير مايزال ينتظر نتيجة هذا المسعى الذي يهدف لشراء أرض ذات قيمة ما في ضواحي دمشق.

من ملاحظاتي حول طريقة تصرّف الأمير، أذكر أنه يهتم كثيراً بالمجاملات وكل ما يتعلّق بها؛ وأنه يهمل أحياناً إرضاء تلك التي يجب أن تحتل المكان الأوّل فالرجل يرتاب في الحكم عليه رغم تفوّقه، وهو يعتقد أنه الآن أقل اعتباراً في نظر العرب، وأن ليس له ذات التقدير عندهم، وهذا ما يجعله يخشى كثرة الاختلاط بالمسيحيين إلا في الزيارات الرسمية، وفي أوقات يفترض فيها أنه لم يشاهد من قبل المسلمين، وما فتئت أردّد على مسامعه أن للأحكام ضرورتها ويجب الامتثال لها سواء أردنا أم لم نرد، ولكن يجب الاعتراف بأن قولي يذهب في مهب الريح؛ فهو عنيد بطبعه، رغم المظاهر، فضلاً عن أنه يتصوّر أن الأتراك سيكونون ممتنين له على هذه المراعاة؛ وهو في

هذا منخدع تماماً. ويجب أن يعلم أن الأفضل له عدم الاهتمام بمداراة الناس، وأنهم ليسوا له، ولن يكونوا أبداً عوضاً عن أولئك الذين يقدّمون له الكثير. وما يغيظني أكثر من كلّ شيء هو أنه لايرفض أبداً النصائح التي تعطى له، لكنه لايأخذ منها إلا ما يحلو له، ويطرح معظمها غالباً، وهكذا فإن مهمتي في هذا المجال تبدو دون جدوى، إذاً يجب أن أقتصر في التحدّث إليه كناصح بعد أن لم أعد أحظى لديه بالثقة الحقيقية المرغوبة. هذا يعني أن علاقاتي معه منذ تقريريّ الأخيرين في ٣٠ آب ـ اغسطس و ١٤ أيلول ـ سبتمبر لم تسترجع ما فقدته. وبالمقابل يسعدني أن أذكر أن علاقاتي وطيدة جدّاً مع القنصلية الفرنسية؛ لكن بالرغم من أنها مع الأمير لم تصل إلى درجة التنازل وطلب التخلي الذي أردته، فإنني على ثقة أن سيأتي يوم سيعود فيه إلى الإطمئنان بدون تحفُّظ للمشاعر التي سيحسّ بها والتي ستمليها عليه مصلحته الخاصة بالطبع. ملاحظة أخرى تجد مكانها هنا أيضاً، وهي إن للأمير هوس مؤسف في التظاهر بالفقر، من المعروف أنه يراعي البساطة في ذوقه وملبسه وتصرفاته وهذا أمر طبيعي فيه، أو هو على الأقل مألوف، لكن ما هو أبعد من ذلك ظهوره بمظهر الفقير، والدرويش، والرسول، وعدم ادخار أي فرصة لزيادة شعبيته وشهرته كوليّ بارّ، وهو يضحي بالكثير من أجل نشر هذه الفكرة المسيطرة عليه، والتي لاتبدو لي أنها مبرّرة إذ يخيّل لي أنها غير صادرة عن ميل حقيقي، إنّما هي وسيلة لادّعاء ما ليس في الصميم. يقال عنه إنه متقشف في عاداته، لكن ما يريده ويبذل من أجله كل تضحية هو أن يظهر كرجل ناسك، بينما كل دمشق تعرف أنه ليس كذلك؛ والتفاصيل يمكن أن تعطي مستوى تغيّر في طبعه الذي تدنّى حالياً في بعض نواح، وقد كان فيها أسمى بكثير في أوقات أخرى كانت لالا زهرة، والدته العجوز، مريضة بشكل خطير خلال خمسة عشر يوماً بحيث توقّعنا وفاتها، لكنها تحسّنت في الوقت الحاضر. كما أن تحسناً ملموساً طرأ على صحة الأمير.

أختصر ببعض كلمات: هدوء مطمئن للنفوس أعقب الهيجان المشار إليه في السابق وضعٌ ماليّ في حدود الكفاية، حالة صحيّة مرضية بشكل عام. وما عدا ذلك، لاشيء يستحق التنويه باستثناء ما ذكرته بالتفصيل.

يشرفني مع عميق احترامي لمعاليكم أن أكون خادمكم المتضّع المطيع.

جورج بولاد

الوثيقة رقم ١٠

عبد القادر: رأيه في موضوع الزواج والطلاق: من ردّه على أسئلة للسيد دوما حول وضع المرأة العربية[1]. والنص موجود في «التحفة» في الزواج:

إن المسلمين؛ لايتزوج أحدهم، إلاّ بعد النظر، إلى مَن يريدها، من النساء. أو يرسل امرأة عاقلة، عارفةً بما يستحسنه الخاطب، ويستقبحه، من صفات النساء، وأحوالهن؛ فتنظرها. ثم تخبره: بما رأته من صفاتها، وأحوالها. واعلم: أنَّ شرع الإسلام؛ لايمنع من النظر. بل يجوز للرجل، إذا أراد أن يتزوج بامرأة؛ أن ينظر: إلى وجهها، ويديها، ورجليها. كما يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل، الذي تريد أن تتزوج به. وقد ورد في الحديث الشريف: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد أحدكم، أن يتزوَّج بامرأة؛ فلينظرها. فإن بذلك؛ تدوم الألفة والمحبة بينهما». ومن كلام العرب، في هذا المعنى: كلُّ نكاح، وقع من غير رؤية؛ فعاقبته همٌ وغمٌّ. فالتزويج من غير رؤيةٍ غَرر. والغرر؛ يكون في الجمال، وفي الأخلاق. فالغرر في الجمال؛ يزول بنظر، كلٌّ من الرجل والمرأة، إلى الآخر. والغرر في الأخلاق؛ يزول: بسؤال الجيران، ومن يخالط كلاً منهما. ولايصدق في الخبر، عن الجمال والأخلاق؛ إلاّ من كان عالماً بهما، صدوقاً في خبره، لايميل إلى أحد الطرفين؛ فيزيد في المدح. ولايحسدهما؛ فيقصِّر في الوصف، دون ما هو كائن. ومن كلام العرب: أربعة، لاتقدم عليها، حتى تسأل الخبير بها عنها:

المرأة، لاتخطبها؛ حتى تسأل: عن منصبها، وخَلقها، وخُلقها. والطريق، لاتسلكها؛ حتى تعرف أنها مأمونة، أو مخوفة.

والبلد، لاتستوطنها حتى تطلّع على سيرة سلطانها، وأخلاق أهلها.

والسوق، لاتقصدها؛ حتى تعلم نافقها من كاسدها. ومن كلامهم: الندامات ثلاثة: ندامة يوم، وندامة سنة، وندامة العمر. فندامة اليوم؛ بأن يخرج الرجل، قبل

---

١ ـ إن رأي الأمير هنا تقليدي تماماً: وقد كان له في نهاية حياته رأي آخر، وللأسف من الصعب تفسير الأفعال المحرّرة بوثائق: وأنا أعلم أن كان له على الأقل تسع نساء، وهو مقتنع آنئذ، أن مختلف أنواع الحبّ التي تختلج في الكائن البشري ليست قابلة للتفريق لأنه جسم فيه روح ونفس. والحب يظهر لديه وفق ثلاث طرائق فيزيائية، وروحية، والهية يعيها بالتحكّم في كل منها. وهكذا بالنسبة إليه، يقود حب المرأة إلى اندماج ووجد عبر التعرّف على الذات في الآخر، لكن هذا الاتحاد عابر وهو يظهر لفترة فرق كل واحد. والاتحاد مع الله وحده هو الذي يلغي الثنائية.

الغذاء. وندامة السنة؛ بترك الزراعة في وقتها. وندامة العمر؛ بأن يتزوّج الرجل، من غير نظرٍ. ولاسؤال خبير.

في الطلاق:

الغالب؛ خفاءُ بعض عيوب الزوجين، من الرجل والمرأة، إمّا في الخلقة أو الطبيعة. فإذا ازدوج الرجل والمرأة، وتعاشرا، أو اطّلعا على ما كان خفياً مغيّباً؛ ربّما يظهر بعض العيوب، لأحد الزوجين. فجعل الله الطلاق؛ راحةً للّذي يحبُّ الفراق منهما. وجعل الله الطلاق بيد الرجل؛ لشرفه. وأذن الله للمرأة: أن تطلب الطلاق من زوجها؛ إذا حصل لها، من جهته، ضررٌ.

والطلاق؛ مباحٌ في الأديان القديمة. ففي التوراة، في الإصحاح الحادي والعشرين، في سفر الخروج: إن استقبح سيّدها زواجها؛ فيطلّقها. وفي سفر الأحبار، في الإصحاح الثاني والعشرين: إن طلّقت بنت الكاهن، ولم يكن لها أولاد، ورجعت إلى بيت والدها؛ تأكل من القدس. فعلم من هذا: أن الطلاق؛ ليس خاصّاً بالمسلمين.

وفي الطلاق؛ منافع وأضرارٌ. أمّا المنافع؛ فكما ذكرنا... وأمّا الأضرار فكما ذكرتم. وهو مباحٌ؛ إذا لم يحصل منه إيذاء للمرأة بالباطل. وعلى كلّ حال، فإنه لايخلو من الأذى. ولذلك قال رسول ﷺ «تزوّجوا، ولاتطلّقوا. فإن الطلاق؛ يهتزُّ منه العرش». وقال: «تزوّجوا ولاتطلّقوا. فإن الله؛ لايحبُّ الذوّاقين، الذوّاقات» لأن المقصود من النكاح: النسل، ودوام العشرة، وحصول الألفة. والطلاق؛ يهدم جميع ذلك. ومن منافع الطلاق، من جهة أنّ الرجل؛ ربّما لاتوافقه المرأة لعيبٍ في خلقها، أو طبيعتها. فإذا لم يطلّقها؛ يبقى معذّباً بها، مشغولاً ظاهراً وباطناً بسببها. يقول العرب، في المثل: إذا لم يكن وفاق؛ ففراق. ويقولون: دواءُ ما لاتشتهيه النفس؛ الفراق. والعيش؛ لايطيب بين اثنين من غير اتفاق. ويقولون: قلع الضرس المسوّس؛ يريح. ومن طلّق امرأة السوء؛ يستريح. فالطلاق؛ راحةٌ للرجل، إن كانت امرأته خبيثةً أو معيبةً. وراحةٌ للمرأة؛ إن كان زوجها خبيثاً أو معيباً. والرجل، إذا طلّق امرأته، وكان بينهما أولاد؛ فإن الشرع أوجب على الزوج: أن ينفق عليها، وعلى أولادها منه؛ حتى يبلغ الولد، إن كان ذكراً. وحتى تتزوّج البنت، ويدخل بها زوجها. فلا ضررَ على الأولاد؛ إذا طلّقت أمّهم، وكان أبوهم؛ متّبعاً للشرع.

الوثيقة رقم ١١

رسالة من شارل هنري شرشل إلى نابوليون الثالث ١٨٦٧
إلى نابوليون الثالث
ملك الفرنسيين

سيدي.
يطمح بعضهم إلى الحظوة المجيدة في أن يتحدثوا عن الشجاعة والفطنة والكفاءة التي توجّهون فيهاأقدار فرنسة الإمبراطورية.
التمستُ، وأعتز بأنني حصلت من يديك على حظوة أكثر تواضعاً، لكنها تكاد لاتكون أقل مجداً، في أن أقدّم إليك مؤلّفاً يعظّم الأعمال الكبرى، ويصف الطبيعة الشهمة لأحد الرجال الأكثر تميّزاً بين من خلّفهم الشعب العربي على مرّ العصور، وهو يروي بشكل غير كاف، وغير واف بالغرض، في الواقع، سمو المبدأ ونبل العاطفة الفروسي، والعناية الغيور بالشرف الفرنسي التي قادتك إلى تحريره تلقائياً، وبدون شروط، من اعتقاله الغادر على الأرض الفرنسية. هذا العمل استهلال جدير بروعة ملكك. هذا العمل وحده يكفي لمنحه بريقاً خالداً.

شارل هنري شرشل

الوثيقة رقم ١٢

ملحق محضر جلسة ٣١ تموز - يوليو ١٨٨٤ في مجلس الأعيان (رقم ٣٥٩)

تقرير باسم لجنة المالية المكّلفة بدراسة مشروع القانون المقرّ في مجلس النواب الهادف إلى منح أسرة الأمير عبد القادر معاشاً تقاعدياً مقداره ٨٠٠٠٠ فرنك سنوياً وهو معدّ من قبل العين سان فاليه **Saint Vallier**.

أيّها السادة.

قدّمت الحكومة لمكتب مجلس الأعيان مشروع قانون يهدف إلى الموافقة على منح عائلة الأمير عبد القادر معاشاً تقاعدياً مقداره ٨٠٠٠٠ ف، وقد أقرّ هذا المشروع في مجلس النواب بتاريخ ٢٢ تموز - يوليو الفائت.

في عرض الأسباب الموجبة تذكر الحكومة أن عبد القادر كان يتقاضى راتباً مقداره ١٥٠٠٠٠ ف تمت الموافقة عليها بسخاء من فرنسة إلى عدو قديم غدا مدافعاً صادقاً وأميناً لسياستنا ومصالحنا منذ اليوم الذي وثقنا فيه بكلمته ومنحناه حريته وسمحنا له بالاستقرار في دمشق. ومازال الخدمات التي قدّمها الأمير للإنسانية، والمسيحية، والحضارة خلال مذابح ١٨٦٠ ماثلة في ذاكرة الجميع كما أن سلوكه قبل وبعد تلك الأحداث المأساوية والذي حافظ عليه حتى موته الذي حدث منذ مدة قريبة يستحق مديحنا وامتناننا.

وهكذا ترى الحكومة أن هناك أسباباً عادلة للموافقة على منح العائلة الكبيرة العدد التي خلّفها الأمير بادرة حسن التفات بمنحها قسماً من الراتب الذي كان مخصصاً لرئيسها، وهي تبرّر هذا الإجراء السمح بذكرى الخدمات التي قدّمها الأمير وباعتبارات سياسية تتعلق بنفوذنا في سورية.

لقي مشروع القانون معارضة شديدة من قبل بعض خطباء مجلس النواب، واستند معارضو المشروع، لمحاربته، على سلوك كبيري أولاد الأمير تجاهنا، فأحدهما وهو محيي الدين قد اشترك في الفتنة التي حدثت العام ١٨٧١ في الجزائر وكان محرّضاً على عدة تمرّدات ثارت ضد سلطتنا، لكن والده استنكر عمله ولعنه في رسالة معلنة. كما أن الآخر محمداً لم يكن أفضلّ تصرّفاً، وقد شارك في الاضطرابات المتزمتة التي

نشبت في برقة ضد استقرارنا في تونس؛ وقد تلقى أحدهما على الأقل إن لم يكن كلاهما معونات مالية من تركية لهذا الغرض، وإن كانا قد تراجعا، وأظهرا التوبة، فهذا تصرف جديد بدر منهما. أما بقية العائلة، فيقال إنّها منذ موت عبد القادر لاتتمتع بأي اعتبار في سورية، وليست على مستوى تقديم أيّ خدمات لنفوذنا هناك. أخيراً اعترض على علو الرقم، وطلب تخفيضه على الأقل بـ ٢٠٠٠٠ ف وهو المبلغ المعادل لنصيب الأخوين الأكبرين غير الجديرين بمعونتنا ويجب حرمانهما منها. دافع السيد رئيس مجلس الوزراء عن مشروع القانون وبيّن الأسباب ذات الصبغة السياسة التي دفعت الحكومة إلى تقديمه وبالتالي رغبتها في إقراره، مستنداً على سلطة وشهادة سفيرنا في القسطنطينية، ومندوبينا في سورية وقد صرح بوجود مصلحة جدّية لنا في إظهار ذات الكرم ودلائل الحماية الممنوحة لوالدهما، وقد اعترض على الرأي القائل إن العائلة فقدت اعتبارها في سورية وما كان لها سابقاً من مكانة بين المسلمين؛ ووعد أخيراً أن يؤخذ بالاعتبار، عند توزيع هذا المبلغ الذي سيتم بقرار وزاري، بناءً على اقتراح سفيرنا في القسطنطينية وأخذ رأي قنصليتينا في بيروت ودمشق، سلوك كل فرد من أفراد العائلة، الذي لن يستفيد من كَرمنا إن كان موقفه يثير أي شبهة، وبالتالي فإن الولدين الأكبرين اللذين بدرت منهما أعمال ومشاعر عدائية سيحرمان من هذه المخصصات عند إقرارها.

ألح رئيس مجلس الوزراء على رقم ٨٠٠٠٠ ف وذكر أن هذا المبلغ سيوزع على الأولاد الأربعة عشر غير الولدين الأكبرين، وبالتالي فسيكون نصيب كل منهم ضعيفاً، وإذا أضيف له المبلغ المخصّص في البدء للولدين الأكبرين والذي سحب منهما، فيمكن زيادة نصيب من تتجاوب عواطفه ويعبّر في تصرفاته عن خدمات ملائمة لنا.

إن لجنتكم أيّها السادة قد درست بعناية مشروع القانون والأسباب المبرّرة له، وتابعت باهتمام مناقشته في مجلس النواب، واطّلعت على الاعتراضات المقدمة من معارضيه، وردود رئيس مجلس الوزراء بشأنها، وتجد من واجبها أن توصي بالموافقة على المشروع.

إنها لم تستطع في الواقع تجاهل الأسباب السياسية التي ذكرتها الحكومة وهي تعرف مدى أهمية دعم نفوذنا في سورية، وتأثيره على سلطتنا في الشرق ووضعنا الخارجي بحيث لايمكن إهمال أي وسيلة لدعمه وتوسيع قواعده والواقع، حتى وإن

صحّ الادّعاء بأن عائلة عبد القادر قد فقدت بعد موت عميدها قسماً من أهميتها، وفاعليتها؛ فمن المؤكد أن منزل الأمير سيبقى المركز، والركن العام والملاذ ومكان اللجوء للعديد من العرب الافريقيين المقيمين في سورية، فهذه الجالية التي وفدت من الجزائر وتونس ومراكش لتلتحق بعبد القادر تتألف من فئات مختلفة: حجاج ومهاجرين تجمعوا شيئاً فشيئاً حوله وحافظوا بالنسبة لعائلته على العاطفة التقليدية والعميقة التي كانوا يحيطونه بها؛ وهم مستمرون في المجيء إلى بيت الزعيم يطلبون الدعم والنصيحة؛ والإجلال الذي يكنونه لذكراه سيمتد إلى أولاده الذين سيسعون إلى تحديد اتجاههم والمحافظة على نفوذهم.

يقدّر مندوبونا بـ ٤٠٠ عدد الأقارب والأصدقاء والخدم الذين عاشوا في كنف الأمير و ٤٠٠٠ عدد العرب الإفريقيين الذين كان يمارس عليهم نفوذه، وهذه المجموعة الكبيرة غدت كالزعيم الذي تحترمه محميّة من قبل فرنسة فقد عوّدها عبد القادر أن تتوجّه إلى قنصليتنا تطلب العون والدعم، وترى فيها السلطة، إنهم المحمديون الذين يعتبرون أنفسهم موضوعين تحت وصاية فرنسة، وينتظرون منها الدعم والعدالة عندما يتعرّضون للمضايقات، ويتحوّلون إليها بأفكارهم وآمالهم عندما يشعرون بالتهديد، وهم يعيشون مختلطين مع فئات أخرى عديدة وخاصة مع البدو الذين يشكّلون قسماً من سكان سورية المسلمين، وقد عرّفوهم على فرنسة، وعظمتها؛ وحسناتها، وفعالية حمايتها. فهم يشكّلون إذاً عنصراً هاماً من عناصر نفوذها ونحن نرتكب خطأً سياسياً بتحطيم إحدى الروابط التي تربطنا بهم أو بالتخلي عنها، وهذه الرابطة هي بيت عبد القادر وعائلته.

هل نحتاج إلى إضافة القول: إن هؤلاء العرب الأفريقيين الذين اعتادوا الاعتماد على حمايتنا، واللجوء إلى قنصلياتنا عندما يكونون ضحايا أحد أعمال العنف أو فقدان العدالة الكثيرة الحدوث في الشرق، لن يتأخروا، إن شعروا بإهمالنا لهم، في الاستجابة إلى نداءات وجهها إليهم في مناسبات عديدة بعض المندوبين الأجانب الذين يحسدوننا على نفوذنا وسلطتنا في سورية.

هكذا أيّها السادة فإن هذه الأسباب الوجيهة تتغلب في نظرنا على الأسباب الثانوية التي ذكرت من أجل معارضة مشروع القانون، ونأمل مع رئيس مجلس الوزراء الموافقة على منح عائلة عبد القادر إعانة مالية دائمة تحافظ على وضعها السابق كعائلة محميّة

ومؤمّنة في معيشتها اللائقة من قبل فرنسا، ونحن نعتمد على وعد الحكومة القاطع بأن تقتصر معونتها على أبناء الأمير الذين يبرهنون بمشاعرهم وإخلاصهم على تعلّقهم ببلادنا، وأن تسعى إلى استبعاد غير المستحقين والمعارضين، وتعمل على تكليف مندوبينا في سورية بممارسة مراقبة فعالة للتأكد من أن هذه المعونة لن تذهب من فرنسة إلا لأصدقائها والعاملين لمصالحها. يشرفنا إذا أن نقترح الموافقة على مشروع القانون المرافق والتالي نصه:

مشروع قانون

مادة اولى.

يخصَّص لوزارة الشؤون الخارجية للسنة المالية ١٨٨٤، إضافة إلى الاعتمادات الموافق عليها بقانون الميزانية العامة بتاريخ ٢٩ كانون أول ـ ديسمبر ١٨٨٣، اعتماد استثنائي مقداره ٨٠٠٠٠ ف يصنّف في القسم الثاني (خدمات عامة للوزارات) تحت عنوان: فصل ٢٢، إعانة لأعضاء عائلة عبد القادر).

يؤمّن هذا الاعتماد الاستثنائي بواسطة الموارد العامة للميزانية العادية للسنة المالية ١٨٨٤[1].

١ ـ هذا النص موقّع عليه من جول غريفي Jules GREVY وجول فرّي J. FERRY.

الوثيقة رقم ١٣

رسالة عبد القادر إلى دوماس بتاريخ ٨ تشرين ثاني - نوفمبر ١٨٥١. وهي تتضمن رأيه في الخيول العربية

مثبتة في مؤلّف دوماس (خيول الصحراء) وهذا المؤلف يتألف في أكثر من ثلثه من ملاحظات ومذكرات للأمير.

الحمد لله وحده، له الملك على الدوام.

السلام على من تعادل مزاياه كل فضائل رجال عصره، الذي لايسعى إلا إلى الخير، صاحب القلب النبيل، والوعد المنجز، الحكيم، العاقل، السيد الجنرال دوماس من صديقك السيد الحاج عبد القادر بن محيي الدين. هي ذي الإجابة على أسئلتك.

١ - تسألني كم من الأيام يمكن للحصان العربي أن يسير دون أن يرتاح ودون أن يبدو عليه الإرهاق؟

يستجيب الحصان العربي السليم الجسم، المغذّى جيّداً بالشعير، لكل ما يطلبه فارسه، وقد قالت العرب بهذا الخصوص.

إعلّف واستأنف.

لكن دون إرهاق للحصان يمكن أن يجري يومياً ١٦ باراسانج **Parasanges** وهي المسافة بين معسكر وكدية - غليظان علي وادي مينا. ويمكن للحصان الذي يُعلف جيّداً بالشعير أن يجري هذه المسافة يومياً بدون تعب لثلاثة أو أربعة أشهر دون أن يرتاح.

٢ - تسألني عن المسافة التي يمكن للحصان اجتيازها في يوم واحد؟

يصعب التحديد بدقة، لكن يمكن لهذه المسافة أن تقارب ٥٠ باراسانج أي المسافة بين تلمسان ومعسكر، وقد رأينا عدة خيول تجري هذه المسافة في يوم واحد، لكن يجب إراحة الحصان في اليوم التالي والسير به إلى مسافة أقصر في اليوم الثاني، وكانت خيولنا تقطع المسافة بين وهران ومعسكر في يوم واحد، ويمكنها أن تجري على هذا المنوال ليومين أو ثلاثة على التوالي. لقد انطلقنا من

سعيدة في الضحى (نحو الساعة الثامنة صباحاً) لنصل إلى أربعا المخيمين في عين تكرية (لدى أولاد عيّاد قرب طازه) ووصلنا إليهم مع الفجر. إنّك تعرف البلاد، وتعرف مقدار هذا الطريق.

٣ ـ تطلب أمثلة عن تحمّل الحصان العربي، وبراهين على قوّته وصبره على الجوع والعطش؟

ـ اعلم أننا عند إقامتنا على مصب الملويّة، كنا نقوم بغزوات في جبل آمور متّبعين طريق الصحراء، ندفع خيولنا في يوم الهجوم في جري سريع لخمس أو ست ساعات، وكنا نستمر في رحلتنا من ٢٠ إلى ٢٥ يوماً. ولم يكن يتسنى لنا تقديم علف الشعير للخيل خلال تلك المدة إلا لثمان علفات، وهي طاقة تزوّدنا، كما أن التبن غير متوفر أثناء ذلك؛ وإنّما الحلفا والشيح أو العشب في الربيع، غير أننا كنا نقوم عند وصولنا إلى قومنا بلعب الجريد، وعراضة إطلاق البارود، والخيول التي لاتتحمل هذا التدريب الأخير يستغنى عنها. وكانت خيولنا تبقى أحياناً بدون سقاية يوماً أو يومين، بل حدث في إحدى المرات أننا لم نجد ماء إلا بعد ثلاثة أيام. وخيول الصحراء أشد صبراً، ويمكنها أن تبقى ثلاثة أشهر بدون حبّة شعير في علفها، كما أنها لاتعرف التبن إلا في أيام شراء الحبوب في التلّ، وعدا ذلك فهي ترعى الحلفا أو الشيح، وأحياناً القطوف، والشيح أفضل من الحلفا، والقطوف أفضل من الشيح.

والعرب تقول:

الحلفا تساعد على السير.

والشيح يهيىء للقتال

أما القطوف فهو أفضل من الشعير.

قد تمر سنوات دون أن يتسنى تأمين الشعير في علف جياد الصحراء، عندما يحظّر على القبائل الوصول إلى التلّ. فيقدّمون عندئذ لخيولهم التمور لكن هذا العلف يسمّنها إنما تستطيع القتال والمشاركة في الغزوات.

تتساءل أيّهما أفضل انتظار الحصان حتى عمر أربع سنوات لركوبه كما يفعل الفرنسيون، أم ركوبه في وقت مبكّر كما يفعل العرب؟

إن العرب يقولون: إن الحصان كالإنسان لايتعلم إلا في وقت مبكر وإليك أمثلتهم بهذا الشأن:

العلم في الصغر كالنقش في الحجر

والعلم في الكبر كالعشّ على الشجر.

ويقولون:

الغصن الأملود يستقيم سريعاً

أما الجذع فليس لاعوجاجه تقويمُ

في السنة الأولى يدرّب العرب الحصان على القيد بالرسن ويسمونه جدّة وعندما يدخل في السنة الثانية يركبونه لميل أو اثنين، ثم إلى باراسنج، وبعد ثمانية عشر شهراً لايخشون من تكبيده التعب. عندما يدخل الحصان في سنته الثالثة، يربطونه ويتوقفون عن ركوبه، ويخلعون عليه غطاء مناسباً ويعلفونه جيّداً. وهم يقولون: في السنة الأولى: اربطه بحيث لايتعرض لحادث. فهو جدّة.

وفي السنة الثانية (تني) اركبه ليعرف ظهره التقوّس.

وفي السنة الثالثة (ربعة الثلاثه) اربطه مجدداً، فإن لم يصطلح فبعْه. إذا لم يركب الحصان قبل سنته الثالثة لن يكون صالحاً إلا للجري وهذا شيء أصيل فيه، والعرب يعبّرون عن ذلك بقولهم.

الجواد يجري بأصله.

٥ ـ تسألني لماذا تظهر في أنسال الخيل مزايا فحل النزو، بالرغم من أن قيمة الأفراس الأصيلة أعلى من قيمة الفحول؟

السبب ان من يشتري فرساً يأمل مع استخدامها أن تلد له عدة خيول أخرى، أما من يشتري حصاناً فلا يستفيد منه إلا في الركوب، والعرب تأنف من تقاضي دراهم لقاء نزو فحولهم لأفراس الغير وهم يقدمون هذه الخدمة مجاناً.

٦ ـ تسألني إن كان عرب الصحراء يمسكون سجّلات لأنساب خيولهم؟

لايهتم أبناء الصحراء الجزائرية، ولا أبناء التل بهذه السجلات، فالشهرة تكفيهم،

فأنساب خيولهم معروفة كأنساب فرسانها. وقد سمعت أن لدى بعض العائلات سجّلات لهذه الأنساب لكن لايمكنني أن أحددها، فمثل هذه السجلات معروفة في الشرق فقط كما تبيّن الدراسة التي سأرسلها لك.

٧ ـ تسألني من هي قبائل الجزائر الأكثر شهرة بنبل خيولها؟

ـ أفضل خيول الصحراء هي خيول هميان دون استثناء، فكل خيولهم ممتازة. إنهم لايستخدمونها لا للفلاحة ولا للحمل، إنما للجري الطويل والقتال، وهي أفضل الخيول في تحمّل الجوع والعطش والتعب. وبعد خيول هميان تأتي خيول هَرَار، والأربعاء، وأولاد نايل.

أفضل خيول التلّ في نبلها وجودة سلالتها، وجمال شكلها: خيول شليف وخاصة أولاد سيدي بن عبد الله (سيدي العربي) قرب مينا، وأيضاً خيول أولاد سيدي حسن، وهم فخذ من أولاد سيدي داهو الذين يسكنون جبل معسكر، وأجمل خيول الميدان هي خيول قبيلة فليتة، وأولاد شريف، وأولاد لكرود؛ وأفضلها للسير على الأرض المحصاة بدون حدوة خيول قبيلة الأساسنة في اليعقوبية. وينسب إلى مولاي اسماعيل سلطان مراكش الشهير أنه قال:

فليربُّ حصاني في المعاز وليسق من البياز

والمعاز منطقة في بلاد الأساسنة والبياز نهر يعرف أيضاً باسم فوفت يجري في أراضيهم.

كما أن خيول أولاد خالد مشهورة للمواصفات ذاتها: وقد قال سيدي أحمد بن يوسف بخصوص تلك القبيلة:

«ستبقى أطول الجدايل وأطول الجلايل موجودة لديكم حتى يوم القيامة». يعني بذلك الثناء على جمال نسائهم وأصالة خيولهم.

٨ ـ تقول: إنّه قد أُكّد لك أن خيول الجزائر ليست عربية، بل بربرية؟

هذا القول يرتد على صاحبه، فالبربر هم من أصل عربي.

وقد قال مؤلف شهير:

«سكن البربر المغرب، وهم جميعاً أبناء قيس بن غيلان، ومن الأكيد أيضاً أنهم

ينتمون إلى قبيلتين كبيرتين حِمَيَّريتين هما الصناهجة والقطّامة الذين أتوا إلى البلاد عند غزو افريقش ومالك».

ووفقاً لهذين الرأيين فالبربر هم عرب فعلاً والمؤرخون يذكرون تسلسل نَسَب معظم القبائل البربرية، أما بعد الفتح الإسلامي فلا حصر للعرب المهاجرين إلى المغرب. وعندما ساد العبيديون (الفاطميون) على مصر، انتقلت قبائل كبيرة إلى أفريقية ومنها «الرياح» وانتشروا بين القيروان ومراكش. ومن هذه القبائل جاء إلى الجزائر الدُواودة، والعيّاد، والمعديد، وأولاد ماضي، وأولاد يعقوب زرارة، وجندل، وعطاف، وحميس، وبراز، وشُبيهة، وفليته، ومجاهر، ومِهَل، وبني عامر، وهميان وغيرهم. وما من شكّ أن الخيول العربية لم تكن منتشرة مثل انتشار العائلات العربية. وفي زمن أفريقش بن كايف، كان سلطان العرب كبيراً، وامتد غرباً حتى حدود المغرب، كما في زمن شمّر الحُميَري، وامتد شرقاً حتى الصين، كما يشير بن قتيبة في كتابه «المعارف».

صحيح أن ليست جميع خيول الجزائر أصيلة في نسبها العربي: إذ أن كثيراً منها قد فقدت نبلها، لاستعمالها في حراثة الأرض، والدراسة، وحمل الأثقال، وأعمال أخرى مماثلة. كما أن الأفراس عرضت لغزو الحمير، وهذا ما لم يكن يحصل لدى العرب سابقاً. بل إنّهم يقولون: إن مجرّد سير حصان في أرض مفلوحة يفقده ميزاته. وتُروى بهذا الخصوص الحكاية التالية:

تلاحق عدوان وكل منهما يمتطي جواداً أصيلاً، وكان الهارب قد سبق مطارده بمسافة يئس الأخير من تداركها، لكنه صاح بخصمه:

«استحلفك بالله هل سبق لحصانك أن عمل في حراثة الأرض؟».

ـ عمل في ذلك لمدة أربعة أيام فقط.

ـ أما حصاني فلم يعمل في ذلك أبداً، قسماً بالنبي الأعظم سأتمكن من اللحاق بك.

واستمر في مطاردته، وعند نهاية النهار بدأت المسافة تضيق بين الهارب والمطارد إلى أن أدركه الأخير وتمكّن منه لأن حصانه «الذي لم يحرث» كان الأفضل.

اعتاد والدي تغمّده الله برحمته أن يقول: «زالت البركة من أرضنا منذ أن جعلنا

من خيولنا حيوانات حراثة وحمل أثقال. فالله لم يخلق الحصان إلا للعدو، والثور للحراثة، والجمل لحمل الأثقال ولن يربح الإنسان شيئاً إن غيّر في مشيئة الله».

٩ ـ تسألني أيضاً عمّا نتّبعه من قواعد في العناية بخيولنا وتغذيتها؟

اعلم أن صاحب الحصان يعطيه في البدء قليلاً من الشعير، ثم يزيد المعدل تدريجياً بكميات صغيرة، لينقصه بعد ذلك إلى معدل معقول يحافظ عليه.

إن أفضل الأوقات لعلف الحصان بالشعير هو المساء، إلّا إن كان الحصان على سفر، وما من فائدة لإعطائه في الصباح، ويقال بهذا الخصوص شعير الصباح يذهب إلى المزابل، أما شعير المساء فيذهب إلى الكَفِلين وأفضل طريقة للعلف بالشعير هي إعطاء الحصان العلفة وهو مُسَرّج، ومربوط، كما أن أفضل طريقة لسقايته تتم بورده الماء ممسكاً بزمامه. ويقال بهذا الخصوص:

الماء مع الزمام والشعير مع السرج.

ويفضل العرب الحصان الذي يأكل قليلاً، من غير أن يضعف، فهو كما يقولون كنز لايُثمّن.

سقاية الحصان مع طلوع الشمس تضعفه.

وسقايته في المساء تسمّنه.

وسقايته وسط النهار تحافظ عليه في حالة جيّدة.

وخلال أيام الحرارة الكبرى التي تدوم أربعين يوماً (السموم) لايسقي العرب خيولهم إلا كل يومين، ويزعمون أن لهذا الإجراء نتائج طيّبة. في الصيف، والخريف، والشتاء يعطون كدساً من القشّ لخيولهم، لكن يبقى الشعير هو العلف المفضل على أي مادة علفية أخرى.

وتقول العرب بهذا الخصوص:

لو لم نر الأفراس تنجب مهوراً لقلنا إن الشعير هو الذي أنجبها.

ويقولون: بسعة اشترِ، وبالشعير اجرِ.

كما يقولون: من اللحم المحرّم اختر أخفه.

اي اختر جواداً خفيفاً لأن لحم الجواد محرّم على المسلمين. كما يقولون:

لن تغدو فارساً إلا بعد أن تكبو أكثر من مرّة
والخيول الأصيلة لاتمكر بصاحبها.
والجواد في المربط شرف لصاحبه.
والخيول طيور لكن بدون أجنحة
وما من شيء يبعد عن الخيول.

ومن ينس جمال الخيول أمام جمال المرأة، فلن يعرف أبداً النجاح والفرس تعرف خيالها.

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه:
أحبب الخيل واعتن بها.
لاتدّخر في ذلك مشقّة. فمنها الشرف، ومنها الجمال.
إن يهمل الناس الخيل
أدخلتها إلى بيتي
وتقاسمت معها رغيف أطفالي،
وقامت نسائي بكسوتها بغلائلهن،
وتغطيتها بدثاراتهن،
ولقدتها كل يوم
إلى حلبات الصراع
أتصدى لأعتى البواسل
وهي مندفعة بي في عدوها العاصف.

أنهي رسالتي التي ينقلها لك أخونا ورفيقنا، صديق الجميع، المقدّم السيّد بوسّنا (بواسونه Boissonnet).

والسلام عليكم.

تاريخ

بيانات متقاطعة: كل شيء بدأ مع الحملة على مصر (١٧٩٨ ـ ١٨٠١): انظر هنري لورنس: بونابرت والإسلام، صدمة الثقافات: باريس، أرمان كولن، ١٩٨٩.

السنوات	فرنسة وأوروبة	المغرب والسلطنة العثمانية
١٨٠٧ ـ ١٨٠٨		مولد عبد القادر
١٨١٤ ـ ١٨٢٤		حسين، باي على تونس
١٨١٥	مؤتمر فيينا، والحلف المقدس وبدء التفكير بتقسيم العالم بين القوى العظمى	
١٨١٨ ـ ١٨٣٠		الحسين، داي على مدينة الجزائر
١٨٢٢ ـ ١٨٥٩		مولاي عبد الرحمن، سلطان على مراكش
١٨٢٤ ـ ١٨٣٠	شارل العاشر	
١٨٢٦ ـ ١٨٢٨		أول حج لعبد القادر إلى مكة
١٨٢٧		هزيمة نافارن (٢٠ تشرين أول) فرنسة وبريطانية وروسية تحطم الأسطول التركي المصري.
١٨٣٠ ـ ١٨٤٨	لويس فيليب	
١٨٣٠	مراسيم تموز ـ يوليو الأربعة والثورة التي أعقبتها	إنزال قوات فرنسية في الجزائر (١٤ حزيران ـ يونيو) والاستيلاء على مدينة الجزائر (٥ تموز ـ يوليو)
١٨٣١	فتنة شباط ـ فبراير	الاستيلاء على وهران (٤ كانون ثاني ـ يناير).
١٨٣٢	كوليرا، فتن تيير ـ غيزو ـ بروي	عبد القادر أمير على معسكر
١٨٣٣	قانون غيزو حول التعليم البدائي	
١٨٣٤	قانون حول الجمعيات، فتنة في ليون	معاهدة دي ميشيل
١٨٣٥	محاولات اغتيال، وقضايا	انتصار عبد القادر في مكتا (٢٨ حزيران ـ يونيو)

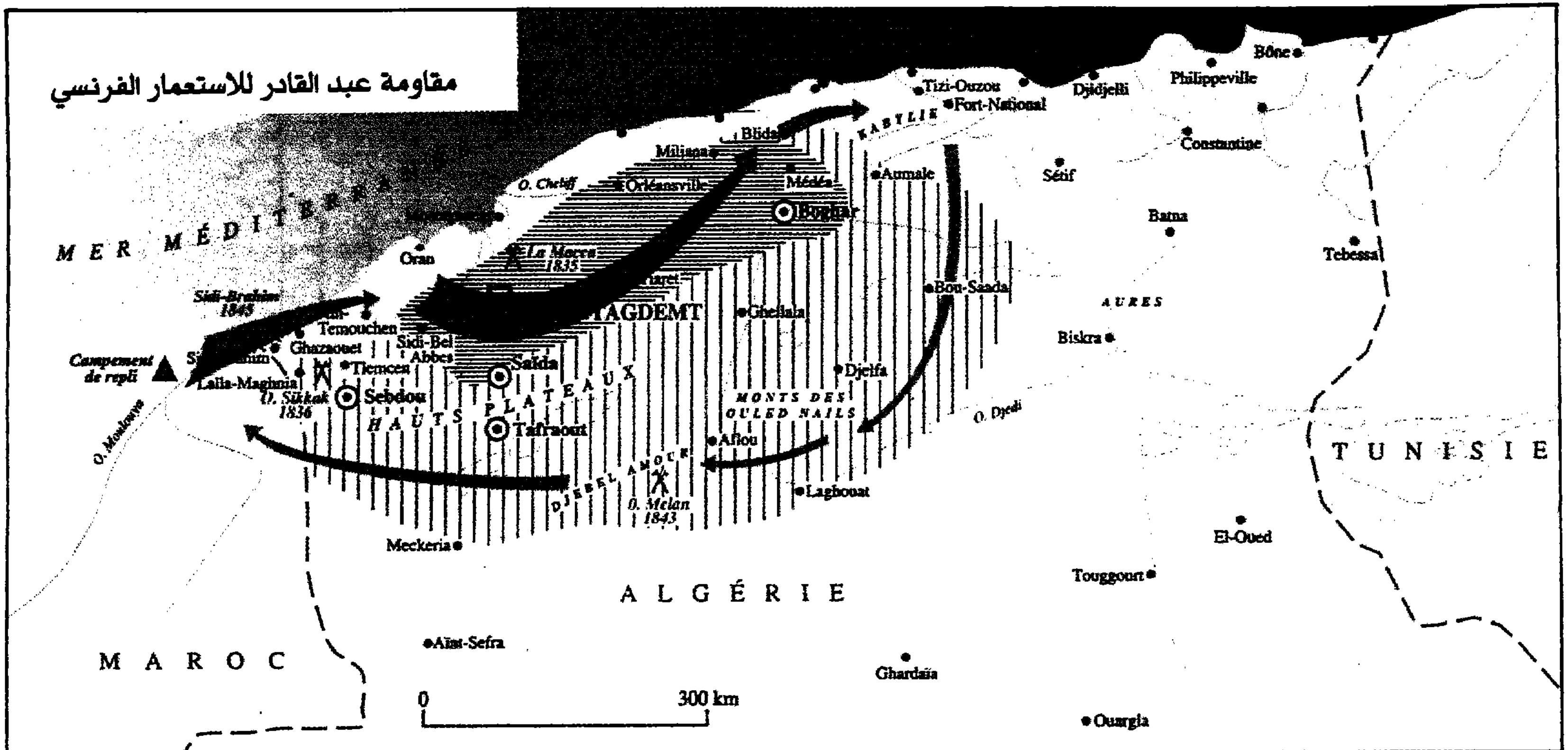
١٨٣٦	تيير، محاولة لويس بونابرت الاستيلاء على السلطة	دخول عبد القادر إلى تلمسان
١٨٣٧		معاهدة تفنا مع عبد القادر (أيار - مايو) والاستيلاء على قنسنطينة (١٣ تشرين أول - اوكتوبر)
١٨٣٧ - ١٨٥٥		أحمد باي على تونس
١٨٣٧ - ١٩٠١	فيكتوريا ملكة على انكلترة	
١٨٣٩	فتن في باريس	رفض الجهاد ضد عبد القادر ومذابح في ميتدجه، واعلان الجهاد (١٨ تشرين الثاني - نوفمبر) وفي القسطنطينية الفرمان السلطاني غولهان (٣ تشرين الثاني - نوفمبر) وبدء مرحلة التنظيمات.
١٨٣٩ - ١٨٦١		عبد المجيد سلطان في القسطنطينية
١٨٤٠	تيير ثم غيزو. محاولة جديدة لبونابرت	بوجو الجنرال السادس في الجزائر، حيث بدأ شكل حرب عصابات جديد.
١٨٤١	قانون لحماية عمل الأطفال	
١٨٤٢	قانون ينظم الخطوط الحديدية الفرنسية.	
١٨٤٣		الاستيلاء على زمالة (١٦ أيار - مايو)
١٨٤٤		معركة ايسلي (١٤ آب - اغسطس) معاهدة «الحدود» مع مراكش (١٠ أيلول - سبتمبر).

١٨٤٥	منح اليهود حق الانتخاب	
١٨٤٧	أزمة تموين عامة في أوروبة، «مشاريع» فتن، إضرابات، حملات الولائم	بوجو تيرك افريقية الشمالية (٥ حزيران - يونيو) بعد انتقادات وجهت له. ويحل محله دوما أومال. استسلام عبد القادر (٢٣ كانون أول - ديسمبر).
١٨٤٨	سقوط لويس فيليب (١٢ تشرين ثاني - نوفمبر) انتخاب بونابرت رئيساً (١٠ كانون أول - ديسمبر). عبد القادر سجين في طولون ثم في بو.	
١٨٤٩	منع تشكيل الجمعيات، وحق الاضراب والصحافة، نقل عبد القادر إلى آمبواز	عباس الأول يخلف محمد علي باشا في مصر
١٨٥٠	قانون الاستعمار في الجزائر (٣٠ تموز - يوليو).	
١٨٥١	اعادة انتخاب بونابرت تأسيس شركة النقل البحري. محاولة انقلاب (٢ كانون أول - ديسمبر) اطلاق نار. استفتاء (٢١ كانون أوّل - ديسمبر).	قانون حول ملكية أبناء البلاد في الجزائر (١٨ حزيران - يونيو).
١٨٥٢	قيام الإمبراطورية الثانية تأسيس مصرف الملكية العقارية. نابوليون الثالث يطلق سراح عبد القادر (١٦ أيلول - سبتمبر).	
١٨٥٣	هوسمن محافظ مقاطعة السين	عبد القادر يستقر في بروسه في تركية.

١٨٥٤ - ١٨٥٦		محمد سعيد نائب سلطان في مصر حرب القرم.
١٨٥٥	محاولة اغتيال بونابرت قوانين حول الملكيات الصناعية	دي لسبس يؤسس شركة قناة السويس (١٩ أيار - مايو) عبد القادر يستقر في دمشق.
١٨٥٦	مؤتمر باريس حول السلطنة العثمانية (شباط - فبراير / آذار - مارس)	الخطي الهمايوني (١٦ شباط - فبراير) نظام جديد للسلطنة العثمانية. سفر عبد القادر إلى القدس.
١٨٥٧		حلف في تونس: خير الدين وابن ابي ديال.
١٨٦٠	نابوليون الثالث: مشروع مملكة عربية في الجزائر	فتن دينية ومذابح في سورية ولبنان
١٨٦١		وصول الأسطول الفرنسي إلى بيروت (أيلول - سبتمبر) نظام خاص لحكم لبنان. بدء سلطنة عبد العزيز في القسطنطينية.
١٨٦٣		حج عبد القادر إلى مكة
١٨٦٣ - ١٨٧٩		اسماعيل نائب سلطان في مصر
١٨٦٤		عودة عبد القادر من الديار المقدسة
١٨٦٥	قرار مسيخي Senatus - consulte في الجزائر رحلة عبد القادر إلى أوروبة.	
١٨٦٧	معرض باريس العالمي عبد القادر في باريس	تسمية اسماعيل خديوياً في مصر
١٨٦٩		تدشين قناة السويس
١٨٧٠	قانون كرميو - الموافقة على حق المواطنية لليهود في الجزائر - الحرب البروسية - الفرنسية	

١٨٧١		ثورة المقراني في القبائل. السلطان عبد العزيز يؤكد السيادة العثمانية على تونس
١٨٧٦		مراد الخامس، ثم عبد الحميد الثاني، سلطانان في القسطنطينية.
١٨٧٧		أزمة البلقان
١٨٧٨	مؤتمر برلين (حزيران ـ يونيو/ تموز ـ يوليو)	السلطنة العثمانية تفقد قسمها الأوروبي
١٨٧٩		مولاي سليمان خديوي في مصر
١٨٨٠	مؤتمر مدريد حول مراكش	
١٨٨٠ ـ ١٨٨١		مشكلة الديون العثمانية
١٨٨١		فرنسة تحتل تونس
		فرنسة تحصل على احتكار التبغ العثماني
١٨٨٢		بريطانية تحتل القاهرة.
١٨٨٣		موت عبد القادر (٢٦ أيار ـ مايو).

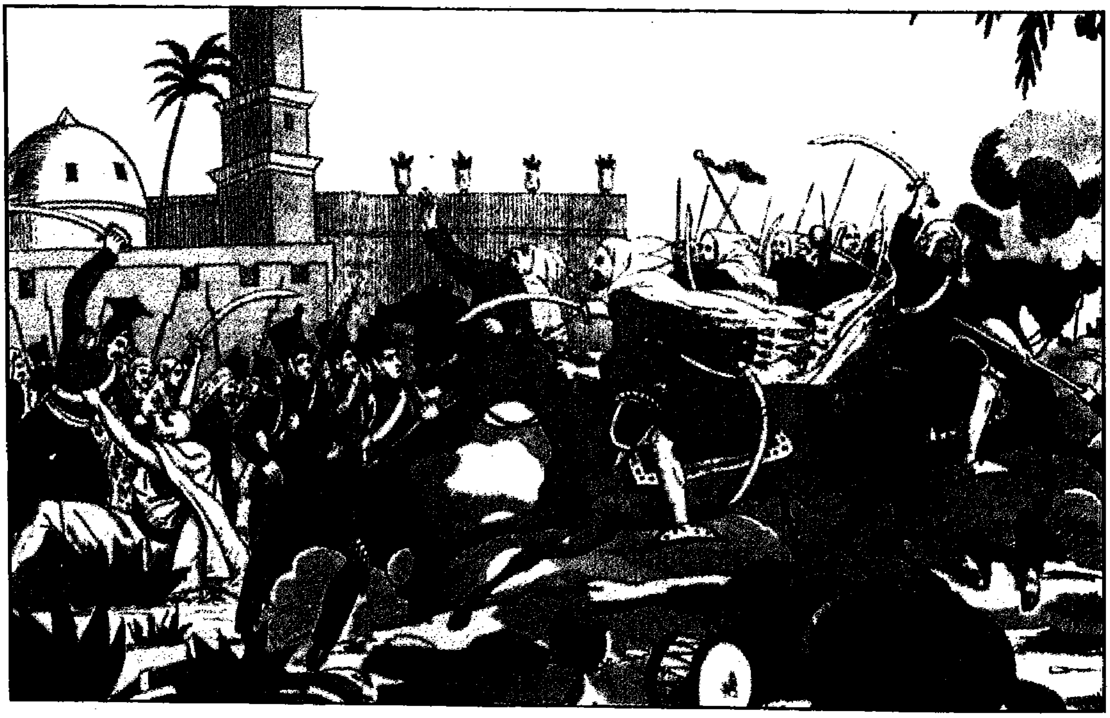
مقاومة عبد القادر للاستعمار الفرنسي



أول عاصمة لعبد القادر □	المقاومة بعد معاهدة تفنا ٣٠ أيار ١٨٣٧	معسكر تراجع عبد القادر ▲
مناطق منضمّة لعبد القادر، ١٨٣-١٨٣٥	اتساع المناطق الموالية لعبد القادر	آخر معارك عبد القادر ١٨٤٥ - ١٨٤٦
ثاني عاصمة لعبد القادر ■	مدن مدمرة من قبل بوجو خلال الحرب الشاملة	حركة جيش عبد القادر

الاستيلاء على معسكر، تشرين الثاني - نوفمبر ١٨٣٥

صورة مرسومة في العام ١٨٣٥



قادة عرب: صورة مرسومة بين عامي

١٨٥٢ ـ ١٨٥٨



الخليفة بن سالم



مصطفى بن التهامي



عبد القادر



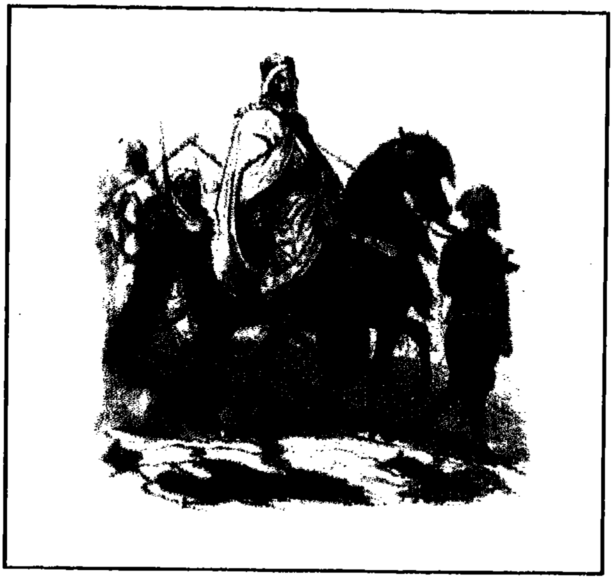
بو معزة شريف

هوراس فرنه: حصار القنسطنطينة من قبل دومرمان

١٠ تشرين الأول . أوكتوبر ١٨٣٧



لوحة زيتية (٥,١٢ X ٥,١٨ م) ١٨٣٨. صالون ١٨٣٩



عبد القادر على جواد: صورة عن رسم لفيليبوتو - باريس - المكتبة الوطنية



الاستيلاء على زمالة - صورة عن لوحة لبلانجه



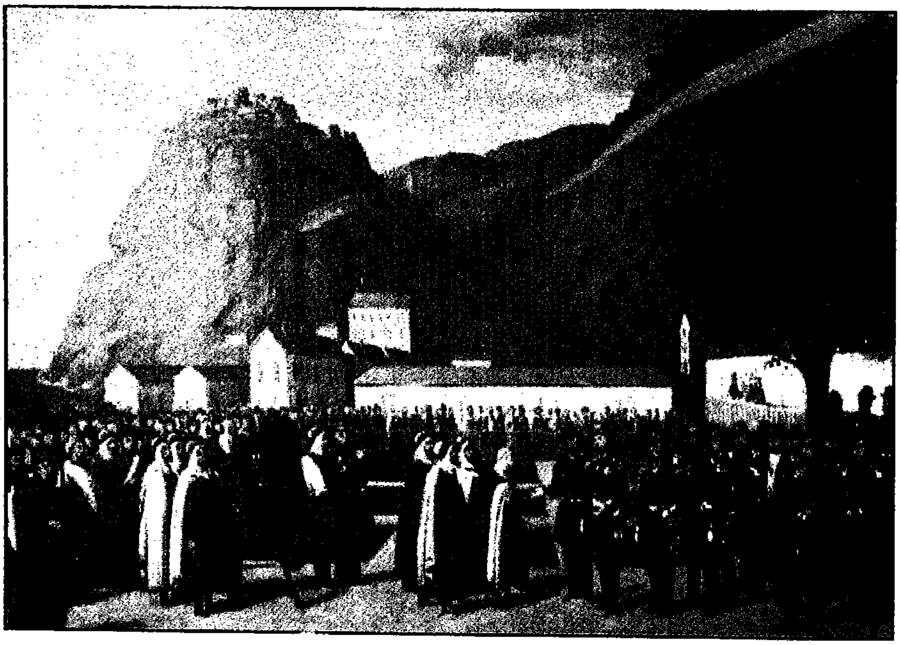
تيودور شاسريو: معركة فرسان عرب
لوحة زيتية (٠,٦٥ X ٠,٥٤ م) باريس - متحف اللوفر

أوجين دلاكرو: خيول عربية تجمح في اسطبل

لوحة زيتية (٠,٦٤٥ X ٠,٨١٠ م) ١٨٦٠ - باريس متحف اللوفر

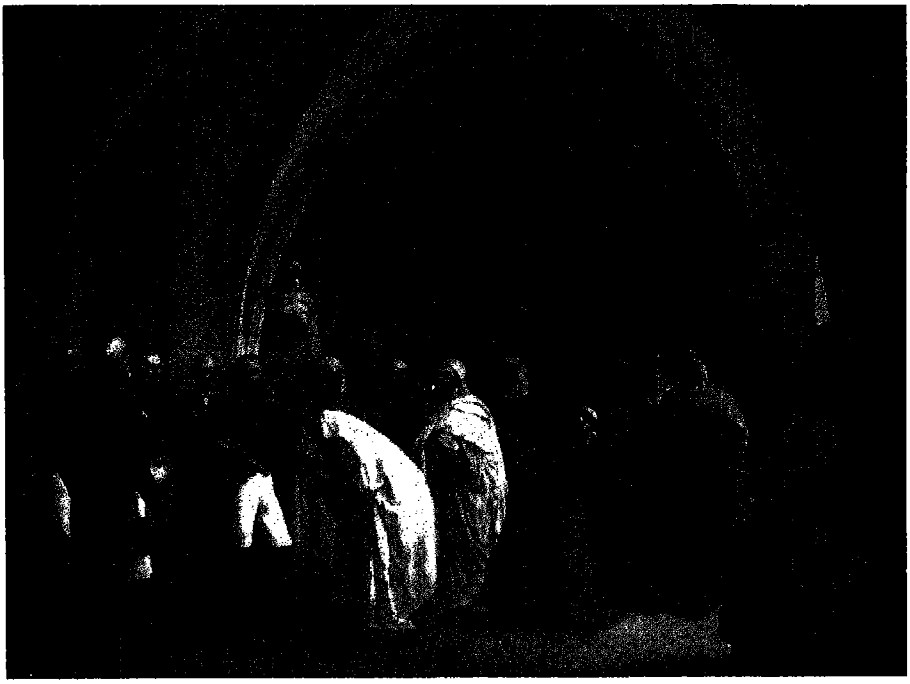


قال النبي ﷺ: «عندما لا يتمكّن شخص من أداء فروضه الدينية، فليعتن بجواد تقرّباً من الله، فتُغفر له ذنوبه».



أوغستن رجيس: استسلام عبد القادر ٢٣ كانون الأول - ديسمبر ١٨٤٧
لوحة زيتية: شانتيي - متحف كوند

آنج تيسيير: البرنس الرئيس يمنح الأمير عبد القادر حريته في قصر امبواز
في ١٦ تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٨٥٢





لوحة زيتية (٣,٥٠ X ٠,٦٥ م) ١٨٦١ صالون ١٨٦٧
فرساي ـ المتحف الوطني في القصر



استقبال عبد القادر
في قصر سان كلو.
صورة منقولة عن رسم
فيليبوتو ١٨٥٢



عائلة عبد القادر ـ صورة لفالنتين ١٨٥٣



عبد القادر ينظّم الدفاع عن المسيحيين ومساعدتهم في دمشق، طباعة حجرية ملوّنة، ايفال ١٨٦٠، باريس، المكتبة الوطنية.

عبد القادر وعلى يساره الجنرال ماك ـ ماهون، رئيس الجمهورية المقبل ـ صورة ١٨٦٧.

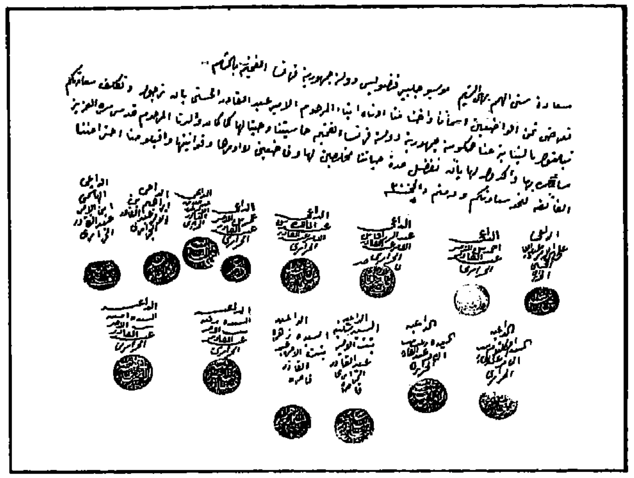


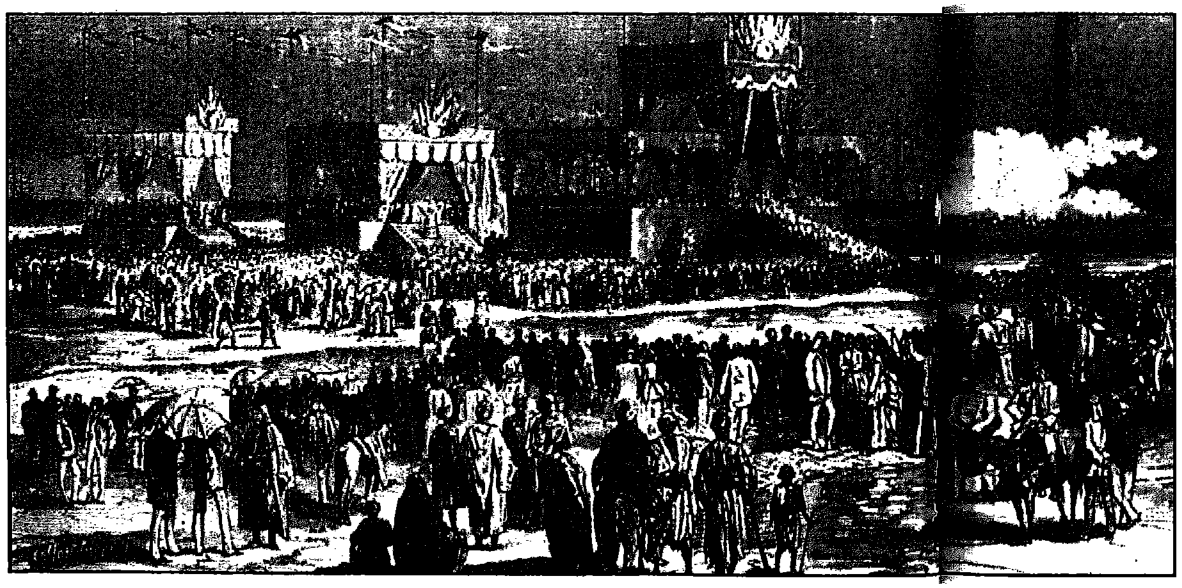


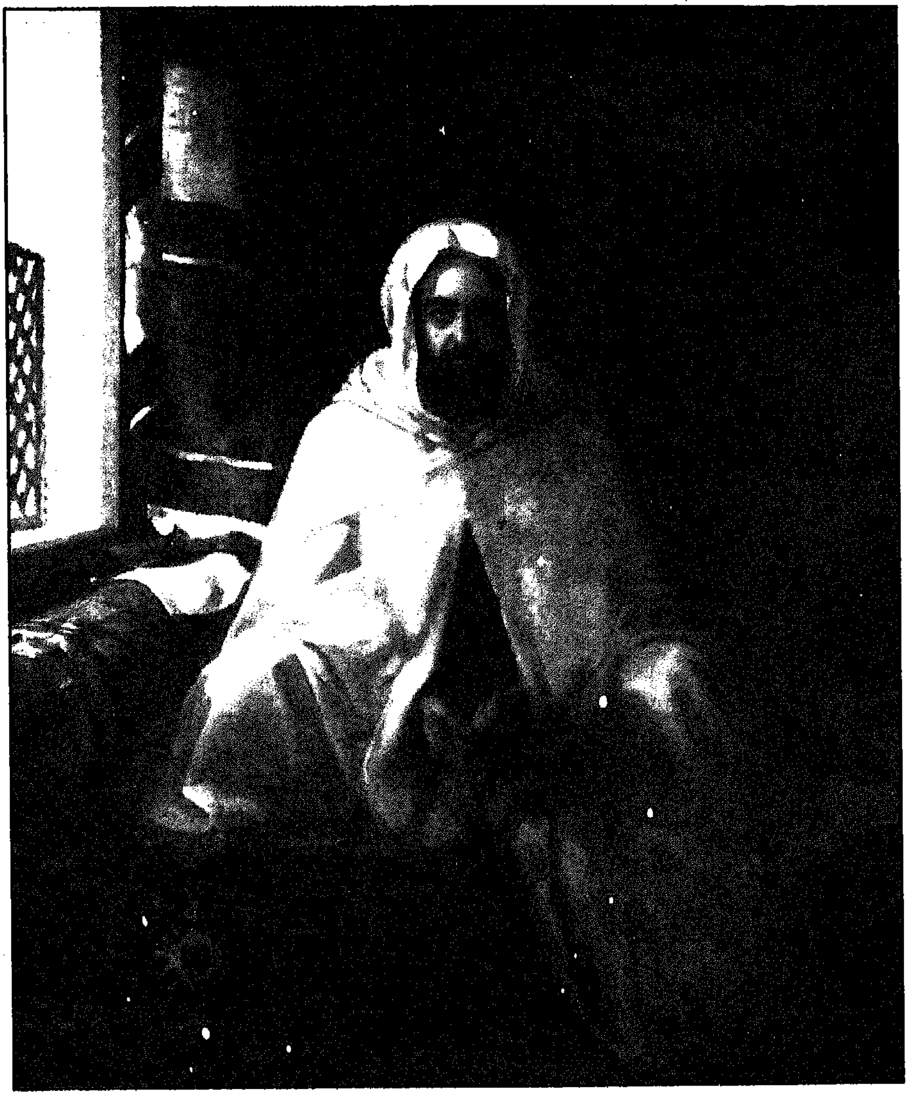
صورة عبد القادر بالزيت على لوحة ـ نحو العام ١٨٦٨
باريس ـ متحف الشرق الكبير

افتتاح قناة السويس: صلاة الشكر ترفع في بور سعيد
بحضور امبراطور النمسه وامبراطورة الفرنسيين.

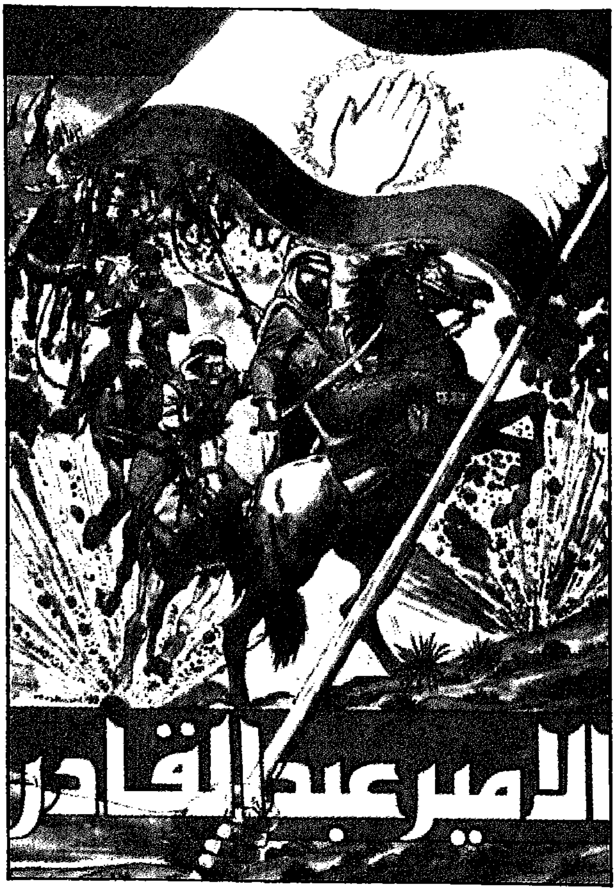
مخطوطة الصك الذي كتبه
أبناء الأمير عبد القادر الجزائري
بعد وفاته، معلنين ولاءهم
لفرنسه (وهو محفوظ في
ملفات وزارة الشؤون الخارجية
الصندوق ٢٨٣ ـ ٢٨٤).



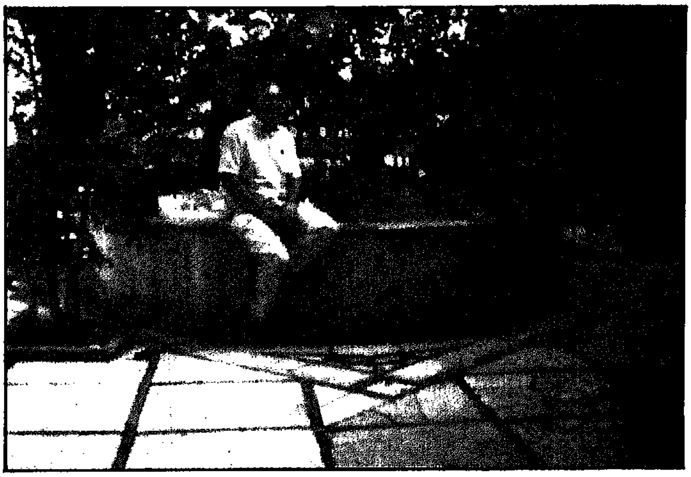




ستانيسلاس فون شلبوسكي
لوحة (٢,١٦ X ١,٧٤ م) شانتيي - متحف كوند



أحمد بو هلال: عبد القادر، شريط مرسوم، مدينة الجزائر



برونو أتيين في منزل عبد القادر في دمشق (شارع النقيب)

الأمير عبد القادر (١٨٠٨-١٨٨٣) أحد شخصيات القرن التاسع عشر الفريدة، لأنه كان مفتاح كل المغامرة الاستعمارية في الجزائر والشرق الأدنى، منذ مقاومته لبوجو حتى تدشين قناة السويس. وقد ذاع صيته في باريس كلّها، وغدا الموضوع الممتع لرسوم الإبينال؛ ثم نسي خلال المرحلة التي وطدت فيها فرنسة سيادتها في الجزائر؛ وعاد الآن ليرسم مجدداً على الأشرطة المسلسلة كبطل في نظر الناشئة الجزائرية.

لا يمكن لهذا التصوير ان يحجب الحقيقة الاستثنائية للشخصية: كيف أمكن لهذا المرابط الصغير ان يبتكر الدولة الحديثة، وأن يتمتع بحماية نابوليون الثالث وصداقته، ويغدو الصديق الأثير لفرديناند دي لسبس عدا عن تميزه كفارس مغوار، وشاعر عاشق غزل، وهو في الوقت ذاته الصوفي الكبير في العصر الإسلامي الحديث؟

إنه يجيب بنفسه عن هذا التساؤل بالقول: إن الله تعالى، كلّفه بكل بساطة خلال سجنه الاحترازي في امبواز بمهمة تطعيم فرنسة بروحانيته لتطعّم فرنسة بدورها الشرق بتقانتها.

هذه السيرة الذاتية المبتكرة، الغنية والحية، على نحو استثنائي بتعدّد والوثائق، هي نتيجة ابحاث دامت عشر سنوات وهي تعرض مسيرة مساريّة تقودنا الى التعمق في فكر اكبر متصوف عربي في القرن الماضي. وهي ايضاً سيرة ذاتية شخصية لأنها ثمرة حوار متخيل بين برونو إتيين وعبد القادر.

برونو إتيين: أستاذ العلوم السياسية، ومدير المرصد الديني في معهد الدراسات السياسية في إكس - ان - بروفنس. وقد كتب، منذ أطروحته: «الأوروبيون واستقلال الجزائر (١٩٦٥)، عدداً كبيراً من المؤلفات منها: الجزائر، الثقافات والثورة (منشورات LE SEUIL ١٩٧٦) والإسلام المحافظ (نشر HACHETTE ١٩٨٧) وفرنسة والإسلام (نشر HACHETTE ١٩٨٩)، ولقد دمّروا بلاد الرافدين (نشر ESHEL ١٩٩١)، وهي مؤلفات تجعل منه اختصاصياً بارزاً في شؤون العالم العربي.